الحائز
جائزة نوبل
للآداب

رِوَايَة

غَاو شينغجيان

جبل الروح

ترجمة:
بسّام حجّار
و
ماري طوق



نبذة عن المؤلف:



لـمحة عن المؤلف غاو شينغجيان:

وُلـد في الصين عـام ١٩٤٠ في إقـلـيـم جاونكشي. نال إجازةً في اللغة الفرنسيّة عام ١٩٦٢. تَرجمَ إلى اللغة الصينيّة مؤلَّفات يونسكو، وبريڤير، وميشو. إبّان الثورة الثقافيّة أمضى ستَّ سنوات في معسكر إعادة تأهيل، واضطُرّ آنذاك إلى إحراق حقيبةٍ أخفى فيها مخطوطاتٍ أدبيَّةً عدّة. أقام شينغجيان في فرنسا لاجئًا سياسيًّا منذ العام ١٩٨٨. في العام ٢٠٠٠، نـال جـائزةَ نوبل، وهـو أوّل كاتب صيـنـيّ يفوز بهذه الجائزة عن أعماله الأدبيّة المتّسمة بطابعٍ عالميّ ووعيٍ جادٍّ بالتجديد اللغويّ.

وشـيـنـغـجـيـان فنّان تشكيليّ ومخرج سينمائيّ أيضًا. له أعمال فنيّة تصويريّة وأفلام، منها: بعد الطوفان (٢٠٠٨).
ولـه مسـرحـيـات شـهيرة مثل: الضفة الأخرى (١٩٨٦) والمسرنم (١٩٩٥)، **وقصص قصيرة بـعـنـوان:** قصبةُ صيدٍ لجدّي.

غاو شينغجيان

جبل الروح

ترجمة: بسّام حجّار
ماري طوق

كلمة
KALIMA

دار الآداب

جبل الروح

تأليف / غاو شينغجيان

ISBN: 978-9953-89-132-3

الطبعة الأولى: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

ص.ب. ٢٣٨٠ أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: ٨ ٦٣١٤٤٦ ٢ ٩٧١+

فاكس: ٢ ٦٣١٤٤٦ ٢ ٩٧١+ www.kalima.ae

دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان، ساقية الجنزير ـ بناية بيهم ص. ب. ٤١٢٣ ـ ١١

هاتف: ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١+ ٧٩٥١٣٥ ١ ٩٦١+ فاكس ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١ +

e-mail:d_aladab@cyberia.net.lb

هذه هي الترجمة العربية لكتاب: La Montagne de l'âme

مقدّمة

لقد أتاح مسعًى خجول لإضفاء بعض الليبراليّة على السياسة الرسميّة الصينيّة، لبعض الكتّاب الصينيّين، في أواخر السبعينيّات، ـــ أتاح لهم أن ينصرفوا مجدّدًا إلى الكتابة، لا لخدمة الحزب، هذه المرّة، وإنّما، ببساطة، للتعبير عن أنفسهم كبشر، وعليه أُطلقت عشرات المجلاّت الأدبيّة ونُشِرَ فيها ما لا يُحصى من النصوص من أنواعٍ وأحجام مختلفة. تحقيقات صحافيّة وقصص قصيرة وقصائد وروايات ومسرحيّات وسيناريوات أفلام، استُخدمت جميعها لإطلاق صرخة واحدة ضدّ محاولة التدمير الكامل للإنسان والثقافة، والتي كانت قد شهدتها الصين إبّان «ثورتها» الثقافيّة المزعومة. طبعًا، حاول عدد من هؤلاء الكتّاب الرجوع إلى أسباب هذه الكارثة فجرّت عليهم استنتاجاتهم سهام النقد الرسميّ للحزب (الشيوعي الصيني) الذي كان مقيمًا على مراقبة عن كثبٍ لكلّ ما يُنتَج في هذا المجال. من بين أسماء كثيرة تميّزت أسماء بعينها حظيت ببعض الشهرة، ومنها: آ تشنغ، مو يان، كان شو، لو ونفو، ليو بينيام، تشانغ شِنشِن، وانغ منغ، هان شاوغونغ، وسواهم،

وسطع نجمهم في سماء الصين، كما ذاع صيتهم لدى ذوّاقة الأدب الشرقي خارجَ الصين.

كان لا بدّ لمقاربة المضمون أن تؤدّي إلى مقاربةٍ للشكل. فالصين لبثت زمنًا طويلاً جدًّا معزولة عن باقي العالم، حتى في مجال الإبداع الأدبي، فاكتشاف أعمال غارسيا ماركيز وسارتر وجويس وكافكا وكونديرا وغيرهم، في السبعينيّات، أحدث صدمة قويّة لدى الكتّاب الصينيّين. وقد لعب المترجمون والباحثون دورًا طليعيًّا على هذا الصعيد، ولكن إسهام هؤلاء في النقاش الأدبي كان أكبر، من دون شكّ، عندما جمعوا بين كونهم مترجمين وكتّابًا. تلك كانت حال غاو شينغجيان، المولود عام ١٩٤٠ في جيانغشي، والمُجاز في اللغة الفرنسيّة من «معهد اللغات الأجنبيّة في بكين»، وعاشق المسرح منذ صباه الباكر. منذ نهاية «الثورة الثقافيّة» درج على التعبير صراحة عن مفاهيمه المُجدِّدة، سواء في ميادين المسرح أو الأدب. ونظرًا لامتلاكه القدرة على قراءة بريفير وبيكيت ويونيسكو في لغتهم، وهم الذين ترجم أعمالهم للقارئ الصيني، استطاع، عامدًا، أن يعرّف معاصريه بكتّاب الحداثة الغربيّين وبأساليب إبداعهم في كتابه المُعَنْوَن: «**مبحث أوّل في فنّ الرواية الحديثة**». وكان للنقاش الحادّ حول «الحداثة» الذي أعقب صدور هذا الكتاب سنة ١٩٨١، أهمّيّة بالغة. غالبًا ما تُعتبَر سنة ١٩٨٥ سنة القمّة في مجال الإبداع الفنّي الصيني. وهذا صحيح، غير أنّها ما كانت لتغدو حاسمةً على هذا النحوِ إلاّ بسبب السجال حول «الحداثة» الذي سبقها.

غاو شينغجيان، المدافع الشغوف عن «الحداثة» في الأدب، دعا إلى تطوير أشكال جديدة: من قبيل تيّار الوعي، والتخلّي عن حبكة بعينها، واستخدام لغة وأسلوب خاليين من تأثير السياسة... وعقب اضطراره إبّان الثورة الثقافيّة إلى إتلاف مخطوطاته ومسرحيّاته ورواياته التي كان قد ألّفها من قبل، نشرَ بدءًا من العام ١٩٨٢ قصصًا قصيرة ونصوصًا مسرحيّة نذكر من بينها: **صفّارة إنذار، محطّة الحافلات، والرجل المتوحّش**... التي حاول أن يُفردَ فيها مكانةً محوريّة للّغة ولِـ «المَسْرَحة» المفضية إلى المُتخيَّل. سرعان ما حظرت عروض مسرحيّاته على خشبة «مسرح الفنّ» في بكين؛ فآثر مغادرة العاصمة مبتدئًا رحلة طويلة إلى مقاطعات الجنوب والجنوب الغربي، والتي أتاحت له، في وقت معًا، أن يقتفي آثار الصين ما قبل كونفوشيوس، وأن يستكشف المناظر على طبيعتها. وعلى هذا النحو أغنى تَحَرِّيَه التصويري وعمله الأدبي، كما أغنى تحرّياته الإتنولوجيّة والتاريخيّة. الحقيقة أنّ غاو شينغجيان هو، بلا ريب، أحد أكثر المؤلّفين انتقائيّة وغزارة في زماننا. مترجمٌ ومُنَظِّرٌ ومؤلّف مسرحي وروائي وشاعر، وهو رسّامٌ أيضًا. فهو المتشبّع بميراث التصوير الصيني بالحبر، يُجيدُ استخدام الريشة للتعبير عن أحاسيسه الحميميّة على هَديِ حُبيبات الورقة، وثبات الإيماءة وانسياب الماء.

إثرَ عدد من الرحلات قام بها إلى الخارج، استقرّ غاو شينغجيان في فرنسا منذ العام ١٩٨٨، وتمكّن من عرض مسرحيّاته بنجاح في كلّ من النمسا وإيطاليا، في ظلّ هامش أوسع من الحرّيّة لم يكن متوفّرًا له في الصين القاريّة، وإن جوبِهَ ببعض الصعوبات الماليّة نفسها التي يعاني منها جميع المؤلّفين المسرحيّين في الغرب. وقد أدّت أحداث العام ١٩٨٩

إلى القطيعة النهائيّة بينه وبين الحزب ونظام الحكم القائم في الصين. وفي السنة نفسها كان فراغه من تأليف روايته **جبل الروح** التي كان بدأ بكتابتها أثناء رحلته إلى مناطق الصين الداخليّة، وصرّح أنّه، بفضل هذه الرواية، قد يكون «صفّى حساباته مع نوستالجيا مسقط الرأس». المنفى في نظرِه لا يشكّل معاناة؛ لا بل على العكس، إنّه يُتيح له أن يكون على صلة مباشرة مع هذا العالم الثقافي الغربي الذي كان هو قد عرّف الصين إلى تيّاراته الكبرى. ونظرًا لرفضه مبدأ الانتظار ريثما تشهد بلاده أيّامًا أفضل، دعا غاو إلى هروبٍ فاعل، وتابع عمله الإبداعي على أحسن الوجوه. وبعد أن تُرجمَت أعماله ونالت استحسانًا في السويد، تجرّأ على مغامرة الكتابة مباشرةً بالفرنسيّة، فكانت باكورة هذه المغامرة مسرحيّته **على قارعة الحياة** التي أخرج عرضها ضمن عروض «مهرجان أفينيون»، المسرحيّ ألان تيمار، وأقنَعَت عددًا من المهتمّين في هذا المجال.

إنّ رواية **جبل الروح** تجسّد عملاً فريدًا في المشهد الأدبيّ المعاصر. فهي، في وقتٍ معًا، رحلةٌ صميميّة، وحوار بين شخصيّات يُعرّف عنها بـــ «أنا» و«أنت» و«هو»، أو «هي»، (ولا أثرَ للـــ «نحن» التي تُشير إلى الجمهور أو الجماهير، التي توقظ، بلا ريبٍ، كثيرًا من الذكريات غير المستحبّة...)، واستحضار لمناظر الصين وغاباتها العذراء إلى اليوم، وتشخيصٌ لعذابات الغرام، أو مجرّد وصف لهنيهة من المتعة مصدرها الصداقة أو تأمّل نهر، وحكاية شطّاريّة كلاسيكيّة رائعة، واستدعاءٌ للواقع العَدميّ أو الكافكاوي المعاصر، وتبصّرٌ في الفنّ الروائي، ومع ذلك، فإنّ هذه الرواية ما كانت لترقى إلى مستوىً مماثل من الإبداع من غير اللغة التي تضمّ أطرافَ مسكتِها: لغة عصريّة، ذات

جرسٍ، خالية من التكلّف والغموض، ولا «شوبَ» فيها على الإطلاق إذا ما تُليَت تلاوةً. إنّ تجربة المسرح تلعب دورًا مهمًّا في كتابة غاو شينغجيان: لقد اعتاد خَلقَ المسافة بين الراوي والقارئ عبر تكراره إلى ما لانهاية عبارة «تقول...»، والتي نعثر عليها أيضًا في نصوصه المسرحيّة. إذا كان الـ «أنا» هو آخر، كما قيلَ ويُقال، فإنّ الـ «أنا» لدى غاو شينغجيان يستحيل «أنت»، يستحيلُ صوتًا صميميًّا حَيًّا، ومقيمًا على مسافة، ولذا يكون شاملاً. عندما يسعى الـ «أنا» وراء استيهاماته لكي تغدو حقيقة واقعةً، ينوبُ «أنتَ» عن الراوي.

أيكون **جبل الروح** هذا، الوارد ذكره في الأساطير الصينيّة، وهو اسم مكان غير مؤكّد وجوده على الخريطة الصينيّة، هو رحلة سعيٍ وراء الجمال والمعرفة المطلقة، واعترافات لها صلة بالسيرة الذاتيّة، أم يكون هو الرواية في حدّ ذاتها، رواية مستحيلة لأنّها خارج المعايير الروائيّة السائدة، سواء في الشرق أو في الغرب؟ ولعلّ العبارة الختاميّة في الرواية التي تقول: «في الحقيقة، إنّي لا أفهم شيئًا، لا أفهم شيئًا على الإطلاق. هكذا الأمر، لا أكثر»، تظهر على نحوٍ قاطع أنّ الإجابةَ بعيدة المنال.

نويل دوترِه

لقد عمد المؤلّف إلى مراجعة الترجمة الفرنسيّة لـ «**جبل الروح**» بنفسِه، ما أتاح لعمل المترجمين (نويل وليليان دوترِه) على اللغة أن يكون مُثمرًا جدًّا. يُذكَر أنّ الرواية صدرت في ترجمة سويديّة على أن تتبعها، قريبًا، ترجمتان إلى الإنكليزيّة والألمانيّة.

«الأثر الزائل هو الطريق»

أذكر، قبل وفاة بسّام حجّار بثلاثة أشهر، اتّصلت به لأنّ عبَارة استعصت عليّ في كتاب كنت أعمل على ترجمته، كان صوته آخر ما تراءى لي منه، كان حزينًا وحارقًا في آن. لم يمهله الموت، ولم يستطع أن ينجز من هذا الكتاب إلاّ مئة وعشرين صفحة. لا أعرف، أنتهزها فرصة كي أرثيه وأرثي ما فقده الأدب وما فقدته الترجمة والذائقة الثقافيّة بغيابه. أقول إنّه من بين الذين نمّوا حساسيّة جيل بكامله. كنت أودّ لو تعاونت معه في حياته (كيف لم أفكّر في ذلك من قبل!)، لكن ربّما كان هذا التعاون في مماته اتّصال من نوع آخر، لأنّ طيفه كان حاضرًا دومًا.

وقد ذكّرني **جبل الروح** بمقطع من كتابه **كتاب الرمل**:

«أسأل الرجل الذي صادفته في حلم الرجل الآخر: إن سلكتُ إسفلت هذه الطريق، هل أصل؟

يقول: إلى أين؟

أقول: لا أدري، ولكن هل أصل؟

يقول: لم أدر من قبل أنّ طريقًا قد تفضي إلى هناك.

ويقول: ربّما قلبك هو الطريق».

الفصل الأوّل

ركبتَ حافلةً للمسافات البعيدة. ومنذ الصباح سارَ الباص القديمُ المتقاعدُ من خدمته في المدن، اثنتي عشرة ساعة من دون توقّف، مُرتجًّا على الطرقات الجبليّة غير المصونة، المليئة بالحَدَبات والحُفَر، قبل أن يصل إلى هذه البلدة الصغيرة في الجنوب.

حقيبة على الظهر وحافظة صغيرة باليد، تُنقِّل بصركَ في أرجاء الموقفِ حيث تجمّعت أغلفة المثلّجات وفضلات قصب السكّر الممضوغ.

رجالٌ محمّلون بحقائب من كلّ الأحجام، ونساء حاضنات رُضّعهنّ بين الأذرع، يترجّلون من الباص، أو يجتازون الموقفَ فيما نَفَرٌ من الشبّان، من غير حقائب أو قفف، يتناولون من كيس صغير بزورَ دوّار الشمس التي يرشقونها واحدة تلو الأخرى إلى أفواههم، ثم يلفظون قشورها على الفور. يأكلون برشاقةٍ مُطلقين ما يشبه الصفير، بلباقةٍ وطلاقة يختصّ بهما أسلوب عيشهم المحلّي. هنا مسقط رأسهم فلا ما يدعوهم إلى عدم العيش بحريّة تامّة، جذورهم انغرست في هذا التراب من جيل إلى جيل. ولا جدوى من مجيئك أنتَ من بعيدٍ بحثًا عن جذورٍ لكَ فيه بدلاً منهم. ولكنْ، لِمَن رحلوا عن هذا المكان منذ زمن بعيد، لم

تكن محطّة النقل البرّي قد وُجدِت بعدُ، ولا هذه الحافلات. كان عليهم، إذا أرادوا الانتقال عبر النهر، أن يركبوا زورقًا مغطّى ببُسُطٍ من القصب، وإذا أرادوا أن ينتقلوا برًّا كان عليهم أن يستأجروا نقّالةً بعجلتين. أمّا الفقير المُعدَم فلم يكن أمامه إلاّ ركوبَ نَعلَيْه. اليوم يتنافس جميع من لبثوا على قيد الحياة على العودةِ إلى الديار، حتى من الضفّة المقابلة للمحيط الهادئ، مستقلّين السيّارات الصغيرة الخاصّة أو سيّارات فارهة مزوّدة بمكيّفات. بعضهم جَمَع ثروة، والبعض أحرز شهرةً، وآخرون لبثوا نَكِرات، ولكنْ جميعهم يعودون بسبب تقدّمهم في السنّ. فمَن ذا الذي ينجو منّا في آخرِ العمر من هذا الحنين؟ أولئك الذين لم تراودهم يومًا أحلام الرحيل عن المكان، يتسكّعونَ بتلقائيّة، متخطّرينَ، متضاحكينَ، متكلّمينَ بصوتٍ مسموعٍ من دون حَرَج. نبراتهم عذبةٌ ألوفةٌ ومؤثّرةٌ إن شئنا المغالاة في وصفها. عندما يلتقي اثنان بينهما معرفة سابقة لا يتبادلان، كما هي الحال في المدن، عبارات المجاملة الفارغة مُطأْطِئَيْن الرأس أو مُصافحين. بل تراهما يتناديان باسْمَيْهما أحيانًا، وأحيانًا أخرى يربّتُ أحدهما كتفَ الآخر بحرارة، أو يؤثران تبادلَ العِناقَ، فالعناقُ ليس حكرًا على النساء هنا، وإنّما عادة الرجال. بقرب حوض الإسمنتِ المخصّص لغسل الباصات تقفُ امرأتان شابّتان. تثرثران من دون توقّف، وتمسك إحداهما بيد الأخرى. يبدو حديث النساء في هذا البلد على قدرٍ من الحَذْلَقةِ فلا تقدرُ إلاّ أن تُلقيَ نظرةً. من الخلفِ تبدو عَمرتهما المشغولة من نسيجٍ أزرق مزركش متوارث من جيل إلى جيل، والطريقة التي ثبّتتا بها على الرأس، على قدرٍ كبير من فرادة الذوق. من غير قصد، تقترب منهما. العَمرةُ معقودة تحت الذقن،

على هيئة مثلّث، مبرزةً حُسنَ وجهين لَطيفَي القسمات متناسقين مع رشاقة القامتين. تمرّ بلصقهما. يداهما اللتان ما زالتا متشابكتين وتشوبهما الحمرة ذاتها، خشنتان بمقدارٍ، ناتئتا البراجِم. عروسان من دون شكّ قَدِمتا لزيارة صَحبٍ أو أقارب. مع أنّ صفة «العروس» هنا لا تعني إلاّ امرأة ابنها. ولو استخدمنا الصفة على غرار استخدامها من قبل أفظاظ الشمال للتدليل على أيّة شابّة تزوّجت حديثًا، لَنِلنا من الشتائم ما يُغنينا. فما إن تتزوّج الفتاة هنا حتى تطلق على زوجها صفة «العجوز»، سواء كان القصد أن تقول «زوجي» أو «زوجك». الناس هنا لهم مفرداتهم الخاصّة وإن كانوا جميعًا صينيّين متحدّرين من سلالة الأباطرة المؤسّسين، مُنتمين إلى العرق ذاته وورثة الثقافة عينها.

أنتَ نفسك لا تدري حقًّا لماذا جئتَ إلى هنا. كانت محض مصادفة أنّك سمعت أحدهم في القطار يتكلّم على مكان يُسمّى لينغشان، جبل الروح. كان الرجل جالسًا قبالتك، وطاسُ شايِكَ لِصقَ طاسِ شايِه، واهتزازُ عربة القطار يجعلهما يطقطقان. وكان ربّما من حسن الحظّ أن يواصلا الطقطقة أو أن يكفّا في غضون هنيهةٍ، لكنّ المصادفة شاءت أن تسارع أنتَ، وأن يسارعَ هو في الوقت نفسه، قُبيل ارتطام الغطاءين، إلى الفصلِ بينهما، فكفّت الطقطقة للتوّ. ولكنّ الطقطقة عاودت بُعَيدَ انصرافكما عنها. قرّبتما إصبعيكما منهما فتوقّف الصوت. ضحكتما كلٌّ بمفرده، واكتفيتما بإزاحة الغطاء قليلاً عن فمِ الطاس وباشرتما الحديث. سألته إلى أين وجهته.

ــ إلى لينغشان.

ــ ماذا؟

ــ لينغشان، جبل الروح.

أنتَ أيضًا جبتَ أنحاء الصين من شمالها إلى جنوبها، وزرتَ عددًا من الجبال الذائعة، ومع ذلك، لم تسمع من قبل بهذا المكان.

قُبالتك، أغمض رفيقُ دربك عينيه قليلاً، طلبًا لبعض الراحة. من الطبيعيّ أن يدفعك فضولُكَ غير المُستهجَن بأيّة حال إلى التساؤل، في سرّك، عمّا لا تعرفه بَعدُ من المواقع الطبيعيّة المشهورة. وغرورُكَ لا يسمح لك الإذعان لحقيقة وجود مكان لم تسمع به من قبل. لذا تسأله أين يقع لينغشان.

ــ عند منبع نهر « يو»، يُجيبُ فاتحًا عينيه.

أين يقع نهر «يو» هذا، أنتَ لا تدري طبعًا، لكنّك لا تجرؤ على السؤال. تكتفي بأن تهزّ رأسك، الأمر الذي قد يفسَّر بمعنيين: «أجل، شكرًا» أو «بلى، طبعًا، أعرف المكان». وبذلك تكون قد أشبعتَ غرورك، وأبقيتَ فضولك مستعرًا على حاله. بمضيّ هنيهات، تقرّر أخيرًا أن تسأل كيف السبيل إليه، وكيف يسعك بلوغ هذا الجبل.

ــ يسعك ركوب الباص حتى بلدة «ووبي»، ثم تستقلّ زورقًا صُعُدًا بعكس مجرى النهر.

ــ ماذا يوجد هناك؟ هل مِن مناظر طبيعيّة، من معابد؟ هل من آثار؟ تسأل متظاهرًا باللامبالاة.

ــ هناك كلّ شيء باق على حاله الأصليّة.

ـ أهناك غابات عذراء؟

ـ طبعًا، ولكن ليس هذا فقط.

ـ أهناك أناس متوحشّون أيضًا؟ تقول مازِحًا.

يضحك، ولكن من غير سخرية، الأمر الذي يُثير المزيد من فضولك. يجب أن تعرف مَن يكون هذا الرفيق الجالس قبالتك.

ـ هل تدرس علم البيئة؟ أم أنّك عالم بيولوجيا؟ هل أنت باحث في علمي الإحاثة والإناسة أم عالم أثريّات؟

ـ لا، بل قُل إنّي مهتمّ خصوصًا بالأحياء، يقول نافيًا بحركة من رأسه ما عدّدته من مجالات اختصاص.

ـ هل تجري أبحاثًا على التقاليد الشعبيّة؟ عالم اجتماع؟ مختصّ بالفولكلور؟ عالم أعراق؟ أو الأحرى صحافي؟ رحّالة مغامر؟

ـ أنا جميع هذه الأمور، ولكن بوصفي هاويًا.

ضحكتما سويًا.

ـ ولا يحول ذلك دون أن نمضي أوقاتًا ممتعة!

وضحكتما مجدّدًا من القلب. أشعل سيجارة وما لبث أن أدار عجلة هذرِه، ساردًا كلّ أنواع الأعاجيب بشأن لينغشان. ثمّ، نزولاً عند رغبتِك، مزّق علبة سجائر فارغة ورسم خارطة الطريق التي ينبغي لقاصدِ المكان أن يسلكها.

في الشمال ما زال الخريفُ في عزّه. أمّا هنا فحرّ الصيف ما زال على حاله. وقبل أن تغيب وراء الجبال تحفظ الشمسُ كلّ طاقتها، وإذا ما لَفَحت الجسم سال العَرَقُ من أعلى ظهر المرء إلى أسفلِه. تغادر محطّة الحافلات، وتُجيل أبصارك في الجوار. لا تجد أمامك سوى نُزلٍ صغير من طبقة واحدة، عتيق الطرز ذي واجهةٍ من الخَشب. الألواح تحدث صريرًا عندما تمشي على الأرضيّة، غير أنّ الأسوأ من هذا كلّه هو الوسائد والبُسُط المائلة إلى سوادٍ دَبِق. لكي تغتسل عليك أن تنتظر حلول الليل فتخلع بنطالَك وترشّ جسمك بالماء بواسطة كَيلة في الفِناء المُلاصِق الضيّق والرطب. مكان استراحة عابرة لمن يجوبون الأرياف من تجّار وحرفيّين.

لن يهبط الليل قريبًا، وهناك متّسع من الوقت لكي تبحث عن فندقٍ أكثر نظافة. تجوب الشوارع، حاملاً حقيبتك على ظهرك، ظنًّا منكَ أنّك لا بدّ أن تجد علامة ما، لافتة ما في هذه البلدة كُتِبَت عليها كلمة لينغشان أو أيّ شيء من هذا القبيل قد يثبت لك أنّك لم تضلّ الطريق، وأنّك لم تقطع المسافة كلّها سُدىً. تتلفّت في جميع الأنحاء مدقّقًا، ولا تعثر على أثر. ليس بين المسافرين الذين نزلوا مثلك من الحافلة مَنْ يوحي بأنّه سائح. طبعًا حتى أنتَ لا توحي للناظر بأنّك سائح، ولكنّ مظهرك يختلف: حذاءٌ لتسلّق الجبالِ، خفيف ومتين، وحقيبة ظهر. طبعًا، المكان هنا ليس شبيهًا بتلك المواقع السياحيّة الذائعة التي يقصدها المتزوّجون حديثًا والمتقاعدون، والمجهّزة بكلّ ما تقتضيه السياحة حيث الحافلات مركونة في كلّ مكان، ويمكن شراء الكُتيّبات السياحيّة عند ناصية كلّ شارع، وتُعرَض في جميع الدكاكين قبّعات الكاسكِت والقمصان

والتيشرتات والمناديل الموسومة باسم المكان، وحيث الفنادق التي ينزل فيها أجانبُ يُنفقون العملات الأجنبيّة، ومراكز رعاية أو مراكز استجمام لا يمكن الدخول إليها إلاّ بموجب توصية مكتوبة، من غير أن نغفل طبعًا تلك النُزُل الصغيرة الخاصّة التي تتنافس على جذب الزبائن، وجميع لافتاتها من دون استثناء تحمل هذا الاسم المقدّس. لم يكن الغرض من قدومك إلى مثل هذا المكان تزجية الوقتِ ضمن مجموعة على درب تلّةٍ حيث يُراقبُ الناس بعضُهم بعضًا، ويتدافعون ويتجمّعون مُتلاصقينَ، ويرمون بلامبالاة أرضًا قشور البطيخ وقناني الأشربة الغازيّة الفارغة وعلب الطعام المحفوظ، والأوراق المتّسخة وأعقاب السجائر. ذات يوم سوف يغدو هذا المكان على مثل هذه الحال. كنت تحسب أنّك قدِمتَ إليه قبل أن تُبنى فيه أجنحة السكن الفاخرة، وأكشاك الباعة، ومقاهي الرصيف وأبراج المساكن غير المرتفعة، توّاقًا إلى الوقوف أمام نقش على قاعدة تمثال لأحد المشاهير أو أمام عدسة أحد الصحافيّين. وأنتَ نفسك لا تخفي سرورك بالأمر وإن ساورتك بعض الشكوك. في هذا الشارع لا أثر لما يجذب السيّاح، فهل خُدِعْتَ؟ لم تثق إلاّ بخطّة سير مرسومة على علبة سجائر مخفيّة في جيب سترتك، وبرفيق الدرب ذاك الذي التقيته صُدفةً على متن القطار. ولا شيء يؤكّد لك أنّه كان صادقًا في ما يقول. لم تقرأ شيئًا موثوقًا من أدب الرحلات بشأن المكان، وحتى الدليل السياحي الضخم الصادر حديثًا لا يتضمّن مدخلاً بهذا الاسم. طبعًا نجد الكثير من المواقع التي تحمل أسماء لينغتاي أو لينغكيو أو لينغيان أو حتى لينغشان إذا ما تصفّحنا أطلس الصين بحسب مقاطعاتها. كما لا يَخفى عليك أنّ ذكرَ موقع لينغشان واردٌ في العديد من المؤلّفات

والنصوص القديمة، بدءًا بـــ «كتاب البحار والجبال»، وهو مؤلّف في العبادات وفي السحر القديم، وصولاً إلى المصنّف القديم في الجغرافيا «شروح على كتاب الأنهار». حتى إنّ الـــ «بوذا» قد منح فيه الصحوة للموقّر **ماهاكاسيابا**. لستَ غبيًّا، يجب أن تُعمِلَ ذكاءك، ابحث أوّلاً عن هذه القرية التي تُدعى ووبي المذكورة على علبة السجائر وعن السبيل المفضي إلى لينغشان، **جبل الروح**.

تعود أدراجَك إلى محطّة الحافلات وتدلف إلى قاعة الانتظار، المكان الأكثر حيويّة في هذه البلدة الجبليّة الصغيرة، الذي تجده مقفرًا تمامًا في ساعةٍ مثل هذه. شبابيك بيع التذاكر والأمانات مسدودة بلوح خشب. تطرُقها، ولكن عبثًا. لم يبق أمامك إلاّ أن ترفع رأسك لكي تُحصي أسماء المحطّات، وكلّ اسم منها أجمل من سابقه، المدوّنة تباعًا عند أعلى الشبّاك: «قرية آل تشانغ»، «دكّان الرمل»، «مصنع الإسمنت»، «الفرن العتيق»، «حصان الذهب»، «عامٌ سعيد»، «فَيَضان»، «خليج التنّين»، «حوض أزهار البرقوق»... غير أنّ أيًّا منها لا يتطابقُ مع المكان الذي تبحث عنه. لا شكّ في أنّ الاتّجاهات والحافلات التي تنطلق من هذه القرية، برغم صغر حجمها، كثيرة. ففي يوم واحد قد ينطلق منها خمس حافلات أو ستّ، غير أنّ المؤكّد أيضًا هو أنّ خطّ «مصنع الإسمنت» ليس خطًّا سياحيًّا. أمّا الخطّ الذي يشهد العدد الأقلّ من الركّاب فلا يشهد إلاّ رحلة واحدة يوميًّا. لا بدّ أنّه المكان الأبعد من بين الأماكن النائية، غير أنّ ووبي، نفسها، تقع عند طرف الطرف. لا تلفت النظرَ، شبيهة بجميع أسماء القرى، من غير «روح» تميّزها. أمّا أنتَ، ومَثَلُكَ مَثَلُ الذي وجد أخيرًا طرف الخيط من شلّة

متشابكة كان فَقَدَ الأمل في العثور عليه، فقد هدأ روعك، إنْ لم تستخفّه بهجةٌ عارمة. عليك أن تشتري تذكرتك قبل ساعة من انطلاق الحافلة. أنت تُدرك بالخبرة أنّه سيتعيّن عليك أن تخوض عراكًا فعليًّا لكي تستقلّ الباص على هذه الخطوط الجبليّة التي لا تسيَّر عليها إلاّ رحلة واحدة في اليوم، وأنّك إنْ لم تكن مُستعدًّا سلَفًا، سيتوجّب عليك أن تقفَ بالانتظار في صفّ طويل.

حتى الآن لم يزل لديك متّسع من الوقت، لكنّ حقيبة السفر تزداد ثقلاً على كتفيك. تسيرُ متسكّعًا في الأنحاء، والشاحنات المحمّلة بالخشب تكاد أن تلامس جنبَكَ مسرعةً بمنبّهاتها الزاعقة. تلاحظُ أنّ الشاحنات، من الأحجام كافّة، لا تكفّ عن إطلاق منبّهاتها وهي تسلك الطريق الضيّقة التي تخترق القرية. أمّا في الحافلات فيُبقي الجباةُ أذرعهم ممدودة من النافذة يطرقون الهيكل الخارجي باستمرار، مُضيفينَ بذلك إلى صخب الشارعِ صخبًا، غير أنّها وسيلتهم الوحيدة لتنبيه المارّة إلى ضرورة التنحّي جانبًا.

جميع المنازل القديمة على جانبي الشارع لها واجهاتٌ من خشب. تُجعَل الطبقة الأرضيّة دكّانًا للبيع والشراء، والطبقة العليا مكانًا لنشر الغسيل: من حفاضات الأطفال إلى صدريّات النساء، ومن الكلاسين المرقّعة إلى الشراشف ذات النقوش المزهرة، تتدلّى وسط الغبار وضجيج السيّارات، كأنّها رايات بلدان من العالم أجمع. إلى جانب الطريق، على أعمدة إسمنتيّة عُلِّقَت، في مَرمَى البصَر، شتّى أنواع اللافتات الإعلانيّة. تلفتك إحداها التي تروّج لمُنتَج يُزيل الروائح المنبعثة

من تحت الإبطين. وليس السبب لأنّك تعاني من هذا المرض، بل يلفتك الابتكار في ديباجته. فبعد عبارة «صنّة»، يرد شرحٌ بين قوسين:

(الصِنّة وهي تُعرَفُ أيضًا برائحةِ المخلّدين' هي مرض كريه يُسبّب رائحة منفّرة. وبسبب هذا المرض يضطرّ كثيرون إلى تأخير زواجهم أو يواجهون صعوبات في عقد الصداقات. وغالبًا ما يعاني شبّان وشابّات، وقد حال المرض دون إيجادهم عملاً أو دون التحاقهم بالجيش، أشدّ المعاناة من تبعاته من غير أن يجدوا حلاًّ. أمّا الآن فقد صار بالإمكان، وبفضل مُنتَج صناعي جديد، إزالة الرائحة الكريهة. نضمن فعاليّة بنسبة ٩٧,٥ في المئة. لأجل حياة هنيئة وسعادة مستقبليّة، اقصدونا لتلقّي العلاج عندنا...).

ثمّ تبلغ جسرًا حَجَريًّا. ما من رائحة كريهة. نسيمٌ عذبٌ يهبّ خفيفًا، منعِشًا ومُستحبًّا. الجسر الحَجَرُ يعلو نهرًا عريضًا. مع أنّ طريق الشارع مزفّت، لن يجد الناظرُ صعوبةً في تبيان النقوش القديمة لأسودٍ على الأعمدة المحزّزة. لا بدّ أنّه قديم جدًّا. متّكئًا إلى إفريز الحجر المدعّم بالإسمنت، تستغرق في تأمّل شطري هذه البلدة اللذين يصل بينهما الجسر. من الجهتين ما لا يُحصى من سطوح الآجرّ الأسود مُصطفّةً، على مدى البصر، في صفوف متراصّة. بين الجبال مُنفرَجُ وادٍ حيث حقول الأرزّ التِبريّة الصُفرةِ تترصّعُ، هنا وهناك، بغابات القصب الخضراء. تجري مياه النهرِ رقراقة الزُرقة، متهاديةً بين ضفّتي مجراها الرمليّتين، فإذا بَلَغَت دعامات الجسرِ التي مِن حجرٍ منحوت افترقت روافدَ وازدادت عمقًا، ودكَنت مائلةً إلى خضرةٍ غامقة. وما إن تعبر

قوس الجسر حتى تضجّ هادرةً ويتشكّل زبدٌ أبيض على صفحة دوّاماتها المتسارعة. خلّفت المياه مِعلَمها على مستويات مختلفة من سدّ الحجر الذي يزيد علوّه على العشرة أمتار. وأحدثها المائل إلى صفرة كابية، يرقى إلى فيضان الصيف الأخير. أيُعقَل أن يكون هذا هو نهر يو؟ وهل ينبع من لينغشان؟

الشمس موشكة على المغيب. نصف كرتها البادي أشبه بغطاء قِدرٍ برتقالي اللون. ما زال نوره ساطعًا، غير أنّه لا يُبهر الأبصار. تلتفت نحو المكان الذي تلتقي فيه جنبتا الوادي، هناك حيث تتشابك القمم في كنفِ الضباب والغيوم. رويدًا رويدًا يقضم هذا المنظرُ المُخادع لعتمةٍ نابضة بالحياة النجمَ اللامعَ من الأسفل فيبدو مدوّمًا. وكلّما ازدادت الشمس احمرارًا، ازدادت عذوبةً وألقت بانعكاسات نورها المذهّبة على صفحة النهر. فتمازج الزرقةَ الداكنةَ الأشعّةُ المذهّبةُ في تموّج المياه وتدفّقها. كرة الأرجوان تفيض بالمزيد من السكون، غير أنّها في هبوطها إلى كنف الوادي تنمّ عن بعض إغواءٍ يشوب رصانتها. ثم هناك الأصوات. تسمع منها صوتًا لا تُدرك مصدره لكنّ صداه يتردّد في أعماق قلبك ويشيع تدريجًا، يختلجُ قليلاً، كالواقفِ على أصابع قدميه، وينسلّ مبتعدًا ويتبدّد في المنظر الجبليّ الحالِك، مالئًا سماوات ضبابة المغيب. ريح المساء تزعق في أذنيك كزعيق منبّهات السيّارات المتّصل. وإذ تعبر الجسر تطالعك عند طرفه لوحة حُفِرت حديثًا وعُلّمت حروف الكتابة عليها بالأحمر: **جسر يونغنينغ، شُيّد في السنة الثالثة من عهد كايوان من سلالة سونغ، وجرى ترميمه في العام ١٩٦٢. وثُبّتت**

هذه اللوحة في العام ١٩٨٣. هي ذي العلامة التي تبشّر ببداية عصر السياحة.

عند طرف الجسر يطالعك صفّان من المطاعم الحقيرة. ويسع المرء، في تلك القائمة إلى جهة اليسار، أن يأكل قصعةً من خثيرة جبن الصويا، هذا الصنف من جبن الصويا الطري اللذيذ والمتبّل بالبهارات الذي كان يُباع في الماضي في كلّ شارع وزقاق قبل أن يختفي لبعض الوقت، وقبل أن يُستأنف صنعه اليوم بفضل وصفة يرثها الأبناء عن الآباء. أمّا في صفّ المطاعم القائمة إلى جهة اليمين، فبوسعك أن تأكل طُلميَّتَين بالسمسم والبصل، ساخنتين توًّا من باب الفرن مُشهّيتَيْن؛ كما بوسعك، لو شئتَ أن تأكل ــ أين؟ ما عدتَ تذكر ــ كرات الأرزّ الدّبقة المخمّرة، التي لا يزيد حجمها عن حجم حبّات اللآلئ، والمُسكّرة بحسب الطلب. طبعًا، أنتَ لم تكن بمثل حذلقة **السيّد ما ثاني رحّالة بحيرة الغرب**، لكنّ شهيّتك إلى الطعام مثل شهيّته. تستمع إلى أحاديث الزبائن وأصحاب المحالّ الذين يعرفون الأمكنة هنا جيّدًا؟ مستمتعًا بتذوّق مآكلِ أجدادك. كم تودّ أن تتقرّب إليهم وأن تختلط بهم متحدّثًا بلغتهم العذبة ذات اللهجة الجبليّة. أقمتَ زمنًا طويلاً في المدينة وتحتاج، من أعماق قلبك، إلى تنمية هذا الحنين الطاغي إلى مسقط رأسك، وكم تودّ أن يمنحك هذا الحنين بعض الراحة، لكي تعود إلى زمن طفولتك، وتستردّ ذكرياتك الضائعة.

استطعت أخيرًا أن تهتدي إلى فندق في هذه الناحية من الجسر؛ فندق في شارع قديمٍ مبلّط بالأحجار. أرضيّته كأنّها غُسِلَت حديثًا. على

أرضيّة الغرفة المُفردة التي استأجرتها، مُدَّ لوح من الخشب مُغطّى بحصير من القصب، وبغطاء قطنٍ رماديّ لا ندري إذا كان متّسخًا أو إذا كان هذا هو لونه الأصليّ. تدسّ الغطاء تحت الحصير، وتبعد الوسادة الدبقة. لحسن حظّك الطقس حارّ ولا تحتاج إلى غطاء أو وسادة. في تلك اللحظة تشعر بالحاجة إلى التخلّص من حقيبة ظهرك التي أضحت ثقيلة جدًّا، وإلى الاغتسال من الغبار والعرق الملتصق بجسمك. تستلقي على الفراش عاري الجذع مفرّجًا ما بين ساقيك. في الحجرة المجاورة أصوات متداخلة. قاطنوها يلعبون الورق. تسمع بوضوح ضجيج الأوراق التي تُقذَف بقوّة على الطاولة. مجرّد لوح خشبي يفصل بين الغرفتين، وعبر شقوق ورق الجدران الممزّق تلمح خيالات فتيان أشدّاء عراة الصدور. لستَ متعبًا إلى حدّ الغرق على الفور في نومٍ عميق، فتضرب براحتك الفاصلَ بين الحجرتين. تعلو أصوات موبّخة في الجهة المقابلة. ليس احتجاجًا على ما فعلتَ أنتَ بل لأنّهم يتشاجرون في ما بينهم، هم، بجوارك. هناك رابحون وخاسرون، والخاسرون يستأخرون الوفاء بديونهم. ففي هذا الفندق تجري المراهنات بالمال الصريح على الرّغم من تحذير شرطة المقاطعة المعلّق في الحجرات كافّة والذي ينصّ صراحةً على حظر القمار والبغاء. تودّ فعلاً أن ترى بأمّ العين إذا كان هذا التدبير مُطبّقًا. ترتدي ملابسك، وتدلف إلى الممشى قارعًا باب الحجرة غير المغلق تمامًا. تدخل مباشرةً دافعًا الباب بيدك. وإذا بأربعة رجال أشدّاء جالسين حول فراش وسط الحجرة يلتفتون نحوك. لا شيء في نظراتهم يوحي بأنّهم فوجئوا بدخولِك، بل أنتَ الذي يقفُ مذهولاً حيالهم. أربعة وجوه غريبة أُلصقت عليها قصاصات ورق فغطّت

الحواجب والشفاه والأنوف أو الخدود. بدت الوجوه مخيفة بقدر ما هي مضحكة. غير أنّ أصحابها لا يضحكون بل يرمقونك بنظرات صامتة. لقد أزعجتهم، والواضح أنّك أثرت غضبهم.

ـــ آه، أنتم تلعبون الورق... فلا يسعك إلاّ أن تعتذر.

ويتابعون رمي أوراقهم. أوراق مستطيلة أكثر ممّا ينبغي وعليها رسوم بالأحمر أو الأسود، كما في لعبة ماه ـــ جونغ. ومن بينها أيضًا الباب السماويّ والسجن الدنيوي. ويُعاقب الخاسر من قبل الرابح بأن يلصق الأخير قصاصة من ورق صحيفة على موضع محدّد. لعلّ الأمر مجرّد دعابة خبيثة، أو طريقة في التعبير عن مكنون النفس، أم أنّه معيار محدّد سلفًا من قبل المراهنين يُتيح للخاسرين أو الرابحين أن يجروا حساباتهم الدقيقة على أساسه، ويستحيل على غير المعنيّين أن يعرفوا ما هو بالضبط.

تغادر الحجرة قهقرةً، عائدًا أدراجك إلى حجرتك. تستلقي على فراشك مجدّدًا محملقًا في السقفِ متأمّلاً البقع المتراصّة حول المصباح الكهربائي والتي هي، بالفعل، أعداد لا تُحصى من الناموس الكامن ريثما يُطفأ الضوء فينهال عليك بلسعاته. تسارع إلى التحصّن داخل الكِلّة. فالناموسيّة مثبتة بالسقف بواسطة حرف من القصب على هيئة دائرة، فإذا أُرخيت شكّلت للنائم في كنفها ملاذًا أسطوانيًّا. منذ زمن بعيد لم تنم تحت هذا الضرب من الناموسيّات، وقد جاوزت العمر الذي اعتدت فيه أن تستسلم لأحلام يقظتك، محملقًا بقمّة الستر الشفّاف. أنت اليوم لا تدري أيّ نازعٍ سوف يقود خطاكَ غدًا، أنتَ الذي تعلّمتَ ما ينبغي لك

أن تتعلّمه، ما الذي سوف تسعى وراءه؟ أمّا وقد بلغتَ سنّ البالغين، أليس حريًّا بك أن تستكين لعيش هانئ، وتوفّي، من غير حماسة التشوّق، بالمناطِ بكَ في وظيفة، ليست بالوضيعة وليست بالرفيعة، وأن تؤدّي دورك كزوج وأب، وأن تنشئ كنفًا وادعًا، وتقتصد بعض مالك في حساب مصرفيّ يجزيك الفوائد على مرّ الشهور حتى إذا آن أوان التقاعد غنمتَ منه ما تستعيض به عن وفير شقائك؟

الفصل الثاني

عند منتصف الطريق بين النجاد التيبيتيّة الشاهقة وبين حوض سيشوان، في بلاد إتنيّة شيانغ، في القطاع الأوسط من جبال تشيونغلِه، شهدتُ عبادة النار والبقيّة الحيّة من حضارة إنسانيّة أصيلة. أسلاف كلّ عِرق من الأعراق عبدوا النار التي جلبت لهم تباشير الحضارة. إنّها إله.

جالسًا قبالة النار، يحتسي شرابًا كحوليًّا، ولكن قبل أن يتذوّق قطرة منه، يغطّ إصبعًا في قدحه ويرجّه فوق الجمر الذي يستعر مهسهسًا باعثًا دخانًا أزرق. وفي هذه اللحظة أُدرك أنّني موجود حقًّا.

ـ هذه تقدمة لإله المنزل لأنّنا بفضله ننعم بما نشرب ونأكل.

وهج النار ينيرُ خدّيه الهزيلين وأنفه الطويل وتفّاحتَيْ وجنتيه البارزتين. يقول لي إنّه ينتمي إلى إتنيّة كيانغ، وإنّ مسقط رأسه بلدة تدعى جنِغدا. وإذ أشعر بالحرج من المبادرة فورًا إلى سؤالِه عن الآلهة والشياطين، أكتفي بالقول إنّني جئتُ لدراسة الأغاني الشعبيّة في هذه الجبال، وأسأله إذا كان الناس ما زالوا في هذه النواحي يؤدون رقصةً تسمّى الـ «جيشوانغ». فيقول إنّه، هو نفسُه، ما زال قادرًا على أداء

هذه الرقصة، وإنّ الرجال والنساء كانوا يرقصون حول النار في ما مضى حتى طلوع النهار، غير أنّ هذا الأمر أصبح محظورًا في ما بعد ذلك.

ــ لماذا؟ أعلم جيّدًا ما هي الإجابة، ومع ذلك أطرح السؤال.

ــ بسبب الثورة الثقافيّة. قيل إنّ كلمات الأغاني غير بنّاءة فاستبدلت بأقوال لــ **ماو**.

ــ وبعد؟ مرّة أخرى أطرح السؤال عمدًا، كأنّها عادة قديمة لديّ.

ــ بعد ذلك، لم يعد أحد يُنشدها. في الوقت الحاضر عاود الناسُ الرقصَ، ولكنّ قلّة قليلة من الشبّان تُحسِنُه. لذلك أعمل على تدريبهم.

أسأله، راجيًا، أن يؤدّي بعضها أمامي. فينهض على الفور، من غير تردّد، ويباشر رقصةً مصحوبة بالغناء. صوته جهيرٌ وقوي، صوت طبيعي جميل. أنا مقتنع بأنّه ينتمي إلى إتنيّة تشيانغ، غير أنّ رجال الشرطة الذين يعنون بالقيد المدني يرتابون في الأمر. فهم يعتقدون أنّ كلّ الذين يدّعون الانتماء إلى الإثنيّات التيبيتيّة أو إتنيّة تشيانغ إنّما يفعلون لغرض التملّص من قانون تحديد النسل وبذلك يُتاح لهم أن ينجبوا عددًا أكبر من الأولاد.

ينشد أغنية، ثم أخرى. ويقول إنّه يستطيب اللهو، وهذا رأيي أيضًا. لقد أُعفي أخيرًا من مهمّته كشيخ للقرية واستعاد طبعَ أهل الجبال، طبع الجبليّ العتيق الممتلئ حيويّة. غير أنّه تخطّى، لسوء طالعه، سنّ المغامرات العاطفيّة.

كما أنّه قادر على تلاوة الكثير من التعازيم، وهي صياغات سحريّة يستخدمها الصيّادون لحظة انطلاقهم قاصدين الجبل، ويسمّونها «طريقة الجبل الأسود» أو «السحر». إنّه لا يُنكر ذلك. ويعتقد اعتقادًا راسخًا بأنّ هذه الرقى قد تقود الطريدة إلى الكمائن أو تحثّها على الوقوع في الأشراك. ولا يُستخدم السحر ضدّ الحيوانات فحسب، بل قد يستخدمه البشر في ما بينهم لغرض الانتقام. وإذا استخدمت «طريقة الجبل الأسود» ضدّ إنسان كان مصيره ألاّ يخرج من الجبل حيًّا. وهذا اعتقاد يشبه حكاية سمعتها في طفولتي هي حكاية الشبح الذي يبني جدارًا. رجلٌ يسلك في الليل دربًا جبليًّا، فيسير، ويسير، وفجأة ينتصب أمامه جدار، سور يتعذّر تجاوزه أو نهر عميق المياه يستحيل عليه عبوره. وإذا لم يتمكّن من إزالة السحر أصبح مستحيلاً عليه أن يتقدّم خطوةً إلى الأمام، فيعود باستمرار إلى نقطة انطلاقه. وهكذا عندما يطلع النهار يُدرك أنّه لم يفعل سوى المراوحة في مكانه. وثمّة ما هو أدهى من ذلك: فقد يفضي السحر به إلى طريق مسدود، وإذ ذاك يكون الموت محتّمًا.

يتلو الرُّقية تلو الرُّقية. ليست كئيبة ووديعة كالأغاني، بل هي، على العكس، متسارعة مثل لهاث. لا أستطيع أن أفهم كلّ ما يقول، غير أنّ سحر هذه اللغة، والحضور الطاغي للمسوخ والشياطين الذي تُثيره، يملآن الحجرة المسودّة بفعل السخام. ألسنة اللهبِ تلحس القدرَ حيث يُطبخ لحم الضأن على نار خفيفة، جاعلةً عينيه تقدحان شررًا: هذا ما نسمّيه مشهدًا حقيقيًّا.

عندما تكون، أنتَ، منصرفًا إلى البحث عن الدرب المفضية إلى لينغشان، أكون، أنا، ساعيًا، أثناء نزهتي على طول الـــ «يانغشي»، وراء الحقيقة. بلغني للتوّ نبأ خطير. لقد شخّص الأطبّاء، خطأً، بأنّني مُصاب بسرطان الرئة. مازَحني الموتُ وتمكّنتُ أخيرًا من اجتياز العقبة التي وضعها أمامي. في قرارة نفسي، أشعر بالبهجة. إذ حَبَتْني الحياة مجدّدًا بنضارة لا توصف. كان ينبغي لي أن أهجر بيئتي الملوّثة منذ أمد بعيد، وأن أعود إلى الطبيعة سعيًا وراء الحياة الحقّة.

في الوسط الذي كنت أحيا فيه، كانوا يعلّمونني بأنّ الحياة هي منبع الأدب وبأنّ الأدب يجب أن يكون أمينًا للحياة، أمينًا لحقيقتها. ولعلّ هذا مكمن غَلَطي، وهو بالذات أنّني حدتُ عن وجهة الحياة، وسِرتُ في الاتّجاه المعاكس لحقيقتها. حقيقة الحياة لا تشبه صورتها الظاهرة. حقيقة الحياة، أي طبيعة الحياة، يجب أن تكون كما هي عليه لا على نحوٍ مغاير لها. وإذا كنت قد حدتُ عن هذه الحقيقة فلأنّني لم أستعرض سوى سلسلة من ظواهر الحياة لا يسعها، بالتأكيد، أن تعكس حقيقتها بدقّة. وكانت النتيجة أنّني سلكتُ الدربَ الخاطئ مشوّهًا الواقع.

لا أدري إذا كنت أسلك، في الوقت الحاضر، الدربَ الصحيح؛ غير أنّني أودّ، على كلّ حال، أن أغادر العالم الأدبي وهو في ذروة غليانه وأن أهجر غرفتي العابقة أبدًا بدخان السجائر. الكتب المكدّسة في أرجائها تعذّبني حتى يضيق بها صدري. إنّها تعرض لشتّى أنواع الحقائق، من الحقيقة التاريخيّة إلى حقيقة السلوك البشري، ولا أدري ما

الفائدة منها. ومع ذلك تعرقل مسعايَ وأتخبّطُ في شباكها، لكأنّني أعيش كحشرةٍ عالقة في نسيج عنكبوت. لحسن طالعي أنّ الطبيب الذي أخطأ التشخيص قد أنقذ حياتي. كان رجلاً صادقًا. أعطاني صورتَيْ الأشعّة اللتين أجراهما لصدري. عند طرف الرئة اليُسرى بقعة داكنة مبهمة الحدّ تمتدّ حتى القصبة. حتى استئصال الرئة اليسرى بالكامل لن يجدي نفعًا. مثل هذا الاستنتاج كان يبدو واقعيًّا. فوالدي توفّي جرّاء سرطان الرئة، ولم تتعدّ المدّة الفاصلة بين اكتشاف المرض والوفاة الثلاثة أشهر. الطبيب الذي شخّص مرضه هو ذاته الذي شخّص مرضي. وكنت أثق به كما كان هو يثق بالعلم. صورتا الأشعّة اللتان أجريتهما في مستشفيين مختلفين جاءتا متطابقتين في كلّ تفصيل، لذا لا احتمال لأيّ خطأ تقني. كما حرّر لي تحويلاً طبّيًّا لإجراء فحص بالمنظار بمضيّ خمسة عشر يومًا. لم أكن متحمّسًا لذلك لقناعتي بأنّ عمليّة التنظير سوف تؤكّد حجم الورم من دون شكّ. فقبل وفاة والدي جرت الأمور على نحوٍ مماثل، وكنتُ سائرًا على خطاه، ولا جديد في ما يحصل. مع ذلك، أفلتّ من قبضة الموت، ولا يسعني القول إنّني لم أكن محظوظًا. أنا أؤمن بالعلم، ولكنّني أؤمن أيضًا بالقدر.

عاينتُ فيما مضى قطعةً من الخشب طولها يزيد على الثلاثة عشر سنتمترًا كان عالم إناسة قد عثر عليها في الثلاثينيّات في المنطقةِ التي تقطنها إتنيّة كيانغ، هي عبارة عن محفورة لرجلٍ رأسه إلى أسفل، مستقرًّا على يديه الاثنتين، وقد خُطّت قسمات وجهه بالأسود. على بدنه حفرت كلمتان: «**حياة مديدة**». كان يُسمّى «**ووشانغ الذي رأسه إلى أسفل**». وكان في مظهرِه حقًّا ما ينمّ عن الشرّ. سألت صاحبي شيخ

القرية المتقاعد إيّاه إذا كان هذا الصنف من الآلهة الحارِسة ما زال موجودًا إلى اليوم. قال إنّها تُسمّى «**لاوجِن**»: أي «**الجذور القديمة**». وينبغي لهذا التمثال الصغير أن يُلازم المولود طيلة حياته، حتى وفاته. بعد الوفاة يُحمَل التمثالُ كما يُحمَل الجثمان، وعقب الدفن، يوضع التمثال الصغير وسط الجبل لكي يساعد روح الميت في العودة إلى الطبيعة. ولمّا سألته إذا كان يستطيع أن يتدبّر واحدًا لي أحتفظ به، أجاب ضاحكًا أنّ الصيادين هم الذين يدسّونها في ملابسهم تعزيمًا للقدر، ولكن لا فائدة منها لمَن هو مِثلي.

ـ أيسعنا العثور على صيّاد يجيد فنون السحر، قد أذهب برفقته في رحلة صيد؟

ـ الأب العجوز شي هو أمهرهم على الإطلاق، أجاب بعد تفكير.

ـ هل يمكن العثور عليه؟

ـ إنّه يُقيم في دارة الحجر العائدة إلى الأب شي[١].

ـ وأين تقع هذه الدارة؟

ـ إذا تابعت السير صُعدًا من هنا مسافةَ عشرة لي[٢] سوف تبلغ وهْدَ **منجم الفضّة**. ومن هناك سوف تتبع إلى النهاية مسقط المياه الذي يصبّ في الوهْدِ وسوف ترى داره من الحجر.

ـ أهو اسم يدلّ على مكان أم أنّه حقًّا منزل الأب شي الحجري؟

---

(١) اسم «شي» يعني في اللغة الصينيّة: الحجر.

(٢) الـ «لي» هو مقياس صيني يساوي ٥٧٦ مترًا.

يشرح لي أنّ الاسم هو اسم مكان، ولكن هناك فعلاً دارة من الحجر يقطنها الأب شي.

ــ أيسعك اصطحابي إلى هناك؟ سألتُ مجدّدًا.

ــ إنّه ميت. مات في نومه، ممدّدًا على فراشِه. كان عجوزًا هَرِمًا، جاوز التسعين عامًا، والبعض يقول إنّه جاوز المائة من العمر. والحقيقة أنّ لا أحد يدري كم بلغ من العمر.

فلم أستطع إلاّ أن أسأل مجدّدًا:

ــ هل بقي أحد من ذريّته على قيد الحياة؟

ــ كان من جيل جدّي... ولطالما قيل لي إنّه عاش وحيدًا.

ــ ألم تكن له زوجة؟

ــ كان يحيا وحيدًا في **وَهْدِ منجم الفضّة**، من دون عائلة أو منزل عائليّ؛ منزل صغير يعيش فيه وحده. ولو تدري أنّ بندقيّته ما زالت معلّقة على جدار داره.

سألت عمّا يقصد بقوله هذا.

فقال شارحًا إنّ الرجل كان صيّادًا ماهرًا، مولَعًا بالسحر، لا نعثر على أمثاله اليوم. الجميع يعلم أنّ بندقيّته ما زالت معلّقة على الجدار في منزله، بندقيّة لم تخطئ الهدف مرّة واحدة، ولكن لا أحد يجرؤ على أخذها.

لا أفهم لماذا.

ـ الطريق المفضيّة إلى **وهْد منجم الفضّة** مقطوعة.

ـ ألم يعد الدخول إليه ممكنًا؟

ـ كلاّ. والحقيقة أنّ أحدهم قرّر ذات يوم أن يفتتح منجمَ فضّة في ذلك المكان فعمدت شركة من شنغدو أن تستأجر عمّالاً للعمل فيه. بعد ذلك تعرّض الموقع للنهب وغادر العمّال. ثم تداعى المعبر المفضي إلى المنجم عبر الوَهْد في أكثر من موضع منه أو أنّه تآكل فتداعى.

ـ متى حدث ذلك؟

ـ حدث ذلك في حياة جدّي، أي منذ ما يُقارب الخمسين عامًا.

ليس مستغربًا إذًا أن يكون في سنّ التقاعد اليوم. فهو ينتمي إلى التاريخ، التاريخ الواقعيّ.

ـ ومنذ ذلك الحين لم يدخل أحدٌ إلى الوَهْد؟

أزداد تشوّقًا إلى معرفة مفتاح اللغز.

ـ هذا أمر غير مؤكّد، ولكن الوصول إليه ليس بالأمر اليسير على كلّ حال.

ـ والمنزل، هل اهترأ هو أيضًا؟

ـ كيف لمنزل من حجر أن يهترئ؟

ـ أقصد الدعائم.

ـ أجل، من دون شكّ.

أشعرُ بأنّه يحاول ترهيبي لأنّه لا يرغب في اصطحابي إلى هناك، أو أن يعرّفني إلى أحد الصيّادين.

ــ إذًا كيف تعلم أنّ البندقيّة ما زالت معلّقة على الحائط؟ سألت من جديد.

ــ هذا ما يُشاع، ولا بدّ أنّ أحدًا ما قد رآها. يُقال أيضًا إنّ الأب العجوز شي كان رجلاً ليس كسواه من الرجال حقًّا. ويُقال إنّ جثّته لم تتحلّل ولم تجرؤ الضواري على المسّ بها. إنّه ممدّد على فراشه، هزيلاً، متيبّسًا، وبندقيّته معلّقة على الحائط.

ــ هذا أمر مستحيل، فدرجة الرطوبة مرتفعة جدًّا في الجبل، ولا بدّ من أنّ الجثّة تحلّلت والبندقيّة استحالت كومة من الخردة الصدئة.

ــ لا أدري، هذا ما يتردّد منذ زمن طويل.

يواصل الكلام على سجيّته غير آبه برأيي. ألسنة اللهب تبرق في عينيه اللتين أراهما مليئتين بالمكر.

أعاود طرح الأسئلة بالإصرار نفسه:

ــ أنتَ لم تره، أليس كذلك؟

ــ البعض رآه. كان يبدو نائمًا. هزيلاً، متيبّسًا، وبندقيّته معلّقة على الحائط، يُتابع قولَه بالوتيرة نفسها. كان عالمًا بفنون السحر. لذلك ليس البشر وحدهم الذين لم يتجرّأ أيّ منهم على الاستيلاء على بندقيّته، بل حتى الضواري لم تجرؤ على المسّ بجثّته.

واضح جدًّا أنّه جرى تأليه هذا الصيّاد حتى قبل وفاته. ولمّا اختلط التاريخ بالشائعات والأقاويل، وُلِدت أسطورة شعبيّة. فالحقيقة لا توجد إلاّ في التجربة وليس التجربة بالمطلق بل في تجربة كلّ منّا، وحتى لو وُجدت في تجربة كلّ منّا فإنّها تستحيل حكاية حالما تتناقلها الألسن تواترًا. إذ يستحيل علينا البرهان على حقيقة الوقائع، ولا ينبغي لنا أن نفعل. لِندع عتاة أهل الجدل يجادلون في حقيقة الحياة. فالمهمّ هو الحياة نفسها. وما هو حقيقي هو أنّني جالس بجوار هذا الموقد، في هذه الحجرة التي سوّدها السخام، وهو أنّني أرى ألسنة اللهب هذه متراقصة في عينيه، ما هو حقيقي هو أنا، وهو هذا الإحساس العابر الذي انتابني للتوّ، ويستحيلُ عليّ أن أنقله إلى الآخرين. في الخارج هبط الضباب، وامّحت الجبال المعتمة، وصدى خرير مياه النهر المتدفّق في جريانه يتردّد في قرارة نفسك، فحسبك هذا.

الفصل الثالث

وها قد وصلت إلى قرية ووبي، في هذا الزقاق الطويل المبلّط بالأحجار التي خلّفت عليها عجلات عربات اليد أثرًا واضحًا. فجأةً تعود إلى طفولتك، إلى تلك القرية الجبليّة حيث قضيت معظم صباك تقريبًا. غير أنّك لم تعد تلمح عربات تُدفَعُ باليدين. حلّ رنين أجراس الدرّاجات الهوائيّة محلّ صرير بكرات العنّاب المشحّمة بزيت الصويا. هنا يحتاج المرء إلى براعة بهلوان كي يسوق درّاجة هوائيّة ويسير بها، بحمولة جَرابٍ ضخمٍ، في مسار متعرّج بين المارّة والحمّالات المزدوجة وعربات اليد ومفارش البضائع أمام الدكاكين. يصعب في حالٍ كهذه اجتناب الشتائم، غير أنّ صخب ضحكات الباعة وصياحهم ممتدحين بضائعهم والزبائن المساومين على الأسعار، يجعلها زاخرة بالحياة. تنشقُ خليطًا من روائح الخضار المملّحة وأحشاء الخنزير والجلد المدبوغ حديثًا وصمغ البُطم وقشّ الأرزّ والكلس. يقع بصرُكَ، إلى جانبي الشارع، على دكاكين الفواكه المجفّفة والصويا والزيت والأرزّ، على الصيدليّة حيث تُباع العقاقير الصينيّة والغربيّة، ودكّان الأقمشة وأنسجة الحرير، على مفرش الأحذية المعروضة للبيع وبائع الشاي ودكّان

الجزّار، والخيّاط والفرن حيث يُغلى الماء، والقدور الخزفيّة والحبال، ودكاكين البخور وأغطية الورق الجنائزيّة. حوانيت متلاصقة، بقيت على حالها تقريبًا منذ عهد سلالة كينغ. مطعم «**الرفاه الأصيل**» القديم حيث تتلاطم، من غير توقّف، القدورُ ذات القعور المسطّحة المملوءة بالرافيولي المقليّة، استعاد لافتته التي كانت قد تحطّمت ذات يوم، وانبثقت رايته التي تعلن عن كونه مطعمًا من «الفئة الأولى»، مرفرفةً مع الريح. من الطبيعي أن يكون المخزن الذي تديره الدولة هو أكثر الحوانيت تميّزًا من حيث المظهر. فقد جرى ترميم المبنى الإسمنتي ذي الطبقتين، واستُبدلت جدران المدخل بواجهة زجاجيّة، ويبدو أنّ الغبار الذي طالما غطّى أرجاءه قد بقيَ، هو وحده، على حاله. واجهات متاجر المصوّرين مميّزة هي الأخرى. تعجّ بصور الفتيات اليافعات اللواتي يتصنّعنَ الدلال أو المتأنّقات المتبرّجات. حسناوات من بنات الناحية يظهرنَ في أعين جمهور الناس أقرب منالاً من نجمات ملصقات السينما. والحقّ أنّ هذه الناحية قد شهدت ولادة جميلاتٍ أبهى مِن طُرَف اليَشَب، بوجناتهنّ المعطّرة، وحواجبهنّ المخطّطة ببراعة يد المصوّر، حيث الأحمر مُسرِفٌ في احمراره، والأخضر باذخ الاخضرار. هنا أيضًا يُعرَض على الزبائن تكبير الصور بالألوان. ويشير إعلان إلى أنّه بالإمكان الحصول عليها في غضون عشرين يومًا، ولكنّه يُغفِل ضرورة الذهاب إلى عاصمة المقاطعة لأجل تظهيرها. لو لم يحالفك الحظّ لوُلِدت ربّما في هذه البلدة، ولترعرعتَ فيها وأنشأت أسرةً بزواجك من إحدى هؤلاء الحسناوات التي كانت ستنجب لكَ، ومنذ أمد بعيد، صبيانًا وبنات. لمجرّد أن تراودك هذه الخاطرة تضحكُ وتبتعد مُسرِعًا عن الواجهة كي

لا يظنّ أحدٌ أنّك مهتمّ بإحداهنّ فيطمئنّ إلى أوهامٍ لا أساس لها من الصحّة. تستسلمُ لشرود ذهنِك متطلّعًا إلى الغرف ذات السقوف المنحنية فوق واجهات المباني. ستائر مُسدلة على النوافذ، وورود أو شتول بونساي موضوعة على الحوافّ. لا يسعك إلاّ أن تسأل في سرّك كيف يحيا سكّان هذه الغرف. ثمّة برج مرتفع بابه مغلَقٌ بالقُفل. دعائم سقفه المائلة وأطراف منجورهِ وإفريزه الخشب المنقوشِ والمهترئ بأكمله، كلّ ذلك يُشير بوضوح إلى حجم السلطة التي كان يتمتّع بها ساكنوه في ما مضى: ففي مصير مالك هذا المنزل وذريّته ما يدعو إلى التأمّل العميق. بالمقابل نرى أنّ الحانوت المجاور يُتاجر ببناطيل الجينز والتيشيرتات صناعة هونغ كونغ وجوارب النايلون. وقد أُلصقت على واجهته صور لنساء أجنبيّات يستعرضن أفخاذهنّ. على الباب وُضعَت لافتة كُتب عليها بحروف مذهّبة: **الشركة الجديدة للاستثمار التكنولوجي**، ولا توضح اللافتة ما هي التكنولوجيا المقصودة هنا. على مقربةٍ مدخلُ حانوت جُمعَت فيه كومة كلس أبيض. إنّه آخر الشارع، وعلى بُعد أمتار قليلة، يقع ما ينبغي أن يكون فبركة لشعيريّة الأرز. فسحة خالية نُصِبَت فيها أعمدة ومُدَّت في ما بينها أسلاك حديد تتدلّى منها فتائل الشعيريّة. تدير رأسك وتدلف إلى زقاقٍ بجانب بائع الشاي، وتضيع مجدّدًا في خضمّ ذكرياتك.

وراء مدخلٍ شبهِ مستور فناءٌ ضيّق ورطب. حديقة مهملة، خلاء. في ركنٍ، كومة أنقاض. تذكر جيّدًا هذا الفناء بجوار منزلك الذي انهار حائط سوره. كان يرعبك ويجذبك في وقت معًا. كنت تحسَب أنّ إناث الثعالب التي يرد ذكرها في الحكايات تأتي من هناك. وبعد فراغِك من

المدرسة كنتَ لا تقاوم رغبتك الدفينة في أن تقصد المكان نفسَه معقودَ اللسان لشدّة خوفك. لم تلمح يومًا أنثى ثعلبٍ هناك، غير أنّ إحساسك برهبة اللغز هذا لطالما خالط ذكريات طفولتك. كان يوجد هناك مقعد حجريّ مكسور وبئر جافّة من دون شكّ. وفي عزّ الخريف كانت الريح تهبّ على السطح حيث تنمو أعشاب ذهبيّة الاصفرار، وتتوهّج الشمس بكاملِ سطوعها. لهذه المساكن التي تظلّ أبوابها مغلقة حكايتها. تشبه بحذافيرها حكاية قديمة. ففي فصل الشتاء كانت الريح تُعوِلُ في جنبات الأزقّة. وكنت تأتي منتعلاً حذاءك الجديد المبطّن، برفقة صحبك من الأولاد، ضاربًا الأرض برجليك طلبًا للدفء، عند زاوية هذا الحائط، ولا بدّ أنّك تذكر جيّدًا هذه العَديّة:

«في ضوء القمر، على صهوة الجواد البخور أحرقتُ، الأخت الكبرى لوو قتلتُ، الآنسة بِسلّة أغضبتُ، البِسلّة قَطَفَتْ، لكنّ القرنَ كان فارغًا، من الأب جي تزوَّجَتْ، الأب جي ضئيل الجسم، من السَلطَعَوْن تزوَّجَتْ، السلطعون اجتاز الحفرة، البزّاقة تعثّرت، البزّاقة وشَتْ به، ولدى الراهب شَكَته، آيات السوترا تلا، ولغوانيين تضرّع، الغوانيين بالَت، شيطانًا صغيرًا بالَت، ما سبّب لها ألمًا في بطنها، لقدّيس الثروة ابتهلت، فإذا بالوجدِ يأتيه، أخفقتُ، ومئتي قطعة من النقود أنفقتُ».

على السطح، تتمايل الأعشاب اليابسة أو اليانعة، البيضاء أو الخضراء، مع الهبوبِ برفق. كم سنة مضت قبل أن ترى ثانية هذه

الأعشاب على السطح؟ حافي القدمين، تجعل لخطواتك خفقًا مسموعًا على البلاط الحجري المحزّز بآثار عربات اليد، تنبثق من طفولتكَ، وتطفو في الحاضر. باطن قدميك الحافيتين المتّسختين يصفق أمامك. ليس الأهمّ حقًّا أنّك صفّقتَ بالقدمين على الأرض. فما تحتاج إليه هو هذه الصورة اللدنيّة.

تخرج في آخر المطاف من متاهة الأزقّة هذه وتبلغ الطريق الرئيسيّة؛ وهناك سرعان ما تدور الحافلة القادمة من مركز المقاطعة نصف دورة وتنطلق عائدة أدراجها. على ناصية الطريق، تقع محطّة الحافلات. وفي داخلها شبّاك للتذاكر وصفوف مقاعد طويلة. هنا نزلت من الحافلة قبل بعض الوقت. قبالة المحطّة، تقريبًا، منزل خفيض، فندق طُليت جدرانه بالكلس وعليه لافتة: **غرف جميلة في الداخل**. تتفقّد المكان فيبدو لك نظيفًا. وعلى كلّ حال يجب أن تتدبّر مسكنًا. تدخل نادلة جاوزت سنّ الشباب تكنسُ الممرّ. تسألها إذ كان لديهم غرفة شاغرة. تجيب باقتضاب «أجل». تسأل ما المسافة التي ما زالت تفصلك عن لينغشان. فتنظر إليك شزرًا ما يعني أنّك في فندقٍ للقطاع العامّ. إنّها تتقاضى راتبًا شهريًّا، وليس لديها ما تضيفه.

ـــ رقم ٢. وبِعَصَا المكنسة تشير إلى باب مفتوح.

تدخل حاملاً حقيبتك بيدك. في الداخل سريران، يستلقي على أحدهما رجلٌ وقد ثنى ركبتيه، وبين يديه كتاب. العنوان: **السيرة غير الرسميّة لأنثى الثعلب**، مدوّن على ورق التغليف الذي يحمي غلاف الكتاب. من

الواضح أنّه كتاب مستأجر من أحد الدكاكين. تُلقي على الرجل التحيّة بإيماءة. يضع كتابه جانبًا ويحيّيك بدوره بحركة من رأسه.

ـ صباح الخير.

ـ وافد جديد؟

ـ أجل.

ـ هل تدخّن؟ ويرمي لك سيجارة.

ـ شكرًا. تجلس على السرير المقابل لسريره. يحتاج إلى صحبة كي يتحدّث.

ـ كم من الوقت ستمكث هنا؟

ـ نحو عشرة أيّام. يجلس ويشعل سيجارته.

ـ هل أتيت لأجل مشترياتك؟ تسأل لمجرّد السؤال.

ـ أنا أُعنى بالخشب.

ـ وهذا أمر يسير في هذه النواحي؟

ـ هل تعرف القواعد؟ يسأل مهتمًّا.

ـ أيّة قواعد؟

ـ قواعد الخطّة القوميّة.

ـ لا.

ـ إذًا الأمر عسير. ويستلقي مجدّدًا.

ـ هل هناك نقص في الخشب أيضًا في هذه المناطق الحرجيّة؟

ـ الخشب متوفّر، ولكنّ الأسعار مسألة مختلفة.

لقد أدرك أنّك لست خبيرًا في هذا المجال لذلك يجيب عن أسئلتك بلامبالاة.

ـ هل تنتظر أسعارًا متدنّية؟ أهذا كلّ ما في الأمر؟

ـ إنّه شيء من هذا القبيل. يُجيبُ من غير تحديد، ثم يمسك بكتابه مجدّدًا.

عليك أن تمتدحه قليلاً لكي تحظى منه على المعلومات التي تريد:

ـ أنتم عليمون بأمور كثيرة، أقصد أنتم الذين تجوبون الأنحاء لشراء المعدّات والموادّ الأوّليّة!

ـ لا، على الإطلاق، يجيب بشيء من التواضع.

ـ كيف نصل إلى لينغشان؟

لا جواب. لا يسعك إلاّ أن تشرح له بأنّ غرض زيارتك إلى المنطقة هو التمتّع بمناظرها الطبيعيّة، وتسأله أين يعثر المرء على مواقع طبيعيّة خلاّبة.

ـ هناك مقصورة عند ضفّة النهر. عندما تجلس هناك وتتأمّل الجبل المقابل، يكون المنظر مقبولاً.

ـ سوف أتركك الآن لكي ترتاح، تقول بنبرة رتيبة.

تضع حقيبة سفرك وتذهب لتسجّل اسمك قبل أن تخرج. عند طرف الطريق يقعُ رصيف الركوب. درجات سلّم حجريّ منحدرةٌ إلى ما يزيد على العشرة أمتار نزولاً. وهناك ترسو مراكب مغطّاة بحصر سوداء وبمحاجن من القصب. دفقُ النهر الرهيفُ يسيل في مجرًى عريض حتى الإسراف. الواضح أنّ هذا ليس موسم الفيوض. على الضفّة المقابلة ترسو معدّيّة وأناس يتدافعون لركوبها. كما أنّ الناس الذين يقتعدون درجات السلّم من ناحيتك ينتظرونها جميعًا.

فوق رصيف المرفأ، على السدّ، تنتصبُ بالفعل مقصورةٌ ذات سقفٍ أعقف. حولها، من كلّ صوب، سلّياتٌ على هيئة كأس تاجٍ من القصب المحبوك، بداخلها جلس فلاّحو الضفّة المقابلة الذين فرغوا من بيع بضاعتهم. وإذا استمعتَ إلى أحاديثهم خُيّل إليك أنّك تستمع إلى حكايا سلالة سونغ. لقد أعيد طلي المقصورة حديثًا. تحت التسقيفة الأماميّة نقوش تنانين وطيور عنقاء زاهية الألوان، وعلى العمودين الأماميّين حُفر مَثَلان متقابلان:

جالسًا، تعرِف، من غير أن تفصِحَ، عيوبَ الآخر

مُسافرًا، تتذوّق المياه النقيّة للأنهر العجيبة.

ثم تنتقل إلى الجانب الخلفيّ من العمودين. مثلان آخران حُفِرا عليهما:

عندما ترحل لا تنسَ الأمنيات التي يُسرّ بها إليك

استدِر وتأمّل موقع العنقاء في جبل الروح.

سرعان ما تستبدّ بك الحماسة. لا بدّ أن تكون المعدّيّة قد وصلت: فجميع الذين كانوا جالسين متمتّعين بطراوة الخلاء قد غادروا متنكّبين حمّالاتهم المزدوجة. ولم يبق منهم سوى رجل عجوز.

ــ لو سمحتَ أيّها العجوز، هاتان الجملتان...

ــ تقصد هذين المَثَلَيْن؟ أجاب العجوز مصوّبًا.

ــ أجل، أيّها العجوز، هلاّ أخبرتني مَن الذي حفر هذين المثلين؟ تسأل بنبرة تريدها أن تكون أكثر توقيرًا.

ــ إنّه كبير المعلّمين المُجازين شِن شيانينغ! يجيبُ مُشدّدًا على الألفاظ، وبنبرة لا تخلو من مَلامة. يفتح فمًا لم يبق فيه سوى أسنان قليلة سوداء.

ــ لم أسمع بالرجل من قبل. لا يسعك إلاّ أن تقرّ له بجهلِك. في أيّة جامعة يُدرّس هذا الأستاذ؟

ــ من الطبيعي ألاّ تعرفه، لقد عاش قبل ما يزيد على الألف عام، يجيب بنبرة ازدراء صريح.

ــ لا تسخر منّي أيّها العجوز، تقول محاولاً تبرير موقفك.

ــ هل نسيتَ نظّارتك في مكان ما أم ماذا؟ يقول مشيرًا إلى خرجة الدعامة.

ترفع رأسك نحو دعامة أفقيّة لم يعاود طليها. وبالفعل تستطيع أن تقرأ عليها كتابةً بالحبر القرمزيّ: **شُيِّدَت في الشهر الأوّل من ربيع سنة جينغجيا، السنة العاشرة من عهد شاوشينغ من سلالة سونغ، ورُمِّمت في التاسع والعشرين من الشهر الثالث من سنة جياشو، السنة التاسعة عشرة لعهد تشيانلونغ من سلالة تشينغ.**

الفصل الرابع

أغادر مكتب الاستقبال في المحميّة الطبيعيّة، أعود أدراجي قاصدًا شيخ البلدة المتقاعد، من إتنيّة تشيانغ. أرى على الباب قفلاً ضخمًا متدلّيًا. قصدت المكان ثلاث مرّات من قبل ولم أجده. وأحسب أنّ هذا الباب الذي كان من شأنه أن يفتح أمامي أبواب عالم غامض صار، من الآن فصاعدًا، مغلقًا دوني.

أجوب الأنحاء متسكّعًا تحت رذاذ مطر خفيف. منذ سنوات طويلة لم أمشِ في منظر مطر وضباب مثل هذا. أمرّ بجوار مركز مقاطعة وولونغ للعناية الطبّيّة الذي يبدو مهجورًا؛ في الغابة يخيّم سكون مُطبِق لا يُعكّره، ومن البعيد، إلاّ نشيشُ مسقط ماء. منذ أمدٍ بعيد لم أشعر بخلوّ بالٍ مماثل. لا حاجة بي إلى التفكير، ألبث شارد الذهن. لا أثر لإنسان أو سيّارة على الطريق العريضة، والخضرةُ حيثما تنقّل بصرك، إنّه الربيع.

على ناصية الطريق منزل كبير، منعزل وفارغ. أيكون هذا ملاذ زعيم الأشقياء سونغ غوتاي الذي حدّثني عنه أمسِ مساءً مفوّض المحميّة الطبيعيّة السياسي؟ قبل أربعين عامًا كانت القوافل تسلك دربًا جبليًّا وحيدًا يمرّ من هنا. كان الدرب يعبر، إلى الشمال، جبال بالانغ

على ارتفاع يزيد عن الخمسة آلاف متر، ويخترق مناطق الإتنيّة التيبتيّة الواقعة في أعالي نجاد تشينغهاي والتيبِت. أمّا جنوبًا، فكان يمتدّ بمحاذاة مجرى مينجيانغ، متوغّلاً في حوض سيشوان. وكان على المهرّبين الوافدين من الجنوب محمّلين بالأفيون، وأولئك الوافدين من الشمال محمّلين بالملح، أن ينصاعوا بطيبة خاطر إلى سداد ما يتوجّب عليهم من إتاوة، وأن يروا في ذلك تشريفًا لهم لأنّ جزاء الممتنعين عن سدادها هو تشويه وجوههم. وإذ ذاك تستحيل رحلتُهم رحلةً من غير عودة في بلاد **ملكِ الجهنّمات**.

إنّه منزل قديم من خشب. دُرفتا الباب الغليظتان مشرّعتان على فناء فسيح بورٍ محاط بالمباني، وقد يتّسع لقافلة بأكملها ولو تألّفت من عشرات الأحصنة. أحسبُ أنّه كان يكفي، في ذلك الزمان، أن تكون البوّابة مغلقة، وأن يتحصّن الأشقياء مسلّحين بالبنادق على الشرفات الخشب التي تزنّر قباب المباني لكي لا تسلم القوافلُ العابرة ليلاً من الكمين المعدّ لها. وحتى لو جرى تبادل لإطلاق النار، فليس في الفناء المكشوف زاوية واحدة لا تطاولها طلقات الأشقياء.

في الفناء سلّمان. أتسلّق أحدهما فتحدث الدرجات صريرًا تحت قدميّ. أتقدّم بخطى متثاقلة مُعلنًا بذلك عن وصولي، غير أنّ الطبقة الأولى مهجورة هي أيضًا. أفتح أبواب الحجرات الفارغة، الباب تلو الباب، فلا أعثر وراءها إلاّ على الغبار وروائح العفَن. فقط عمرةٌ مال لونها إلى السواد متدلّية من سلكٍ حديدٍ وحذاء تالفٌ يشيران إلى أنّ ثمّة من أقام هنا، قبل عدّة سنوات من دون شكّ. فمنذ إنشاء محميّة طبيعيّة

جرى نقل جميع من كانوا يشغلون هذا المبنى الضخم من موظّفين وهيئات: كتعاونيّة التموين والبيع، ومحطّة شراء المنتجات المحليّة، مخزن الزيت والحبوب، مركز الطبّ البيطري، إلى الشارع الصغير الذي لا يتعدّى طوله المئة متر والذي أُنشئ من قبل مكتب الإشراف. أمّا نحو المئة رجل الذين كانوا يجتمعون في الطبقة الأولى من هذا المبنى تحت إمرة سونغ غوتاي، فلم يخلّفوا وراءهم أثرًا، لا لهم ولا لبنادقهم. في ذلك الوقت كانوا يدخّنون الأفيون، مستلقين على حصرٍ من القشّ، متحرّشين بنساء كانوا قد اختطفوهنّ. إذ كان عليهنّ أن يهيِّئنَ لهم الطعام أثناء النهار، وأن يتعاقبنَ على مضاجعتهم أثناء الليل. وأحيانًا كانت تنشب شجارات بينهم بسبب قسمة جائرة للغنائم أو بسبب امرأة شابّة، لا تُسوّى، في النهاية، إلاّ باستخدام السلاح. أفكّر بتلك الحياة الصاخبة التي لا بدّ أن تكون قد شهدتها هذه الأرضيّات العتيقة.

ـ وحده زعيمهم سونغ غوتاي كان قادرًا على إخضاعهم، فقد اشتهر ببطشِه وسعة حيلته.

الرجل الذي نطق بهذه العبارة، وهو المفوّض السياسيّ، رجلٌ مقنع جدًّا عندما يتكلّم. يقول إنّه في فترات الدروس التطبيقيّة يتمكّن من استدرار دموع الطالبات أثناء محاضراته عن حماية دببة «البندا» من الانقراض، أو حتى عن جوانب الشعور الوطني.

يقول إنّ إحدى النساء المخطوفات لدى الأشقياء ما زالت على قيد الحياة، وهي امرأة مقاتلة من نساء **الجيش الأحمر**. في سنة ١٩٣٦، وفيما كانت «**المسيرة الكبرى**» تعبر سَهْب **ماورغهِ**، تعرّضت كتيبة من

الجيش الأحمر لكمين نصبه لها الأشقياء. فجرى خطف واغتصاب نحو عشرٍ من غسّالات الـــ «**جيانغشي**». أصغرهنّ سنًّا كانت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها، وهي الناجية الوحيدة. تناقلتها أيدٍ كثيرة قبل أن يبتاعها جبليّ عجوز من إتنيّة تشيانغ جعلها زوجته. وهي تعيش في الوقت الحاضر في أحد وديان الجوار. ما زالت إلى اليوم قادرة على استذكار اسم فرقتها ووحدتها العسكريّة واسم مدرّبها الذي أصبح اليوم أحد الموظّفين الكبار. وإذ يزفر المفوّض بحسرة عميقة، يردف قائلاً إنّه، بالطبع، لا يستطيع أن يسرد الوقائع على مسمع تلاميذه، ثم يستأنف حديثه عن زعيم الأشقياء سونغ غوتاي.

في الأصل، يقول ساردًا، لم يكن سونغ غوتاي سوى بائع جوّال متواضع، يمتهن تهريب الأفيون بالتواطؤ مع أحد التجّار. غير أنّ التاجر المذكور قُتِل على يد زعيم الأشقياء في هذه الناحية، فعمل سونغ غوتاي مع هذا السيّد الجديد. وعلى أثرِ ألف مغامرة ومغامرة أصبح الرجل المقرّب من الزعيم وعاش في فناءٍ ضيّق خلفَ المنزل. بعد ذلك دُمّر الفناء المذكور بمدافع **جيش التحرير**، حتى نمت فيه الأشجار كما هو حاله في الوقت الحاضر. لقد كانت في تلك الحقبة بمثابة «**شونغشينغ**»[1] مصغّرة. كان تشن، زعيم الأشقياء، منصرفًا، ليلَ نهار، إلى إشباع ملذّاته في غارِه المزدحمِ بخليلاته. وكان سونغ غوتاي هو الرجل الوحيد المخوّل خدمته في حرم منزله. وذات يوم مشرق، جاءت قافلة من ناحية

---

(١) إحدى كبريات المدن في سيشوان، وشهرتها مرادف المتعة والبذخ في تلك الحقبة.

مايركانغ، أفرادها في الحقيقة هم عصبة من الأشقياء، واستولت على هذا الملاذ المهيّأ لاستقبالها. استمرّ القتال بين العصبتين يومين كاملين، وأسفر عن قتلى وجرحى من كلا الطرفين، من غير أن يُسفِر عن منتصرٍ ومهزوم. فجرى التفاوض على الصلح، وأُبرِمَ أخيرًا بين العصبتين بفرك الفمِ بدماء حيوان. وإذ ذاك فُتِحت البوّابة لاستقبال الخصوم. واختلط حابل الأشقياء المقيمين بنابل الأشقياء الوافدين في أرجاء المنزل، منصرفين إلى شرابٍ ولهو. والحقيقة أنّها كانت مجرّد خدعة من قبل الزعيم الأصيل كي يغرق أعداءه في حال من السكر الشديد. ولم يلبث أن أعطى أوامره لنسائه بأن يكشفنَ عن صدورهنّ وأن يحمنَ بين الموائد برشاقة الفراشات. فمن كان ليتغلّب على عصبة الأشقياء هذه بوسيلة أخرى؟ شرب الجميع حتى الثمالة. وبقي الزعيمان وحدهما جالسين إلى المائدة. وبإشارة متّفق عليها مع تشن العجوز، سكب سونغ غوتاي الشراب. ولكن في لحظة سكبه الشراب استولى على المسدّس ذي البكرة الذي كان الزعيم الخصم قد وضعه بجانبه، وبسرعة تفوق الوصف، أطلق رصاصتين أردتا كلاً من العجوز تشن وعدوّه، ثم سأل الأشقياء الآخرين: «مَن منهم لا يرغب في الاستسلام؟» راح الأشقياء يتبادلون النظرات ولم ينبس أحد منهم بكلمة. عقِب هذه الحوادث استقرّ سونغ غوتاي في منزل تشن العجوز وورث جميع نسائه.

يسرد على مسمعي هذه الحكاية بحماسة بادية. فالمؤكّد أنّه لا يكذب حين يزعم أنّ محاضراته تستدرّ دموع الطالبات. يقول بعد ذلك إنّه في العام ١٩٥٠ حاصر جنود كتيبتين، تحت جنح الليل، المبنى والفناء الضيّق، وعند الفجر أطلقوا نداءً يحثّ الأشقياء على تسليم سلاحهم

والعودة إلى الطريق المستقيم. كانت البوّابة تحت نيران الأسلحة الرشّاشة ولا أحد يسعه الفرار. كان يسرد الوقائع كأنّه هو أحد المشاركين فيها.

ــ وبعد؟

ــ في البداية، قاوموا بالطبع، ودمّر الفناء الضيّق بالمدفعيّة. فرمى الناجون أسلحتهم واستسلموا، ما عدا سونغ غوتاي. دخل الجنود وفتّشوا المكان ولم يجدوا فيه سوى بضع نساء منتحبات. يُقال إنّ حجرته كانت مجهّزة بممرّ سرّي يفضي إلى الجبل، غير أنّ أحدًا لم يهتد إلى هذا الممرّ، وتوارى عن الأنظار. في يومنا هذا يكون قد انقضى أربعون عامًا. البعض يقول إنّه ما زال حيًّا، والبعض الآخر يقول إنّه ميت، ولا دليلَ على هذا الزعم أو ذاك. مجرّد تخمينات.

يتّكئ إلى مسند كرسي من الخيزران ويردف قائلاً وهو يعدّ على أصابعه:

ــ هناك ثلاث فرضيّات حول مصيره: إحداها تفترض أنّه فرّ إلى مقاطعة أخرى حيث أقام غُفلاً، وعاش حياة قروي عادي. والثانية تقول إنّه مات أثناء المعركة، غير أنّ الأشقياء تكتّموا حول الأمر. فللأشقياء قواعدهم وأعرافهم بهذا الشأن. وباستطاعتهم أن يتقاتلوا في ما بينهم بما لا يوصف من الشراسة، غير أنّ أحدًا منهم لن يعترف للخارجيّ بما يدور في الداخل. لهم أخلاقهم الخاصّة ــ حسّ الفروسيّة لدى الخارجين على القانون ــ من دون التخلّي عن أشدّ ما في القسوةِ من القسوة. كما أنّ للأشقياء شخصيّة مزدوجة. أمّا النساء فما إن يدخلنَ هذا الملاذ، على

الرّغم من كونهنّ مختطفات، حتى ينتمين إلى العصبة ولا يخنّها مطلقًا وإن كان عليهنّ أن يخضعنَ لإهانات أفرادها.

يهزّ رأسه، لا لأنّه لا يفهم، بل لعلّ الأرجح لأنّه يفكّر في الحقيقة المعقّدة جدًّا للكائنات البشريّة.

ــ طبعًا لا يسعنا استبعاد الفرضيّة الثالثة: قد يكون فرّ إلى الجبل، ولم يقدر على الخروج منه، فمات جوعًا.

ــ هل سبق لأحد ما أن ضلّ طريقه في الجبل ومات فيه؟

ــ طبعًا! ولا أقصد فقط الفلاّحين الذين قدِموا من مناطق أخرى لجمع الأعشاب الطبّيّة، بل أقصد أيضًا الصيّادين المحلّيّين الذين ماتوا هناك منهوكين من التعب.

ــ أحقًّا؟ عبارته الأخيرة تثير فضولي.

ــ العام الفائت، قضى أحدهم ما يزيد على العشرة أيّام في الجبل ولم يعد. أخطر أقرباؤه دارَ حاكم مركز المقاطعة الذي لجأ إلينا. فاتّصلنا بمخفر شرطة المنطقة الحرجيّة الذي أطلق بدوره كلبًا بوليسيًّا بحثًا عن الرجل. أعطوه بعض ملابس المفقود كي يستروِحها فيتتبّع الأثر. في النهاية عُثِرَ عليه ميتًا، عالقًا في صدع صخرة.

ــ هل هذا ممكن؟

ــ كلّ شيء ممكن. الذعر، الصيد المحظور... فالصيد محظّر تمامًا في المناطق المحميّة. حتى أنّ رجلاً قتلَ أخاه الصغير.

ـ لماذا؟

ـ اختلط عليه الأمر، وحسبه دبًّا. كان الشقيقان ينصبان أفخاخًا في الجبل لجني المسك. المسك يدرّ مالاً وفيرًا. اليوم، أصبحت الأفخاخ أكثر تطوّرًا. يكفي أن يفكّك المرء كبلات ورُشَ حثّ الحراج لكي يحصل على أسلاك فولاذ تسمح بأن يزرع الجبل بمئة فخّ في نهار واحد. المساحة شاسعة جدًّا فلا يسعنا مراقبة كلّ شيء، ولا حيلةَ أمام جشعهم الكبير. هذان الشقيقان نصبا الفخّ تلو الفخّ في الجبل، ثم افترقا. فإذا صدّقنا الخرافات الشائعة في هذه الناحية لاقتنعنا بأنّهما ضحيّتا سحر. كانا يطوّقان قمّةً فوضعتهما الصدفة وجهًا لوجه. ولكثافة الضباب ظنّ الشقيق الأكبر أنّ خيال شقيقه الأصغر هو دبّ فأرداه. ثم عاد إلى منزله في منتصف الليل حاملاً معه بندقيّة شقيقه. وأسند البندقيّتين إلى باب زريبة الخنازير لكي تراهما أمّه حين تأتي عند الفجر لإطعام البهائم. ومن غير أن يعرّج حتى على بيته، عاد أدراجه إلى الجبل، وعندما عثر على المكان الذي مات فيه شقيقه، حزّ عنقه.

أنزل من المبنى الفارغ وأتريّث هنيهات في هذا الفناء الذي يتّسع لقافلة بأكملها، ثم أسير باتّجاه الطريق العريضة. ما زالت مقفرة، لا سيّارات ولا مارّة. أتأمّل الجبل الأخضر الذي يكتنفه الضباب قُبالتي. يلوح للعيان منحدر حرجيّ اكتسى بلون رماديّ، وقد أُتلفَ تمامًا ما عليه من أشجار. في ما مضى، قبل أن تُشقّ الطريق إلى هنا، كان المقلبان مكسوّين بأحراج كثيفة. فلطالما وددتُ أن أتوغّل في الغابة البكر، من غير أن أدري لِمَ تنتابني رغبة مثل هذه.

رذاذ المطر الخفيف يهمي من دون توقّف، ويزداد غزارةً، ناسجًا حجابًا شفيفًا، كاسيًا ذرى الجبال، ماحيًا الوديان والوهاد. رعدٌ هادرٌ وأصمّ يدوّي وراء القمم. أنتبه فجأة إلى أنّ الصوت الذي يغلب على سمعي هو خرير النهر أسفل الطريق. لا يكفّ أبدًا، متدفّقًا على الدوام، بمجراه العنيف إيّاه. النهر النازل من الجبال المكلّلة بالثلوج نحو مصبّه في مينجيانغ يتدفّق بعنفٍ زاخرٍ بطاقةٍ خطيرة وطاغية لا تمتلكها، في العادة، مجاري المياه السهليّة.

الفصل الخامس

التقيتها قربَ المقصورة. كان انتظارًا ساهيًا، أملاً غامضًا، لقاءً بمحض الصدفة، غير متوقّع. عند المغيب عدتَ أدراجك إلى ضفّة النهر. أسفل درجات الحجر المنحوت يطفو صوت مضاربِ الغسيل واضحًا على صفحة المياه. هي واقفة، بقرب المقصورة. مثلك، تتطلّع إلى الجبال الممتدّة على مدّ النظر على الضفّة الأخرى، ولا يسعك إلاّ أن تنظر إليها. إنّها خارج مألوف هذه الدسكرة الجبليّة الصغيرة: فلا قامتها ولا مظهرها ولا شرودها قد تنسجم مع سلوك أهل الناحية. تبتعد، ولكنّك في قرارة نفسك، تفكّر فيها، وعندما تعود أدراجك قبالة المقصورة، تكون اختفت. أعتمت الدنيا قليلاً. نقطتان حمراوان تلتمعان بين الحين والحين في الداخل، أناسٌ يتحادثون ويتضاحكون برويّة. لا تميّز وجوههم، غير أنّك تعلم، من نبرات أصواتهم، أنّهم شابّان وفتاتان. لا يبدو أنّهم من هذه الناحية، هم أيضًا. نبرتهم واثقة، وأصوات جهيرة، سواء كانوا يتمازحون أو يتشاجرون. وإذ تصغي إلى الثنائيّين تسمع تعداد الأساليب التي استخدمها كلّ منهم لخداع أهلهم وأرباب عملهم، وأيّ ذرائع ابتدعوها للتغيّب من غير عواقب. وهم في الأثناء لا يكفّون عن الضحك، مسرورين لجدوى صنيعهم. أمّا أنتَ، فقد جاوزتَ هذه السنّ،

وما عدت مضطرًّا لتحمّل مثل هذه العوائق، وما عدت تشعر بمثل بهجتهم. لعلّهم وصلوا إلى هنا على متن حافلة ما بعد الظهر، لكنّك تنتبه فجأة إلى أنّ لا حافلة تأتي من مركز المقاطعة إلاّ في الصباح. لا بدّ إذًا من أنّهم وصلوا بوسائلهم الخاصّة. وهي من دون شكّ لم تأت برفقتهم، لأنّها ليست مبتهجة مثلهم. تغادر المقصورة، وتسير بمحاذاة النهر وتسلك الدربَ الهابط قبالتك. أصبحت تعرف المكان جيّدًا: بين عدد من مداخل البيوت القائمة على ضفّة النهر، هناك واحد، آخرها، هو محلّ لبيع الكحول والسجائر والورق الصحّي، ومن بعده ينعطف الشارع المبلّط باتّجاه البلدة. بعد ذلك، نسير بمحاذاة الأسوار العالية المحيطة بفناءات المنازل، ولجهة اليمين، تحت المصباح الباعث ضوءًا شاحبًا، باب أسود: مدخل دار بلديّة مركز الكانتون. حجم مبانيها وارتفاع مبانيها الملحقة بأبراج حراسة يدلاّن على كونها دارة سابقة لأناس موسرين. على مقربةٍ، بستان خضار مسوّر بجدار من الآجرّ المهشّم، وقبالته مستشفى. وعلى الجهة المقابلة من زقاق فاصلٍ، صالة عرض مشيّدة حديثًا حيث يُعرض أحد أفلام الكونغ فو. لقد جبتَ أنحاء البلدة مرارًا ولم تقترب منها، ومع ذلك تعرف مواقيت العرض المسائي. إذا سلكنا الزقاق الممتدّ بمحاذاة المستشفى يمكننا أن نصل إلى الشارع الرئيسي، قبالةَ المبنى الضخم للمخزن الكبير. كلّ شيء واضح في ذهنك، كما لو أنّك أحد سكّان هذه البلدة القدماء. وبمقدورك حتى أن تكون خير دليل سياحي فيها لمن يشاء من الزوّار. وتشعر فعلاً بالحاجة إلى التواصل مع أحد ما.

ما لم تتوقّعه هو أن يكون هذا الشارع الضيّق عاجًّا بالحياة في المساء. وحده المخزن الكبير أسدل بوّابته الحديد الجرّارة، وأحكم إقفال

نوافذ واجهته. الحوانيت الأخرى جميعها تبقى فاتحة أبوابها. وحدها المفارش التي تفرد أمامها أثناء النهار، تُكدّس جانبًا ويوضع محلّها طاولات وكراسٍ أو حتى أسرّة من القصب. والجميع يأكل أو يثرثر أو يشاهد التلفزيون الموضوع داخل الحوانيت. وفي الطبقات العليا، تلوح الخيالات المتحرّكة لساكني البيوت. البعض يعزف على المزمار، والأولاد ينتحبون. كأنّه سباق مَن يُحدث القدر الأكبر من الضجيج. آلات التسجيل تبثّ أغانيَ كانت رائجة في المدينة قبل بضع سنوات. وعلى الرّغم من كونها تُغنّى بنبرة رخوة ومتكلّفة، فإنّها تنسجم كلّيًّا مع إيقاع الموسيقى الإلكترونيّة العنيف. على عتبة أحد البيوت، رجل جالسٌ يُجادلُ جليسَه. وفي اللحظة نفسها تخرج امرأة متزوّجة ترتدي قميصًا مكوّرًا وشورتًا وتنتعل صندالاً من البلاستيك، حاملةً طستًا من المياه الوسخة وتلقيها عبر الشارع. صبية يعبرون زرافاتٍ. فتيات يافعات يتسكّعن، يدًا بيد، وكتفًا بكتف. وأنتَ، تلمحها فجأة أمام منضدة فاكهة. تحثّ الخطى. إنّها تشتري بعض ثمار الليمون الهندي، الليمون الهندي الوافد طازجًا إلى السوق. تقترب. وتسأل أنت أيضًا عن سعره. تتحسّس ليمونة مدوّرة تمامًا، فاقعة الاخضرار، ثم تتابع طريقها. أنت أيضًا تقول إنّها حقًّا ما زالت خضراء غير ناضجة. تلحق بها. هل أنتِ في إجازة؟ يُخيّل إليك أنّها تجيبُ بنعم غير واضحة، مومئةً برأسها، مموّجةً خصلات شعرها. تشعر بشيء من القلق، خشية صدّها لك. لم تكن تتوقّع أن تجيبك بمثل تلك العفويّة. لذا تسترخي أعصابك وتسير معها جنبًا إلى جنب.

ـ هل جئتِ أنت أيضًا لأجل لينغشان؟ عليكَ أن تكون حاضر الذهن أكثر ممّا تفعل. هزّت رأسها فماج شعرها مجدّدًا. لقد اهتديتَ إلى لغة مشتركة بينكما للتخاطب.

ـ هل أنتِ بمفردك؟

لا تجيب. أمام حانوت مُزيّن مزوّد بلمبة فلوريسان، ترى وجهها، يافعًا جدًّا، ولكنْ عليه علائم التعب، ما يزيد في حسنه إثارة. ولدى رؤيتك امرأة معتمرة خوذة كهربائيّة لتجعيد الشعر، تقول إنّ الحداثة تسير على أكثر من قدم وساق في هذه النواحي. تتحرّك عيناها قليلاً، ثم تضحك. تقلّدها. شعرها الأسود اللامع الطويل منسدل على كتفيها. تودّ أن تقول لها إنّ شعرها خالٍ من العيوب، ثم تقول في سرّك إنّ في الأمر شيئًا من المبالغة فتُحجِم. تمشي بجنبها، لا تنبس بكلمة أخرى، لا لأنّ لا رغبة لك في التقرّب منها، بل لأنّك فجأة ما عدتَ تدري ماذا تقول. وببعض الحرج تحاول أن تنقذ نفسك من هذا الموقف.

ـ هل لي أن أصحبك بعض الطريق؟ عبارة بلهاء أخرى.

ـ أنتَ شخص غريب!

يتهيّأ لك أنّها غمغمت قائلةً ما سمعت: عبارة تفيد الموافقة كما تفيد العكس. لكنّك تشعر بأنّها تُبدي سرورًا ما، فتمشي على وتيرة خطاها الرشيقة. والحقيقة أنّها ليست مجرّد طفلة، كما أنّك، أنت أيضًا، لم تعد يافعًا. تودّ أن تحاول استمالتها إليك.

ـ أستطيع أن أكون مرشدك السياحي، تقول. هذا بناء من عصر سلالة مينغ، يعود بناؤه إلى نحو خمسمئة عام على الأقلّ. وما تشير إليه

هو حائط السور خلف حانوت العقاقير التقليديّة الذي تبدو سقفيّات مدخله المشمّرة الحوافّ، القائمة على جبهات جَمَلون، وكأنّ ضياء النجوم يُبرزها من كنف العتمة. لا ضوء قمر هذا المساء. وقبل خمسمئة عام، في عهد سلالة مينغ، لا بل قبل بضعة عقود من الزمن، لا أكثر، كان على المرء أن يتزوّد بمصباحٍ لكي يسير ليلاً في هذا الشارع. وإذا كنتِ لا تصدّقين ما أقول، فما عليك إلاّ أن تغادري الشارع متوغّلةً داخل الأزقّة المظلمة المعزولة، عندها يعود بك الزمن إلى الماضي على بعد خطوات، لا أكثر، من هذا المكان.

بينما تتبادلان أطراف الحديث تجدان نفسيكما أمام بيت الشاي المُسمّى «**الأريج الأسمى**». أمام بابه، عند زاوية الشارع يتزاحم أشخاصٌ كُثُرٌ، أطفالاً وبالغين. وإذ تلقيان بنظرة إلى الداخل، تتوقّفان بدوركما. في الصالة الطويلة الضيّقة، جُعِلَت الطاولات صفوفًا. والرؤوس تتراصفُ في خطّ مستقيم فوق المقاعد الموضوعة بالعرض، وتتوسّط طاولة مستديرة. نسيج أحمر مطرّز بنقوش صفراء يتدلّى منها. وفي الخلف، على مقعد طويلٍ مُرتَفِعِ القوائم، يجلس راوٍ وقد ارتدى ثوبًا طويلاً ذا كُمَّيْن فضفاضَيْن.

«في الغربِ تغيب الشمس، غيوم مُلبّدة تحجب القمر، وفي طليعة الشياطين، يقصد الأفعوان الأب والأفعى الأمّ، على جري عادتهما، معبد **السّعة** اللازورديّة الكبير. كانت فرحتهما عظيمة إذ رأيا الصبية والفتيات الصغيرات المسمّنات طريّات البشرة، ورأيا الخنازير والأبقار والخراف معروضةً على الجانبين. فقال الأفعوان الأب للأفعى الأمّ: بفضلِك أنتِ يا

زوجتي الحبيبة، أرى اليوم هدايا عيد مولدي بمثل هذه الوفرة. فتجيبُ الأفعى الأمّ قائلة: اليوم هو عيد مولد السيّدة أمّك، فلنحرص على أن تكون آلات العزف متوافرة». طق! لكي يوقظ الحضور يضرب سطح الطاولة بالمُطَقطِقة التي يحملها بيده: «أحسنتم!».

ثم يضع المُطَقْطِقة على الطاولة ويمسِكُ بمِقْرَعةٍ يضرب بها طبلاً ذا جلدةٍ غير مشدودة بإحكام، مُطلِقًا قَرعًا رتيبًا، وباليد الأخرى يُمسِك بطارةٍ مزوّدة بأقراص معدنيّة. يهزّها برفقٍ فتحدِثُ رنينًا، ويستأنف السردَ بصوتٍ أبحّ:

«مِن فورِه يُصدر الأفعوانُ الأب أوامره، وينهمك الجميعُ بتنفيذها. وبلمح البصر يُزيّن المعبد وتصدح موسيقى الآلات». ثم يرفع صوته على نحوٍ مباغت: «وكان الضفدع يغنّي بأعلى صوته، والبومة الصمعاء تلوّح بمِخصَرتها». تعلو نبرته فجأةً مفخّمةً شبيهة بنبرة ممثّلي التلفزيون، ما يُثير قهقهةً بين الحضور.

تنظر إليها وتضحكان سويًّا. هذه البسمة هي ما كنتَ تنتظره.

ــ هل ندخل؟ وجدتَ شيئًا تقوله. تتقدّمها مجانبًا الطاولات والمقاعد وأرجل الناس. تختار مقعدًا ما زال فيه مطرحٌ شاغر، وتجلسان في المطرح الضيّق متلاصقين. تلاحظان أنّ الراوي أثار حماسة الحضور في الصالة. ينهض، ويضرب الطاولة مجدّدًا بمُطَقطِقته مُحدثًا فرقعة مدوّية.

«يبدأ احتفال عيد المولد! الشياطين...» ومُطلقًا أصواتًا مختلفةً آي آي آي، أوي أوي أوي، يلتفتُ يسرةً رافعًا قبضةً غطّتها يده الأخرى

بمثابةِ تبريك، ثم يلتفت يمنةً ملوّحًا بيديه الاثنتين، مقلّدًا شيطانًا عجوزًا: «أرجوكم، أرجوكم!».

ــ قد يُخيّل لمَن يسمعه أنّه يسرد هذه الحكاية منذ ألف سنة، تسرّ في أذنها قائلاً.

ــ وبوسعه أن يواصل سردها، تجيبُ قائلةً.

ــ لألف سنة أخرى؟

ــ أجل، تغمغمُ قائلةً من شفتيها المضمومتين كولدٍ ماكر. الأمر الذي يُشعرِك ببهجةٍ دفينة.

«ثم تمكّن تشين فاتونغ هذا في ثلاثة أيّام من إتمام الرحلة التي تستغرق عادةً سبعة أمثال سبعة التسعة والأربعين يومًا إلى سفحِ جبال دونغ غونغ. والتقى هناك وانغ التاوي. فانحنى فاتونغ أمامه: السلام لكَ، أيّها المعلّم الموقّر. فأجاب التاوي: السلام لَك، أيّها الزائر المُكرَّم. هلاّ تدلّني، لو سمحت، أين يقع معبد **السّعة** اللازورديّة؟ ولِمَ تسأل؟ لقد ظهرت هناك شياطين ضارية، مُرعِبة، فمَن يجرؤ على الذهاب إليه؟ خادمُك المدعوّ تشين، وكنيته فاتونغ، قَدِمَ خصّيصًا للقبض على هذه الشياطين. يقول التاوي بشيء من الحسرة: للأسف الشديد، اليوم ذهب صبية وفتيات يافعات إلى هناك، ولعلّهم التُهِموا الآن، مَن يدري؟ لدى سماعه هذا الكلام، صاح فاتونغ: آي! يجب أن نهرع لإنقاذهم!».

طق! يمسك الراوي بيده اليمنى مقرَعة الطبل وبيده اليسرى يهزّ طارةَ أجراسه. يُجيلُ بصرَه في الأرجاء مبحلقًا بعينين بيضاوين مُتَمْتِمًا

وقد سَرَت رعدة في جسمه... تشتمّ عطرًا خفيفًا يسري فجأةً وسط روائح التبغ والعرق الحرّيفة. عطر يفوح من شعرها، منها. وتسمع أيضًا قرقشةَ بزور البطيخ تحت أسنان جارك الذي لا تحيد عيناه عن الراوي مرتديًا ثوبَ الاحتفالات. بيده اليمنى يمسك بالسكّين المقدّس، وبيده اليسرى يمسك بقرن التنّين. يتسارع نطقه الكلمات أكثر فأكثر، كأنّما تلفظ شفتاه سبحةَ لآلئ:

«بثلاث ضربات، طق، طق، طق، يُصدر ثلاثة أوامر سيرٍ لحشدِ جنود وقادة جبال لوشان وماوشان ولونغهوشان السماويّين، أويي يو، هاها تا، كولونغ تونغتشيان، إينيا... يا... يا... ووهو... أيّها الربّ السماوي، يا إمبراطورة الأرض، إنّي تلميذ **تشنجون** الذي أرسلني لقتل الشياطين. بيدي السيف، أحلّق أينما شئتُ بعجلاتي التي من نار وريح...».

تستدير وتنهض. تتبعها متعدّيًا أرجل المشاهدين الذين يرمقونك بنظرات حانقة.

ــ مُستعجلان كمرسومٍ إمبراطوري!

قهقهات تتردّد خلفكما.

ما الذي دهاكِ؟

لا شيء!

لِمَ لا تبقين؟

أشعر بغثيان خفيف.

هل أنت متوعّكة؟

لا، أصبحت أفضل حالاً. كان الجوّ ضاغطًا في الداخل.

تسيران في الشارع، والناس الذين يتبادلون أطراف الحديث جالسين على الجانبين ينظرون إليكما.

دعينا نبحث عن ركنٍ هادئ. حسنًا؟

حسنًا.

تصحبها إلى زقاق، مُخَلِّفَيْن وراءكما الضوضاء والمصابيح. ما من مصباح واحد في الزقاق، هناك فقط نورٌ شاحبٌ يتسلّل من نوافذ البيوت المضاءة. تبطئ في سيرها. تسترجع المشهد الذي تخيّلته للتوّ.

ألا تجدين أنّنا، أنا وأنت، نشبه الشياطين التي عملوا على طردها؟

تطلق ضحكةً من القلب.

وتضحكان سويًّا غير قادرين على تمالك نفسيكما، حتى جعلها ضحكُها تنحني إلى الأمام.

خفق حذائها الجلد له وقع مختلف على الأرضيّة الحجر. عند طرف الزقاق، حقل أرزّ. ومن بعيد جدًّا تلوح تحت ضوء خافت بضعة مساكن. أنتَ تعلم أنّه مبنى المدرسة الوحيدة في هذه القرية، وأبعد منها، في ظلمة الليلِ الحائلة، تلوحُ أخيلة الجبال تحت ضوء النجوم الملتبس. تهبّ الريح. هواء عذبٌ يهبّ علينا كخفق أجنحة، ولا يلبث أن يبتعد مختبئًا في عطرِ أكداس الأرزّ المحصود. تتّكئ على كتفها، فلا تبتعد عنك. تكفّان عن الكلام، وتسيران قُدمًا على الحوافّ البيضاء لحقول الأرزّ.

أيعجبك المنظر؟

أجل.

أليس رائعًا؟

لا أدري، لا يسعني القول. لا تسأل.

تقترب منها ملتصقًا بجنبها، فتلتصق بجنبك هي أيضًا. تحني رأسك لكي تتأمّل وجهها. لا تميّز ملامحها وعينيها، فقط تلاحظ أنّ أنفها ذَلِقٌ. تَنْشُقُ أنفاسَها الفاترة التي ألفتها. لكنّها تتوقّف فجأة.

لنعد أدراجنا، تهمس قائلة.

إلى أين؟

يجب أن أرتاح قليلاً.

سأصحبك في طريق العودة.

لا أريد أن يصحبني أحد.

ولبثت مصمّمة على موقفها.

ألديك أصدقاء أو أقارب هنا؟ أم أنّك جئت طلبًا للراحة؟

لا تجيب. لا تعلم من أين جاءت وإلى أين تذهب. لا يسعك إلاّ أن ترافقها حتى الشارع العامّ. تغادرك على نحو مباغت وتختفي كأنّها حكاية أو حلم.

الفصل السادس

مخيّم مراقبة دببة الباندا المُقام على ارتفاع ألفي متر وخمسمئة، مُشبَع بالماء من كلّ ناحية. فِراشي وأغطيتي ترشح رطوبة. سبق أن قضيت فيه ليلتين. أثناء النهار أرتدي سترة الريش التي زوّدني بها المشرفون على المخيّم. جسمي نديّ من شدّة الرطوبة. اللحظة الوحيدة المحبّبة إلى قلبي هي اللحظة التي نجلس فيها حول النار لتناول حساء ساخن. قدر كبيرة من الألومنيوم معلّقة بسلك مثبت بعمود سقفِ الملاذ الذي يُستخدم كمطبخ. تحتها، الأغصان المكدّسة لم تقطّع. تشتعلُ شيئًا فشيئًا فوق الرماد. تنبعث منها ألسنة لهب عالية هي أيضًا الإضاءة الوحيدة المتوفّرة للمكان. كلّما تحلّقنا حول النار لنأكل، يأتي سنجاب ويقف بجوار المطبخ مجيلاً بصرَه في الأرجاء بعينيه المدوّرتين. لا يُتاح للرجال أن يجتمعوا إلاّ في موعد وجبة المساء. ويغلب المزاح على أجواء جلستهم. عند فراغهم من الأكل تكون السماء أظلمت تمامًا، والمخيّم قد أصبح محاصرًا من كلّ ناحية بالغابة الشاسعة المظلمة، فيتسلّل الرجال كلّ إلى ملاذه، منصرفين إلى أشغالهم تحت ضوء مصباح الزيت.

منذ سنوات طويلة وهم يعيشون في أعلى الجبال. قالوا كلّ ما يودّون قوله، وانتهى الأمر. ولا يدرون شيئًا من مستجدّات العالم الخارجي. فقط يستخدمون رجلاً من أهل الجبل من إتنيّة شيانغ لكي يأتيهم في سلّة على ظهره بالخضار الطازجة وقطع لحم الخنزير أو الضأن من آخر قرى الجبل، **معبر وولونغ**، القائمة على ارتفاع ألفي متر ومئة. مركز إدارة المحميّة الطبيعيّة أبعد من القرية المذكورة ولا يقصدونه، مداورةً، إلاّ مرّة واحدة في الشهر، وربّما مرّة واحدة في أكثر من شهر، لكي يأخذوا فيه قسطًا من الراحة ليوم أو يومين. يقصدونه لقصّ شعورهم والاغتسال أو للحصول على وجبة طعام لذيذة. أمّا إذا تراكمت أيّام إجازاتهم المستحقّة، فقد يستقلّون سيّارة المحميّة الطبيعيّة للقاء حبيباتهم في شنغدو أو العودة إلى أسَرِهم المقيمة في مدن أخرى. الحياة لا تبدأ في نظرهم إلاّ في تلك اللحظة. ففي المخيّم، لا تصلهم الصحف، ولا يستمعون إلى الراديو. ريغان، إصلاح النظام الاقتصادي، التضخّم، اقتلاع التلوّث الروحي، جائزة «المئة زهرة» السينمائيّة، وغيرها وغيرها، كلّ هذا العالم الصاخب، البعيد جدًّا في نظرهم، لَبِثَ، هناك، في المدن. وحده حامل الشهادة الجامعيّة الذي ألحق بهم، في السنة المنصرمة، يضع سمّاعتين على أذنيه باستمرار. ولدى اقترابي منه وجدت أنّه يتعلّم الإنكليزيّة. شابّ آخر يدرس على ضوء مصباح الزيت. وهما الاثنان يستعدّان لمباراة الترقية إلى وظيفة **مرشّح لرتبة باحث** لكي يتمكّنا من مغادرة هذا المكان. مراقب آخر يدوّن على مخطّط طوبوغرافيّ جوّيّ كلّ إشارات الراديو التي يلتقطها كلّ يوم. فهذه

الإشارات تبثّها أجهزة إرسال مثبتة في أطواق دببة الباندا التي أُسِرَت ثم أُطلِقَت مجدّدًا في الغابة الشاسعة.

كان العالم النباتي الذي جاب برفقتي أرجاء هذه الجبال طيلة يومين قد استلقى بجانبي. ولا أدري إذا غفا أم لا. مستلقيًا بثيابي، متدثّرًا بأغطيتي الرطبة، لا أشعر بالدفء ولا أفلح، مهما حاولتُ، في تدفئة نفسي. يُخيّل إليّ أنّ دماغي قد تجمّد هو أيضًا. مع أنّنا في شهر أيّار الربيعي، ولكن طبعًا بعيدًا من هذه الجبال. أشعر بأنّ قرادة تنهش فخذي من الداخل. لا بدّ أنّها زحفت من تحت البنطال أثناء سيرنا فوق العشب خلال النهار. كبيرة بحجم ظفر الخنصر وصلبة مثل ندبة. أضغط عليها بقوّة بطرف إصبعي فلا أفلح بانتزاعها. أعلم أنّ محاولة انتزاعها بقوّة أكبر قد تؤدّي إلى قطعها إلى نصفين لأنّ فمها مطبق بشدّة على لحم فخذي. وليس أمامي إلاّ أن أطلب مساعدة أحد العاملين في المخيّم المستلقي على فراش بجانبي. فينزع عنّي ملابسي ويصفع فخذي بقوّة منتزعًا مصّاص الدماء هذا. ثم يقذف به باتّجاه المصباح الذي تنبعث منه على الفور رائحة شواء نفّاذة. ويعدني بأن يتدبّر لي ضمّادات في صباح اليوم التالي.

تحت سقيفة الملاذ يسود سكون مطبق. فقط يُسمَعُ تقطّر الماء المتساقط من أغصان الغابة. في البعيد تقترب الريح، غير أنّها لا تصل إلى هنا، كأنّها لا تلبث أن تعود أدراجَها، مُعْوِلةً بين جنبات الوهاد البعيدة السحيقة. ثم لا يلبث الماء أن ينشّ عبر الحائط الخشب، فوق

رأسي، مبلّلاً الغطاء الذي أتدثّر به. هل تمطر؟ أطرح على نفسي السؤال من دون أن أفكّر. في الخارج، في الداخل، كلّ شيء رطب، وقطرات المياه تتساقط، القطرة تلو القطرة... عقب ذلك أسمع فرقعةً جليّة وقريبة يتردّد صداها في أرجاء الوهد.

ـ مصدرها **الصخرة البيضاء**، يقول أحدهم.

ـ تبًّا، إنّهم يصطادون من غير ترخيص، يقول آخر واثقًا.

يستيقظ الرجال جميعًا، ولعلّ بعضهم لم يكن بعدُ قد غفا.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ منتصف الليل إلاّ خمس دقائق.

يصمت الجميع، كأنّهم ينتظرون دويّ طلقة أخرى. ولكن لا شيء. ففي الصمت المقصوف الذي يبقى معلّقًا، يتردّد خارج الملاذ وقعُ تقطّر المياه وأصوات أخرى لا تلبث أن تتلاشى في فضاء الوهد. فجأة، يُخيّل إلينا أنّنا نسمع دبيب حيوان برّي. ها هنا موطن الحيوانات البرّيّة، ومع ذلك، فإنّ البشر لا يدعونها وشأنها. في العتمة، ومن كلّ نحوٍ وصوب، نستشعرُ حياةً وحركة. الليلُ يبدو خطيرًا ويوقظ في روعك ذلك الخوف الدائم بأن تكون مُراقبًا، أو مُطاردًا، أو على وشك الوقوع في فخّ. ويستحيل عليك أن تستردّ الطمأنينة التي تصبو إليها بقوّة...

ـ إنّه هنا!

ـ مَن؟

ــ بَيْبَي، هنا! يصيح الطالب قائلاً.

تسري بلبلةٌ غير معهودة في أرجاء الملاذ. وكلّ من فيه يقفز من فراشه متأهّبًا.

في الخارج، تنفّس وهمهمة. فالباندا التي توعّكت إثرَ الوضع وأنقذوا حياتها، عادت، جائعةً، تبحث عن طعام! كانوا ينتظرون عودتها. كانوا واثقين أنّها سوف تعود. فمنذ عشرة أيّام كانوا يعدّون الأيّامَ مؤكّدين أنّها ستعود. ينبغي أن تعود قبل نموّ شتول الخيزران الطريّة، وهذا ما حدث فعلاً. وإذا بالغالية على قلوبهم تخرّشُ بمخالبها ألواح الجدار.

يفتح أحد الرجال الباب أوّلاً، ويتوارى حاملاً بيده سطلاً مملوءًا بعصيدة الذرة. يلحق به الحاضرون جميعًا. في العتمة التي تطمس الأشكال والألوان، تتراءى كتلة سوداء مترنّحة. يسكب الرجل محتوى دلوه في وعاء فتتقدّم الباندا مُهَمْهِمةً كأنّها تلحقُ بالصوتِ وتائر أنفاسها. تُسلّط جميع بطّاريّات الجيب على الحيوان الضاري، وعلى بدنه الرماديّ الأبيض، وقامته الكالحة وعينيه المحاطتين بالسواد. لا تعير الدبّة الأمرَ انتباهًا، فهاجسها العثور على الطعام، فتتقدّم مطأطئة الرأس. يخطر لأحدهم أن يلتقط لها صورة: التماع الفلاش يوشم عتمةَ الليل. يقترب الجميع منها، مناديًا إيّاها باسمها، مداعبًا فروتها الخشنة مثل فروة خنزير. ترفع رأسها فينفضّ الرجال من حولها عائدين إلى ملاذاتهم. هذا حيوان برّي: فدبّة الباندا قادرة على قتالِ نَمر. عندما جاءت للمرّة الأولى لكي تأكل من وعاء الألومنيوم التهمَت مع الطعام الماعونَ الذي تبرّزته في ما بعد قطعًا صغيرة. آنذاك تتبّع الرجالُ أثر برازها. وعند مزرعة

تربية الباندا الواقعة في وسط المحميّة، عند أسفل الجبل، حاول صحافي كان يريد أن يبرهن للناس بأنّ الباندا مخلوقات لطيفة كالقطط أن يلتقط صورةً لها برفقة إحداها ممسكًا بذراعها. ضربة واحدة من مخالبها كانت كافية لانتزاع أعضائه التناسليّة، ممّا اضطرّ المسعفين إلى نقله بسيّارة جيب إلى شنغدو لإنقاذ حياته.

لمّا فرغت من طعامها، راحت تعضعض قصبة سكّر ملوّحةً بذنبها الضخم قبل أن تتوارى في دغل الخيزران بقرب المخيّم.

ـ لطالما قلت بوضوح إنّ بَيْبَي ستعود ذات يوم.

ـ في العادة، هي تعود على الدوام في مثل هذا الوقت، بين الساعة الثانية والثالثة.

ـ سمعت همهمةً عندما كانت تخرش الباب بأظافرها.

ـ ابنة الكلب، لها خبرة في التسوّل!

ـ كانت تتضوّر جوعًا، لقد التهمت كلّ ما في الوعاء.

ـ تحسّستها بيدي، لقد ازداد وزنها.

يتناقشون بحماسة، لا يغفلون تفصيلاً من التفاصيل: من منهم سمعها أوّلاً، مَن بادر إلى فتح الباب، وكيف لمحها أحدهم من صدع الباب، وكيف تبعوها ووضعوا رأسها في الدلو، وكيف ربضت بجوار الوعاء، وأكلت بنهم. أحدهم يقول أيضًا إنّه أضاف السكّر إلى عصيدة الذرة، طعام الباندا. فهو أيضًا يفضّل الطعم السكّري في الطعام! كأنّ هؤلاء الذين لا يتبادلون الكثير من الكلام في ما بينهم في الأوقات العاديّة، إنّما يتكلّمون عن عشيقتهم، حين يتكلّمون عن بَيْبَي.

ألقيت نظرةً إلى ساعة يدي فإذا كلّ هذا لم يستغرق أكثر من عشر دقائق، غير أنّهم لا يكفّون عن الحديث بشأنه. مصابيح الزيت مضاءة، وعددٌ كبير منهم يجلس على الأسرّة. فممّا لا شكّ فيه أنّ الحدثَ يجلب بعض البهجة إلى حياتهم الرتيبة المعزولة في أعالي الجبل. ثم تطرّقوا في حديثهم إلى هانهان، الباندا الآخر. لقد أقلقهم دويّ الطلقة التي سمعوها. كان هانهان قد قُتل في الجبل على يد فلاّح يُدعى لِنغ جيجونغ. ففي ذلك الوقت كانوا قد تلقّوا إشارات من هانهان مصدرها مكان واحد بعينه، كأنّه مستقرّ في مكان واحد لا يتحرّك. وإذ خُيّل إليهم أنّه قد يكون مريضًا وأنّ الحالة خطيرة، انطلقوا بحثًا عنه. وتمكّنوا من نبش جيفة هانهان في الغاب، مطمورة تحت ترابٍ ما زال رطبًا، كما عثروا على طوقه المعدنيّ المزوّد بجهاز بثّ. ثم تابعوا بحثهم، مصحوبين بكلب صيّد، إلى أن بلغوا منزل لِنغ جيجونغ هذا حيث وجدوا جلد الحيوان ملفوفًا ومتدلّيًا من سقيفة المدخل. إشارات من باندا آخر يُدعى ليلي، كانوا أسروه وزوّدوه بطوق، اختفى هو الآخر في أرجاء الغابة الشاسعة. قد يكون أحد الفهود انتزع الطوق بضربة من فكّيه وربّما انتزعه أحد الصيّادين بضربة من عقب بندقيّته، لا أحد يدري على وجه الدقّة.

قُبيل بزوغ الفجر سُمِع دويّ طلقتين في أجواء المخيّم. وتردّد صداهما، هادرًا، بين جنبات الوَهدِ، كما ينتشر دخانٌ من فوهة مدفع، ولا يتبدّد إلاّ بعد حين.

الفصل السابع

تشعر بالندم لأنّك لم تضرب لها موعدًا، ولأنّك لم تتبعها، ولأنّك لم تجرؤ على استمالتها بالكلام الرومانسي المعهود، وبالأوهام المعسولة التي لا تقوم علاقة غراميّة من دونها. بالاختصار، تندم لأنّك أخفقت. وأنتَ الذي نادرًا ما تُعاني من الأرق، لم يغمض لك جفن تلك الليلة. وعند الصباح شعرتَ بأنّك أحمق، ولكن لحسن الحظّ أنّك لم تكن متهوّرًا. قد يكون رحيلها المباغت نالَ من عزّة نفسِك، غير أنّك لا تلوم في ذلك سوى شفافيّتك وصدقك المفرط مع ذاتك. أنتَ لا تعرف كيف تحبّ، وقد أفقدك ضعفك المسرف رجولتك، ففقدتَ القدرة على المبادرة. وبعد تردّد، صمّمت، مع ذلك، على الذهاب إلى ضفّة النهر لكي تجرّب حظّك.

تجلس داخل المقصورة متأمّلاً المنظر أمامك، متّبعًا بذلك نصيحة الخبير في مبيعات الخشب. في الصباح يحتشد الناس عند رصيف الركوب. ويتكدّسون على ظهر المعديّة متزاحمين، فيعلو خطّ عومها على حافّة التأزير. لقد رست للتوّ، وقبل أن تُربَط حبالها يتدافع ركّابها للنزول إلى الرصيف. كلّ شيء يصطدم بكلّ شيء، سلال الخيزران

المتدلّية من الحمّالات المزدوجة، والدرّاجات التي تدفعها الأيدي، والسباب المتبادل، والسير الحثيث في اتّجاه البلدة. تعبر المعديّة تكرارًا، ذهابًا وإيابًا بين الضفّتين لكي تنقل المنتظرين على الضفّة الأخرى. وفي النهاية يستعيد رصيف الركوب هدوءه. أنت وحدك في المقصورة، كالأحمق، تتظاهر بأنّك في انتظار موعد لم يُضرَب، وفي انتظار امرأة اختفت ولم تخلّف أثرًا، مثل حلم في وضح النهار. أنت تعلم، في قرارة نفسك، أنّك تعيش حياة مملّة، ما من شرارة تعكّر رتابة مجراها، ما من شغف، وجلّ ما تعرفه وتختبره هو السأم. أما زلت ترغب في أن تحيا من جديد، في أن تعرف، في أن تخوض التجارب؟

فجأة تدبّ الحياة مجدّدًا عند الضفّة، ولكن مصدرها، هذه المرّة، أعدادٌ من النساء. جالسات إحداهنّ لصق الأخرى على سلالم الحجر التي تلامس المياه، منصرفات إلى غسل الملابس أو الخضار أو الأرزّ. زورق مغطّى بحصر الخيزران يدنو من الضفّة، والرجل الذي يدير الدفّة عند مقدمه يصيح بهنّ. يرحنَ يثرثرنَ فيما بينهنّ من غير أن يفسحنَ له مجالاً. ولا تدري فعلاً إذا كان ما يجري هو مشاكسة بين عشّاق أم أنّه حقًّا عراك. ثم أخيرًا، تلمح خيالها. وتقول لها إنّك كنت تحسب أنّها ستعود، إنّها ستعود إلى جوار هذه المقصورة التي يحلو لك أن تسرد لها قصّتها. وتقول إنّ عجوزًا حكاها لك، وإنّه كان جالسًا هنا هو أيضًا، نحيلاً كعود حطب، محرّكًا شفتيه اللتين جفّفتهما الريح، مُدمدِمًا مثل شبح. تقول إنّها تخاف الأشباح، فتؤثر عندئذ أن تؤكّد لها أنّ تمتماته كانت أشبه بعويل ريح بين خطوط للتوتّر العالي. وتقول إنّ هذه

البلدة ورد ذكرها في كتاب «**مذكّرات تاريخيّة**» لمؤلّفه سيما تشيان[1] وإنّ رصيف الركوب قبالتكما كان يُسمّى في ما مضى بـــ **معبر يو**، لأنّ هنا، كما يُقال، تمكّن يو العظيم من تدجين المياه. عند الحافّة، صخرة مستديرة منحوتة، نقرأ عليها بصعوبة سبعة عشر حرفًا قديمًا على هيئة فرخ الضفدع. وبما أنّ أحدًا من الناس لم يتمكّن من فكّ رموزها، عمدوا إلى اقتلاع الصخرة لبناء جسر، ولكنّ الجسر لم يُبنَ في النهاية لعدم توفّر المال اللازم. ثم تشير إلى الجُمَل المتوازية التي دُوّنت بيد أحد معلّمي عصر سلالة سونغ. ذلك أنّ **جبل الروح** هذا الذي جئت بحثًا عنه مذكور منذ أمدٍ بعيد من قبل القدماء. والقرويّون الذين يعيشون هنا جيلاً بعد جيل لا يعرفون قصّة هذا المكان كما لا يعرفون قصّتهم هم. ولو دوّنت، من غير إضافة أو اختلاق، القصّة الخفيّة لهؤلاء الناس المقيمين في بيوت هذه البلدة وحجراتها، لَذُهِلَ الروائيّون أشدّ الذهول. تسألها إذا كانت تشاطرك الرأي أم لا. مثلاً، تلك المرأة العجوز الدرداء، المتغضّنة الجلد مثل ثمرة لفت محفوظة في نقيع الملح، مثل مومياء حيّة، التي تحدّق في البعيد جالسةً على عتبة بيتها، والتي لا يتحرّك فيها إلاّ حدقتاها الكابيتان في قعر محجريهما العميقين. لقد حظيت في ما مضى بساعات مجدها وفي محيط يتعدّى عشرات الأميال كانت تُعدّ من أجمل جميلات الناحية. فكيف لا تكون حينئذ محطّ أنظار الجميع؟ وكيف لأحد أن يتخيّل في الوقت الحاضر ما كانت عليه من الحسن في ما مضى؟ لا بل من يتذكّر الآن يوم كانت زوجة شقيّ. وكان زعيم الأشقياء **السيّد الثاني**

---

(١) مؤرّخ صيني مشهور عاش بين العام ١٤٥ والعام ٨٦ ق. م.

لهذه البلدة. في ذلك الوقت، كان الجميع، شيبًا وشبّانًا، يسمّونه **السيّد الثاني**، طبعًا في معرض امتداحه من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا بل وخاصّة، بدافع الاحترام، فهو «ثانٍ» لجهة مكانته في أسرته، وأيضًا لجهة كونه «أخًا محلّفًا» في عصبة أشقياء. حتى لو كان الفِناء الذي تجلس أمامه ضيّقًا، فإنّ ما يطالعنا حالما ندخله، هو الفِناء تلو الفِناء، متتالية، وكان الأشقياء، في الماضي، يخزّنون فيها النقود الفضّة، ملء سلالٍ. في هذه اللحظة يشخصُ بصرُها باتّجاه الزوارق المكسوّة بحصر الخيزران. فعلى متن زورق مماثل خُطِفَت ذات يوم. في ذلك الزمان كانت مثل تلك الفتيات ذات الجدائل الطويلة اللواتي يضربن غسيلهنّ على سلالم الحجر. والفرق الوحيد هو أنّها حين هبطت السلالم في ذلك اليوم قاصدةً النهر لغسل الخضار، وبيدها سلّة خيزران، كانت تنتعل قبقابًا من خشب وليس حذاء من البلاستيك. رسا بقربها زورق مغطّى بحصر الخيزران. وقبل أن تدرك حقيقة ما يجري من حولها، لوى رجلان ذراعيها وحملوها عنوةً إلى الزورق؛ وقبل أن تصيح طلبًا للنجدة كمّموها. لم يكن الزورق قد ابتعد أكثر من خمسة لي عندما تعرّضت للاغتصاب من قبل عدد من الأشقياء. ففي هذا الزورق، شأن كلّ الزوارق التي تسلك مجرى النهر منذ ألف عام، يمكن للمعتدي أن يرتكب ما يحلو له من المعاصي تحت ستار حصير الخيزران وفي وضح النهار. أمضت ليلتها الأولى، ممدّدة على ظهر القارب، عارية تمامًا، غير أنّها، منذ الليلة الثانية، أصبحت توقد النار في مقدّمه وتعدّ لخاطفيها الطعام...

أخبرني المزيد؛ ماذا أخبرك؟ أخبرني كيف أصبحت امرأة السيّد الثاني. أهي دائمًا على هذه الحال، جالسة عند العتبة؟ طبعًا، في ذلك الزمان لم تكن لها هذه النظرة الكابية. كانت تحمل معها على الدوام طارة من الخيزران وتشغل نفسَها بالتطريز. وبأصابعها السمينة البيضاء كانت تطرّز نقشَ «الأوزّات المندريّات اللاهيات على صفحة الماء»، أو نقش «الطاووس الناشر ريش ذنبه». كما أنّها استبدلت جديلتها السوداء بكُعَيْكة مضمومة عند مؤخّر الرأس مشبوكة بدبّوس فضّة مرصّع باليشب؛ أمّا حاجباها المرسومان بدقّة فكانا يبرزان حسن وجهها. وعلى الرّغم منِ فتنتها لم يكن أحد ليجرؤ على مخاطبتها. كان الجميع يعلم أنّ طارة الخيزران التي تحملها تحتوي على لفائف من خيوط الحرير المتعدّدة الألوان، ولكن تحت خيوط الحرير يوجد، على الدوام، مسدّسان مذخّران. كان يكفي أن يرسو زورق عند الضفّة وينزل منه جنود نظاميّون، لكي ترديهم، واحدًا واحدًا، بيديها الحاذقتين في فنّ التطريز، فيما السيّد الثاني، القادر على الظهور والتخفّي كأنّما بسحر ساحر، غارق في نومه العميق. وإذا كان السيّد الثاني قد حرص كلّ الحرص على الاحتفاظ بهذه المرأة، فلأنّها كانت تحترم الحِكمةَ التي تنظّم أوضاع المرأة: «من يتزوّج ديكًا، يتبع الديك، ومن يتزوّج كلبًا يتبع الكلب». ولكن أَلَم يشِ بهم أحدٌ من أهل القرية؟ حتى الأرنب البرّي يُدرك جيّدًا أنّه لا ينبغي له أكل العشبِ بقرب وجاره. وهكذا قُيّض لها أن تبقى على قيد الحياة، وكان ذلك أشبه بمعجزة. فما بقي زعيم الأشقياء المحسن الذائع الصيت السيّد الثاني على قيد الحياة، لم يجرؤ أحد من زوّاره

الوافدين إليه برًّا أو عبر النهر أو من أيّ طريق أخرى، على التودّد إليها، لأنّه لو فعل للقيَ حتفه على يد المرأة. لِمَ؟ لأنّ السيّد الثاني كان قاسي القلب، ولكنّ المرأة كانت أشدّ قسوة. ففي هذا المجال تبزّ النساءُ الرجالَ. وإذا كنت لا تصدقّين ما أقول اسألي الأستاذ وو، المدرّس في ثانويّة هذه البلدة. إنّه يُعدّ مجموعةً من القصص من التاريخ المحلّي بتكليف من مكتب السياحة الذي أُنشئ حديثًا في مركز المقاطعة. رئيس هذا المكتب هو خال زوجة ابن شقيق الأستاذ وو، وإلاّ لما أوكلت إليه هذه المهمّة. كلّ من له جذور في هذه الأرض يعرف قصصًا من تاريخها المحلّي، وليس هو الوحيد القادر على تدوينها، ولكن مَنْ مِنَ الناس لا يصبو إلى تخليد ذكراه مؤرّخًا؟ وخاصّة إذا أتاح له مثل هذا الأمر أن يتقاضى مقابلاً ماليًّا لا كسلفةٍ على حقوق المؤلّف، وإنّما كأجر إضافيّ لقاء ساعات عمل إضافيّة. إلى ذلك، فإنّ الأستاذ وو يتحدّر من أسرة موظّفين إمبراطوريّين محلّيّين كبار، وبلغ طول الوثائق المكسوّة بالحرير الأصفر التي أُخرجت من داره وأُحرقَت أثناء الثورة الثقافيّة، نحو أربعة أمتار أو أكثر. لقد اشتهر أجداده بأنّهم قادة حرس البلاط الإمبراطوري في عهد الإمبراطور وندي من سلالة هان، أو أعضاء مجامع علميّة في عهد غوانغشو من سلالة تشينغ، ولكنّ المتاعب بدأت قبل بضعة عقود من الزمن، زمن جيل والده، أثناء توزيع الأراضي في فترة الإصلاح الزراعي، عندما وصفوا بأنّهم «ملاّكو أراض». في الوقت الحاضر قد يكون بلغ سنّ التقاعد شقيقه الأكبر الذي أقام في المهجر وانقطعت أخباره لبعض الوقت ثم أصبح أستاذًا في آخر

المطاف، عاد في زيارة إلى البلدة راكبًا سيّارة صغيرة برفقة نائب رئيس المقاطعة. وأحضر له معه جهاز تلفزيون ملوّن. والآن أصبحت نظرة موظّفي البلدة الرسميّين إليه مختلفة. ولكن دعينا لا نطيل الحديث بهذا الشأن. إذًا تحت جنح الليل استولى الفلاّحون الثائرون على مشاعل وأحرقوا الشارع بأكمله تقريبًا. في ما مضى، كان شارع البلدة الرئيسي هو الرصيف المحاذي للنهر، وحلّت محطّة النقل البرّي الحاليّة محلّ معبد **الملك التنّين**، عند طرف هذا الشارع. وفي ذلك الوقت، أي قبل أن يستحيل المعبد كومة من الآجرّ لا أكثر، كان من قبيل المعجزة أن يجد المرء مكانًا شاغرًا أمام المسرح لمشاهدة مصابيح التنّين الوافدة من قرى الضفّتين كافّة، في ليلة العيد في الخامس عشر من الشهر القمري الأول. كان كلّ فريق يميّز نفسَه بعصابة رأس من لون موحّد، أحمر، أصفر، أزرق، أبيض أو أسود بحسب لون تنّينه. على إيقاع قرع الصنوج والطبول تتمايل الرؤوس في الشارع وتتعانق. وعلى طول حافّة النهر كانت الحوانيت تعلّق على طرف سقيفات الخيزران مغلّفًا أحمر محشوًّا بمبلغ من المال تتراوح قيمته من حانوت إلى آخر، وكلّ منها يسعى، عبر بذله هذه التقدمة، لاستمالة حظّ الازدهار إلى تجارته دون سواها. كان ظرف مالك حانوت الأرزّ، الواقع قبالة معبد **الملك التنّين** تقريبًا، هو الأكثر سخاءً في الأغلب، بالإضافة إلى حبال المفرقعات المزدوجة ذات الخمسمئة حبّة التي يدلّيها عادةً من سقف حانوته حتى تلامس الأرض. وسط نوافير شَرَرٍ مفرقعةٍ، يبذل الفتيان كلّ طاقتهم في تحريك المصابيح، مُشكّلين رقصةً لا تلبث أن تستحيلَ دوّامة. ومَن يحمل منهم

رأس التنّين قاذفًا باليد الأخرى بالكرة المطرّزة المزركشة قبل أن يستلقيها ثم يعاود قذفها، عليه أن يبذل جهودًا مضاعفة لإتمام شعوذته. وعندما وصل تنّينان، أحدهما من قرية غولاي، لونه أحمر، والآخر أزرق من البلدة نفسها بقيادة وو غيزي... كُفّ عن الكلام، أو بلى، تابع كلامك. هل تريدين أن أحدّثك عن هذا التنّين الأزرق؟ أتريدين أن أقول لك إنّ المدعوّ وو غيزي كان بطلاً مشهورًا في البلدة؟ فما من امرأة شابّة لها قلبٌ فَرفارٌ، ولو قليلاً، لا تلمع عيناها لمجرّد رؤيته. فإمّا أن تدعوه لاحتساء كوب شاي أو قدح من شراب الأرزّ المُسكر... أصغِ! ماذا؟ هيّا، قُل ما تشاء. كان هذا المدعو وو غيزي يرقّص التنّين الأزرق على طول الطريق. وكان بخارٌ حارّ يتصاعد من كلّ موضع من جسمه. وعندما بلغ معبد **الملك التنّين**، راح يفكّ أزرار سترته البلا كمّين ورمى بها إلى المارّة الذين كانوا يشاهدون الاحتفال، كاشفًا عن نحرِه الموشوم برسم تنّين أزرق. راح الفتيان الذين يحيطون به يصيحون باسمه مهلّلين. وفي تلك اللحظة وصل من طرف الشارع المقابل تنّين قرية غولاي الأحمر. وقَدِمَ عشرون شابًّا من أعمار مماثلة، ممتلئين حماسة، للظفرِ بمغلّف مالك حانوت الأرزّ. وسرعان ما تحرّك التنّينان معًا، فلا رغبة لأيّ منهما في الاستسلام أمام الآخر. داخل المصابيح التي شُكّل منها التنّينان الأحمر والأزرق، أوقدت شموع. فما عاد يُرى سوى تنّينين من نار مدوّمين وسط الحشد، رافعين رأسيهما، محرّكين ذيليهما. كان وو غيزي يشعوذ بكرته الناريّة، محوّمًا عاريَ الذراعين على بلاط الطريق الحجري، جاذبًا التنّين الأزرق إلى دوران ملتهب. ولم يكن التنين الأحمر

مستكينًا هو أيضًا. فمن غير أن يغفل لحظة عن كرته المطرّزة المزركشة راح يزحف ويتلوّى، مثل حريش بين شدقيه فريسة حيّة. وعندما سكتت فرقعة الحبل ذي الخمسمئة حبّة، أشعل الشبّان حبلاً آخر. كان الفريقان يلهثان من غير أن يتوقّفا عن الحركة والعرق المتصبّب على الأجساد يجعلها أشبه بأسماكٍ طازجة خارجة للتوّ من البحيرة. راحوا يتدافعون على مقربة من الحانوت متنازعين على خطف المغلّف الأحمر المعلّق من طرف السقيفة، والذي نجح شابّ من أهالي قرية غولاي في التقاطه قفزًا. لم يسع فريق وو غيزي تحمّل هذه الإهانة. فطغت الشتائم المتبادلة بين الطرفين على ضوضاء المفرقعات، وتشابك التنّينان على نحوٍ لا فكاك منه. لم يستطع المشاهدون الجزمَ فيمن كان البادئ، غير أنّ الحميّة بدأت تعتمل في نفوسهم. هكذا يبدأ الشجار عادة. علت صيحات ذعر من أفواه نساء وأطفال، ومن منهنّ كانت تشاهد الاحتفال من عتبة بيتها بصحبة أولادها، سارعت إلى الاحتماء معهم في الداخل، تاركة المقاعد الشاغرة أسلحة محتملة بين أيدي المتعاركين. كان في البلدة، في ذلك الوقت، ضابط شرطة، لكنّه لم يكن حاضرًا في تلك الأثناء فإمّا أنّه دُعي إلى شراب مجّاني وإمّا استغرق في متابعة لعبة قمار، مقتطعًا نسبة مئويّة من الأرباح لأنّ حفظ النظام مهمّة لا تُنجَزُ بالمجّان. في العادة لم يكن هذا النوع من الشجار يؤدّي إلى أيّ إجراء قانوني. كانت الحصيلة سقوط قتيل في صفوف فريق التنّين الأزرق وقتيلين في صفوف فريق التنّين الأحمر، هذا إذا أغفلنا ذكر شقيق شياو ينغتسي الذي أوقعه التدافع أرضًا من غير ذنب اقترفه، فداسته الأرجل

وتُرك حيث هو مصابًا بكسور في ثلاثٍ من أضلاعه. لحسن الحظّ أنّه أُعيد إلى الحياة بفضل جبيرة «جلد الكلب» المتوارثة، عبر الأجيال، عن **تانغ المجدور** الذي كان يملك حانوتًا بجوار **دارة الربيع المبهج** حيث يشعّ إلى الأبد سراج أحمر. كلّ هذه أقاويل، ولكن أيضًا يمكن اعتبارها قصصًا، ويسعك أن تواصل سردها على مسامعها. غير أنّها ما عادت راغبة في الاستماع إليك.

الفصل الثامن

أسفل المخيّم، في غابة القيقب والزيزفون، عثر العالِمُ النباتيّ العجوز الذي رافقني عبر دروب الجبل على شجرة زان ضخمة، يتجاوز ارتفاعها الأربعين مترًا، وهي المستحجرة النباتيّة الوحيدة المتبقّية من العصر الجليدي، يفوق عمرها المليون عام. على المرء أن يرفع رأسه لكي يرى على أطراف أغصانها العارية وريقات نابتة ضئيلة الحجم. يتخلّل جذعها تجويفٌ كبير يصلح وجارًا لدبّ. أدخلني العالِم النباتي إلى داخل التجويف مطمئنًا إلى أنّ الدبّ لا يلجأ إلى مثل هذا الوجار إلاّ في فصل الشتاء. ألجه بمشقّة، فإذا جنباته مكسوّة بطحلبٍ مخمليّ. من الخارج أيضًا ترى الشجرة مكسوّة بطحلب مخمليّ. وتتشعّب جذورها وأغصانها المتشابكة منسلّةً كالتنانين والأفاعي بين الأدغالِ والأعشاب الباسقة.

ـ أيّها الفتى، هي ذي الطبيعة في طورها البرّي حقًّا، يقول ضاربًا جذع الشجرة بمعول. اعتاد أن ينادي جميع العاملين في المحميّة بـ «يا فتى»، هو الستّيني المحتفظ بكامل عافيته. لا يكفّ عن التجوال في نواحي الجبال، مستعينًا بمعوله كأنّه عصا.

ـ إنّهم يقطعون الأشجار الثمينة ليصنعوا منها شتّى أنواع الأدوات. ولولا التجويف في جذع هذه الشجرة لكانت قُطعت هي أيضًا. لم يعد هذا المكان غابة بدائيّة بكلّ ما للكلمة من معنى. بل إنّها، على الأكثر، غابة بدائيّة من «الدرجة الثانية»، يقول متحسّرًا.

لقد قدم إلى هذا المكان بحثًا عن عيّنات من الخيزران الرفيع، وهو غذاء دببة الباندا. أرافقه مندسًّا بصعوبة بين أجمات الخيزران اليابس التي تزيد عن قامة الإنسان ارتفاعًا. لا نعثر على خيزران أخضر. فيشرح لي قائلاً إنّ ستّين عامًا تنقضي بين الفترة التي يزهر فيها الخيزران ويبرعم والفترة التي ييبس فيها، ثم يفرّخ شتولاً ويزهر من جديد. وهي تمامًا عِدلُ الفترة التي تستغرقها الـ «**كالبا**»، أي تعاقب الوجودات والموالد الثانية في الديانة البوذيّة.

ـ **الإنسان** يتبع دروب **الأرض**، **والأرض** تتبع دروب السماء، والسماء تتبع دروب الدرب، و**الدرب** يتبع دروبَه الخاصّة[١]، يتلو بصوتٍ عالٍ، لا ينبغي لنا أن نأتي بأعمالٍ تخالف الطبيعة، لا ينبغي لنا أن نأتي بالمستحيل.

ـ ما القيمة العلميّة التي يمثّلها إنقاذ دببة الباندا؟

ـ الأمر لا يتعدّى كونه رمزًا، أو عزاءً، فالإنسان يحتاج إلى خداع نفسه. فمن ناحية يعمل على إنقاذ نوعٍ فقد القدرة على البقاء، ومن ناحية

---

(١) قولٌ مُستقى من «داوديجينغ»، أو كتاب الدرب والفضيلة. بحسب الترجمة الفرنسيّة التي وضعها كلّ من فرنسوا هوانغ وبيار ليريس، منشورات لوسوي، ١٩٧٩.

أخرى يسرّع عمليّة تدمير البيئة التي تسمح له بالبقاء. انظر إلى ضفّتي نهر مينجيانغ، الغابات قُطعت على الجانبين، وما عاد النهر نفسه سوى مجرًى للطمي الأسود. ودعنا من ذكر الـ يانغتسي، وسواه. زِد على ذلك أنّهم يخطّطون لإيجاد بحيرة اصطناعيّة وبناء سدّ لها على مستوى **المضائق الثلاثة**! لا شكّ في أنّ التخطيط لمشاريع خياليّة لهو أمرٌ رومانسي. لقد برهنت الوقائع التاريخيّة أنّ منطقة الصدع الجيولوجي هذه قد شهدت أكثر من خسوفٍ للأرض، ولا شكّ في أنّ بناء السدّ سوف يدمّر التوازن البيئي بمجمله في منطقة حوض الـ يانغتسي. وإذا حدث أن تسبّب ذلك بزلزال فإنّ مئات الملايين من سكّان المنطقة سوف يتحوّلون إلى سلاحف! طبعًا لن يُصغي أحدٌ إلى هذر عجوز مثلي. الإنسان ينهب الطبيعة، ولكن الطبيعة سوف تنتقم في آخر المطاف!

أتبعه على دروب الغابة بين السرخسيّات التي ترتفع حتى الخصر بأوراقها الملتفّة التي تشبه أقماعًا ضخمة؛ وبين أجمات الـ «رودجيرسيا أيسكوليفوليا» ذات الأوراق الدوّاريّة السبع والاخضرار الزمرّدي الفاقع. جوّ مُشبعٌ بالرطوبة، حيثما ذهبنا. فلا أتمالك نفسي عن سؤاله:

ــ أيوجد أفاعٍ في هذه الأدغال؟

ــ لم يحن موسمها بعدُ، ولكن مع مطلع الصيف، واعتدال الطقس، تغدو شديدة الخطورة.

ــ وحيوانات بريّة؟

ــ ليس ما يدعو إلى الخوف منها، الأحرى أن تخافَ البشر!

وأخبرني أنّه التقى ذات يوم، في فترة صباه، ثلاثة نمور. لقد مرّت الأمّ وصغيرها بجواره. أمّا الثالث، وهو الذكر، فرفع رأسه مقتربًا منه. تبادلا النظرات لهنيهات، وإذا بالنمر يشيح ببصره ويبتعد عنه بدوره.

ـ النمر، بالإجمال، لا يهاجم البشر فيما البشر يطاردونه في كلّ مكان لإبادة جنسه. لم يبق أثرٌ للنمور في جنوب الصين. وتكون رجلاً محظوظًا حقًّا لو صادفتَ أحدها في هذه الأيّام.

يقول ذلك بشيء من السخرية.

ـ وماذا عن شراب عظام النمور الذي يُباع في كلّ مكان؟

ـ هذه دعابة! حتى المتاحف لا تتمكّن من جمع عيّنات منها. ففي غضون السنوات العشر المنصرمة لم يتمكّن أحد من شراء جلد نمر واحد في طول البلاد وعرضها. وقصد أحدهم إحدى بلدات فوجيان لشراء هيكل عظمي لنمر، فتبيّن بعد فحص الخبراء أنّها في الحقيقة عظام خنزير وكلب!

يُغرِبُ في الضحك ثم، لاهِثًا، يتوقّف قليلاً متّكئًا على معوله:

ـ لقد قُيّضَ لي أن أنجو مرارًا من الموت في حياتي الطويلة هذه، ولكنّ السبب لم يكن في يوم من الأيّام مخالب الحيوانات البرّيّة. ذات مرّة، خطفني أشقياء وكان غرضهم مقايضتي بسبيكة ذهب ظنًّا منهم أنّني ابن أسرةٍ ثريّة. فما كان بوسعهم أن يتخيّلوا لحظة واحدة أنّ طالبًا فقيرًا مثلي يجوب نواحي الجبال، لا يملك من المتاع سوى ساعة يدٍ مستعارة من أحد أصدقائه. ومرّة أخرى نجوت من قصفٍ ياباني. سقطت القنبلة على عارضة سقف البيت الذي كنت أسكنه، فتطاير كلّ

آجرّ السقف غير أنّ القنبلة لم تنفجر. والمرّة الثالثة عندما وشى بي البعض واتُّهمت بأنّني «يميني النزعة» وأرغموني على العمل في إحدى المزارع لإعادة تأهيلي. كان ذلك في فترة الكوارث الطبيعيّة المتلاحقة ولم يبق شيء يؤكل، وصار جسمي مكسوًّا بوذمات الاستسقاء، وشارفتُ على الموت. الطبيعة ليست مخيفة، أيّها الفتى، الإنسان هو المخيف! يكفي أن تتآلف مع الطبيعة لكي تتآلف معك. أمّا الإنسان فهو قادرٌ، إذا حُبيَ بنعمة الذكاء طبعًا، على اختراع كلّ شيء، بدءًا بالنميمة وصولاً إلى طفل الأنبوب، لكنّه في الوقت نفسه يُبيد كلّ يوم نوعين أو ثلاثة من الأنواع الحيّة في هذا العالم. تلك هي الخدعة البشريّة.

في المخيّم لم يكن لديّ سواه لكي أسترسل معه في الحديث، ربّما لأنّه كان الوحيد الوافِد من عالم حيّ؛ الآخرون الذين عملوا في هذه الجبال عامًا بعد عام، كانوا صموتين مقلّين بالكلام على شاكلة الأشجار التي تحيط بهم. بمضي أيّام قليلة، غادر بدوره. وكنتُ قلقًا بعض الشيء لشعوري بأنّني لن أتمكّن من التواصل مع الآخرين. فلستُ في نظرهم سوى عابر سبيل يتبع دروب فضوله. لماذا، في حقيقة الأمر، قَدِمتُ إلى هذه الجبال؟ أكان دافعي اختبار الحياة في مخيّمات البحث العلمي هذه؟ وما كان معنى تجربة كهذه؟ إذا كان الأمر مجرّد هروب من مواجهة الصعوبات التي صادفتني، فهناك بالتأكيد وسائل أيسر وأبسط. ربّما أردت أن أكتشف حياة أخرى؟ أن أبتعد ما أمكن الابتعاد عن عالم البشر المُضجِر كلّ الضجر. وبما أنّني أهرب مبتعدًا عن العالم، فما الجدوى إذًا من التواصل مع البشر؟ غير أنّ مصدر حيرتي الفعلي هو أنّني ما كنت أعلم ما الذي أبحث عنه. كثير من التفكير، والمنطق، والمعنى! الحياة

نفسها لا تخضع لأيّ منطق، فلِمَ سعينا لاستخلاص مغزاها على نحو منطقي؟ ثم ما هو المنطق؟ ربّما كان حريًّا بي أن أتخلّى عن التفكير، لأنّه مصدر شقائي.

أسأل لاو وو، الرجل الذي ساعدني في التخلّص من القرادة التي نهشت جنبي، إذا كان لا يزال هناك غابات بدائيّة في هذه النواحي.

أجاب بأنّ الجوار كلّه كان في ما مضى غابات بدائيّة.

أقول إنّ الأمر بديهيّ، ولكنّني أسأل إذا بقي منها شيء في الوقت الحاضر.

ـ في هذه الحال، عليك أن تذهب إلى «**الصخرة البيضاء**». لقد تمكّنّا من شقّ دربٍ إليها.

سألته إذا كان يقصد الصخرة البيضاء المنتصبة وسط بحر الغابات، عند قمّة جرف نصل إليه عبر الدرب الذي يخترق وهدًا، أسفل المخيّم.

هزّ رأسه إيجابًا.

لقد سبق لي أن قصدت المكان الذي أشار إليه، حيث تضيق الفرجات لكثافة الأشجار، وحيث ترقد جذوع الأشجار السوداء الضخمة التي لم تجرفها بعدُ سيول الأنهار.

ـ هناك أيضًا قُطِعت أشجار، أقول.

ـ كان ذلك قبل إنشاء المحميّة الطبيعيّة.

ـ ولكن في المحصلة هل يوجد بعدُ في هذه المحميّة الطبيعيّة غابة بدائيّة لا أثر فيها للجراحِ التي تخلّفها يد البشر؟

ـ طبعًا، اذهب إلى نهر جنغ.

ـ هل هذا مُمكن؟

ـ حتى نحن، بكلّ معدّاتنا وتجهيزاتنا، لم نتمكّن من بلوغ وسطها. إنّه عبارة عن مضائق ذات تضاريس معقّدة ومحاطة بجبال عالية مكسوّة بالثلوج يفوق ارتفاعها الخمسة آلاف أو الستّة آلاف متر.

ـ وكيف لواحدنا أن يتمكّن من مشاهدة غابة بدائيّة بما للكلمة من معنى؟

ـ أقرب النقاط التي يتعيّن عليك أن تقصدها هي ١١ م ١٢ م.

ويقصد بذلك إحدى النقاط الجيوديزيّة المعتلَمة على الخريطة، والمُستخدمة في الطبوغرافيا الجوّيّة.

ـ ولكن أنتَ لا يسعك الذهاب بمفردك.

ويستطرد شارحًا أنّه في غضون العام المنصرم انطلق عاملان مُجازان من الجامعة كانا أُلحقا حديثًا بالمخيّم، قاصدين المكان المذكور، مزوّدين ببوصلة وعلبة بسكويت لاعتقادهما بأنّهما لن يصابا بمكروه، ولكن حلّ المساء ولم يعودا. ولم يظهر أحدهما إلاّ عصر اليوم الرابع، بعد أن تمكّن من التسلّق حتى بلغ الطريق والتقطه موكب عربات كان متوجّهًا إلى تشينغهاي. وهبط بعضهم المنحدر بحثًا عن رفيقه الذي أفقده الجوع وعيه. يوصيني ألاّ أبتعد بمفردي مهما حصل ويقول لي محذّرًا إنّي إذا كنت أريد حقًّا أن أرى هذه الغابة البدائيّة فينبغي لي أن أنتظر ريثما يذهب أحد العاملين إلى النقطة ١١ م ١٢ م لجمع إشارات حركة الباندا.

الفصل التاسع

لديكِ هموم؟

تقول لها مُشاكِسًا.

وما الذي أوحى لك بذلك؟

الأمر بَيِّن، فتاة تهرب إلى مكان كهذا.

أنتَ أيضًا بمفردك، أليس كذلك؟

هذه عادة لديّ. يحلو لي التجوال وحيدًا، فعلى هذا النحو يُتاح لي أن أستغرق في التفكير. ولكن صَبيّة مثلك...

كفى! تقصد أنّ التفكير حكرٌ على الرجال.

لم أقل يومًا إنّكِ فتاة يُعوِزها التفكير.

أحسَنتَ، فثمّة رجال يُعوِزهم التفكير!

الظاهر أنّكِ واجهت صعوبات.

كلّ إنسان يُفكّر، وليس فقط عندما يواجه صعوبات.

لم يكن غرضي أن أخوض شجارًا معك.

وأنا أيضًا.

أودّ أن أساعدك.

عندما أحتاج إلى المساعدة.

ألا تحتاجين إليها الآن؟

لا، شكرًا. ما أحتاج إليه الآن هو أن أختلي بنفسي وألاّ يزعجني أحد.

هذا يؤكّد أنّك تواجهين بعض المتاعب.

إذا شئت.

أتشعرين بكآبة.

الأمر أقلّ خطورة ممّا تفترض.

إذًا أنتِ تقرّين بأنّك تواجهين متاعب؟

مثلي مثل الناس جميعًا.

لكنّك تسعين وراء المتاعب.

لِمَ؟

لا يحتاج الأمر إلى تبصّر فوق العادة.

أنتَ ماكر حقًّا.

شريطة ألاّ يستحيل المكر سأمًا.

وهو الأمر الذي لا يشبه الحبّ.

لكنّكِ لن ترفضي نزهةً برفقتي بمحاذاة الضفّة؟

تودّ أن تثبت لنفسِك أنّك ما زلت قادرًا على استمالة الفتيات. بعد تردّد تتبعك. تسلكان صُعُدًا طريق السدّ بمحاذاة النهر. أنت تحتاج إلى سعيك وراء السعادة، وهي تحتاج إلى سعيها وراء الألم.

تقول إنّها لا تجرؤ على النظر إلى أسفل، تقول إنّك تعلم جيّدًا بأنّها خائفة.

وممَّ أخاف؟

من المياه.

تضحك، لكنّك تعلم أنّ ضحكها مصطنع بعض الشيء.

لا تملكين الجرأة على القفز، تقول متعمّدًا السير بمحاذاة الحافّة. أسفل السدّ، تدوّم مياه النهر ثائرة.

ماذا لو قفزت؟ تقول.

أقفز لكي أنقذك. وأنت تدرك تمامًا أنّ قولَك هذا سوف يكسبك حظوةً لديها.

تقول إنّها تشعر بدوار خفيف، وتردف قائلة إنّ القفز يسير جدًّا، إذ يكفي أن تغمض عينيها، وإنّ طريقة الموت هي أقلّ ما يؤلم في الموت، لا بل هي أشدّ ما فيه من الفتنة. تقول إنّ فتاة مثلها وافدة هي أيضًا من المدينة، قفزت من أعلى إلى مياه هذا النهر. كانت أصغر منها، وأكثر بساطة. لا تقصد أنّها، هي، معقّدة على نحو خاصّ، وإنّما تقصد أنّ

الناس اليوم ليسوا أكثر حمقًا أو أقلّ من أناس الزمان الماضي، وأنّ الزمان الماضي ليس بعيدًا جدًّا. تقول إنّ الأمر حدث في ليلة بلا قمر، وإنّ المياه كانت تبدو أعمق. زوجة المُعبِّرُ وانغ الأحدب صرّحت في ما بعد أنّها في ذلك الوقت حاولت إيقاظ زوجها النائم قائلةً إنّها سمعت رنين السلاسِل التي تمسك بحبال المركب. همّت بالنهوض للتثبّت ممّا يجري فسمعت ما يشبه العويل، فحسبت أنّ هذا كلّه صنيع الرياح. وقالت في سرّها إنّه من غير المحتمل أن يكون هذا صنيع لصّ يحاول السرقة، لأنّ العويل الذي سمعته كان مسموعًا، ومع ذلك لم تنبح الكلاب في ليلة مظلمة وساكنة مثل هذه. لذا أوَت مجدّدًا إلى فراشها، وفي نومها دوّت الصرخة مرّة ثانية. استيقظت وأصغت. تقول إنّ الفتاة ما كانت لتنتحر، في ذلك الوقت، لو سارع أحد إلى نجدتها. والذنب هو ذنب هذا الشيطان العجوز الذي كان غارقًا في سبات عميق. كان يحدث أحيانًا أن يأتي أحدهم فيطرق النافذة أو ينادي بأعلى الصوت إذا كان مضطرًّا لعبور النهر في ساعة متأخّرة من الليل. وما لم تجد تفسيرًا له هو حاجة الفتاة إلى نقل السلاسل من مكانها لكي تنتحر، فلعلّها حاولت الاستعانة بالمركب لبلوغ مركز المقاطعة ومنه العودة إلى أهلها في المدينة؟ كان يسعها ركوب الحافلة المتوجّهة إلى مركز المحافظة عند الظهر، إلاّ إذا كانت تخشى افتضاح أمرها. لا يستطيع أحد أن يعلم ما هي الأفكار التي راودتها قبل أن تموت. والحقيقة أن لا أحد يعلم ما الذي حمل هذه الفتاة المؤدّبة جدًّا على القدوم إلى هذه البلدة لتعمل في الزراعة وليس لها فيها أهل أو أصدقاء. كان قد اغتصبها أحد أمناء فروع الحزب، يا للعار! وعند مطلع النهار عثر عليها ركّاب طوف على رصيف رمليّ على بعدِ

ثلاثين لي من هنا. كانت عارية الصدر، فلعلّ ملابسها علقت بأغصان شجرة عند إحدى عقفات النهر. ومع ذلك بقي حذاؤها الرياضيّ موضوعًا بعناية على صخرة، على تلك الصخرة التي حُفر عليها بحروف معتلمة بطلاء أحمر «معبر يو». وفي الأيّام المقبلة سوف يتسلّق السيّاح هذه الصخرة لالتقاط صور لأنفسِهم فوقها، وسوف يحتفظون بذكرى هاتين العبارتين، غير أنّ أرواح الضحيّة اليافعة سوف يطويها النسيان الأبديّ.

هل تصغين إلى ما أقول؟ تسأل.

تابع، تجيب بصوت خفيض.

لطالما شهدَ هذا المكانُ موتَ أناسٍ، في ما مضى، أولادًا، فتيات في ريعان العمر. الأولاد يقفزون من على الصخرة. إنْ لم يطفوا على سطح الماء مجدّدًا قيل عن فعلتهم إنّها «سعيٌ وراء الموت»، وقيل إنّ أهلهم في حيوات سابقة يستعيدونهم. ضحايا الظُلم هم دائمًا من النساء. إن لم يكنّ مدرّساتٍ شابّات أُبعدنَ من المدينة، فهنّ، بالتأكيد، ممّن تزوّجنَ حديثًا وتلقّين سوء المعاملة من قبل حمواتهنّ أو أزواجهنّ، كما من بينهنّ أيضًا حسناوات انتحرن جرّاء قصّة حبّ محبَطة. لهذا السبب كان القرويّون، قبل أن يجري الأستاذ وو أبحاثه حول هذه البلدة، يسمّون **معبر يو** هذا بـــ **«جُرف الأشباح المألومة»**، وعندما يقصده الأولاد لغرض السباحة فيه، يلبثُ البالغون في قلقٍ على مصيرهم. ويُروى أيضًا أنّه في منتصف الليل يظهر في هذا المكان شبح امرأة مجلببة بثوب أبيض وتنشد أغنية لا تُفهَمُ كلماتها بوضوح. البعض يقول إنّها تهويدة

أطفال، فيما البعض الآخر يزعم بأنّها شكوى متسوّل. طبعًا هذه ليست سوى خرافات، فغالبًا ما يميل الناس إلى إخافة أنفسهم. لكنّ المؤكّد هو أنّ عصفورًا مائيًّا يحيا في هذا المكان، يسمّيه أهل الناحية الرأس الأزرق، بينما يقول المتعلّمون منهم إنّه **العصفور الأزرق** الذي ورد ذكره في الشعر المدوّن في عهد سلالة تانغ. القرويّون هم الذين يطلقون عليه اسم الرأس الأزرق بسبب ريشه الطويل الأزرق. لا بدّ أنّك شاهدت هذا العصفور من قبل؛ إنّه ضئيل الحجم، ومكسوّ بريش أزرق قاتم وعلى رأسِه قنزعتان زمرّديّتان، حاذقٌ، رشيق، حَسَن المظهر. لا يحطّ إلاّ في المواضع الرطبة الظليلة، أسفل السدّ، أو عند أطراف دغل الخيزران الكثيف، أو على ضفاف المياه، متلفّتًا، يمنةً ويسرة، على سجيّته، غير هيّاب. يسعك أن تنظر إليه لكي تتملاّه، ولكنّ أدنى حركة تحمله على الفرار محلّقًا. العصفور الأزرق الذي ينقر لأجل **ملكة الغرب الأمّ** الوارد ذكره في **مصنّف البحار والجبال** هو نوع من الطيور العجائبيّة. ليس هو ما يسمّيه القرويّون بـــ «الرأس الأزرق»، غير أنّ له الطابع السحريّ نفسه. تقول لها إنّ هذا العصفور أشبه بامرأة. طبعًا هناك نساء حمقاوات، غير أنّك هنا تتحدّث عن النساء الأكثر رقيًّا، والأكثر عاطفيّة. فالنساء مثلهنّ لا يعرفنَ الحياة الهانئة إلاّ في ما ندر، لأنّ الرجال يرغبون في النساء لمتعتهم الخاصّة، والأزواج يرغبون في زوجة تُعنى بالمنزل والمطبخ، والمسنّون يرغبون في كنّةٍ توفّر لهم الذرّيّة. لا أحد يسعى وراء الحبّ. ثم حين تحدّثها عن فتاة أخرى، عن قرويّة شابّة، تصغي إليك بانتباه. وعندما تقول إنّها ماتت، ضحيّة ظلمٍ، في هذا النهر، عندما تشرح لها ما يقوله الناس، تهزّ رأسها. مشدوهةً

تصغي إليك. وهذا الذهول البادي على مُحيّاها يضاعفُ حُسنها في نظرك.

تقول إنّ هذه القرويّة الشابّة كانت مخطوبة لرجل، ولكن عندما جاء موفد عائلة زوجها العتيد لاصطحابها، كانت الفتاة قد اختفت. فرّت مع عشيقها وهو شابّ من الأرياف.

هل كان هو أيضًا ممّن يحملون مصابيح التنّين؟ تسأل.

كانت عصبة الفتيان التي تشارك في معركة التنانين المصابيح تأتي من قرية غولاي. أمّا أسرة هذا الشابّ فتقيم في وانغنيان، على بعد خمسين لي من هنا، كما أنّ الحادثة تعود إلى زمان مغرق في القدم. كان شابًّا ممتازًا لا يملك لا مالاً ولا سلطة. أسرته لا تملك سوى بضع مئات من الأمتار جُعِلَ قسمٌ منها حقول أرزّ. وهناك كان على المرء أن يكدّ في عمله كي لا يقضي جوعًا، طبعًا شريطة ألاّ تحلّ كارثة طبيعيّة أو تنشب حرب أو ما يعدم القرية سبلَ الحياة، وهذا ما جرى بالفعل. ولم يكن هذا الشابّ، حبيب الفتاة، يملك ما يجعله أهلاً للزواج من فتاة بمثلِ ذكائها وجمالها. فخطيبة من هذا العيار لها ثمن محدّد: زوجا أساور من الفضّة كعربون، ودفعتان من ثماني علب حلوى كهديّة خطوبة، وصندوقان وخزانتا ملابس مذهّبتان كمهر، وهذه كلّها على نفقة المُشتري العتيد. كان الرجل الذي اشتراها يقطن زقاقًا يقع خلف حانوت المصوّر الحالي. طبعًا تغيّر المالكون منذ أمد بعيد. في ذلك الزمان، لم تكن زوجة قاطنه قد أنجبت له سوى فتيات. ولمّا كان يرغب في أن يكون له ولد ذكر، قرّر أن يتّخذ له خليلة. من ناحيتها، كانت والدة الفتاة،

وهي أرملة لا تعوزِها الحكمة، ترى أنّه من الأفضل لابنتها أن تصبح خليلة لربّ أسرة ثري من أن تغدو زوجة لرجل فقير يكدّ في زراعة أرضه طيلة حياته. وقد أُجريت الصفقة عبر وسيط. وقرّ الرأي على أنّه لا حاجة إلى المَحمَل، وعلى أن تفصّل الملابس والبياضات يدويًّا، ولكن في اليوم المرتَقَب لانتقال العروس كانت الفتاة قد فرّت تحت جنح الظلام، حاملةً بقجة ثياب دسّت فيها بعض ملابسها، ذهبت في عزّ الليل لتطرق نافذة صديقها مستدرجةً إيّاه إلى الخارج حيث وهبته نفسها على الفور مستسلمةً لهواها الملتهب. بعد ذلك تعاهدا، باكيين، على أن يُخلص أحدهما للآخر إلى الأبد، وصمّما على الفرار معًا إلى الجبل والعيش هناك بعد أن يستصلحا فيه قطعة أرض. لدى بلوغهما رصيف الركوب أبدى الشابّ بعض التردّد وهو يتأمّل مياه النهر المدوّمة، قائلاً إنّه سيعود أدراجه ليحضر فأسًا. فاجأه والداه وهو يسرق بعض الحاجِيات التي قد تساعده على الصمود في الجبل. وما كان من الأب إلاّ أن أمسك بقطعة حطب وانهال بالضرب على هذا الابن العاقّ، ما فطر قلب الأمّ لكنّها ما كانت لتقنع برحيله. واصل الأب ضرب ابنه وواصلت الأمّ نحيبها حتى مطلع الفجر. بعض ركّاب المعديّة عند الفجر قالوا إنّهم شاهدوا امرأة حاملة بقجة ثياب، قبل أن يكتنف النواحي ضبابٌ كثيف. كان الضباب يزداد كثافةً كلّما تقدّم النهار، عائمًا كنفثات ملتفّة فوق مياه النهر. حتى الشمس أضحت كقطعة جمر داكنة الاحمرار. كان المُعبِّرُ يُضاعفُ الحيطةَ والحَذَر: فإذا كان الاصطدام بمركب آخر ليس بالأمر الخطير فإنّ الاصطدام بقاطرة خشب عوّامة قد يؤدّي إلى كارثة. على الضفّة احتشد الناس الذين يقصدون السوق على جري عادتهم منذ ما يزيد على

الثلاثة آلاف عام. ولا بدّ أنّ من بينهم من سمع صَيحةً تشقّ الضباب كي تتبدّد مبتعدةً، ثم خبطَ جسمٍ يسقط في الماء. لكنّ الجميع استأنفوا ما كان انقطع، هنيهات، من حبل كلامهم، ولم يُسمَع بعد ذلك أيّ صوت لافت. كان الرصيف مزدحمًا وإلاّ لما مرّ يو الكبير من هناك. المركب محمّلٌ بالخشب والفحم والذرة البيضاء والبطاطا والفطر المعطّر وزهر الزنبق المجفّف والشاي والبيض والناس والخنازير، ومحجن الخيزران يتقوّس من وطأة الحِمل، ومسحوب الماء يصل إلى حافّة المركب، وفوق صفحة الماء المائلة إلى البياض لا يلوح للعين شيء إلاّ صخرة **جرف الأشباح**. قُيِّضَ للنساء الثرثارات أن يقلنَ إنّهنّ سمعنَ، في وقت مبكر جدًّا من ذاك الصباح، نعيبَ غرابٍ وهو علامة شؤم. كان الغراب يكرّر تحليقه الدائريّ في السماء ناعبًا. فلا بدّ أنّه اشتَمّ رائحة الموت. فقبيل رحيله، تنبعث من الإنسان رائحة ما، غير أنّها كسوء الطالع، لا تُرى، وإنّما هي مسألة إحساس.

هل أجلب سوء الطالع؟ تسأل.

كلّ ما في الأمر هو أنّك تلومين نفسك. لديك ميل إلى إيذاء نفسك.

تتعمّد مضايقتها.

لا، على الإطلاق، لكنّ الحياة زاخرة بالآلام! تقول بما يشبه الصرخة.

الفصل العاشر

على طحالب جذوع الأشجار، على الأفنان فوق رأسي، على الأشنات المتدلّية كخصلات طويلة من الشعر، حتى في الأجواء، يرشح الماءُ من كلّ ناحية وجهة، من غير أن ندري من أين مصدره. قطراتٌ ثقيلة، لمّاعة متلألئة، تترقرق على وجهي، الواحدة تلو الأخرى، وتسيل على طول عنقي، باردة كالجليد. في كلّ خطوة أدوسُ الطحلب المخملي الطري الذي تجمّع طبقةً فوق طبقة. يعيشُ متطفّلاً على جذوع الأشجار الضخمة الراقدة على الأرض، فانيًا ومتجدّدًا باستمرار. حذائي المُشبَع بالماء يغوص فيه عند كلّ خطوة بما يشبه وجيب امتصاص. قبّعتي الكسكيت وشعري وسترتي الأنوراك وبنطالي كلّها مبلّلة، وكذلك ملابسي الداخليّة مشبعة بالعرق وتلتصق بجسمي. لا أشعر بالدفء إلاّ أسفل بطني.

يتوقّفُ عند حافّة فوقي من غير أن يُدير رأسه. خلف قذالِه الهوائيّ المؤلّف من ثلاث قصبات معدنيّة يواصل اهتزازه. عندما أبلغ المكان الذي يقف فيه قافزًا فوق الجذوع الراقدة على الأرض، يتابع سيره حتى قبل تمكّني من استرداد أنفاسي. أقرب إلى القِصَر، قامة الرجل النحيلة

التي تجعله أشبه بقردٍ رشيق الحركة. ولخشيته ممّا قد يسبّبه سلوك الدرب المتعرّجة من تعب، ينطلق، من غير تردّد، في خطّ مستقيمٍ متسلّقًا المنحدر. بعد أن غادرنا المخيّم في الصباح الباكر، سرنا لساعتين من دون توقّف لم يخاطبني خلالهما بكلمة واحدة. قلتُ في سرّي إنّه ربّما يستخدم هذا الأسلوب للتخلّص منّي، وحملي على التراجع والعودة من حيث أتيت. أبذل المستطاع كي ألحق به، غير أنّ المسافة التي تفصل بيننا تزدادُ كلّما سرنا قُدُمًا. عندها يتوقّف أحيانًا كي ألحق به وريثما ألتقط أنفاسي، يعمد إلى نشر قصبات الهوائي واضعًا السمّاعتين على أذنيه منصتًا إلى الإشارات، ثم يدوّن شيئًا ما على دفتره الصغير.

في فرجة وسط الغابة نُصبَت أجهزة للرصد الجوّيّ. يتفحّصها ويدوّن بعض الملاحظات ثم يخاطبني قائلاً إنّ الرطوبة بلغت درجتها القصوى. إنّها العبارة الأولى التي يتوجّه بها إليّ منذ أن غادرنا المخيّم، فأحملها على محملِ الصداقة. وإذ نتابع طريقنا، يومئ إليّ بأن ألحق به إلى أجمة من الخيزران الرفيع اليابس حيثُ بُنيَ بوساطة أوتاد قفصٌ واسع بعلوّ قامة إنسان. الباب مفتوح. النابض في الداخل غير مشدود. في العادة تُستدرَج الباندا إلى داخل القفص ثم يُسيطَر عليها بطلقةٍ مخدّرة لكي تزوّد بطوق إرسال قبل أن تُطلق مجدّدًا في الغابة. يشير إلى آلة التصوير التي أحملها فأعطيه إيّاها وعندئذ يلتقط لي صورة أمام القفص. ليس بداخله لحسن الحظّ.

نتوغّل داخل غابة مظلمة من أشجار الزيزفون والقيقب. زقزقات عصافير القُرقُف في أجمات الكتلبة تبدّد أيّ شعور بالعزلة. وعلى ارتفاع ٢٧٠٠ ـــ ٢٨٠٠ م يبدأ نطاق غابات الصنوبريّات التي تزداد فيها

الفرجات الخالية من الأشجار. أشجار تسوغا ضخمة بسوادها المعدنيّ تنتصبُ فاردةً أغصانها الغليظة على هيئة مظلّة. وأشجار التّوب الرماديّة الداكنة يتجاوز ارتفاع بعضها الثلاثين مترًا أو الأربعين، فيما يبلغ بعضها الآخر الخمسين أو الستّين. رؤوسها المروّسة حيث أوراقها الإبريّة النابتة الداكنة الاخضرار تضفي عليها مزيدًا من جلالٍ وأناقة. أجمات العلّيق والشوك اختفت من الغابة، فأضحى البصرُ أبعد مدى. بين جذوع التّوب الغليظة بعض أزاليّات الجبل الباسقة التي يزيد ارتفاعها على أربعة أمتار، والمكسوّة ببراعم حمراء أزهرت للتوّ. تبدو الأغصان المائلة وكأنّها انحنت لفرط ما حُمّلت من هذا الجمال الباذخ. تنثر أوراقها الكبيرة أسفل الشجرة، مستعرِضةً، بجلال، الرونق اللامتناهي لمزيج ألوانها. معجزة الطبيعة الخام هذه تولّد فيّ مجدّدًا تلك الحسرة الغامضة. غير أنّ الحسرة لا تعني إلاّ شخصي، أنا، بالطبع، ولا صلة لها بالطبيعة ذاتها.

حيثما نظرت، تطالعني أشجار ضخمة يابسة مقصوفة من المنتصف بفعل الرياح والثلوج. أعبر بين هذه الجذوع الضخمة المنتصبة التي ترغمني على التزام الصمت. فلشدّة رغبتي في التعبير، أمام جلالها، تهجرني كلماتي.

وَقْوَقٌ يُوَقْوِقُ متواريًا عن الأنظار. من أعلى، من أسفل، يمينًا ويسارًا، كأنّه يتنقّل باستمرار لكي يفقدني الوجهة. كأنّه ينادي: «أخي الأكبر انتظرني! أخي الأكبر انتظرني!» فتحضرني، عامدًا أو غير عامد، حكاية الولدين اللذين ذهبا إلى الغابة لبَذْرِ السمسم. تقول الحكاية

إنّ زوجة أب تريد التخلّص من ولَدي زوجها من زواج سابق، غير أنّ انتقام القدر يصيب ابنها. كما تحضرني حادثة الطالبين اللذين فُقِدا في هذه الغابة فأشعر بقلقٍ طاغٍ يتعاظمُ في قرارتي.

يتوقّف فجأة رافعًا يده. ألحق به على عجل. يجذبني بقوّة لكي يرغمني على الركوع، ثم ينهض مُسرعًا. بين جذوع الأشجار طيران كبيران بأرياش رماديّة منقّطة بالأبيض وقوائم حُمر، يكرجان كرْجًا سريعًا على سفح المنحدر. أتقدّم نحوهما ببطء، فإذا خفق أجنحة يعكّر صفوَ السكون.

ــ إنّها طيور تُدْرُج الثلوج، يقول.

بسرعةٍ يعاود الهواءُ ركودَه. طيرا تُدرُج الثلوج الرماديّان الأبيضان، المنقّطان، صاحبا القوائم الحُمر، الممتلئان حياةً، كأنّهما لم يوجدا حقًّا، كأنهما محض هذيان. لا يبقى إلاّ الغابة الشاسعة الأنحاء الساكنة التي لا تنتهي، فأشعرُ بوجودي عابرًا هشًّا فاقدًا كلّ معنى.

يصير ودودًا معي فلا يخلّفني وراءَه. يتقدّمني ثم يتوقّف ريثما ألحق به. تقلّصت المسافة في ما بيننا، غير أنّنا ما زلنا لا يكلّم أحدنا الآخر. ثم يتوقّف متفحّصًا ساعته، يتطلّع إلى السماء التي تزداد انقشاعًا. كأنّه يستشعرُ أمرًا. يبدأ بتسلّق المنحدر ممسِكًا بيدي مرّة أخرى.

لاهثًا أصلُ إلى سَطيحة. تترامى نُصبَ عيني غابة أشجار تنّوب جميعها من فصيلةٍ واحدة.

ــ نحن على ارتفاع يزيد عن الـــ ٣٠٠٠ م، أليس كذلك؟

يجيبُ موافقًا بحركةٍ من رأسه ويُهرَع إلى شجرة تنتصبُ عند أعلى السطيحة. يدور حول جذعها واضعًا سمّاعتيه على أذنيه بعد تحريكه الهوائيّ نحو الجهات الأربع. أنا أيضًا أتطلّع من حولي. أجدنا مُحاصَرَيْن بجذوع أشجار متساوية الضخامة، وتفصل بينها مسافات متساوية، ولها نفس الارتفاع ومتشابهة في استقامتها، وأغصانها متفرّعة جميعها من نفس العلوّ ولها المظهر الأنيق نفسه. هنا لا وجود لجذوع مقصوفة، وما فسد منها يرقد سويّة الأرض من غير استثناء، ضحيّة الاصطفاء الطبيعيّ الصارم.

هنا لا أشنات ولا أجمات خيزران رفيع ولا أدغال، والفرجات الفسيحة بين الأشجار تجعل الغابة نيّرةً والرؤية أوضح. وعلى مقربة، أزاليّة ناصعة البياض، مشيقةً، ممتلئةً نعمة، نقاؤها المذهلُ يُثير في الروع بهجةً طاغية. تكبر كلّما دنوت منها. ترفل بباقات من الأزاهير بتلاتها أسخى من تلك الأزاليّة الحمراء التي صادفتها من قبل. بتلات ناصعة البياض لا يقربها الذبول تغطّي الأرضَ أسفل الشجرة. طاقتها الحيويّة هائلة وتعبّر عن رغبةٍ لا تُقهَر في استعراض ذاتها بلا مقابل، بلا غرض، من غير اللجوء لا إلى الرمز ولا إلى المجاز، ومن غير حملِ الشيء على ما لا قِبَلَ له بحملِه، ومن غير ترابط قسريّ في الأفكار: إنّها جمال الطبيعة صِرفًا.

بيضاء كالثلج، متلألئةً كاليشب، تطالعني الأزاليّات، الواحدة تلو الواحدة، متباعدةً في ما بينها، موزّعةً وجودها الخافت في أنحاء غابة التنّوب الفسيحة، أشبه بطيور مثابرة، غير مرئيّة، تستدرجُ روح البشر

على الدوامِ إلى ما هو أبعد. أنشق ملء رئتيّ هواء الغابة العذب. أجدني لاهثًا لكنّي لا أبدّد طاقتي. كأنّ رئتيّ قد طُهّرَتا والهواء يسري فيّ حتى أخمص قدميّ. لقد انخرط جسمي وروحي في دورة الطبيعة العظمى، وأجدني في حال من صفاء السريرة لم أختبرها من قبل.

الضباب ينتشر على علوّ متر واحد من الأرض وينقشعُ أمام خطواتي. براحة يدي أبدّده مُتراجعًا، كأنّه دخان. أعدو قليلاً مُطارِدًا بَدَدَه، غير أنّني أعجز عن اللحاق به، فقط يمسّني مسًّا خفيفًا. أمامي يتلاشى المنظر. تمّحي الألوان، يتكثّف الضباب. أراه بوضوح ينتشر مدوّمًا. أتراجع وأستدير تلقائيًّا لكي أتبعه. أبلغ أعلى المنحدر، وإذ أفلت من قبضته أراني واقفًا فجأة على مشارف مضيق جبليّ. قبالتي تنتصب بمهابة سلسلة جبال من أزرق باهت مكلّلة بثلوج ناصعة البياض. كتلة الغيوم الملبّدة تتقلّب في كلّ اتّجاه، أمّا في المضيق، فوحدها تطوّف نتفٌ من الضباب لا تلبث أن تتبدّد. هذا الخيط الأبيض بياض الثلج هو سيل مندفعٌ يخترق الغابة وسط المضيق. من المؤكّد أنّه ليس الوهد الذي سرت بمحاذاته لكي أعثر على سبيل الدخول إلى الجبل قبل بضعة أيّام. ففي ذلك الوهد عبرت قرية، في الأقلّ، وبضعة حقول مزروعة وجسرًا من السلاسل معلّقًا بحذق ومثبّتًا عند أعلى السفحين. في هذا الوهد المُعتم لا أرى سوى أجمات كثيفة وصخور وعرة غريبة المظهر، ولا أثر لإنسان. لمجرّد النظر إليه تسري رعدةٌ في جسمي.

سرعان ما تسطع الشمس مجدّدًا فتنوّر سلسلة الجبال أمام ناظري. تظلّل عذوبة الهواء وغابة الصمغيّات تحت كساء الغيوم هذه اللحظة

بمسحةٍ من الاخضرار الكابي، الجليّ، الذي يفتنني غصبًا. أشبه بهدهدةٍ طالعة من عمق الرئتين لتفشوَ متتبّعةً الظلالَ والأنوار، متلوّنةً بطرفة عين. أعدو، أقفز، مطاردًا ظلّ الغيوم المتقلّب، ملتقطًا الصورة تلو الصورة.

عاود الضباب الرمادي ملامستي من الوراء، دونما اكتراث لِحُفَر الأرض ووعورتها، ولجذوع الأشجار الراقدة عليها. لا سبيل للفرار منه، فيلحقُ بي متمهّلاً. إنّي مغمور بالضباب. امّحى المنظر أمامي، وأضحى كلّ شيء غائمًا. وحدها تتردّد في رأسي الأحاسيس التي ألمّت بي. وبينما أقفُ حائرًا يخترق شعاعُ شمسٍ كسوة الضباب من فوقي وينوّر الطحلبَ الذي يغطّي الأرض. وعندها أكتشف عند قدميّ عالمًا نباتيًّا غريبًا بكلّ ما فيه، هو أيضًا، من سلاسل جبليّة وحقول وأدغال متلألئة الخضرة. لا يمهلني الضباب هنيهةً ريثما أنحني، فيعاودُ انتشاره مكتنفًا الأرجاء كأنّه انبعث للتوّ من يد ساحرٍ، محيلاً الأرجاء الفسيحة إلى مساحة مكفهّرة صمّاء.

أنهض مجدّدًا. أنتظر، ضالاً طريقي. أنادي، ولا مَن يُجيب. أنادي مرّة أخرى، غير أنّني لا أسمع إلاّ صوتي الحزين المتهدّج متلاشيًا. ما مِن مُجيب. وسرعان ما يستبدّ بي الخوف. يتصاعد في داخلي من أخمص القدمين ويجمد دمي. أنادي مجدّدًا، ولا مَن يجيب. لا شيء حولي سوى الظلّ المعتم لأشجار التنّوب المتشابهة. أعدو راكضًا، أصيح بأعلى صوتي، أندفعُ يمنةً، أندفع يسرةً، أفقد صوابي. يجب أن أهدّئ من روعي، أن أعود أدراجي إلى نقطة الانطلاق، لا، ينبغي لي أوّلاً أن

أحدّد وجهتي، ولكن لا شيء من حولي سوى ظلّ التنّوب المعتم. لا نقطة اعتلام واحدة. لقد رأيتُ كلّ شيء من حولي، وكأنّني لم أر شيئًا. ينبثق العرق عند صدغيّ بقوّة. أدرك أنّ الطبيعة خدعتني، أنا، الرجل الضئيل الذي لا يؤمن بشيء ولا يخاف شيئًا والمتعاظِم في كلّ شيء.

ـ هاااي هووووو! هاي!

أصرخ. لم أسأل الرجل الذي يرافقني عن اسمه. فلا يسعني إلاّ الصياح مُهَستِرًا مثل حيوان برّي. يقشعرّ بدني لسماع صياحي. كنت أظنّ أنّ للأصوات في الجبال صدىً، على الدوام. حتى أشدّ الأصداء خفوتًا وانفرادًا أفضل من هذا السكون المرعب. هنا يتبدّد الصوت في ثنايا الجوّ المشبع بالرطوبة والضباب الكثيف. وعندئذ أدرك أنّني لن أتمكّن من إسماع صوتي فتحبط عزيمتي ويستبدّ بي القنوط.

على صفحة السماء الرماديّة يلوح خيال شجرة على حدة. شجرة مائلة، جذعها مشطورٌ إلى قسمين متساويين في الطول، ينتصبان مستقيمين بلا أغصان أو أوراق. شجرة عارية تمامًا، لا بدّ أنّها شجرة ميتة. أشبه بخُطّاف عملاق، هائل الحجم، يشير إلى السماء. أسير في اتّجاهها. فالواقع أنّها تقع عند طرف الغابة. ولا بدّ أن يكون المضيق المعتم تحتها، يحجبه الضباب. هذه وجهة إذًا، تقود مباشرة إلى الموت. غير أنّني لم أعد قادرًا على التخلّي عن صحبة هذه الشجرة، نقطة اعتلامي الوحيدة. أبذل ما بوسعي لكي أجمع في ذاكرتي كلّ المناظر التي شاهدتُ في طريقي. ينبغي أوّلاً أن أستعيد صورًا ثابتة، على غرار هذه الشجرة، وليس انطباعات عابرة. الأشياء، جميعها، ماثلة في ذهني

وإنّما أحاول أن أرتّبها كي أستخدم هذه الذكريات كنقاط اعتلام تمكّنني من العودة. غير أنّ ذاكرتي لا تسعفني، وكأوراق لعبٍ ممحوّة، كلّما حاولت ترتيب هذه الصور، ازداد اختلاطها في ذهني. وفي النهاية، أتهالكُ، منهوكًا، فوق الطحلب الرطب.

هكذا فقدت الاتّصال مع دليلي وضللتُ طريقي وسط غابة بدائيّة في نطاق النقطة الجيوديزيّة للملاحة الجوّيّة ١٢ م، على ارتفاع يزيد على الثلاثة آلاف متر. أوّلاً، لا أحمل هذه الخارطة الجيوديزيّة. ثانيًا، لا أحمل بوصلة. لا أعثر في جيبي إلاّ على جفنةٍ من المُلبّس كان العالِم النباتي العجوز قد تركها لي قبل أن يغادرني. وقال، مُسديًا لي النصح، إنّني إذا أردتُ الذهاب إلى الجبل فينبغي أن أحمل معي علبة ملبّس تحسبًا لاحتمال أن أضلّ طريقي. بطرف إصبعي أعدّ الملبّسات في جيبي: إنّها سبعٌ لا أكثر ولا أقلّ. فلا يسعني إلاّ أن أجلس وأنتظر قدوم دليلي بحثًا عنّي.

كلّ الحكايات التي سمعتها، في الأيّام الأخيرة، عن أشخاص ماتوا مفقودين في الجبل، تتردّد في ذهني وترعبني. أشعر بأنّني عالقٌ في الفخّ. ففي هذه اللحظة بالذات، أشبه سمكة علقت في شباك الخوف، وقد اخترق لحمها خُطّافٌ عملاق: تصارع من غير قدرة على تغيير مصيرها، إلاّ بمعجزة. ولكنْ، ماذا عنّي أنا، ألَم أصرفْ حياتي منتظرًا معجزة؟

الفصل الحادي عشر

تقرّ بذلك، أقرّت بذلك في ما بعد. لقد أرادت حقًّا أن تموت، كان الأمر يسيرًا. واقفةً على سدّ النهر المرتفع، كان يكفي أن تغمض عينيها وأن تلقي بنفسِها في الفضاء! غير أنّ احتمال سقوطها على أحجار الحافّة كان يشلّ أطرافها من الفزع. إذ لم تكن لتجرؤ حتى أن تتخيّل فظاعة منظر دماغها المتطاير من جمجمتها المفلوعة. منظر مقزّز. فإذا كان لا بدّ لها أن تموت فليكن موتًا جميلاً يُكسِبها التعاطف والتأسّي.

تقول إنّه كان ينبغي لها أن تسير صُعُدًا بمحاذاة الضفّة. وحين تصادف شاطئًا تهبطُ إلى حافّة النهر. طبعًا لن يلمحها أحد، ولن يعلم أحد بالأمر. عندئذ تخوض في المياه الداكنة في عزّ الليل حتى من غير أن تخلع حذاءها. لا تريد أن تخلّف أثرًا. تتقدّم إذًا مخوّضةً في الغمار منتعلة حذاءها. خطوة خطوةً تتقدّم حتى إذا لامست المياه خصرها، وقبل أن تغمر صدرها فتمنعها من التنفّس، يغدو التيّارُ جارفًا فيحملها مدوّمةً في سيله إلى عرضِ النهر. لن تتمكّن، عندئذ، من العومِ مجدّدًا، ولكن غصبًا عنها تقاوم الهلاك. غير أنّ غريزة البقاء هذه لن تجديها نفعًا. فجلّ ما تقدر عليه هو أن تتخبّط واهنةً، محرّكةً رجليها ويديها. تجري

الأمور بسرعة، وينقضي كلّ شيء حتى قبل أن تشعر بالألم. لن تقدر على الصراخ. يتبدّد كلّ أمل في النجاة، ولكن لا جدوى من صراخها الذي سرعان ما تغمره المياه. لن يسمعها أحد، وما من وسيلة لإنقاذها. ولا تلبث هذه الحياة غير المجدية أن تضمحلّ من هذا العالم من غير أثر. فإذا لم يكن من وسيلة للتخلّص من هذا العذاب، فالأجدر أن يأتي الخلاص بالموت، مقتلعًا الشقاء من جذوره. ينبغي للموت أن يكون نقيًّا هو أيضًا. وإذا وَسِعَها أن تموت في حالٍ من النقاء، فليكن ذلك، أمّا إذا سقط جسدها المنتفخ بفعل الماء أسفل المجرى على جوينٍ من الرمل، فسوف تجفّفه الشمس، ويبدأ بالتحلّل ويغدو نهبًا لأرْجالِ الذباب. لا إراديًّا، شعرت باشمئزاز سرى في كيانها. لا شيء يثير الاشمئزاز أكثر من الموت. ولا سبيل للتخلّص من هذا الإحساس، لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

تقول إنّ لا أحد قد يتعرّف عليها، إذ لا أحد يعرف اسمها أو كنيتها. وعندما ملأت استمارة الفندق تعمّدت أن تصرّح عن اسم مزيّف. تقول إنّ لا أحد من عائلتها قد يتمكّن من العثور عليها، أو قد يتصوّر أنّها فرّت إلى هذه القرية الجبليّة. لكنّها، بالمقابل، تتخيّل تمامًا ردّ فعل أهلها. لا بدّ أنّ زوجة أبيها قد اتّصلت هاتفيًّا بالمستشفى حيث تعمل، بصوتها البهيمِ، كأنّها مصابة بالزكام، والمصحوب ببعض النحيب المكتوم، بعد إلحاحٍ من قبل أبيها. تعلم جيّدًا أنّها لو ماتت حقًّا لما ذرفت عليها زوجة أبيها دمعة واحدة. هي ليست سوى عبء على هذه العائلة. لزوجة أبيها ابنٌ، لم يعد يافعًا. وحين ترغب في العودة إلى بيت أبيها لقضاء ليلة هناك، وجب على أخيها الصغير أن ينام على سرير ميدان في الممرّ.

كانوا ينتظرون غرفتها، آملين بأن تتزوّج في أقرب وقت. غير أنّها ما كانت لترضى بالعيش في المستشفى. ففي غرف الراحة المخصّصة للممرّضات المداومات تسود رائحة المطهِّرات على الدوام. ولفرط ما تقضي يومها بين الشراشف البيضاء والقمصان البيضاء والناموسيّات البيضاء والكمّامات البيضاء، يُخيّل لها أنّها لا تملك ممّا يميّزها عن سواها إلاّ عينيها وحاجبيها. السائل المعقّم، المشابك، الملاقط، وطقطقة المقصّات والمشارط، غسل اليدين المتكرّر، السواعد المغطّسة باستمرار في السائل المطهّر بحيث يغدو الجلد أبيض جافًّا، ويفقد لون الدم. مع تقدّم نساء القسم الجراحي ورجاله في العمر تكتسي أيديهم لونَ فأر أبيض. وهي مثلهم، لن يبقى منها ذات يوم سوى يدين فاقدتي اللون. وسوف تسقط هاتان اليدان على شاطئ رمل وسوف يغطّيهما الذباب. مجدّدًا ينتابها شعور بالاشمئزاز. إنّها تمقت عملها وعائلتها وحتى والدها العاجز عن إبداء رأيه ما إن تعلو نبرة زوجته ولو قليلاً. حاول أن تكون مقلاًّ بكلامك، هل اتّفقنا؟ حتى لو كان مخالفًا لرأيها، فهو يفضّل أن يبقى الأمر سرًّا. إذًا، قُل لي، أين أنفقتَ مالك هذه المرّة؟ أصبحتَ خَرِفًا قبل أوانك، فكيف لي أن أبقي معك مالاً بعد اليوم؟ جملة تجرّ عشر جمل، وصوت زوجة الأب يلعلع أكثر من ذي قبل. لا ينطق بحرف. لكز رجلَها ذات يوم، تحت الطاولة، في غياب زوجة أبيها وأخيها الأصغر، وكانا وحيدين، وقد أفرط في الشراب. غفرت له في ذلك اليوم، غير أنّها كانت في الوقت نفسه عاجزة عن الغفران. إنّه لا يصلح لشيء، وكم تمقت ضعفَه. ليس أبًا يثير الإعجاب، ليس رجلاً بمعنى الكلمة يسعها الاتّكال عليه أو تفتخر به. منذ وقت طويل وهي تمنّي نفسها بمغادرة

أهلها، بأن تنشئ لنفسِها عائلة صغيرة. ولكنْ ها إنّ شعورها بالاشمئزاز ينتابها مجدّدًا. كانت قد وجدت في جيبه واقيًا ذكريًّا. هي في العادة تتناول أقراص منع الحمل فلا ما يقلقها بهذا الشأن. لا يسعها القول إنّها أغرمت به فجأة. غير أنّه أوّل رجل تلتقيه ويجرؤ على التغزّل بها. قبّلها. وراح يشغل فكرَها. التقيا مجدّدًا بمحض الصدفة، واتّفقا على لقاء آخر. كان يريدها، فوهبته نفسَها. انتظر أحدهما الآخر بفارغ الصبر، وثَمِلا معًا. كانت مضطربة، خافقة القلب، ممتلئةً خوفًا، لكنّها راضية كلّ الرضا. جرت الأمور مجراها الطبيعي، مفعمةً بالسعادة، بالجمال، مفعمة بالحشمةِ، من غير خشونة. تقول إنّها، لأنّها كانت تعلم، إنّما أرادت أن تحبّه أوّلاً وأن يحبّها، ثم أن تكون زوجته، وتغدو أمًّا، أمًّا يافعةً، غير أنّها تقيّأت. تقول لم يكن السبب أنّها حامل. ولكن مباشرة بعد أن ضاجعها تحسّست شيئًا ما داخل الجيب الخلفي لبنطاله الذي كان قد خلعه. لم تتعمّد تفتيش ملابسه غير أنّها فتّشت وتقيّأت. في ذلك اليوم لم تعد، بعد دوام العمل، إلى مهجعها كما أنّها لم تأكل شيئًا لكي تسرع إلى بيته. ما إن أطلّت حتى قبّلها وضاجعها من غير أن يمكّنها من استرداد أنفاسها. قال إنّ الصبا فرصة يجب أن نستغلّها، وأن نستمتع بالحبّ حتى آخر قطرة. مستلقية على صدره، وافقته الرأي. في الفترة الأولى، لم يكن راغبًا في الإنجاب كي يُتاح لهما اللهوُ من غير أعباء لبضع سنوات. سوف يدّخران المال لكي يتمكّنا من السفر لبعض الوقت. ولن يؤثّثا بيتًا في البداية. إذ يكفيهما السكن في غرفة ضيّقة، وكان هو يملك واحدة، وكانت هي لا ترغب في شيء سوى أن يكون هو ملكها. كانا مجنونَين، لا شيء يوقفهما عند حدّ، لا شيء على الإطلاق... لم يتّسع

الوقت لكي تستفيد من كلّ ما خطّطا له، ولم يبق لها سوى اشمئزازها. اشمئزاز طاغٍ مثير للغثيان. في ما بعد، راحت تبكي وتلعن الرجل كأنّها أُصيبت بمسّ! انتهى حبّها له. كم كانت تعشق رائحة العرق المنبعثة من ملابسه الداخليّة. حتى عندما يكون نظيفًا، لا تخفى عليها الرائحة. ومع ذلك كان أقلّ الرجال أهلاً لأن يُحَبّوا، ولا يثنيه ظرف أو مكان عن ممارسة مثل هذه الأمور مع أيّة امرأة. الرجال قذرون حقًّا! فالحياة التي ابتدأتها للتوّ كانت متّسخة كمثلِ أغطية الأسرّة في هذا النزل الصغير الذي يقصده الجميع طلبًا لساعات من النوم. لا يبدّلونها إطلاقًا وتفوح منها رائحة عرق الرجال. لن تعود ثانية إلى مثل هذا النوع من الأماكن!

إلى أين ذهبتِ إذًا؟ تسألها.

تقول إنّها لا تدري، ولا تفهم كيف أمكنها أن تأتي إلى هنا بمفردها. تقول أيضًا إنّها كانت تبحث عن مكان مثل هذا حيث لا أحد قد يتعرّف عليها، وأنّها، وحيدة، سارت صُعُدًا بمحاذاة النهر لا تلوي على شيء، مواصلة طريقها في خطّ مستقيم حتى الإنهاك، حتى السقوط هالكةً على قارعة الطريق...

تقول إنّها أشبه بطفل متقلّب الأطوار.

كلاّ! تقول إنّ أحدًا لا يفهمها. وأنتَ أيضًا لا تفهمها.

تسألها إذا كانت تستطيع عبور النهر بصحبتك. على الضفّة الأخرى يقع لينغشان، **جبل الروح**، حيث يُتاح للمرء أن يشهد العجائب التي تساعده في نسيان عذاباته وفي نيلِ الخلاص. وتستميت في إغرائها.

تقول إنّها أخبرت عائلتها بأنّ المستشفى ينظّم رحلةً، أمّا في المستشفى فادّعت أنّ والدها مريض. وطلبت إجازة لبضعة أيّام كي يتسنّى لها أن توفّر له الرعاية اللازمة.

تقول إنّها ماكرة حقًّا.

تقولُ هي إنّها ليست غبيّة.

الفصل الثاني عشر

قبل الشروع في هذه الرحلة الطويلة، وفي غضون الفترة التي شخّص فيها الطبيب سرطانًا في الرئة، كان الأمر الوحيد الذي أقدر عليه هو النزهات في حدائق الضاحية. كان الجميع يردّد أنّ هواء الحدائق هو الوحيد الصالح في هذه المدينة الملوّثة، وخاصّة حدائق الضاحية. فيما مضى كانت المساحات الضيّقة بقرب أسوار المدينة تُستخدم كمحارق للجثث وكمدافن، ولم تُجعَل حدائق عامّة إلاّ منذ بعض الوقت. ولمّا بلغ العمران في السنوات الأخيرة هذه المدافن المهملة، راح السكّان يشيّدون منازل على سفوح الهضاب متزاحمين مع الموتى على سكناها.

وحدها قمم الهضاب لا تزال في الوقت الحاضر أرضًا بائرة. تتكدّس في أرجائها ألواح حجر غير مستعملة استُقدمت لكي تكون شواهد قبور. عجائز النواحي يقصدون المكان كلّ صباح لمزاولة رياضتهم المعتادة، مصطحبين طيورهم في نزهة. بعد التاسعة عندما تشتدّ حرارة الشمس على قمّة الهضبة يعودون إلى بيوتهم جميعًا حاملين أقفاصهم بأيديهم. وإذ يصفو لي الجوّ وحدي، أخيرًا، أسحب من جيبي نسخة من **كتاب التحوّلات**. أقرأ وأقرأ وتحت أشعّة شمس الخريف الفاترة، يغلبني

النعاس. أستلقي على أحد ألواح الحجر جاعلاً من كتابي وسادة. أستعيد في ذهني سمات الأشكال السداسيّة الأضلاع[1] التي قرأتها للتوّ وتطفو صورتها المائلة إلى زرقة برّاقة على وجهي المحمرّ جرّاء حرارة الشمس.

لم يكن في نيّتي أصلاً أن أقرأ. فأن أقرأ كتابًا زيادةً أو نقصًا، أن أقرأ أو لا أقرأ، لن يبدّل شيئًا من حلول ساعة إحراق جثماني. وإذا كنت أقرأ **كتاب التحوّلات** فبمحض الصدفة. جاءني أحد أتراب الطفولة عندما علم بأمر مرضي عارضًا عليّ المساعدة. وحدّثني عن أساليب **تسيغونغ** المختصّة بالتنفّس. فقد قيل له ذات يوم إنّ البعض يستخدمها للشفاء من السرطان وهو يعرف رجلاً يزاول فنًّا يتّصل بالأضلاع الثماني الثلاثيّة الأشكال، وأشار عليّ بالمحاولة، فأدركت حسنَ نواياه. فعندما يبلغ المرء المرحلة التي بلغتها يكون مستعدًّا لبذل أيّة محاولة طلبًا للنجاة. فسألته إذا كان يستطيع أن يزوّدني بنسخةٍ من **كتاب التحوّلات** الذي لم أقرأه من قبل. فأحضره لي في اليوم التالي. لشدّة تأثّري اعترفت له أنّني في صغري اشتبهتُ بأنّه هو من سرق منّي الهارمونيكا التي كنت قد اشتريتها للتوّ. وطبعًا كنت مخطئًا في اتّهامه لأنّني وجدت الهارمونيكا المفقودة في ما بعد. فهل يتذكّر الحادثة؟ نوّرتْ وجهه المستدير المعافى ابتسامة عريضة قبل أن يجيب بشيء من الحرج: وما الداعي لاستذكار مثل هذه الأمور؟ ولاحظت في النهاية أنّه هو من شعر بالإحراج وليس

---

(١) الأشكال الثلاثيّة والسداسيّة الأضلاع هي أشكال الـ ييجينغ، أي كتاب التحوّلات، المستخدمة في الكَهانة.

أنا. الواضح أنّه لم ينسَ غير أنّه حافظ على صداقته لي. وعندئذ أدركت أنّني، أنا أيضًا، ارتكبت أخطاءً، وأنّني لا أختلف عن الآخرين الذين اتّهموني خطأً. هل كان شعورًا بالندم من قبلي؟ أم كان مجرّد حالة من تلك التي تسبق الموت؟

لم أكن أعلم ما إذا كنتُ أنا، في آخر الأمر، مَنْ أظهر نكرانًا للجميل حيال الآخرين، أو إذا كان الآخرون هم الذين أبدوا هذا العقوق حيالي. أعلم أنّ بعضهم أحبّني حقًّا، كوالدتي المتوفّاة اليوم، وأنّ البعض الآخر كرهني كزوجتي التي انفصلت عنها، ولكن ما الجدوى من جردة الحساب الآن، ولم يبق من العمر إلاّ القليل القليل؟ لِمَن كنت عقوقًا حياله قد يكون موتي عِوَضًا كافيًا، أمّا الآخرون فلم يعد بوسعي أن أفعل لأجلهم شيئًا. الحياة، في آخر الأمر، ليست سوى عروة أحقاد مبهمة، فهَل يُعقَل أن يكون لها معنى آخر؟ ولكنّ إنهاءها على هذا النحو أمرٌ سابقٌ لأوانه حقًّا. أدركتُ أنّني لم أعِش يومًا كما ينبغي، ولو قُيِّض لي أن أحيا حياةً أخرى لبدّلتُ من دون شكّ نمطَ عيشي، شريطة أن تحدث معجزة.

لم أكن مؤمنًا بالمعجزات بقدر ما لم أكن مؤمنًا، في البداية، بالقَدَر، ولكن عندما يجد المرء نفسَه أمام وضعٍ ميؤوس منه، أما من رجاء يُعقَدُ بغير المعجزات؟

بمضيّ خمسة عشر يومًا، قصدتُ المستشفى لكي أخضع، كما جرى الاتّفاق، لفحص بالمنظار. وأصرّ أخي، لشدّة قلقه، على مرافقتي غصبًا عنّي. لم أشأ أن أُظهر عواطفي أمام أقربائي. وبمفردي قد يسعني

السيطرة عليها من غير مشقّة، غير أنّني لم أفلح في ردعه. كما أنّ أحد رفاق المدرسة كان يعمل في المستشفى فاصطحبني مباشرة إلى المسؤول عن قسم التصوير بالأشعّة. جالسًا على كرسيّ دوّار، وراء نظّارته، قال، بعد قراءة للتشخيص المدوّن على إضبارتي الطبّيّة، وبعد فحصٍ لصور صدري المشعاعيّة، إنّه يتعيّن أيضًا إجراء صورة مشعاعيّة جانبيّة. وأتبع قوله بتحرير رسالة يطلب فيها إجراء هذه الصورة في قسم آخر، موضحًا أنّه سيذهب بنفسِه لسحب نسخ الصور حتى قبل أن تجفّ.

كانت شمس خريفيّة بهيّة تسطع في الخارج. وفي الداخل يسود جوّ من الطراوة. وفيما كنت جالسًا في تلك الحجرة متأمّلاً عبر النافذة مرجة العشب المغمورة بأشعّة الشمس، انتابني إحساس بجمالٍ لامتناهٍ. لم يسبق أن نظرتُ يومًا إلى الشمس على هذا النحو. وريثما يُنجز تظهير صور الأشعّة في الغرفة المظلمة، كنتُ أتأمّل الشمس عبر النافذة. ومع ذلك كانت الشمس بعيدة جدًّا، والأحرى بي أن أفكّر بما سأواجهه الآن، في اللحظة ذاتها. ولكن هل يتطلّب الأمر تفكيرًا؟ كان موقفي أشبه بموقف القاتل الذي تُدينه أدلّة دامغة وينتظر أن ينطق القاضي بعقوبة الموت. لا يسعه إلاّ أن يتمنّى حدوث معجزة. أليست الصورتان المشعاعيّتان اللعينتان اللتان أجريتهما في مستشفيين مختلفين البرهان الأكيد على حكم الموت الذي صدر بحقّي؟

لا أدري متى، ومن غير أن ألاحظ، ربّما لحظة استغراقي في تأمّل الشمس عبر النافذة، سمعتُني أردّد، في قرارة نفسي، ومنذ بعض الوقت، اسم **بوذا أميتابا**. كنتُ أتلو الصلوات منذ ارتدائي ملابسي مجدّدًا

وخروجي من صالة الآلات حيث يُرفَع المرضى ممدّدين كما في معامل النحر.

لو خُيّل إليّ، قبل تلك اللحظة، بأنّني أنا أيضًا سأصلّي ذات يوم، لوجدتُ الأمرَ مثيرًا للسخرية بالتأكيد. كنتُ في ما مضى أمرّ بجوار معابد حيث أرى عجائزَ المصلّين، رجالاً ونساءً، يحرقون البخور ويسجدون مردّدين اسم بوذا أميتابا، فأشعر بالإشفاق لحالهم. ليس إشفاق التعاطف على الإطلاق. وإذا قُيّض لي أن أفسّر هذا الإحساس بكلمات لقلتُ إجمالاً: «يا للمساكين، إنّهم مثيرون للشفقة وضعفاء. حين تتعثّر أقلّ أمنياتهم لا يجيدون إلاّ الصلاة كي تُستجاب الأمنيات». ما كنت لأتصوّر أنّ رجلاً في مقتبل العمر أو امرأة شابّة جميلة قد يلوذان بالصلاة. وإنْ سمعتُ اسم بوذا يتردّد على ألسنِ الورعينَ من الشبّان شعرتُ برغبةٍ في الضحكِ وعاملتهم بعدوانيّة صريحة. لم أكن أفهم لِمَ قد يلجأ إنسانٌ في عزّ شبابه إلى مثل هذه الحماقات. وها قد صلّيتُ، اليوم، أنا أيضًا، بكلّ ورعٍ ومن أعماق قلبي. القَدَرُ بالغ القسوة والإنسان بالغ الضعف. فمقابل الشدائد يغدو قَدْرُ الإنسانِ قَدْرَ لا شيء.

ووجَدْتُني في انتظار الحكمِ عليّ بالموت في ذلك الموقف الذي كنتُ فيه قَدْرَ لا شيء، متأمّلاً شمس الخريف عبر النافذة، مردّدًا في سرّي الصلوات لبوذا.

كان رفيق مدرستي القديم قد عيل صبره. فدخل إلى الغرفة المظلمة ومعه أخي. ولكن سرعان ما أُرغِم أخي على مغادرة الغرفة، فلم يبق

أمامه إلاّ ترصّد شبّاك تسليم الصور الناجزة. ولم تمض هنيهات حتى خرج صاحبي بدوره ووقف منتظرًا عند الشبّاك المذكور. لقد صرفا انتباههما عن المحكوم بالموت وكرّساه للحكم بالموت. لعلّ هذه التورية تعوزِها الدقّة. إذ كنت أراقبهما داخِلَيْن خارجَيْن كمراقب محايد تمامًا، منصرفًا فقط إلى ترداد اسم بوذا في سرّي. ثم فجأة سمعتهما يصيحان:

ـ إذًا؟

ـ لا يوجد خطب؟

ـ تحقّق من الأمر جيّدًا!

ـ جدول عملنا لما بعد هذا الظهر لا يتضمّن إلاّ هذه المشعاعيّة الجانبيّة للصدر، أجاب أحدهم بشيء من الانزعاج من داخل الغرفة المظلمة.

سارعا معًا إلى رفع الصورة بملقطين بغيةَ تفحّصها. كذلك الأمر خرج الممرّض المختصّ من الغرفة المظلمة وألقى نظرة على الصورة، ونطق ببعض العبارات المبهمة، ثم انصرف عنهما كلّيًّا.

تبارك البوذا. هذه الكلمات التي حلّت في البداية محلّ الابتهال لبوذا أميتابا تحوّلت إلى تعبير عادي عن الفرح. تلك كانت حالتي النفسيّة الأولى بُعَيْد نجاتي من ذلك الموقف الميؤوس منه. لقد منحني البوذا رعايته وحدثت المعجزة. غير أنّني أبقيت بهجتي مكنونة في قرارة نفسي لا أجرؤ على التعبير عن عواطفي باستخفاف.

كنت لا أزال غير مطمئنّ كلّ الاطمئنان. فأمسكت بالصورة التي كانت لا تزال رطبة بين إصبعين وذهبت إلى المسؤول القابع وراء نظّارته للتحقّق منها.

بحركة استعراضيّة جدًّا، قال باسطًا ذراعيه:

ــ ممتازة، أليس كذلك؟

ــ هل ينبغي لنا أن نفعل شيئًا آخر؟ سألت بشأن الفحص بالمنظار.

ــ نفعل ماذا؟ سألني بنبرة توبيخ. فمثل هذا التصرّف حقّ من حقوقه المكتسبة هو الذي ينقذ أرواح الناس.

ثم جعلني أقف أمام آلة التصوير المشعاعي، وطلب منّي أن أحبس نفسًا عميقًا، وأن أكحّ، وأن أستدير، إلى اليسار، إلى اليمين.

ــ بإمكانك أن ترى بنفسك، قال وهو يشير إلى شاشة المراقبة. انظر، انظر.

الحقيقة أنّني لم أر شيئًا بوضوح: في ذهني غليان مشوّش، وعلى الشاشة هيكل صدري العظمي بالأسود والأبيض.

ــ لا أثر لشيء على الإطلاق، أليس كذلك؟ ردّد قائلاً بالنبرة الموبّخة إيّاها كأنّني أتعمّد التشكيك بأحكامه.

ــ ولكن كيف نفسّر ما نراه على صورتَي الصدر هاتين؟ لم يسعني تمالك نفسي عن طرح السؤال.

ـ إذا قلتُ إنّه لا شيء هناك فهذا يعني أن لا شيء هناك. هذا يعني أنّ الشيء الموجود اختفى. كيف نفسّر ذلك؟ ربّما كان أثر نزلة صدريّة، فالالتهاب الرئوي قد يخلّف في الصورة بقعًا داكنة، ثم تزول عند الشفاء.

لم أسأل عن الحالة النفسيّة. هل تخلّف الحالة النفسيّة بقعًا داكنة؟

ـ عِش بسلام يا فتى! ثم دار بكرسيّه متجاهلاً وجودي.

هذا صحيح، كنت قد بُعثتُ حيًّا من جديد، وأشعر بأنّني وُلدتُ الآن أصغر من مولود جديد.

سارع أخي إلى ركوب درّاجته منطلقًا فلعلّه يستلحق موعد اجتماعه.

شعرتُ مجدّدًا بأنّ أشعّة الشمس ملك لي. ولي وحدي أن أستمتع بها. جالسًا على كرسيّ عند طرف المرجة، راح رفيق الدراسة يتحدّث عن القدر بكلام بليغ. فلا أحد يتحدّث عن القدر إلاّ حين يكون الحديث عنه من غير جدوى.

ـ الحياة أمرٌ مثير للإعجاب، قال، وهي نتاج مصادفة حقًّا. يسعنا أن نحسب عدد الاحتمالات الذي ينطوي عليه نسق الصبغيّات، ولكن هل يسعنا مُسبقًا حساب الفرص المتاحة لمولود جديد؟

كان محدّثًا طليق اللسان. يدرس الهندسة الوراثيّة. وعندما كتب أطروحة التخرّج جاءت خلاصة التجارب التي توصّل إليها مخالفةً لرأي رئيس القسم الذي أشرف عليها، وفي غضون محاورة جاهر بمخالفته رأي سكرتير الحزب المشرف على هذا القسم. فور تخرّجه أُوفد إلى

إحدى مزارع داشينغان لتربية الأيائل. وفي ما بعد لم يجر تعيينه مدرّسًا في إحدى الجامعات المنشأة حديثًا في تانغشان إلاّ بعد جهد جهيد. لم يتوقّع يومًا أن «يُعثر عليه» وأن يُدان بوصفه «خادمًا لزمرة أعداء الثورة السود». ثم كابد من صنفِ المرارات كثيرًا طيلة عشرة أعوام قبل أن يخلص الحكم إلى عبارة: «عدم توفّر الأدلّة». ومَن كان ليحسب أنّه قد يُنقَل قبل عشرة أيّام من زلزال تانغشان بينما يهلك جميع من أساؤوا إليه جرّاء انهيار مبانيهم؟ كان الوقت ليلاً ولم يُكتب لأحد منهم النجاة.

ـ في خضمّ الظلمات ينال كلّ إنسان مصيره! قال.

أمّا أنا فمن واجبي أن أفكّر في الطريقة التي ينبغي أن أعيش بموجبها، الآن وقد حظيتُ بحياة جديدة.

الفصل الثالث عشر

قُدّامك ضيعةٌ ببيوتها المتشابهة المبنيّة من آجرّ أزرق وقرميد أسود، المتناثرة على طول الضفّة، أسفل حقولٍ جُعلَت على هيئة مصاطب وتلال. عند مدخل الضيعة تجري ساقية مغطّاة بألواح طويلة من الحجر. هنا أيضًا ترى دربًا مفضيًا إلى القرية، مرصوفًا بأحجار رماديّة مائلة إلى الزرقة وعليها آثار واضحة لدواليب العربات. وتسمع أيضًا خفقَ الأرجل إذ تصفق الحجرَ مخلّفةً عليه أثرًا من الرطوبة. صدى خفق الأرجل على الحجر يدعوكَ إلى الدخول. إنّه شارع ضيّق شبيه بالشارع الذي عرفته في طفولتك، وآثار وحل تغطّي أرضيّته الحجريّة. وأخيرًا تلمح، خَلَلَ الشقوق، الساقية التي تتبع مجراها عبر القرية تحت الدرب الموصل إليها. عند مدخل كلّ بيت، بلاطة مرفوعة بما يتيح لقاطنيه أن يتزوّدوا بحاجتهم من الماء وغسل غسيلهم. على سطح مويجات الماء اللامعة تطفو فضلات من أوراق الكرنب. كما تسمع من وراء أبواب البيوت قوقأةَ دجاجات تتخاصم في سعيها وراء نقر رزقها. لا تلمح في الأزقّة أثرًا لكائن حيّ، لا أولاد ولا كلاب، بل مكان ساكن ومنعزل.

عند زاوية أحد البيوت تنوّر الشمس الجدار العاكس المطليّ بالكلس. فيبدو الضوء الباهر المنعكسُ متنافرًا مع العتمة التي تغلب على الشارع.

على ساكفِ أحد البيوت تبرق مرآة مزيّنة بالأشكال الثمانية الثلاثيّة الأضلاع. وإذا وقفتَ تحت سقيفة العتبة تبيّن لك أنّ هذه المرآة المُعدّة لطرد كلّ شؤم موجّهة نحو زاوية الجدار العاكس، بحيث تردّ الشرور من حيث أتت من الجهة المقابلة. إذا التقطت صورة فوتوغرافيّة من هناك، فمن شأن التلاوين المتنافرة للجدار العاكس المنوّر بأشعّة الشمس الصفراء وقتامة الزقاق الزرقاء الرماديّة وبلاط الأرضيّة المائل إلى الدكنة أن توحي بجوّ من السكون والرّغَد. كما أنّ قرميد السقوف العقفاء المهشّم، وصدوع الجدران توقظ في روعِكَ ما يشبه النوستالجيا. أو ربّما من شأن صورة فوتوغرافيّة ملتقطة من زاوية مختلفة لبوّابة هذا البيت، مع الضوء الذي تعكسه المرآة ذات الأشكال الثمانية الثلاثيّة الأضلاع، والعتبة الحجر اللامعة لفرط ما صقلتها أقفية الأولاد، أن تعطي صورة حيّة يتبدّد فيها كلّ أثر للحقد الذي عمّر في قلوب هاتين الأسرتين من جيل إلى جيل.

أنتَ لا تحكي لي سوى حكايات قاسية ومرعبة، تقول، لا أريد أن أستمع إليها.

إلامَ تريدين الاستماع إذًا؟

احكِ لي حكايات جميلة عن أناس جميلين.

أتريدين أن أحدّثكِ عن نساءٍ زهرة الكاميليا؟

لا أريد سماع قصص ساحرات.

لسن بساحرات. الساحرات هنّ على الدوام نساء هرِمات مقزّزات، أمّا نساء زهرة الكاميليا ففتيات يافعات وحسناوات.

مثل امرأة الشقيّ السيّد **الثاني**؟ لا أريد الاستماع إلى هذا النوع من الحكايات القاسية.

نساء زهرة الكاميليا فاتنات بقدر ما هنّ خيّرات.

عند مَنفَذ القرية، صُعُدًا بمحاذاة مجرى الساقية، تغدو الصخور الضخمة زَلِقةً، لشدّة ما صقلتها المياه.

بحذاء من الجلد تتقدّم على الصخور الرطبة المكسوّة بالطحالب. تقولُ لها إنّها لن تذهب بعيدًا بهذه الطريقة، غير أنّها تسألك أن تمسك بيدها. لقد حذّرتها ومع ذلك تنزلق. تجذبها بيدك إليك قائلاً إنّك لم تتعمّد ذلك، لكنّها تتّهمك بأنّك سيّئ النيّة وتقطّب حاجبيها. مع أنّ شفتيها تفترّان عن ابتسامة. تزمّ شفتيها بقوّة. ولا يسعك إلاّ أن تقبّلهما. ثم سرعان ما ترخيهما فتدهشك رقّتهما. تستمتع بأنفاسها العذبة. تقول إنّ مثل هذه الأمور غالبًا ما تحدث في الجبل. هي مُغرية فرضختَ لإغرائها. ملتصقةً بك، تغمض عينيها.

حدّثني!

عمّ أحدّثك؟

حدّثني عن نساء زهرة الكاميليا.

إنّهنّ يُغوينَ الرجالَ في الجبال، على الدروب الظليلة، عند مفترقات الطرق، وغالبًا في المقصورات عند القمّة...

هل التقيتَ إحداهنّ؟

طبعًا. كانت تجلس باستقامة على مقعد الحجر في مقصورة مبنيّة وسط أحد الدروب. يستحيلُ تجنّبها. كانت فتاة جبليّة، يافعة، مجلببة بقميص من نسيج كتّان أزرق فاتح وأزرار جانبيّة من قماش، أمّا الياقة والكمّان فمطرّزة بالأبيض، وعلى رأسها عَمْرة من البَتيك معقودة بدقّة مفرطة. من غير أن تقصد أبطأتَ في سيرِك وتعمّدتَ الاقتراب من المقعد لكي تستريح قليلاً، قبالتها. غير مكترثة راقبت دنوّك منها من غير أن تلتفت نحوك، ومن غير أن تفترّ شفتاها المزمومتان الرقيقتان المتلألئتا الحمرة. حاجباها وعيناها السودُ سوادَ السبج كانت مكحّلة بفنن صفصافٍ حُرِّقَ طرفه بلهيب نار. تدركُ جيّدًا قدرتها على جذبِ الآخرين إليها، ومن غير مداراةٍ أو مواربة، راحت عيناها البرّاقتان ترسلان نحوك نظراتهما الفاتنة. الرجلُ هو الذي يشعر بالحرج أمامها. أنتَ نفسك نهضت لشدّة ارتباكك هامًّا بالرحيل. على هذا الدرب المقفر الظليل أفقدتكَ كلّ ملَكاتِ ذهنك. كنت تعلم جيّدًا أنّ حظوظ وقوعِكَ في غرام هذا الصنف من النساء لا يتجاوز ثلاثة من عشرة. ولم يسعك إلاّ أن تذوب حبًّا بها، ولا تجرؤ على استعجال الأمور. تقول إنّ الحَجّارينَ هم الذين حذّروك، إذ قضيتَ الليلةَ في ملاذهم. إنّهم يعملون في استخراج الأحجار من الجبل، وطيلة الأمسية، شاركتهم الشراب المسكرَ وتحدّثتَ معهم عن النساء. تقول لها إنّك لا تستطيع اصطحابها إلى هناك لأنّك تعجز عن ضمان سلامتها. وحدها امرأة كاميليا قادرة على السيطرة على أولاء الحجّارين. قالوا إنّهنّ جميعًا قادرات على مزاولة الطبابة بالإبر بأصابعهنّ العارية. لقد ورثنَ فنّهنّ عن أسلافهنّ، وتستطيع أياديهنّ البارعة أن تُشفي الأمراض العصبيّة التي يعجز البشر عن شفائها، من

اختلاج الأطفال الصرعى إلى الفالج الشِقّي. أمّا بشأن أمور الزواج والوفاة وأسرار النساء والرجال، فالجميع يلجأ إلى نُصحِ أفواههنّ الخبيرة لكي تُقبل شفاعة وتستقيم الأمور. عندما يلتقي المرء زهرة برّيّة مماثلة وسط الجبل، ينبغي له أن يتأمّلها لا أن يقطفها. ويروي الحجّارون قصّة ثلاثة إخوة لم يصدّقوهم. التقوا على أحد الدروب امرأة كاميليا فراودتهم بشأنها بعض الأفكار غير السويّة. ألا يسعهم، وهم ثلاثة أنفار، أن يُخضعوا امرأةً واحدة؟ بعد مداولة في ما بينهم، اندفعوا نحوها وجرجروها بالقوّة إلى داخل غار. كانت امرأة بالفعل، ولم تتمكّن من صدّ الشبّان الثلاثة. وعندما قضى اثنان منهم وطرهما منها، توسّلت المرأة إلى الثالث قائلةً: «الخير يُجازى خيرًا، والشرُّ شرًّا. ما زلتَ فتيًّا، فلا تحذُ حذوَهما. أطلق سراحي، أرجوك، فأعلّمكَ وصفةً سرّيّة. سوف تجني منها الفائدة في ما بعد. وتمكّنك من الزواج والعيش كما يحلو لك». على الرّغم من شكوك ساورته بشأن وصفتها، أخلى الفتى سبيلها بدافع الشفقة.

وأنتَ، هل أهنتها أم أنّك أخليت سبيلها؟ تسأل.

تقول إنّك نهضت هامًّا بالرحيل، لكنّك لم يسعك إلاّ الالتفات إلى الوراء لكي تلقي نظرةً إليها وإنّك رأيتَ إذ ذاك خدّيها وزهرة كاميليا مشكوكة عند صدغها. كان حرفُ حاجبيها وطرف شفتيها يلتمعان كالبرقِ منوِّرَيْن الوهدَ المعتم على نحوٍ مباغت. شُغِفَ قلبُكَ. وأدركت في الحال أنّك التقيتَ امرأةَ كاميليا. كانت جالسةً هناك، حيّةً تُرزَق، وصدرُها نافرٌ من تحت قميصها الكتّان الأزرق. من ساعدها تدلّت سلّة

خيزران مغطّاة بفوطة مطرّزة جديدة. وتنتعلُ حذاءً جديدًا أيضًا من الكتّان الأزرق المشجّر. كان قوامها أشبه برسمةِ ورقٍ مقصوص ملصقةٍ على زجاج نافذة.

اقترب! تومئ قائلةً.

جالسةً على حجر، تنزع بيدٍ حذاءها ذا الكعب العالي، فتلامسُ قدمها العارية الحصباءَ برفق. أصابع قدمها البيضاء تتموّج في الماء الرقراق، مثل ديدان لحيمة. لا تفهم كيف بدأت الأمور. فجأةً تقلبُ رأسها لتوسّده أسلَ الضفّة البرّيّ الأخضر. تنهضُ جذعها. بأصابعك تتلمّس مشبكَ صدريّتها وتحرّر نهديها المكوّرين الأبيضين بياضَ الشفوف تحت شمس الظهيرة. ترى حلَمتي نهديها الحمراوين تنتصبان وتحت لُغوَتيهما تبرز عروقٌ دقيقة مائلة إلى الزرقة. تطلق صيحةً مكتومةً وتنزلق قدماها الاثنتان في الماء. طيرٌ أسود ذو قائمتين بيضاوين، أتعلمين أنّ هذا الطير يُسمّى الضرُب، يحطّ على صخرة داكنة، مكوّرة مثل ثدي، وسط مجرى الساقية. على محيطها يسطعُ نور الموج الصافي. تخوّضان معًا في الماء، هي تأسفُ لأنّها بلّلت تنورتها. عيناها النديّتان اللامعتان تشبهان نور الشمس المنعكس على صفحة مياه الساقية. أخيرًا تستحوذ عليها، وفجأةً يتحوّل هذا الوحش الضئيل الذي يقاوم إلى كائنٍ وديع بين ذراعيك ويبكي بصمت.

طائر الضرُب يتلفّت يمنةً ويسرةً، شاهرًا ذنبه، رافعًا ثم خافضًا، تكرارًا، منقارَه الأحمر الشمعيّ. لا تكاد أن تقترب منه حتى يطير جمامَ الماء ثم يحطّ، في مكان غير بعيد، على صخرةٍ أخرى، مُتابعًا تحرّكه

الذؤوب. يلتفت نحوكَ رافعًا رأسه وذنبه. يمهِلكَ لكي تقترب مجدّدًا فيطير ثم ينتظركَ في موضع آخر مُزَقزِقًا. إنّه هي، هذا الطيف الماكر الأسود.

مَن؟

روحها.

ومَن هي؟

تقول إنّها ماتت. أبناءُ الزنى هؤلاء اصطحبوها أثناء الليل لكي تستحمّ عند ضفّة النهر. وعندما عادوا قالوا إنّهم لم يلحظوا اختفاءها إلاّ لدى بلوغهم الضفّة. طبعًا، هذه أكاذيب، ولكنّها أقوالهم. قالوا أيضًا إنّه إذا كان هناك من لا يصدّق أقوالهم فليس عليه إلاّ أن يستدعي الطبيب الشرعيّ لإجراء تشريح. لم يستقرّ موقف الأهل على رأي بهذا الشأن. عندما ماتت كانت الفتاة قد بلغت السادسة عشرة للتوّ. وفي ذلك الوقت كنت أنتَ أصغر سنًّا، غير أنّك كنت تعلم أنّها جريمة عن سبق إصرار وتصميم. كنت تعلم أنّهم طالما ضربوا لها مواعيد ليليّة، وأنّهم قتلوها خنقًا أسفلَ دعامة جسر وأنّهم تناوبوا على جثّتها الواحد تلو الآخر، قبل أن يلتقوا مجدّدًا ويسترسلوا في سرد تجاربهم على مسامع بعضهم البعض. سخروا منكَ قائلين إنّك أبله لأنّك رفضت أن تلمسها أو تستغلّها. لطالما تآمروا على النيل منها. استمعت مرارًا إلى أحاديثهم المقزّزة التي كان يتردّد في سياقها اسمها. وكنت قد حذّرتها خِلسةً ألاّ تنقاد لأكاذيبهم وألاّ تصحبهم أثناء الليل. قالت لك إنّها تخافهم، لكنّها لا تجرؤ على الرفض، وواصلت سيرتها معهم. كانت تخافهم، بقدر ما تخافهم أنت. يا

لكَ من جبان! قتلها أولاد الزنى هؤلاء ورفضوا الإقرار بجريمتهم. ولم تجرؤ على فضحهم. سنوات طويلة وهي تثقلُ على قلبك، مثل كابوس. تقلقك روحها المعذّبة وتظهر لك بكلّ هيئة وشكل، وحدها صورتها الأخيرة التي انطبعت في ذهنك عندما خرجت من أسفل دعامة الجسر لم تتغيّر على الإطلاق. ما زالت نصبَ عينيك، تشي...، تشي...، هذا الطيف الضئيل الماكر، هذا الضرّب ذو القائمتين البيضاوين والشفتين الحمراوين. تقتلع أسلة سَوخَر، وتمسك بعرقِ شمشاد بين شقوق صخرة وتسير قاصدًا الدرب الذي يفضي بك صعدًا إلى الضفّة.

ممسكًا بيدها تشير عليها بأن تقفَ على حجر.

تطلق صيحةً.

ما الأمر؟

لقد لويتُ قدمي. بكعبيها العاليين لا سبيل إلى السير على دروب الجبال.

ولكنّي لم أعدّ العدّة للسير على دروب الجبال.

ولكنّك على دروب الجبل، فاستعدّي للعذاب!

الفصل الرابع عشر

يُبصرُ الناظرُ عبر نافذة الطبقة العلويّة لمنزل قديم في هذا الزقاق المتعرّج صفوفًا من الأسطح على مدى النظر من الآجرّ المرصوف كيفما اتّفق. كما يبصرُ رَوْزَنَةَ عِلّيّةٍ عالقةٍ بين سطحين. وعلى الآجرّ، أمام الرَوزنة، أحذية تُرِكت لتجفّ. في التسقيفةِ سرير ذو قبّة من خشبٍ غليظ محفور تغطّيه ناموسيّة، وخزانة بليسّاندر مزدانة بمرآة مستديرة، وقبالة النافذة كنبة من قضبان الأسَل الهندي. وبقرب الباب مقعد ضيّق تُجلسني عليه. شبه مستحيل أن تتحرّك هنا. تعرّفتُ إليها أمسِ مساءً في بيت صحافي صديق. ومعًا دخّنّا وشربنا وثرثرنا وتبادلنا الدعابات بشأن الجنس، من غير أن تُبدي حرجًا وهو أمر غير مألوف على الإطلاق في مثل هذه القرى الجبليّة. ثمّ تطرّقنا إلى مشكلتي، وقال صديقي إنّني أحتاج إلى امرأة لكي تكون دليلي. فوافقت من غير تردّد أن تكون دليلي في تلك النواحي.

تهمس في أذني وصايا ملحّة باللغة المحلّيّة: «عند وصولها يتعيّن أن تقدّم لها البخور، وأن تركع وتسجد ثلاث مرّات. ينبغي لك التقيّد بهذه القواعد». نبرة صوتها وسلوكها يتطابقان حرفيًّا مع السائد من سلوك

النساء في هذه الناحية. وملتصقًا بها على هذا المقعد الضيّق القصير ينتابني لوهلة الشعور بأنّني أرتكب ذنبًا، كما لو أنّني أُقيم مع هذه المرأة، في هذه القرية الصغيرة، علاقة زنى، وكأنّ لا بدّ لجميع الناس أن يقصدوا هذا المكان بالذات لكي يلتقوا لأنّ الجميع يعرفون بعضهم بعضًا. فجأةً أشتمّ رائحة الخضار المملّحة الحرّيفة. مع أنّ لا وجود لذرّة غبار واحدة في هذه التسقيفة التي فُرِكَ وسط أرضيّتها بقوّة حتى بدا لون خشبها الأصلي. الباب مكسوّ بحصير آية في النظافة. ولا متّسع في الأرجاء لتكديس خضار مملّحة.

يلامسُ شعرها وجهي. إذ تدني وجهها من أذني:

ـ هي ذي!

تدخل امرأة بدينة لم تعد في مقتبل العمر تتبعها امرأة عجوز. تخلع المرأة البدينة مئزرها وتنفض بكفّيها ملابسها ذات الألوان الحائلة ولكن النظيفة كلّ النظافة. لقد فرغت للتوّ من إعداد وجبة طعامها. المرأة العجوز النحيلة القصيرة القامة تشير إليّ برأسها.

ـ اتبعها، تقول صديقتي منبّهة.

أنهض وأتبعها صاعدًا الدرج حيث تفتح بابًا سرّيًّا. في الداخل حجرة ضيّقة ليس فيها سوى منضدة ومذبح لإحراق البخور وألواح تكرّم **السيّد القديم، إمبراطور الوضوح العظيم والإلهة غوانيين**. وأمام المذبح وُضِعَت قرابين من الكعك والفواكه والمياه النقيّة والكحول. على الجدران الخشب تنسدلُ رايات حمرٌ مكفوفة بشريط أسود أو بتخريم أصفر وبعبارات تشفّع. تنعكس أشعّة الشمس على آجرّ السطح البرّاق،

ويتصاعد دخانُ عود بخورٍ محترق بين شعاعات نور الروزنة، مُشيعًا أجواء تأمّل وتقوى. أفهم الآن لِمَ راحت صديقتي تتكلّم همسًا فور دخولها الحجرة.

تُخرج المرأة العجوز من الأدراج تحت الطاولة رزمة من عيدان البخور المغلّفة بورق أصفر. فأناولها على الفور قطعة يوان، استجابةً لنصيحة صديقتي. ثم آخذ البخور وأضعه في لفافات ورق الأرزّ التي أشعلْتُها بعيدان الكبريت. يداي مضمومتان، أركع فوق الأريكة أمام المذبح. ثم أسجد ثلاث سجدات. تومئ لي المرأة العجوز تعبيرًا عن قبولها علامة التقوى هذه. ثم تأخذ البخور من جديد وتقسّمه إلى ثلاث قطع تشكّها في مبخرة العطور.

لدى رجوعنا إلى الغرفة، كانت المرأة البدينة قد هيّأت كلّ شيء، واستوت مستقيمة على كنبة الأسل الهنديّ، مخفضة جفنيها. إنّها، على ما يبدو، الوسيط الذي يتواصل مع الأرواح. تجلس المرأة العجوز عند طرف السرير وتهمس لها ببعض الكلمات، بعد هنيهة تلتفت إلى صديقتي وتسألها عن زمان مولدي ومكانه. أزوّدها بالتاريخ بحسب الروزنامة الشمسيّة. لم أعد أذكره تمامًا وفق الروزنامة القمريّة، لكن بالإمكان احتسابه. تسألني المرأة العجوز عن الساعة التي ولدت فيها فأجيبها بأنّي لا أعرف، لأنّ والديّ توفّيا. بدت شديدة الإحراج وراحت تجادل الوسيط بصوت خفيض. فهمهمت ببضع كلمات. يبدو أنّ الأمر ليس بهذه الخطورة. أبقت المرأة يديها فوق ركبتيها ومكثت جالسة جلستها الوادعة، مغمضة العينين. خلفها يحطّ قمريّ على سطح الآجرّ ويهدل مشعّثًا حفنة

من الريش، فتنعكس شراراتها بنفسجيّة اللون فوق عنقه. بطبيعة الحال، إنّه ذكر حمام عاشق في أوج زهوه وتبختره. وفجأة، أطلقت المرأة البدينة تنهيدة أجفلت القمريّ فولّى هاربًا.

أنظر إلى آجرّات السطح المحمّلة بالكآبة. متلاصقة كحراشف السمك، توقظ فيَّ ذكريات من زمن الطفولة. تعتادني أيّام المطر، عندما كانت قطرات الماء تبلّل خيوط العناكب المرتعشة في الرّيح، عند زاوية المنزل. ثم أفكّر أنّني لا أعرف سبب مجيئي إلى هذا العالم. لسطوح الآجرّ قوّة جاذبة تضعف القدرة وتشلّها. أشعر برغبة في البكاء لكنّي نسيت كيف أبكي.

أصابت المرأة ــ الوسيط حازوقة. لا شكّ أنّ روح أحد الأرواح انضمّت إلى جسدها. لا تتوقّف عن الفواق كيما تطرد الهواء المتجمّع في معدتها. لديها الكثير من الهواء لتطرده فتستولي عليّ الرغبة في الفواق بدوري. لكنّي لا أجرؤ على إطلاقه وأكتمه في داخلي إلى حدّ الاختناق. أخشى أن أشتّت عليها تركيزها فتظنّ أنّني جئت إلى هنا لأسبّب لها المتاعب أو لأهزأ بها. أنا فعلاً حسن النيّة، حتى لو لم أكن أؤمن إطلاقًا بما أفعله. ازدادت وتيرة الفواق وتكرّرت حتى استولت على جسدها اختلاجات، دون أن يبدو عليها أنّها تتعمّد ذلك. في اعتقادي، اختلاجاتها العفويّة ثمرة التمارين التنفّسيّة. أخذ جسدها يرتجف بكلّيّته. وفجأة، شهرت إصبعًا في الهواء باتّجاهي. لكنّها أبقت عينيها مغمضتين وهي تشهر سبّابتها باتّجاهي. الحاجز الخشبي الملاصق لظهري يمنعني من التراجع. أكتفي فقط برفع جسدي نحو الأعلى ولا أجرؤ على النظر إلى

صديقتي. لا شكّ أنّها تملك من التقوى أكثر منّي، حتى لو لم تفعل شيئًا سوى مرافقتي. كنبة الأسل تحدث صريرًا متواصلاً تحت تمايل جسد المرأة البدينة. تتلو لعنات غير مفهومة كمثل: «يا ملكة الغرب الأمّ، يا أسياد السماء والأرض، شجرة من الصنوبر البرّي في منزل الأرواح سحقت عجلات الأرض والسماء، فيما الشياطين والأمساخ حطّمت المحرّمات كلّها». كلماتها تزداد تسارعًا. لا بدَّ أنّها متمرّسة بمهنتها إلى حدّ بعيد. أوقن أنّها باتت مستعدّة. اقتربت المرأة العجوز من أذنها ثم أبلغتني وقد أقتم وجهها:

ــ يبدو أنّ طالعك ليس جيّدًا. يجب أن تأخذ جانب الحيطة.

تابعت المرأة ــ الوسيط الهمهمة حتى أصبحت كلماتها غير مفهومة أبدًا.

أردفت المرأة العجوز:

ــ تقول إنّك قابلت نجمة النمر الأبيض.

أعرف أنّ النمر الأبيض يشير إلى المرأة التي لا يقاوم سحرها. وإذا وقعنا في شباكها، لا نتحرّر منها إلاّ بصعوبة فائقة. الواقع أنّني أتمنّى بكلّ جوارحي أن أعلق في شباكها. لكنّي أريد أن أعرف ما إذا سأكون قادرًا على النجاة من سوء طالعي.

قالت المرأة العجوز وهي تهزّ رأسها:

ــ لا، سيصعب عليك إيجاد سُبل النجاة.

واضحٌ وجليٌّ أنّني لست رجلاً محظوظًا. لا بل إنّ الحظّ لم يحالفني مرّة واحدة في حياتي. إنّ الرياح تجري دائمًا عكس ما أشتهيه. وطيلة

حياتي، ألمّت بي الكوارث، الواحدة تلو الأخرى. ولم أكفّ عن مواجهة المتاعب مع النساء. لكنّ المحن التي حلّت بي لم تكن النساء مصدرها بالضرورة. والحقّ يقال، لم ينشأ نزاع خطير بيني وبين أيّ كان. لا أذكر أنّني تسبّبت بالأذى لأحد، وجلّ ما أتمنّاه ألاّ أتعرّض للأذى من أحد.

أردفت المرأة العجوز:

ـ تعترضك عقبات كبيرة. أنت محاط بالرجال «الصغار».

أعرف جيّدًا ما ترمي إليه. «الرجال الصغار» في القانون الطاويّ ندعوهم «سانشي»، أي «الجثث الثلاث». يعيشون عراة ويسكنون في الغالب أجساد الناس، مختبئين في حلوقهم، ويغتذون من ريقهم، ويترقّبون غفلتهم لكي يصعدوا إلى البلاط السماويّ ويخبروا ربّ السماء برذائلهم.

أضافت المرأة العجوز قائلة إنّ رجلاً شرّيرًا، عيناه محتقنتان دمًا ينوي معاقبتي ولن أنجو منه بسهولة، حتى لو نذرت النذور وأحرقت الكثير من البخور.

انزلقت المرأة البدينة من الكنبة إلى الأرض، متدحرجة على الأرض. ليس عجيبًا أن تكون الأرضيّة بهذه النظافة. وللفور أيقنت أنّ أفكاري خبيثة. تستعيد أدعياتها ضدّي مؤكّدة لي أنّ النمور البيض الذين يحيطون بي يبلغ عددهم تسعة على الأقلّ.

قلت ناظرًا إليها:

ـ هل سبل النجاة لا زالت مفتوحة أمامي؟

سال الزبد الأبيض على شفتيها وغارت حدقتا عينيها فلم يبن فيهما إلاّ البياض، وعلت وجهها سيماء مرعبة. لا بدَّ أنّ الرعدة استولت عليها وأصابتها حالة من الهستيريا. لا يفسح لها ضيق الغرفة في المجال لتكمل تدحرجها فيصطدم جسدها بقدميّ. أسحبهما على الفور وأنهض شاخصًا إلى هذا الجسد البدين الذي يتمرّغ على الأرض بجنون مسعور.

اعتراني الخوف. أهو الخوف من مصيري بالذات أم من لعناتها، لا أعرف؟ أنفقت مالي لأهزأ بها ويجب أن أعاقب على فعلتي هذه بشكل أو بآخر. أحيانًا، تكون العلاقات بين الكائنات البشريّة مثيرة للذعر حقًّا.

لم تتوقّف المرأة ـ الوسيط عن الهمهمة، استدرت ناحية العجوز لأعرف معنى كلامها. اكتفت بهزّ رأسها دون تفسيرات إضافيّة. عندئذٍ أرى عند قدميّ الجسد البدين المنتفض باختلاجاته يتلوّى شيئًا فشيئًا، ثم يتقوقع ببطء عند قوائم كنبة الأسل، أشبه بحيوان جريح. في الواقع، لا يختلف الإنسان عن هذه الأصناف من الحيوانات التي ما إن يصيبها جرح حتى تغدو متوحّشة بشكل مريع. ما يخيف الإنسان جنونه بالذات، وحين يصير مجنونًا، يعذّب نفسه حتى الموت، هذا ما خلصت إليه.

أطلقت من حلقها تنهيدة عميقة هادرة، أشبه بصراخ حيوانٍ ضارٍ، ثم أغمضت عينيها ونهضت متلمّسة طريقها. هرعت المرأة العجوز لتسندها وتساعدها على الجلوس في الكنبة. يقيني أنّ نوبة هستيريا حقيقيّة أصابتها.

لم تخطئ في ظنّها. أدركت أنّي جئتُ إليها لتمضية بعض الوقت، ولا يسعها والحالة هذه إلاّ الانتقام لنفسها ولعن مصيري. لكنّ قلقًا عظيمًا ساور الصديقة مرافقتي. أخذت تفاوض المرأة العجوز لتنظيم جلسة جديدة لإحراق البخور وتقديم النذور لأجلي. سألت العجوز المرأة ــ الوسيط فهمهمت بضع كلمات وهي لا تزال مغمضة العينين.

ــ تقول إنّ جلسة أخرى واحدة لن تكون كافية لبلوغ ما أبتغيه.

ــ هل كان عليَّ أن أشتري المزيد من البخور؟

سألت صديقتي المرأة العجوز عن المبلغ الذي كان يفترض بي أن أدفعه. عشرون يوان قالت. في قرارة نفسي احتسبت قيمة هذا المبلغ فوجدت أنّه يوازي ما أنفقه على صديق إذا دعوته إلى تناول طعام الغداء في أحد المطاعم. أتقبّل الأمر لا سيّما أنّني أنفقه ها هنا عليّ وحدي دون سواي. استأنفت المرأة العجوز حديثها مع الوسيط ثم أجابت:

ــ حتى لو كرّرت ذلك مرّة أخرى فلن يجديك نفعًا.

ــ ألن يكون بوسعي النجاة من قدري المشؤوم؟

بلّغتها المرأة العجوز هذا السؤال أيضًا. فغمغم الوسيط، وأضافت المرأة العجوز:

ــ هذا الأمر يتوقّف على...

ــ يتوقّف على ماذا؟ على تقواي؟

عاود ذكر الحمام هديله خلف النافذة. لا شكّ أنّه قفز على أنثاه وجامعها. مرّة أخرى لن أحصل على الغفران.

الفصل الخامس عشر

عند مدخل القرية، تحوّل لون أوراق الشجرة من الأسود الفاحم إلى الأحمر القاني من شدّة الصقيع. واقفًا تحت الشجرة، مستندًا إلى معزقته، يمكث رجل كابي الوجه، شاحب شحوب الموت. تسأله عن اسم هذه القرية. يرمقك بنظرة ثاقبة ولا يجيبك. تستدير نحوها لتقول لها إنّ هذا الرجل ينبش القبور. لا تستطيع تمالك نفسها عن الضحك. ما إن تتجاوزه، تهمس لك أنه لا بدّ أنّه تسمّم بالزئبق. تقول إنّه أمضى وقتًا طويلاً في قعر القبور ينهب محتوياتها، وإنّ أحد معاونيه توفّي. وخلّفه وحيدًا على قيد الحياة.

تقول إنّ جدّه ظلّ طيلة حياته ينهب القبور، وجدّ جدّه أيضًا. عندما يكون المرء قد ورث عن أجداده مثل هذه الأعمال المشبوهة، فمن الصعب أن يكون صافي السريرة. لكنّ هذا العمل ليس كمعاقرة الأفيون، ومتعاطيه لا يؤول به الأمر إلى هدر ثروته وخراب عائلته. أمّا نهّابو القبور فيجنون أرباحًا طائلة ولا يحتاجون إلى مهنة أخرى يكسبون بها عيشهم. يكفيهم أن يظهروا حزمًا ويتّخذوا القرار للشروع بالعمل.

وما إن يزاولونه مرّة واحدة ويلمسون جدواه حتى ينتقل بسهولة إلى أحفادهم جيلاً بعد جيل. تشعرها بالبهجة وأنت تحدّثها على هذا النحو. تمسك بيدك وتُبدي استعدادًا للّحاق بك أنّى ذهبت.

تقول إنّه حين كان جدّ جدّ جدّ هذا الرجل على قيد الحياة، أنجز الإمبراطور شيانلونغ جولة تفتيش. أيّ موظّف محلّي لم يسعَ إلى تملّق الإمبراطور؟ جميع الوسائل حسنة شرط اختيار أجمل نساء البلاد واستجماع كنوز السلالات السابقة. لم يرث والد جدّ الجدّ من الأرزاق إلاّ قطعة أرض صغيرة قاحلة. إبّان موسم الربيع، يحرث الأرض، وخلال فصل الشتاء يجوب القرى والدساكر متنكّبًا حمّالته المزدوجة، ومتاجرًا بتماثيل صغيرة مصنوعة من أرطال السكّر المذوّب والممزوج بكافّة الألوان. هل يسعه حقًّا جني أرباح ضخمة من صنع صفّارات الأطفال، وتماثيل الخنزير الشهير الذي يحمل فتاة فوق ظهره؟ كان جدّ جدّ الجدّ يحمل لقب لي الثالث. يصرف نهاراته متسكّعًا ولا يشعر بأيّ رغبة في تعلّم صنعة التماثيل الصغيرة المحلاّة. لكنّه قرّر أخيرًا أن يتّخذ له رفيقة درب تشاطره حلو الحياة ومرّها. وراح يسترسل في الحديث مع النساء اللواتي يصادفهنّ في حياته، وكان جميع القرويّين ينعتونه بالسفيه.

وذات يوم، قدم إلى القرية مُبْرئ يدّعي أنّه يشفي المصابين بلسعة الأفاعي. كان يحمل أنبوبًا من الخيزران ومسعرًا ومعلاقًا معدنيًّا وكيسًا من القماش على الظهر ملأه بالأفاعي. ثم انسلّ بين المقابر. وجد لي الثالث الأمر مسلّيًا فتبعه، جاعلاً من نفسه مساعده. أعطاه المطبّب ترياقًا يقي من لسع الأفاعي أشبه بُكريّة صغيرة سوداء وأمره بأن يجعلها في

فمه. وجد طعم هذا الشيء مفرط الحلاوة ويساعد على جلاء الصوت، ليس أكثر. بعد خمسة عشر يومًا أمضاها برفقة المطبّب، اكتشف لي الثالث الخدعة. ليست الأفاعي إلاّ ذريعة، أمّا نشاطه الحقيقي فهو نهب القبور. وبما أنّ مربّي الحيوانات كان محتاجًا فعلاً لمعاون، فقد بدأ لي الثالث ممارسة مهنته على هذا النحو.

عندما عاد لي إلى القرية، كان يعتمر قلنسوة ذات حواشٍ من الحرير الأسود في أعلاها زرّ من اليشب، إنّها قبعة قديمة مشتراة بسعر بخس من حانوت تشين المجدور للملابس المستعارة في الشارع السفلي من ضيعة وويي. شارع قديم لم يكن قد أحرقه متمرّدو التايبينغ بعد[١]. كان مظهره متميّزًا حقًّا، على حدّ قول القرويّين، وبدا عليه أنّه جنى ثروة لا بأس بها. اجتاز بعضهم عتبة منزله ليقترحوا على أبيه خطيبات له. إلى أن اقترن أخيرًا بأرملة شابّة. ولم يُعرف بوضوح ما إذا كانت هي التي حاولت إغواءه، أوّلاً، أم أنّه هو الذي جدّ في إثرها. على أيّ حال، قال وهو يرفع سبّابته، إنّ لي الثالث تردّد على «دارة الربيع المبهج»، حاملاً فانوسه الأحمر في الشارع السفلي لضيعة وويي، حيث أنفق سبيكة لامعة من الفضّة. بالطبع، لم يستطع أن يُسرّ لأحد أنّ هذه النقود توفّرت له بعد معاناة طويلة في المقابر من هجمات الكلس والزرنيخ. لكنّه، لحسن الحظّ، عاد فلمّعها بعد أن دعكها على نعل حذائه.

(١) تايبينغ: حركة سياسيّة ودينيّة صينيّة قامت بين الفلاّحين والقرويّين ضدّ السلالة المالكة ١٨٥١ ــ ١٨٦٤، قمعها بعنف الجيش الإمبراطوري.

تقع هذه المقبرة على تلّة صغيرة من الحجارة، على بعد اثني«لي»[1] من «هضبة العنقاء». حين توقّف انهمار المطر، اكتشف معلّمه نبعًا يسيل توًّا ليصبّ في حفرة. كلّما سبر هذه الحفرة بعصاه، ازدادت اتّساعًا. واصل حفره من بداية بعد الظهر حتى هبوط الليل إلى أن بات في مستطاع الرجل الاندساس فيه، وبالطبع دلف إلى الحفرة أوّلاً. ثم واصل الزحف، وفجأة، اللعنة على جدّتك الفاسقة، كاد أن يغمى عليه. متلمّسًا طريقه في الوصول، عثر أخيرًا على جرار وأوانٍ فحطّمها للتوّ. وكذلك وجد مرآة استخرجها من ألواح نعش متعفّن، ليّن كفتات جبنة الصويا. كانت المرآة لا تزال تحتفظ بسوادها اللمّاع دون أيّ أثر للزنجار عليها. مرآة مثاليّة للصبايا. «وحياة لي الثالث، أكون ابن كلب لو كذبت!». لسوء الحظّ، أخذ المعلّم المرآة وترك له فقط حقيبة مليئة بالنقود. زادته هذه المغامرة علمًا وأيقن أنّه باستطاعته أن يعتمد على نفسه، وقرّر أن يعمل لحسابه الخاصّ.

عندئذٍ، ذهبْتَ إلى معبد أسلاف عائلة لي، في وسط القرية، فوق عتبة الباب المرمّم، أُعيدت إلى موضعها بلاطة حُفرت عليها نقوش غرانيق وأيائل وأشجار صنوبر وخوخ للزينة. دفعت الباب الكبير المنفرج. وللحال سألك صوت آتٍ من عمق الأزمنة: «ماذا تفعل هنا؟» أجبته أنّك أتيت لإلقاء نظرة على المكان. خرج من الغرفة المجاورة للرواق المسقوف عجوز قصير القامة لكنّه ليس كسيحًا البتّة. جليّ أنّ حراسة معبد الأسلاف مهمّة شريفة.

---

(١) لي: مقياس صيني يساوي ٥٧٦ م.

قال وهو يدفعك إلى الخلف: «ليس للغرباء الحقّ في التنزّه هنا». تقول له إنّ اسمك لي أنت أيضًا وإنّك متحدّر من هذه العشيرة. وإنّك تسكّعت بعيدًا لفترة طويلة وعدت لرؤية مسقط رأسك. يقطّب حاجبيه الكثّين البيضاوين ويتفرّس بك من رأسك حتى أسفل قدميك. تسأله هل يعرف نهّاب قبور سكن من زمان في هذه القرية. تغور تجاعيد وجهه عميقًا وكأنّ شيئًا يعذّبه. تجهل، أهو منصرف إلى نبش ذكرياته أم يحاول جادًّا التعرّف إليك. على أيّ حال، تزعجك مواصلة التحديق إلى هذا الوجه العجوز الذي تغيّرت ملامحه. يهمهم طويلاً دون أن يجرؤ على الوثوق بهذا الحفيد المنتعل حذاء الترحال السميك وليس حذاء من القنّب. وأخيرًا يقول لك: «ألم تمت؟»، «لكن من الذي مات؟ وهل يموت الأولاد قبل العجائز!».

عندما قلت له إنّ أحفاد عائلة لي جنوا ثروة في المهجر، فتح فمه مشدوهًا. ثم يسمح لك بالمرور حانيًا قامته احترامًا، ويقودك إلى مذبح الأجداد وكأنّه مسؤول قديم في دير. انتعل حذاءه الأسود وأمسك بيده مفتاحًا، وراح يتحدّث عن الحقبة التي لم يكن هذا المعبد قد حُوّل فيها إلى مدرسة، وكيف استعاد دوره لأنّ المدرسة انتقلت إلى بناء آخر.

يدلّك على اللويح الأفقي الذي يشبه بدهانه المقشور ذخيرة أثريّة. لكنّ الكتابة المدوّنة عليه بأسلوب منتظم: «من أجل استعادة مجد الأجداد»، لم تُمح. تحت اللويح معلاق حديد كان يستخدم لتعليق سجلّات الأسلاف. في الأزمنة العاديّة، لا تُعرض لأنّ الاحتفاظ بها يعود إلى شيخ الضيعة العجوز.

تقول إنّها كانت لفافة عموديّة مغلّفة بالحرير الأصفر. يجيبك «هذا صحيح، هذا صحيح». أُحرقت السجلاّت أيّام الإصلاح الزراعي وإعادة توزيع الأراضي، لكن لاحقًا أُعيد تركيبها سرًّا واحتُفظ بها في العلّيّة. وأيّام حركة «تطهير الأصول الطبقيّة» انتُزعت صفائح الأرضيّة وعُثر عليها وأُحرقت مرّة أخرى. والسجلاّت المحتفظ بها الآن أُعيد تنظيمها اعتمادًا على إخوة العائلة الثلاثة ورُمّمت على يد الأب ماووار، معلّم الضيعة. ماووار له ابنة في الثامنة من عمرها، لكنّه يرغب في إنجاب صبي. «أليس تحديد النسل ساري المفعول حاليًّا؟»، «لا يتوجّب فقط دفع غرامة في حال إنجاب ولدٍ ثان بل يُحرم المرء أيضًا من إجازة السكن؟». توافق على قوله وتضيف أنّك ترغب في رؤية هذا السجلّ. «أكيد، اسمك مدرج فيه أكيد، كرّر قائلاً. جميع الناس الذين يحملون لقب لي في هذه الدسكرة أسماؤهم مدوّنة فيه». يقول أيضًا إنّ هناك ثلاثة أسماء لرجال غرباء اقترنوا بفتيات من عائلة لي. وإلاّ لما استطاعوا البقاء في القرية. لكنّ الناس ذوي الأسماء الغريبة تظلّ أسماؤهم كذلك، وعمومًا لا تستطيع النساء الانضمام إلى هذا السجلّ.

لا شكّ أنّك تفهم هذا، ولا بدّ من التذكير بأنّ إمبراطور سلالة تانغ(١) الكبير لي شي مين كان يُدعى أيضًا لي قبل أن يصبح إمبراطورًا. لكنّ الذين يحملون اسم لي في هذه القرية لم يذهبوا، ولا في

---

(١) سلالة تانغ هي السلالة الصينيّة ١٣. ملكت ٦١٨ ــ ٩٠٧ أحدثت نهضة في الآداب والفنون وأظهرت تسامحًا إزاء الديانات الكبرى، وفي ظلّها شهدت الصين عصرها الذهبي. من عظمائها الإمبراطور لي شين مين.

أيّ حال من الأحوال، إلى حدّ الادّعاء بأنّهم من سلالة الإمبراطور. ومع ذلك، كثرٌ هم الأسلاف الذين كانوا جنرالات أو وزراء. لم يكونوا فقط نهّابي قبور.

عند الخروج من المعبد، يُحيط بك أطفال صغار لا تعرف من أين أتوا، عددهم يتزايد باطّراد. يتعقّبونك إلى كلّ مكان. تقول لهم إنّهم حشرات تلصق بقفاك. لكنّهم يواصلون مطاردتك ضاحكين ببلاهة. وعندما تشهر آلة التصوير، يولّون الأدبار متصايحين. ينتفض أحدهم قائلاً إنّه لا يوجد فيلم في آلة التصوير التي تحملها وباستطاعتك التأكّد من ذلك. يطالعك فتىً صغير ذكي، مشيقُ القامة، متوثّبٌ كشبّوط النهر يتبعه سرب من السمك.

تسأله:

ــ هاي أنت، هل هناك شيء يستحقّ المشاهدة هنا؟

ــ منصّة المسرح الكبيرة.

ــ عن أيّ منصّة كبيرة تتحدّث؟

دلفوا إلى شارع صغير راكضين. تلحق بهم. عند زاوية أحد البيوت وعلى صخرة وُضعت عند مدخل الشارع حُفرت الكلمات التالية: «صخرة تليق بجبل تاي شان[١]». لن يكون بوسعك أبدًا أن تفهم المعنى الدقيق لهذه الكتابة. واليوم، لا أحد يستطيع أن يقف على حقيقة الأمر. باختصار، كلّ هذا متّصل بذكريات طفولتك. في هذا الشارع الصغير

---

(١) تاي شان: جبل مقدّس في الصين في إقليم شان تونغ. هياكل لبوذا وكونفوشيوس والطاويّة.

المقفر الذي لا يتّسع لأكثر من شخص يتنكّب حمّالته المزدوجة وفي طرفيها دلو ماء. لا تزال تسمع وقع أقدامك التي لا تترك صدىً لها على البلاطات الحجريّة المخضرّة حيث تجفّف الشمس بقع الماء.

تخرج من الشارع وتنفذ فجأة إلى بيدر لتجفيف الأرزّ المغمور بالتبن. في الهواء يفوح عطر القشّ المقطوع حديثًا، عذبًا حلو المذاق. في آخر البيدر، توجد فعلاً منصّة مسرح مبنيّة كلّها من الخشب يبلغ ارتفاعها مقدار قامة رجل. أغمار القشّ المحزومة مكدّسة هناك. يرتقيها أفراد عصبة القرود الصغيرة ليتسلّقوا عمودًا ثم يرتمون بأجسادهم على بيدر التجفيف متشقلبين في أغمار التبن. على المنصّة المشرّعة من كلّ الجهات للريح، أربعة أعمدة ضخمة يستند إليها السقف الواسع ذو الزوايا المعقوفة. تتدلّى من السقف بضع دعائم أفقيّة كانت تستخدم في ما مضى لتعليق الرايات وحبال المصابيح والعروض البهلوانيّة. الدعائم الأفقيّة والعموديّة طُليت لكنّ دهانها مقشور.

هنا، دارت مسرحيّات هزليّة ودُحرجت رؤوس وأُقيمت محافل واحتُفي بأحداث. هنا أيضًا ركع أناس وسجدوا. وكُدّس التبن في مواسم الحصاد وتنافس الأطفال للتسلّق فوق رزمه. هؤلاء الذين تسلّقوا في ما مضى حزم التبن ونزلوها، بعضهم تقدّم في السنّ، وبعضهم الآخر توفّي، ولم نعد نعرف تمامًا أيّهم أُدرجت أسماؤهم في السجلاّت العائليّة. ترى، هل شجرة العائلة التي أُعيد تركيبها من الذاكرة مطابقة للشجرة الأصليّة؟ ليس ثمّة فارق كبير في الواقع بين من أُدرج اسمه في السجلاّت وبين من أُغفل إدراجه. لو لم يرحلوا إلى البعيد البعيد، لو لم

يترقّوا في مناصبهم لكان عليهم جميعًا أن يحرثوا الأرض ليكسبوا رزقهم، وكلّ ما يتبقّى لهم هو إنجاب الأطفال واستخراج التبن من القشّ المجفّف.

قبالة المنصّة المسرحيّة، أُعيد بناء معبد على أنقاض المعبد القديم زادت في تأنّقه ألوانه الفاقعة. على الباب الرئيسي الأرجواني رسم لخالديْن حارسيْن، الأوّل أسود والثاني أحمر، شاهرين سيفًا وفأسًا وأعينهما مثل جلاجل نحاس. على الجدران المطليّة بالكلس الأبيض كُتب بالريشة ما يلي: *«معبد هواغوانغ المرمّم من جمع التبرّعات: مئة يوان من فلان، مئة وعشرون يوان من فلان، مئة وخمسة وعشرون يوان من فلان، خمسون يوان من فلان، ستون يوان من فلان، مئتا يوان...»* وفي الأسفل توقيع الخطّاط وإهداؤه: *«من قبل ممثّلي الشباب والأقلّ شبابًا والعجائز في لينغيان، صخرة الروح».*

حين تلج إلى داخل المعبد تشاهد عند أسفل تمثال إمبراطور الضياء صفًّا من النساء العجوزات المرتديات جميعًا سترات وسراويل سوداء، وجميعهنّ درداوات. يركعن وينهضن مداورة ثم يتوجّهن للسجود أمام المذبح وهنّ يحرقن البخور. لإمبراطور الضياء وجه عريض لامع وخدّان مربّعان. إنّه وجه السعد تجعله النفثات المتصاعدة من دخان البخور أكثر رأفة. على الطاولة الضيّقة المستطيلة، الموضوعة قبالته، أُلقيت الريشات والمحابر الحجريّة وكأنّها مكتب موظّف مدني. أمام طاولات القرابين حيث الشماعد ومجامر البخور، يتدلّى قماش أحمر، وفوقه طُرّزت الكلمات التالية بالحرير المتعدّد الألوان: «لحماية البلاد

ومساعدة الشعب»، فوق السجف والمظالّ، لُويح أفقي دُوّنت عليه عبارة بالخطّ الأسود: «التجلّي الإلهي»، وفي أسفله صفّ من الكلمات الصغيرة: «تقدمة من أدباء وسكّان لينغيان، صخرة الروح» دون أن يُشار إلى أيّ تاريخ ترقى هذه التحفة تحديدًا.

توقن أنّ هذا المكان يُدعى لينغيان، صخرة الروح. هناك دلالات أخرى إذًا لاسم لينغ، الروح. لم تكن مخدوعًا حين انطلقت في مسيرتك نحو لينغشان، جبل الروح. تسأل النساء العجوزات اللواتي يجبنك بأفواههنّ الدرداء وهنّ يطلقن صفيرًا. لا أحد يدلّك بوضوح على طريق لينغشان.

ــ إنّها بالقرب من هذه القرية، أليس كذلك؟

ــ نعم، نعم بالضبط.

ــ ليست بعيدة عن القرية؟

ــ نعم، نعم بالضبط.

ــ بعدئذٍ، يجب الانعطاف، اليس كذلك؟

ــ نعم، نعم بالضبط.

ــ يجب اجتياز مسافة اثني «لي»؟

ــ صحيح، نعم، نعم...

ــ أو خمسة «لي»؟

ــ نعم، نعم، بالضبط..

ــ خمسة «لي» أو «سبعة»؟

ــ خمسة أو سبعة، سبعة أو خمسة..

هل هناك جسر حجري؟ ما من جسر صخري؟ هل نصل إليها عبر سلوك مجرى النهر؟ أم عبر الطريق البرّيّة؟ هل المسافة أطول برًّا؟ أطول، لكن عندئذ يتسنّى لنا رؤية الأشياء بوضوح أكبر أليس كذلك؟ وإذا رأينا الأشياء بوضوح هل من تتمّة؟ المهمّ هو الصدق؟ والصدق يفضي إلى الصواب؟ والصواب يفضي إلى صخرة الروح[1]. سواء كان الصواب مبلغنا أم لا، إنّها مسألة حظّ. هل يجب عدم الذهاب للبحث عن هؤلاء الذين يعرفون السعادة؟ قد نُبلي نعل حِذائنا الحديديّ دون أن نجد السعادة، ثم نعثر عليها صدفة! أليست صخرة الروح هذه كتلة حجر صلدة؟ إذا لم يكن جيّدًا الكلام على هذا النحو فكيف إذًا يجب الكلام؟ هل الكلام على هذا النحو سيّئ أم أنّه محال؟ هذا عائد إليك كليًّا. ستكون صخرة الروح كما تراءت لك. إذا كنت تخالها امرأة جميلة، فستكون امرأة جميلة. وإذا كانت توغل في قلبك أفكار خبيثة، فلن ترى فيها إلاّ مسخًا.

---

[1] هناك تماثل لفظي في الصينيّة بين لينغيان «صخرة الروح»، ولينغيان «الدقّة».

الفصل السادس عشر

عند بلوغي دالينيان، صخرة الروح العظيمة، لم يكن الليل قد أسدل ستائره بعد. سرت طيلة النهار على درب جبليّة، مقتفيًا آثار شِعب طويل وعميق تحفّ به جروف سمراء وعرة، مكسوّة بالخزّ الأخضر. عند منتهى الوادي، كانت الشرارات الأخيرة للشمس الغاربة، الحمراء كألسنة اللهب، تتوهّج فوق ذرى الجبال.

عند أسفل الشير، خلف غابة السكوا، في ظلّ الجنكات المعمّرات، ينتصب معبد حُوّل إلى محطّة لاستقبال المسافرين. فيما يتعدّى البوّابة الرئيسيّة، الأرض مكسوّة بأوراق الجنكة ذات الاصفرار الشاحب. لا صوت يُسمع. اتّجهت قدمًا نحو الباحة الخلفيّة، إلى يسار المبنى، حيث عثرت أخيرًا على طبّاخ ينظّف قدوره. رجوته أن يحضّر لي شيئًا آكله، لكنّه أجاب دون أن يرفع رأسه بأنّ وقت الطعام قد فات.

ــ عمومًا، في أيّة ساعة تتوقّفون هنا عن تقديم العشاء؟

ــ في الساعة السادسة.

دعوته لينظر إلى ساعته. الساعة تشير فقط إلى السادسة إلاّ عشرين دقيقة.

وقال متابعًا تنظيف قدوره:

ــ لن يُفيدك الجدال بشيء، اذهبْ لرؤية المدير المسؤول. لا أحضّر الطعام إلاّ بناءً على البطاقات التي أستلمها.

جلت من جديد في الأروقة المتلوّية كالأفعى في المبنى الكبير الفارغ. لم أجد أحدًا. وأخيرًا أخذت في الصراخ:

ــ هاي! هل من حارس هنا؟

وبعد عدّة نداءات، أجابني صوت بنبرة متثاقلة. سُمع خفق أقدام، ثم رأيت خادمة ترتدي قميصًا أبيض في الرواق، تستوفي المال مقابل توفير غرفة المنامة ووجبات الطعام وتسليم مفتاح الغرف إلى الزبائن مقابل عربون نقدي. كان العشاء مقتصرًا على صحن فيه بقايا طعام وحساء فاتر بالبيض، لا يتصاعد منه أيّ بخار. ندمت على أنّي لم أمضِ ليلتي عندها.

التقيتها على درب جبليّة، عند خروجي من لونغتان، هاوية التنّين. كانت تمشي أمامي بتؤدة، مرتدية بنطالاً من النسيج المزدان بالأزهار، ومتنكّبة حمّالة مزدوجة عُلّقت في طرفيها رزمتان من أوراق السرخس. كانت شمس الخريف اليانع تحتفظ عند الساعة الثانية أو الثالثة من بعد الظهر بكلّ وهجها. تبلّل ظهرها بالعرق والتصقت ثيابها بكلّ فقرة من فقرات ظهرها. كانت تمشي ثابتة الظهر لا تحرّك إلاّ خصرها. لحقت بها لا تفصلني عنها سوى مسافة قريبة. يبدو أنّها سمعت وقع خطاي، لأنّها أزاحت حمّالتها المزدوجة المنتهية برأس حديدي، مفسحة الطريق لمروري. لكنّ رزمتي السرخس لا تزالان تقفلان الزقاق الضيّق.

قلت:

ـ لا تشغلي بالك. واصلي سيرك ولا تهتمّي بي.

لاحقًا، لكي تعبر جدولاً، اضطرّت إلى أن تضع حمّالتها جانبًا. استطعت رؤية خصلات شعرها الملتصقة بالعرق فوق خدّيها، وشفتيها المكتنزتين ووجهها الطفولي، بالرّغم من صدرها الناهد أصلاً. سألتها عن سنّها. قالت إنّها في السادسة عشرة، ومع ذلك، لم يكن يبدو عليها تلك السيماء من الخفر التي تميّز صبايا الجبال عندما يلتقين أحد الغرباء. قلت لها:

ـ ألا تخشين السير وحيدة على هذه الدرب الخالية من الناس حيث لا قرية تلوح في الأفق.

أجالت بصرها على حمّالتها المغروزة في باقتي السرخس.

ـ عندما تسير وحدك في الشعاب، يكفي أن تحمل عصا لكي تطرد الذئاب.

قالت لي أيضًا إنّ مسكنها ليس بعيدًا بل هو قابع في جوف الجبل.

سألتها: أمَا زلت في المدرسة؟

قالت لي إنّها غادرت المدرسة، تاركة مكانها لأخيها الصغير الذي حان وقت التحاقه بها.

قلت لها:

ـ لماذا لا يسمح لك والدك بمتابعة دراستك؟

أجابتني أنّ والدها متوفًى.

سألتها: من تبقّى لك من العائلة؟

قالت لي إنّ أمّها لا تزال على قيد الحياة.

سألتها: لا بدّ أنّ هذه الحمّالة تزن أكثر من مئة ليبرة، أليس كذلك؟ قالت لي إنّهم يعتمدون على السرخس للتدفئة عند نفاد الحطب. أفسحت لي بالمرور قبلها. لم أكد أجتاز القمّة حتى لمحت منزلاً منعزلاً من الآجرّ، لائذًا بسفح الجبل.

ـ انظر! البيت الذي أمامه شجرة خوخ هو بيتي.

كانت أوراق الشجرة قد تساقطت جميعها تقريبًا. فقط بضع وُريقات حمراء مائلة إلى البرتقالي لا زالت ترتعش فوق الأغصان البنفسجيّة اللامعة.

ـ هذه الخوخة أمام بيتنا غريبة جدًّا. أزهرت مرّة في الربيع، ثم أزهرت مجدّدًا في الخريف، وأزهارها البيضاء كالثلج لم تتساقط إلاّ في الآونة الأخيرة. مع ذلك، لم يكن الأمر كما في الربيع، فهي لم تعطِ ثمرة خوخ واحدة.

عندما مررت بالقرب من بيتها، دعتني للدخول وشرب الشاي. تسلّقتُ الدرجاتِ الحجريّة، ثم جلستُ على حجر الرحى أمام المنزل. أمّا هي فحملت حزمتي السرخس لتضعهما خلف البيت.

بعد وقت قصير، خرجت من جديد حاملة إبريقًا من الشاي مصنوعًا من الصلصال الرملي. ملأت فنجانًا كبيرًا أزرق الحواشي. لا بدّ أنّ إبريق الشاي كان مغمورًا بجمر الموقد لأنّ الماء فيه كان يغلي.

استندت إلى السرير المصنوع من ألياف النخيل في غرفة دارة الاستقبال، وأنا أشعر بالبرد. النافذة مغلقة لكنّ هواءً متجلّدًا يتسلّل من جدران الألواح الخشبيّة في الطابق الأوّل. على أيّة حال، إنّها إحدى أمسيات الخريف نمضيها على هذا المنحدر الجبلي، والخريف في أوْجه. لا أزال أتذكّر كيف أنّها سخرت منّي عندما سكبَتِ الشاي ورأتني أمسك الفنجان بكلتا يديّ وأقرّبه من فمي. انفرجت شفتاها. كانت شفتها السفلى مكتنزة جدًّا وكأنّها متورّمة، وكانت لا تزال ترتدي سترتها القصيرة التي تنضح عرقًا.

قلت لها:

ـ ستُصابين بالبرد في هذا اللباس الخفيف.

قالت لي:

ـ أنتم أبناء المدن تخشون البرد! أمّا أنا فأغتسل بالمياه الباردة، حتى في الشتاء. ألا تريد قضاء الليلة هنا؟

وإذ رأت دهشتي، أضافت على الفور:

ـ في الصيف، عندما يكثر عدد المسافرين، يأوي العديد منهم إلى بيوتنا.

ثمّ دخلْتُ إلى المنزل أستدلّ من نظراتها على المكان الذي تقودني إليه. كانت نصف جدران الخشب مكسوّة بصور ملوّنة تروي قصّة فان ليخوا، وهي امرأة من العصور القديمة. سمعتهم في طفولتي يتحدّثون عن هذه البطلة لكنّي نسيت القصّة.

سألتها وأنا أُشير إلى هذه الصور:

ــ هل تهوين قراءة الروايات؟

ــ أفضّل المسرح الغنائي.

أدركت أنّها تقصد برامج الأوبرا التي تُبثّ عبر الراديو.

سألتني:

ــ ألا تريد أن تمسح العرق عن وجهك؟ هل أحضر لك طستًا من الماء الساخن؟

قلت، لا داعي لكلّ ذلك، وأكتفي بالتوجّه إلى المطبخ، فاقتادتني إليه. تناولت طستًا، وبحركة خاطفة، شطفته بماء من الجرّة ثم ملأته ماءً ساخنًا وقدّمته لي.

قالت وهي تنظر إليّ:

ــ تعال ألقِ نظرة على الغرف. إنّها نظيفة جدًّا.

لم أستطع مقاومة نظرتها الرطيبة. كنت اتّخذت قراري بالبقاء.

ــ من هذا؟

علا صوت امرأة خفيض من وراء الحاجز الخشبي.

هتفَتْ:

ــ أمّي، هذا ضيف.

ثم توجّهت إليّ بالقول:

ــ إنّها مريضة وطريحة الفراش منذ عام.

أمسكْتُ المنشفة الدافئة من يدها. دخلت إلى الغرفة. سمعتهما تتهامسان. جفّفت وجهي مستعيدًا روعي. أخذت حقيبتي وذهبت للجلوس على حجر الرّحى في الباحة الخارجيّة. عندما خرجَتْ سألتُها:

ـ بكَم أدين لك مقابل الماء الساخن؟

ـ لا شيء.

أخرجت من جيبي بعض القطع النقديّة الصغيرة ودسستها في يدها. نظرت إليَّ مقطّبة حاجبيها. انحدرت الدرب ولم ألتفت ثانية إلاّ حين ابتعدت قليلاً. كانت لا تزال واقفة أمام حجر الرّحى والنقود في يدها.

تعروني حاجة للقاء أحد والإفصاح له عمّا في صدري. نزلت عن سريري ومشيت في الغرفة. سمعت قربي فرقعة اللوح الخشبي فقرعت على الحاجز:

ـ هل من أحد هنا؟

أجابني صوت ذكوري ثخين:

ـ من هذا؟

ـ هل أتيت إلى هنا للتنزّه في أرجاء الجبل؟

أجابني الصوت بعد شيء من التردّد:

ـ لا، جئت للعمل.

ـ هل بإمكاني إزعاجك؟

ـ كما تشاء.

خرجت لأقرع على بابه. عندما فتحه، رأيت عدّة لوحات مرسومة بالزيت وكروكيّات موضوعة على الطاولة وحافّة النافذة. لا بدّ أنّه لم يمسّ لحيته ولا شعره منذ وقت طويل، وعن عمد دون شكّ.

قلت:

ـ أيّ برد هذا!

ـ لو كان لدينا كحول لكان الوضع أفضل، لكن لا أحد في المخزن.

قلت وأنا أشتم:

ـ أيّة دارة لعينة!

ـ لكنّ الفتيات هنا ـ وأظهر لي رسمًا أوليًّا يمثّل صبيّة ذات شفتين مكتنزتين ـ ينضحن شهوة وإثارة!

ـ هل تقصد الكلام عن شفاههنّ؟

ـ شهوة دون فسق.

ـ هل تؤمن بالشهوة التي لا فسق فيها؟

قال:

ـ جميع النساء شبقات لكنّهنّ يمنحنك دومًا انطباعًا بالجمال الذي لا بدّ لكلّ فنّ خالد أن ينطلق منه.

ـ لكن ألا تعتقد أنّ هناك جمالاً مجرّدًا من الفسق؟

قال دون مواربة:

ـ هذا خداع للنفس، ليس أكثر.

ـ ألا تريد الخروج للقيام بجولة ورؤية الجبل ليلاً؟

قال:

ـ بالطبع، بالطبع. لكن لم يعد بإمكانك رؤية شيء في الخارج. سبق أن قمت بجولة. ثم راح يتأمّل الشفاه المكتنزة.

خرجت إلى الباحة. أشجار الجنكة الضخمة المنتصبة عند أوّل الجدول تحجب المصابيح فيضفي نورها على الأوراق لونًا باهتًا. ألتفت: الجبل والسماء يحتجبان وراء ضبابة الليل المدلهمّ حيث تلتمع المصابيح بأنوارها الشاحبة. وحدها التسقيفة الأماميّة بارزة في المبنى، سجينة هذا النور الغريب، أشعر بالدوار.

الباب الرئيسي مقفل أصلاً. متلمّسًا طريقي، أسحب المزلاج. مجتازًا العتبة، أغرق في ظلام دامس. إلى يساري، أسمع خرير مياه أحد الينابيع.

أخطو بضع خطوات وألتفت. عند أسفل الجرف، اختفت المصابيح، والضباب الرمادي المزرقّ يحجب شيئًا فشيئًا ذرى الجبال. من أسفل الوهد، يُطلق جندب صريره المتردّد. يشتدّ خرير مياه الينبوع مطاوعًا سرعة الريح المتغلغلة على صفحة الجدول.

يجتاح الوهاد ضباب رطب. في البعيد، اصطدم الضباب بأشجار الجنكات الضخمة التي تضيئها اللمبات. انبسط ظلّ الجبل تدريجًا. أنحدرُ في الشعاب المحفوفة بالجروف الوعرة. خلف كتلة الجبل المسودّة، يطفو نور خفيف، إلاّ أنّني محاط بظلمة كثيفة تضيّق الخناق عليَّ شيئًا فشيئًا.

أنظر إلى الفضاء: هيئة سوداء عملاقة تنتصب في السموات. ترتعد فرائصي رعبًا. في وسطها رأس نسر هائل يجمّع جناحيه وكأنّه على أهبة الطيران. في ظلّ البراثن المخيفة لروح الجبل المتوحّشة هذه، أشعر بالاختناق.

على مسافة أبعد، في غابة السكوا المنتصبة على علوّ شاهق، الظلام شامل، وكثيف بحيث يضحي جدارًا سميكًا حتى لتصطدم به فيما لو تقدّمت خطوة واحدة. فجأة، وبطريقة غرائزيّة ألتفت إلى الوراء، خلفي، عبر ظلال الأشجار، يلوح ضوء مصباح خافت، ضبابيّ وكأنّه ومضةٌ من وعي غامض، أو كأنّه ذكرى بعيدة يصعب استحضارها. لكأنّني أبصر المكان الذي أتيت منه من موقع غامض وما من طريق. ومضة الوعي هذه لم تختفِ بعد ولا تني تطفو أمام عينيّ.

رفعت يدي لأوقن أنّني موجود لكنّي لا أرى شيئًا. أشعلت ولاّعتي وتميّزت ذراعي المرفوعة وكأنّها تشهر مشعلاً. لكنّ اللهب ما لبث أن انطفأ بالرّغم من سكون الريح. ازداد الظلام الذي يطوّقني بكثافة وبدا لامتناهيًا. حتى إنّ صرير الجندب المتواصل توقّف. تسرّبت الظلمة إلى داخل أذنيّ وملأتهما، ظلمة أولّيّة. إذا كان الإنسان قد دفعته غريزته لعبادة النار، فهذا لكي يهزم الخوف الداخلي الذي يسيطر على كيانه عند حلول الظلمة.

أُشعل ولاّعتي من جديد. لا تلبث أن تبدّد ريح مشؤومة جذوتها الضعيفة المرتعشة. في هذه الظلمة المتوحشّة، التهمني الرعب، أفقدني

ثقتي بنفسي وأنساني الاتّجاه الذي يجب أن أسلكه. أخشى، إذا واصلت السير قُدُمًا إلى الأمام السقوط في هاوية. أتلفّت فأوقن أنّني ابتعدت عن الدرب. متردّدًا أقوم ببضع خطوات. في الغابة، يومض صفّ من الأضواء الخافتة باتّجاهي، فتبدو كالحباك، ثم تنطفئ. أدرك أنّني وسط الأشجار، بعيدًا عن الطريق التي يفترض أن تكون إلى يميني. رحت أتلمّس طريقي محاولاً أن أصحّح وجهة سيري. عليَّ، قبل كلّ شيء، أن أعثر من جديد على صخرة الصقر القائمة، الوعرة والوحيدة.

وسط الضباب الزاحف كدخان، متّخذًا شكلاً لدى احتكاكه بالتراب، التمعت في غير مكان بعض الأنوار. آل بي الأمر إلى العودة تحت «صخرة الصقر». لونها الأسود يحاصرني ويخنقني. أكتشف فجأة بين جناحي الصقر المنبسطين تمثالاً رماديًّا أشبه بامرأة عجوز أُلقي فوق كتفيها معطف فضفاض. لا عطف في ملامحها بل هي أقرب إلى ساحرة شمطاء. رأسها منخفض وجسدها متيبّس. وتحت المعطف امرأة عارية ساجدة على ركبتيها. فقرات ظهرها بارزة بالكاد. وجهها ملتفت ناحية هذا الكائن الشيطاني، وقد بدت وكأنّها تشكو ويداها مضمومتان ومرفقاها بعيدان عن جذعها، كاشفة عن خصرها العاري. ظلّ وجهها غامضًا، لكن استدارة خدّها ظريفة وجذّابة.

ينسدل شعرها الطويل الغزير على كتفيها وذراعيها كاشفًا عن خصرها. إنّها فتاة شابّة ساجدة على ركبتيها ومستندة على أطراف قدميها وهي منحنية الرأس. بدت مرتعبة أو كأنّها منصرفة إلى صلاة

حارّة. أحيانًا، يتغيّر شكلها ثم لا تلبث أن تستعيد مظهرها كفتاة شابّة، كامرأة متوسّلة، ضامّة إحدى يديها إلى الأخرى لتعود من جديد شابّة تزداد ملامحها جمالاً. لوهلة، بدت استدارة نهدها الأيسر بعيدة المنال.

أجتاز باب المعبد فتمّحي الظلمة تمامًا. وأستعيد أنوار المصابيح الشاحبة. تلاشت في الليل آخر وريقات أشجار الجنكة المحاذية للجدول. وحدها الأروقة والسقيفات الأماميّة ثابتة في وجودها.

الفصل السابع عشر

تصل إلى منتهى القرية فترى امرأة مسنّة ترتدي صدارًا معقودًا فوق ثوبها، وقد جلست القرفصاء على ضفّة النهر الجاري أمام بابها، تمسك بيدها سكّينًا لتعدّ سمكات قلّما يتجاوز طولها حجم الإصبع. هناك مشعل مضاء بصمغ الصنوبر ونوره المتهافت ينعكس فوق نصل السكّين. على مسافة أبعد، الجبل الضائع في الظلّ. بعض الغيوم القرمزيّة تزحف على القمم. ما من حيّ يُرزق. تعود على أعقابك، لا شكّ أنّ المشعل يجذبك. تتّجه ناحية المرأة العجوز لكي تسألها إن كان بإمكانك أن تمضي ليلتك عندها.

ــ يأتي الناس غالبًا ليستريحوا عندي.

حدست مرامك، تضع سكّينها جانبًا، تمسح يديها بِصدارها، ترمقك بنظرة وترشدك دون كلمة. تدخل إلى البيت وتشعل مصباح الزيت. تتبعها. تصرّ الأرضية تحت وقع أقدامك. في الطابق الأوّل تفوح رائحة تبن الأرزّ المقطوع حديثًا.

ــ جميع الغرف في الطابق فارغة، سآتي بالأغطية. الجوّ بارد في جبالنا ليلاً.

وضعت المرأة العجوز مصباح الزيت على حافّة النافذة ونزلت. تقول إنّها لا تريد قضاء الليل في الأسفل فهي خائفة. ولا تريد أيضًا النوم في الغرفة نفسها التي تنام فيها لأنّها تخاف أيضًا. تتخلّى لها عن المصباح. تدفع بقدميك تبن الأرزّ فوق الأرضيّة وتتوجّه إلى الغرفة المجاورة. تقول إنّك لا ترغب في النوم على سرير من ألواح الخشب، وإنّك تفضّل الاندساس في التبن. تقول إنّها ستنام ورأسها لصق رأسك وإنّك تستطيع التحدّث إليها عبر الحاجز فالألواح غير متّصلة بالسقف. دائرة مصباحها تضيء السقف.

تقول: هذا غريب.

تأتيك المرأة العجوز بالأغطية.

تريد أيضًا ماء.

تأتيك العجوز بدلو صغير من الماء الساخن.ثم تسمعها تدير المزلاج في باب غرفتها. عاري الجذع، متنكبًا منشفة، تنزل الأدراج. لا ضوء. مصباح الزيت الوحيد في المنزل بقي في الغرفة في الطابق الأوّل. كانت سيّدة المكان أمام الفرن في المطبخ. تضيء وجهها الكامد ألسنة النار. تفرقع الأماليد تحت قدميك وتتصاعد رائحة الأرزّ المطبوخ.

تأخذ دلوًا وتنحدر باتّجاه الجدول. فوق القمم، اختفت آخر الغيوم القرمزيّة وخيّم ظلام الغسق في كلّ مكان. تلتمع شرارات مضيئة فوق تموّجات الماء الصافية. نجوم تبزغ في السماء والضفادع يتعالى نقيقها من كلّ صوب.

في الجهة المقابلة، تخترق ضحكات أطفال ظلّ الجبل السحيق. وراء البحيرة، تنبسط حقول الأرز ويبرز بيدر في الظلمة. ربّما الأطفال منصرفون للعبة الاستغماية. شريط قاتم يفصل البيدر عن حقل الأرزّ. يتعالى رنين ضحكة شابّة. لا شكّ أنّها هي. في الظلمة التي تواجهك، يستعيد شبابك المنسيّ حياته. ذات يوم، سيتذكّر أحد هؤلاء الأطفال طفولته هو أيضًا. ذات يوم سيصبح الصوت البهيج لهؤلاء الأبالسة الصغار ثخينًا وخفيضًا وحلقيًا. وسوف تخرجهم قدمان حافيتان تخفقان فوق بلاط البيدر تاركتين خلفهما آثارًا رطبة، من الطفولة، وتشرّعان لهم العالم الواسع. تسمع عندئذٍ اصطفاق الأقدام الحافية على البلاط. ولد على الضفّة يدفع قاربه بنول تطريز جدّته. تناديه فيلتفت ويولّي هاربًا. اصطفاق الأقدام الحافية على البلاط بلّوريّ. وفي أحد الأزقّة، تطالعك من جديد ضفيرتها الحالكة السواد كالسبج. في أزقّة قرية ووبي، ريح الشتاء متجلّدة. تتنكّب دِلاء الماء الموضوعة فوق حمّالتها وتمشي بخطى قصيرة فوق البلاط. دلاء الماء ترمي بثقلها فوق كتفيها الطريّتين والقويّتين معًا. حقواها يؤلمانها، تتوقّف لدى سماعها نداءك. يتموّج الماء في الدلاء ويسيل فوق الحجارة. تدير رأسها وتنظر إليك ضاحكة. ثم تواصل المسير بخطاها المنمنمة. ترتدي حذاء من القماش البنفسجي. في الظلمة، يطلق الأطفال صيحات مجلجلة لكنّك لا تفقه معناها. لكأنّها صدى لا يتوقّف... يا يا..

وفي لحظة، تستيقظ ذكريات طفولتك مجدّدًا. تنقضّ الطائرات مزمجرة وتكاد أجنحتها السوداء تلامس رأسك. تندسّ في صدر أمّك

تحت شجرة عنّاب بريّة صغيرة، فتمزّق أشواكها سترتها القطنيّة وتكشف عن ذارعين كاملتي الاستدارة. ثم تأخذك حاضنتك من بين ذراعيها. تحبّذ الالتصاق بها. متمايلة بنهديها الضخمين، تضع لك ملحًا قليلاً على رقاقة الأرزّ الأرجة الصفراء الغامقة المحمّصة في زاوية النار. تهوى الركون إلى مطبخها. في الظلمة تلتمع عيون أربع حمراء متوقّدة، عيون الأرنبين البيضاوين اللتين تربّيهما. إحداهما ماتت في قفصها بعد أن عضّها ابن عرس والأخرى اختفت. لاحقًا، تعثر عليها وقد اتّسخ وبرها وابتلّ بماء المرحاض. خلف المنزل، في الباحة، نبتت شجرة وسط حجارة الآجرّ المحطّمة وأكاسير القراميد المكسوّة بالخزّ. لم يتجاوز نظرك قطّ منعطف الأغصان، عند أعلى الجدار. لو امتدّ إلى مسافة أبعد لجهلت ما الذي سيكتشفه. يمكنك فقط أن تقف على رؤوس أصابعك لكي تصل إلى علوّ الثقب في جذع الشجرة، هناك حيث رميت الحجارة. يقال إنّ الأشجار يمكنها أن تتحوّل إلى أرواح، أرواح تشبه البشر: تخشى الدغدغة. إذا غرزت قضيبًا في هذا الثقب، تنفجر الشجرة ضاحكة كما تفعل الفتاة حين تدغدغها تحت إبطيها. فتشدّ ذراعيها وتضحك حتى تنقطع أنفاسها. لا تزال تذكر أنّ سنًّا تنقصها. «فقدت سنًّا! فقدت سنًّا! نسمّيها يايا!». حين هتفت هكذا ابتعدت وأدارت لك ظهرها. ارتفع التراب كأنّه دخان أسود، لافعًا الرؤوس والأجساد والوجوه. نهضت أمّك ونفضت الغبار عنك. لم تصب بأذى. لكنّك سمعت صرخة طويلة حادّة أطلقتها إحدى النساء، صرخة بهيميّة. ثم تأرجحْت دون نهاية فوق طرقات جبليّة جالسًا في شاحنة مغطّاة بستار واقٍ، منحشرًا بين سيقان الكبار وسط الحقائب والقفف. كانت نقاط المطر تسيل على طول أنفك.

اللعنة! انزلوا جميعكم وادفعوا الشاحنة! كانت عجلات الشاحنة تدور في مكانها وتقذف الوحول على ثياب الرجال ووجوههم، اللعنة! تقلّد السائق وهو يشتم. هذه شتيمتك الأولى! يا... يا.. لا تزال صيحات الأطفال يتناهى صداها على البيدر. يضحكون، يصرخون، يطاردون بعضهم بعضًا. قبالتك، لم يعد هناك طفولة، وحده ظلّ الجبل الأسود يخيّم على المكان.

تعود أمام بابها وتتوسّل إليها لكي تفتح لك. تقول لك ألاّ تعمد إلى ارتكاب الحماقات، فهي الآن في أحسن أحوالها ومحتاجة إلى الهدوء. لا رغبة لديها. محتاجة للوقت، محتاجة للنسيان، محتاجة للتفهّم وليس للحبّ، ترغب فقط في أن تسرّ لأحد بمكنونات نفسها. تأمل ألاّ تعمد إلى إفساد العلاقة بينكما بعد أن أولتك ثقتها. تقول إنّها تريد مواصلة السفر برفقتك وبلوغ جبل الروح. ستمضي وقتًا معك. لكن ليس الآن. تتوسّل إليك أن تسامحها. لا رغبة لها في شيء ولا قدرة على شيء.

تقول إنّك لا تريد شيئًا، وإنّك لاحظت وجود ضوء صغير في الجوار عبر شقّ الحاجز الخشبي. لستما وحدكما بل هناك شخص آخر يقيم في الطابق. تقول لها بأن تأتي وترى.

ـ لا! لا تختلق الأكاذيب لكي تخيفني.

تقول إنّك لمحت بوضوح ضوءًا يلتمع عبر شقّ الحاجز، وتستطيع التأكيد أنّ هناك غرفة أخرى في الخلف. تخرج من غرفتك. القشّ المنثور على الأرضيّة يُعيق خطاك. إذا رفعت ذراعك تستطيع أن تلمس قرميد السقف من الداخل ولكي تتقدّم على مسافة أبعد، عليك أن تنحني.

تقول متلمّسًا طريقك: ثمّة باب صغير.

تسألك من غرفتها:

ـ ماذا ترى؟

ـ لا أرى شيئًا، ما من شقّ في الباب. آه، إنّه مقفل بالمزلاج.

ـ هذا مخيف!

تسمعها تتكلّم عبر الحاجز.

تعود إلى غرفتك، تحضر سلّة خيزران كبيرة فتقلبها على كومة الأرزّ وترتقيها متشبّثًا بالدعامة الأفقيّة.

تسألك بإصرار من الغرفة المجاورة:

ـ قل لي بسرعة ماذا رأيت؟

ـ رأيت سراجًا من الزيت وفي داخله فتيلة مشتعلة. السراج موضوع في كوّة ملتصقة بالجدار. في آخر الغرفة لوح صغير دُوّنت عليه مآثر الأجداد. سيّدة هذا المكان ساحرة فعلاً تستحضر أرواح الموتى وتسجن نفوس البشر. تنوّم الأحياء لكي تستحوذ الأشباح على أجسادهم وتتكلّم عبر أفواههم.

تقول متوسّلة: اصمت!

وتسمع انزلاقة جسدها المستند إلى الحاجز.

تقول إنّ هذه المرأة في شبابها لم تكن لها علاقة ربّما بالساحرات. كانت، ككلّ النساء في سنّها، طبيعيّة تمامًا. في سنّ العشرين بالضبط حين تحتاج المرأة لحبّ كبير، توفّي زوجها.

سألت بصوت خفيض: كيف توفّي؟

تقول إنّه ذهب ليلاً مع أحد الأقرباء لسرقة أشجار الكافور من الغابة في القرية المجاورة. وفي اللحظة التي كانت الشجرة ستهوي فيها، علقت قدمه بأحد الجذور. سمع صوت تصدّع جذع الشجرة ففرّ هاربًا طالبًا النجاة لكنّه أخطأ الوجهة فسقط الجذع على رأسه، وقبل أن يتمكّن من الصراخ كان قد فارق الحياة.

تسألها: هل تسمعينني؟

تقول: أسمعك.

تقول إنّ قريب زوجها أصابه الهلع فهرب. ولم يجرؤ على الإخطار بموته. ثم التقت المرأة الشابّة في الجبل برجل يحمل كيسًا من الفحم وقد علّق إلى طرف حمّالته حذاء من القنب. راح يتوسّل إلى المارّين على طريقه أن يذهبوا للتعرّف إلى الجثّة. كيف بإمكانها عدم التعرّف إليه وهي التي خاطت له بنفسها الحذاء المطرّز بخيط أحمر على مقدّمته وكعبيه؟

وللحال، فقدت وعيها متهاوية أرضًا، وقد سال الزبد الأبيض على شفتيها وراحت تمرّغ جبينها بالتراب وهي تصرخ: أيُّها الأبالسة والأشباح الذين خطفتموه أعيدوه إليّ، أعيدوه إليّ!

تقول لك: أشعر برغبة في الصراخ أيضًا.

ــ حسنًا فلتصرخي!

ــ مستحيل.

صوتها الأبحّ مثير للشفقة. تناديها من جديد لكنّها تستمرّ في الرفض من وراء الحاجز الخشبي. تريد مع ذلك أن تواصل السرد.

ــ سرد ماذا؟

ــ حدّثني عنها. حدّثني عن هذه المجنونة.

تشرح لها كيف أنّ نساء القرية لم يفلحن في السيطرة عليها وكيف احتاج الأمر إلى تعاون بضعة رجال لتهدئة ثورة جسدها والإمساك بذارعيها وتقييد يديها.

وبدءًا من ذلك اليوم، أصبحت مجنونة وتنبّأت بالكوارث والتغيّرات التي طرأت على القرية؛ أعلنت على سبيل المثال أنّ أمّ شيماو ستصبح أرملة. وتحقّق الأمر.

ــ أودّ الانتقام أنا أيضًا.

ــ الانتقام ممّن؟ من صديقك أم من الفتاة التي أقام علاقة معها؟ هل تريدين أن يتخلّى عنها بعد كلّ هذا المجون معها؟ كما فعل معك؟

ــ كان يقول إنّه يحبّني وإنّ ما فعله معها تسلية عابرة.

ــ هل هي شابّة؟ أجمل منك؟

ــ وجهها مكسوّ بالنمش وفمها كبير.

ـ هل هي أشدّ جاذبيّة منك؟

ـ قال إنّها تجري إثر الرجال وإنّ بإمكانها القيام بكلّ شيء. ويريدني أن أجاريها.

ـ أن تجاريها في ماذا؟

ـ لا تسألني!

ـ أنت على علمٍ إذًا بكلّ ما كانا يفعلانه سويّة؟

ـ نعم.

ـ وهي، هل تعرف ماذا كنتما تفعلان سويّة؟

ـ آه، لا تحدّثني عن ذلك.

ـ وعمَّ تريدين أن أحدّثك إذًا؟ عن تلك المرأة «زهرة الكاميليا»؟

ـ أودّ فعلاً الانتقام.

ـ كمثل هذه الساحرة؟

ـ ما الذي فعلته؟

ـ كانت النساء يخشين لعناتها، لكنّ جميع الرجال يأتون للتحدّث إليها. كانت تُغويهم ثم تتخلّى عنهم. ومن ثم تبالغ في طلي وجهها بالمساحيق. وتقيم مذبحًا مستسلمة لكلّ ضروب الرياء المرعبة، متوسّلة معونة الآلهة والشياطين.

ـ ولماذا تقوم بذلك؟

ـــ يجب العلم أنّها كانت مخطوبة بعمر السادسة من طفل لم يكن قد وُلد بعد. وفي عمر الثانية عشرة، عاشت عند عائلة زوجها العتيد فيما كان المخاط لا يزال يسيل من أنفه. ذات يوم وفي هذا الطابق بالذات، وعلى كومة القشّ هذه، هتك حموها عرضها. كانت في الرابعة عشرة من عمرها. لاحقًا كلّما كانت وحدها في البيت برفقته، ترتجف خوفًا. وفي ما بعد، توجّب عليها أن تهدهد زوجها الصغير الذي كان يعضّ دومًا ثديها بوحشيّة. وجب عليها أن تتحمّله طوعًا أو كرهًا، متنكّبة حمّالتها، مقطّعة الحطب، جارّة المحراث. وأخيرًا، حين بلغ زوجها وصار في العمر الذي ينبغي فيه أن يمارس معها الحبّ، توفّي مسحوقًا بشجرة. كان حمواها قد تقدّما في السنّ، وبات العمل في الحقول والمنزل يعتمد عليها كلّيًّا. لم يجسرا على تشديد الرقابة عليها خشية أن تتركهما وتتزوّج من جديد. الآن، كلاهما توفّيا. أضحت مقتنعة فعلاً بتواصلها مع الأرواح، وبأنّها تستطيع، بإطلاق اللعنات، بلوغ السعادة أو الشقاء وفقًا لرغباتها. وبطبيعة الحال، يمكنها الاستحصال على المال من الذين يأتون لإحراق البخور. وأشدّ ما يدعو إلى العجب، أنّها تستطيع الآن، بواسطة السحر، أن تفقد فتاة في العاشرة وعيها وتحملها على استحضار حماتها المتوفّاة منذ زمن بعيد والتحدّث بصوتها، من دون أن تربطها بالفتاة علاقة أو معرفة مسبقة. وبالطبع، هذا يثير الرعب في نفوس الحضور.

تقول متوسّلة إليّ:

ـــ تعال، أنا خائفة.

الفصل الثامن عشر

لدى وصولي إلى بحيرة كاو، عند منابع ووجيانغ، النهر الأسود، السماء متجهّمة والطقس بارد. على ضفّة البحيرة، شُيّد مبنى صغير جديد. إنّه مركز إدارة المحميّة الطبيعيّة الذي افتُتح حديثًا. وسط هذا الامتداد الشاسع من الأوحال، ينتصب وحده، جاثمًا فوق دعائم عالية مصنوعة من الحجارة المتراصفة. نصل إليه عبر درب موحلة إسفنجيّة. البحيرة انحسرت إلى مسافة كبيرة، لكن، على الضفّة القديمة، نبتت في غير مكان أعشاب مائيّة نادرة. بعد تسلّق درج المنزل الجانبي نصل إلى غرف مُنارة تمامًا بفضل نوافذها الكبيرة، وفيها أنواع عديدة مكدّسة من الطيور والأسماك والزواحف.

المسؤول عن المركز رجل طويل القامة ينمّ وجهه عن سخاء كبير. يصل السخّان الكهربائي بالتيّار ويملأ قدحًا كبيرًا برّاقًا من الشاي. يدعوني إلى الاقتراب من النار لأحتسي الشاي ساخنًا.

يقول إنّه منذ عشر سنوات، وعلى مسافة مئات الكيلومترات من البحيرة، ومن جميع الجهات، كانت الجبال لا تزال مكسوّة بالأشجار، وقبل ذلك بعشرين سنة، كانت هناك غابة غضّة كثيفة الأشجار تصل

حدودها حتى الضفّة، وكانت تُشاهد النمور في أرجاء الغابة من حين إلى آخر. الآن، الجنبات نفسها اختفت من هذه الجبال وهذه التلال. استخدمت الأخشاب في إشعال النار لطهو الطعام وفي التدفئة خصوصًا. ففي السنوات العشر الأخيرة، كان الربيع والشتاء شديدي البرودة، وكان الصقيع يأتي مبكرًا والجفاف في الربيع قاسيًا جدًّا. إبّان الثورة الثقافيّة، شاعت اللجنة الثوريّة الجديدة إحداث تغيير من خلال إنشاء قنوات مائيّة وتحسين الحقول في مجمل المقاطعة. فحشدت مئة ألف عامل لكي يعملوا على فتح عشرات قنوات التجفيف عن طريق استخدام المتفجّرات لإقامة سدود للبحيرة. لكنّ تجفيف البحيرة التي ترقى ترسّباتها إلى بضعة ملايين من السنين لم يكن سهلاً. يؤكّد الفلاحون أنّ عاصفة هبّت في تلك السنة على صفحة المياه، فذعر تنّين البحيرة الأسود بعد أن قُضَّ مضجعه فولّى هاربًا. الآن، لم يتبقّ إلاّ ثلث حجم الماء، وأصبحت الضفاف سبخات؛ وحتى اليوم لم يجرِ التوصّل لا إلى تجفيف هذه الأراضي ولا إلى إرجاعها إلى سابق عهدها.

عند النافذة، وُضع منظار بعيد المدى. عبر العدسة، تتحوّل مياه البحيرة الممتدّة على مسافة بضعة كيلومترات إلى صفحة هائلة بيضاء تبهر الأبصار. تُرى بالعين المجرّدة نقطة سوداء صغيرة. إنّه مركب وفي مقدّمته طيف رجلين ظلّ وجهاهما غامضين. وفي المؤخّرة رجل يتحرّك وكأنّه يرمي شباكًا.

قال:

ـ لا يمكننا بلوغهم بسبب بُعْد المسافة. وإن حاولنا ذلك يكونون قد لاذوا بالفرار قبل أن ندركهم.

ـ هل الأسماك وفيرة في هذه البحيرة؟

ـ عادةً، يمكن اصطياد مئات أو آلاف الليبرات من الأسماك. المشكلة هي أنّهم لا يزالون يصطادون عن طريق المتفجّرات. الناس طمّاعون، وليس باستطاعة أحد أن يمنعهم من استخدام هذه الوسائل.

وهزّ رأسه لأنّه هو المسؤول عن مركز إدارة منطقة المحميّة الطبيعيّة. قال لي إنّه في بداية الخمسينيّات، عُيّن خبير بيئي حائز على شهادة الدكتوراه في هذه المنطقة فور عودته من الخارج. كان مفعمًا بالحماس وقد جاء من شنغهاي، بناءً على طلبه، ليقيم هنا على رأس فريق مؤلّف من أربعة طلاّب مجازين في علم الأحياء وتربية المائيّات، بغية إنشاء محطّة لتربية الحيوانات البرّيّة. أفلح في تربية القنادس والثعالب الفضّيّة والإوزّ ذات الرؤوس المبقّعة، بالإضافة إلى العديد من الطيور المائيّة والأسماك. إلاّ أنّه سرعان ما دخل في صدام مع هؤلاء الفلاّحين الذين لا يراعون قواعد الصيد. ذات يوم، فيما كان مارًّا في حقل ذرة، صعقه مزارع يتربّص به من الخلف ووضع حول رقبته سلّة من الذرة المقطوفة حديثًا لكي يُتّهم بالسرقة. ضربه المزارع حتى جعله يبصق دمًا. لم يجرؤ أحد من المسؤولين الكبار في المقاطعة على الدفاع عن مفكّر، فقضى نحبه. وأُقفلت المحطّة من تلقاء نفسها ووُزّعت القنادس على مختلف هيئات المقاطعة لكي تؤكل.

ـ هل كانت لديه عائلة؟

ـ لم يتحدّث أحد بهذا الشأن. الخبراء الذين عاونوه وجدوا مناصب في جامعات تشونغ تسينغ أو غويانغ.

ـ ألم تُجر السلطات تحقيقًا حول مصرعه أو مشاريعه؟

قال إنّه بمناسبة تصنيف السجلاّت المتعلّقة بالشؤون القديمة للمقاطعة، عُثر على العشرات من مفكّراته التي دوّن فيها معلومات عديدة عن بيئة هذه البحيرة. تفحّصها عن كثب، ولاحظ أنّها كانت مكتوبة بشكل متقن للغاية. كان على استعداد لإطلاعي عليها ما دامت لديّ الرغبة في الأمر.

تصاعدت جلبة آتية من مصدر عجزت عن تحديده، وكأنّها سعال عجوز حادّ.

ـ ما هذه الضجّة؟

ـ إنّها طيور الغرانق.

أنزلني إلى الطابق الأرضي. في القاعة المخصّصة لتربية الحيوانات المقفلة ببوّابة كهربائيّة، يوجد غرنوق أسود العنق، وأحمر الرأس، يتعدّى ارتفاعه المتر الواحد وعدّة غرانق رماديّة تطلق صيحاتها بشكل متواتر. قال لي إنّ الغرنوق ذا العنق الأسود أُصيب بجرح في قائمته حين قبضوا عليه وحاولوا إطعامه. فيما أُخذت فِراخ الغرانق الرماديّة التي وُلدت لتوّها هذه السنة من أعشاشها مباشرة قبل أن تتعلّم الطيران. قديمًا، عند حلول الخريف، كانت الغرانق تأتي لتمضية فصل الشتاء هنا. وكانت تُشاهد في كلّ مكان في أجمات القصب على ضفّة

البحيرة. لكن، في ما بعد، اختفت بشكل كامل بسبب انتشار الصيّادين بكثافة في المنطقة. بعد إنشاء المحميّة الطبيعيّة منذ سنتين، رجع ستّون طائرًا منها، وفي السنة الفائتة أكثر من ثلاثمائة غرنوق أسود العنق. الأكثر عددًا بينها تبقى الغرانق الرماديّة. لكن، لم تعد تُرى من جديد غرانق حمراء الرأس.

سألته إذا كان بوسعي الذهاب إلى ضفّة البحيرة. قال لي إنّه سيرافقني في اليوم التالي للقيام بجولة في حال كانت الشمس ساطعة، ولذلك سينفخ القارب المطّاطي. أمّا اليوم فالريح عاتية والطقس بارد جدًّا.

استأذنته بالانصراف وذهبت للتنزّه باتّجاه البحيرة.

سلكت دربًا ضيّقة عند منحدر الجبل، حتى وصلت إلى قرية صغيرة تسكنها سبع عائلات أو ثمانٍ. كانت دعائم المنازل وأعمدتها مصنوعة كلّها من الحجارة. الأشجار حديثة العهد، مزروعة أمام المنازل وفي الباحات، لا بدَّ أنّ غابة كثيفة كانت تحفّ أيضًا بهذه القرية.

انحدرت إلى البحيرة سالكًا مرتفعات التراب الطريّة والموحلة عبر الحقول. لدى كلّ خطوة من خطواتي، تزداد كثافة الوحل تحت حذائي. أمامي، عند آخر الحقل، مركب وطفل يحمل دلوًا وصنّارة صيد. رغبت في الاقتراب ودفع المركب إلى الماء. سألته:

ـ هل بالإمكان دفع هذا المركب إلى الماء؟

كان حافي القدمين وكان بنطاله مرفوعًا فوق ركبتيه. لا بدّ أنّه في الثالثة عشرة أو في الرابعة عشرة من عمره. نظراته تتعدّاني مصوّبة

على مسافة بعيدة خلفي. ألتفت فأرى قامة تناديه عند أطراف القرية. من هذه المسافة النائية جدًّا، تبدو القامة وكأنّها ترتدي سترة ذات ألوان زاهية. لا بدّ أنّها فتاة صغيرة. قمت بخطوة باتّجاهه فغار حذائي في الوحل تمامًا. ثم سمعت الفتاة تطلق صيحاتها:

أي... يي... يا... يو...!

لم أفقَهْ معنى هذه الصيحات البعيدة لكنّ الصوت جليّ وعذب. لا شكّ أنّها تنادي الصبي. متنكّبًا صنّارة الصيد، مرَّ بالقرب منّي ثم ابتعد.

رحت أتقدّم بصعوبة متزايدة. لكنّي بالقرب من البحيرة وأريد الذهاب والتنزّه فيها. القارب على مسافة عشر خطوات منّي على الأكثر. لكي أبلغه، عليَّ فقط أن أوسع الخطى باتّجاه المكان حيث وقف الصبي منذ قليل، المكان الذي يبدو أكثر جفافًا. في مقدّمة المركب تنتصب عصا طويلة من الخيزران. عاينت من بين القصب طيورًا تطفو فوق صفحة الماء. ربَّما كانت بطًّا بريًّا. لم تتوقّف عن الزعيق لكنّي لا أسمعها بالرّغم من قربها بسبب الريح التي تصفر من الضفّة فيما أتميّز في البعيد صيحات الولديْن.

أقول في نفسي، ما عليّ إلاّ أن أدفع القارب خارج أجمات القصب لكي أبلغ هذا المدى الشاسع. سأبحر وحيدًا وسط البحيرة محاطًا بهذه النجود العالية المنعزلة الهانئة، ولن أضطرّ إذ ذاك للتحدّث إلى أيّ كان. وأودّ أن أذوب في هذا المشهد لأتّحد مع الضوء والسماء وألوان الجبل.

حرّرت قدمي للتقدّم خطوة لكنّي غُصت حتى منتصف ساقيّ في الطمي. لا أجرؤ على رفع ساقي إلى الأمام. أعرف أنّه ما إن تغوص

ركبتاي حتى أعجز عن إيجاد وسيلة للخروج من هنا. ولا أجرؤ أيضًا على تحريك قدمي إلى الخلف. عاجزًا عن التقدّم أو عن التراجع، حرت في أمري وحاولت أن أتلمّس سبيل النجاة. وضع مضحك ولا شكّ. لكن، بما أنّ أحدًا لا يراني فإنّه لا يمكنه أن يسخر منّي، ولا أن يأتي لنجدتي. وهذا الأمر كان يضاعف مخاوفي.

وبالطريقة نفسها التي رأيت فيها الرجال في قاربهم، ربّما كان باستطاعتهم معاينة طيفي بفضل المنظار الطويل المدى في مركز إدارة المحميّة. لكن، من المنظار، لن أظهر إلاّ كطيف هارب، غامض الوجه. وحتى لو صوّبوا المنظار باتّجاهي، فسيظنّون أنّني أحد المزارعين الذين يقصدون شاطئ البحيرة طلبًا للصيد وزيادة مداخيله. لا أحد سيُعيرني الاهتمام اللازم.

فوق صفحة الماء الساكنة، الطيور المائيّة نفسها اختفت. وتدريجًا، بدأت المياه اللامعة تكتسب ألوانًا قاتمة. بدءًا من أجمات القصب، انتشرت ألوان الغسق وتصاعد من البحيرة هواء بارد اقشعرّت منه قدماي حتى شعرت برعدة تجتاحني. توقّف صرير الجنادب ونقيق الضفادع. ربّما أجد هنا أخيرًا هذه الوحدة الأصليّة المجرّدة من المعنى التي طالما بحثت عنها.

الفصل التاسع عشر

الخريف في عزّه، والمساء جليديّ. الظلام حالك وعميق يحجب المدى السديميّ الأول، والسماء والأرض والأشجار والصخور تندغم في مشهد واحد، الطريق غير واضحة المعالم ولا يمكنك سوى البقاء في مكانك، عاجزًا عن تحرير قدميك، جذعك محنيّ إلى الأمام، ذراعاك ممدودتان تتلمّسان طريقهما في هذا الليل الأسود. تسمع حركة، لكن هذه ليست الريح، إنّه الظلام الذي لا يوجد فيه لا علوّ ولا انخفاض ولا يسار ولا يمين ولا بعيد ولا قريب ولا أيّ نظام محدّد، تلتحم تمامًا بهذا السديم وتعرف فقط أنّ لجسدك حدودًا، لكنّ هذه الحدود نفسها تضمحلّ شيئًا فشيئًا في مخيّلتك. شرارة تصعد في داخلك أشبه بقبس شمعة واحدة في الظلام، وهجها يبعث نورًا لكن ليس دفئًا، نور جليديّ يملأ جسدك، يفيض عن حدوده، هذه الحدود التي لا يمكن إدراكها إلاّ بالخيال. ذراعاك الاثنتان تلتصقان بشدّة إلى جسدك كيما تحتضنا هذا الدفء. هذا الوعي الصقيعي والشفّاف يجعلك بحاجة إلى هذا الإحساس وتحاول حمايته. أمامك، تمتدّ صفحة البحيرة الساكنة، وعلى الضفّة الأخرى تنتصب غابات صغيرة من الأشجار، التي أسقط الخريف بعض أوراقها،

وأشجار أخرى لم تتعرَّ تمامًا، أشجار حور باسقة ترتعش فيها بضع وريقات صفراء، وأشجار عنّاب فروعها معدنيّة السواد حيث ترتعش ورقة أو ورقتان في الريح، أشجار قرمزيّة مبعثرة أشبه بنفثات من ضباب، فوق صفحة البحيرة لا موجة، فقط انعكاسات واضحة وبرّاقة ذات ألوان لمّاعة، من الأحمر الداكن إلى القرمزيّ، إلى البرتقاليّ، إلى الأصفر الفاتح فالأخضر الغامق فالبنّيّ المائل إلى الرماديّ إلى الأبيض القمريّ، تزداد أفكارك حدّة، على مستويات عدّة، ومن ثم تختفي الألوان لتظهر في فوارق لا تُحصى من الرمادي والأسود والأبيض الداكن، أو الفاتح أشبه بصورة قديمة باهتة. وحدها الظلال تبقى واضحة. لا تقلْ إنّك على الأرض، حريّ بك أن تقول إنّك في مكان آخر، تراقب صورة قلبك بالذات وأنت تحبس أنفاسك، كلّ شيء هادئ جدًّا والهدوء يطمئنك، لكأنّه حلمٌ ولا يجدر بك أن تقلق، لكنّك لا تستطيع الشعور بالطمأنينة إزاء هذا الهدوء الشامل التامّ، هدوء لا مثيل له.

تسألها هل رأت هذا الظلّ.

تقول إنّها رأته.

تسألها هل رأت القارب الصغير.

تقول إنّ هذا القارب بالضبط هو الذي أضفى الهدوء على صفحة البحيرة.

وفجأة تسمع تنفّسها. تمدّ يدك لتلمسها، يدك تتردّد على جسدها فتثنيك عن مسعاك، تشدّ على معصمها وتجذبها صوبك. تستدير وتلتصق بصدرك، تتنشّق الأريج العذب المنبعث من شعرها وتبحثُ عن شفتيها،

تتحاشاك، تجذبها نحوك فتحاول الفرار، جسدها الدافئ الحيّ يتأوّه بصخب أكبر، تتضاعف خفقات قلبها تحت راحة يدك وتزداد قوّة.

تقول إنّك تريد للمركب أن يغرق.

تقول هي إنّ الماء يملأ المركب منذ زمن.

تفرج ساقيها وتلج جسدها الرطب.

كانت تعرف أنّ الأمر سينتهي على هذا النحو. تتنهّد ويرتخي جسدها. لم تعد إلاّ جسدًا.

تريد أن تقول إنّها سمكة.

لا!

تريد أن تقول إنّها حُرّة.

آه! لا!

تريد أن تغرق، أن تنسى كلّ شيء.

تقول إنّها خائفة.

تسألها ممَّ هي خائفة؟

تقول إنّها لا تعرف أن تعبّر عن سبب خوفها. تقول أيضًا إنّها خائفة من السواد وخائفة من الغرق.

ومن ثم، تلتهب الخدود، تتهافت ألسنة النار ولا تلبث أن تلتهمها الظلمات، تتلوّى الأجساد، تقول لك بعذوبة إنّها تتألّم، تزعق في وجهك

بأنّها تتألّم! تتخبّط، تنعتك بالبهيمة المتوحّشة! إنّها مطاردة، مصطادة، ممزّقة، ملتهمة... آه، هذه الظلمة الصفيقة المحسوسة، هذا السديم المغلق، لا سماء ولا أرض، لا مكان ولا زمان، لا كائن ولا عدم، لا عدم ولا كائن، لا كيان للعدم، لا كيان للكائن، نار الجمر الحارقة، العينان الرطبتان، المغارة المفتوحة، نفثات الدخان، الشفاه الملتهبة، الصيحات الحلقيّة، الرجل والبهيمة، نداء الظلمة الأوليّة، قلق النمر المتوحّش في الغابة، النّهم، اللهب يتصاعد، تبكي مطلقة صيحات حادّة، البهيمة المفترسة تعضّ، تزأر، إنّها مسحورة، تقفز قدمًا، تدور حول النار، النور يزداد وضوحًا، اللهب متغيّر، لا شكل له، في المغارة حيث ترتفع نفثات الدخان ينشب صراع مميت، تنقضّ على الأرض، تطلق صيحات حادّة، تواصل قفزها، تزأر، تخنق وتلتهم... سارق النار اختفى في البعيد، المشعل تكتنفه الظلمة ويضؤل نوره، اللهب لم يعد إلاّ نقطة صغيرة مرتعشة في الهواء المتجلّد. ثم ينطفئ.

قالت، أنا خائفة.

ممّ؟

لست خائفة من شيء، لكنّي أريد القول إنّي خائفة.

أيّها الطفل الغبيّ،

الضفّة الأخرى،

ماذا تقول؟

لا تفهم.

تحبّني؟

لا أعرف.

لم تحبّني قطّ؟

كنت أعرف فقط أنّ هذا اليوم سيأتي عاجلاً أم آجلاً.

هل أنت سعيدة؟

أنا لك الآن، قل لي أشياء عذبة، حدّثني عن الظلمات.

بانغو[1] يشهر فأسه ليفتح السماء،

لا تحدّثني عن بانغو،

أحدّثك عمَّ؟

ارو لي عن هذا المركب.

مركب صغير على وشك الغرق.

تخاله سيغرق لكنّه لا يغرق.

وفي النهاية، هل غرق؟

لا أعرف.

أنت حقًّا طفلة.

ارو لي قصّة.

---

(١) بانغو: كائن ميتولوجي خلق الكون

بعد الفيضان العظيم لم يبق بين السماء والأرض إلاّ قارب صغير، وفي هذا القارب أخ وأخت فقط. لم يتحمّلا الوحدة ومكثا متلاصقين واحدهما بالآخر، وحده جسد أحدهما كان الشاهد على وجود الجسد الآخر.

تحبّني،

أغوت الأفعى الفتاة،

الأفعى، كانت أخي.

الفصل العشرون

اصطحبني مغنٍّ من إتنيّة **يي** إلى الجبل، إلى القرى التي يسكنها قومه خلف بحيرة كاو. كلّما تقدّمنا، كانت القمم تبدو أكثر استدارة والأشجار أكثر التصاقًا وكثافة، يفوح منها أريج أنثوي أصيل.

النساء المنتميات إلى إتنيّة **يي** سمراوات البشرة، مستقيمات الأنوف، رهيفات العيون، إنّهنّ رائعات. نادرًا ما ينظرن إلى غريب وجهًا لوجه. إذا صادفتهنّ عند منعطف درب جبليّة، يرفعن وجوههنّ ناحيتك ويخفضن أبصارهنّ ويتوقّفن لإفساح المرور لك دون أن ينبسن بكلمة.

أنشد مرشدي لي بضع أغانٍ شعبيّة، أغانٍ شجيّة مفعمة بالأسى، حتى أغاني الحبّ منها.

إذا خرجت في ليلة مقمرة

لا تضئ الطريق بمشعلك

فإذا أنرت الطريق بمشعل

حزينًا سيكون القمر.

حين تزهر الكولزا

لا تحمل السلّة لقطف الأزهار

حزينة ستكون الكولزا

إذا أحببت فتاة صادقة فلا تتردّد،

حزينة ستكون الفتاة.

أخبرني مرافقي أنّه حتى اليوم لا يزال الأهل يقومون بدور الوسيط بين الفتيات والفتيان ويدبّرون الزيجات. أمّا العشّاق الذين يسعون إلى التلاقي بحرّيّة فيتسلّلون عبر أشجار الغابة في حنايا الجبل. وإذا كُشف أمرهم، يُلقى القبض عليهم ويعاقبون أشدّ عقاب، ولعلّ البعض منهم يلقى حتفه.

سويّة تنقد اليمامة والدجاجة الحَبّ

للدجاجة سيّد أمّا اليمامة فلا

يأتي سيّد الدجاجة ليبحث عنها

وحيدة تبقى اليمامة.

معًا يلهو الفتى والفتاة

للفتاة سيّد أمّا الفتى فلا

يأتي سيّد الفتاة ليتفقدّها

وحيدًا يبقى الفتى.

أغاني الحبّ هذه لا يستطيع مرافقي أن ينشدها لي في بيته بحضور زوجته وأطفاله. لذا يأتي إلى مركز الإسكان الذي أُقيم فيه ويغنّيها لي بصوت عذب خلف الباب المقفل، وهو يترجمها لي مقطعًا مقطعًا.

يرتدي ثوبًا طويلاً وحزامًا معقودًا حول حقويه، عيناه حزينتان وخدّاه هزيلان. نقل بنفسه هذه الأغاني إلى الصينيّة، بلغة مفعمة بالصدق، منسابة بعفويّة، طالعة من القلب. شاعر بالفطرة.

أعمارنا متقاربة، ومع ذلك فهو يقول لي إنّه بات عجوزًا. ولَشَدّ ما كانت دهشتي حين قال إنّ وجوده لم يعد نافعًا. لديه ولدان، فتاة في الثامنة عشرة وفتى في السابعة عشرة، وعليه أن يكدّ ويجهد في سبيل توفير معيشتهما. في ما بعد، ذهبت إلى مسقط رأسه، قرية جبليّة، وعلمت أنّه لا يملك في حظيرة الماشية المجاورة لمنزله إلاّ خنزيرين. كانت الأرضيّة داخل البيت ترابًا مرصوصًا، وفوق السرير ليس هناك سوى غطاء رقيق من القطن المسودّ. زوجته مريضة عليلة. لا شكّ أنّ الحياة باتت بالنسبة إليه عبئًا ثقيلاً.

اصطحبني أيضًا لرؤية « بيمو»، أي كاهن يي. دخلنا إلى دارة واسعة جدًّا ثم اجتزنا أروقة ضيّقة مكفهرّة، إلى أن وصلنا إلى باحة صغيرة جانبيّة حيث يقطن الكاهن. إنّه مسكن بسيط ذو مدخل واحد. دفع الباب ونادى. وعلى الفور، دوّى صوت الرجل. دعاني للدخول. أمام طاولة قريبة من النافذة، جلس الرجل مرتديًا ثوبًا طويلاً أزرق اللون. كان يشدّ حقوه بحزام ويغطّي رأسه بقبّعة سوداء اللون.

قدّمني المغنّي إليه بلغة يي. ثم أخبرني أنّ الرجل آتٍ من منطقة كيلي ومتحدّر من عائلة معروفة. استُدعي من قريته ليرعى الطقوس الدينيّة لشعوب يي في عاصمة المقاطعة. هو في الثالثة والخمسين من عمره. تفحّصني بعينيه الصافيتين الثاقبتين دون أن يرفّ له جفن. يستحيل أن تلتقي نظراتك بنظراته. صحيح أنّه يحدّق بي لكنّه يستشفّ عالمًا آخر ولا شكّ، عالمًا من الغابات والجبال والأرواح والأشباح.

جلست أمام الطاولة قبالته. فيما راح المغنّي يشرح سبب زيارتي. كان الكاهن منصرفًا إلى إعادة كتابة نصّ مقدّس بلغة يي، بالريشة، وكأنّه من أبناء سلالة هان. ظلّ صامتًا حتى انتهى المغنّي من كلامه. هزّ برأسه، ثم وضع ريشته في حقّ صغير وأقفل المحبرة. ثم بسط القرطاس الذي كتب على أوراقه الخشنة والسميكة النصّ المقدّس. ثم فتحه عند مطلع أحد الفصول وفجأة أخذ يرتّل بصوت جهوريّ.

صوته رنّان أكثر ممّا ينبغي قياسًا مع الغرفة الضيّقة التي تجمعنا. صوت يتدفّق على نغمة رتيبة، عالية جدًّا، ثم يتموّج على أربعة مقامات أو خمسة، فيحملك دفعة واحدة إلى البعيد وكأنّك تتهادى أنت أيضًا على الطرقات الترابيّة للنجود العالية.

عبر النافذة خلفه، من الغرفة القاتمة، بدا نور الشمس شديد السطوع، والتراب الموحل في الباحة بدا مبهرًا. تشامخ ديك برأسه وكأنّه يصغي إليه ثم أحنى رأسه لينقر الحَبّ وكأنّه معتاد على هذا الصوت، أو كأنّ تلاوة النصوص المقدّسة بالنسبة له أمر عادي.

سألت مرشدي:

ــ ماذا يغنّي؟

قال لي إنّها نصوص مقدّسة مكرّسة لتمجيد الخلوة العظيمة، عند وفاة أحدهم. لكنّها مكتوبة بلغة **يي** القديمة ولا يُفهم منها الشيء الكثير. استعلمت لديه عن عادات شعوب يي فيما يخصّ الزواج والحداد وسألته إن كان بإمكاني أن أحظى بفرصة مشاهدة المآتم التي وصفها لي. ففي أيّامنا هذه، باتت هذه الطقوس نادرة. لدى سماعي الكاهن بصوته الذكوريّ، الشجيّ، يبرع في الانتقال من نغمة إلى أخرى، يصعّده من حلقه ليصدح في جيوبه الأنفيّة ويخرج من فمه، هذا الصوت المفعم بالحياة، مع ما اعتراه من وهن... انبثقت في داخلي صورة موكب جنائزيّ وحشد يقرع الطبول ويعزف على الناي ويشهر الرايات ويحمل شخوصًا جنائزيّة من ورق، وفتياتٌ يمتطين الخيول وشبّانٌ يتنكّبون بنادقهم ويطلقون الطلقات المدويّة على طول الطريق.

رأيت أيضًا المجسّم المقام عن روح المتوفّى يوضع على نعش مصنوع من الخيزران المجدول، مغطًّى بالأوراق الملوّنة، ويحيط به جدار من الأغصان المتشابكة. في ساحة الجنازة، تشتعل أكوام من الأحطاب على منصّة عالية. يجلس أقارب الميت متحلّقين حول أحدهم. تتعالى ألسنة النار وتشرئبّ، فيما تراتيل النصوص المقدّسة يتردّد صداها في الليل. يركض الحشد ويقفز، تُقرع الطبول والصنوج وتُدوّي بضع طلقات ناريّة.

يبصر الإنسان النور حين يأتي إلى الدنيا على أصوات البكاء والصراخ ويغادرها وسط الضجيج، تلك هي الطبيعة البشريّة.

هذه العادة ليست حكرًا على أبناء قرى يي، بل نجدها أيضًا في حوض يانغتسي الواسع لكنّها مطعّمة، في أغلب الأوقات، بابتذال، وفقدت الكثير من معناها الأصيل.

في فنغدو، التابعة لإقليم سيتشوان، مدينة تُدعى «مدينة الأشباح»، وهي المدينة القديمة لأبناء **با**. شاهدت جنازة والد أحد مدراء المخازن الكبيرة الواقعة في عاصمة المقاطعة. فوق النعش، وُضع المنزل الورقيّ إجلالاً لروح المتوفّى. أمام باب منزله، اصطفّت بأعداد لامتناهية الدرّاجات التي انتقل عليها الناس لتقديم التعازي. وفي الجهة المقابلة، توالت أكاليل الأزهار، كذلك شخوص الرجال والخيول الورقيّة. على حافّة الطريق، عزفت فرق ثلاث نشيد الموت بأبواقها مداورة، من الصباح حتى المساء. لكنّ أحدًا من الأقارب أو المعارف الذين وفدوا ليبكوا الميت لم يرتّل أغاني التقوى البنويّة ولم يؤدّ رقصة الموت. مكثوا في الباحة متلاصقين حول الطاولات، منصرفين إلى لعب الورق. أردت أن أصوّر هذه العادات العصريّة، لكنّ المدير صادر آلتي الفوتوغرافيّة وطلب منّي إبراز أوراق هويّتي.

بالطبع، لا يزال هناك أناس يعرفون أغاني التقوى البنويّة. وهذه الأغاني لا تزال مستمرّة حتى أيّامنا في منطقة جينغتشو، في جيانغلينغ، مهد أبناء سلالة **تشو**. وهي تُنشد خلال احتفال سحري ينظّمه كاهن القرية الطاوي. ويسمّى هذا الطقس «قرع القدر أثناء الغناء». ونجد منه أثرًا مكتوبًا في تشوانغ تسي(١). عندما فقد تشوانغ تسي زوجته، أخذ

---

(١) تشوانغ تسي: كتاب من تأليف تشوانغ تشو، فيلسوف تاوي من القرن الرابع ق.م.

يغنّي وهو يقرع على قِدر، محوّلاً جنازتها إلى حدث سعيد بفضل هذا النشيد الرنّان.

بعض المختصّين الحاليّين من إتنيّة **يي** أثبتوا أنّ فوشي، الجدّ المؤسّس لسلالة **هان** له صلة بطوطم النمر الذي يتّخذه أبناء **يي** رمزًا لهم، كما توجد له آثار في كلّ مكان تقريبًا في بلاد إتنيّتي **با** **وتشو**. على ألواح الآجرّ التي ترقى إلى عهد سلالة **هان** اكتُشفت في إقليم سيتشوان صورة ملكة الغرب الأمّ ماثلة تحت هيئة نمرة لها وجه بشري. حين كنت في قرية المغنّي من قوميّة **يي**، راقبت طفلين صغيرين يلهوان أرضًا أمام سياج من أغصان الصفصاف المجدولة. كانا يرتديان قبّعتين منسوجتين من جلد النمر، مزيّنتين بخيط أحمر، شبيهتين بالقبّعات التي يعتمرها الأطفال في مناطق جنوب جيانغشي وجنوب أنهوي. وفي منطقتي «وو» و«يو» القديمتين، على المجرى السفلي لنهر يانغتسي، لا يزال رجال جيانغسو وتشيجيانغ، المعروفون بذكائهم، يحتفظون بمظهر الوقار إزاء النمرة. تُرى هل هذه ذكرى مبهمة مدفونة في لاوعي هؤلاء الناس الذين كانوا يعبدون طوطم النمر في عهد المجتمع الأمومي؟ لا أحد يملك جوابًا شافيًا. والتاريخ، في نهاية المطاف، ليس سوى ضباب صفيق. هنا وحده صوت الكاهن واضح وجليّ كلّ الوضوح والجلاء.

سألت مرشدي إذا كان باستطاعته أن يترجم لي المعنى العامّ الذي تعبّر عنه هذه النصوص المقدّسة. قال لي إنّها ترشد الميت على الطريق، وسط الظلمات وتتوجّه إلى إله السماء، وإلى آلهة الجهات الأربع، وإلى آلهة الجبال والمياه، وتكشف عن أصل أجداد الميّت.

عندئذ، تستطيع روح الميّت أن تعود إلى مسقط رأسها، مقتفية أثر من سبقها لتبلغ الغاية التي تسعى إليها.

سألت بعدئذٍ الكاهن عن العدد الأكبر للبنادق التي شهدها أثناء جنازة أشرف عليها حتى الآن. فكّر للحظة وأجاب بواسطة المغنّي إنّ عددها كان يربو على المئة. لكن، في جنازة أحد رؤساء القبائل، شاهد احتفالات ازدانت بألف ومئتي بندقيّة. كان في الخامسة عشرة من عمره آنذاك، وكان يعاون أباه لأنّهم كهنة يتوارثون دورهم أبًا عن جدّ.

تحمّس موظّف إداريّ من إتنيّة **يي** في المقاطعة ووضع تحت تصرّفي سيّارة جيب صغيرة لاصطحابي إلى يانتسانغ، لأزور المقبرة العظيمة الشامخة نحو السماء التي أُقيمت لملك أبناء **يي** القديم. إنّها تلّة مستديرة ذات قمّة مقعّرة، يبلغ ارتفاعها خمسين مترًا. إبّان الفترة التي شهدت «حركة استصلاح الأراضي بإيعاز من قادة الثورة»، أُصيب الناس بمسّ من الجنون. فمن أجل الحصول على الكلس، أخذ العمّال الصفوف الثلاثة لبلاطات المدفن المحيطة بالتلّة، ثم نبشوا المرامد الجنائزيّة وحطّموها ثم زرعوا الذُرة في هذه المساحة المجرّدة. حاليًّا لا تنبت في المكان إلاّ الأعشاب البرّيّة الضارّة التي تتلاعب بها الريح. وحسب ما يقول البحّاثة **اليي**، فإنّ سطوح المدافن في بلاد **با** سابقًا التي تثبت وجودها الوثائق الصينيّة في «حوليّات بلاد هوايانغ»، تشبه إلى حدّ بعيد هذه المقبرة المنتصبة نحو السماء. كانت مكرّسة لعبادة الأسلاف ومعدّة لمراقبة السماء.

يؤكّد الموظّف أنّ أجداد سلالة **يي** متحدّرون من منطقة آبا شمالي غربي سيتشوان، وتربطهم أواصر قربى أو صلات نسب مع سلالة **تشيانغ** القديمة. هنا بالضبط وُلد يو الكبير المتحدّر من سلالة **تشيانغ**. أؤيّده في وجهة نظره. قوميّتا **تشيانغ** و**يي** متقاربتان جدًّا في لون البشرة وشكل الوجه والبنية الجسديّة. بوسعي أن أشهد على ذلك لأنّني عائد من هذه المناطق. يربّت على كتفي ويدعوني لتناول الشراب عنده. أصبحنا صديقين. سألته إذا كانت لدى قوميّة **يي** عادة احتساء الكحول ممزوجة بالدم لتثبيت عرى الصداقة. أشار بالإيجاب. يجب قتل ديك ومزج دمه بالكحول. أمّا هو، فقد وضع الديك أصلاً ليُطبخ في القدر فنشرب دمه بأكله. أرسل ابنته للتوّ إلى بكّين لتكمل دراستها. يوصيني بها مِتوسّلاً. قام أيضًا بكتابة سيناريو فيلم. لو أستطيع مساعدته على إيجاد استوديو لإخراجه، عندئذٍ سيتكفّل بتدبير فرقة من خيّالة **يي** للمشاركة في التصوير. أحدس أنّه ينتمي إلى طبقة الأرستقراطيّين مالكي العبيد، **اليي** السود. لم يكذب حدسي. أخبرني أنّه ذهب السنة الفائتة إلى جبال داليانغ. استطاع العودة إلى عاشر جيل من أجداده لا بل عشرات الأجيال، لم أعد أذكر تمامًا، واكتشف الفرع الذي يجمعه بأحد كبار المسؤولين **اليي** المحلّيّين.

سألته: هل كانت هرميّة العشائر في المجتمعات **اليي** قديمًا تتّصف بصرامة شديدة؟ وإذا أراد فتى وفتاة من العشيرة نفسها أن يتزوّجا أو أن يقيما علاقة جنسيّة، فهل كان الموت مصيرهما؟ وهل يحدث الأمر نفسه لأبناء العمّ اللحّ؟ وإذا أقام عبد **يي** أبيض علاقة جنسيّة بفتاة أرستقراطيّة **يي** سوداء فهل كان يُحكم على الفتى بالموت وعلى الفتاة بالانتحار؟

قال:

ــ هذا صحيح. لكن، أليس الأمر مماثلاً لكم أنتم أبناء سلالة **هان**؟

أُمعن في التفكير قليلاً، ولا شكّ في أنّ ما يقوله صحيح.

سمعتهم يتحدّثون عن أنّ الحكم بالانتحار يُرغم فيه المتّهم على شنق نفسه، أو تناول السمّ، أو بقر البطن، أو الغرق، أو القفز من علوّ شاهق. أمّا أحكام الإعدام فتتمثّل بالخنق، والضرب حتى الموت، وإغراق المتّهم موثوقًا بحجر، ودفعه من أعلى صخرة، والطعن بالسكّين، أو الرمي بالرصاص.

سألته إذا كان صحيحًا ما سمعته. قال:

ــ تقريبًا. لكن ألا تنفّذون الأحكام نفسها أنتم أبناء **هان**؟

أمعنتُ في التفكير قليلاً ثم أدركتُ أنّه على حقّ.

أريد أن أعرف أيضًا ما إذا كانوا يمارسون أنواعًا أشدّ ضراوة من التعذيب: قطع الأرجل مثلاً أو الأصابع أو الآذان، اقتلاع العيون أو سملها، ثقب الأنف...

ــ نعم، مورست أنواع التعذيب هذه في الماضي، وكذلك إبّان الثورة الثقافيّة.

إنّه على حقّ فلمَ أتعجّب؟

أخبرني أنّه التقى في جبال داليانغ ضابطًا قديمًا في الكومينتانغ[1]. كان يعرّف عن نفسه بصفته خرّيج أكاديميّة هوانغبو العسكريّة، وعقيد فرقة كذا أو فصيلة كذا في الجيش القومي. أُسر على يد أحد شيوخ القبائل وجُعل عبدًا له. استطاع الهرب لكن أُلقي القبض عليه من جديد، فجُرَّ إلى السوق مقيّدًا بالسلاسل واشتراه سيّد آخر لقاء أربعين فضيَّة. حين استولى الحزب الشيوعي على الحكم، أنقذه وضعه كعبد قديم من الاضطهاد، إذ لا أحد يعرف قصّته. وعندما جرى الكلام مجدّدًا عن تحالف جديد بين الحزب الشيوعيّ والكومينتانغ، تجرّأ وأخبر قصّته. أرادوا عندئذٍ تعيينه عضوًا في اللجنة الاستشاريّة الشعبيّة، لكنّه رفض العرض. هو الآن في السبعين من عمره ولديه خمسة أولاد أنجبهم خلال فترة العبوديّة. وهبه سيّده امرأتين وأنجب تسعة أولاد، لكنّ أربعة منهم توفّوا. لا يزال يعيش في الجبال ولا رغبة لديه إطلاقًا بأن يعرف ماذا حصل لزوجته الأولى أو لأطفاله منها. يسألني الموظّف الإداريّ عمّا إذا كنت روائيًّا فهو مستعدّ لتسليمي هذه القصّة مجّانًا.

بعد العشاء، لدى خروجي من بيته، كان الشارع غارقًا في العتمة، والسماء بقعة مستطيلة رماديّة داكنة بين صفّين من السقيفات المتتالية. ذات يوم، إذا مررت بالسوق، سترى قوم يي محتشدين في الشارع وعلى

(١) الكومينتانغ: حركة سياسيّة قوميّة صينيّة ساهمت بزعامة سون يات سن في الإطاحة بالأسرة المنشوريّة عام ١٩١١. ظلّ الكومينتانغ الحزب الحاكم في الصين حتى عام ١٩٤٩.

رؤوسهم العمامات، وقوم **مياو** بمناديلهم المعقودة فوق شعورهم. لكنّ هذا الشارع لن تجده مختلفًا البتّة عن أيّ شارع داخل البلاد.

في طريقي إلى مركز الاستقبال حيث أُقيم، أمرّ أمام صالة سينما. لا أعرف أوقات العروض. ثمّة ملصق مغرٍ، مضاء بمصباح كاشف لامرأة رائعة ناهدة الصدر. لا بدّ أنّ عنوان الفيلم يحمل اسم امرأة أو كلمة حبّ. لا يزال الوقت مبكرًا، ولا رغبة لي في العودة إلى غرفتي، بأسرّتها الأربعة الفارغة. أعود على عقبيّ لزيارة صديق تعرّفت إليه مؤخّرًا. درس علم الآثار في الجامعة. لا أعرف كيف وصل إلى هنا ولم أسأله. قال لي مكرهًا إنّه لا يحمل شهادة دكتوراه.

في اعتقاده، استوطنت إتنيّة **يي** بشكل رئيسي في حوض جينشاجيانغ وعلى رافده ياغونغجيانغ. أجدادهم هم التشيانغ الذي نزحوا تدريجًا إلى هنا عندما تلاشى نظام الرقّ في السهل الأوسط أيّام حكم **شانغ** و**تشو**. وفي عصر الدويلات المتحاربة، عندما نشب الصراع بين مملكة **تشين** ومملكة **شو** في غيتشو حاليًا، نزح أجدادهم من جديد إلى يوننان. وهذه الواقعة مثبتة بشكل دامغ في النصّ القديم المكتوب بلغة **يي**: «حوليّات **يي** في الجنوب الغربي». ومع ذلك اكتُشف السنة الفائتة عند ضفّة بحيرة كاو أكثر من مئة أداة حجريّة تعود إلى العصر الحجري القديم، ثم، في المكان نفسه، عُثر على أدوات من العصر الحجري الأخير يشبه صقلها إلى حدّ بعيد الأدوات التي عُثر عليها في موقع هيمودو، على المجرى السفلي لنهر يانغتسي. كذلك أُزيح النقاب عن خرائب مساكن تشبه المنازل القائمة على أوتاد في مقاطعة هتشانغ

المجاورة. يعتقد عالم الآثار أنّه في العصر الحجري الأخير، كان ثمّة علاقة بين المكان حيث نحن وثقافة أجداد قبائل يو.

عندما رآني مقبلاً، أخرج من تحت سرير طفل سلّة كاملة من الحجارة معتقدًا أنّني جئت لرؤية الأدوات التي عثر عليها. تبادلنا النظرات ضاحكين. قلت له:

ـ لم آتِ من أجل الحجارة.

ـ هذا صحيح. ليست الحجارة بالأمر الملحّ. هيّا تعال، تعال!

وللفور وضع السلّة خلف الباب ونادى زوجته:

ـ أحضري لنا الشراب!

أبلغه بأنّي شربت للتّو.

ـ لا تشغل بالك. إذا ثملت فستقضي الليلة هنا!

لا بدَّ أنّه من سيتشوان. حين سمعت طريقته في الكلام، وجدتني قريبًا منه واعتمدت لهجته. زوجته حضّرت توًّا أصنافًا من الطعام تلائم الكحول، مخمليّة النكهة، لذيذة الطعم. مفعمًا بالحماسة، استرسل صديقي في أحاديث مسهبة: عن أجسام متحجّرة مستخرجة من مستنقعات بحيرة كاو، يبيعها بائعو السمك، وعن المسؤولين المحلّيّين الذين يستغرق اجتماعهم نهارًا كاملاً ليتّخذوا قرارًا بسيطًا كمثل شراء شبكة صيد.

«قبل شرائها، يجب تمريرها على النار لمعرفة ما إذا كانت الكرات الموجودة من قرون العجول أم من الخشب المدهون!».

«هل هذه شبكة أصليّة أم مقلّدة؟».

وضحكنا كلانا حتى زهقت أنفاسنا. وشعرنا بالألم في البطن وسبحنا في بحر من الغبطة الكاملة.

عندما خرجت من منزله، بدت لي قدماي خفيفتين خفّة لا عهد لي بها؛ لكن، تلك اللهفة التي تشعر بها عندما تجتاز النجود العالية. أعرف عندئذ أنّني احتسيت من الشراب بالضبط ما يكفي ولم أتخطّ حدودي أو طاقتي على الشراب. لاحقًا، تذكّرت أنّني نسيت أن آخذ من سلّته فأسًا حجريّة استخدمها إنسان يوانمو(١). هتف وهو يُريني الحجارة الموضوعة في السلّة خلف الباب:

ــ خذ منها قدر ما تشاء. هي طلاسم متوارثة من جيل لجيل.

---

(١) يوانمو: موقع من العصر الحجريّ القديم في مقاطعة يوننان.

الفصل الحادي والعشرون

تقول إنّها خائفة من الفئران، من ضجّة الفئران المهرولة على الأرضيّة، خائفة من الأفاعي أيضًا، وما أكثرها في هذه الجبال. خائفة من الأفاعي المرقّشة التي تتساقط من الدعائم وتنزلق بين الأغطية. تريد أن تضمّها بشدّة بين ذراعيك. خائفة من الوحدة.

تقول إنّها تريد سماع صوتك، صوتك يطمئنها، تريد أيضًا أن تسند رأسها إلى كتفكَ. تريد سماعك تتكلّم، تتكلّم بلا انقطاع، بلا توقّف، فلا تعود تشعر بالوحدة.

تقول إنّها تريد سماعك تروي لها القصص. تريد أن تعرف كيف أخذ «السيّد الثاني» الصبيّة التي اختطفها قطّاع الطرق من أمام بيتها بالذات، كيف خضعت له وأصبحت ربّة المنزل ثم وضعت حدًّا بيديها الاثنتين لحياة «السيّد الثاني».

تقول إنّها غير راغبة في سماع قصّة الصبيّة الآتية من المدينة، التي قفزت في النهر. لست مضطرًّا لأن تتحدّث عن الجثّة المنتفخة التي انتُشلت من الماء عارية تمامًا. لم تعد تريد الانتحار، ولا سماع قصّة

الرجال الذين كسروا أضلاعهم وهم يعالجون الفوانيس. فلكم رأت من الدم في قسم العمليّات في المستشفى. ترغب في سماع قصص مسلّية كحكاية امرأة زهرة الكاميليا. لم تعد تريد سماع القصص العنيفة.

تسألك هل تعامل الفتيات الأخريات بالمثل. لا تريد أن تعرف ماذا تفعل معهنّ. تريد أن تعرف هل هي أوّل امرأة أغويتها على هذا النحو في الجبل. تسألها رأيها. لا أعرف شيئًا، تقول لك. تدفعها لكي تخمّن. تقول إنّها لا تستطيع التخمين وإنّك لن تقول لها الحقيقة حتى لو عاشرت قبلها العديد من النساء. لا تريد أن تشغل بالها في هذه الأمور. تعرف فقط أنّها أتت بكامل رضاها وأنّها تتحمّل عواقب خطئها إذا كانت مخطئة. تقول إنّها تطلب منك الآن فقط أن تتفهّمها وتحميها وتهتمّ بشأنها وتسهر على راحتها.

تقول، تقول، حين امتلكها رجل للمرّة الأولى كان عنيفًا جدًّا ولم يهتمّ لأمرها. في ذلك الحين، كانت سلبيّة خاضعة تمام الخضوع، ولم تشعر بأدنى رغبة، ولم تحسّ بأيّ انفعال. جرّدها بسرعة من تنّورتها وأبقى قدمًا مسندة إلى الأرض إلى جانب السرير. كان أنانيًّا، خنزيرًا، وشاء فقط اغتصابها. كانت منصاعة بالطبع لكنّها شعرت بألم كبير، تسبّب لها بالعذاب. كانت تعرف أنّ العذاب ينتظرها، ومع ذلك استسلمت له كما لو أنّها تقوم بعمل يتوجّب عليها القيام به. حتى تدفعه لكي يحبّها، ويتزوّجها.

تقول إنّها لم تشعر بأيّة لذّة معه، تقيّأت عندما رأت منيّه يسيل على طول فخذها. وفي ما بعد، كانت هذه الرائحة تشعرها بالغثيان دومًا.

تقول إنّها كانت بالنسبة له مجرّد أداة لإشباع رغبته. وأحسّت بالقرف من جسدها بالذات عندما يتدنّس منه.

تقول إنّها المرّة الأولى التي تستسلم فيها لرغباتها. المرّة الأولى التي تستخدم فيها جسدها كي تعبّر عن حبّها لرجل. لم تتقيّأ. وهي ممتنّة لك لأنّك منحتها هذه اللذّة. تقول إنّها أرادت بالضبط الانتقام منه بهذه الطريقة، الانتقام من صديقها. ستقول له إنّها هي أيضًا ضاجعت رجلاً آخر، رجلاً أكبر منها سنًّا بكثير، عرف كيف يتمتّع بها وكيف يمتّعها.

تقول إنّها كانت عارفة أنّ الأمور ستجري على هذا النحو. عارفة أنّها ستسمح لك بالدخول. عارفة أنّ كلّ المحاذير التي تداركتها لم تكن إلاّ طريقة لإخفاء رغبتها. لكن لماذا كانت تريد معاقبة نفسها؟ لماذا لا تستطيع أن تتمتّع هي أيضًا كما يحلو لها؟ تقول إنّك أعطيتها الحياة والأمل، وأشعرتها بالرغبة تسري في دمها مجدّدًا.

تقول أيضًا، عندما كانت طفلة، كان لديها كلب يهوى أن يوقظها بخطمه الرطب، ويقفز أحيانًا فوق سريرها. كانت تشعر بالسعادة عندما تضمّ هذا الكلب بين ذراعيها. كانت أمّها تقول، وكانت أمّها الحقيقيّة لا تزال آنذاك على قيد الحياة، تقول إنّ الكلاب تتغلغل فيها البراغيث اللاسعة. وفي ما بعد، أصبحت تربية الكلاب محظّرة في المدينة. وذات يوم، فيما كانت غائبة عن البيت، جاب القرية فريق من الشرطة وجمع الحيوانات الأليفة وقتل ذلك الكلب. بكت وامتنعت عن تناول العشاء في ذلك المساء. آنذاك، لم تكن سوى فتاة طيّبة القلب. لم تكن تعلم أنّ عالم

الناس سيّئ إلى هذا الحدّ، ولماذا تخلو العلاقات الإنسانيّة من العاطفة والحنان. تقول إنها لم تعد تتذكّر لماذا تقول هذا.

تقول لها: واصلي الكلام.

تقول إنّها تشعر بأنّها فتحت صندوقًا لا يحتوي على غير الكلام، فراحت تتكلّم وتتكلّم بلا انقطاع.

تقول إنها تحسن الكلام كثيرًا.

تقول إنّها كانت ترغب في أن تبقى صغيرة وتكبر في آن معًا. وتتمنّى أن تُحبّ وتكون محطّ أنظار الجميع، رغم خوفها من نظرات الرجال. كانت تجد أنّ نظرات الرجال فاسقة لأنّهم لا ينظرون أبدًا إلى وجه النساء الجميل بل إلى شيء آخر دومًا.

تقول إنّك أنت أيضًا رجل.

أنت استثناء، تقول، هدّأت من روعها وأرادت البقاء بين ذراعيك.

تسألها ألا تجدك أنت أيضًا فاسقًا.

لا تقل ذلك. لا تجدك فاسقًا، تحبّك. تجد أنّك مفعم بالرقّة والحنان. الآن فقط عرفت الحياة. لكنّها أحيانًا يخامرها خوف شديد وترى الحياة أشبه بهاوية لا قرار لها.

تقول إنّ لا أحد يحبّها فعلاً. تتساءل عن معنى الحياة إن لم يكن أحد يحبّها. تقول إنّها تخشى ألاّ يحبّها أحد. لكنّ حبّ الرجال في غاية الأنانيّة؛ فلا هاجس لديهم سوى الامتلاك، لكنّهم ماذا يعطون بالمقابل؟

تقول لها، الرجال يعطون هم أيضًا.

فقط حين يرغبون في ذلك.

لكنّ النساء عاجزات أيضًا عن الاستغناء عن الرجال، أليس كذلك؟ تقول إنّها مشيئة السماء التي جمعت في القالب نفسه حجرين مصقولين ين ويانغ[1]، وإنّ ذلك في صلب الطبيعة البشريّة، ولا ينبغي لها أن تخاف.

تقول، أنت من دفعها إلى اتّخاذ هذه الخطوة.

تسألها ألا يروق لها ذلك؟

بلى، شرط أن يكون كلّ شيء طبيعيًّا.

نعم، بالروح، كما بالجسد. تستفزّها.

تقول، آه، إنّها راغبة في الغناء.

غناء ماذا؟ تسألها.

أغنّي أنّني معك، تقول.

غنّي ما تشائين. تشجّعها على الغناء ملء حنجرتها.

تريدك أن تداعبها.

تقول إنّك تريد رؤيتها مسترخية.

---

(١) ين ويانغ: في اعتقاد الصينيّين للأشياء الحيّة أصلان، ذكري وأنثوي، متّحدان، ين الأنثى ويانغ الذكر، منبعهما واحد، الأنثوي غامض والذكري نشيط.

تريد أن تقبّل حلمتيها.

وتقبّلهما.

تقول إنّها ستحبّ أيضًا جسدك. لا شيء في جسدك ينفّرها. ستفعل كلّ ما تشاء. آه، تريد أن ترى جسدك يلج جسدها.

تقول، أصبحْتِ امرأة حقيقيّة.

نعم، تجيبك، امرأة امتلكها رجل. تقول إنّها ما عادت تعرف ماذا تقول. لم يسبق لها أن تمتّعت على هذا النحو. تقول إنّها تعوم على متن مركب لا تعرف وجهته، جسدها لم يعد ينتمي إليها. تتهدهد فوق صفحة البحر السوداء المبرنقة، هي وأنت، لا، هي وحدها، لا تشعر بالخوف البتّة، تشعر فقط بالخواء، تريد الموت، الموت يغريها هي أيضًا، تشعر بالرغبة في الارتماء في البحر لكي تلتهمها الأمواج السوداء. تشعر بالحاجة إليك، إلى دفء جسدك، وهو يضغط بثقله فوق جسدها. هل هذا نوع من أنواع التعزية؟ تسألك إذا كنت تعرف الجواب. تشعر برغبة جارفة تغمر كيانها.

الرغبة في رجل؟ تحاول اكتشاف حقيقة شعورها.

نعم، إنّها محتاجة لحبّ رجل، محتاجة لأن يمتلكها رجل. نعم، تريد أن تستسلم، أن تسترخي، أن تنسى كلّ شيء، آه، هي ممتنّة لك، تقول إنّها شعرت بالخوف قليلاً في المرّة الأولى، نعم، تقول إنّها كانت تريد ذلك وتعرف أنّها تريد، لكنّها كانت خائفة جدًّا. احتارت في أمرها، رغبت في البكاء، في الصراخ، في أن تجرفها العاصفة إلى الريف

المقفر وتعرّيها تمامًا، أن تسلخ أغصان الأشجار جلدها وتتعذّب دون أن تجد سبيلاً للخلاص، أن تلتهمها الحيوانات الضارية! تقول إنّها رأتها، تلك المرأة الفاجرة المتّشحة بالسواد التي تداعب نهديها بيديها الاثنتين، والسخرية بادية على وجهها، تسير وهي تتمايل بردفيها، امرأة ماجنة، تقول، أنت لا تفهم، لا تفهم بالتأكيد، لا تفهم شيئًا، أيّ أبله أنت!

الفصل الثاني والعشرون

أغادر في الباص منطقة يي على حدود يوننان وغيتشو. حين أصل إلى شوي تشينغ، عليّ انتظار مجيء القطار لمدّة طويلة، فمن المحطّة وحتى العاصمة الرئيسيّة للمقاطعة لا تزال أمامي طريق طويلة. لم أعد أعرف أين أنا في هذه المنطقة التي ليست بمدينة ولا بريف، خصوصًا عندما أرى، على حافّة ما يشبه شارعًا، جملتين متوازيتين ملصوقتين على شبّاك إحدى النوافذ لبيت قديم دعائمه سوداء: «الأطفال يلعبون في الخارج، والرجال في سلام أينما كانوا». أشعر وكأنّني لا أتقدّم. بأنّي أعود إلى طفولتي. لكأنّني لم أعايش حربًا ولا ثورة ولا صراعات متتالية ولا انتقادات ولا انتقادات مضادّة ولا، في الوقت الحاضر، العودة إلى الإصلاحات التي لا تعتبر عودة فعليّة إلى الإصلاحات، لكأنّ أبي وأمّي لم يلقيا حتفهما، لكأنّني أنا نفسي لم أتألّم، لكأنّني لم أكبر... اهتزّ كياني وأوشكت أن أنهار باكيًا.

ذهبت للجلوس على كومة الحطب الموضوعة على حافّة السكّة الحديديّة، فيتسنّى لي التفكير قليلاً بوضعي. تقترب منّي امرأة في الثلاثين من عمرها، ذات وجه كئيب. تطلب مساعدتي لشراء بطاقة سفر

في القطار. لا بدّ أنّها اكتشفت منذ قليل عند شبّاك التذاكر في المحطّة أنّني لا أتكلّم اللهجة المحلّيّة. تقول لي إنّها تريد الذهاب إلى بكين لتقديم شكوى، لكنّها لا تملك النقود لشراء بطاقة. سألتها ضدّ من تريد رفع شكوى. فشرحت لي بإسهاب، وبطريقة غامضة، أنّ زوجها توفّي نتيجة ظلم لحق به، لكن لا أحد يريد الاعتراف بهذا لغاية الآن، ولم يعوّض لها أحد عن خسارتها. أعطيتها قطعة يوان لكي أتخلّص منها، وابتعدت نهائيًّا لكي أجلس عند ضفّة النهر. تأمّلت لساعات عديدة المنظر أمامي.

عند المساء، بعد الساعة الثامنة، وصلت أخيرًا إلى آنشون. أضع حقيبتي التي ازدادت ثقلاً في مستودع المحطّة. فيها حجارة الآجرّ المزخرفة التي أحضرتها معي من هتشانغ. هناك، يستخدم الفلاّحون آجرّ مقابر **الهان** لكي يبنوا حظائر للخنازير. المصباح مضاء عند نافذة شبّاك التذاكر، لكن لا أحد هناك. أقرع مرّات عدّة، توافيني موظّفة، تأخذ المال الذي أعطيها إيّاه وتلصق بطاقة على حقيبتي وتضعها على أحد الرفوف الفارغة ثم تستدير على أعقابها. قاعة الانتظار الفسيحة المقفرة لا تشبه بشيء قاعات الانتظار التي تضجّ عادة بالناس. حيث يتربّعون على حافّات النوافذ ويتمدّدون على المقاعد، ويجلسون فوق أمتعتهم، ويتوهون من مكان إلى آخر طمعًا بجني بعض الأرباح من مبادلات غير مشروعة. عندما خرجت من هذه المحطّة الفارغة، كنت لا أزال أسمع وقع خطواتي.

توالت غيوم سوداء فوق رأسي، لكنّ الليل كان مشعًّا تمامًا. ضباب الغسق المرتفع في السماء يمتزج بالغيوم ويشعّ بألوان حادّة. في عمق

الساحة المنبسطة أمامي، تنتصب الجبال كاملة الاستدارة، تطلّ من فوق النجود العالية أشبه بنهدي امرأة فارعين. لكن، عندما نقترب منهما، يبدوان عملاقين ويجثمان بكلّ ثقلهما. لا أعرف ما إذا كان السبب الغيوم السوداء التي تعبر فوق رأسي. لكنّي أشعر أنّ الأرض تنحني أيضًا، وأنّني أترنّح كما لو أنّ لديّ ساقًا أقصر من الأخرى. لكنّي لم أتناول أيّ شراب. هذا المساء في آنشون ترك فيَّ انطباعًا غريبًا.

قبالة المحطّة، أجد نُزُلاً صغيرًا. في العتمة، لا يمكنك معرفة كيفيّة بنائه. وفي الواقع، الغرف صغيرة جدًّا لدرجة أنّها تشبه أقفاصًا للحمام. أمّا سقوفها فمنخفضة لدرجة أنّ الرأس يكاد يرتطم بها. لا يمكن للمرء أن يجد فيها الراحة إلاّ إذا تمدّد على الفراش.

على امتداد الشارع، تتوزّع مطاعم فقيرة، أُخرجت طاولاتها إلى الرصيف، وهي مضاءة بمصابيح كهربائيّة تبهر الأبصار. الغريب في الأمر أنّه لا يوجد أيّ زبون. كلّ شيء لا يبدو على ما يرام هذا المساء، وآنف من هذه الحوانيت تلقائيًّا. على بعد عشرات الأمتار، يجلس زبونان أمام طاولة مربّعة. أذهب للجلوس قبالتهما وأطلب قصعة من شعيريّة الأرزّ الحارّ بلحم البقر.

الزبونان رجلان هزيلان، جافّان. أمام أحدهما دنّ معدنيّ مليء بالكحول، أمّا الآخر فقد وضع قدمه على المقعد. في يد كلّ منهما كأس صغيرة من الصلصال الرمليّ. لا يبدو عليهما أنّهما طلبا طعامًا. يمسكان بعيدان ويضعانها متلاصقة الأطراف. ثم يقول أحدهما: «قريدس!» فيجيبه الآخر «حمّالة!»، وتفترق العيدان دون أن يُعرف الرابح. إنّها في

الواقع علامة البدء بالشراب. وبعد التفكير مليًّا، يشبكان عيدانهما. يهتف أحدهما «حمّالة!» فيقول الآخر «كلب!»، وبالطبع تضرب الحمّالة الكلب. والذي قال «كلب»، هو الخاسر. عندئذٍ ينتزع الرابح سدادة الدنّ ويصبّ قليلاً من الخمر في كأس خصمه الخاسر الذي يفرغها جرعة واحدة وتُشبك العيدان من جديد ببعضها البعض. وسرعان ما يُخيّل إليّ أنّهما، بهدوئهما ورهافتهما، أشبه بهؤلاء الخالدين. لكن، عندما أتفحّصهما عن كثب، أرى أنّ وجه كلّ منهما عاديّ كسائر الوجوه، ومع ذلك، يخيّل إليّ أنّ الخالدين كانوا حتمًا يشربون بهذه الطريقة.

التهمت وجبتي المؤلّفة من شعيريّة الأرزّ بلحم العجل، ثم نهضت وابتعدت. لا أزال أسمعهما يتناديان بصوتيهما اللذين يرنّان رنينًا خاصًّا في هذا الشارع المقفر.

أصل إلى شارع قديم. من الجهتين تحفّ به بيوت متهالكة تصل سقوفها حتى منتصف الممرّ. يضيق الشارع كلّما تقدّمت فيه، تكاد السقوف تتلامس وتبدو على وشك الانهيار. أمام المنازل كلّها، وُضعت بسطات بضائع: زجاجات من الكحول وكريفون وفواكه مجفّفة، وأيضًا ملابس تتأرجح في الريح وكأنّها أشباح مشنوقين. يبدو الشارع وكأنّه لا نهاية له، يمتدّ حتى آخر العالم. لا بدَّ أنّ جدّتي لأمّي، التي لم تعد على قيد الحياة، قد اصطحبتني لأشتري بلبلاً. البلبل الذي كان يلهو به ابن الجيران أثار حسدي. لكن لم يكن بالإمكان شراء هذا النوع من الألعاب إلاّ في عيد الربيع. ففي الأيّام العاديّة، لم يكن يوجد منها في الأقسام المخصّصة للألعاب في المخازن. اضطررنا عندئذٍ للذهاب إلى المعبد

الذي يحرس المدينة من الجهة الجنوبيّة. فبإمكاننا أن نجد بلابل. هناك، أُقيمت عروض للسعادين الماهرة وفنون حربيّة وبيعت لزقات من جلد الكلاب. أذكر أنّ المرّة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى هذا المكان كانت لشراء هذه اللعبة. الآن، مرّ وقت طويل على ذلك، ولم أعد ألعب بهذا الشيء الذي تتزايد سرعة دورانه كلّما فتلناه. لكن، في هذا الشارع، لا أحد يبيع البلابل. وعلى البسطات لا تزال البضائع نفسها وجميعها تتنافس في التفاهة والرخص. أتساءل ترى من يشتري من هذه المخازن؟ هل هم باعة حقيقيّون؟ أليست لديهم مهنة أخرى أكثر احترامًا. منذ بضع سنوات، كانت تلصق على أبواب المنازل أقوال للعجوز ماو طمعًا في إضفاء بعض التميّز على الواجهات. واليوم وبالطريقة نفسها، توضع بسطات البضائع أمام المنازل.

بعد لفٍّ ودوران كثيرين، أصل إلى شارع كبير. هذه المرّة إنّها مخازن رسميّة للدولة وجميعها مقفلة أصلاً. الباعة الحقيقيّون أخفضوا الستائر، فيما الناس في الشارع يواصلون التجوال. بطبيعة الحال، ما يلفت النظر انتشار الصبايا اللواتي يضعن أحمر شفاه، وينتعلن أحذية بكعوب عالية تصطفق على الرصيف؛ ويرتدين ألبسة ضيّقة مبرقشة تكشف عن أكتافهنّ وأعناقهنّ. ألبسة مستوردة من هونغ كونغ عن طريق المتاجرة غير المشروعة أو التهريب. ربّما لسن ذاهبات جميعًا إلى حانة ليليّة، لكنّهنّ يبدون وكأنّهنّ على موعد غراميّ.

عند مفترق الطريق، يزداد الناس عددًا. والمدينة بأكملها تبدو وكأنّ سكّانها احتشدوا في هذا المكان. يمشي الجميع صراحة في وسط الشارع

المقفر من السيّارات. لكأنّ هذه الجادّة الفسيحة أُنشئت فقط من أجلهم. حين رأيت المساحة التي يحتلّها مفترق الطرق هذا والطراز المعماريّ للبيوت، تساءلت هل أكون وصلت إلى «المفترق الكبير». غالبًا ما يطلق هذا الاسم على وسط المدن في النجود العالية. ومع ذلك، وخلافًا للشارع التجاري الضيّق المُنار بكلّيّته، يبدو هذا المكان غارقًا في الظلمة. هل لنقص في الكهرباء أم بسبب إهمال مندوب الإنارة لحظة التبديل؟ يستحيل معرفة ذلك. لكي أقرأ إحدى اللافتات المرفوعة في الشارع عليّ الاقتراب من منزل ينبعث منه الضوء.

وبالفعل، هذا هو «المفترق الكبير»، وسط المدينة حيث تُقام الاحتفالات الرسميّة والتظاهرات.

على الرصيف، أسمع في الظلمة أصوات رجال تضاعف من فضولي. أقترب لإلقاء نظرة فأرى الناس جالسين متلاصقين عند أسفل الجدار. وإذ أنحني لأراقبهم عن كثب، ألاحظ فقط أنّهم مسنّون. ثمّة مئات منهم لكن لا يبدو عليهم إطلاقًا أنّهم متظاهرون يعتصمون في أحد أركان الشارع بل يضحكون ويغنّون. أحدهم يسند إلى ساقيه المكسوّتين بقطعة قماش كمنجة ذات وترين، غير مدوزنة، مبحوحة الصوت. هذا الموسيقيّ العجوز يشبه إسكافيًّا يُعيد تسمير نعليه. بالقرب منه، رجل عجوز متّكئ إلى الجدار ينشد دون كلل أحد الألحان. «يقظات اليوم الخمس». يغنّي عن امرأة عاشقة تنتظر بشغف عشيقها الجحود، فيما يُصغي إليه صفّ من العجائز منبهرين. ليس هناك رجال عجائز فقط، بل نساء مسنّات أيضًا، كالأخيلة متكوّمات على أنفسهنّ، سعالهنّ يتردّد

عاليًا وكأنّه خارج من شخوص الورق الجنائزيّة. البعض يتحدّثون برقّة، بصوت يشبه الهذيان وكأنّهم يتحدّثون مع نفوسهم. ثم تنطلق ضحكات تدوّي ردًّا على هذه الأحاديث. أرهف السمع، فأدرك أنّ عجوزًا يتغزّل بامرأة عجوز: «كم من المرّات جمعت الحطب يا أخي الكبير؟» فيجيبها كما في أغاني الجبليّين التي تُغنّى بصوتين: «كم من الأحذية طرّزتها يداك يا أختي الصغيرة؟». يستغلّون، ولا شكّ، ظلمة الليل لكي يحوّلوا هذا المفترق الكبير إلى ساحة أغانٍ شبيهة بتلك التي كانوا يتردّدون إليها في أيّام الشباب. ربّما كانوا يأتون إلى هنا في ما مضى ليتبادلوا أحاديث الغزل. عجوزان ينشدان أغاني حبّ وآخرون يثرثرون ويضحكون. لا أفهم ماذا يقولون ولا ما الذي يدفعهم إلى الضحك. يرسلون من أفواههم الدرداء صفيرًا لا يفهمه إلاّ هم فقط. لكأنّني في حلم. لكنّي أراقب كلّ شيء من حولي: الناس الذين يحيطون بي أحياء فعلاً. أقرص نفسي من فوق بنطالي وأشعر بالألم نفسه كالعادة. كلّ شيء حقيقيّ. أنا موجود فعلاً في هذه النجود العالية. أتيت من الشمال وأنا الآن في الجنوب، وغدًا سوف أستقلّ أوّل حافلة للمسافات الطويلة عند الصباح لأذهب أبعد فأبعد جنوبًا، إلى هوانغ غوشو. وهناك، عند مساقط المياه، سأغتسل علّني أزيل عنّي هذا الشعور الغريب، فلا أشكّ ثانية لا بحقيقة المكان ولا بنفسي.

على الطريق باتّجاه مساقط المياه في هوانغ غوشو. وهناك عند مساقط المياه أمرّ أوّلاً بلونغ غوان. مركب ترفيه ملوّن يطفو على صفحة الماء الملساء كمرآة لا يُسبر غورها. ومن دون تفكير، تدافع المسافرون للصعود على متن المركب. لا يبدو أنّهم لاحظوا المغارة

الموجودة إلى جانب الجرف القاتم الوعر. عندما يقترب القارب منها، تبدأ صفحة الماء الملساء بالهدير وتتدفّق بكلّ اندفاع باتّجاهه. ندرك مدى خطورة الاقتراب من مساقط الماء هذه حين نلتفّ حول الجبل. أحيانًا يقترب المركب مسافة ثلاثة أمتار أو أربعة من المغارة وكأنّه يريد القيام بمغامرة أخيرة قبل أن يغرق في شقاء لامتناهٍ. كلّ شيء يدور تحت الشمس. وحين أجلس في المركب، لا أستطيع تمالك نفسي عن الشكّ بالحقيقة.

على طول الطريق، يدفع السيل المتعاظم مياهه المزبدة بنزق، الجبال المستديرة والسماء اللامعة تبهران الأبصار. سطوح المنازل بحجارتها المسطّحة تلمع تحت الشمس، حدود الأشياء واضحة كسلسلة رسوم ملوّنة تتخلّلها خطوط رهيفة. جالسًا في شاحنة تسير مرتجّة بأقصى سرعتها على الطريق، أشعر أنّني أحلّق بكلّ جسدي، ولا أعرف إلى أين سيأخذني طيراني، ولا أعرف عمّ أبحث.

الفصل الثالث والعشرون

تقول إنّك حلمت لتوّك وأنت نائم فوقها. قالت، صحيح، منذ قليل، كانت لا تزال تتحدّث إليك ولم تكن نائمًا. تقول إنّها كانت تداعبك وفيما كنت تحلم، جسّت نبضك منذ أقلّ من دقيقة. تقول، هذا صحيح، كلّ شيء كان لا يزال واضحًا، وكنت تشعر بعذوبة نهديها وتسمع صوت أنفاسها. تقول إنّها ضمّتك ولمست نبضك. تقول إنّك رأيت صفحة البحر السوداء ترتفع، الصفحة المسطّحة بشكل كامل، رأيتها ترتفع ببطء، بطريقة مخيفة فيختفي الخطّ بين السماء والأرض وتحتلّ المساحة السوداء المدى كلّه. تقول إنّك نمت ملتصقًا بصدرها. تقول إنّك شعرت بنهديها الصغيرين يرتفعان كأمواج عالية سوداء متعاظمة، وارتدّت عليك لتلتهمك، فشعرت عندئذٍ بشيء من القلق. تقول، كنت مستلقيًا فوق صدري كطفل وديع. وحده نبضك تسارع. تقول إنّك تشعر بضيق ما، وإنّ هذا المدّ الذي يعلو والجزر الذي ينبسط بطريقة تبعث على الغثيان، أصبحا مساحة هائلة مسطّحة من الماء تدفّقت نحوك، دون أن تحدث تموّجات، وإنّما كانت ملساء وزلقة مثل حرير أسود ينبسط إلى ما لا نهاية، تسيل دون أن يعترض طريقها شيء، ثم تتحوّل إلى شلاّل ماء

أسود ينهال من منبع غير مرئي متدفقًا من علوّ شاهق إلى هاوية لا قرار لها، دون أن يصادف في طريقه أيّ عائق. تقول: أنتَ حقًّا غبيّ، دعني أداعبك. تقول إنّك رأيت هذا الأوقيانوس الأسود بأمواجه الدافقة، هذه المساحة التي ارتفعت لتحتلّ المدى كلّه دون أن يعترض سبيلها شيء. تقول، كنتَ مستلقيًا فوق صدري أنا التي احتضنتك بقوّة بين ذراعيّ، غمرتك بعطري، كنت عارفًا أنّهما نهداي، أنّ نهديّ هما اللذان انتفخا. تقول لها لا. تقول لك بلى، أنا من ضممتك، جسست نبضك المتزايد سرعة. تقول إنّ إنقليسًا كان يسبح وسط هذه الأمواج السوداء العاتية. إنقليس رطب وزلق كالبرق لكنّ الموجة السوداء لم تلبث أن التهمته. تقول، رأتها الموجة السوداء وشعرت بها. وفي ما بعد، بعد انخساف الموجة، لم يبق إلاّ الرملة التي لا حدّ لها، إنّه مدى هائل أملس من حبيبات الرمل. وبالضبط، بعد انحسار الأمواج، لم يبقَ إلاّ الفقّاعات. وحينئذٍ رأيت أجسادًا بشريّة سوداء، جاثية، زاحفة، متلوّية معًا، متنابذة، ومن ثم متشابكة من جديد، متواجهة في صمت مطلق مُحقت فيه الريح على الرملة الشاسعة عند شاطئ البحر، متداخلة في ما بينها، منتصبة، متهاوية، رؤوسها وسيقانها وأذرعتها وأقدامها متشابكة بطريقة لا تُفصم عراها. حتى إنّكَ لتخالها أفيال بحر، لكن ليس تمامًا، متدحرجة، منتصبة، متهاوية، متدحرجة من جديد ومن جديد منتصبة ومتهاوية. تقول إنّها شعرت بما يجري في داخلك. بعد خفقان عنيف، هدأ نبضك واستكان ثم عاد الخفقان بطريقة متقطّعة ثم هدأ من جديد. شعرت بذلك كلّه. تقول إنّك رأيت أجساد حيوانات بحريّة بهيئة بشريّة، أو أجسادًا بشريّة بهيئة حيوانات، أجسادًا سوداء، ملساء، ملتمعة قليلاً كحرير أسود،

كفرو برّاق، تتلوّى، ما تكاد توشك على السقوط حتى تنتصب من جديد، تتدافع دون توقّف، متشابكة إلى حدّ التيه، يستحيل القول إنّها تتعارك أو تتقاتل، لا هبّة ريح، تتدافع هذه الأجساد وتتلوّى في صمت مطلق. تقول إنّه كان نبضك، وإنّه هدأ بعد خفقان عنيف ليعود تسارعه أشدّ عنفًا ثم يهدأ من جديد. تقول إنّك رأيت أجساد الحيوانات الملساء والسوداء هذه ذات الهيئة البشريّة أو هذه الأجساد البشريّة ذات الهيئة الحيوانيّة، الملتمعة بضوء واهن، كمثل حرير أسود، مثل فرو لمّاع، المتلوّية والمتدحرجة والمتشابكة بطريقة لا تُفصم عراها، بلا توقّف، ببطء، بسكون، متصارعة أو متقاتلة. رأيتها بوضوح كلّيّ، على الرملة الملساء في البعيد، رأيتها تتدحرج بجلاء تامّ. تقول إنّكَ كنت تسند رأسك إلى جسدها، رأسك الملتصق بنهديها كطفل مستكين، كان جسدك متعرّقًا. تقول إنّك حلمت للتوّ، مضطجعًا فوقها. تقول إنّه لدقيقة خلت، كانت تستمع إلى تنفّسك، تقول إنّك رأيت كلّ شيء بوضوح، رأيت صفحة البحر السوداء ترتفع ثم تسيل ببطء قاهر، وأحسست بشيء من القلق. تقول إنّك طفل غبي، لا تفقه ولا تبصر شيئًا. لكنْ أنت، تقول إنّك رأيت كلّ شيء جليًّا واضحًا، رأيتها تتدفّق على هذا النّحو، محتلّة المدى كلّه تلك الموجة العاتية السوداء اللامتناهية، تتدفّق محتومة، صمّاء، ملساء كحرير أسود منبسط ثم تسيل كشاغور، أسود أيضًا، دون تموّجات، دون زبد، منقضّة باتّجاه هاوية لا يُسبر غورها، رأيت كلّ شيء. تقول إنّها كانت تشدّك إلى صدرها، وإنّ ظهرك كان مغمورًا بالعرق. هذا الجدار الأسود العموديّ المنزلق المتساقط أشعرك بالقلق، ومغمضًا عينيك، رغمًا عنك، ظلّ شاخصًا أمام عينيك، لكنّك تركته يسيل دون أن يكون

في وسعك احتواؤه. رأيت كلّ شيء لكنّك لم ترَ شيئًا، هذا البحر المنحني. تدفّقت واستويت من جديد، البهائم السوداء تتصارع وتتقاتل وتتلوّى دون توقّف على الرملة المقفرة التي لا يعكّر هدوءها ريح. أسنَدَتْ رأسك إلى صدرها، لا زالت هذه التفاصيل البسيطة محفورة في ذاكرتك لكنّك لا تستطيع استرجاعها. تقول إنّها تريد من جديد. أن تجسّ نبضك، تريد ذلك، وتريد أيضًا أن تعاين هذه البهائم المتوحّشة بوجوهها البشريّة، المتلوّية، تريد مشاهدة هذه المعركة الصامتة والأجساد المتشابكة الملتحمة كما في مقتلة متنقّلة على الرملة الملساء، لم يبقَ إلاّ الفقاعات، تريد أن تجسّ نبضك ولا تزال تريده. ترى عندما ينحسر هذا المدّ الأسود، فماذا سيتبقّى على الرملة؟

الفصل الرابع والعشرون

إنّه قناع حيوان بوجه بشريّ منحوت في الخشب. قرنان في قمّة الرأس وآخران أصغر حجمًا على الجانبين. لا يمكن للحيوان أن يمثّل عجلاً أو خروفًا داجنًا. لا بدّ أنّه حيوان متوحّش إذ ليس في هذا الوجه الغريب والشيطانيّ أيّة عذوبة ولا فيه ما يشبه الأيّل. مكان العينين، فجوتان مستديرتان واسعتان تزنّرهما حوايا. تحت كلّ حاجب، حُفر شطب عميق. الجبين محدّب والرسوم المحفورة فوق الحاجبين تظهر محجري العين. العينان متربّصتان شرًّا كعيني حيوان ضارٍ في مواجهة ضحيّته من البشر.

فوق الفجوتين السوداوين للمحجرين الناتئين، يُفترض بأجفان ذلك الذي يرتدي القناع أن تقدح شررًا كنظرة الحيوان المتوحّش. والهلالان بطرفيهما الحادّين المجوّفين تحت العينين، يزيدان من قساوة النظرة. الأنف والفم والخدّان والفكّ الأسفل مرسومة بشكل تامّ. فم العجوز أدرد، والنقرة في الذقن نفسها لم تُنسَ. البشرة متيبّسة والخدّان ناتئان. ملامح الوجه واضحة وقويّة. وجه عجوز، لكنّه ينضح بالقوّة والصلابة. عند زوايا الشفتين برزت سنّان معوجّتان حادّتان تنتصبان على جانبي الأنف.

المنخران أفطحان يوحيان بالسخرية والاحتقار. الأسنان تساقطت ليس جرّاء الشيخوخة، بل لأنّ أسنانًا معوجّة وُضعت مكانها. عند زاوية الشفتين المزمومتين، حُفرت فجوات صغيرة لتخرج منها شوارب نمر. هذا الوجه البشري، الذي ينمّ عن ذكاء فائق مطبوع في الوقت نفسه بوحشيّة إلهيّة.

لدى مراقبة أرنبتي الأنف وزوايا الفم والشفتين والخدّين والجبين ومفرق الحاجبين، يظهر مدى معرفة النحّات التامّة بمورفولوجيّة الهيكل العظمي للوجه البشريّ وعضلاته. وحدها محاجر العيون وقرون الرأس مبالغ فيها، فيما هيئة عضلات الوجه تخلق نوعًا من التوتّر. لولا شاربا النمر، لبدا هذا الوجه شبيهًا بوجه إنسان بدائيّ، موشوم، معرفته عن نفسه وعن الطبيعة محتواة كلّها في الفتحتين السوداوين لمحجري عينيه المستديرتين. أمّا الفجوتان عند زوايا الشفتين فتعبّران عن نفور الطبيعة إزاء الإنسان وكذلك عن الاحترام الذي يكنّه الإنسان لها. يعكس هذا الوجه بشكل تامّ خوف الإنسان من وحشيّة أقرانه وخوفه من نفسه بالذات.

ليس بوسع الإنسان أن يخلع عنه هذا القناع. إنّه انعكاس لجسده وروحه. ملتصق بجلده ولا يسعه أبدًا التحرّر منه. لكنّه مستغرق في دهشة عميقة، وكأنّه لا يستطيع التصديق أنّ الأمر متعلّق به. يستحيل عليه انتزاع القناع وهذا يسبّب له عذابات هائلة. ما إن يلبسه حتى يستحيل عليه انتزاعه لأنّه منوط به؛ ليس لديه إرادة شخصيّة، وحتى لو كانت لديه، لا يملك وسيلة للتعبير عنها ويفضّل عدم إظهارها. القناع صورة إنسان يتأمّل بنفسه بشكل أبديّ، وهذا يزيده عجبًا ودهشة.

إنّه تحفة فنيّة. وجدته في أحد متاحف غويانغ. آنذاك، كان المتحف مقفلاً بسبب أعمال الترميم. زوّدني بعض الأصدقاء برسالة توصية، وأجرى آخرون اتّصالات هاتفيّة لأجلي متوسّلين كافّة الذرائع، وبفضلهم استطعت إقناع حافظ المتحف، وهو مسؤول لطيف، ممتلئ الجسم يحمل في يديه دومًا فنجانًا من الشاي. أظنّ أنّه أُحيل الآن إلى التقاعد. أمرهم بأن يفتحوا لي مخزنين، وسمح لي بالتنزّه بين الرفوف المليئة بالأدوات البرونزيّة والأسلحة وجميع أنواع الخزفيّات. كان الأمر رائعًا ولا شكّ، لكنّي لم أجد هناك شيئًا يمكن أن يرسّخ في ذاكرتي ذكرى مستديمة. مستغلاً تجاوبه معي، عدت إلى المتحف من جديد. أسرَّ لي أنّ مخازنهم مزدحمة بالمحفوظات ولكنّه لا يعرف تمامًا ما الذي أرغب في رؤيته. الأفضل أن يترك لي الكاتالوغ حيث كلّ قطعة مرفقة بصورة صغيرة. إلى أن عثرت أخيرًا على هذا القناع «نوو» الموضوع بين المعروضات الخاصّة بالدين والشعوذة. قال لي إنّ هذه الأغراض لم تُعرض إطلاقًا، وإذا كنت راغبًا في رؤيتها، فيتوجّب عليّ بداية أن أتقدّم بطلب خاصّ مدوّن على عدد من الأوراق الرسميّة. عندما عدت للمرّة الثالثة، أخرج حافظ المتحف اللطيف، من أجلي، حقيبة ضخمة، وراح يخرج الأقنعة واحدًا تلو الآخر وأنا أراقبه فاغر الفم مشدوهًا.

كان هناك عشرون قناعًا صودرت في الخمسينيّات، بصفتها أدوات للشعوذة. أتساءل من الذي قام بهذا العمل الخيّر لأنّه بهذه الطريقة صانها من خَطَرٍ جعلها حطبًا للتدفئة، وأنقذها من براثن الثورة الثقافيّة. وبحسب تقدير أحد علماء الآثار، فإنّ هذه القطع ترقى إلى نهاية عهد تشينغ. الألوان اختفت عنها كلّها. وحدها بقيت آثار اللكّ التي اسودّت وفقدت

بريقها. على البطاقات تنويه بمصادرها. مقاطعات هوانغ بنغ وتيانتشو على المجرى العلويّ لنهري وو شوي وتشينغ شوي، وهي منطقة تسكنها سلالات **هان** وميا**و** و**تونغ** و**توجيا** فذهبت إليها.

الفصل الخامس والعشرون

في ضوء الصباح البرتقالي، تبدو ألوان الجبال صافية نضرة. الهواء صافٍ وشفّاف. لا يبدو عليك أنّك أمضيت ليلة أرق، رقدت إلى جانب فتاة، محتضنًا كتفها الناعمة ورأسها المسند إليك. لا تعرف ما إذا كانت هذه الفتاة هي ذاتها التي رأيتها في الحلم هذه الليلة، لم تعد تميّز الحقيقيّة منهما عن الأخرى. كلّ ما تعرفه حاليًّا أنّها تتبعك بهدوء دون الاهتمام بوجهتك النهائيّة.

عندما سلكت هذه الدرب الجبليّة بعد تسلّقك المنحدر، لم تكن تظنّ أنّك ستصل إلى نجد واسع تتخلّله حقول تمتدّ جلولها إلى ما لانهاية. أمامك ينتصب عمودان كانا في ما مضى المدخل الرئيسيّ. واضطجعت على الجانبين حطام أُسود ومدقّات[1] حجريّة. تقول إنّ عائلة ذات شهرة كبيرة عاشت هنا قديمًا. بعد اجتيازك الرواق المعمّد، توالت الباحات الواحدة تلو الأخرى. لا بدّ أنّ طول الدّارة كان يبلغ «لي»، لكن لا يوجد الآن إلاّ حقول الأرزّ.

---

(١) مدقّات: قواعد أسطوانيّة لساق عمود

كلّ شيء احترق عندما تمرّد التايبينغ وجاؤوا من بلدة ووبي، أليس كذلك؟ تعمّدت طرح هذا السؤال.

تقول إنّ الحريق نشب في ما بعد. قديمًا، كان السيّد الثاني حفيد ابن العائلة البكر، موظّفًا إمبراطوريًّا كبيرًا. عُيّن رئيسًا للحكومة المشرفة على تنفيذ الأحكام الجزائيّة. لكنّه اتُّهم في أنّه متورّط في قضيّة إتجار غير مشروع بالملح. وبدل القول بأنّه انتهك القانون طمعًا في رشوة، من الأفضل القول إنّ الإمبراطور، لغبائه، صادق على الاتّهامات الكاذبة التي لفّقها الخصيان، فنسب إليه تورّطه في مؤامرة تحوكُها عائلة الإمبراطورة للاستيلاء على العرش. فصُودرت جميع أملاكه وقُطعت رؤوس جميع أفراد عائلته. ومن بين الثلاثمائة نسمة الذين كانوا يسكنون هذا القصر الهائل، قُضي على جميع الذكور وحتى الأطفال الذين لا تتعدّى أعمارهم السنة. وأُخذت النساء كخادمات. هذا بالضبط ما يُسمّى القضاء على الذرّيّة، وإلاّ كيف أمكن لهذا القصر أن يدمَّر عن بكرة أبيه.

كان بإمكانك أن تخبر هذه القصّة بطريقة مختلفة. استنادًا إلى مجموعة الآثار التي تشكّلها سلحفاة الحجر السوداء هذه شبه المحطّمة المنبثقة من الأرض. وهذه الأبواب والأسود الحجريّة والقواعد الأسطوانيّة لسيقان الأعمدة، يجدر القول إنّ المكان لم يكن في ما مضى قصرًا عائليًّا بل قبرًا بالأحرى، بالطبع نظرًا لممرّه البالغ «لي» طولاً؛ لا بدّ أنّه كان قبرًا مهيبًا. لكن بات أمرًا متعذّرًا إثبات وجوده اليوم. المسلّة الطالعة من ظهر السلحفاة الحجريّة نقلها أحد المزارعين أيّام الإصلاح الزراعي وحُوّلت إلى حجر رحى، فيما الأعمدة الأخرى طُمرت في

أمكنتها لأنّ حجمها يحول دون إعادة استعمالها ويتطلّب يدًا عاملة كثيرة لنقلها. لكن من دُفن فيها ليس رجلاً من عامّة الشعب، بالطبع، ولا أحد نبلاء الريف فهو لم يكن ليجرؤ على إحاطة نفسه بهذا الترف مهما اتّسعت الأراضي التي يملكها. وحدهم الأمراء والوزراء تُقام لهم هذه القبور.

الرجل الذي نتحدّث عنه بالضبط هو أحد مؤسّسي الدولة، وهو الذي طارد التتر عقب تمرّد تشو يوانتشانغ. حارب طويلاً لدرجة أنّ أحدًا من رجاله لم يمت حتف أنفه. ووحدهم هؤلاء الذين يحقّقون إنجازات استثنائيّة بوسعهم أن يحظوا بجنازة مهيبة حين يموتون في أسرّتهم. وبالطبع رأى ساكن القبر أنّ الجنرالات القدامى المساندين للإمبراطور يلقون حتفهم الواحد تلو الآخر. وإذ روّعه الخوف من الصباح حتى المساء، تجرّأ أخيرًا على تقديم رسالة استقالته إلى الإمبراطور. كتب يقول له: «الآن، يعمّ السلام البلاد، والشعب مستكين. لذا فإنّ رحمة الإمبراطور لا حدود لها. الوزراء والجنرالات يسارعون إلى المثول أمام حضرته. أمّا أنا، الوزير الحقير، الذي لا موهبة له، فقد بلغت الخمسين من عمري ولديّ أمّ عجوز أرملة تضني نفسها بالعمل وتعيش وحيدة في منزلها. لم يعد لي من العمر أكثر ممّا مضى، وأودّ العودة إلى مسقط رأسي لكي أسهر على خدمة أمّي قليلاً أنا أيضًا». عندما وصلت الرسالة بين يدي الإمبراطور، كان المسؤول الكبير قد غادر العاصمة الإمبراطوريّة. لم يستطع جلالته ابن السماء إلاّ التأسّف على خسارته وأمر بأن يُمنح هبة قيّمة. من جهة أخرى، رضي الإمبراطور بأن يوقّع

بيده قرارًا يُمنح بموجبه الحقّ لأن يوارى في مدفن عظيم بعد مماته فتمجّد الأجيال المقبلة فضائله من بعده.

إلاّ أنّ لهذه النادرة اختلافًا في الرواية، وهي بعيدة جدًّا عمّا ذُكر في كتب التاريخ. عندما رأى ساكن القبر العتيد أنّ الإمبراطور يقضي على الجنود القدامى بحجّة «إعادة النظر في سياسة البلاط»، تذرّع أنّه مضطرّ للرحيل للمشاركة في جنازة والده، فغادر منزله وانتقل إلى الريف. وفي ما بعد، تظاهر بالجنون وانعزل عن الناس. اعترت الإمبراطور الشكوك بشأنه ولم يكن مطمئنًّا. فبعث برسول اجتاز الجبال والأودية للوصول إليه لكنّه وجد بابه موصدًا. متذرّعًا بأنّه ينفّذ أوامر الإمبراطور، عمد إلى دخول المنزل عنوة. من كان يعتقد أنّ صاحبنا خرج يدبّ على أربعة أرجل وهو ينبح نباحًا مسعورًا؟ إلاّ أنّ المبعوث ظلّ على ارتيابه. انهال عليه بالشتائم وأصدر إليه الأمر، باسم الإمبراطور، بأن يرتدي ملابسه ويعود معه إلى العاصمة. راح الرجل يشتمّ براز كلب في زاوية الحائط ويلتهمه وهو يهزّ برأسه. عندئذٍ لم يجد الرسول سبيلاً إلاّ العودة إلى البلاط ويرفع تقريره إلى الإمبراطور. فتبدّدت شكوكه. بعد وفاة الرجل، أُقيمت له جنازة كبيرة. وفي الواقع، براز الكلب كانت قد أعدّته خادمته المفضّلة من طحين حبوب السمسم الممزوج بالسُكّر. لكن أنّى للإمبراطور أن يشكّ بذلك؟

هنا عاش أيضًا أديب من القرية كان يسعى إلى الشهرة والمجد. حين تقدّمت به السنّ وتجاوز الثانية والخمسين، سعى إلى الاشتراك في مباراة حلّ فيها ثانيًا على قائمة الناجحين. كان يترقّب كلّ يوم، نافد

الصبر، الفرصة التي يحظى فيها بمنصب. من كان يقول إنّ ابنته التي لا تزال عزباء راحت تغوي عديله الشابّ وحبلت منه في آخر المطاف. اعتبرت هذه الطفلة الغبيّة أنّ ترياق العجل يساعد على الإجهاض فأُصيبت بآلام حادّة في البطن دامت لشهرين. كانت تزداد هزالاً كلّ يوم فيما بطنها يُمعن في الانتفاخ. وأخيرًا، اكتشف ذووها الأمر فثارت ثائرة العائلة. لكي يُنقذ سمعته، اتّبع الرجل العجوز الطريقة التي ينتهجها الإمبراطور إزاء الوزراء، والأبناء المتمرّدين، فيأمر بقتلهم. لم يتورّع عن دفن ابنته المدنّسة بالعار في نعش من ألواح الخشب. ذاع الخبر بسرعة ووصل إلى عاصمة المقاطعة. كان رئيس المقاطعة يخشى دومًا أن يفقد منصبه كموظّف إمبراطوريّ كبير، ويقلق دومًا بسبب الممارسات الشائعة في هذه المنطقة والتي قلّما تكون تقليديّة فأراد أن يقدّم دليلاً على صدقه، ونقل القضيّة إلى مقرّ الولاية فرفعها بدوره إلى البلاط الإمبراطوريّ.

كان الإمبراطور منشغلاً بمحظيّاته، وأهمل منذ وقت طويل قضايا البلاط. ذات يوم، وقد انتابه شعور مميت بالضجر، أراد أن يتحرّى عن مشاعر الشعب تجاهه. عندئذٍ، أخبره الوزراء هذه القصّة النموذجيّة، فما كان منه إلاّ أن تنهّد وقال، بصفته رجلاً مفعمًا بالحسّ السليم: «تلك هي عائلة تعرف المعنى الفعليّ للطقوس». وسرعان ما أصبحت هذه الكلمات بمثابة أمر ملكيّ وبلغت مقرّ الولاية. وهناك أضاف عليها العمدة الملاحظة التالية: يجب أن تدوّن هذه الواقعة فورًا على لُويح وتُذاع بين أفراد الشعب كلّه دونما إبطاء. ثم نُقل الأمر عبر البريد السريع حتى عاصمة المقاطعة، ولم يتورّع رئيس المقاطعة عن الصعود على محمل

برفقة رجاله الذين قرعوا الصنوج وهتفوا بالناس أن يتنحّوا على طول الطريق. وحين سجد المثقّف العجوز الفاسد لكي يتلقّى الأمر الصادر عن الإمبراطور أنّى له أن يتمالك دموع الشكر والامتنان؟ عندئذٍ أبلغه رئيس المقاطعة توصيات صارمة: «هذا الأمر الصادر عن ابن السماء يساوي أكثر من ألف أونصة ذهبًا. اذهب وابنِ بوّابة شرف على اسمه واحفره عليها كي لا يُنسى أبدًا. وهذا الحدث الرائع سيكون مدعاة فخر لأجدادك. وستهتزّ له الأرض والسماء ابتهاجًا!» اقترض العجوز عشرات الآلاف من ليبرات الأرزّ واستخدم قصّابي حجارة وأشرف على عملهم نهارًا وليلاً. وبعد ستّ سنوات، انتهى بناء البوّابة المنحوتة قبل موسم الشتاء. أولم العجوز لتدشينها وليمة كبرى ودعا إليها جميع جيرانه، وفي نهاية السنة احتسب المبلغ الذي أنفقه فوجد أنّه لا يزال مدينًا بأربعين أونصة من الفضّة ومئة وستّين قطعة ذهبيّة. وسرعان ما أُصيب بحمّى شديدة فاعتلّت صحّته، ولم يشفَ من علّته إلى أن توفّي قبل موسم البذر في الربيع.

لا تزال البوّابة التكريميّة منتصبة حتى اليوم عند مدخل القرية الشرقيّ، يستخدمها صغار الرعيان الكسالى ليربطوا إليها عجولهم، إلاّ أنّ الكتابة الأفقيّة بين العمودين لم ترق لرئيس اللجنة الثوريّة عندما جاء في مهمّة تفقّديّة في هذه الأرياف، وأمر أمين عام القرية أن يستبدلها

بالشعار التالي: «لتتمثّل الزراعة بنموذج داتشاي[١]». أمّا الحِكم المحفورة عموديًّا على العمودين: «منذ أوّل الأزمنة يتوارث الأبناء عن آبائهم الوفاء والتقوى». «إلى الأبد، سينتشر shijing، وshujing في أرجاء العالم»، فاستُبدلت بـ «ازرع الأرض وفاء لمبادئ الثورة، دون أنانيّة ولمنفعة الجميع». من كان يدري آنذاك أنّ نموذج داتشاي سيُطرح على بساط البحث وأنّ الأرض ستُعاد إلى المزارعين؟ اليوم، على قدر ما يعمل المرء بقدر ما تزداد ثروته. لا أحد يفهم معنى هذه الشعارات. ثم إنّ أجداد هذه العائلة جنوا جميعهم ثرواتهم عن طريق التجارة، فمن منهم لديه الوقت ليعود ويغيّر هذه الشعارات.

خلف البوّابة، أمام باب البيت الأوّل، تجلس امرأة عجوز وهي تسحق شيئًا ما في جرن خشبيّ. إلى جانبها كلب أصفر، يشتمّ الأرض في جميع الاتّجاهات. شهرت المرأة العجوز مدقّتها وأمطرت الكلب بالشتائم: «اذهب من هنا، اغرب عن وجهي!».

بعد كلّ تفكير، لستَ كلبًا، ثم تواصل السير باتّجاهها وتقول:

ـ حسنًا أيّتها العجوز، هل تصنعين فطيرة من الجبنة بالفلفل؟

ومن دون أن تجيبك، ترمقك بنظرة ثم تعاود طحن فلفلها الطازج.

---

(١) داتشاي: منذ ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٧، أعطي نموذج التنمية الزراعيّة في داتشاي في شانشي كمثل يُحتذى في كلّ البلاد، من قبل أنصار التأميم الزراعيّ الذين دعوا إلى تطبيقه تطبيقًا صارمًا. لكنّ هذا النموذج سيتمّ التخلّي عنه عندما أرسى دنغ شياوبينغ سياسة معارضة بشكل راديكاليّ.

ـ المعذرة، من فضلك، أثمّة مكان هنا يُدعى «صخرة الرّوح»؟

تعرف تمامًا أنّك عبثًا تسألها عن مكان بعيد بُعد جبل الرّوح. تشرح لها أنّك آتٍ من قرية تقع في الأسفل، قرية سلالة **مينغ**، وأنّ أحدهم حدّثك عن صخرة تُدعى «صخرة الرّوح».

تترك عملها وتتفحّصك، وفي الواقع تُجيل النظر في صديقتك خصوصًا، ثم تُدير رأسها وتسألك بالنبرة التي يُقال فيها سرّ كبير:

ـ هل تسعيان لإنجاب طفل، هل هذا ما تريدانه؟

تجذبك خلسة من يدك، لكنّك لم تفهم قصدها وتسألها:

ـ أيّة علاقة بين هذه الصّخرة والرّغبة في إنجاب طفل؟

هتفت بصوت حادّ:«أيّة علاقة؟ النساء هنّ اللواتي يتوجّهن دومًا إلى هناك لإحراق البخور عندما يرغبن في إنجاب صبيّ!».

وأخذت تقهقه كما لو أنّ أحدًا يدغدغها. ثم توجّهت إلى صديقتك بعدائيّة.

وهذه المرأة الشابّة تريد إنجاب صبيّ؟

تقول لها:

ـ نحن مسافران، ونمضي وقتنا في الانتقال من مكان إلى آخر.

ـ لكن ما الذي يجذبكما إلى هذا المكان بالذات؟ في الفترة الأخيرة، حذا حذوكما العديد من الناس حتى أثاروا الشكوك في نفوس أبناء القرية!

لم تتمالك نفسك من سؤالها؟

ـ وماذا أتوا ليفعلوا.

ـ كانوا يحملون علبة كهربائيّة تحدث زعيقًا يتردّد صداه في كلّ أرجاء الجبل. وعلى البيدر كانوا يتعانقون ويتنافسون في جعل أردافهم ترتجّ أثناء المشي. إنّه العار بعينه!!

ـ هكذا إذًا، هل كانوا يبحثون هم أيضًا عن جبل الروح؟

زاد اهتمامك بالموضوع أكثر فأكثر.

ـ بل قلْ جبل الشقاء! سبق وقلت لك، هناك تذهب النساء الراغبات في إنجاب صبيّ، ويحرقن البخور.

ـ ولمَ لا يستطيع الرجال الذهاب أيضًا؟

ـ إذا لم تكن تخشى النّحس، فبإمكانك الذّهاب. هل هي التي تمنعك من ذلك؟

تجذبك من يدك أيضًا، لكنّك أنت، تقول إنّك لا تفهم قصدها.

ـ ستلطّخ بلون الدم!

لا تعرف، هل تحذّرك العجوز أم تلعنك؟

ـ تقول إنّ ذلك محرّم على الرجال.

تريد هي أن تبرّر ما تقوله العجوز.

تقول لها إنّ ليس هناك أيّة محرّمات.

تهمس لك في أذنك وكأنّها تريد أن تحثّك على الرحيل:

ـ تقصد الكلام عن دم الحيض لدى النساء.

ـ دم الحيض لدى النساء؟ وإن يكنْ!!

تقول إنّه ما من مشكلة بينك وبين هذا الدم.

ـ هيّا نرَ ما أمر صخرة الروح هذه.

تقول لك إنّ هذا يكفي، إنّها لا ترغب في الذهاب إليها. تسألها عن سبب خوفها، فتجيبك أنّها خائفة من كلمات المرأة العجوز.

تقول لها:

ـ كيف بإمكانك أن تتأثّري بأقوال تلك المرأة؟ هيّا نذهب.

وتسأل العجوز عن الطريق.

ـ هذا سيّئ، سوف تستحضر الشياطين.

المرأة العجوز خلف ظهرك. إنّ كلامها أشبه باللعنات.

تقول إنّها خائفة، وإنّ لديها شعورًا ينبئها بالسوء. تسألها هل هي خائفة من أن تلتقي بساحرة. وتضيف قائلاً لها إنّ جميع النساء العجائز في هذه القرى الجبليّة هنّ ساحرات، وأمّا الصبايا فثعلبات.

تسألك:

ـ وهل أنا أيضًا ثعلبة؟

ـ ولم السؤال؟ ألست امرأة؟

ـ وأنت، أنت شيطان! تقول لك على سبيل التشفّي.

ـ في نظر النساء، جميع الرجال شياطين.

ـ أنا برفقة شيطان إذًا؟ تسألك وهي ترفع رأسها نحوك.

تقول:

ـ الشيطان يصطحب الثعلبة!

فتسترسل في ضحك متواصل. لكنّها تعود وتتوسّل إليك مجدّدًا بألاّ تذهب إلى هناك.

تتوقّف وتسألها:

ـ وماذا سيحصل لو ذهبنا؟ هل سنتسبّب بالشقاء لأنفسنا؟ هل ستحلّ بنا كارثة؟ ما الذي تخشينه؟

التصقت بك، تقول إنّها تشعر معك بالأمان. لكنّك تلاحظ أنّ غمامة تعبر في داخلها. تحاول تبديد هواجسها وأنت تتحدّث بصوت عالٍ.

الفصل السادس والعشرون

لا أعرف إن كنت قد فكّرت في هذا الشيء الغريب الذي يُدعى الأنا؛ فهو يتغيّر بقدر ما تراقبه، كما حين تشخص بنظرك إلى الغيوم في المساء، وأنت متمدّد فوق العشب. في البداية، تشبه الغيوم حَمَلاً ثم امرأة، وأخيرًا تتحوّل إلى عجوز ذي لحية طويلة. لا شيء ثابتًا مع ذلك لأنّها تغيّر شكلها في لمحة بصر.

الأمر أشبه بدخولك إلى المرحاض في بيت قديم، ومراقبتك للجدران الملطّخة. تذهب إليه كلّ يوم، لكنّ الآثار، رغم قدمها، تتغيّر في كلّ مرّة. في المرّة الأولى، تلمح وجهًا بشريًّا ثم كلبًا ميتًا وقد خرجت أحشاؤه من جوفه. في المرّة التالية، تتحوّل الغلمة إلى شجرة تحتها فتاة تعتلي حصانًا هزيلاً. بعد عشرة أو خمسة عشر يومًا، أو ربّما بعد بضعة أشهر، تكتشف فجأة، ذات صباح أُصبت فيه بالإمساك، أنّ آثارًا تتّخذ من جديد شكل وجه بشريّ.

ممدّدًا على سريرك، تنظر إلى السقف. ترى السقف؛ الأبيض يتحوّل هو أيضًا إلى لون آخر بفعل الظلّ الذي يحدثه المصباح. إذا وجّهت اهتمامك إلى أناك لاحظت أنّها تبتعد شيئًا فشيئًا عن الصورة

المألوفة لديك، فتتكاثر وترتدي وجوهًا تفاجئك، لأجل هذا ينتابني رعب لا حدود له إذا توجّب عليّ التعبير عن الطبيعة الجوهريّة لأناي. لا أعرف أيًّا من وجوهي المتعدّدة يمثّلني على أفضل وجه. وكلّما راقبتها، بدت لي التحوّلات أكثر جلاء. وفي النهاية، وحدها الدهشة ترسخ في الذهن.

بوسعك الانتظار، الانتظار حتى تعود آثار الماء على الجدران إلى شكلها الأصليّ، أن تعود من جديد وجهًا بشريًّا. بوسعك أيضًا الأمل، الأمل بأن تأخذ صورتك يومًا هذا الشكل أو ذاك. لكنّ التجربة أثبتت لي أنّه كلّما مرّ الوقت تضاءل نموّ هذه الصورة وفق رغباتك، لا بل إنّها، خلافًا لذلك، تصبح ممسوخة في الغالب. لا يعود بإمكانك تقبّلها والانفصال عن أناك، لكنّك في النهاية تُرغَم على تقبّلها.

ذات يوم، راقبت صورتي الملصقة على البطاقة التي تُجيز لي ركوب الباص، وكانت موضوعة على الطاولة. للوهلة الأولى، طالعتني ابتسامتي الخفيفة الظريفة على الأرجح، لكنّي، في ما بعد، وجدتها أقرب إلى أن تكون ساخرة ومتعالية وباردة، وتنمّ عن عنفوان ممزوج بالحدّ الأقصى من الرضى الذاتيّ. تقول ابتسامتي إنّي أعتبر نفسي شخصًا متفوّقًا. والحقّ أنّني لمحت فيها شيئًا من التصنّع الممتزج بتعابير الوحشة الدائمة والخوف المتفاقم. ليس في وجهي ما يوحي إطلاقًا بالانتصار، بل تُستشفّ فيه المرارة، وليست تلك الابتسامة الغامضة المعهودة النابعة من السعادة العفويّة، بل هي بالأحرى تنمّ عن الارتياب إزاء السعادة.

والشعور الذي يمنحه هذا الارتياب يُشيع بعض الخوف، لا بل يبدو عبثيًّا. إنّه أشبه بالسقوط في الفراغ. لم أشأ النظر إلى هذه الصورة من جديد.

ثم، في ما بعد، راقبت الآخرين. ولدى قيامي بذلك، أيقنت أنّ هذه الأنا الكريهة والكلّيّة الحضور تُدخل أنفها في مراقبتي إيّاهم أيضًا، ولا يمكنها التزام جانب الحياد إزاءهم. وجدت الأمر بغيضًا. حين أراقب شخصًا آخر، أواصل مراقبتي نفسي بالذات. أفتّش عن وجوه أحبّها أو عن تعبير يمكنني استساغته. إذا لم ألتقِ بوجه يمسّني، إذا لم أستطع إيجاد أُناس يمكنني التماهي معهم، بين هؤلاء الذين يعبرون أمامي، كنت أراقبهم والحالة هذه دون أن أراهم. سواء كنت في قاعة انتظار، في حافلة قطار، أو على جسر سفينة، أو في مطعم صغير، أو في حديقة عامّة، أو سواء كنت أتنزّه في الشارع، لا أركّز إلاّ على الوجوه والأطياف التي أجدها أليفة لنفسي، والتي أبحث فيها عن ملمح من شأنه إيقاظ ذكرى هاجعة فيَّ. عندما أتأمّل الآخرين، أرى فيهم مرايا تعكس صورتي بالذات. وهذا التأمّل منوط كليًّا بمزاجي الفكريّ أو الآنيّ. حتى عندما أنظر إلى فتاة يافعة، أحاول إدراكها بحواسّي بالذات، وأتخيّلها عبر تجربتي بالذات قبل إصدار حكم بشأنها. إنّ إدراكي الآخرين، بمن فيهم النساء، أمر سطحيّ وكيفيّ. فالنساء، في نظري مجرّد أوهام خلقتها بنفسي وأستخدمها لكي أخدع نفسي. وهذا يحزنني، وهذا ما يجعل علاقاتي بالنساء تفضي دومًا إلى فشل ذريع. والعكس صحيح، لو كنت امرأة لشقّ عليَّ أيضًا، وبالمقدار نفسه، أن أُقيم علاقة بالرجال. المشكلة تكمن في الوعي الداخليّ لأناي، هذا المسخ الذي يعذّبني بلا توقّف.

العنفوان، التدمير الذاتيّ، التحفّظ، التباهي، الرضى، الحزن، الغيرة، الحقد، كلّ هذه المشاعر ناتجة عن ذاتي. الحقّ أنّ الأنا مصدر شقاء البشريّة، فهل يتوجّب عليّ، لأتجنّب هذا الشقاء، أن أقضي على أناي الواعية.

هاك السبب في أنّ بوذا دعا إلى اليقظة: جميع الصور أوهام وغيابها أيضًا وهمٌ وخداع.

الفصل السابع والعشرون

تقول إنّها ترغب فعلاً في الرجوع إلى طفولتها. حينها لم تعرف الآلام ولا المشاكل. كلّ صباح، كانت جدّتها لأمّها تضفّر لها شعرها قبل الذهاب إلى المدرسة. كانت ضفيرتاها طويلتين لامعتين لا مشدودتين ولا مرخيّتين. كان الجميع يقولون إنّهما جميلتان جدًّا. عند وفاة جدّتها، جعلت شعرها قصيرًا جدًّا، تعمّدت قصّه كعلامة احتجاج، ولم يكن باستطاعتها أن تسرّحه على طريقة الحرس الأحمر برفع الشعر خصلتين صغيرتين مربوطتين. آنذاك، كانت الشرطة تحقّق مع والدها؛ فُصل عنهما هي ووالدتها واحتُبس في المبنى الكبير حيث كان يعمل. حُظّرت عليه العودة إلى المنزل، وكانت والدتها، كلّ خمسة عشر يومًا، تستبدل بثيابه المتّسخة أخرى نظيفة، لكن لم يُسمح لها قطّ بالذهاب لرؤيته. وفي ما بعد، طُردت هي وأمّها إلى الريف وجُرّدت من أهليّتها في أن تصبح من الحرس الأحمر. تقول إنّ أسعد حقبة في حياتها هي عندما كانت جديلتاها طويلتين. كانت جدّتها تشبه هرّة عجوزًا، وتنام دومًا إلى جانبها فتشعر بالكثير من الاطمئنان. تقول إنّها باتت اليوم عجوزًا، إنّ قلبها عجوز، ولم تعد الأحداث الصغيرة قادرة على إيقاظ مشاعرها بسهولة.

في ما مضى، كانت تندفع في البكاء لأتفه الأسباب. وكانت دموعها غزيرة نابعة توًّا من القلب، وتنهمر دون أيّ جهد يذكر. وكم كان ذرف الدموع مصدر راحة وتعزية!

تقول إنّها كانت لديها صديقة تُدعى لينغلينغ. تصادقتا منذ نعومة أظفارهما. كانت رائعة فعلاً بغمّازتيها اللتين تغوران في خدّيها المستديرين كلّما نظرت إليك. اليوم، أصبحت أمًّا متكاسلة، يتميّز صوتها بنبرة خاصّة، لكأنّها نعسة وهي تتباطأ في التلفّظ بالمقاطع الأخيرة من الكلمات. حين كانت لا تزال فتيّة، كان هذرها الدائم يجعلها أشبه بعصفور دوريّ. تقول أيّ شيء كان، دون أن تتوقّف لحظة، تقول إنّها تريد الخروج للتنزّه، إنّها كانت حزينة ما إن تمطر دون أن تعرف السبب، وإنّها ستخنقك، وفي الواقع، كانت تضغط على عنقك بعنف فتجعلك تسعل.

ذات مساء صيفي، جلستا على ضفّة بحيرة وراحتا تتأمّلان الليل. قالت إنّها كانت راغبة جدًّا في التمدّد على صدرها، فأجابت لينغلينغ أنّها تريد أن تلعب دور الأمّ الصغيرة. أخذتا تتداعبان وهما تقهقهان، وقبل أن يطلع القمر، سألتك إذا كنت تعرف... كان الليل رماديًّا ضاربًا إلى الزرقة، وطلع القمر! آه أيّ ضياء كان ينساب من القمر، سألتك إذا سبق لك أن رأيت هذا المنظر، هذا الضياء الذي ينساب كالدوائر الأثيريّة ويغمر الأرض، وكأنّك في مواجهة زوبعة من الضباب. تقول إنّهما سمعتا هسهسة ضوء القمر، عندما مرَّ عبر أفنان الأشجار وكأنّه أعشاب بحريّة تتهادى تحت صفحة الماء. أخذتا بالبكاء وانهمرت دموعهما كمياه النبع، كضوء القمر، شعرتا بارتياح عميق، كان شعر لينغلينغ يلامس

وجهها وكأنّ هذا المشهد يحدث الآن، وجهاهما ملتصقان أحدهما بالآخر، ووجه لينغلينغ حارق. ثمّة زهرة لوتس تتفتّح ليلاً، ليست نيلوفرًا، أصغر من زهرة اللوتس وأكبر من النيلوفر، وتبدو براعمها الصفراء مشعشعة في أعلاها، وبتلاتها الورديّة، كالشحم أو كأذني لينغلينغ الورديّتين عندما كانت صغيرة لكن أقلّ وبرًا منهما، ولامعة كظفر إصبعها الصغرى، آه آنذاك، كانت تطيل ظفر إصبعها الصغرى حتى تبدو كصدفة، لكن لا، تلك البتلات الورديّة لا تلتمع البتّة، إنّها سميكة كأذن وتنفتح بتؤدة مرتعشة.

تقول إنّك رأيتها، رأيت هذه البتلات المرتعشة تتفتّح وعلى رأسها البراعم المخمليّة الصفراء بلون الذهب، المرتجفة. هذا بالضبط ما قصدته، قالت. أخذْتَ يدها. لا، يجب ألاّ تفعل ذلك، قالت، تريد أن تستمرّ في الاستماع إليها. إنّها جادّة في ما تقول، ألا تدرك ذلك؟ ألا تريد أن تدرك ذلك؟ ألا تريد أن تفهمها؟ تقول إنّ هذه الصرامة هي كالموسيقى المقدّسة. تعبد العذراء، وجه العذراء الحاملة الطفل، بأجفانها الخفيضة ويديها المفعمتان رقّة، بأصابعها الرهيفة. تقول إنّها تأمل هي أيضًا أن تصبح أمًّا، وأن تحتضن بين ذراعيها كنزها الصغير، هذا الجسد الحيّ والرقيق، وهو يرضع الحليب من صدرها. هذا الشعور الصافي، هل تفهمه؟ تقول إنّك تعتقد أنّك تفهم. حسنًا، إذا كنت عديم الفهم باستمرار، فهذا لأنّك حقًّا في غاية الغباء!

تقول: سجف سميكة تنسدل الواحدة تلو الأخرى. عندما تتقدّم وسطها، تشعر وكأنّها تنزلق. حين تزيح ستائر المخمل الخضراء

الداكنة، وحين تتغلغل بينها، لا ترى أحدًا، لا تسمع شيئًا، فالأقمشة تمتصّ الأصوات، لا تسمع سوى موسيقى ولا أصفى، تخفّف الستائر من حدّتها، فتنساب برقّة، كأنّها منحدرة من نبع نمير يفيض رقّة، وأنّى عبرَتْ يلوح نور خفيف.

تقول، كان لديها عمّة على قسط وافر من الجمال، وكانت غالبًا ما تجول في أرجاء البيت، أمام أنظارها، وهي مرتدية فقط صدريّة صغيرة وسروالاً صغيرًا منمنمًا. كانت ترغب دومًا في ملامسة فخذيها اللامعتين، لكنّها لا تجرؤ. تقول إنّها كانت آنذاك فتاة صغيرة هزيلة، وكان يخيّل إليها أنّها لن يكون بإمكانها أبدًا أن تصبح جميلة كعمّتها المحاطة بأصدقاء كثيرين تتبادل معهم، بالتزامن، رسائل الحبّ. كانت عمّتها ممثّلة وكان الرجال يمطرونها بعبارات الإطراء. وغالبًا ما كانت تقول إنّهم يُمعنون في مضايقتها، وعلى الرّغم من ذلك كانت تهوى مثل هذه الممارسات. اقترنت بضابط شديد الغيرة عليها ويتمادى في مراقبتها. فإذا عادت في ساعة متأخرّة قليلاً، يمطرها بالأسئلة ويعنّفها أحيانًا. تقول إنّها لم تكن تفهم لماذا لم تتخلّ عمّتها عنه ولا كيف استطاعت احتمال هذا الذلّ.

تقول أيضًا إنّها أحبّت شابًّا كان أستاذها في مادّة الرياضيّات. آه، كانت المشاعر التي أحسّت بها مشاعر فتاة مراهقة. كانت تعشق صوته وهو يشرح الدرس. الرياضيّات مادّة منفّرة، لا نكهة فيها، لكنّها أحبّت صوته أثناء شرحه الدرس، ولأجل ذلك قامت بواجباتها على أكمل وجه بكلّ إخلاص وإتقان. ذات يوم لم تنل في الامتحان إلاّ ٨٩ علامة من

أصل مئة، فانهارت باكية. في الصفّ لدى توزيع العلامات، شهقت بالبكاء لدى رؤيتها العلامة. استردّ الأستاذ مسابقتها قائلاً لها إنّه يريد الاطّلاع عليها مجدّدًا. ثم أضاف إليها بضع علامات. قالت له إنّها لا تبالي بذلك، لا، لا تبالي، ورمت المسابقة أرضًا. وأمام جميع زملائها في الصفّ، لم تتمالك نفسها وانهارت باكية. لا شكّ أنّ سلوكها كان معيبًا جدًّا. وعقب هذه الحادثة، لم تعد تعيره اهتمامًا ولم تعد تدعوه «أستاذ». بعد انتهاء العطلة الصيفيّة، لم يعد يعلّم في صفّها. لكنّها لا تزال تفكّر فيه، وتحبّ صوته، هذا الصوت المفعم بالاستقامة والبساطة.

الفصل الثامن والعشرون

بين شيغان وجيانقو، الطريق مقطوعة بشريط أحمر. باص صغير يقطع الطريق أمام مرور حافلة المسافات الطويلة التي أسافر على متنها. يصعد رجل وامرأة إلى الحافلة، وعلى ذراع كلّ واحد منهما شارة حمراء تعني أنّ حاملها يتمتّع بمنصب رفيع يتيح له اتّخاذ المواقف الصارمة. اعتقدت أنّهم يبحثون عن أحد المطلوبين لكن لحسن الحظّ، المسألة تتعلّق فقط بحملة تدقيق ببطاقات السفر العائدة للمسافرين، يقوم بها مفتّشون لحماية طرقات الأمّة من المخلّين بالأمن.

كان السائق قد دقّق في البطاقات بعد وقت قليل من الانطلاق، عند أوّل توقّف. أراد أحد المزارعين الفرار، لكنّ السائق أقفل الباب في الوقت المناسب فعلقت حقيبته في باب الحافلة. أرغمه السائق على دفع عشرة يوانات ثم رمى له الحقيبة. لم يعر السائق أيّ اهتمام للمزارع الذي أمطره بالشتائم وانطلق بأقصى سرعته، مرغمًا إيّاه على القفز في الحفرة. في هذه المناطق الجبليّة حيث يندر وجود الحافلات بعض الشيء، يصبح السائق، ما إن يمسك بمقوده، أعلى شأنًا من سائر الناس، ما يحمل الركّاب على إضمار ضغينة وعدائيّة جليّة تجاهه.

يبدو أنّ الرجل والمرأة، اللذين يحملان الشارة، هما أكثر صرامة من السائق. انتزع الرجل البطاقة التي ناوله إيّاها أحد الركّاب، وتوجّه إلى السائق شاهرًا إصبعه وهو يقول بلهجة متوعّدة:

ـ انزل! انزل!

امتثل السائق للأوامر دون أيّ اعتراض. نظّمت به المرأة محضر مخالفة عبارة عن غرامة ماليّة قدرها ثلاثماية يوان، أي ثلاثمئة مرّة أكثر من سعر البطاقة التي لم يمزّق طرفها بعد. ما من رتبة إلاّ وهناك رتبة أعلى منها. لا تنطبق هذه القاعدة على الطبيعة فقط بل تشمل البشر أيضًا.

ردًّا على العقوبة المتّخذة بحقّه، وقف السائق إلى جانب الحافلة وهو يبرّر سلوكه قائلاً إنّه لا يعرف هذا الراكب وإنّه لا يستطيع أن يبيع بطاقته من جديد، ثمَّ علت النبرة. لكنّ المفتّشَيْن بقيا على موقفهما، رافضين الرجوع عن قرارهما، ربّما لأنّ أجر السائق يفوق أجرهما وفقًا للنظام المعتمد في تحديد أجور العاملين في قطاع النقل. أو ربّما لأنّهما يريدان فرض الهيبة التي تتيحها لهما الشارة المعلّقة على ساعد كلٍّ منهما. ارتبك السائق ثم اتّخذ هيئة مثيرة للشفقة وراح يتوسّل إليهما على نحو محزن، وهكذا مضت ساعة من الوقت ولم تتحرّك الحافلة من مكانها، ولم تنطلق مجدّدًا. السائق المخالف والمفتّشان نسوا أنّ المسافرين المحتبسين في الباص هم أيضًا حُكم عليهم أن يعانوا من وطأة الحرّ تحت أشعّة الشمس الحارقة. وانقلب النفور المعمّم من السائق إلى كره مقيت لأصحاب الشارات الحمراء. راح الركّاب يقرعون على النوافذ،

تعبيرًا عن احتجاجهم. عندئذٍ أدركت المرأة ذات الشريط الأحمر أنّها تثير غضب الحشد فسارعت إلى قطع الورقة التي دوّنت عليها المخالفة ودسّتها في يد السائق. لوّح المفتّش بعلم صغير فوافقهما السيّارة التي كانت بانتظارهما على الفور، فصعدا فيها وتواريا عن الأنظار.

لكنّ السائق، المتربّع أرضًا، رفض أن يرفع رأسه، أطلّ الركّاب برؤوسهم من نوافذ الباص، محاولين تهدئة روعه. ثم، بعد نصف ساعة، بدأ صبرهم ينفد، وأخذوا يشتمونه. عندئذٍ صعد مكرهًا إلى مركبته.

اجتازت الحافلة قسمًا من الطريق ثم، أثناء اجتيازها إحدى القرى، توقّفت فجأة ودون سبب. انفتحت الأبواب الخلفيّة والأماميّة محدثة فرقعة، ثم قفز السائق من حجرته هاتفًا:

ـ لينزل الجميع! توقّفنا! يجب أن تمتلئ الحافلة بالركّاب.

ثم ابتعد قليلاً عن المكان وبقي الركّاب في الباص وهم يوجّهون الشتائم إليه. لكن، عندما يئسوا من استجابة السائق لرغبتهم، نزلوا من الحافلة تباعًا.

عند حافّة الطريق كان هناك، باستثناء مطعم صغير، حانوت للسجائر والكحول، نُصبت أمامه خيمة لاتّقاء الشمس. وكان أصحاب الحانوت يبيعون الشاي للزبائن.

أوشكت الشمس على المغيب. لكن، تحت الإفريز، لا يزال الجوّ مستعر الحرارة. لا يزال لديّ الوقت لأحتسي كأسين من الشاي البارد. لا سيّما أنّ الباص لم يمتلئ بالركّاب بعد. كان السائق محتجبًا عن

الأنظار. والغريب أنّ الركّاب الذين احتموا بالظلّ تحت الأشجار أو الإفريز، تبعثروا هم أيضًا. دخلت إلى المطعم الصغير بحثًا عنهم فلم أجد إلاّ طاولات مربّعة ومقاعد فارغة. لم أدرك حقًّا المكان الذي توجّهوا إليه ولكنّي عثرت أخيرًا على السائق في المطبخ. شاهدت على الطاولة أمامه صحنين كبيرين من الخضار المقليّة مع زجاجة من الخمر. كان يثرثر مع صاحب المطعم.

أتوجّه إليه بنبرة تفتقر إلى الودّ:

ـ متى ينطلق الباص من جديد؟

فيجيبني بالنبرة نفسها:

ـ غدًا صباحًا في الساعة السادسة.

ـ وما السبب؟

ـ ألم ترَ أنّني احتسيت المزيد من الكحول؟

ـ لست أنا من أجبرك على دفع غرامة. لا يفترض بك الانتقام من الركّاب إذا كنت غاضبًا. ألا تدرك حقيقة هذا الأمر؟

أحاول أن أتمالك غضبي.

ـ ألا تعرف أنّ السائق الذي يتناول الكحول ويقود السيّارة يعرّض نفسه لأشدّ العقوبات؟

رائحة الكحول تفوح من أردانه، وملامحه تنمّ عن وقاحة وسفه. أرى عينيه الصغيرتين تحت جبينه الذي يتغضّن عندما يلوك طعامه.

شعرت بالغضب لدرجة رغبت معها بأن أحطّم الزجاجة فوق رأسه. خرجت من المطعم على وجه السرعة.

حين عدت إلى الطريق، أمام الحافلة الفارغة، أدركت عبثيّة الموقف. لو أنّي لم أستقلّ هذا الباص لوفّرت على نفسي كلّ هذه المتاعب، ولما كان هناك لا سائق ولا ركّاب ولا مفتّشون ولا غرامة. أمّا المشكلة التي أواجهها في هذا الوقت بالذات فهي إيجاد مكان أمضي الليل فيه.

أعود تحت الإفريز حيث يقدّمون الشاي، وألتقي هناك بأحد الركّاب.

ـ لن تنطلق هذه الحافلة اللعينة مجدّدًا.

ـ أعرف.

ـ أين ستمضي الليلة؟

ـ أحاول أن أجد مكانًا أنا أيضًا.

ـ أين الركّاب الآخرون؟

ـ أجابني أنّهم جميعًا من سكّان هذه الناحية، وأنّهم يعرفون أين سيمضون ليلتهم، ولا يخشون أن يداهمهم الوقت، وسيّان عندهم إن وصلوا وسيّان عندهم إن زادت أعمارهم يومًا أو نقصت، فالمسألة لا ترتدي أيّة أهمّيّة عندهم. أمّا هو، بالمقابل، فيعمل في حديقة حيوانات في غويانغ وقد وصلته برقيّة من مقاطعة ينجيانغ تبلغه أنّ سكّانًا جبليّين

قبضوا على حيوان مفترس مجهول. لذا، يتوجّب عليه الوصول هذا المساء إلى مركز المحافظة الرئيسيّ لكي ينطلق غدًا صباحًا إلى الجبل، وفي حال وصل متأخّرًا، يخشى أن تكون البهيمة قضت نحبها.

ـ فلتقضِ نحبها! ثم سألته: «أتخشى أن تدفع غرامة؟».

ـ لا، أنت لا تفهم شيئًا.

أقول له إنّه ما من وسيلة في هذا العالم لفهم أيّ شيء كان.

يقول إنّه يتكلّم عن بهيمة مجهولة وليس عن العالم.

أسأله عمّا إذا كان هناك فعلاً من فارق كبير بين هذا العالم وبهيمة مجهولة.

عندئذٍ، يطلعني على البرقية. وقد جاء فيها: «المزارعون في المقاطعة أمسكوا بحيوان مجهول. يجب إرسال أحدهم على وجه السرعة للتعرّف إليه». ثم شرح لي كيف أنّهم ذات يوم تلقّوا في حديقة الحيوانات مخابرة هاتفيّة مفادها أنّه تمّ اكتشاف سمندل عملاق يتراوح وزنه بين أربعين إلى خمسين ليبرة، على ضفاف أحد الأنهار الجبليّة، وعندما أحضروا أحد الخبراء لمعرفة حقيقة هذا الحيوان وجدوا أنّ القرويّين قد ذبحوه وتقاسموا لحمه في ما بينهم، وبات من المتعذّر التعرّف على نوع هذا الحيوان أو على أيّ جزء من أجزائه. هذه المرّة يتوجّب عليه محاولة إيقاف كلّ سيّارة لبلوغ المكان قبل فوات الأوان.

مكثت معه لفترة طويلة. مرّت عدّة شاحنات. كان يلوّح بالبرقيّة التي وصلته لعلّه يثير فضول أصحاب السيّارات، لكنّ أحدًا لم يعره اهتمامًا. أمّا أنا فلم أشعر بأنّه يتوجّب عليّ إنقاذ أيّ حيوان برّي كان ولا

حتى إنقاذ العالم. فماذا يجديني إذًا أن أبقى هنا أتنشّق غبار الهواء؟ قرّرت العودة إلى المطعم وتناول الطعام.

أسال الخادمة إذا كان بإمكاني قضاء الليلة هنا فتحدجني بنظرة ملؤها الحقد كما لو أنّني أسألها هل يمكنني قضاء الليل إلى جانبها.

ــ ألم تر اللافتة؟ ألا تعلم أنّنا في مطعم ولسنا في فندق؟

أعاهد نفسي على عدم الصعود ثانية إلى هذا الباص، لكن أمامي مئة كيلو متر عليَّ اجتيازها، وإذا أردت اجتيازها سيرًا على القدمين فسيستغرق المسير أيّامًا عدّة.

أعود إلى حافّة الطريق. غاب الرجل الآتي من حديقة الحيوانات. لا أعرف إذا استطاع إيجاد سيّارة تقلّه.

عمّا قليل تغرب الشمس. تحت الخيمة حيث يُقدّم الشاي، وُضعت المقاعد جانبًا. وفي الأسفل يتناهى إلى مسمعي صوت قرع طبول. أتساءل عن السبب. من هذا المكان المرتفع تبدو القرية صفًّا متواليًا من السطوح القرميديّة المتقاربة، وتظهر بين المنازل باحات مفروشة بالحجارة. على مسافة أبعد، تنبسط الحقول التي حُصد فيها الأرزّ المبكر النضج. وبعض الحقول حُرثت كما يدلّ على ذلك التراب الأسود الموحل المقلوب حديثًا.

أنحدر من التلّة باتّجاه المكان الذي تقرع فيه الطبول. يصعد أحد المزارعين من حقل أرزّ وقد شمّر عن ساقيه، فبدت رجلاه المسودّتان من الوحل. على مسافة أبعد، طفل يقود جاموسًا من رسنه باتّجاه بحيرة

على حافّة الطريق. أرى الدخان المتصاعد من السطوح فيغمرني شعور بالسلام.

أتوقّف مصغيًا إلى صوت الطبل. لم يعد هناك سائق ولا مفتّشون يحملون شريطًا أحمر على سواعدهم. لم يعد هناك باص لعين ولا برقيّة طارئة تطلب التعرّف على حيوان مجهول. لقد استعادت الطبيعة مسارها الصحيح. أفكّر من جديد في تلك السنوات التي أمضيتها في الريف، مرغمًا على المشاركة في الأعمال اليدويّة. لو أنَّ الوضع لم يتّخذ مجرى مختلفًا، ألم أكن أحذو حذوهم في حراثة الأرض؟ ألم أكن، أنا أيضًا، أعود في نهاية نهاري وقدماي ملوّثتان بالوحل، متعبًا لدرجة تفقدني عزيمتي على الاغتسال. لكنّي، على الأقلّ، لن يخامرني مثل هذا الشعور بالقلق. لماذا أنا مستعجل إلى هذا الحدّ للذهاب إلى هناك؟ لا شيء أكثر هناءة من هذا الدخان المتصاعد من المنازل في هذا الغسق الذي يغمر الوجود بنوره الخفيف، من سقوف القرميد أو قرع الطبول الذي يدنو أحيانًا وينأى أحيانًا أخرى.

تبدو قرعات الطبول المتكرّرة وكأنّها ترنّم ترانيم أسطوريّة دون كلمات. ووحدها حقيقيّة المنازل التي تزداد قتامة مع تغيّر لون الماء والضوء في السماء، والبلاطات الحجريّة الرماديّة التي تلوح بأشكالها المبهمة بين باحات البيوت، وكذلك الوحل المختزن دفء الشمس، واللهاث المنبعث من أشداق الجواميس، ونتف الأحاديث المتناهية من المساكن وكأنّها مشاجرات، وأيضًا، ريح المساء، وارتعاشة أوراق الأشجار فوق رأسي، ورائحة التبن والزرائب، وهدير المياه المتدفّقة،

وأزيز الأبواب وحبال آبار الماء، وزقزقة عصافير الدوري، وهديل أزواج الحمائم في أعشاشها، ونداءات النساء والأطفال الحادّة، ورائحة نبات الأرطماس، وطنين الحشرات الطائرة، والوحل الجافّ تحت الأقدام الذي يختزن الماء في جوفه، والرغبة في تحقيق الأماني وبلوغ السعادة، والاختلاجات التي يحدثها قرع الطبل في الصدور، والرغبة في السير حافي القدمين، والجلوس عند عتبة باب باتت ملساء لمّاعة من وطء أقدام البشر.

الفصل التاسع والعشرون

وفد رسول من قبل ساحر تيانمنغوان، «ممرّ الباب السماويّ» إلى موجيانغ بينغ، «مصطبة النجّارين»، لكي يوصي على منحوتة رأس الإلهة تيانلو لدى نحّات عجوز. قال إنّه سيعود لأخذ المنحوتة شخصيًّا ليقدّمها في السابع والعشرين من الشهر الثاني عشر على مذبح الأجداد. أهدى ذلك الرسول النحّات إوزّة حيّة على سبيل عربون مسبَق، ووعده أن يعطيه، في حال أنجز العمل في الموعد المحدّد، جرّة من كحول الأرزّ ونصف رأس خنزير، ليحتفل النحّات العجوز بالعام الجديد. عندئذٍ اعترى النحّات الرعب، وأيقن أنّ أيّامه باتت معدودة. الإلهة غوانيين ربّة الحياة، أمّا الإلهة تيانلو فهي ربّة الموت. وقد أتت لتبلغه أنّ حياته أوشكت على نهايتها.

في السنوات الأخيرة، بالإضافة إلى عمله في النجارة، أنجز عددًا لا يُستهان به من التماثيل. تماثيل ترمز إلى إله الثروة والراهب المتقشّف ومأمور سجلّ الأحياء والموتى. كذلك أعدَّ لفرق في مسرح «نو» مجموعات كاملة من الأقنعة، أقنعة تشانغ كايشان وهي أنصاف بشر وأنصاف آلهة؛ أقنعة ماشواي وهي أنصاف بشر وأنصاف حيوانات،

عفاريت صغيرة، أنصاف بشر وأنصاف شياطين، وأيضًا أقنعة تشينتونغ، أي وجوه مضحكة مكشّرة، كذلك أنجز للناس الآتين من خلف الجبل وجوهًا للإلهة غوانيين، لكنّ أحدًا لم يطلب منه حتى اليوم أن ينحت له وجه الإلهة تيانلو الرهيب. والآن ها هي آتية لتسلبه حياته. كيف بوسعه أن يدفعه طيشه إلى الرضوخ بهذه السهولة لمشيئة ذلك الساحر؟ لعلّ شيخوخته وجشعه هما السبب في رضوخه. كان يكفي أن تُقدّم له هديّة قيّمة لكي يوافق على نحت أيّ شيء كان. كان الجميع متّفقين على أنّهَ قادر أن يجعل منحوتاته تضجّ بالحياة. ما إن تنظر إليها حتى تتعرّف على إله الثروة، والمتحكّم بأرواح البشر، ولوهان المبتسم، والراهب المتقشّف، ومأمور سجلّ الأحياء والموتى، والجنرال تشانغ كايشان، وماشواي، والعفريت الصغير، والإلهة غوانيين. لم يسبق له أن رأى غوانيين، كان يعرف فقط أنّها أمّ تشجّع على إنجاب الأطفال. ذات مرّة أتت إليه امرأة من خلف الجبال حاملة معها قدمين من القماش الأحمر لكي توصي على شخص للإلهة غوانيين، وأمضت الليل عنده. عند الصباح رحلت ممتلئةً بهجة وحبورًا حاملة معها شخص غوانيين الذي جمعته يداه في ظرف ليلة واحدة. لكنّه طيلة حياته لم ينحت الإلهة تيانلو، بدايةً لأنّ أحدًا لم يطلب منه ذلك، وثانيًا، لأنّ هذا الوجه المحتوم لا يمكن أن يُعرض إلاّ على مذبح ساحر. لم يستطع تمالك نفسه وبدأ يرتجف وكأنّ جسده تجمّد من شدّة البرد. كان يعرف أنّ الإلهة تيانلو تجتذبه ناحيتها، مترقّبة أن تسلب منه حياته.

ارتقى كومة أخشاب لكي يأخذ قطعة من خشب البقس الذي وضعه على إحدى الدعائم لكي يجفّ، وهو خشب ذو عروق رفيعة لا يتشوّه

ولا يتشقّق. أودعه هناك من سنوات عديدة ولم يكن يستطيع أن يتّخذ قرارًا بشأن استعماله لأمور عاديّة. عندما تسلّق كومة الأخشاب ومدّ يده لكي يمسك بقطعة البقس انزلقت قدمه، وتداعت الكومة بأكملها. شعر بجزع شديد لكنّه ما لبث أن استعاد رباطة جأشه. وحين احتضن القطعة بين ذراعيه ذهب للجلوس على جذع من جذوع القيقب. لو كانت المهمّة عاديّة، لشذّب المادّة الخام ببضع ضربات من فأسه وبرى نثار الخشب بالمنحت، وصقله دون أن يمعن في التفكير كثيرًا، إلى أن يتّخذ الشكل المنشود، إنّها مهمّة روتينيّة. لكنّه، لغاية الآن، لم يسبق له أن نحت الإلهة تيانلو. مكث جالسًا فوق الجذع كالأبله وقطعة الخشب بين ذراعيه. شعر بالبرد فوضع الخشبة أرضًا وعاد إلى المنزل. جلس على جذع من الخشب سوّده دخان الموقد، ولمّعته المؤخّرات من شدّة الجلوس فوقه على مرّ السنين. شعر بأنّ نهايته تقترب، وأيقن أنّه سيموت قبل انتهاء العام. طُلب منه إنجاز هذا التمثال لعرضه في السابع والعشرين من الشهر الثاني عشر، أي بالضبط قبل تقديم الهبات لإله الموقد، وقبل الخامس عشر من الشهر الأوّل من السنة، تاريخ عيد الفوانيس. لن تمرّ هذه السنة الجديدة على خير.

لقد ارتكب جرائم كثيرة، قالت.

ماذا قالت الإلهة تيانلو؟

أجل، قالت إنّه لم يكن عجوزًا صالحًا، لم يعرف كيف يقنع بما قُسِم له.

أغوى المرأة الشابّة التي أتت تطلب إنجاب طفل؟

لكنّ هذه المرأة الشابّة هي من كانت حقيرة، وانصاعت له بشكل كلّي.

أليست هذه خطيئة؟

ليس بالضرورة.

حسنًا، وخطاياه هو، إنّها..

لقد استغلَّ فتاة شابّة خرساء.

في بيته؟

لا يجرؤعلى القيام بهذا الأمر. حدث ذلك في أحد الأيّام التي كان ينتقل فيها من مكان لآخر. الحرفيّون أمثاله الذين يعملون بعيدًا عن منازلهم يظلّون وحيدين لفترات طويلة. لديهم القليل من المال والكثير من الدراية؛ لم يكن العثور على نساء يهبن لهم أجسادهنّ طوعًا بالأمر الصعب، وبعضهنّ يفعلن ذلك طمعًا بالمال. لكن، لم يكن يُفترض به أن يغرّر بخرساء، فلطّخ شرفها وهزئ بها ثم تخلّى عنها.

عندما أتت الإلهة تيانلو لتنتزع منه حياته، هل أدرك أنّ ذلك كان بسبب تلك الخرساء؟

لا شكّ أنّه فكّر بالأمر وتراءت له صورة الفتاة وعجز عن محوها من ذاكرته.

هل كان الأمر انتقامًا؟

نعم. إنّه الانتقام الذي ترجوه جميع الفتيات اللواتي أُهينت كرامتهنّ. لو أنّها لا تزال حيّة، لو أنّها تستطيع العثور عليه، لاقتلعت عينيه

ولانهالت عليه بالشتائم الأكثر تجريحًا وطلبت من الشياطين أن تأخذه إلى ثامن عشر جهنم، ولكانت ألحقت به أمرّ أنواع العذاب وأفظعها! لكنّ هذه الفتاة بكماء وليست لديها أيّة وسيلة للدفاع عن شرفها. عندما حملت منه، طُردت من منزلها وهامت على وجهها تمارس الدعارة وتتسوّل على الأبواب. تحوّلت إلى كتلة لحم فاسد ومقيت. في البدء كانت على شيء من الفتنة، وكان بإمكانها فعلاً الاقتران بأحد المزارعين وعيش حياة زوجيّة طبيعيّة. كان بإمكانها أن تؤسّس منزلاً لتحمي نفسها وتنجب أولادًا وتحظى لدى موتها بنعش تُدفن فيه.

لم يفكّر بهذا كلّه، لم يفكّر إلاّ بنفسه.

لكنّ عيني هذه الفتاة لم تتوقّفا عن التحديق به،

عيني الإلهة تيانلو،

عيني هذه الفتاة البكماء،

عينيها الراعبتين حين امتلكها،

عينيها المليئتين بعطش الانتقام،

عينيها المتوسّلتين!

لم يكن بإمكانها التوسّل، اندفعت تبكي وهي تنزع شعر رأسها.

كانت تنظر إليه مرتاعة،

لا، كانت تصرخ..

لكنْ لا أحد كان يفهم معنى هذه الصرخات المبهمة، واسترسل الجميع في الضحك عليها. وهو أيضًا كان يضحك وسط الحشد.

لا؟

بلى! آنذاك، لم يكن يعرف الخوف، وكان معتزًّا بنفسه ويظنّ أنّ أحدًا لا يستطيع اكتشاف أمره.

لقد انتقم القدر لها منه!

تراءت له الإلهة تيانلو فيما كان يحرّك الجمرات. ظهرت وسط ألسنة اللهب والدخان. أغمض عينيه وهو يشدّ عليهما وانبجست الدموع منهما.

لا تذرف الدموع الكاذبة على تلك الفتاة رأفة بها!

يبكي الجميع عندما تمتلئ أعينهم بالدخان. تمخّط بأصابعه المخشوشبة وكأنّها عيدان من الخشب اليابس. ذهب إلى الباحة متباطئًا وهو يجرجر نعليه الباليين. أمسك بين ذراعيه قطعة البقس، ثم تربّع بالقرب من جذع القيقب وظلّ ينحتها بالفأس حتى المساء، ثم عاد إلى المنزل حاملاً قطعة الخشب بين ذراعيه. جالسًا قرب النار، ثبّت قطعة الخشب بين ساقيه وراح يداعبها بيديه الخشنتين. كان يعرف أنّها المنحوتة الأخيرة التي سينجزها في حياته، وكان يخشى ألاّ يتسنّى له الوقت لإنجازها. أراد إنجازها قبل طلوع النهار، لأنّه يعرف أنّه حينذاك ستختفي الصورة التي احتفظ لها بها، في داخله، لمس بخفّة طيف الفتاة، فمها، شفتها العليا التي كانت تزمّها عندما تهزّ برأسها، وشحمة أذنيها اللدنة المكتنزة بشكل خاصّ بحيث ينبغي عليه تكبير حجمها، ليسهل عليه نحت القرطين المتدلّيين منهما، بشرتها المشدودة على طراوتها، وجهها

الناعم الرقيق، أنفها وذقنها الحادّين، لكن من دون نتوءات بارزة. وانزلقت يده في القبّة الضيّقة حول العنق...

عند الصباح، ناداه القرويّون الذاهبون إلى السوق الشعبي في ليوفنغبو للقيام بمشترياتهم قبل حلول العام الجديد. لكنّه لم يجب على ندائهم. كان باب منزله مشرّعًا على مصراعيه، ورائحة الحريق تنبعث من الداخل. دخل الناس ووجدوه مرتميًا في الموقد. قال بعضهم إنّه قضى نحبه إثر نوبة قلبيّة. وقال بعضهم الآخر إنّه مات احتراقًا. عند قدميه، هجع تمثال الإلهة تيانلو وكاد أن يُنجز تقريبًا. كانت الإلهة تحمل على رأسها إكليلاً من الشوك، وعند حافّة الإكليل أربعة ثقوب صغيرة، ومن كلّ ثقب يطلّ رأس سلحفاة سوداء كأنّه حيوان مفترس يترصّد فريسته وهو رابض في عرينه. كانت أجفان الإلهة خفيضة وكأنّها تغمض عينيها نصف إغماضة. فوق أنفها الأخنس حاجباها عابسان مقطّبان. شفتاها الصغيرتان الرقيقتان مشدودتان بقوّة، كما لو أنّها تمقت الحياة، وحدقتاها السوداوان اللتان تبينان بالكاد، ترسلان مع ذلك بريقًا جليديًّا. حاجباها وعيناها وأنفها وفمها ووجهها وذقنها وعنقها الأهيف الممشوق... كلّ شيء فيها يعكس رقّة فتاة شابّة، وحدهما شحمتا أذنيها الممتلئتان المكتنزتان اللتان تتدلّى منهما حلقات نحاسيّة على شكل رماح تشيان بالفتنة والغواية. أمّا عنقها فكان مشدودًا داخل قبّة ثوبها العالية، وعلى هذه الهيئة قُدّمت الإلهة تيانلو على مذبح المشعوذ في تيانمنغوان، «ممرّ الباب السماويّ».

الفصل الثلاثون

منذ زمن بعيد، سمعت خرافات عن الثعبان الشهير المدعوّ «كي»، وسُمّه الزعاف. في الريف، غالبًا ما يدعونه «تنّين الخطوات الخمس» لأنّهم يزعمون أنّ لدغته تتسبّب بموت الإنسان أو الحيوان قبل أن يتسنّى لهما القيام بخمس خطوات. لا شكّ أنّ المثل القائل: «أكثر التنانين جبروتًا لا يمكنه التغلّب على كبير ثعابين الأرض»، مستوحى من قوّة هذه الأفعى. والجميع متّفقون على أنّ هذا الثعبان مختلف عن الثعابين السامّة الأخرى. حتى إنّ الصلّ الهندي، على خطورته، يرتعب بسهولة من الإنسان. حين يهاجمك، فعليك إبقاء رأسك عاليًا مع تحريكه قدر الإمكان ورفع الصوت عاليًا لإرهابه. حين تصادفه يمكن اتّقاؤه بسهولة، ارمِ شيئًا ما قربه وإذا لم يكن في حوزتك شيء ترميه به، يكفي أن ترمي حذاءك أو قبّعتك، وتولّي الفرار فبذلك الشيء الذي ترميه تشغله عن مهاجمتك بحيث ينقضّ عليه ظنًّا منه بأنّه فريسته. لكنّ الثعبان «كي» ينقضّ على من يصادفه، بمعدّل ثماني أو تسع مرّات من أصل عشر، قبل أن يتسنّى للضحيّة الوقت الكافي لرؤيته.

في المناطق الجبليّة جنوبي أنهوي، سمعت حكايا تكاد تكون أسطوريّة عن هذا الأفعوان. ووفقًا لهذه الروايات، هذا الثعبان قادر على

إعداد نفسه للمعركة، محدّدًا ميدانه بواسطة خيط أشدّ رهافة من خيط العنكبوت. إذا مسّه حيوان، هاجمه بسرعة البرق. لا عجب في أنّه، في كلّ الأمكنة التي تعيش فيها هذه الأفعى، تشيع كلّ أنواع الرُّقى. يُقال إنّ لهذه الكلمات قدرة وقائيّة إذا تُليت بصمت. لكنّ القرويّين لا يُطلعون عليها الغرباء. وعندما يذهبون لقطع الأشجار، يرتدون ضمّادات تحمي ربلتي الساقين، أو جوارب عالية جدًّا مصنوعة من قماش سميك، غالبًا ما يُستخدم في صنع الخيم. روى لي سكّان العاصمة في المقاطعة، والذين قلّما يتردّدون إلى الجبال، أشياء تُلقي الذعر أكثر في روع السامع: بوسع هذه الأفاعي أن تلدغ من خلال أحذية الجلد، ونصحوني بأن أحمل معي دواء ضدّ السمّ، حتى وإن كان عديم المفعول في علاج سمّ الثعبان «كي».

على الطريق المؤدّية من دنشي إلى أنتشينغ، مرورًا بشيتاي، التقيت في مطعم صغير متواضع، بالقرب من محطّة النقل البرّي، رجلاً بُترت يده. أخبرني أنّه بترها بنفسه بعدما عضّه الثعبان «كي». إنّه دون شكّ الناجي الوحيد من عضّة مماثلة. كان يرتدي قبّعة من القشّ الطري ذات الحوافّ الضيّقة على شاكلة القبّعات التي تُعتمر في الاحتفالات، أو تلك التي يرتديها المزارعون لدى ذهابهم إلى رصيف المرفأ، علامة تميّز الرجال ذوي الخبرة. أوصيت على قصعة من الحساء بـــ «النودلز» في المطعم الذي أُقيم تحت قبّة من قماش سميك أبيض. أمامي بالضبط، جلس ذلك الرجل وقد أمسك العيدان بيده اليسرى وراح يحرّك دون توقّف، وعلى مرمى من نظري، أرومة ذراعه اليمنى. شعرت بالاستياء وتوجّهت إليه بالقول لظنّي أنّه يرغب في الثرثرة:

ـ يا صاح، أيزعجك أن تخبرني كيف بُترت يدك؟ سأدفع لك ثمن قصعة المعكرونة التي تتناولها.

وروى لي ما حصل معه.

كان ذاهبًا إلى الجبل بحثًا عن خشب الليسيبه.

ـ ماذا؟

ـ خشب الليسيبه، فهو يشفي من الغيرة. وزوجتي شديدة الغيرة، فحين أتحدّث إلى امرأة أخرى تودّ أن ترميني بقصعة في وجهي. فأردت أن أسقيها نقيع الليسيبه.

ـ هل هذا دواء تقليديّ؟

ـ بالطبع لا، قال وهو يضحك بفم واسع افترّ عن سنّ ذهبيّة. كان في الواقع يمزح.

قال لي إنّهم كانوا زمرة تقوم بقطع الأشجار ليصنعوا من حطبها فحمًا. آنذاك، لم تكن مزاولة التجارة شائعة كما اليوم. وكان القرويّون، سعيًا وراء مالٍ قليل، يصنعون الفحم. ولهذا كان يجب الشروع في إعداده وفق الأصول. وكان هو يبحث بشكل خاصّ عن السنديان ذي القشرة البيضاء لأنّ الفحم الذي يُستخرج منه رماديّ مائل إلى الفضّي، ويُصدر صوتًا رنّانًا عند قطعه. أمّا كمّيّة من هذه المادّة القابلة للاحتراق فتُباع بضعفي ثمنها من الفحم العادي. تركته يتكلّم حسب ما يحلو له. على أيّ حال، لن أدفع له إلاّ ثمن قصعة من المعكرونة بالنودلز فقط.

أخبرني أنّه كان يسير في المقدّمة والفأس في يده. خلفه، كان رفاقه يثرثرون ويدخّنون. ما كاد ينحني حتى شعر بنفحة جليديّة تتصاعد إليه

من راحة قدميه. أدرك أنّ كارثة حلّت به. شبّه نفسه بكلب وحيد يشتمّ آثار فهد، فلا يجرؤ على التقدّم خطوة واحدة، فراح ينتحب ويعوي في مكانه وكأنّه قطّ. ارتخت ساقاه. حتى أكثر الرجال صلابة يفقد أمله بالنجاة حين يصادف الثعبان «كي». رأى الثعبان ملتفًّا حول حجر بين الأشواك، رأسه منتصب فوق البدن المتجمّع مثل كرة مضغوطة. وبلمحة بصر شهر فأسه، لكن بلمحة بصر أيضًا، شعر أنّ سائلاً جليديًّا يسري وفي معصمه، وأنّ ارتعاشة سريعة تسري في أنحاء جسده. وكأنّه صُعق بتيّار كهربائي. غلالة سوداء حجبت نور الشمس من أمام عينيه. تجمّدت أوصاله ولم يعد يسمع لا ضجّة الرّيح ولا زقزقة العصافير ولا صرير الجنادب. قتم في عينيه لون السماء واكتسى بالشؤم، والشمس والأشجار لم تعد ترسل إلاّ نورًا باردًا. أيقن أنّ دماغه لا يزال يعمل، وأنّه يجب عليه أن يبادر إلى القيام بعمل. لا يُفترض به أن يموت. لا يزال لديه حظّ بالحياة، فبتر معصمه بفأسه. وعلى الفور جلس القرفصاء وربط أطراف شرايين ذراعه المبتورة. انبجس الدم، والبخار يتصاعد منه، فوق الحجارة التي ما إن لامسها حتى تغيّر لونه واستحال فقاعات صفراء شاحبة. ثم أوصله رفاقه إلى القرية حاملين المعصم المبتور، المسودّ، الملطّخ ببقع بنفسجيّة. والذراع المبتورة اسودّت هي أيضًا، وبعدما استُنفدت جميع الأدوية الموجودة في الطب الصيني لمعالجة لدغات الأفاعي، دبّت الحرارة في الذراع.

ـ أنت إذًا رجل في منتهى الشجاعة والحكمة.

لو أنّه تردّد لحظة واحدة، أو لو أنّ اللدغة أصابت مكانًا أعلى لتوفّي على الفور.

ـ التضحية بإحدى اليدين مقابل الحياة، أمر يستحقّ التوقّف عنده، أليس كذلك؟ فالجرادة نفسها تعمد إلى التضحية بأحد أعضائها لتبقى على قيد الحياة.

ـ لكنّها حشرة!

ـ وإن يكن! هل البشر أهمّ من الحشرات؟ الثعلب أيضًا يستطيع أن يقضم قدمه لينجو من الفخّ الذي علق فيه. والإنسان أقوى من الثعلب. ثم وضع على الطاولة ورقة من عشرة يوانات ثمن المعكرونة، رافضًا أن أدفع له ثمنها. وقال لي إنّه يمارس الآن التجارة، وإنّ رجلاً مثلي قد لا يستطيع أن يتقاضى من المال مقدار ما يكسبه هو من التجارة.

طيلة رحلتي، استعلمت عن هذا الأفعوان. وانتهى بي الأمر إلى رؤية بعض منه على الطريق المؤدّية إلى قمم فانجينغ. كانت الأفاعي تُجفّف ملتفّة على سقف أحد المخازن في بلدة تدعى مينشياو أوشيتشانغ، وهي مطابقة للوصف الذي أعطاه إيّاه المتنفّذ الكبير في سلالة **تانغ** ليو تسونغويان: «سوداء مرقّطة بالأبيض» وهي تشكّل مادّة ثمينة في الطبّ الصيني ويستخلص منها دواء ناجع لتشنّج العضلات وتنشيط الدورة الدمويّة ومعالجة داء المفاصل، والشفاء من نزلات البرد. وبما أنّ أثمانها مرتفعة، فإنّ الرجال الشجعان مستعدّون للمغامرة بحياتهم من أجل القبض عليها.

ليو تسونغويان وصف هذا الحيوان بأنّه «مخيف أكثر من النمر»، ومن ثم هاجم الطغيان قائلاً إنّه أشدّ فظاعة من هذه الأفعى. كان تسونغويان موظّفًا إمبراطوريًّا كبيرًا، فيما أنا إنسان عادي. كان متنفّذًا

ولا بدّ أنّه كان من الأوائل الذين اهتمّوا بمعالجة أنواع الشقاء على الأرض. فيما أنا أجول العالم غير مهتمّ إلاّ بوجودي الشخصيّ.

رؤية هذه الأفاعي المجفّفة لم تكن تكفيني. سعيت إلى رؤيتها وهي حيّة لتزداد معرفتي، ولأوفّر لنفسي ظروف الحماية منها.

وأخيرًا، شاهدت اثنين منها عند أسفل جبال فانجينغ، مملكة الأفاعي السامّة. أمسك بهما صيّاد في مركز المراقبة في المحميّة الطبيعيّة، واحتبسهما داخل قفص محكم الإقفال واستطعت تفحّصهما على قدر ما يحلو لي.

اسمها العلمي هو Agkistrodon Acutus. كانت الحيّتان بطول المتر وأقلّ ضخامة من الذيلان فرهيفان جدًّا. بدن كلّ منهما مكسوّ بالرسوم المثلّثة الشكل ولونهما يتراوح بين البنّيّ الداكن والرماديّ. ثمّة تسمية شعبيّة أخرى هي «أفعى المربّعات». في الظاهر لا شيء يجعلنا نكتشف سرّ شراسة هذه الأفاعي. وإذا التفّت فوق حجر في الجبل، تصبح أشبه بتلعة تراب. لدى تفحّصها عن كثب، ترى رأسها المثلّث البنّيّ الكامد وخطمها الحادّ المنتهي بقشرة على شكل شصّ، وعيونها الكامدة تضفي عليها مظهرًا مضحكًا تجعلها أقرب إلى مهرّج يجسّد الطمع في أوبرا بكين. وفي الواقع، لا تعتمد الأفاعي إطلاقًا على بصرها لمعاينة فريستها. فهناك بين الخطم والعين فجوة تحوي عضوًا يتحسّس الحرارة، وخصوصًا الأشعّة ما تحت الحمراء. بإمكانها أن تستشعر أيّ تغيّر في الحرارة ولو بلغ واحدًا على عشرين، على بعد ثلاثة أمتار. يكفي أن يظهر في محيط تواجدها حيوان حرارته أكثر ارتفاعًا منها لكي تتحرّاه

وتهاجمه. عرفت هذه التفاصيل في ما بعد عندما ذهبت إلى جبال ووبي، من اختصاصي في اللدغات السامّة يعمل في المحميّة الطبيعيّة.

وعلى طريقي، على المجرى الأعلى لنهر تشين، أحد روافد نهر يوان، شاهدت مياه نهر جين غير الملوّثة والهادرة صافية كالبلّور. وكان حرّاس الجواميس الصغار يتركون للتيّار أن يحملهم إلى وسط النهر وهم يطلقون صيحات حادّة. على مسافة مئات الأمتار من الضفّة، يتوقّف عابرو السبيل وتتعالى صرخاتهم بشكل ملحوظ. في أسفل الطريق، امرأة شابّة عارية تستحمّ في النهر، وعندما ترى الباص، تنتفض مثل طيور الماء، ثم تدير رأسها مستغرقة في تأمّلها. تحت شمس الظهيرة الحارقة ينعكس النور فوق الماء مبهرًا. لكن، بالطبع لا صلة لكلّ هذا بالأفعى «كي».

الفصل الواحد والثلاثون

تنفجر ضاحكة، تسألها عن السبب. تقول إنّها سعيدة لكنّها تعرف جيّدًا أنّها ليست سعيدة. تتظاهر بذلك، لأنّها لا تريد أن يعرف الناس أنّها تعيسة.

تقول إنّها كانت تسير ذات يوم في الشارع، فرأت رجلاً يجري إثر تراماوي انطلق لتوّه. كان يتقدّم قافزًا على أصابع قدم واحدة وهو يصرخ بكلّ قواه لأنّ فردة حذائه بقيت عالقة بالباب عند نزوله من الحافلة. لا شكّ أنّه كان رجلاً آتيًا من الريف. حين كانت صغيرة، حذّرها أساتذتها من الهزء بالفلاّحين. وعندما كبرت، أوصتها أمّها ألاّ تضحك ببلاهة أمام الرجال. لكنّها لم تستطع الامتناع عن الضحك عند رؤيتها هذا المشهد. وعندما تضحك بهذه الطريقة تلفت إليها انتباه الرجال. ولاحقًا، لاحظت أنّها حين تضحك على هذا النحو فهي تجتذبهم حقًّا. كان الرجال الذين تساورهم النوايا السيّئة يعتقدون أنّها تتدلّع. للرجال نظرة مختلفة إزاء النساء، يجب ألاّ تدع الأمر يلتبس عليك.

تقول إنّها حين منحت نفسها لرجل للمرّة الأولى لم يكن يعرف أنّها كانت عذراء. عندما امتلكها سألها وهو ممدّد فوقها عن سبب بكائها،

قالت إنّ ذلك لم يكن بسبب الألم بل لأنّها أشفقت على نفسها. مسح دموعها، لكنّها لم تكن تذرف هذه الدموع لأجله. أبعدت يده وزرّرت ملابسها وسوّت شعرها. لم تشأ أن يساعدها. كلّما ساعدها زاد الطين بلّة. نال منها مأربه، مغتنمًا ضعفها في تلك اللحظة العابرة.

لا يمكنها القول إنّه أرغمها على شيء. دعاها إلى الغداء في بيته، فذهبت. احتست كأسًا من الكحول. بدت سعيدة، لكنّ هذه السعادة لم تكن سعادة حقيقيّة، وضحكت بالطريقة نفسها التي تضحك بها اليوم.

تقول إنّ الغلطة لم تكن غلطته تمامًا. أرادت آنذاك أن تعرف ببساطة كيف تجري الأمور. شربت حتى الثمالة كأس الكحول الملآنة حتى نصفها التي صبّها لها. شعرت بدوار في رأسها، لم تكن تعرف أنّ هذه الكحول قويّة إلى هذا الحدّ. شعرت بسخونة في وجهها وراحت تضحك ببلاهة، عندئذٍ، قبّلها ورماها فوق السرير، هذا صحيح. ولم تقاوم حين عمد إلى مضاجعتها. هي تذكر ذلك جيّدًا.

كان أستاذها وكانت تلميذته، ولم يكن يُفترض أن يحدث هذا بينهما. خارج الغرفة، سمعت تفاهات كثيرة. في الرواق ضجّة أقدام تصعد وتنزل، والناس يتحدّثون دون انقطاع. ينطق الناس دومًا بتفاهات كثيرة. كان الوقت ظهرًا. وهؤلاء الذين أنهوا طعامهم في مطعم الطلاّب عادوا إلى بيتوهم. كانت تسمعهم بوضوح تامّ. في هذا الإطار بالذات بدت لها هذه العلاقة مذلّة. شعرت بالعار إلى أقصى الحدود. قالت في نفسها: بلهاء، أنت بلهاء.

ثم فتحت باب الغرفة وخرجت مستقيمة الجذع، مرفوعة الرأس. وعندما وصلت إلى أعلى الدرج، صاح أحدهم باسمها عاليًا، فاحمرّت خجلاً كما لو أنّ تنّورتها شُمّرت ولا لباس تحتها. لحسن الحظّ، كان مدخل الدرج شديد القتامة. كانت تلك إحدى الزميلات في صفّها وكانت تريد أن ترافقها إلى عند الأستاذ لكي تتباحث معه في برنامج الموادّ الاختياريّة للفصل القادم. فتذرّعت أنّ عليها الذهاب إلى السينما وأنّها لا تستطيع التأخّر، وولّت هاربة. لكنّها لم تنسَ قطّ هذا النداء.

أوشك قلبها أن ينبجس من صدرها، لم يسبق له أن نبض بمثل هذه القوّة حتى حين امتلكها الرجل. والآن، انتقمت، انتقمت، انتقمت لكلّ المتاعب والمخاوف في هذه السنوات الأخيرة. انتقمت من نفسها. تقول إنّ الشمس كانت في ميدان الرياضة في ذلك النهار ساطعة بكلّ قوّتها، وكانت ضجّة حادّة تخترق قلبها فتحدث صوتًا حادًّا شبيهًا بالصوت الذي تحدثه آلة الحلاقة حين تمرّرها على لوح من الزجاج.

تسألها من تكون في آخر المطاف.

تقول إنّها هي نفسها، ثم تنفجر ضاحكة من جديد.

تبقى حائرًا.

عندئذٍ تطمئنك، تقول إنّ كل ما فعلته هو أنّها روت لك قصّة، قصّة نقلتها عن صديقة كانت طالبة في معهد الطبّ، جاءت للتدرّج في المستشفى حيث كانت تعمل. وأصبحت إحدى صديقاتها الأعزّ.

لا تصدّق ما تقوله.

لماذا أنت وحدك تنفرد برواية القصص؟ وحين ترويها، هي، فالأمور لا تسير على ما يرام!

تطلب منها أن تتابع.

تقول لك إنّها أنهت قصّتها.

تقول لها إنّ قصّتها رُويت بطريقة فجّة.

فتجيبك أنّها ليست بارعة مثلك في إضفاء جوّ من التشويق على الوقائع المهمّة أثناء السرد. وزد على ذلك أنّك رويت الكثير من القصص قبل أن يحين دورها في الرواية.

حسنًا، تابعي، تقول لها.

فتجيب أنّها ليست في مزاج يسمح لها بالقيام بذلك. لم تعد راغبة في السرد.

تقول بعدما أمعنت في التفكير قليلاً، كانت هناك امرأة تفتن الرجال.

ليس الرجال وحدهم من يشعرون بالرغبة.

تقول لها إنّ الأمر مماثل بالطبع بالنسبة للنساء.

لماذا هناك أشياء عديدة متاحة للرجال وممنوعة على النساء؟ تلك هي الطبيعة البشريّة.

تقول إنّك لم تقصد بقولك إدانة النساء، جلّ ما قلته إنّها كانت ساحرة.

ليس في الأمر سوء.

تقول إنّك لا تعارض الفتنة لدى النساء، وإنّك فقط تريد أن تروي قصّة ليس أكثر.

هلاّ أنهيت جدالك في هذه الحالة.

لكن ما بالكِ؟

إذا كنت تريد أن تتحدّث عن هذه الساحرة فلا بأس، تكلّم عنها.

تقول إنّ زوج هذه الساحرة توفّي قبل أن تنقضي فترة السبع مرّات لسبعة أيّام متتالية.

لماذ تُسمّى فترة السبع مرّات لسبعة أيّام؟

فيما مضى، عندما يلقى رجل حتفه، كان ينبغي على الناس أن يسهروا على روحه سبع مرّات لسبعة أيّام.

هل الرقم سبعة رقم مشؤوم؟

الرقم سبعة هو يوم زهو للأرواح.

يجب عدم الكلام عن الأرواح.

حسنًا، لنتكلّم عنها قبل موتها، لم تكن السبائب البيضاء المُخاطة على فرعة حذائها قد انتُزعت بعد، كانت تشبه عاهرة «دارة الربيع المبهج» في دسكرة ووبي، وهي تتّكئ جامدة إلى المدخل، ويداها على خصرها، وساقها مسندة باسترخاء على رؤوس أصابعها. عندما ترى رجلاً وافدًا تتدلّع وتنظر إليه دون وجل، لاجتذابه.

تقول، إنّك تهين النساء.

تقول لا، النساء هنّ أيضًا لا يتحمّلن رؤيتها ويسارعن إلى التنحّي عن طريقها. وحدها تلك المرأة الشرسة الطباع، السلفة الرابعة لصَنْ، انتصبت في وجهها وبصقت عليها.

لكن، عندما يمرّ الرجال، ألا يلتهمونها كلّهم بنظراتهم؟

من المستحيل التصرّف بطريقة أخرى. يستديرون جميعًا، والأحدب نفسه، وقد تجاوز الخمسين من عمره، يحدّق فيها وهو يدير باتّجاهها رأسه بشكل جانبيّ. لا تضحكي.

من يضحك؟

تخبرها أيضًا كيف أنّ جارتها، زوجة العجوز لو، كانت قد انتهت للتوّ من وجبة العشاء وجلست أمام عتبة منزلها لكي تحيك نعال الأحذية فرأت كلّ شيء. وهتفت: «هاي، أنت أيّها الأحدب، دُست في براز الكلب!». شعر الأحدب بانزعاج كبير لكلامها. وفي عزّ الصيف، عندما كان جميع سكّان القرية يتناولون العشاء في الشارع، رأوها تحمل في طرفي حمّالتها دلوين فارغين، وتمرّ أمام المنازل مرتجّة الأرداف. نكزت أمّ الأشعر زوجها بالعيدان ما تسبّب لها لاحقًا بفلق بقضيب أخضر، فانتحبت جرّاء الألم طيلة الليل. لم تكن لدى النساء المتزوّجات في القرية إلاّ رغبة واحدة: أن ينزلن بهذه الفاسدة صفعًا. كان الأجدر بأمّ الأشعر أن تجرّدها من ثيابها وتمسكها من شعرها لتغطّس رأسها في دلو الخراء.

هذا يبعث على الغثيان، تقول.

لكن، هذا هو المنحى الذي أخذته الأمور. في البدء أخذتها زوجة جارها العجوز ولو على حين غرّة. أمّا العجوز تشو الذي لم يجد لنفسه زوجة فكان يتسلّل إلى ذَرى نباتات القرع، متذرّعًا بأنّه يساعدها في بسط السماد البشري، لكن، في الواقع، كان هو من ينبسط في مكانه. لو أنَّ ذلك كلّه لم يصل إلى زوجة صَن الرابع، لما كانت الأمور اتّخذت هذه الانعطافة المأسويّة، قال صَنْ، ذات صباح مبكر، إنّه مغادر إلى الجبل ليقطع حطبًا. لكنّه تنكّب محمله وقام بانعطافة عبر شوارع القرية ثم تسلّق جدار الباحة حيث تسكن هذه العاهرة. وقبل أن يخرج من دارها، ذهبت زوجة صَنْ التي كانت على درجة عالية من النباهة، وقرعت على الباب بمحمله. فتحت العاهرة وكأنّ شيئًا لم يحصل وهي تزرّر سترتها من جديد. لكن أنّى لزوجة صَن أن تتجاهل الأمر؟ بأسرع من ومضة برق، انقضّت على المرأة في الداخل، وراحتا تتعاركان على وقع الصراخ والنحيب، فسارع الجميع لرؤية ما يحصل. لا شكّ أنّ النساء اصطففن إلى جانب زوجة صَنْ. لكنّ الرجال راقبوا المعركة صامتين. تمزّقت ثياب المرأة وملأت وجهها الجراح. في ما بعد، اعترفت زوجة صَنْ أنّها سعت فعلاً إلى تشويه وجهها. أخفت العاهرة وجهها بيديها الاثنتين وراحت تبكي بهدوء وتتلوّى كالدودة. كان هذا الأمر مخزيًا ولكنّها شواغل النساء وقصصهنّ. وقف «العمّ السادس» وشيخ القرية على حدة، مكتفيين بالتنحنح المصطنع الواضح الدلالة. هذه الحادثة أجّجت غضب النسوة فقرّرن معاقبتها. وبعد أن تشاورن في ما بينهن، تمركزت نساء عديدات، من اللواتي يتمتّعن بالأذرع الأضخم والسيقان الأقوى، على درب الجبل حيث كانت العاهرة تذهب لقطع

الحطب، وجرّدنها من ثيابها تمامًا ثم أوثقنها بالقيود وحملنها فوق عارضة خشبيّة. لم تستطع إلاّ طلب النجدة. لكن، حتى لو هرع عشّاقها، مستجيبين لصراخها، لما تجرّأوا على إظهار أنفسهم إذ يرون شراسة زوجاتهم المستعدّات لسلخ جلدها. نقلنها إلى وادي أزهار الدرّاق. في ما مضى، كان هذا الوادي الذي تعيش فيه النساء الفاجرات ملجأ المُصابين بالبرص. ثم رموها مع العارضة التي حملنها بواسطتها، على الطريق الوحيدة التي تؤدّي إلى الوهد، ثم دُسنها بأقدامهنّ وأمطرنها بالبصاق واللعنات. وعدن بعد ذلك إلى القرية.

وبعدئذٍ؟

بعدئذٍ أمطرت السماء، أمطرت أيّامًا عديدة وليالي متواصلة. وذات صباح، عند الظهيرة رآها أحدهم تعود إلى القرية، ببنطالها الممزّق وجذعها العاري متدثّرة في ثوب من القشّ لتحمي جسدها من المطر، وشفتاها شاحبتان كالأموات. وحين رآها الأولاد الذين يلعبون قرب الجدار لاذوا بالفرار، وعلى وجه السرعة أقفلت جميع أبواب المداخل لدى مرورها. وما هي إلاّ أيّام قليلة حتى خرجت من بيتها وقد هدأ روعها. كانت تبدو أكثر تدلّعًا من السابق، شفتاها مطليّتان بأحمر فاقع وخدّاها بلون الدرّاق. بدت صورة حيّة عن الساحرات لكنّها ما عادت تجرؤ على السير مزهوّة في أرجاء القرية. كانت تذهب إلى ضفّة الجدول لتغرف الماء، أو تغسل ملابسها، قبل طلوع النهار أو عند هبوط المساء. تسير بمحاذاة الجدران مخفضة الرأس. وعندما يراها الأولاد الصغار، يصيحون بها عن بعد: «البرصاء، البرصاء، أنفك سيصاب

بالعفن ولاحقًا وجهك!» ثم يولّون الفرار بأقصى سرعة. وشيئًا فشيئًا، تناساها القرويّون لانهمكاهم بحصاد الأرزّ ودرس الحبّ. ثم جاء موسم الحراثة وغرس الأرزّ من جديد وحصاد الأرزّ المبكر النضج، وغرس الأرزّ المتأخّر. أيقنوا فجأة أنّ حقول المرأة لم تُمسّ، وأنّهم لم يروها منذ وقت طويل. فقرّروا عندئذٍ إرسال أحدهم للتحرّي عن أخبارها. وبعد شيء من التردّد والمماطلة اختاروا جارتها زوجة لو للقيام بالمهمّة ومعرفة ماذا جرى لها. لدى عودتها قالت: «نالت هذه الساحرة عقابها أخيرًا، غزت الدمامل والقروح وجهها. لا عجب أنّها لا تخرج من منزلها!». أطلقت النسوة تنهيدة ارتياح، لم يعد يساورهنّ القلق بشأن أزواجهنّ.

وبعدئذٍ؟

بعدئذٍ، حان وقت حصاد الأرزّ المتأخّر. وعندما انتهى العمل في الحقل الأخير حلّ موسم الجليد وانصرف القرويّون إلى شراء حاجيّاتهم لمناسبة حلول العام الجديد. كان يجب تنظيف حجر الرّحى لطحن الأرزّ. لاحظت زوجة الأشعر ثآليل على ظهر زوجها الذي كان يدفع الحجر عاري الجذع، لم تجرؤ على التحدّث عن الموضوع لأحد إلاّ لابنة حميها. من كان ليقول إنّ هذه الأخيرة لمحت في اليوم التالي بثورًا ناتئة على صدر زوجها؟ وانتشرت العدوى، ولم يعد بمستطاع النسوة أن يحتفظن بالسرّ. حتى صَنْ الرابع رأى فوق ساقيه حويصلات متقيّحة. وبالطبع مرّ عيد رأس السنة حزينًا كئيبًا. كانت النساء منهمكات بأعمالهنّ، وكان الأزواج يحجّبون رؤوسهم أو وجوههم. لم يكن الأمر

مزعجًا طيلة فصل الشتاء. لكن عند ما حلّ الربيع وآن الأوان لفلاحة الأرض، لم يكن مريحًا أن تظلّ الرؤوس والوجوه مغطّاة. بعض الرجال الذين لم يحفلوا بالأمر رأوا جلودهم تتقرّح ولحمهم يهترئ وشعورهم تتساقط، وتظهر حويصلات على جلودهم. لا بل إنّ بثرة نبتت عند طرف أنف «العمّ السادس». وكان الجميع في الهمّ سواء. لم يعد هنالك ما يُقال، ويجب على الأرض أن تُمشَّط. بعد غرس الأرزّ من جديد، استطاع الناس أخيرًا أن يتنفّسوا الصعداء. وعادوا للتفكير بأمر هذه الساحرة، ولم يُعرف ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. لكنّ الجميع كانوا يقولون إنّ من يجلس على كرسي أبرص تظهر الدمامل على مؤخّرته. لذا لم يعد يجرؤ أحد على اجتياز عتبة بيتها.

تقول لك: يستحقّ هؤلاء الرجال ما حصل لهم.

أوّل امرأة توجّهت إلى الحقول لتستأصل النباتات الرديئة، ووجهها مغطّى بمنديل، كانت زوجة صَنْ الرابع. قال العجائز: «من يفعل الشرّ يلق العقاب في حياته». لكن ما العمل؟ حتى زوجة العجوز لو لم تنجُ من العقاب، إذ ظهرعلى صدرها دمّلٌ كبير. والشابّات والشبّان العازبون ما كانوا لينجوا من الكارثة لو أنّهم لم ينتقلوا إلى أماكن بعيدة جدًّا عن القرية.

تسألك هل انتهيت؟

نعم، انتهت القصّة.

تقول إنّها لا تستطيع احتمال هذه القصّة.

لأنها من قصص الرجال.

تسألك: وهل هناك قصص رجال وقصص نساء؟

تقول إنّه يوجد، بطبيعة الحال، قصص رجال، أي قصص يرويها الرجال للنساء وقصص رجال تحبّ النساء سماعها. تسألها: أيّها تريد سماعها؟

تجيبك أنّ قصصك تزداد خبثًا وابتذالاً أيضًا.

تقول إنّ هذا بالضبط عالم الرجال.

ما القول إذًا عن عالم النساء؟

وحدهنّ النساء يعرفن عالم النساء.

ألا توجد أيّة وسيلة للتواصل بينهما؟

إنّهما مقاربتان مختلفتان جدًّا.

لكنّ الحبّ يسمح لنا أحيانًا بالتواصل.

تسألها: هل تؤمنين بالحبّ؟

تجيبك: ما دمت لا تؤمن بالحبّ فلماذا تحبّ؟

هذا يعني أنّها تريد الإيمان به، هي أيضًا.

إذا كان الأمر يقتصر على إشباع الرغبة دون حبّ، فأيّة أهمّيّة للحياة؟

تقول إنّ هذه فلسفة امرأة، ليس أكثر.

توقّف عن التحدّث دومًا عن النساء، لكنّ النساء هنّ أيضًا كائنات بشريّة.

جميع الكائنات البشريّة جبلتهم نووا[1] من التراب.

أهذا رأيك بالنساء؟

تقول إنّك تعرض الوقائع ليس إلاّ.

عرض الوقائع هو أيضًا إبداء رأي.

تقول إنّ لا رغبة لك في الجدال.

---

(١) نووا شخصيّة أسطوريّة على هيئة مسخ، نصفها امرأة ونصفها سمكة، زوجة فوش أو شقيقته، وهو أحد الأباطرة الأسطوريّين، يُقال إنّها أصلحت قبّة السماء وخلقت الإنسان بجبله من الطّين.

الفصل الثاني والثلاثون

تقول إنّك أنهيت رواية قصّتك، الشبيهة بقصّة سمّ الأفعى «كي»، مع ابتذال أقلّ وبشاعة أقلّ، الأفضل لك الاستماع إلى قصص النساء، أو القصص التي ترويها النساء للرجال.

تقول إنّها لا تتقن رواية القصص. ليست مثلك تستطيع الكلام في كلّ الأمور دفعة واحدة. هي ترغب في قول الحقيقة أكثر من أيّ شيء آخر. الحقيقة بدون تكلّف.

حقيقة النساء.

لماذا حقيقة النساء؟

لأنّ حقيقة الرجال مختلفة عن حقيقة النساء.

تزداد غرابة.

لماذا؟

لأنّك نلت ما كنت تريده، وأنتم الرجال، ما إن تحصلوا على شيء حتى يصبح دون أهمّيّة في نظركم.

حسنًا، هل تعترفين أنت أيضًا أنّه خارج عالم الرجال، هناك عالم النساء؟

كفّ عن الكلام عن النساء معي.

إذًا، عمَّ تريدين أن أتكلّم؟

تكلّم عن طفولتك، تكلّم عن نفسك.

لم تعد تريد الاستماع إلى قصصك. تريد التعرّف على ماضيك، وطفولتك وأمّك وجدّك العجوز، وعلى أدقّ التفاصيل في حياتك. ذكرياتك عندما كنت لا تزال في المهد، تريد معرفة كلّ شيء عنك، عن مشاعرك الأكثر غموضًا وخفاء. تقول إنّك نسيت أصلاً كلّ شيء. تريد فقط أن تساعدك على استعادة الوقائع والناس الذين نسيتهم. تريد أن تسترجع معك كلّ ما تختزنه ذاكرتك، أن تنفذ إلى أعمق أعماق نفسك، وتحيا معك حياتك السابقة.

تقول إنّها تريد أن تمتلك روحك، تجيبك عن هذا بلا ضبط ما تريده. تريدك بكلّيّتك.

تقول لها إنّها تريد أن تمتلك روحك، فتجيبك أنّ هذا بالضبط ما تتوق إليه، فهي لا تريد امتلاك جسدك فقط بل تريدك بكلّيّتك. وعبر صوتك، تريد الدخول إلى ذاكرتك والاستحواذ على ذكرياتك، واختراق مكنونات روحك وإثارة خيالك، تريد أن تصير روحك.

تقول، أنتِ ساحرة حقيقيّة. تجيبك إنّ هذا بالضبط ما تتوق إليه، تريد أن تصبح أطراف أعصابك. تريدك استخدام أصابعها لكي تلمس

وعينيها لكي ترى. تريد أن تشاركك في أحلامك، أن تتسلّقا معًا جبل الروح، وتريد أن تتأمّل روحك بكلّيّتها، من أعلى قمّة ذيّاك الجبل، تتأمّل، ولا شكّ غوامض كيانك التي لا تُرى وأسرارك التي لا يُباح بها. تقول، بقساوة، إنّك يجب ألاّ تخفي عنها شيئًا، ولا حتى عيوبك، تريد أن ترى خفاياك كلّها في وضح النهار.

تسألها عمّا إذا كانت تريد منك أيضًا أن تعترف؟ آه، لا تتكلّم بهذا القدر من الوقار. أنت من شاء ذلك. تسألك، أليست هذه سطوة الحبّ؟

تقول إنّك لا تستطيع مقاومتها، تسألها من أين تبدأ، تقول لك بأن تخبرها ما تشاء شرط أن تتكلّم عن نفسك.

تقول إنّك حين كنت صغيرًا، صادفت قارئ بخت، لكنّك لم تعد تذكر بالضبط ما إذا كانت أمّك أم جدّتك لأمّك هي التي اصطحبتك لرؤيته.

ليس هذا مهمًّا، تقول لك.

الأمر الذي تتذكّره بوضوح كبير هو أنّ هذا المنجّم كانت له أظافر طويلة جدًّا، وأنّه استخدم قطع شطرنج من النحاس الأصفر، لكي ينظّم الدلالات الثماني الموازية لولادتك. وضعها على لوحة الكلمات الثماني المثلّثة الأحرف وأدار البوصلة. تسألها هل سمعتم من قبل يتحدّثون عمّا يُسمّى بـــ «فنّ الدبّ الأكبر». إنّها معادلة رقميّة معقّدة جدًّا، تسمح بمعرفة مستقبل البشر وتفاصيل حياتهم وساعة موتهم. عندها صفّ البصّار قطع الشطرنج المصنوعة من النحاس الأصفر، وأخذ يقرقع بأظافره على الرقعة بطريقة مرعبة متمتمًا اللعنات: «باباكاكا، باباكاكا»

ثم أعلن أنّ الطفل سيصادف في حياته صعوبات جمّة، وأنّ والديه كانا يريدان استعادته في حياة سابقة، وأنّ تربيته ستكون شاقّة للغاية، لأنّ الديون المتراكمة كانت كثيرة! سألته أمّك أو ربّما جدّتك لأمّك، كيف يمكن أن نتحاشى مخاطر القدر. قال إنّ على الطفل أن يبدّل صورته كي لا تتمكّن أشباح الناس الذين وقعوا فريسة الظلم من التعرّف إليه، عندما سيأتون للبحث عن روحه. استغلّت جدّتك غياب أمّك عن المنزل، تذكر ذلك بوضوح كلّيّ، وأرادت أن تثقب لك أذنك. فركت شحمة الأذن بحبّة فاصوليا مونغو، ثم دعكتها بالملح زاعمة أنّ ذلك يخفّف من الألم. ولفرط ما دعكتها تورّمت الشحمة وأخذْتَ تشعر برغبة جامحة في حكّها. لكن، قبل أن يتسنّى لها ثقبها بالإبرة، عادت أمّك واعترضت على ما تفعله جدّتك. فأذعنت للأمر وهي تهمهم، لكنّك، آنذاك، لم تكن مؤهّلاً لإبداء رأيك في هذا الشأن.

تسألها ماذا تريد أن تسمع أيضًا. تقول إنّ طفولتك لم تكن تعيسة، إنّك لم تُحرم من استعارة عصا جدّك لتساعدك على دفع دست ليعوم فوق مياه الأزقّة بعد انحسار العاصفة. تذكر أيضًا أنّك، في الصيف، تمدّدت على سرير الخيزران، ورحت تعدّ النجوم عبر كوّة السقف، وتبحث عن واحدة لتصنع مجموعتك الخاصّة بك. لا تزال تذكر أيضًا أنّه، عند الظهر يوم عيد التنانين، أمسكتك أمّك وطلت لك أذنك بزرنيخ أحمر ممزوج بالكحول، ثم أرادت أن ترسم على رأسك كلمة Wang أي الملك. كانوا يقولون إنّ هذا يقي من الجرب والدمامل خلال الصيف. خشيت أن تظهر بمظهر بشع وتصارعت مع أمّك ولذت بالفرار قبل أن تنهي كتابتها. الآن توفّيت أمّك وغادرتْ هذا العالم منذ زمن طويل.

تقول إنّ أمّها توفّيت أيضًا، في مجمّع مدرسة ٧ أيّار. توجّب عليها الرحيل إلى الريف، رغم مرضها. آنذاك، كانت المدينة كلّها في حالة حرب وتتهيّأ لإجلاء السكّان عنها. قيل إنّ السوفيات سيشنّون هجومهم. أوه تقول. هي أيضًا هربت، ورصيف المحطّة كان مليئًا بالحرّاس، ليس فقط الجنود الذين وضعوا شعارين حمراوين على ياقاتهم، ولكن أيضًا ميليشيويّون يرتدون بذلات عسكريّة مزيّنة بشارات حمراء اللون. على المحطّة، اصطُحب تحت الحراسة، فريق من المعتقلين في معسكرات العمل. كانوا أشبه بمتسوّلين يرتدون الأسمال البالية، كان العجائز والرجال والنساء، وكلّ واحد فيهم يحمل رزمة من الأغطية وطاسًا وقصعة في يده، يغنّون بأعلى صوتهم: «أقرّ بذنبك مطأطئ الرأس، تلك هي الحكمة، امتنع عن إصلاح نفسك، ذاك هو المأزق». تقول إنّها كانت آنذاك في الثامنة من عمرها، وإنّها أجهشت بالبكاء بطريقة بلهاء، دونما سبب ورفضت الصعود إلى القطار. متشبّثة بالأرض، راحت تنتحب وتحاول العودة إلى المنزل. أنبتها أمّها قائلة لها إنّ الريف مسلٍّ أكثر من المدينة، وإنّ الملاجئ المضادّة للطائرات شديدة الرطوبة، وإنّها إذا استمرّت في مواصلة حفر الخنادق فسوف تعرّض حقويها لأضرار بالغة. من الأفضل الذهاب إلى الريف فالهواء هناك أنقى، ولن يتوجّب عليها تدليك ظهرها كلّ مساء. وهذا صحيح، ففي «مركز تجمّع الكوادر»، كانت برفقة أمّها طيلة النهار، عندما كان الكبار يدرسون السياسة وهم يردّدون تعاليم الرئيس ماو، ويقرأون افتتاحيّات الصحف، وما أكثرها في تلك الحقبة، كانت تستطيع البقاء بين ذراعيها. وعندما يذهبون إلى الحقول، كانت ترافقهم وتبقى إلى جانبهم لتتسلّى معهم.

وعندما يحصدون الأرزّ، كانت تساعدهم في جمع السنابل. كان الجميع يهوون اللعب معها. وكانت تلك الحقبة هي الأسعد في حياتها. كانت تعشق معهد الكوادر هذا، رغم أنّها رأت العمّ ليانغ يخضع لجلسة انتقاد. رُمي عند أسفل المقعد وضُرب حتى نزف الدم منه وتحطّمت أسنانه. كانوا يزرعون البطيخ أيضًا، وما إن يشرع أحدهم في تقطيع رأس بطّيخ حتى يدعوها على الفور. لم تأكل بحياتها هذا القدر من البطّيخ.

تقول إنّك أنت أيضًا تتذكّر تلك السهرة، ليلة رأس السنة. سنة البكالوريا. كانت تلك هي المرّة الأولى التي تراقص فيها فتاة. لم تكفّ عن الدوس على قدميها. وكنت خجولاً بشكل مرعب لكنّها لم تُعر الأمر اهتمامًا. تساقط الثلج في تلك الليلة، وذابت ندفه البيضاء على وجهك. وبعد السهرة سلكت الطريق التي تقودك إلى البيت بخطى قصيرة لكي تلحق بالفتاة التي راقصتها والتي كانت تتقدّمك...

لا تحدّثني عن الفتيات الأخريات.

سأحدّثكِ عن الهرّة التي كانت عندي، وكانت كسولة جدًّا بحيث إنّها لا تمسك بالفئران حتى.

لا تحدّثني عن الهررة.

عمَّ إذًا؟

حدّثني عمّا إذا كنت رأيتها، هل رأيت تلك الفتاة.

أيّة فتاة؟

الفتاة التي غرقت.

المثقّفة الشابّة التي أقامت في الريف؟ الصبيّة التي انتحرت برمي نفسها في النهر؟

لا.

عن أيّة فتاة إذًا؟

تلك التي اجتذبتها وأنت تقول لها إنّكما ستستحمّان ليلاً، ومن ثم اغتصبتها.

تقول إنّ هذه القصّة غير صحيحة.

تجيبك أنّها واثقة من صحّة ما تقول.

تقول إنّ بإمكانك أن تقسم إنّك صادق فيما تقوله.

حسنًا، لكنّك بالطبع لمستها.

متى؟

تحت الجسر، في الظلام، أنت أيضًا لمستها، أنتم الفتيان جميعكم سيّئون!

تقول إنّك آنذاك كنت صغيرًا في السنّ وإنّ الجرأة كانت تنقصك.

إلاّ أنّك نظرت إليها مليًّا.

بالطبع نظرت إليها. لم تكن ذات جمال عادي. كانت في منتهى الجاذبيّة.

لم تنظر إليها بطريقة بريئة، نظرت إلى جسدها.

تقول إنّك فكّرت فيه فقط.

ليس هذا صحيحًا، فعلت ذلك حقًّا.

هذا مستحيل.

لا بل هذا ممكن! أنت قادر على كلّ شيء. كنت تذهب غالبًا إلى بيتها.

ماذ تقصدين؟

إلى غرفتها! تقول إنّك شمّرت عن ساقيها.

كيف؟

كانت واقفة مستندة على الحائط.

هي من شمّرت عن ساقيها بنفسها.

هكذا؟

أعلى قليلاً.

ألم تكن ترتدي ملابس داخليّة؟ ولا حمّالة نهدين؟

كان نهداها قد بزغا لتوّهما. انتصبا بالطبع لكن حلمتيها كانتا لا تزالان غائرتين!

كفّ عن الكلام.

تقول إنّها هي التي أرادت التحدّث عن ذلك.

لم ترد أن تتكلّم عن ذلك، لم تعد تريد الإصغاء.

ماذا تريدين أن أقول إذاً؟

ما تشاء، لكن لا تعد للحديث عن النساء.

تسألها ما بها.

لا تحبّها، ليست هي من تحبّها.

كيف بإمكانك أن تقولي هذا؟

عندما مارست الحبّ معها، كنت تفكّر بامرأة أخرى.

خطأ! إنّ هذا القول لا يستند إلى أيّ دليل.

تقول إنّها لم تعد تريد الإصغاء إليك، ولا تريد معرفة شيء.

سامحيني، تقاطعها قائلاً.

لا يجدر بك قول أيّ شيء. تقول إنّه في مثل هذه الحالة ستستمع إليها هي.

لم تستمع إليها قطّ.

تتعمّد أن تسألها هل كانت تأكل دومًا البطّيخ في «معهد الموظّفين الإداريّين».

أنت فعلاً نكرة.

تتوسّل إليها بأن تتابع، تعدها بألاّ تقاطعها ثانية.

تقول إنّها لم يعد لديها شيء تقوله.

الفصل الثالث والثلاثون

كلّما صعدنا مجرى نهر تايبينغ، من مقاطعة جيانغكو، إلى منبع نهر جين، تزداد جبال الضفّتين عظمة ومهابة. بعد مرورك بضيعة بانشي المأهولة بقوميّات **هان وتوجيا ومياو**، تدخل إلى نطاق المحميّة الطبيعيّة. هناك تلتقي سلاسل الجبال المخضوضرة، ويضيق مجرى النهر ويزداد عمق المياه. تقع محطّة المراقبة التابعة لنهر هيوان، وهي مبنى صغير من الآجرّ من طبقة واحدة، في آخر الجون. المسؤول عن المحطّة رجل متوسّط العمر، طويل القامة، متجهّم الوجه سبق وأخذ الثعبانين الحيّين اللذين تسنّت لي رؤيتهما، من صيّاد غريب كان مارًّا بالبلاد. أبلغني أنّ أفاعي «كي» متواجدة بكثرة عند ضفاف النهر، وخصوصًا بين أوراق شجر الـ Apocynum venetum.

ــ هنا مملكة الأفعى «كي».

وبفضل هذه الأفعى، بقيت هذه الغابة شبه الاستوائيّة بنباتاتها الغضّة مصانة من فؤوس الحطّابين حتى أيّامنا هذه.

سافر كثيرًا، بصفته جنديًا، وبصفته مسؤولاً في الحزب. لكنّه حاليًا استقال من مهامّه وآثر العزلة. ورفض مؤخّرًا تبوّؤ منصب مفوّض شرطة ورئيس محطّة الغرس في المحميّة الطبيعيّة. يفضّل البقاء هنا وحيدًا، حارسًا لهذا الجبل الذي يألفه وتربطه به أواصر الجوار والمودّة.

بحسب قوله، قبل خمس سنوات، كانت النمور لا تزال تتواجد في الغابة، وكانت تأتي لتسرق البقرات من القرية الصغيرة. أمّا الآن، فلم يعد أحد يرى لها أثرًا. السنة الماضية صادر فهدًا كان قتله الجبليّون، وأرسله إلى مكتب إدارة المقاطعة. نقعوا عظامه في الأندريد الزرنيخي للاحتفاظ بها كعيّنة، وأُقفل عليها بالمفتاح. لكنّ سارقًا دخل إلى الغرفة عبر قسطل تصريف المياه وسرقها ثم باعها بصفتها عظام نمور تُمزج بالكحول وتمنح من يشربها العمر الطويل.

قال لي إنّه ليس عالمًا بيئيًا ولا باحثًا، بل مجرّد حارس بسيط يسكن في هذه المحطّة منذ بنائها. في المبنى الصغير عدّة غرف. بإمكانه أن يستقبل الاختصاصيّين الذين يأتون من كلّ صوب، إمّا للتحرّي والاستقصاء وإمّا لجمع العيّنات. يقتصر دوره إذًا على تسهيل شؤون إقامتهم.

ـ ألا تشعر بالوحدة هنا وقد مرّ عليك زمن طويل؟

لا يبدو أنّ لديه زوجة أو أطفالاً.

ـ النساء صنف مزعج للغاية.

وروى لي عن الحقبة المنصرمة، أيّام كان جنديًا إبّان الثورة الثقافيّة. آنذاك انتسبت النساء أيضًا بأعداد كبيرة إلى هذه الحركة.

إحداهنّ، وهي جنديّة شابّة في التاسعة عشرة من عمرها، أصبحت هدّافة رفيعة المستوى في إطلاق الرصاص على صعيد الإقليم. عندما نشب النزاع المسلّح واشتدّ أواره، انطلقت إلى الجبل مع فصيلتها وقضت على المحاربين الخمسة الذين حاصروها، الواحد تلو الآخر. جُنّ قائدهم من الغضب وأمر بأن يُلقى القبض عليها حيّة. وإذ نفدت منها المؤن والذخيرة وقعت أسيرة في أيدي المهاجمين. فجُرّدت من ثيابها تمامًا وأفرغ أحد الجنود مشط بندقيّته في مهبلها وأرداها قتيلة.

حين كان مسؤولاً عن الموظّفين في منجم صغير للفحم، جرى قتال بالسلاح الأبيض بين العمّال لأجل امرأة. واجهته مشاكل كثيرة بسبب النساء. هو أيضًا كان متزوّجًا، لكنّه انفصل عن زوجته، ولم يعد يريد الكلام عن الزواج.

ــ بإمكانك المجيء، والسكن هنا لكي تؤلّف كتبك. بإمكانك المجيء ونشرب سويّة. أشرب الخمر عند كلّ وجبة، ولا أسرف كثيرًا في الشراب لكنّي مداوم على شرب كمّيّة قليلة من الكحول.

مرّ أحد المزارعين على الجسر المصنوع من جذع شجرة ملقًى فوق الماء، من أمام باب المنزل. كان يمسك في يده مشكاكًا من الأسماك الصغيرة. حيّاه مشيرًا إليه بالاقتراب، قائلاً إنّ أحد الأشخاص في ضيافته.

ــ سأقلي لك السمك بالفلفل والسمسم. إنّه لذيذ جدًّا مع الكحول.

قال لي إنّه إذا أراد أن يأكل اللحم الطازج، فبإمكانه أن يطلب ذلك من المزارعين العائدين من السوق. وفي الضيعة الأقرب، على مسافة عشرين «لي» من هنا، ثمّة دكّان صغير يبيع الكحول والسجائر. وفي

أغلب الأحيان يقتات من جبنة الصويا لأنّ المزارعين المجاورين يجعلون له حصتّة في كلّ مرّة يصنعون الجبن. كذلك يربّي بضع دجاجات، لديه إذًا دجاج وبيض على الدوام.

إنّها الظهيرة، عند سفح الجبال المخضوضرة، أحتسي الكحول برفقته وأنا أتذوّق المقالي التي أعدّها بالفلفل والسمسم وقصعة من اللحم المقدّد.

أقول:

ـ هكذا تكون حياة الخالدين.

ـ سواء كانت حياة خالدين أم لا، المهمّ أنّ الجوّ هادئ هنا. أو على الأقلّ، لا أحد يزعجنا. الأمور بسيطة جدًّا. هناك طريق واحد يقود إلى هذا المكان وهو يمتدّ أمام ناظري إلى ما لا نهاية. مهمّتي الوحيدة تقوم على حراسة الجبال.

ـ في المقاطعة، سمعتهم يقولون إنّ المحميّة الطبيعيّة لهذا الجون محروسة بشكل ممتاز. وأظنّ أنّ هذا بفضل نزاهة حارسها وتجرّده. ثم إنّه، بحسب قوله، يقيم صلات جيّدة مع الفلاّحين. وفي كلّ ربيع، يأتيه رجل عجوز بمغلّف من شروش النباتات المجفّفة.

ـ إذا مضغت بعضًا منها وأنت ذاهب إلى الجبل، تبعد عنك الأفاعي؛ فثعابين «كي» منتشرة بكثرة وهي خطرة جدًّا.

ـ وقبل أن ينهي كلامه، نهض وذهب ليحضر من غرفته مغلّفًا من الورق مليئًا بالأعشاب، ثم أخرج منه شرشًا بنّيّ اللون. سألته عن اسم العشبة فقال إنّه يجهله، ولم يخطر له أن يسأل عن اسمها. إنّه دواء سرّي متوارث عن الأجداد؛ لأنّ للجبليّين عاداتهم الخاصّة بهم.

قال لي إنّ بلوغ قمّة جبل جيندينغ يستغرق ثلاثة أيّام ذهابًا وإيابًا. وعليّ أن أتزوّد بأرزّ وزيت وملح وبيض، وقليل من الخضار بجبنة الصويا. ولكي أمضي الليلة في الجبل، عليّ الاحتماء في مغارة تحتوي على أغطية تركها فيها علماء أتوا من زمان طويل. وهذه الأغطية ستحميني من البرد، لأنّ الريح تهبّ في الجبل وقد يتحوّل الطقس إلى شديد البرودة. ثمّ قال إنّه ذاهب إلى القرية ليرى إذا كان بإمكانه إحضار أحد لمرافقته فأستطيع البدء بالمسير من اليوم، ورحل سالكًا الجسر الخشبي.

ذهبت للقيام بجولة في أرجاء الجون. في الأغوار القليلة، المياه جارية وتسطع في نور الشمس. أمّا في الأماكن الظلّيلة فالمياه قاتمة وهادئة على الضفّة، النباتات غضّة فيّاضة إلى حدّ بعيد، أخضرها داكن مائل إلى السواد وتنبعث منها رطوبة مقلقة، للحال يخيّل للناظر أنّ المكان أشبه بمهلكة تغصّ بالأفاعي. أصل إلى الضفّة الأخرى وأنا أجتاز بدوري الجسر الخشبيّ. خلف الغابة، ضيعة منزوية من خمسة أو ستة بيوت خشبيّة قديمة، جدرانها من الألواح الخشبيّة ودعائمها مسودّة بفعل الرطوبة العالية التي تسبّبها الأمطار الغزيرة.

هدوء كليّ يهيمن على القرية. ما من صوت بشريّ. أبواب البيوت مفتوحة على مصاريعها، وفي الأروقة المسقوفة التي لا درابزون لها تتكدّس الأعشاب الجافّة والأدوات الزراعيّة والأحطاب المقطّعة وعيدان الخيزران. أتهيّأ للدخول إلى أحد المنازل لإلقاء نظرة فينقضّ عليّ فجأة كلب مشاكس ذو وبر أسود ورمادي وهو يعوي بشراسة. أتراجع إلى

الخلف بسرعة كبيرة وأعود إلى الضفّة الأخرى. وعندئذٍ، أستغرق في تأمّل الجبال العملاقة الرماديّة الخضراء التي سُلِّطت عليها أشعّة الشمس خلف المبنى الصغير لمحطّة المراقبة.

خلفي، تدوّي ضحكة امرأة تجتاز الجسر. فوق كتفها، تتمايل حمّالة تلتفّ عليها أفعى ضخمة يبلغ طولها خمس أقدام أو ستًّا وهي تحرِّك ذيلها. تؤشّر لي المرأة، هذا واضح، لكنّي لم أفهم ما قالته إلى أن دنت من النهر.

ـ هاي أنت! هل تشتري منّي الحيّة؟

ومن دون أن تنتظر جوابًا عاودت الضحك، ثمَّ أمسكت الحيّة بيدها وصوّبتها نحوي وهي داخل الحمّالة. لحسن الحظّ، وصل رئيس المحطّة في الوقت المناسب وصرخ بها بنبرة مؤنّبة:

ـ عودي إلى بيتك! هل سمعت! عودي بسرعة.

تراجعت المرأة حتى الجسر، طوعًا أم كرهًا، وابتعدت بهدوء.

ـ إنّها مزعجة. ما إن ترى غريبًا في القرية حتى تبيّت له شرًّا في نفسها.

لقد عثر لي على فلاّح يستطيع أن يكون حمّالاً ومرشدًا في الوقت نفسه، لديه بعض الأعمال سيقوم بها في منزله وسيحضّر لي ما أحتاج إليه من الأرزّ والخضار لعدّة أيّام. أستطيع المباشرة في السير وهو سيوافيني. الجبليّون يعرفون الطريق جيّدًا، ومرشدي سيلحق بي سريعًا وفي حوزته المؤونة. هناك درب واحد فقط ولا يمكن أن أضلّ. على

مسافة أبعد، تقدّر بسبعة «لي» أو ثمانية يوجد منجم نحاس، استُثمر قليلاً لكنّه هُجر منذ وقت طويل. إذا تخلّف مرشدي عن الموعد المحدّد، أستطيع الاستراحة فيه.

نصحني بأن أتخلّى عن حقيبتي المحمولة على الظهر، لأنّ الفلاح سيتولّى حملها عنّي. ثمّ أعطاني عصًا تساعد على ارتقاء الطرقات الوعرة، وتسمح لي باتّقاء خطر الأفاعي. وأخيرًا، نصحني بأن أمضغ قطعة من الشرش الذي أعطانيه. فوجّهت إليه تحيّتي. لوّح بيده باتّجاهي قبل أن يعود إلى منزله، وما لبثت صورته أن اختفت واحتجب عنّي برأسه المسطّح ووجهه الأسود الهزيل وذقنه الذي تغطّيه لحيته النابتة.

والآن، لا أستطيع أن أتمالك نفسي عن التفكير به، بهذا التجرّد الذي يبديه إزاء الحياة. أفكّر أيضًا بالضفّة القاتمة، في الجانب الآخر من الجسر، ببيوت القرية الخشبيّة المسودّة. بالكلب المشاكس ذي الوبر الأسود الرماديّ، بالمرأة التي تلهو بالأفعى فوق حمّالتها. يبدو وكأنّهم جميعًا يريدون أن يقولوا لي شيئًا ما، تمامًا كما الجبل العملاق خلف المبنى الصغير. ثمّة سحر هائل ينبعث من كلّ ما يحيط بي، وليس بمقدوري أن أدرك كنهه.

الفصل الرابع والثلاثون

تتقدّم في الوحل تحت الرذاذ. الطريق هادئ وصامت ما خلا وقع أقدامك الرتيبة فوق الأرض الرّطبة. تنصحها بأن تمشي هناك حيث التراب أكثر جفافًا. وفجأة تسمع صوتًا يحدثه سقوطها على الأرض. تلتفت فتجدها ممدّدة في الوحل. ذراعها مسندة إلى التراب وآثار العجز بادية على وجهها. تتقدّم لمساعدتها لكنّها تنزلق من جديد وتتّسخ يدها أكثر فأكثر. تنصحها بأن تخلع كلّيًّا حذاءها ذا الكعب العالي. فتبدأ بالبكاء والنحيب، وهي عاجزة عن الحراك وسط الوحل. تقول لها، لا بأس إذا كنت متّسخة، ليس الأمر بخطير، ولا بدّ من التوجّه إلى أحد البيوت المجاورة للاغتسال. لكنّها ترفض التقدّم.

تقول لها هذه حال النسوة. يردن اجتياز الجبال دون مشقّة.

تقول لك إنّها لم يكن يُفترض بها أن تتبعك على هذه الدرب الوعرة.

تقول لا، ليست الجبال مشاهد خلاّبة وحسب وإنّما يجب مواجهة المطر والريح. وبما أنّها هنا فليس هناك ما تتحسّر عليه.

تقول إنّك خدعتها، فلا أحد على الدرب المفضية إلى جبل الروح الشيطانيّ هذا.

تقول، إذا كانت الكائنات البشريّة هي التي تسعى إلى رؤيتها وليس الجبال، فهي ترى منها ما يكفي في شوارع المدينة، ما عليها إلاّ الذهاب إلى السوبر ماركت، والتجوّل في قسم الحلويات أو مساحيق التجميل، هناك حيث النساء يجدن سعادتهنّ.

عندئذٍ تجهش بالبكاء وتغطّي وجهها بيديها المتّسختين، كطفل يبدو عليه أنّه يصطنع الحزن قليلاً. تفقد صبرك، ترغمها على النهوض وتسندها كي تتقدّم.

تقول، يجب ألاّ تبقى هنا وسط المطر، في جميع الأحوال. ربَّما كان هناك على مسافة أبعد منزل وفي هذا المنزل نار، والنار تعني الدفء. وحينها لن تشعر بأنّها تائهة فتجد القليل من العزاء.

أنت تعرف، بالطبع، أنّ المنازل خلف هذه الجدران المتهالكة متهدّمة، وقدورها صدئة منذ زمن طويل. وعلى هذه الأكمة التي غزاها العشب البرّي، وخلف هذه القبور حيث نُصبت رايات من الورق الذاوي، لا يُسمع شيء، ولا حتى شبح امرأة تنتحب. ليتك في هذه اللحظة بالذات تجد منزلاً في الجبل فتستبدل ثيابك المبلّلة بثياب جافّة نظيفة، وتجلس في كنبة خيزران أمام النار، حاملاً فنجانًا من الشاي الساخن في يدك، وأنت تراقب المطر المتساقط وراء الجدران وتروي لها قصصًا للأطفال. لا تمتّ بصلة إلى عالم الرجال! ستكون أشبه بفتاة صغيرة عاقلة، بابنة جبليّ وحيد، وستندسّ بك وتجلس فوق ركبتيك.

ستقول إنّ جنّيّ النار فتى صغير أحمر، عارٍ تمامًا ويعشق القيام بالحيل المخادعة. وهو يظهر دومًا في الغابات المقطوعة حديثًا، ويتعمّد تحريك الطبقة السميكة للأوراق اليابسة، ويتسلّق الأغصان عاري المؤخّرة ويقفز بينها.

ثم تخبرك قصّة حبّها الأول، وتذكر بالأحرى تجاوبها الأوّل مع الحبّ، حبّ فتاة ساذجة في مقتبل العمر. آنذاك، كان عائدًا لتوّه من مزرعة إعادة التأهيل بواسطة العمل. لم يتغيّر. كان لا يزال كئيبًا سوداويًّا. كانت تستمع إليه بشغف وهو يروي لها عن أنواع العذاب التي قاساها.

تقول إنّها قصّة قديمة. قصّة حفظتها عن والد جدّكَ. كان يقول إنّه رآه، رآه بأمّ عينيه ذاك الفتى الأحمر خارجًا من تحت الشجرة التي قطعها السنة الفائتة، ومتّجهًا إلى زهرة الكاميليا. هزّ رأسه لظنّه أنّ عينيه العجوزتين أصابهما انبهار. انطلق إلى الجبل ليقطع جذع شجرة زعرور كان أحد بناة السفن في شيانغشوي قد أوصاه عليها. خشب الزعرور خفيف وصلب يصلح لبناء السفن.

تقول إنّها كانت آنذاك في السادسة عشرة من عمرها، وهو في السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين. كان بإمكانه أن يكون أباها. على أيّ حال، كان صديقًا قديمًا لأبيها أيّام كان طالبًا في الجامعة، وصديقًا لفترة طويلة. بعد انتهائه من فترة إعادة تأهيله، لدى عودته إلى المدينة، لم يعد يعرف أحدًا. كان يتردّد دومًا إلى بيتهم ويحتسي الكحول مع والدها، ويخبره عن حياته في معسكر إعادة التأهيل الذي أُدخل إليه،

بتهمة أنّه من أنصار اليمين السياسي. وكانت تصغي إليه وعيناها دامعتان. لم يكن قد استعاد عافيته تمامًا، كان هزيلاً، مختلفًا جدًّا عمّا سيصيره لو أنّه تبوّأ منصب نقيب المهندسين. كان سيرتدي عندئذٍ بذلة على الطريقة الفرنسيّة، وقميصًا ذا قبّة بيضاء، مكويّ بعناية، مفتوح يضفي عليه أناقة فعليّة. لكنّها، آنذاك، كانت كأنّها سكرى به وتحبّه. أرادت أن تبكي لأجله، ولم تكن تفكّر إلاّ بحمل عزاء قليل إلى نفسه لكي يمضي الفترة الأخيرة من حياته سعيدًا. وترغب فقط في أن يتقبّل حبّ الصبا هذا الذي تكنّه له، ولا تريد أيّ شيء غير ذلك.

تقول، آنذاك، كان أبو جدّك نازلاً من الجبل، حاملاً جذع الزعرور فرأى جنّيّ النار يتسلّق شجرة الكاميليا. لم يبطئ في مشيته، ومن دون أن يطيل النظر فيه، عاد إلى المنزل وألقى بحمله أرضًا. وقبل دخوله إلى المنزل، هتف قائلاً: «يا للمصيبة!» آنذاك كان جدّك لا يزال حيًّا فسأله: ماذا هنالك يا أبي؟ فأجابه أنّه رأى جنّيّ النار تشورونغ، وأنّ أيّام الرغد والهناء ولّت إلى غير رجعة.

لكنّها تقول إنّ صديق والدها لم يكن يعرف شيئًا، كان غبيًّا. لم يقل لها إلاّ في ما بعد، حين أصبحت طالبة في الجامعة بأنّ لديه زوجة وابنًا. انتظرته زوجته عشرين سنة. وكان ابنه أكبر سنًّا منها. وعلاوة على ذلك، كان والدها من أصدقائه القدامى، فكيف بإمكانه أن يعاملها هكذا؟ أيّ جبان! أيّ حقير! تقول إنّها شتمته وهي تبكي. وإنّها هي التي سعت إلى لقائه. استأذنت والدها بالانصراف، متذرّعة بأنّها ذاهبة لزيارة صديقتها التي تسكن في المبنى نفسه. كانت تناديه العمّ كاي. قالت له:

«أنكل كاي، لديَّ شيء أريد أن أقوله لك». «حسنًا، هيّا نمشِ ونثرثر». لا، لا يمكنها أن تتكلّم هكذا، وسط الشارع. فأمعن في التفكير قليلاً وحدّد لها موعدًا في مطعم المنتزه.

تقول إنّ الكوارث توالت بعد ذلك. كنت لا تزال صغيرًا وليس بوسعك أن تحمل بندقيّة ولا أن تمارس الصيد معهم. ليس بوسعك إلاّ أن تتبعهم حاملاً المعزقة على كتفك، لكي تقتلع نبتات البامبو البازغة حديثًا. كان أبو جدّك أحدب منذ ذلك الحين، وقد نبتت كرة ضخمة من اللحم على كتفه بسبب نقل جذوع الأشجار الثقيلة على منكبيه. قال لك أبوك إنّه كان في شبابه صيّادًا لا يُضارع. ومع ذلك، فقد قُتل بعد يومين من رؤيته الطفل الأحمر. اخترقت الرصاصة مؤخّر جمجمته وخرجت من عينه اليسرى. سابحًا في بركة دمه، نجح في بلوغ عتبة البيت حيث أسلم الروح، ملطّخًا في طريق عودته جذور شجرة الكافور القديمة في الباحة. ولم تكتشف زوجته جثّته إلاّ عند الصباح الباكر عندما استيقظت لإطعام الخنازير، لم تسمع أيّة صرخة أثناء الليل.

قالت إنّها جلست أمام الطاولة في المطعم، ولم تتحدّث إلاّ عن مدرستها، عن أشياء لا تعنيه. بعد تناول الطعام، اقترح عليها القيام بجولة في المنتزه. وعندما أصبحا في ظلّ الأشجار، تصرّف كما يتصرّف جميع الرجال. كان مخمورًا، فهَمّ بتقبيلها لكنّها صدّته، قالت له إنّها ستظلّ تدعوه العمّ كاي، وإنّها كانت تريد فقط أن يعرف مدى محبّتها له، وإنّها لن تغفر لنفسها لو أنّها سلّمت نفسها لأحد لا يحبّها. كانت لحظة طيش وذاك الرجل هزئ بها، أجل، هذا ما حصل، لقد هزئ بها.

وهي انصاعت لنزوة عابرة، حين سمعها تتكلّم على هذا النحو أراد احتضانها بين ذراعيه لكنّها أفلتت منه.

تقول إنّ النهار لم يكن قد طلع تمامًا. في بادئ الأمر تعثّرت جدّتك به ثم راحت تولول وتصرخ. كانت آنذاك حبلى بأبيك. وكان جدّك هو من نقل الجثّة إلى المنزل. قال إنّ أبا جدّك وقع في أحد الأفخاخ وإنّ الرصاصة التي أصابته من الخلف محشوّة بنتف الحديد لاصطياد الخنازير البريّة. قال جدّك أيضًا إنّه، بعد موته بوقت قصير، اندلعت النار في الجبل، وإنّ الحريق ظلّ مشتعلاً في الغابة لمدّة عشرة أيّام متتالية. مستحيل إطفاء هذه النار. أنار ضوؤها المساء، محوّلاً جبل هوري إلى بركان حقيقي. قال جدّك بأنّ أباه قُتل بالضبط لحظة اشتعال النيران، وفي ما بعد، راح يؤكّد أنّ وفاة أبيه لم يكن لها علاقة بالصبي الأحمر، وإنّه وقع في فخّ نصبه له عدوّ شخصيّ. حتى وفاته، أراد جدّك القبض على القاتل. لكن حين روى لك والدك هذه القصّة، اكتفى بإطلاق تنهيدة دون أن يعقّب على الأمر.

تقول إنّه هو أيضًا صرّح لها بحبّه، لكنّها بادرته بالقول «إنّك ترتكب خطأً فادحًا!». كان يزعم أنّه فكّر فيها فعلاً، لكن فات الأوان، سألها عن السبب. أيّ سؤال! لماذا لا يستطيع تقبيلها قبلة واحدة فقط. فقالت إنّها قد تضاجع أيّ رجل آخر إلاّ هو. وهتفت: «اغرب عن وجهي. لم تستطع أبدًا أن تفهم حقيقة مشاعري». شعرت بالكره تجاهه، لم تعد تريد رؤيته وصدّته بقوّة.

تقول لها إنّها ليست ممرّضة كما تزعم، لم تروِ لك إلاّ أكاذيب طيلة الطريق. لم تتحدّث عن صديقة لها بل عن نفسها وعن تجربتها بالذات. أنت أيضًا لم تتحدّث عن والدي جدّيك ولا عن جدّك ولا عنك، تجيبك. اختلقت قصصًا كي تثير الذعر في نفسها. فتقول لها إنّك أبلغتها مسبقًا بأنّ الأمر متعلّق بقصص للأطفال. تجيبك أنّها ليست طفلة صغيرة، وأنّ هذا النوع من الخرافات لم يعد يستهويها. ترغب فقط في العيش بشكل طبيعي، لم تعد تؤمن بالحبّ، لقد تعبت من حياتها، وجميع الرجال ماجنون. والنساء؟ تسألها. هنّ أيضًا حقيرات، تقول لك. لقد مرّت بتجارب عديدة ولم يعد لديها رغبة في الحياة. لا تريد أن تتعذّب أكثر، ولا تتوق إلاّ للحظة سعادة بسيطة. تسألك عمّا إذا كنت لا تزال راغبًا فيها.

هنا، على هذه الأرض المبلّلة؟

أليس هذا مثيرًا أكثر؟

تقول إنّها فعلاً خسيسة. فتسألك: أليس هذا بالضبط ما يحبّه الرجال. الأمر بسيط وسهل ومثير فوق هذا، وعندما ينتهي فإنّه ينتهي إلى غير عودة. تسألها كم من الرجال ضاجعت؟ أكثر من مئة، على الأقلّ. لا تصدّقها.

ما الذي يمكن تصديقه؟ وما الذي لا يمكن تصديقه؟ في الواقع، قد يكون الأمر صحيحًا لأنّ دقائق معدودة تكفي.

في المصعد؟

ولماذا في المصعد؟ لا بدّ أنّك رأيت ذلك في أفلام غربيّة، يمكن القيام بذلك في أيّ مكان، تحت شجرة أو في زاوية أو وراء جدار...

مع رجل مجهول تمامًا؟

هذا أفضل، أشعر بانزعاج أقلّ إذا تقابلنا مرّة أخرى.

تسألها هل فعلتِ ذلك مرارًا؟

فقط حين أرغب في فعله.

وعندما لا تجدين رجالاً؟

لا يصعب العثور عليهم. يتبعون المرأة لمجرّد أن ترمقهم بلحظها.

تقول إنّك لست أكيدًا أنّك ستلاحقها لدى أقلّ نظرة ترمقك بها.

تقول، ربّما أنت لا تملك الجرأة ولكنّ بعض الرجال يجرؤون. أليس هذا ما يريده الرجال؟

حسنًا فأنت تتسلّين مع الرجال إذًا.

ولماذا لا يكون هناك إلاّ الرجال الذين يتسلّون مع النساء؟ أيّ عجب في ذلك؟

كمن يسلّي نفسه بنفسه.

ولم لا؟

على هذا الوحل!

ثم تقول لك وهي تضحك إنّها تطمئنّ لحضورك، لكنّ هذا لا يُسمّى حبًّا. وعليك أيضًا أن تحتاط للأمر في حال بدأت فعلاً تحبّك.

ستكون هذه كارثة.

عليك أم عليها؟

عليك وعليها.

أنت فعلاً ذكي، تقول. ما تحبّه فيك هو هذا الذكاء خصوصًا.

تجيبها آسفًا ليتها تحبّ جسدك.

تقول، لجميع الرجال أجساد. ثم تضيف أنّها لا ترغب في أن تشقى كثيرًا في هذه الحياة. تطلق تنهيدة طويلة قبل أن تسألك أن تروي لها قصّة سارّة.

أن تخبرها أيضًا عن النار؟ أو عن الطفل الأحمر ذي المؤخّرة العارية؟

كما تشاء.

تقول إذًا إنّ جنّيّ النار هذا تشورونغ، الطفل الأحمر، كان إله هذا الجبل الكبير. في أسفل جبل هوري معبد مهجور مكرّس لجنّيّ النار، وقد نسي الناس أن يقدّموا له الهبات، وراحوا يستأثرون بالكحول واللحوم، دون أن يعيروه اهتمامًا، فغضب الإله المنسيّ من الجميع. وعندما كان أبو جدّك...

لماذا لا تتابع؟

في الليلة التي توفّي فيها، وفيما كان الجميع غارقين في نوم عميق، غمر ضوء ساطع الجبل القاتم. وعندما اشتمّ الناس رائحة الحريق التي

حملتها الريح، بدأ الناس يشعرون بالاختناق وهم نيام، فنهضوا بسرعة وشاهدوا ألسنة النار، فأُصيبوا بالذهول. في الصباح، غمر الدخان كلّ شيء، وكان أوان الرحيل قد فات. الحيوانات المفترسة التي تولاّها الذعر من النار لاذت بالفرار. ولجأت النمور والفهود والخنازير البرّيّة والذئاب إلى مجرى السيل. وحدها مياه النهر وقفت سدًّا في وجه النار. الحشد الذي تجمّع عند الضفّة لكي يتأمّل الحريق رأى طائرًا أحمر عملاقًا ذا تسعة رؤوس يحلّق فوقهم. راح يقذف النار وهو يبسط ذيله الطويل الذهبي ويطلق صرخة أشبه بالصرخة التي يطلقها المولود الجديد، ثم توارى في السماوات. هوت أشجار دهريّة عملاقة من عليائها كالريشة، وسقطت في أتّون النار المستعرة مرسلةً فرقعات صاخبة...

الفصل الخامس والثلاثون

في الحلم، أرى الجرف ينشقّ خلفي ويُسمع أزيز تصدّعه، وبين الصخرتين تبرز السماء رماديّة لؤلؤيّة، تحت السماء زقاق مقفر هادئ، وفي أحد جوانبه باب معبد، أعرف أنّه يفضي إلى معبد كبير. الباب لا يُفتح أبدًا، وأمام المدخل نُصب حبل من النيلون عُلّقت عليه ثياب أطفال مغسولة، أعرف هذا المكان، جئت إلى هنا من قبل، إنّه معبد الملكين الاثنين في مقاطعة غوان، أتنزّه على ضفّة السدّ الذي يفصلني عن مياه النهر الهادرة عند قدميّ، وعلى الضفّة الأخرى المقابلة، خرائب معبد آخر، غُيّرت وجهة استعماله. أردت الدخول إلى هناك لكنّي لم أجد الباب، رأيت فقط الأفاعي. الأسماك زاحفة على السقيفات الأماميّة، سوداء اللون، ملتفّة، متدلّية فوق جدران الباحة. أتمسّك بحبل وأتقدّم قليلاً، على ضفّة النهر المزبدة، رجل يصطاد السمك، أريد الذهاب إليه، تكاد الماء تغمرني ولا يسعني إلاّ التراجع، تحاصرني المياه من كلّ جانب، وأنا، في وسطها، أعود طفلاً. أنا في هذه اللحظة، واقف أمام هذا المدخل، أنظر إلى نفسي وكأنّني طفل صغير، أرتدي حذاء من القماش، ولا يمكنني التراجع أو التقدّم، على جلدة حذائي أزرار من القماش، في

المدرسة الابتدائيّة، كان أصدقائي يقولون إنّني أرتدي أحذية نسائيّة، كانوا يضايقونني، ومن أفواه هؤلاء الصبية بالذات، أبناء الشوارع، عرفتِ معنى هذه الشتيمة، كانوا يقولون أيضًا إنّ النساء بضاعة رديئة، وإنّ السيّدة الضخمة التي تبيع الكعك في زاوية الشارع تحاول التحرّش بالرجال. كنت أعرف أنّها كلمات بذيئة تتّصل بالعلاقة الجنسيّة بين الرجال والنساء، لكنّ طبيعة هذه العلاقات بقيت غامضة جدًّا في ذهني. كانوا يقولون إنّي مغرم بالفتاة الصغيرة الهزيلة السحماء، زميلتي في الصفّ، التي أهدتني بطاقة معطّرة. احمرّ وجهي خجلاً. وذات يوم، بعد دخولي إلى المرحلة الثانويّة، أثناء العطلة، التقيت هؤلاء الفتيان إبّان حفلة سينمائيّة مخصّصة لتلاميذ المدرسة، قالوا لي إنّ الفتاة ازدادت جمالاً وأصبحت صبيّة في منتهى السحر والجاذبيّة، وإنّها سألت عن أخباري. سألوني لماذا لم أواعدها على اللقاء حتى الآن. وبعدئذٍ، استيقظت في نفسي الشهوة إلى النساء. وبلغت فيَّ الجرأة إلى أن أمدّ يدي للمس الجزء الأسفل من جسد امرأة. لم أكن بهذه الشجاعة في ما مضى، كنت أعرف أنّني أنقاد في درب الانحطاط، لكنّي أحببت هذا سرًّا، ربّما كنت أعرف أنّ امرأة هي مرادي، ولا أستطيع بلوغها، وجهها الجميل، لا أستطيع رؤيته. أردت أن أقبّلها بفمي الذي قبّلَتْه امرأة أخرى لم أكن أهواها في قرارة نفسي بل أنال ما أشتهيه منها. رأيت أيضًا عيني والدي الحزينتين، الصامتتين. أعرف أنّه توفّي الآن، أنّ هذا ليس حقيقيًّا. في حلمي، أحاول أن أطلق العنان لمشاعري ثم أسمع اصطفاق باب في الريح، أذكر أنّني نائم في مغارة جبليّة، فوق رأسي السقف الغريب يصعد ويهبط، مضاءً بالمصباح، وأنا مرتدٍ ثيابي

في أغطية مشبعة بالرطوبة، ملابسي هي أيضًا مبلّلة. وقدماي متجلّدتان. ولا أتوصّل إلى تدفئتهما، الريح عنيفة وتزأر عند كلّ اصطفاق للباب، مثل حيوان ضارٍ جريح، ممدّد في مغارة جبليّة، مدخلها موصد بلوح بسيط، أصغي بانتباه إلى زئير الريح نازلاً من أعالي الجبال ليتغلغل في الحقول والغابات.

أشعر برغبة في التبوّل، أنهض، وعلى ضوء مصباح الجيب الذي أحمله في يدي أنتعل حذائي من جديد. أدفع بقوّة اللوح الذي يسدّ الباب المصنوع من عيدان مستديرة. يصطفق الباب بعنف وينفتح مدفوعًا بالرّيح. لا يضيء المصباح، وسط ستار الليل الأسود، إلاّ الدائرة عند قدمي. أقوم بخطوتين وأفكّ أزرار بنطالي. أرفع رأسي فأرى فجأة ظلاًّ يفوق العشرة أمتار ارتفاعًا ينتصب أمامي. أطلق صرخة موشكًا أن أُسقط المصباح من يدي؛ يتحرّك الظلّ العملاق على وقع كلّ حركة تصدر عنّي. يُخيّل إليّ أنّه ظلّ الشيطان الذي أشار إليه في «مونوغرافيا جبل فنجينغ». أحرّك مصباحي فيتحرّك الظلّ. إنّه في الواقع ظلّي محمولاً في الليل.

المزارع، الذي كان دليلي، خرج لدى سماعه الضجّة حاملاً فأسه في يده. لم أستعد رشدي بعد ولم أستطع التحدّث إليه. حرّكت المصباح وأنا أهمهم حتى أدلّه على الظلّ فأطلق هو أيضًا صرخة واستولى على المصباح. ظلاّن هائلان يتواليان فوق ستار الليل الأسود. ويرقصان على وقع صرخاتنا. عجيب أن يخاف الإنسان من نفسه ومن ظلّه بالذات! مثل طفلين انساب بولنا لا شعوريًّا ونحن نرقص لكي نطرد ظلّ الشيطان. ولكي نهدّئ من روعنا ونشدّد من عزيمتنا المنهارة.

أدخل إلى المغارة فتحول الإثارة دون قدرتي على النوم. يتقلّب صديقي في فراشه هو أيضًا. أسأله أن يروي لي قصصًا عن الجبل. ويأخذ في التأتأة، لكنّه يتكلّم بلهجته المحلِّيّة وتفوتني من كلّ عشر جمل ثمانٍ. أظنّ أنّه يروي لي قصّة واحد من أقاربه لا يمتّ إليه بصلة قربى وثيقة، يعمل في هذا المجال، أو ذاك، وأنّ دبًّا اقتلع إحدى عينيه لأنّه لم يكرّم إله الجبل قبل ذهابه إليه. من المستحيل معرفة ما إذا كانت هذه طريقة لتوجيه الملامة إليَّ.

أنهض باكرًا فأنوي أن أقصد جيولونغتشي، أو بحيرة التنانين التسعة. ضباب كثيف يغمر المكان، يمشي دليلي أمامي، كأنّه ظلّ مبهم على بعد ثلاث خطوات منّي. يبتعد خمس خطوات فلا يعود يسمعني حتى لو ناديته بصوت عالٍ. لا عجب إذا كان المصباح استطاع، ليلة البارحة، أن يحدث على الضباب ظلاًّ بهذه الكثافة. بالنسبة لي هذه تجربة جديدة ولا شكّ. ولدى كلّ زفير يتصاعد بخار أبيض يملأ المساحة الفارغة في الفم. على أقلّ من مئة خطوة من المغارة، يتوقّف رفيقي ثم يلتفت إليّ قائلاً إنّه لا مجال لمواصلة السير.

ــ لماذا؟

يهمهم قائلاً:

ــ السنة الماضية، في الفترة نفسها، انطلق ستّة أشخاص إلى الجبل لجمع نباتات طبّيّة بشكل سرّي. ثلاثة منهم عادوا فقط.

ــ تقصد إخافتي، أليس كذلك؟

ـ إذا أردت الذهاب فاذهب من دوني.

أثار غيظي بعض الشيء فقلت له:

ـ لكنّك دليلي!

ـ إنّه رئيس المحطّة الذي أرسلني إليك.

ـ لكنّه أرسلك من أجلي.

لم أقل له إنّي أنا من دفعت له أجره.

ـ إذا حصل لك أيّ سوء فسأكون مسؤولاً أمام رئيس المحطّة.

ـ لست مديناً له بشيء، ليس رئيسي، ليس مسؤولاً عنّي. أريد فقط الذهاب لرؤية بحيرة التنانين التسعة.

يقول إنّها ليست بحيرة، بل هي فقط بضع مستنقعات عميقة المياه.

ـ سيّان لديّ أن تكون بحيرة أو مجرّد مستنقعات. أريد أن أرى الخزّ الذهبيّ الذي يكسو الضفّة. جئت إلى الجبل لأرى هذا الخزّ الكثيف، وأريد الذهاب للتمرّغ على هذا الخزّ.

يقول لي إنّه ليس في المستطاع التمدّد فوقه لأنّه أعشاب نابتة في الماء.

أرغب في أن أخبره أنّ رئيس المحطّة هو الذي قال لي إنّ التمرّغ على هذا الخزّ ألذّ من التدحرج على سجّادة وثيرة، لكنّي لست مضطراً أن أشرح له معنى ذلك.

يمشي أمامي صامتًا مخفض الرأس. أكمل طريقي. هذا انتصار لي: أحاول إشباع رغبتي عبر دليل استأجرته. أريد أن أثبت أنّني أمتلك إرادة قويّة، هذا هو معنى مجيئي إلى هذا المكان حيث الشياطين نفسها لا تجرؤ على الاقتراب منه.

اختفى دليلي مرّة ثانية، أبطئ الخطى قليلاً. احتجب خلف بياض الضباب. أسارع لموافاته لكنّي أصطدم بشجرة كبيرة. إذا كان عليّ أن أهتدي إلى طريقي بمفردي وسط هذه الأشجار وهذه الحقول فلن أتوصّل أبدًا إلى بلوغه. لا أملك أيّة فكرة عن اتّجاهي، فأبدأ بمناداته صارخًا بصوت عالٍ..

وأخيرًا، يظهر من جديد وسط الضباب وهو يُطلق باتّجاهي إشارة غريبة. لا أسمع صوته إلاّ حين أكون في مواجهته، ولا يزال هذا الضباب اللعين يلفّ أرجاء المكان.

أحاول الاعتذار منه:

ـ هل أنت غاضب منّي؟

ـ لست غاضبًا. ليس منك في جميع الأحوال، أنت من يفترض أن تكون لديك مآخذ عليّ.

وظلّ يحرّك يديه وهو يصرخ، لكنّ الأصوات تصل مخنوقة عبر الضباب. أقتنع أخيرًا بأنّ موقفي لا يتّسم بأيّ نوع من التعقّل.

أسير في إثره أكاد أدوس على كعبيه. بالطبع، هذا ليس مريحًا، وليس في الإمكان البتّة التمادي في السير، لم آتِ إلى هذا الجبل لتأمّل

كعبي هذا الرجل، لم جئت إذًا؟ أستشعر في الأمر فألاً سيّئًا ربّما بسبب الحلم، والظلّ الشيطانيّ الذي تراءى لي ليلة أمس، وملابسي المبلّلة بالندى، أو ربّما بسبب ليلة الأرق هذه، أو بسبب الإرهاق الذي أصابني، أحاول أن أنتشل من جيب قميصي الملتصقة بجلدي الشرش الطبّيّ المضادّ لسمّ الأفاعي لكنّي لا أجده.

ــ لا بدّ من العودة إذًا.

لم يسمعني فتوجّب عليّ الصراخ.

أصبح الوضع مثيرًا للسخرية. لكنّه لم يضحك بل اكتفى بالهمهمة:

ــ كان علينا أن نعود، منذ زمن طويل.

انتهى بي الأمر إلى الانصياع إلى رغبته. في المغارة أشعل نارًا على وجه السرعة، لكنّ الضغط الجويّ منخفض جدًّا ولا يمكن للدخان النفاذ إلى الخارج فملأ المكان كلّه، حتى تعذّر عليّ فتح عيني. جلس مرشدي قرب النار وأخذ يهمهم.

ــ ماذا تقول للنار؟

ــ أقول لها إنّنا لم نعصِ الأوامر.

ثم أوى إلى فراشه، وما هي إلاّ هنيهات حتى سُمع شخيره العالي.

إنّه كائن بسيط مرتاح الضمير، فيما أنا كائن أنانيّ، أسعى دومًا وراء رغبة روحانيّة لن يكون بمقدوري التنبّه لها عندما تتجلي لناظري. وأجهل إلى أين ستقودني تلك الرغبة.

أشعر بالغمّ في هذه المغارة الرطبة وهذه الملابس المبلّلة المتجلّدة الملتصقة بجلدي. في هذه اللحظة، أكثر ما أتمنّاه نافذة، نافذة مضيئة ينساب منها شيء من الدفء وشخص أحبّه ويحبّني. هذا كلّ شيء، ولا قيمة لما عداه. لكنّ هذه النافذة ليست إلاّ مجرّد ظلّ وهميّ.

أحلم غالبًا أنّني ذاهب للبحث عن منزل طفولتي، عن أعذب ذكرياتي. أرى في الحلم باحات متتالية، وكأنّها متاهة والممرّات التي تحفّ بها قاتمة، ضيّقة وملتوية لا منفذ لها. في كلّ مرّة أرى فيها هذا الحلم، تبدو الدروب مختلفة، أحيانًا تغدو الباحة الداخليّة حيث تسكن عائلتي ممرًّا للجيران، ولا أستطيع القيام بشيء إلاّ على مرأى منهم، ولا أستطيع ممارسة أيّ من رغباتي الحميمة العذبة، ولو كنت وحيدًا في المنزل، فإمّا الألواح الخشبيّة لا تلتصق بالسقف، وإمّا أوارق الجدران ممزّقة، وإمّا ثمّة جدار تداعى تمامًا. أتسلّق درجًا يصعد إلى الطابق الأول وأنظر إلى الأسفل فأجد الأنقاض تغطّي أرض القاعة، وفي الخارج حقل من نباتات القرع أزحف تحتها لألتقط جندبًا فيحتكّ وبر سيقان القرع بعنقي المتعرّق وذراعي، فتعتريني رغبة في الحكاك على كلّ جسدي. أحيانًا تحت الشمس الحارقة، وأحيانًا تحت الأمطار المتجلّدة، ودومًا في هذه الباحة المليئة بالأنقاض، شُيّدت منازل جديدة لا أعرف متى، نوافذها مغلقة دومًا، وتحت هذا السرادق الذي يكاد أن يكون بدون جدران تقريبًا، جدّتي لأمّي منصرفة إلى إخراج الثياب من قفّة مصنوعة من الخشب المصقول، قفّة قديمة قدم جدّتي، غطاؤها مفتوح. إنّها جدّتي التي ماتت منذ زمن طويل. لكن عليّ مع ذلك البحث عن أعذب ذكرياتي، أحلام طفولتي، أريد الذهاب للقاء أصدقاء طفولتي، ورفاقي الصغار الذين نسيت أسماءهم. كان هناك صبيّ شفته السفلى مشطوبة

لكنّه كان نزيهًا جدًّا، كانت لديه قِدر من الفخّار المطليّ بلون بنفسجيّ يربّي فيها الجنادب، كان يقول إنّ جدّه أعطاه إيّاها، كنت أحبّ أيضًا شقيقته، وهي فتاة طويلة القامة ناعمة جدًّا، لكنّي لم أتحدّث إليها قطّ. عرفت لاحقًا أنّها تزوّجت، لا تفيدني بشيء العودة إليها، ولن أجد أيضًا صديق طفولتي الصغير صاحب الشفة المشطوبة. جلت الزقاق حيث تتوالى أبواب منازلهم وسقيفاتهم الأماميّة التي تصل حتى منتصف الشارع، أسارع في العودة إلى المنزل. جدّتي لأمّي في انتظاري، حان وقت تناول الطعام وتناديني بصوت صارخ، ما إن أسمع نداءها حتى يخيّل إليّ أنّها تتشاجر مع أحدهم، وهي غالبًا ما تتخاصم مع أمّي وتغضب بسهولة. كلّما تقدّمت بها السنّ، ازداد طبعها غرابة، ولا تتفاهم مع ابنتها بالذات، لا بدَّ أنّها عادت إلى البلاد لتعيش وسط عائلتها. ولاحقًا قيل لي إنّها ماتت في المأوى. يجب أن أعثر على هذا المكان لأكون وفيًّا لأمّي التي توفّيت. في تلك اللحظة أفكّر في الأشخاص الذين توفّوا، ربّما لأنّني لا أفعل ذلك في الأيّام العاديّة، ومع ذلك كانوا الأشخاص الأقرب إليّ، في هذه المغارة الجبليّة قرب ألسنة النار الملتهبة يطيب لي استرجاع الذكريات العذبة. وأفرك عينيّ المغمضتين جرّاء الدخان، ولا أتوصّل إلى فتحهما. أنهض للخروج. يتبدّد الضباب قليلاً. أصبحت الرؤية ممكنة على مسافة أكثر من عشر خطوات. يتساقط مطر ناعم خفيف. أكتشف أنّ بقايا عيدان بخور غُرست في شقوق الصخور، وكذلك هناك غصن شجرة عُلّقت إليه قطعة قماش حمراء. هل هذه صخرة الروح التي تأتي إليها النساء لكي ينجبن صبيانًا؟

في الأعلى، أعمدة حجريّة هائلة تلتحم بالضباب. لم أكن أعتقد أنّي سأكتشف مدينة ميتة على هذه القمّة.

الفصل السادس والثلاثون

ألديك شيء آخر تقوله؟

تحدّثها عن هذه الخرائب التي يجتاحها القصب وتضربها رياح القمم العاتية، عن الحجارة المحطّمة المكسوّة بالخزّ والحزّاز، وأبي بريص الزاحف على شاهدة القبر المشقوقة.

تقول لها كيف كان الجرس في ما مضى يُقرع صباحًا والطبل مساءً، كيف كان دخان البخور يفوح ويعطّر الأجواء، كيف كان تسعمائة وتسعة وتسعون راهبًا بوذيًّا يسكنون في الغرف الألف التي يحتويها المعبد، كيف كانت تُقام، أيّام النيرفانا، تجمّعات دينيّة مهيبة.

تقول، حين كان البخور يتصاعد من المباخر التي لا تُحصى، يهرع المؤمنون من مسافة مئة «لي» تقريبًا لكي يروا بأمّ أعينهم الراهب العجوز يبلغ مرحلة الغبطة الكاملة. وكان الحجّاج يسرعون الخطى على الدروب عبر الغابات.

تقول إنّ تراتيل آيات السوترا[١] كانت تصدح إلى ما وراء باب الباغود الكبير. ويصبح المعبد خاليًا من أيّ بساط، فيسجد آخر الوافدين على الأرض، والذين يصلون في وقت متأخّر أكثر، كان عليهم الانتظار خارجًا. وخلف حشد المؤمنين الذين تعذّر عليهم الدخول إلى المعبد، تجتمع أيضًا حشود هائلة. كان تجمّعًا منقطع النظير.

تقول إنّه ما من مؤمن لم يكن يسعى إلى نيل بركة الراهب العجوز، وكلّ تلميذ كان يأمل أن يتلقّى رسالته لأنّ المعلّم الكبير، قبل دخوله في مرحلة الغبطة، كان يعلّم الدارما[٢]. كانت القاعة التي تُتلى فيها آيات السوترا ويجلس فيها المعلّم، موجودة في الطابق الأرضي لمقصورة الكتب السماويّة، إلى يسار معبد «الكنز الكبير».

تقول إنّه في الباحة، أمام القاعة كانت هناك شجرتا قرفة في أوج إزهارهما تنشران عطرهما، إحداهما حمراء والأخرى بيضاء، وكانت الأرض مكسوّة بالحصائر من القاعة حتى الباحة. تحت شمس الخريف العذبة، كان الرهبان البوذيّون لا يزالون ينتظرون، والسلام يملأ قلوبهم، أن يعلّمهم الراهب العجوز الدارما للمرّة الأخيرة.

تقول إنّه كان يجلس القرفصاء على منصّة من خشب الصندل الأسود المنحوتة بأزهار اللوتس. كان مستغرقًا في حالة تطهّر وزهد كلّيّ منذ سبعة أيّام وسبع ليالٍ، منقطعًا عن الطعام والماء، مبقيًا عينيه مغمضتين والثوب الطويل المرتّق يتمايل فوق كتفه. أمام المذبح، في

---

(١) السوترا مجموعة حكم تلخّص التعاليم الهنديّة في الدين والأخلاق والحياة اليوميّة.

(٢) الدارما: في الهندوسيّة والبوذيّة، الشرع الكونيّ.

المباخر المصنوعة من البرونز المنحوت، تشتعل عيدان من خشب الصندل الأبيض الذي تفوح رائحته في القاعة كلّها. كان يحيط به اثنان من تلاميذه فيما كان رهبان يحملون على رأسهم أكاليل وضعها بيده المباركة ينتظرون بخشوع وتهيّب عند أسفل المنصّة. كان يحمل بيده اليسرى سبحة يفتلها وباليد اليمنى جرسًا صغيرًا يقرعه برفق بواسطة عود رهيف من المعدن يضمّه بين أصابعه. ومثل حرير رقيق متموّج، كان صوت الجُريس يعلو وينخفض بين الرايات المعلّقة في القاعة.

تقول إنّ الرهبان سمعوا عندئذٍ صوته العذب: «يعلّمنا بوذا أنّه لكي نعرف اليقظة، يجب ألاّ نعرف بوذا بطبيعته الجسديّة. ما ندعوه الهيئة الجسديّة لبوذا هي الهيئات الوهميّة لجسده، الهيئات التي نراها ليست صورته، إنّها نفي لتلك الصورة، وأودّ أن أنقل إليكم هذه الحقيقة: ما يقوله بوذا نفسه لا يستطيع أن يُقبل، علمًا أنّه لا يمكن إلاّ أن يُقبل، لا يُنقل ولا يُسلّم به لكن لا يمكن إلاّ أن يُسلّم به، هذا ما أنقله اليكم، وهذه هي الشريعة الكبرى التي ينقلها بوذا إليكم، هل من أسئلة لديكم»؟

تقول إنّ لا أحد بين أتباعه فهم معنى كلماته، ولا تجرّأ على طرح الأسئلة عليه. وبالنسبة للتلميذين اللذين يحرسانه من عن يساره ويمينه، كان هذا هو الأمر الصعب. منذ سبعة أيّام وهما لا يجرؤان على الاسترخاء لحظة واحدة، منتظرين بصمت أن يشاطرهما المعلّم مقاصده وتعليمه. وفي المبخرة، انطفأ آخر عود بخّور. وأخيرًا تجاسر التلميذ الأوّل. تقدّم خطوة وركع ثم سجد ويداه مضمومتان: «لتلميذك سؤال لكنّه لا يعرف ما إذا كان يفترض به أن يسأله».

فتح الراهب العجوز عينيه قليلاً متحرّيًا عن السؤال. رفع التلميذ رأسه، جال ببصره في كلّ اتّجاه ثم سأل: «قبل بلوغ النيرفانا، هل ينقل المعلّم تعليمه لخلفه؟» وأدرك الجميع مغزى كلامه: يجب قطعًا تعيين خلف يهتمّ بذلك الدير الفسيح، وبهذا العدد من الرهبان والشماعد والبخّور، إذ كيف لمعلّم كبير مثله ألاّ يكون لديه خلف؟

هزّ المعلّم العجوز رأسه وحمل إلى صدره قصعة التقدمات وقال: «خذ هذه القصعة...». لقد نفد البخور بأكمله تمامًا ونفثات الدخان ارتفعت في الهواء مشكّلة دوائر مكتملة لم تلبث أن تبدّدت. ودقّ الجرس الثقيل الذي يزن اثني عشر ألف ليبرة من الحديد في معبد «الكنز الكبير» والذي صُهر خلال عهد تشين يوان[1] لسلالة تانغ، مصحوبًا بقرع الطبول. في قاعة السوترا سارع الرهبان إلى القرع على أسماكهم الخشبيّة وحجارتهم الرنّانة. وإذ أدرك الحشد أنّ المعلّم العجوز نقل تعاليمه وعيّن خلفًا له. بدأوا يرتّلون آيات السوترا ويتلون اسم بوذا أميتابا.

لكنّ التلميذين الأوّلين بقيا منذهلين، لم يسمعا أنّ المعلّم أكمل جملته «خذ هذه القصعة» بـــ «واذهب للتسوّل». رأيا فقط شفتي المعلّم تتحرّكان لكن لم يتوصّل أحد من التلميذين إلى تلقّي رسالته. فمدّا أياديهما في الوقت نفسه للاستحواذ على قصعة التقدمة، ولم يشأ أيّ منهما التخلّي عنها فآل الأمر بالقصعة إلى التحطّم. أصيب الرجلان بالذهول. وفهما مقصد المعلّم لكنّهما لم يجرؤا على التحدّث إليه. وحده المعلّم العجوز

---

(١) تشين يوان: هواللقب الإمبراطوري لتانغ تاي تشونغ أو لي شي مين.

أيقن أنّ المعبد سينهار يومًا. وإذ لم يستطع التحمّل أكثر، أغمض عينيه، وجلس فوق مقعده المنحوت بأزهار اللوتس، غاب في قرارة ذاته ويداه مضمومتان، مركّزًا كلّ انتباهه على نقطة «باب الحياة»، ووضع بإرادته الشخصيّة حدًّا لحياته.

تقول كيف رُنّ الجرس وقُرع الطبل في قاعة السوترا وفي الخارج في آن معًا. في الداخل، تلا الرهبان معًا الصلوات التي وصلت أصداؤها حتى الباحة. وهناك، كان حشد الرهبان يردّدها معًا حتى القاعات الثلاث والجناحين الجانبيّين. فإلى خارج المعبد حيث سارع المؤمنون مع هوادجهم وحميرهم وأحصنتهم. لم يرد المؤمنون الذين لم يستطيعوا الدخول إلى المعبد أن يظلّوا يراقبون ما يجري بلامبالاة. فصرخوا بأعلى أصواتهم بوذا أميتايا حتى إنَّ أصواتهم تردّد صَداها في أنحاء الدير. رفع الرهبان الجرّة الكبيرة حيث وُضع الراهب العجوز الذي دخل إلى النيرفانا، تواكبهم الرايات المقدّسة الموشّاة بالديباج. افتتح المسيرة التلميذان الأوّلان ملوّحين بالمذبَّة وراحا يرشّان الكحول لتطهير النفوس والأجساد، وهُرعت حشود المؤمنين بكلّ اندفاع إلى المعبد لإلقاء النظرة الوداعيّة الأخيرة على وجه المعلّم الكبير في موته. هؤلاء الذين استطاعوا رؤيته هتفوا «رحماك!» والذين لم يستطيعوا كانوا في أوج الإثارة، يحثّون الخطى رافعي الرأس، ويمشون على رؤوس أقدامهم، فاقدين قبّعاتهم وأحذيتهم، ومدحرجين المباخر دون أن يحفلوا بهيبة المكان.

وحين أُغلق غطاء الجرّة بإحكام، وُضعت فوق محرقة أمام معبد الكنز الكبير، وقبل أن تشعل النار، بدأت رتبة قراءة آيات السوترا لراحة

نفسه. لا يمكن التهاون بأيّ طقس من الطقوس والسماح بأيّ إهمال أو تقاعس. لكن لا يمكن لأيّ معبد أن يتّسع لعشرات الآلاف من الأشخاص الوافدين على وجه السرعة والمتدافعين. ولا يمكن للرجال، مهما بلغت قوّتهم وصلابتهم، أن يقفوا في وجه تدفّق الحشود. الناس الذين سقطوا أرضًا جرّاء التدافع وداستهم الأقدام أطلقوا صرخات مثيرة للشفقة! لا يستطيع أحد أن يؤكّد من أين انطلقت الشرارة الأولى، وما هو عدد الضحايا الذين ماتوا حرقًا أو دوسًا تحت الأقدام، أم إذا كان عدد الذين ماتوا خنقًا يفوق عدد الذين ماتوا حرقًا. في جميع الأحوال، ظلّت النيران تشتعل على مدى ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ إلى أن أسقط الربّ من عليائه، وقد أخذته الشفقة، مطرًا رحيمًا خلّف وراءه منبسطًا من الرماد يتصاعد منه الدخان. وبعد الكارثة، لم يبق إلا الأنقاض والمسلّات المحطّمة، كيما تظلّ عبرة للأجيال القادمة.

الفصل السابع والثلاثون

خلف الجدار المتهدّم، جلس أبي وأمّي وجدّتي لأمّي، وقد غابوا جميعًا، ينتظرونني لتناول الطعام. روّحت عن نفسي ما يكفي وها قد مضى زمن طويل لم أنضمّ إلى العائلة. أرغب في الجلوس إلى الطاولة نفسها حيث يجلسون، وأتحدّث معهم عن المطر والطقس الجميل، كما فعلت حين كنت عند أخي الأوسط، بعد أن شخّص الطبيب لديَّ سرطانًا، وتحدّثنا عن أشياء لا يمكن التداول فيها إلاّ في إطار العائلة. آنذاك، لحظة تناول الطعام، كانت ابنة أخي الصغيرة تريد دومًا أن تشاهد التلفزيون لكنّها لم تكن قادرة على إدراك الغاية من هذه البرامج التي تتناول حصرًا الحملة ضدّ الفساد الروحي، وكان الناطقون باسمها نجومًا في العالم الثقافي راحوا يطلقون المواقف الواحد تلو الآخر، وهم يستخدمون المصطلحات الخاصّة بالوثائق الرسميّة، وهي أقرب إلى الهذر. لم تكن هناك برامج للأطفال ولا كانت ملائمة بالطبع لأوقات تناول الطعام. أُتخمت من الأخبار التي يبثّها الراديو والصحف المكتوبة والتلفزيون. لم أكن أتوق إلاّ إلى الرجوع إلى حياتي بالذات، والتحدّث عن ماضي عائلتي الذي كدنا أن ننساه، وعن والد جدّي المجنون ذاك

والذي لم تكن تحدوه إلاّ رغبة واحدة: أن يصبح موظّفًا كبيرًا من الماندارين. ولأجل هذا الهدف أهدر كلّ ثروته بما فيها أحد الشوارع التي كان يملكها. وإذ لم يحصل ولا حتى على منصب موظّف وضيع، وأيقن أنّه خُدع، أُصيب بالجنون فأحرق المنزل الأخير، المنزل الذي يعيش فيه وتوفّي وهو لم يبلغ بعد الثلاثين: عمر الثلاثين الذي قال عنه المعلّم القديم كونفوشيوس بأنّه العمر الذي تتكوّن فيه شخصيّة الإنسان، يبقى مع ذلك عمرًا هشًّا يمكن بسهولة أن يُصاب فيه المرء بانفصام الشخصيّة. لم نرَ أنا وأخي أيّة صورة لوالد جدّي، ربّما التصوير في أيّامه لم يكن قد بلغ حدود الصين، أو لأنّه كان محصورًا فقط بالعائلة الإمبراطوريّة. وتذكّرنا أنا وأخي الأطباق الشهيّة التي كانت تعدّها لنا جدّتنا، والطبق الذي خلّف لدينا الانطباع الأقوى هو القريدس السكران الذي كان لحمه لا يزال يختلج حين وضعناه في فمنا. وقبل أن نأكل منه، كان علينا أن نستجمع كلّ قوانا. لا أزال أذكر أيضًا أنّ جدّي الذي شُلّ عقب نوبة قلبيّة أصابت دماغه استأجر في الريف منزلاً قديمًا ريفيًّا هربًا من قصف الطائرات اليابانيّة. كان يظلّ ممدّدًا في الغرفة الرئيسيّة على كرسي طويل من الخيزران، وجهه مكلّل بشعره الفضّيّ الذي تشعّثه الريح المتغلغلة من الباب المفتوح على مصراعيه. ما إن يسمع صفّارة الإنذار المؤذنة بهجوم جوّي حتى يتملّكه الرعب. تقول أمّي إنّها كانت لا تني تكرّر على مسامعه أنّ اليابانيّين لم يكن لديهم ما يكفي من القنابل وأنّهم يدّخرونها ليدافعوا بها عن المدن. آنذاك، كنت أصغر سنًّا من ابنة أخي، وقد بدأت لتوّي بتعلّم السير وحدي. أذكر أنّه للذهاب إلى الباحة

الخلفيّة، كان يجب اجتياز عتبة عالية جدًّا ومن بعدها درجة. لم يكن بإمكاني اجتياز العتبة بمفردي، وشكلّت لي هذه الباحة مكانًا غامضًا.

أمام باب المدخل، بيدر لدراسة الحبوب. أذكر أنّني كنت أتمرّغ، برفقة أولاد المزارعين، على التبن الذي يجفّ. في المياه الهانئة للنهر الذي يحاذي البيدر، غرق كلب صغير لا أعرف ما إذا كان أحد السفلة رماه في الماء أو أنّه غرق من تلقاء نفسه، لكنّ جثّته بقيت طويلاً على الضفّة. وحظّرت عليّ أمّي شكليًّا اللعب على ضفّة البحيرة. لم يكن باستطاعتي الذهاب للحفر في الرمل إلاّ حين ألحق بالكبار الذين يذهبون للتزوّد بالماء. كانوا يحفرون ثقوبًا على الضفّة يتجمّع فيها الماء المصفّى عبر الرمل.

أُدرك الآن أنّني محاط بعالم من الموتى، وأنّه خلف هذا الجدار المهدّم يرقد أهلي المتوفّون. أرغب في العودة إليهم، والجلوس إلى طاولتهم والاستماع إلى أسخف الأحاديث. أرغب في سماع أصواتهم والنظر إليهم والجلوس بكلّ هدوء معهم حتى دون أن أشاركهم الطعام. أعرف أنّ مآدب العالم الآخر ترتدي قيمة رمزيّة، وأنّها تشكّل طقسًا لا يمكن للأحياء المشاركة فيه، يبدو لي فجأة أنّ الجلوس إلى طاولتهم هو السعادة المطلقة. أقترب منهم بحذر، لكن ما إن أجتاز الجدار المهدّم حتى ينهضوا ويختفوا بصمت خلف جدار آخر. أسمع خطواتهم الخافتة تنأى. أرى الطاولة الفارغة التي تركوها. لوهلة، تكتسي الطاولة بالخزّ الناعم وتتشقّق وتنهار لتصير ركامًا من الحجارة، ومن شقوقها تنبت الأعشاب البريّة. أعرف أيضًا أنّهم يتحدّثون عنّي في بيت آخر تهدّم، ولا

يستحسنون تصرّفي، وأنّهم قلقون بشأني. في الواقع، لا شيء يفترض به أن يشغل بالهم لكنّهم مواظبون على دأبهم. لا شكّ أنّ الموتى يقلقون لأجل الأحياء. ينصرفون للتداول سرًّا لكنّهم يصمتون ما إن أرهف سمعي خلف جدار الحجارة الرطب المكسوّ بالخزّ. لا بدَّ أنّهم يتابعون الكلام بنظراتهم، القول إنّي لا أستطيع المتابعة على هذا النحو، إنّني أحتاج لتأسيس عائلة طبيعيّة والاقتران بزوجة عاقلة ذات خصال حميدة تهتمّ بإعداد الطعام لي، وتُحسن إدارة شؤون المنزل، وإذا كنت أصبت بمرض عضال فهذا بسبب نظامي الغذائي غير الصحّي. يتشاورون لمعرفة كيف يتدخّلون بحياتي، وعليّ أن أقول لهم إنّهم لا يجدر بهم القلق لا سيّما أنّي بلغت مرحلة النضج ولديّ أسلوبي الخاصّ في العيش، وأسلوب العيش هذا اخترته بنفسي ولا أستطيع العودة إلى سلوك الدرب التي رسموها لي، لا أستطيع العيش مثلهم، لا سيّما أنّ حياتهم لم تكن ناجحة بالضرورة لكنّي لا أستطيع الامتناع عن التفكير بهم، أريد النظر إليهم، سماع أصواتهم، التحدّث معهم عن الماضي. أريد أن أسأل أمّي عمّا إذا كانت اصطحبتني معها في المركب على نهر شيانغ. أذكر مركبًا خشبيًّا شراعه من الخيزران المجدول، على متنه أناس احتشدوا جالسين على المقاعد على كلّ جانب من المقصورة. عبر الشارع كنّا نرى أنّ مياه النهر توشك أن تغمر المركب فتغرقه. لم يتوقّف المركب عن الترنّح، لكنّ أحدًا لم ينبس بكلمة. بدا الجميع وكأنّهم غير آبهين بما يحصل وإن كانوا جميعًا على يقين أنّ هذا المركب المترع بالراكبين على أهبة الانقلاب بين لحظة وأخرى. ما من أحد أراد مواجهة الحقيقة. أنا أيضًا تظاهرت أنَّ شيئًا لا يحصل، ولم أبكِ ولم أتذمّر، محاولاً ألاّ

أفكّر في الكارثة التي ستحدث بين لحظة وأخرى. أردت أن أسألها إذا كانت هي أيضًا في عداد الناجين. لو أنّني رأيت ثانية هذا النوع من المراكب لكانت هذه الذكرى حقيقيّة فعلاً. أريد أيضًا أن أسألها كيف استطعنا الإفلات من اللصوص حين اختبأنا في حظيرة خنازير. كان الطقس آنذاك شبيهًا بما هو عليه اليوم، الرذاذ يتساقط وفي أحد المنعطفات المرتفعة تعطّل الباص. لم يتوقّف السائق عن النحيب قائلاً إنّه لو أدار مقوده في الاتّجاه السليم لما سقطت عجلات الباص في الحفرة. أذكر أنّها كانت عجلات الجانب الأيمن لأنّه في ما بعد نزل جميع الركّاب وحملوا أمتعتهم إلى الجانب الأيسر من الطريق عند منحدر الجبل، ثم راحوا يدفعون الباص لكنّ العجلات ظلّت غارقة في الوحل، دون نتيجة. كان الباص مجهّزًا بمحرّك يدور على الفحم، لأنّ الحرب كانت لا تزال مشتعلة والمركبات المدنيّة لم تكن تسير على البنزين. لتشغيل الباص، كان يجب بداية تحريك المدوّرة بقوّة إلى أن يفرقع المحرّك. كانت العربات في تلك الحقبة أشبه بالبشر، لا تشعر بالراحة إلاّ حين تتحرّر من الغازات المعتملة في أحشائها، لكن هذه المرّة، حتى بعد أن ضجّ محرّك الباص ظلّت العجلات تدور في مكانها غير قادرة على الخروج من الحفرة الموحلة وهي تلطّخ بالوحل وجوه الناس الذين كانوا يدفعونه. حاول السائق أن يؤشّر للسيّارات المارّة، لكنّ أيًّا منها لم تشأ التوقّف لمساعدته في الخروج من المأزق. في طقس مماثل والسماء متجهّمة سوداء لم يفكّر السائقون إلاّ في النجاة بأنفسهم. آخر سيّارة مرّت وهي تحاذي حافّة الطريق. كانت فوانيسها الصفراء تلمع كعيني حيوان مفترس. بعدئذٍ تسلّق الركّاب التلّة متلمّسين طريقهم

في العتمة، مواجهين المطر، ومنزلقين دون توقّف على الطريق الجبليّة الموحلة، وكان كلّ واحد منهم يتشبّث بملابس من يتقدّمه. كانوا مجرّد زمرة من العجائز والنساء والأطفال، وآل بهم الأمر إلى الوصول، ليس من دون شقاء، إلى منزل ريفيّ مطفأ حيث لم يشأ أحد أن يفتح لهم الباب. فما كان منهم إلاّ أن احتشدوا في حظيرة الخنازير للاحتماء من المطر. دوّت طلقات ناريّة دون توقّف في الجبل، والتمعت مشاعل. لا شكّ أنّهم لصوص. منع الخوف المختبئين من التفوّه بكلمة واحدة.

أجتاز الجدار المتهدّم. في الخلف، ليس هنالك إلاّ نبتة من البقس ذات أوراق صغيرة بسماكة الإصبع الصغير، ترتعش في الريح وسط المنازل المتهدّمة التي لا سقف لها. قبالتي تنتصب نصف نافذة يمكن الاستناد إليها والنظر إلى الخارج. بين باقات الأزاليّات والخيزران المستقيم الجذع تنبجس بلاطات حجريّة، مكسوّة بخزّ يبدو لدنًا إذا نظرنا إليه عن بعد. لكأنّه جسد ممدّد، الركبتان مطويّتان والذراعان ممدودتان. فوق سقف المعبد المذهّب الذي كان يحوي آلاف الغرف في ما مضى، ومناسك الرهبان، وضعت قراميد معدنيّة لمقاومة ريح الجبل العاتية. كان الرهبان والراهبات الذين يرافقون المحظيّة التاسعة لوالد الإمبراطور وانلي من سلالة مينغ يأتون إلى هنا ليتدرّبوا على بلوغ مرحلة الكمال. الاحتفالات الكبرى التي كان البخّور يحرق خلالها وتقرع لأجلها الأجراس صباحًا والطبول مساء لم تستطع إلاّ أن تخلّف أثرًا. أريد أن أستعيد آثار تلك الحقبة، لكنّ كلّ ما أفعله هو أنّني أحاول العثور على بقيّة من مسلّة محطّمة. تُرى هل القراميد المعدنيّة دمّرها الصدأ ولم تستطع أيّ منها الصمود بعد مرور خمسمائة سنة؟

الفصل الثامن والثلاثون

ما يُقال بعد؟

تقول إنّ هذا المعبد القديم المتهدّم أصبح، بعد خمسمائة سنة، مغارة للّصوص حيث كانوا ينامون نهارًا ثم يضيئون ليلاً المشاعل وينحدرون من الجبل لنهب القرى. وبالضبط، عند سفح الجبل، كانت تعيش في دير للراهبات البوذيّات ابنةُ أحد الموظّفين. كانت تمارس فيه تعاليم البوذيّة مع أنّها لم تكن راهبة. كانت تُعنى بإنارة أسرجة الزيت حتى تكفّر عن ذنوبها الماضية. لكنّها راقت لعين رئيس اللصوص فاختطفها وأرغمها على أن تصبح زوجته، ففضّلت الموت على أن تطيعه فاغتصبها ثم قطع رأسها.

وماذا بعد؟

بالعودة ألف سنة وخمسمائة إلى الوراء، لم يكن المعبد موجودًا، كان هناك فقط كوخ من القشّ يعيش فيه أديب شهير هجر الحياة الدنيا ليحيا حياة ناسك. كلّ يوم، عند بزوغ الفجر، يدير رأسه ناحية الشرق ويستغرق ويستفيض في تمارين التنفّس. كان يتنشّق هواء الصباح المنعش ويزفره طويلاً وعنقه ممدود إلى الأمام. كان صدى أناشيده النقيّ يتردّد في أرجاء الوادي، وكانت القرود التي تتسلّق الجروف الوعرة

ترجّع صداها. إذا تسنّى لأحد الأصدقاء أن يزوره على سبيل الصدفة، كان يقدّم له الشاي بدل الكحول، ويدعوه لمشاركته في جولة شطرنج، أو يتبادل الحديث معه في ضوء القمر. لم يكن يحفل بالأيّام التي تمرّ. كان الحطّابون الذين يمرّون من هناك ينظرون إليه من بعيد، إلى أن أصبح شخصًا خرافيًّا. وبذلك بات هذا المكان يعرف باسم «صخرة الخالد».

وماذا بعد؟

تقول أيضًا إنّه بعد ألف سنة وخمسمائة وسبع وأربعين، عاد قائد من قادة الحرب كان كرّس حياته كلّها تقريبًا في خدمة الجيش، إلى البلاد، بعد أن صار جنرالاً وأراد أن يقرّب القرابين لأجداده. وإذ استرعت خادمة والدته العجوز انتباهه، اختار يوم سعد لكي يتزوّجها بصفتها خليلته السابعة. وبدافع الاعتزاز بالنفس وإظهار النفوذ، أعدّ لأهل البلاد وليمة من مئة طاولة وطاولة. تحلّق أهالي البلاد حول المآدب وأخذوا يمتدحونه، بطبيعة الحال، مقدّمين له الهدايا: كان لزامًا عليهم شكره مقابل الخمور التي احتسوها. وفيما كان الجميع يهنّئونه، مثُل أمام الباب رجل يُدعى «الشحّاذ»، رثّ الثياب، أبرص الرأس، فقدّم له الحرّاس قصعة من الأرزّ ومنعوه من الدخول، لكنّه أراد أن يهنّئ شخصيًّا العريس الجنرال. لكنّ الجنرال خرج عن طوره وأمر ضابطه المرافق بأن يطرد الدخيل ويوجّه إليه لكمات من كعب بندقيّته. وفي منتصف الليل، وفيما كان الجميع يرتاح والعريس الجديد غارق في أحلامه العذبة الجميلة، من كان ليصدّق أنّ النار ستلتهم المنزل كلّه مبدّدة بشكل كامل مسكن أجداده؟ قال البعض إنّ المعلّم جي تقمّص من جديد في هيئة شحّاذ

تلبية لرغبة سماويّة، وألقى أذى من السحر من أجل إنزال العقاب بالناس الأشرار. وقال البعض الآخر إنّ المتسوّل ارتكب هذه الجريمة على رأس عصابة من الصعاليك المنتشرين في الجوار. بما إنّ الجنرال لم يظهر له الاحترام، أمر الرجال الذين استخدمهم بأن يرسلوا، من فوق جدران الباحة العالية رماد البخور المشتعل فوق أكوام الأعشاب والأحطاب. وعجز الجنرال الكبير قائد آلاف الرجال والأحصنة، عن الدفاع عن نفسه إزاء هذا الرجل القليل الشأن. وهذا ما يجسّده المثل القديم خير تجسيد: «التنّين الأكبر لا يستطيع أن يتغلّب على مستبدّ الناحية».

وماذا بعد؟

بعد انقضاء نصف قرن، وبالرّغم من عزلة الجبال وقساوتها، لم يعرف هذا المكان الهدوء بسبب الفوضى التي يحدثها البشر. كانت ابنة المسؤول الجديد في لجنة المقاطعة الثوريّة، وهي شابّة قبيحة المنظر، قد وقع اختيارها على حفيد ملاّك عقاريّ سابق. لم تكتفِ بعصيان أوامر والدها بل أصرّت على هذه العلاقة المقدّرة، وسلبت من الدُرج بطاقات بقيمة ثمانٍ وثلاثين ليبرة من الحبوب، ومئة وسبعة يوان نقدًا.

وهرب العاشقان إلى الجبل ظنًّا منهما أنّ بإمكانهما كسب رزقهما من خلال زراعة الأرض. الأب، الذي كان يؤكّد دومًا على ظاهرة صراع الطبقات، رأى ابنته بالذات تولّي هاربة برفقة صعلوك ابن مالك أراضٍ. جنّ غضبه. وما لبث أن أعطى الأوامر للشرطة لكي تعمّم صورة الرجل والمرأة، وأن تصدر مذكّرة توقيف بحقّهما في المقاطعة

كلّها. أنّى للعاشقين الشابّين الإفلات من قبضة الجنود المسلّحين الذن كانوا يجوبون الريف؟

حوصرت المغارة حيث اختبآ. قتل الشاب الطائش خطيبته بضربة من فأس مسروقة، ثم انتحر هو أيضًا بضربة فأس.

قالت إنّها تريد هي أيضًا أن ترى دمًا، وتريد أن تخز إصبعها الوسطى بدبّوس فيتسرّب الألم إلى القلب من جرّاء ذلك. تريد رؤية الدم ينبجس من الإصبع المتورّمة فيصبغ باللون الأحمر جميع أصابعها حتى أعقابها، منسابًا بين الشقوق، وعلى طول خطوط يدها، حتى وسطها، ثم يقطر من راحتها..

تسألها عن السببَ.

تقول، هذا بسبب الضغط الذي تمارسه عليها.

تقول لها إنّ هذا الضغط مصدره قلبها.

لكنّك أنت السبب في ذلك.

تقول إنّك تكتفي بالسرد، ولم تفعل شيئًا آخر سوى ذلك.

تقول إنّ ما ترويه لها يجعلها حزينة ويشعرها بالاختناق.

تسألها عمّا إذا كانت تشعر أنّها مريضة.

حالة الاعتلال هذه، أنت من خلقتها.

تقول إنّك لا تفهم ما فعلته.

قالت ما أخبثك! ثم استرسلت في ضحكة مجنونة.

ليس بإمكانك أن تتمالك نفسك عن الشعور بالخوف قليلاً وأنت تنظر إليها. تعترف أنّك أردت أن تحفّز قليلاً رغبتها. لكنّ دم امرأة يشعرك فقط بالقرف.

تقول إنّها تريد بالضبط أن تريك دمًا، أن تجعل الدم يسيل على معصمها، على ذراعيها، تحت إبطيها، على صدرها. تريد أن يسيل الدم الزكيّ على طول جيدها الأبيض. دم قاتم تتخلّله انعكاسات بنفسجيّة سوداء، أن تغرق في هذا الدم الأسود البنفسجي. ستكون مجبرًا على رؤيتها..

عارية تمامًا؟

عارية تمامًا، سوف تجلس وسط بركة الدم وأسفل جسدها، بين فخذيها، فخذيها ذاتهما، كلّها ملطّخة بالدم، بالدم، الدم! تقول إنّها تريد الغرق، الغرق حتى قرارة الأعماق. لا تعرف لماذا تنتابها رغبة بمثل هذه القوّة، الأمواج تغمرها، ترى نفسها ممدّدة على شاطئ تغمرها أمواج البحر، وشاطئ الرمل لا يقدر على امتصاصها تمامًا، موجة جديدة لا تُقهر تصعد من أعماقها، تريد أن تلج جسدها، أن تعجنها وتمزّقها، يجب ألاّ تشعر بالشفقة، تقول إنّ ليس لديها خفر، ولا خوف، كانت تخاف، أو بالأحرى تزعم أنّها تخاف ولا تشعر بالخوف فعلاً، لكنّها تخشى أيضًا السقوط في هذه الهاوية السوداء، أن تعوم على سطحها باستمرار. تريد الغرق، تقول إنّها ترى المدّ الأسود متصاعدًا برفق من اللجج التي لا يُسبر غورها، الزبد القاتم يلتهمها تمامًا. تقول إنّها تستغرق وقتًا طويلاً قبل أن تبلغ ذروة النشوة، لكنّها في حال استشعرت بها لمرّة واحدة، لا

يمكن إيقافها، لا تعرف كيف استطاعت أن تبلغ هذا الحدّ من الشهوة التي لا ترتوي. آه، تريد أن تقول إنّها ساقطة، تريد أن تقول إنّها ليست ساقطة، فهي تفعل ذلك من أجلك ولا تشعر بالرغبة إلاّ من أجلك، تقول إنّها تحبّك، وتريد أن تقول أيضًا إنّك تحبّها لكنّك لا تقول ذلك أبدًا. أنت بارد فعلاً، جلّ ما تريده أنت هو امرأة، والحبّ هو جلّ مرادها، وتحتاج لأن تشعر به في كلّ جسدها حتى لو اقتضى الأمر ذهابها إلى الجحيم معك. تتوسّل إليك ألاّ تتركها، ألاّ تدعها تسقط من جديد، تخاف من الوحدة والفراغ، تعرف أنّ كلّ ذلك موقّت، تريد فقط أن توهم نفسها، أفلا تستطيع أن تقول لها أشياء تجعلها سعيدة؟ أن تختلق لها قصّة تجعلها سعيدة؟

آه، كانوا سعداء جدًّا وهم متربّعون على بساطهم. الأطباق موزّعة على أكمل وجه أمامهم: جبنة صويا ناصعة البياض، وفلفل أحمر، وحبوب صويا خضراء، وقطع جانبون بصلصة الصويا، وضلوع مطهوّة ببخارها، وحساء لحم الخنزير الدهني الممزوج بالكحول والمقدّم في قصعات ضخمة. القرية كلّها تحتفل بالعام الجديد، ذُبحت دفعة واحدة تسعة خنازير وثلاثة عجول وفُتحت جرّتان كبيرتان من الخمور المعتّقة. الوجوه حمراء والأنوف ملتمعة. ثم نهض عجوز كسيح وبدأ يصرخ بصوت يشبه صوت الديك المذبوح: لماذا سمحنا للغرباء بإضرام النار في سفوح جبال ماهوا وزرع الذرة فيها، هذه القمم التي تمدّنا بحطب التدفئة منذ أجيال؟ كان أدرد الفم ينبعث لعابه من فمه أثناء الكلام. يجب ألاّ يتبادر إلى الذهن أنّ في القرية هنالك فقط عجائز متلفّين، متيّبسين كقشّ الأرز، يجب ألاّ يُظن أنّ ساكنيها يسمحون للآخرين بإهانتهم. حتى

لو لم يعد في استطاعهم تنكّب حمّالتهم بطرفيها الحديديّين ولا سلاحٍ ناريّ، رغم ذلك فإنّ أبناء هذه القرية لم يتحدّروا من سلالة حقيرة.

ـ «هاي! أنتِ يا والدة «الكنز الكبير» أليس في إمكانك أن تربّتي على ساقي طفلك ومؤخّرته لينمو سريعًا؟». ملوّحة بإسوارتها الفضيّة في ذراعها، أجابت المرأة: «أقفل فمك أيّها العجوز، جميع سكّان القرية رأوا أنّ «الكنز الكبير» قد كبر، الجميع يغارون من ابني وهذا ما يردّدونه أمام أبناء القرية، لا تحمّلوه فوق طاقته فهو لا يزال صغيرًا. فبعض العائلات لم تنجب إلاّ بناتًا، وليس لديها صبيان حتى تغاروا منهم!». فاستشاطت النسوة غضبًا لدى سماعهنّ هذه الكلمات: «هاي أنت يا والدة «الكنز الكبير» كيف تجرئين على تغيير موضوع الحديث؟». إذا كان سكّان القرية لا يستطيعون رفع رؤوسهم عاليًا خارج القرية، كيف بإمكانهم والحالة هذه حفظ ماء الوجه؟ الشبّان أيضًا اهتاجوا واحمرّت وجوههم، نفخوا صدورهم، وفتحوا أزرار ستراتهم.

وشيخ القرية، حاملاً البندقيّة في يده، لا يعرف معنى الصيام! «بأمرك يا شيخ، أرسلنا وحدنا في الصفوف الأماميّة، إذا كانت أخوات ذلك الرجل يحتجزن أولادنا في منازلهم». عندئذٍ احتدم غيظ النساء الشابّات وقلن صارخات مثلهم: «لم ينبت زغب شواربهم بعد وها قد تعلّموا التهكّم! إذا كان أهاليكم مستعدّين للتضحية بكم فلمَ لا نحذو حذوهم؟». ثم نهض أحد الرجال فجأة والدهشة بادية في عينيه: «هاي، أنت أيّها الصغير، لا يزال الوقت مبكّرًا جدًّا لكي تتكلّم باسم القرية!» أما زلتِ تسمعينني؟

تابع، تقول إنّها تريد فقط أن تسمع صوتك.

تستعيد روعك وتخبر كيف بدأ الحشد بالتصفيق. وعندئذٍ أمسك الرجل الذاهب اللبّ على الفور بديكٍ وقطع رأسه. سكب دمه الساخن، وجناحاه لا يزالان يخفقان، في القصعة ليمتزج بالنبيذ وهتف: «من لا يشرب فليذهب لتضاجعه الكلاب!» «وحدهم الذين تضاجعهم الكلاب لن يشربوا». شمّر الرجال عن سواعدهم وقذفوا بصاقهم أرضًا ثم داسوا عليه وهم يقسمون بأغلظ الأيمان جاعلين السماء شاهدة على كلامهم. استداروا وعيونهم حمراء ليأخذوا أدواتهم، بعضهم شحذوا خناجرهم والبعض صقلوا أسلحتهم وشهر الأهالي العجائز من كلّ عائلة الفوانيس وذهبوا ليحفروا حفرة قرب قبر الأجداد. النساء بقين في المنازل ورحن، بواسطة المقصّات التي استعملنها في تصفيف شعورهنّ يوم الزواج وفي قطع حبل السرّة يوم وُلد أطفالهنّ، يقصصن رايات الورق التي تزيّن القبور. وعند الفجر، حين تصاعدت أبخرة الصباح، قرع العجوز الأعرج الطبول بضربات قويّة. خرجت النساء من منازلهنّ يمسحن دموعهنّ مترصّدات مدخل القرية، ناظرات إلى الرجال الذين يضربون الصنوج والخناجر في أيديهم والبنادق فوق أكتافهم. أطلقوا صيحات عالية وهم ينحدرون الجبل. أطلقوا صرخات تحيّة للأجداد والأرض والغابات ولذريّتهم وتبادلوا إطلاق رصاص ببنادقهم فسقطت الضحايا ونُقلت الجثث إلى مكان خفيّ. وبعدئذٍ، عاودت النساء الصراخ مبتهلات إلى السماء والأرض إلى أن عاد الهدوء. فتوالت أعمال الحراثة والبذار من جديد والحصاد ودرس الحبوب، ومرّ الربيع وأتى الخريفِ وأعقب الشتاءُ الشتاءَ، واكتست القبور بالعشب واختطفت الأرامل الشبّان وكبر

اليتامى ونضجوا ونُسيت المأساة، وبقي مجد الأجداد وحده في الذاكرة. إلى أن صادفت إحدى الليالي ليلة رأس السنة، قبل تقديم القرابين للأجداد، بدأ العجائز يخبّرون عن الشجارات العائليّة التي حدثت في ما مضى، وبدأ الشبّان بالشرب وتصاعد الدم الحارّ من جديد في عروقهم...

ظلّ المطر يتساقط دون توقّف، طيلة الليل. ألسنة النار تتضاءل فتصير أشبه بنبات الفوم الملتمعة أزهاره، وفي وسطها برعم بنفسجيّ. البرعم ينمو لكن كلّما ضؤلت الزهرة دكن لونها متحوّلاً من الأصفر إلى الفاتح إلى الأحمر البرتقاليّ، وفجأة يلوذ الضوء إلى فتيلة المصباح. تتكثّف الظلمة كالشمعة التي تتجمّد ويتبدّد نور النار المرتعش. تنفصل عن جسد المرأة الحارق الملاصق لجسدك، وتصغي إلى المطر الذي يفرقع على أوراق الأشجار. الريح تصفر وتولول في الوادي عبر أفنان الصنوبر. السقف الذي علّقت إليه السراج يدلف منه المطر ويتناثر فوق وجهك. تتقوقع داخل الكوخ المصنوع من القصب الجافّ وهو مركز لمراقبة الجبل. تشتمّ رائحة عفونة ولكن أيضًا لهاثًا عطرًا.

الفصل التاسع والثلاثون

عليّ أن أغادر هذه المغارة. على علوّ ثلاثة آلاف ومئتي متر، مع ثلاثة آلاف وأربعمائة مِليلتر من مياه الأمطار سنويًّا، ويومين فقط في السنة من الطقس الجميل، والريح تصفر بسرعة تتجاوز سرعتها المئة متر في الثانية: هذه هي قمّة جبال وولينغ، المعادية وذات المناخ القارس الذي لا يُطاق، على حدود الأقاليم الأربعة، غيتشو، سيتشوان، هوبي، خنان. عليّ العودة إلى بني البشر، واستعادة التمتّع بأشعّة الشمس الدافئة والشعور بالبهجة بين الحشود الصاخبة؛ أيًّا تكن العذابات التي قاسيتها بسببهم، إلاّ أنّهُم نفحة الوجود المحيية.

أمرّ بمدينة تونغرن، بأزقّتها القديمة المزدحمة المغطّاة حتى نصفها بسقيفات المنازل الأماميّة. تصطدم سلال الخيزران التي يحملها المارّة بالمشاة على الدوام. لا أتريّث البتّة وأستقلّ، ما إن أتمكّن من ذلك، باصًا للمسافات الطويلة. في المساء نفسه، أصل إلى محطّة صغيرة للنقل البرّي تدعى يوبينغ. أُنشئت حديثًا بالقرب منها نزلٌ صغيرة خاصّة. أستأجر غرفة متواضعة، ليس فيها من الأثاث إلاّ سرير لشخص واحد. البراغيث المؤذية تنتشر بكثرة في هذا المكان لكنّي أشعر بالاختناق

عندما أُسدل الناموسيّة. في الخارج تطنّ موسيقى صاخبة ممزوجة بأحاديث يقطعها البكاء والعويل إلى حدّ تقشعرّ له الأبدان. ثمّة فيلم يُعرض في الهواء الطلق على ملعب لكرة السلّة، ذاك النوع من الأفلام التي تروي قصصًا لا تموت، مأسويّة أو مبهجة، قصص انفصال أو لقاء، في حقب مختلفة.

عند الساعة الثانية صباحًا، أستقلّ القطار إلى كايلي. عند الفجر أصل إلى عاصمة المنطقة المستقلّة ذاتيًّا لقوميّة **مياو**.

أستعلم عن عيد مراكب التنانين الذي يُفترض به أن يُقام في شيتونغ، وهي قرية **مياو**. أحد الكوادر المسؤولين في لجنة الأقلّيّات التابعة للمحافظة يشرح لي أنّ العيد سيُقام هذه السنة للمرّة الأولى منذ عشر سنوات. وسيأتي أكثر من عشرة آلاف **مياو**، متوجّهين من أبعد القرى في الجبل، وسيحضره حكّام الإقليم والمنطقة المستقلّة ذاتيًّا. أسأله كيف السبيل للذهاب إلى العيد، فيجيبني أنّه سيقام على مسافة تبعد أكثر من مئتي كيلومتر، وأنّه يستحيل الذهاب إليه دون سيّارة. بدا عليه الإحراج إذ رجوته أن يصطحبني معه، لكن، من كثرة ما حاولت، أقنعته أخيرًا بأن يوافق على أن آتي في الغد عند الساعة السابعة لأحاول الحصول على مقعد لي. في اليوم التالي أصل قبل عشر دقائق من الموعد المحدّد إلى مقرّ اللجنة: اختفت السيّارات الضخمة التي كانت مركونة هنا مساء أمس. لا أحد في الداخل. استطعت أخيرًا العثور على أحد الموظّفين فقال لي إنّ السيّارات انطلقت منذ وقت طويل. فأدركت أنّني خُدعت. لكنّ فكرة تبادرت إلى ذهني نتيجة الظرف الطارئ؛ أردت

أن أُثير في الموظّف التهيّب فأخرجت بطاقتي كعضو في اتّحاد الكتّاب، وهي لم تجلب لي يومًا أيّة منفعة، لا بل تعرّضني دومًا للمزيد من المشاكل. قلت بلهجة لجوجة إنّي جئت خصّيصًا من بكّين لكي أكتب تحقيقًا عن هذا العيد، وطلبت منه بسرعة بأن يتّصل الآن بحاكم القطاع المستقلّ ذاتيًّا. ومن دون أن يرتاب بالخدعة، قام باتّصالات عديدة، إلى أن اعترف لي بأنّ سيّارة رئيس القطاع لم تنطلق بعد فهرعت على وجه السرعة إلى مقرّ الحكومة. ابتسم الحظّ لي لأنّ الرئيس استمع إلى أقوالي، ومن دون أن يطرح عليَّ أيّ سؤال دعاني إلى ركوب الباص الصغير الذي كان يستقلّه.

لدى الخروج من المدينة، على الطريق المليئة بالحفر، التي تتصاعد منها سُحب من الغبار، يتمطّى صفّ لا متناهٍ من السيّارات والشاحنات التي يحتشد داخلها كلّ أصناف الناس. الكوادر وموظّفو الهيئات الحكوميّة وموظّفو المدارس والمعامل في القطاع المستقلّ، جميعهم في طريقهم إلى العيد. رئيس القطاع، وهو ملك **مياو** سابقًا، سيترأّس هذا الاحتفال دون شكّ. كان أحد الكوادر جالسًا إلى جانب السائق ولم يتوقّف عن الصراخ عبر النافذة المفتوحة. تجاوزنا تباعًا المركبات الأخرى واجتزنا قرى عدّة قبل أن نتوقّف قسرًا بسبب ازدحام السير أمام رصيف الركوب. لم تفلح إحدى الحافلات في الصعود على المعدّية لأنّ العجلات كانت مبتلّة بالماء. ثم توقّفت سيّارة فولغا ضخمة متمايزة كلّيًّا عن العربات الأخرى، هي أيضًا. وسرت الشائعة بأنّها سيّارة أمين عامّ الحزب في القطاع، وقد علق فيها حاكم الإقليم. فوق رصيف الركوب رجال الشرطة يتنافسون في الصراخ. وفي غضون ساعة جرى فيها

التخبّط في جميع الاتّجاهات سعيًا لترحيل المركبات، دفع الشرطيّون الحافلة حتى نصفها في الماء لإفساح المجال أمام الفولغا لاجتياز المعبر فوق المعدّية. عندئذٍ استطاع الباص الصغير الاصطفاف خلف الفولغا، محاصرًا بسيّارة الشرطة. وأخيرًا أرخى الطوف قلوصه وغادر الضفّة.

عند الظهيرة، تمامًا، تدفّق طابورنا على القرية التي يسكنها قوم **مياو**، المبنيّة على ضفّة نهر شينغشوي. الشمس تصوّب أشعّتها المبهرة فوق صفحة الماء. وعلى جانبي الطريق، صفٌّ لامتناهٍ من المظلاّت الملوّنة والقبّعات الفضيّة العالية التي تعتمرها نساء **المياو**. في الشارع الذي يحاذي النهر، ينتصب بناء صغير من الآجرّ من طبقة واحدة تعلوها شرفة، بناء فخم شُيّد حديثًا، إنّه مقرّ المديريّة الإقليميّة. على طول الضفّة، تتوالى مساكن **المياو** الخشبيّة القائمة على أوتاد. من على شرفة مقرّ المديريّة تلمع عند كلّ ضفّة رؤوس العابرين المتلاصقة تحت المظلاّت الملوّنة والقبّعات العريضة الحواشي الملتمعة بزيت الأرطس،(١) وهم يتجوّلون بين البسطات الصغيرة الموضوعة تحت خيم بيضاء. بضع عشرات من مراكب التنانين المزدانة بشرائط حمراء تتقدّم بحيازيمها المتشامخة، منسابة بصمت على صفحة النهر.

عندما أدخل إلى المبنى خلف الرئيس، أحظى بالمعاملة نفسها التي يتمتّع بها المسؤولون الذين أرافقهم. يحيّيني رجال الشرطة: تأهّب! صبايا **مياو** في لباس العيد، أعينهنّ ملتمعة وأسنانهنّ بيضاء، يحضرن طسوتًا من الماء الساخن ويوزّعن على الجميع مناديل عطرة جديدة لكي

---

(١) الأرطس أو الأريت: شجرة من أشجار الشرق الأقصى يُستخرج منها الزيت.

يشعروا بالانتعاش. ثم يقدّمن لكلّ واحدٍ فنجانًا من الشاي الساخن ينبعث منه عطر رهيف. مشهد مماثل تمامًا بكافّة وجوهه للمشاهد التي نراها في التحقيقات التي تغطّي زيارة أحد مسؤولي الدولة إلى الأقلّيّات الإتنيّة. أسأل أحد الكوادر الذين يستقبلوننا عمّا إذا كانت الفتيات منتميات إلى فرقة الأغاني والرقصات في القطاع. يجيبني بأنّهنّ تلميذات يتمتّعن بـ «الصفات الخمس» في مدرسة عاصمة المقاطعة، وقد تمَّ تأهيلهنّ خصّيصًا لمدّة أسبوع كامل على يد لجنة الأقلّيّات. ولاحقًا أنشدت اثنتان منهنّ أغنية حبّ **مياو**. تلفّظ الرؤساء ببضع عبارات تهنئة، ثم اقتادونا إلى غرفة أُقيمت فيها وليمة. قُدّمت البيرة الممزوجة بالصودا. وجرى تقديمي إلى أمين عامّ الحزب ورئيس الكانتون اللذين كانا يعرفان بضع كلمات صينيّة. خلال المأدبة، امتدح الجميع مواهب الطبّاخ الذي استُقدم خصّيصًا من العاصمة، لدى كلّ طبق يقدّمه، يحرّك يديه مستنكرًا. بعد تناول الطعام، قدّموا لنا من جديد كؤوس الشاي والمناديل. كانت الساعة تشير إلى الثانية، بعد قليل سيبدأ سباق مراكب التنانين.

يفتتح سكرتير الحزب المسيرة ويواكبه رئيس الكانتون. الشوارع تضجّ بالناس. في ظلّ المنازل القائمة على أوتاد، صبايا وافدات من غير ناحية يرتدين تنانير مكسّرة مطرّزة، يضعن اللمسات الأخيرة على استعداداتهنّ. لدى رؤية هذا الحشد المُواكب من رجال الشرطة، يتوقّفن عن تسريح شعورهنّ أمام المرآة ويأخذن بمراقبة الموكب الذي يتأمّل بدوره القبّعات والأساور والعقود التي يتزيّنّ بها، وقد يصل وزنها أحيانًا إلى بضع كيلوغرامات فلا نعود نعرف من يراقب من.

وُضعت كراسٍ ومقاعد على شرفة مبنى قائم على أوتاد قبالة النهر. ما إن يجلس الوفد حتى توزّع على كلّ واحد من أعضائه مظلّة صغيرة شبيهة بتلك التي تستخدمها فتيات **المياو**، لكنّها تفقد سحرها في أيدي المسؤولين القادة. الشمس حارقة، والعرق يسيل من الأجساد تحت المظلاّت. أفضّل النزول إلى ضفّة النهر والانضمام إلى الحشد.

روائح التبغ والملفوف الحامض والعرق تلك المنبعثة من بسطات السمك ولحم الخنزير والعجل تختلط في هذا الجوّ الحارّ. إنّهم يبيعون كلّ البضائع، ابتداءً بالنسيج ومرورًا بألف سلعة أخرى مع جميع أنواع السكاكر، كمعجون السكّر بالشعير وفستق العبيد وهلام الصويا وبزر البطّيخ. الحركة في ذروتها: إنّه تنافر الأصوات المتصاعد من الباعة والضحكات والمشاكسات الغراميّة، وفوق ذلك كلّه روحات الأولاد وغدواتهم وسط الحشد.

أتسلّل بصعوبة وصولاً إلى الضفّة، لكنّي أتعثّر باستمرار في طريقي بسبب التدافع، وأوشك أن أسقط في الماء. لا أجد خلاصي إلاّ بالقفز على مركب صغير راسٍ هنا. أمامي يطفو مركب تنّين محفور في جذع شجرة عملاقة، وبغية تأمين توازنه جرى تثبيت جذع شجرة أخرى على كلّ جانب، عند مستوى خطّ العوم. وعلى ظهره تموضع ثلاثون بحّارًا مرتدين جميعًا الزيّ نفسه، سروالاً قصيرًا بلون النيلة، لامعًا، مصنوعًا من عظام الجواميس، ومعتمرين فوق رؤوسهم قبّعات صغيرة من الخيزران المجدول بإتقان، وعلى أعينهم نظّارات سوداء، متمنطقين بأحزمة معدنيّة برّاقة.

في وسط المركب، جلس فتى متنكّر بزيّ امرأة، وفوق رأسه حلية من الفضّة وقبّعة فتاة. أحيانًا، يقرع صنجًا ذا صوت رنّان مثبتًا أمامه. عند مقدّمة المركب نُحت وجه تنّين من الخشب الملوّن، أكثر ارتفاعًا من قامة رجل، وغُطّي بقماش أحمر مزيّن بأعلام صغيرة. وسُمعت باستمرار قوقأة عشرات من طيور الإوزّ والبطّ الحيّة المربوطة إلى المركب.

دوّت سبحات الفرقعات، وجاء دور تقديم القرابين. في مقدّمة المركب عجوز يقرع الطبل ويدعو الشبّان لينهضوا بإشارة من يده. أحد الكبار يحمل بين ذراعيه جرّة ضخمة من خمر الأرزّ يغمره الماء إلى منتصف جسده دون أن يشمّر بنطاله، لكي يقدّم قصعة لكلّ من هؤلاء البحّارة، وراح الشّبان المرتدون نظّارات سوداء يحتسون الخمر بجرعات كبيرة وهم ينشدون الأغاني، ويطلقون صيحات الشكر ثم ينثرون في النهر الخمر الذي بقي في قعر القصعة.

ثم دخل رجل مسنّ يعاونه رجل آخر إلى الماء، حاملاً خنزيرًا حيًّا يطلق زعيقًا حادًّا وقد أُوثقت قوائمه. الحركة في أوجها. وأخيرًا وُضعت الجرّة الضخمة والخنزير على مركب صغير يحمل القرابين، ولحق بمركب التنّين.

أخرج من جديد إلى شرفة المبنى المشيّد، تشير الساعة إلى الخامسة تقريبًا. على النهر تتوالى قرعات الطبل، تارة قويّة وخفيفة طورًا، على إيقاع سريع تارةً وبطيء طورًا. تتابع مراكب التنانين الثلاثون تقدّمها

دون أن تترك انطباعًا لدى المشاهدين بأنّ المباراة ستبدأ. يبدو بعضها وكأنّها ستتلاقى لكنّها ما تلبث أن تنفصل سريعة كالسهم.

على الشرفة، لا أحد يبدو نافد الصبر. استُدعي عضو في لجنة الأقلّيّات ثم أحد كوادر لجنة الألعاب الرياضيّة. اتُّخذ قرار من السلطات العليا: يُمنح كلّ مركب من مراكب التنّين، شريطة اشتراكه في المسابقة، مكافأة يبلغ قدرها مئة يوان وبطاقات بقيمة ثمانين ليبرة من الحبوب. ثم، بعد فترة، احتجبت الشمس وراء الغيوم وتضاءلت الحرارة ولم تعد المظلاّت ضرورية. ومع ذلك، بقيت المراكب مشتّتة ولم تبدأ المسابقة. في هذه اللحظة، أعلن رجل أنَّ المسابقة لن تُجرى اليوم وأنَّ على المشاهدين الراغبين في حضورها النزول صباح الغد إلى مسافة أكثر انخفاضًا على مجرى النهر، على بعد ثلاثين «لي» من هنا، في قرية أخرى من قرى **مياو**. بطبيعة الحال، خاب أمل المشاهدين. وبعد فترة من الهياج، غادروا الشرفة.

أمّا التنّين الذي تؤلّفه قافلة السيّارات الطويلة فتحرّك، وما لبث أن اختفى بعد بضع دقائق وسط غيمة من الغبار الأصفر. في الشوارع، لم يبقَ إلاّ نفرٌ من الفتيان والفتيات **المياو** الذين يتنزّهون. يبدو أنّ القسم الأهمّ من احتفالات العيد ستُقام هذه الليلة.

أودّ فعلاً البقاء، لكنّ أحد المسؤولين ينبّهني إلى أنّه سيكون من المتعذّر عليّ الانتقال بسيّارة في اليوم التالي. أبلغته بأنّني سأذهب سيرًا على الأقدام. أظهر لطفًا وكياسة وعهد بي إلى موظّفين إداريّين من **المياو** وطلب منهما أن يحرصا على سلامتي قائلاً لهما: «إذا حصل له

شيء فأنتما المسؤولان عن ذلك!» فهزّ الأمين العامّ ورئيس الكانتون برأسيهما: «لا تقلق!». أعود إلى مقرّ المديريّة الإقليميّة فلا أجد أحدًا. الباب مقفل بالمفتاح. أجهل أين ذهب الأمين العامّ ورئيس الكانتون ليشربا الخمر. ولا أجد مسؤولاً يجيد التحدّث باللغة الصينيّة. وفجأة أشعر بأنّني حُرّ وأقرّر الذهاب للتنزّه في القرية.

في الشارع الذي يحاذي النهر، تستقبل كلّ عائلة أصدقاءها وأقاربها. لدى بعضهم الكثير من المدعوّين بحيث إنّ الطاولات التي وُضعت فوقها الأطباق باتت ملاصقة للشارع. عند مداخل البيوت، وُضعت دلاء الأرزّ وقصعات وعيدان. وكلٌّ يستطيع أن يختار ما يشاء من الطعام بعيدًا عن الأنظار. بما أنّني لا أريد إرباك أحد بداعي اللياقة، وبما أنّني عاجز عن التواصل بواسطة اللغة، أتناول أيضًا قصعة وعيدانًا. يحثّني الناس على أن أتدبّر أمري كما يطيب لي. إنّها عادة قديمة عند شعب **مياو**. ونادرًا ما أشعر بالراحة كما أشعر بها هنا.

تبدأ أغاني الحبّ عند الغسق. تنحدر الفتيات في مجموعات من ستّ أو خمس إلى الضفّة. بعضهنّ يتحلّقن في دوائر والبعض الآخر يمسكن بأيديهنّ ويبدأن بالمناداة على أحبابهنّ. ينتشر صدى الأغاني سريعًا والليل يسدل ستائره. أمامي وخلفي، صبايا في كلّ مكان حاملات مناديل أو مراوح في أيديهنّ وجميعهنّ يمسكن مظلاّت. بينهنّ فتيات صغيرات في سنّ المراهقة، في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة.

في كلّ فريق، تبدأ إحدى الفتيات بالغناء وترافقها الأخريات معًا، وهذه الفتاة هي دومًا أظرفهنّ. أن يتمّ اختيار الأجمل لكي تستهلّ الأغاني فهذا أمر طبيعي جدًّا.

ارتفع غناء الفتاة التي تقود الفريق، وأنشدت خلفها الصبايا الأخريات بأعلى أصواتهنّ. الحديث عن الغناء لا يبدو دقيقًا بما فيه الكفاية. فالأصوات الحادّة والصافية، الطالعة من الأحشاء، تدوّي في حنايا الجسد كلّه، منطلقة من أخمص القدمين حتى الرأس لتصدح بعدئذٍ خارج المنصّة. لا عجب في أن تُسمّى «أغاني طائرة»، الفتيات يَجُدْن بأنفسهنّ لكي يجتذبن العشّاق.

والأشدّ جسارة في الأمر وقوف الفتيان وجهًا لوجه قبالتهنّ، واختيار الفتاة التي تعجبهم كما يختارون قطعة من الحلوى. وإذ تشعر الفتيات أنّهنّ يجتذبن أنظار المعجبين بهنّ يلوّحن بمناديلهنّ أو بمراوحهنّ ويغنّين بشغف متزايد. وإذا تفاهم الطرفان، يجتذب الفتى الفتاة من يدها. لم تعد السوق التي ارتادها آلاف المارّة خلال النهار، متجوّلين بين البسطات، إلاّ ساحة غناء فسيحة. ودفعة واحدة، وجدتني مغمورًا بأغاني الحبّ. أقول إنّه عند بدء البشريّة، كان الغزل بين الأحبّة يتمّ بهذه الطريقة، وفي ما بعد فصلت الحضارة المزعومة النزوع الجنسيّ عن الحبّ واختلقت أيضًا مفاهيم الزواج والمال والدين والأخلاق، أي ما ندعوه عبء الثقافة. هنا يكمن فعلاً غباء الجنس البشريّ.

ازداد الليل ادلهمامًا. على النهر القاتم، توقّف قرع الطبول وأُنيرت المشاعل على المراكب. بدا لي فجأة أنّني سمعت نداءً يقول «أخي» بالصينيّة، على مقربة منّي. ألتفت فأرى أربع صبايا أو خمسًا ينشدن ويقتربن منّي. ربّما لا يعرفن إلاّ هذه الجملة بالصينيّة، لكنّها كافية لتستوفي نداء الحبّ. ألتقي نظرات ثابتة وكئيبة في الظلمة، أنسحر ويبدأ

قلبي بالخفقان. وفجأة، أعود إلى سنوات طفولتي وإلى رغباتي. وهذا الانفعال الذي هزّني فارقني منذ وقت طويل ولم أعد أشعر بلوعته في الفؤاد. ومن دون تفكير، أقترب منها على طريقة الشبّان هنا، أو ربّما لأنّ النور أمسى خافتًا. أرى شفتيها تتحرّكان بوهن ولكن لا صوت يصدر عنهما. تنتظر. رفيقاتها توقّفن أيضًا عن الغناء، لا تزال فتيّة، وجهها طفوليّ وجبينها عالٍ وأنفها أقنى وفمها صغير. أعرف أنّه بإشارة صغيرة منّي، ستتبعني وتلتصق بي. رفعت مظلّتها بفرح. لا أستطيع تحمّل هذه المواجهة المفاجئة والمستمرّة، وأهزّ رأسي عن قناعة ضاحكًا ببلاهة. مرتاعًا، أستدير مبتعدًا ولا أجرؤ على إصدار أيّة التفاتة نحوها.

لم يسبق لي قطّ أن عرفت هذا النوع من النداءات، رغم أنّه كان حلمي الدفين. والآن، وقد سنحت لي الفرصة، ها إنّي أدعها تفلت منّي.

يجدر بي الاعتراف أنّ نظرة الفتاة الصينيّة البرّاقة، المفعمة بالترقّب، هذه الفتاة بجبينها العالي وأنفها الأقنى وفمها الصغير الرقيق الذي يميّز جميع فتيات **مياو**، أيقظت في داخلي حنانًا أليمًا نسيته منذ وقت طويل. أنا على يقين أنّني لن أشعر أبدًا بهذا الحبّ النقيّ.

عليّ الاعتراف بأنّني بتّ عجوزًا. ليس فقط فارق السنّ وحده الذي يفصلني عنها ولا كلّ أنواع الفوارق الأخرى لكن، حتى لو كانت شديدة القرب منّي، وحتى لو استطعت اجتذابها بيدي... الأفدح من كلّ ذلك هو أنّ قلبي هو الذي شاخ ولم أعد أستطيع أن أهوى حبيبة بهذا الجموح الذي لا يخلي مكانًا لأيّ تعقّل. لقد فقدت علاقاتي بالنساء منذ زمن طويل عفويّتها. وحدها الرغبة الجسديّة راسخة. حتى لو بحثت عن لذّة اللحظة

العابرة، أخاف أن أتحمّل في سبيلها العواقب الوخيمة. لست ذئبًا، أودّ فقط أن أصيره لكي ألوذ إلى الطبيعة، لكنّي لا أتوصّل للتخلّص من مظهري البشريّ. أنا مسخ بجلد بشريّ، مسخ لا يجد أيّ مكان يأوي إليه.

تنبعث موسيقى الأراغن. وفي اللحظة نفسها، في أجمات الضفّة، خلف كلّ مظلّة يلتصق العشّاق ويتبادلون القبلات وهم يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، غافلين عن كلّ شيء، غارقين في عالمهم. هذا العالم، الأشبه بخرافة قديمة، ناءٍ شديد النأي عن عالمي. أغادر الضفّة وقد انتابني شعور بالمرارة.

على ساحة الميدان حيث تعزف آلات الأرغن، يلتمع البريق الأبيض كالثلج، المنبعث من مصباح يعمل على الوقود معلّق إلى شجرة الخيزران الكبيرة.

رأسها مكسوّ بقماش أسود معقود كعمامة وشعرها مربوط بحلقة فضّيّة مزيّنة في وسطها بتنانين وطيور فنيق تهتزّ ملتفتة. ومن كلّ جانب تتدلّى خمس ورقات فضّيّة على شكل أرياش طائر الفينيق، وتهتزّ لدى كلّ حركة من قدمها أو يدها. وعلى أوراق الجهة اليسرى عُقد شريط مرقّط يتدلّى ليصل إلى مستوى الخصر، مبرزًا رشاقته لدى كلّ حركة. ترتدي فستانًا ضيّقًا تكشف أكمامه الواسعة عن معصمين تزيّنهما الأساور الفضّيّة. جسدها بأكمله ملتحف بالعمامة والفستان الأسود. وحدهما عنقها وجيدها عاريان، يزيّنهما عقد ثقيل. تخترق جذعها سلسلة ترمز إلى الحياة الطويلة وزخارفها منحوتة برهافة وتتدلّى كلّ حلقة منها فوق الصدر الناهد بخفّة.

تعي تمامًا أنّ هذه الزينة تجتذب الأنظار أكثر من الملابس المتعدّدة الألوان التي ترتديها الصبايا الأخريات. تشير زينتها الفضيّة إلى أصولها الأرستقراطيّة. قدماها الحافيتان، هما أيضًا، في منتهى الظرف. وعندما بدأت بالرقص على وقع آلات الأرغن، سُمعت لخلاخيلها رنّة بلّوريّة. إنّها قادمة من إحدى قرى **المياو** السود الجبليّة. إنّها أوركيديا بيضاء ذات شفتين حمراوين مثل كاميليا الربيع، تكشف عن أسنان ناعمة برّاقة. أنفها الرقيق، الطفوليّ، وجنتاها المستديرتان، عيناها الضاحكتان، حدقتاها البرّاقتان بسواد السبج، كلّ ذلك يزيد على بهائها الفريد بهاءً.

لا يجديها بشيء الذهاب إلى الضفّة لتجتذب عشيقًا، شبّان القرى الأشدّ عنادًا يأتون للانحناء أمامها، حاملين آلات الأرغن التي يتعدّى طولها طول الرجل بمرّتين، وهم يزيّنون صدورهم بشرائط متعدّدة الألوان تخفق في الريح، نافخين صدورهم، متمايلين بأجسادهم، هامّين بخطوات راقصة، إلى اجتذاب التنانير الفضفاضة المتعدّدة الثنايا. أمّا هي، فتكتفي برفع قدميها بخفّة، والاستدارة بكامل ظرفها وأناقتها لترغم الشبّان على الانحناء أمامها، والعزف على آلات الأرغن حتى تزهق أنفاسهم وتتطاير فقاعات الدم من أنوفهم. كم هي فخورة بأن تراهم يستميتون لأجل كسب رضاها.

لا تفهم ما يسمّونه الغيرة، لا تعرف مكر النساء، لا تفهم لماذا تمزج الساحرات أمّات الأربع والأربعين والزنابير والأفاعي السامّة والنمل وخصلة من شعورهنّ بالدم والريق، ويحتبسن كلّ ذلك في جرّة مع الملابس الداخليّة المقطّعة إربًا للرجل الذي أبدى جحودًا تجاههنّ، ثم يطمرنها على عمق ثلاثة أقدام في التراب.

تعرف فقط أنّه على ضفّة النهر هناك فتى، وعلى الجهة الأخرى فتاة في عمر الحبّ، لكنّ الكآبة تعتصر قلبيهما. عندما يتقابلان على المسافة التي تعزف فيها آلات الأرغن، ينبهر كلٌّ منهما بجمال الآخر وتزهر براعم الحبّ الأولى على شجرة قلبيهما.

تعرف فقط أنّه، في عزّ الليل، يملأ الرماد الموقد، يشخر العجائز ويهذي الأطفال في أحلامهم، فتنهض وتفتح باب المنزل الخلفيّ لتبلغ الحديقة حافية القدمين، ويأتي فتى شابّ، معتمرًا قبّعة ذات قرن فضّيّ، يمرّ خلف السياج مصفّرًا بعذوبة. وعند الفجر، ينادي الأب تسع مرّات. إذا ناداها أكثر، تغضب الأمّ. فيمسك بعصاه ويدفع باب الغرفة لكنّه لا يجد أحدًا في السرير.

في وقت متأخّر من الليل، أتمدّد على سقيفة أماميّة عند الضفّة. انطفأت النجوم والأضواء المنعكسة فوق الماء. والتحم النهر والجبل في مشهد واحد مظلم. هبّت ريح الليل المنعشة ودوّى عواء الذئاب. مرتاعًا، أستيقظ من أحلامي وأرهف السمع، إنّها في الواقع الصرخة اليائسة لنداء حبّ حزين، أشبه بأغنية، أشبه بعويل يعاود من حين إلى آخر.

الفصل الأربعون

تقول إنّها لا تعرف معنى السعادة. تقول أيضًا إنّها حصلت على كلّ ما تتمنّاه. زوج وابن وعائلة صغيرة سعيدة بنظر الآخرين. زوجها مهندس إلكترونيّات، وتعرف أنّ هذه المهنة شائعة في أيّامنا. لا يزال شابًّا ومستقبله مشرق. ويقول الناس إنّه يكفي أن يقدّم براءة اختراع كي يجني ثروة. ومع ذلك فهي ليست بسعيدة. بعد ثلاث سنوات من الزواج، فترت حماستها للحبّ والزواج تمامًا. أمّا ابنها فتشعر أحيانًا أنّه مجرّد عبء فقط. وهي نفسها تفاجأت عندما أدركت حقيقة هذا الشعور، ثم اعتادت عليه. تحبّه على أيّ حال، تحبّ هذا الكائن الصغير الذي لا يمكن لأحد غيرها أن يوفّر له القليل من السعادة، ومع ذلك فهي لم ترضعه، حفاظًا على جسدها من الترهّل. عندما كانت في الكلّيّة، تخلع ثوبها الأبيض لتستحمّ، كانت زميلاتها اللواتي أنجبن يحسدنها على جسدها أشدّ الحسد.

ثوب آخر أبيض؟ تقول لها.

تقول إنّ الثوب هو لإحدى صديقاتها، صديقة تأتي دومًا لتحدّثها عن اكتئابها. تقول إنّها لا تستطيع أن تمضي النهار بطوله في التحدّث فقط

عن الأولاد لزميلاتها، وحياكة كنزات لابنها وزوجها عند كلّ ساعة فراغ. يجب ألاّ تكون المرأة أسيرة لرغبات أفراد عائلتها. حاكت الكثير من الكنزات بالطبع، وبدأت مشاكلها بسبب كنزة.

ما قصّة هذه الكنزة؟

تريد أن تتابع الاستماع إليها، لا يجدر بك مقاطعتها، تسألك: ماذا كنت أقول؟

كنت تتحدّثين عن هذه الكنزة وعن المشاكل التي سبّبتها لك.

تقول إنّها لم تكن تحظى بشيء من الهدوء إلاّ حين تستمع إلى الأرغن والأغاني خلال القدّاس. أحيانًا أيّام الآحاد، كانت تذهب إلى الكنيسة، تاركة ابنها في عهدة زوجها. هو أيضًا يُفترض به الاهتمام بالطفل، فالمسؤوليّات لا تترتّب عليها وحدها. لم تكن تتردّد إلى الكنيسة بدافع من إيمانها العميق لكنّها ذات يوم مرّت بالقرب من كنيسة. حاليًّا الكنائس مفتوحة والدخول إليها مُتاح للجميع. تسنّى لها ذات مرّة أن تستمع إلى ألحان موسيقيّة عذبة تنبعث من داخل الكنيسة. وفي ما بعد صارت تقصد الكنيسة كلّما سنحت لها الفرصة. كانت تهوى أيضًا موسيقى باخ وتستمع إلى موسيقى الموتى وتأنف الموسيقى المعاصرة. وهكذا استطاعت أن تتخطّى المتاعب التي تواجهها. تسألك عمّا إذا كانت طريقتها في السرد تفتقر تمامًا إلى التنظيم.

تقول إنّها بدأت تتناول الأدوية والحبوب المنوّمة، استشارت الطبيب. قال لها إنّها تعاني من الاكتئاب. كانت تشعر بتعب إلى حدّ الإنهاك، ولم تكن تأخذ قطّ قسطها الكافي من النوم. لكنّها إذا لم تتناول

حبوبًا منوّمة، تعجز عن النوم أيضًا. لم تكن باردة جنسيًّا، لا يخدعنّك الأمر، عرفت مع زوجها ذروة النشوة الجنسيّة، وكان يحرص أشدّ الحرص على أن تنال مأربها بدورها ولا يمكن أن تتخيّل عكس ذلك. إنّه أشدّ فتوّة منك لكنّ لديه عمله فهو شخص مقدام همّام، لا بل إنّه طموح بعيد الطموح، وليس الأمر عيبًا. كان ينعزل أغلب الليالي في مختبره حتى يتفادى الإزعاج الذي يتسبّب به ابنه في المنزل. ربّما لم يكن يجدر بها إنجاب طفل بهذه السرعة. لكنّ زوجها هو الذي أراد ذلك وأراد أن تنجب له طفلاً، وهنا جوهر المشكلة، ولادة هذا الطفل.

هاك ما حصل حاكت كنزة لابنها وخرّجتها بأزهار وفق موديل ابتكرته بنفسها. وجدت أنّ الكنزة أجمل من تلك التي تُعرض في معارض الملابس المخصّصة للأطفال. وبفضل بطاقات مجّانيّة وُزّعت على العاملين في مركز عملها، ذهبت برفقة زميل له إلى معرض تُباع فيه أحدث مبتكرات الموضة وقد سنحت الفرصة لهما بسبب خضوع بعض آلات المختبر للصيانة. رافقها زميلها على أمل أن يجد شيئًا لزوجته لكنّه لم يشترِ لها شيئًا في الواقع. بالمقابل، قال لها إنّ الكنزة التي حاكتها لابنها أفضل من البضائع المعروضة، وإن باستطاعتها فعلاً أن تصبح مصمّمة أزياء. وإذ ذاك، بدأت تفكّر جدّيًّا في ما قاله، وانكبّت فعلاً على شراء الكتب المتخصّصة في هذا المجال. ومن قماش من القطن الأزرق السميك غير مستعمل من قبل، ومن شالٍ لم تعد ترتديه كثيرًا، خاطت فستانًا يبرز الكتفين، وارتدته لتذهب إلى العمل. رآها زميلها قبل أن تبدّل ملابسها وهنّأها على براعتها في الخياطة، مضيفًا أنّها يجدر بها أن تخيط دومًا ملابسها بنفسها. وبعد يومين دعاها إلى

عرض للأزياء. ومنذ تلك اللحظة بدأ الكلام يدور على عارضات الأزياء.

تريدك أن تتابع الإصغاء إليها. قال لها إنّها لو صعدت إلى المسرح مرتدية ثوبها الذي يكشف عن كتفيها لكان بإمكانها أن تنافس هذه العارضات. فجسدها جميل بشكل خاصّ. لكنّها عارضته قائلة إنّها نحيلة جدًّا، فأجابها أنّ عارضات الأزياء لا يُطلب منهنّ أن تكون نهودهنّ عارمة بل يكفيهنّ أن تكون سيقانهنّ طويلة وقاماتهنّ رشيقة. وأضاف أنّ قامتها في منتهى الرشاقة خصوصًا حين ترتدي هذا الفستان. تقول إنّها كانت هي أيضًا تهوى ارتداء هذا الثوب حين تذهب إلى العمل، وهذا لأنّها خاطته بنفسها. وفي كلّ مرّة ترتديه، كان يجيل النظر فيها. ذات مرّة جاءت لتبدّل ملابسها، لم يُشح بنظره عنها ثم دعاها إلى العشاء.

رفضت، عليها الذهاب لاصطحاب ابنها من دار الحضانة، لا يمكنها أن تتركه في البيت مساءً دون الاعتناء به. سألها عمّا إذا كان زوجها يمنعها من الخروج مساءً بمفردها. لا، لكن عمومًا، عندما تخرج، تصطحب طفلها معها وتعود باكرًا لأنّ عليه الخلود للنوم. بالطبع، تركت طفلها مرارًا برعاية زوجها من قبل، لكنّها في ذلك المساء، لا تستطيع الذهاب لتناول العشاء برفقته، ومرّة أخرى دعاها لتناول الغداء في بيته عند الظهيرة، خلال الاستراحة، لأنّه يريدها أن تتذوّق الطبق الذي يتقنه أكثر من أيّ شيء آخر وهو «كُريات الحظوظ الأربعة».

فرفضت من جديد. لا، في البداية وافقت، لكنّه أضاف أنّه يأمل أن ترتدي ثوبها القطنيّ الأزرق.

هل وافقت؟

لا، أضافت أنّها لم تكن أكيدة من الذهاب لكنّها في اليوم التالي، جاءت مع ذلك إلى عملها مرتديةً ثوبها. وعند حلول الظهيرة، ذهبت إلى منزله. لم تكن تعرف ما الذي يميّز هذا الثوب عن سواه. كلّ ما فعلته هو أنّها خاطت قطعتي القماش وهذا الشال من الحرير المزدان بالرسوم الذي إذا نُظر إليه بحدّ ذاته لا ينمّ عن أيّ ذوق لدى صاحبه، ولكنّ الثوب كان مميّزًا. لم تكن على علم إطلاقًا بأنّ قامتها على هذه الدرجة من الجاذبيّة، حتى إنّ زوجها كان يمازحها قائلاً إنّ جسدها دون استدارات أنثويّة، وإنّها لم تكن مثيرة كثيرًا. فهل كانت فعلاً على هذا الجمال حين ترتدي هذا الفستان؟

تقول لها إنّ المشكلة ليست في الفستان.

أين هي إذًا؟ تعرف ماذا تقصد بقولك.

تقول إنّك لا تعرف أين تكمن المشكلة لكنّها، بجميع الأحوال، ليست في الفستان.

بل في أنّ زوجها لا يبالي ولا يحفل كثيرًا بما تلبسه!

تقول إنّها لم تكن تريد إغواء أحد.

تستدرك مستنكرًا لتؤكّد أنّك لم تكن تريد قول شيء بهذا المعنى.

تقول إنّها لن تقول شيئًا من الآن فصاعدًا. تسألها، ألم تكن تبحث عن أحد تبوح له بمكنونات نفسها، تحدّثه قليلاً عن عذاباتها؟ عن عذابات صديقتها؟ تحثّها على المتابعة.

لا تعرف الموضوعات التي تحبّذ التحدّث عنها.

تحدّثي عن «كريات الحظوظ الأربعة»، الطبق الذي يتقنه.

تقول إنّه حضّر كلّ شيء مسبقًا، زوجته كانت في مهمّة.

تلفت انتباهها قائلاً إنّها لم تذهب في الأصل إلى بيته لتزور زوجته، بل لكي تتناول الطعام. وكان عليها أن تنتبه إلى أنّ غياب زوجته من شأنه أن يحثّها على الارتياب بأمره. تعترف أنّ هذا ما حصل، وأنّها احتاطت للأمر، وعلى الرّغم من ذلك فقد ارتفعت حدّة التوتّر...

وتضاءلت قدرتها على التحكّم بتصرّفاتها؟

لم تستطع الرّفض.

عندما رأى الثوب؟

لم تستطع إلاّ إغماض عينيه.

لم تكن تريد أن تدرك أنّها كانت على وشك أن تفقد رشدها، أجل، هذا صحيح تمامًا.

لم تكن تريد أن ترى أنّها كانت مجنونة أيضًا؟

تقول إنّها غبيّة وإنّها لم تكن تفكّر بذلك، وإنّها كانت تعرف أنّها في جميع الأحوال لا تحبّه إطلاقًا، فزوجها أفضل منه.

تقول لها إنّها لا تحبّ أحدًا في الحقيقة.

تقول لك إنّها تحبّ ابنها.

تقول إنّها لا تحبّ إلاّ نفسها.

ربّما نعم، ربّما لا، تقول إنّها بعدئذٍ رحلت، ولم تشأ رؤيته في ما بعد بمفردها.

لكنّها رأته مع ذلك؟

نعم.

في بيته؟

تقول إنّها أرادت أن تشرح له موقفها...

تقول إنّ هذا لا يُشرح.

هذا صحيح، لا، تمقته، تمقت نفسها.

وهل عاودكِ الجنون؟

كفّ عن الحديث عنه! إنها معذّبة بشكل رهيب. لا تعرف لماذا يفترض بها أن تتحدّث عن هذا كلّه، تريد فقط أن ينتهي ذلك سريعًا.

تقول لها بأيّة طريقة كانت تريد أن ينتهي ذلك.

تقول إنّها لم تعد تعرف هذا أيضًا.

الفصل الواحد والاربعون

توفّي قبل سنتين من مجيئي إلى هنا. آنذاك كان الكاهن الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة في المئة قرية المجاورة لإتنيّة **مياو**. كانت قد مرّت عشر سنوات ولم يجرِ تنظيم احتفالات مهيبة لتقديم القرابين للأجداد. كان يعرف أنّه لن يلبث أن ينتقل إلى عالم السماء، وأنّه إذا استطاع العيش حتى سنّ متقدّمة فهذا يدين به للأضاحي العديدة التي قدّمها. لم تكن الأرواح تجرؤ على النزول إلى عالم الأحياء لتعذيبه مجّانًا. كان يخشى ألاّ يعود قادرًا على النهوض ذات صباح وأن يحين أجله قبل حلول فصل الشتاء.

عشيّة الاحتفال بالعام الجديد، استغلّ فرصة قدرته على الانتقال على رجليه من مكان إلى آخر. وأخرج الطاولة المربّعة ووضعها أمام منزله القائم على مكان بارز فوق النهر. كانت الضفّة الصامتة مقفرة، وكلّ الناس التزموا بيوتهم للاحتفال بالعام الجديد. الآن يقرّب الناس القرابين للأجداد بالطريقة نفسها التي يحتفلون بها بالعام الجديد: ببساطة متزايدة. جيلاً بعد جيل كانت عزيمة الناس تضعف بلا هوادة.

وضع على الطاولة عدّة طاسات مليئة بخمر الأرزّ، وجبنة صويا، والحلوى المعدّة لاستقبال السنة الجديدة، المصنوعة من الأرزّ اللزج وأمعاء الجاموس التي قدّمها الجيران له. تحت الطاولة، وضع باقة من الأرزّ وكدّس أمامه كمّيّة من الفحم. وإذ شعر بالإنهاك الشديد، وقف قليلاً ليستعيد أنفاسه ثم تسلّق السلالم وعاد إلى المدخل ليبحث في الموقد عن قطعة فحم مشتعلة. تربّع ببطء وانحنى لكي ينفخ فوقها. تصاعد الدخان بكثافة حتى سالت الدموع من عينيه الجافّتين. ارتفعت ألسنة النار فجأة وأخذ يسعل لبرهة. ولم يهدأ سعاله إلاّ عندما احتسى جرعة من الخمر المخصّص لتقدمة القرابين.

على الضفّة الأخرى، تلاشت أنوار النهار الأخيرة فوق قمم الجبال ذات الخضرة الداكنة. وبدأت ريح المساء تصفر على صفحة المياه صفيرًا أشبه بأغنية غريبة. جلس على المقعد العالي قبالة الطاولة وقدماه مستندتان إلى حزمة الأرزّ. استعاد هدوءه الدفين، ورفع رأسه ليتأمّل سلسلة الجبال القاتمة. وقد شعر أنّ دموعه بردت وبرد المخاط السائل من أنفه.

فيما مضى، عندما كان يقوم بتقدمة القرابين عن أرواح الأجداد، كان يعاونه في ذلك أربعة وعشرون شخصًا: رسولان، وكيلان، حاملا لوازم، معاونان، حاملا السكاكين، حاملا أوعية الخمور، مقدّما الصحون، فتاتان ــ تنّينتان، بشيران، حاملا الأرزّ... يا للعيد المهيب! كان يُضحّى على الأقلّ بثلاثة جواميس وبتسعة على الأكثر.

كان على شريك الموص أن يقدّم له، على سبيل المكافأة، الأرزّ اللزج سبعَ مرّات: المرّة الأولى، سبع جرار لكي يذهب إلى الجبل ويقطع الشجرة ــ الطبل. المرّة الثانية ثماني جرار لكي ينقل الطبول إلى المغارة. المرّة الثالثة، تسع جرار ليحملها إلى القرية، المرّة الرابعة عشر جرار لكي يوثق الطبول في ما بينها، والمرّة الخامسة إحدى عشرة جرّة ليقتل الجاموس ويقدّمه أضحية للطبول، والمرّة السادسة اثنتي عشرة جرّة تقدمةً للطبول. هذه هي القواعد السلفيّة.

عندما بادر لتقديم أضحيته الأخيرة، أرسل شريك الموص خمسة وعشرين شخصًا ليحملوا له الأرزّ والأطباق والخمر. يا للأبّهة!

تلك الأيّام الحلوة، ولّت إلى غير رجعة، يا للأسف! في تلك السنة، لكي يكبح جماح الجاموس قبل ذبحه، نُصب في المكان عمود مزيّن بخمسة ألوان. كان الشريك الموص قد قدّم ثيابًا جديدة للمشاركين، ودوّت موسيقى الأرغن وقُرعت الطبول. وهو نفسه كان يرتدي ثوبًا طويلاً أرجوانيًّا، ويعتمر قبّعة من المخمل الأحمر، وجعل في قبّة قميصه ريشة طير رخّ. وراح بيده اليمنى يحرّك الأجراس وهو ممسك بيسراه بورقة كبيرة من شجرة الموز يستخدمها كمروحة. آه...

أيّها الجاموس، أيّها الجاموس،

في المياه الهادئة وُلدت،

وعلى الرملة ترعرعت،

في المياه، لحقت بأمّك،

فوق الجبال الجرداء لحقت بأبيك،

وخاصمت الجرادة على طبل الأضحية.

وخاصمت السرعوفة على خيزران الأضحية،

وعلى منحدرات ثلاثة صارعت

وفي سبعة خلجان حاربت

الجرادة هزمت،

والسرعوفة قتلت،

والخيزران قطعت،

والطبل الكبير أمسكت،

ومع الخيزران لوالدتك قرّبت الأضاحي،

ومع الخيزران لوالدك قرّبت الأضاحي،

أيّها الجاموس، أيّها الجاموس

تحمل أربع سلال فضّة

وأربعًا من ذهب في الوقت نفسه،

وبرفقة والدتك، تذهب

وبرفقة والدك، تذهب

إلى المغارة تدخل

وباب الطبل، ستدوس،
برفقة أمّك، حرست الوديان
وبرفقة أبيك، حرست باب القرية
لتمنع الأرواح الشرّيرة من ارتكاب الأعمال المؤذية،
لتحظّر على الشياطين الدخول إلى منزل الأجداد
لكي تبقى أمّك مطمئنّة ألف سنة،
ليبقى والدك خليّ البال لمئة جيل.

في هذه اللحظة، كان رجل يدخل حبلاً في خطم الجاموس، ويوثق قرنيه بسير من اللحاء ويجذبه. يقوم الشريك الموصي بثلاث ركعات وتسع سجدات. ثم راح سيّد الأضحية ينشد بصوت مرتفع، وأمسك برمحه واندفع وراء الجاموس ليقتله. ثم مرّر الأحفاد الجدد الخنجر من واحد إلى الآخر وذهبوا لينحروا الحيوان على إيقاع الموسيقى والطبول. اندفع الجاموس كالمجنون حول العمود والدم ينزف منه. ثم تداعى في نهاية المطاف مبهور الأنفاس. عندئذٍ قطع الحشد رأسه وتقاسموا لحمه. أمّا قلبه فهو من نصيب سيّد الأضحية. هذه الأيّام الحلوة ولّت إلى غير رجعة!

الآن، تساقطت جميع أسنانه وبات طعامه يقتصر على القليل من الحساء. تلك الأيّام الحلوة عاشها حقًّا. أمّا الآن فلا أحد يأتي لخدمته،

فالمال الذي يجنيه شبّان اليوم يشترون به سجائر أو أجهزة كهربائيّة تحدث زعيقًا في كلّ اتّجاه، أو نظّارات سوداء يسترون بها عيونهم فتجعلهم أشبه بالشياطين. أما يزالون يفكّرون اليوم بأجدادهم؟ بقدر ما يردّد أغاني تلك المرحلة بقدر ما تزداد تعاسته ومرارته.

تذكّر أنّه نسي وضع المبخرة. لكنّه لو ذهب ليأتي بها من المدخل لتوجّب عليه أن يتسلّق الأدراج الحجريّة من جديد. أشعل ببساطة عيدان البخور من الجمرات المشتعلة وغرسها في الرمل أمام الطاولة. قديمًا، كان يجب أن تُبسط على الأرض قطعة قماش سوداء طولها ستّ أقدام توضع فوقها أغمار الأرز.

داس على حزمة الأرز وأغمض عينيه. فتراءت له فتاتان من فتيات ــ التنّين لم تبلغا بعد السادسة عشرة، من أجمل صبايا القرية، أعينهما أشدّ صفاء وإشراقًا من ماء النهر، قبل ارتفاع فيضانه. أمّا اليوم، ما إن تتساقط أمطار غزيرة حتى يصبح النهر عكرًا، وزدْ على ذلك، أنّه من المستحيل العثور، على مسافة عشرة «لي» من جميع الجهات، على أشجار ضخمة يمكن استخدامها لتقديم الأضاحي. يجب الإتيان على الأقلّ باثني عشر زوجًا من أشجار مختلفة الأنواع ولكن متساوية الحجم. السنديان كخشب أبيض والقيقب كخشب أحمر. من السنديان، تُستخرج الفضّة ومن القيقب الذهب.

إلى الأمام! أيّها الأب الطبل من القيقب،

إلى الأمام! أيّتها الأمّ من خشب السنديان،

اتبعْ خشب القيقب،

اتبعْ خشب السنديان،

هناك حيث يوجد ملك الزمان،

هناك حيث الأجداد

وعندما ترافق الطبل، انزع الوتد،

فإنّ سيّد الأضحية يخرج السكّين من غمده

يخرج السكّين ليقطع الخشب،

ينتزع الوتد ليرافق الطبل،

دونغا دونغ دونغ ونغ

دونغ كاكا دونغ ونغ

كادونغ وا ونغ ونغ

ونغ كا دونغ دونغ كا،

...

عشرات الفؤوس عملت طيلة الليل. ويجب أن تنجز مهمّتها. والفتاتان الصبيّتان بملامحهما الرهيفة وخصريهما النحيلين انطلقتا أخيرًا وأنشدتا:

الزوجات يبحثن عن أزواج،

الرجال يسعون وراء النساء،

في الغرف المظلمة سيولد الأطفال،

سرًّا، يصنعونهم،

يجب ألاّ ينقطع النسل،

يجب ألاّ تنطفئ الذريّة،

سبع فتيات ماهرات ولدن

تسعة فتيان أشدّاء ظهروا على وجه الأرض.

تشخص الفتاتان بأعينهما. ويستغرق الكاهن العجوز في ذاته وقد التمعت حدقتاه السوداوان. يشعر من جديد برغبة جسديّة، يستعيد قوّته ويبدأ الغناء بصوت عالٍ ووجهه مرفوع نحو السماء. الديك يصيح كوكوريكو، وإله الرعد يرسل البرق، والأبالسة المقطوعة الرأس تقفز وتقرع على جلد الطبول قرعات متتالية كأنّها تضرب عليها بحفنات من حبوب البازيلا. آه! القبّعات العالية الفضيّة، الأقراط الثقيلة، الحرارة المرتفعة كالدوائر من المرجل المليء بالفحم! يغسل يديه ووجهه والسعادة تملأ قلبه والآلهة مبتهجون، بسطوا درجًا سماويًّا انحدر عليه طيف أبويه. الطبول تضاعف حدّتها، الهري يُفتح، تسع قدور وتسع جرار لا تكفي لتحوي البذرة الرهيفة، النار تشرئبّ، الجمرات متوهّجة، الثروة هنا، روح الأمّ السلفيّة وافت أخيرًا، إنّها الوفرة، تسع دلاء من الأرزّ الأبيض يتصاعد البخار منها، وجميعهم جاؤوا ليصنعوا كرات الأرزّ، اقرعي أيّتها الطبول، اقرعي أيّتها الطّبول! يبدأ عازفو الطبول بالمسير ويتبعهم العجائز. من الأمام، من الخلف، من كلّ مكان. يختتم سيد الطّبول المسيرة.

اذهبوا للاغتسال في مياه الغنى
تزوّدوا بالمياه المباركة!
مياه الغنى ستعطيكم أطفالاً،
في مياه المطر سيولد طفل،
مثل نبات القصب، الأطفال والأحفاد
مثل الأسماك الصغيرة، يسارع الشبّان
للذهاب إلى سيّد الطبل
تسعة أكواب من الخمر يشربون
لأجل الأضاحي يأخذون الأرزّ
الخمر، يسكبونه أرضًا.
راجين إله السماء أن يتقبّله
راجين إله الأرض أن يأكله
يشهر سيّد الطبل فأسه
الأجداد يستلّون سيوفهم
عابرين الأجيال
فليكونوا أبديّين
كلّ يتذكّر والدته

ليجوّف جذع خيزرانتيْن

ليصنع طبليْن...

غنّى بصوت عالٍ حتى بُحّ صوته. صوته الأجشّ يشبه عصًا من الخيزران المجوّف تنتحب في الرّيح. حلقه جافّ. احتسى بضع قطرات من الخمر. يعرف أنّ هذه هي المرّة الأخيرة، روحه تغادره مقتفية صوته الذي يتّجه صعدًا نحو الفضاء.

من الذي يستطيع سماعه عند ضفّة هذا النهر القاتم المقفر؟ لحسن الحظّ، فتحت امرأة عجوز بابها لتقذف المياه الوسخة خارج العتبة. بدا لها أنّها تسمع غناء في البعيد. تلمح عندئذٍ شرارة نار على الضفّة، فيخطر لها أنّ أحد الرجال **الهان** يصطاد عند النهر. أبناء **هان** هؤلاء يتغلغلون في كلّ مكان طمعًا في كسب المال. تغلق بابها ثم تتنبّه فجأة إلى أنّ أبناء **هان**، كما أبناء **مياو**، يحتفلون بالعام الجديد هذا المساء. ما خلا، بالطبع، هؤلاء الذين لا يملكون فلسًا. أيكون هذا أحد المتسوّلين؟ تملأ قطعة من فضلات مائدة العيد وتذهب منحدرة إلى حيث النار. مشدوهة، تتعرّف إلى الكاهن العجوز الجالس أمام طاولته.

ينهض زوجها لكي يغلق الباب المفتوح الذي يدخل البرد من خلاله لينتشر متغلغلاً في كلّ أرجاء المنزل، لكنّه يتذكّر أنّ زوجته خرجت لتأخذ قصعة الطعام لأحد المتسوّلين. يخرج هو أيضًا ويُصاب بالذهول والخرس لدى وصوله أمام النار. ثم يخرج الفتى والفتاة من البيت ويقفان حائرين هما أيضًا. وأخيرًا يتدخّل الابن الذي تردّد لبضع سنوات إلى مدرسة الكانتون ويتقدّم نحوهم ويوجّه كلامه للكاهن قائلاً:

ـ ستُصاب بالبرد إذا ظللت هكذا في الخارج. سوف أساعدك على الرجوع إلى البيت.

لم يعره الرجل العجوز، الذي يسيل المخاط من أنفه، انتباهًا، بل تابع الغناء، مغمضًا عينيه، بصوت مبحوح يرتعش في حلقه.

فُتحت أبواب المنازل الأخرى، الواحد تلو الآخر. النساء العُجّز، الرجال العجائز خرجوا برفقة أولادهم، وكلّ أبناء القرية تجمّعوا أخيرًا على الضفّة. بعضهم عادوا إلى منازلهم ليأتوا بقصعة من كرات الأرزّ اللزج، وبعضهم أتوا ببطّة، وآخرون بطاسة من النبيذ وقليل من لحم الجاموس. وأخيرًا، وضعوا أمامه نصف رأس خنزير.

همهم العجوز دون توقّف:

ـ إنّها لجريمة أن تنسوا أجدادكم.

عندئذٍ هرعت فتاة صبيّة إلى بيتها وقد هزّها الانفعال، لتأتي بالغطاء الذي أعدّته لزواجها فدثّرت به العجوز ومخّطت أنفه بمحرمة مطرّزة.

وأمرته:

ـ عُد إلى منزلك أيّها الأب العجوز.

وقال الشبّان متعجّبين:

ـ يا للرجل المسكين!

ـ أمّ القيقب، أبو السنديان، إذا نسيتم أجدادكم فعليكم أن تدفعوا الثمن!

كانت كلماته تتردّد في حلقه. كان يبكي.

ــ سيختفي صوتك عمّا قليل أيّها الأب العجوز.

ــ عد إلى بيتك.

أراد الشبّان مساعدته.

ــ سأموت هنا...

قاومهم الرجل العجوز وأخذ يصرخ كطفل نزق.

قالت امرأة عجوز:

ــ دعوه يغنّي. إنّه شتاؤه الأخير.

الكتاب الذي بين يديّ «**أغاني الأضاحي**» جُمع وتُرجم إلى الصينيّة على يد صديق **مياو** تعرّفت إليه، وإذا كتبت هذه القصّة، فهي على سبيل تقديم الشكر له.

الفصل الثاني والأربعون

إنّه نهار مشرق رائع الجمال، السماء دونما غيمة. التماع قبّة السماء وعمق غورها يعقدان لسانك لفرط الإعجاب. في الأسفل، قرية منزوية بيوتها مبنيّة على ركائز مسندة إلى الجرف، مثل خليّة نحل معلّقة بصخرة. لكأنّه حلم. تدور في الحلقة نفسها، في أسفل الجبل، دون أن تعثر على أيّة درب يمكن سلوكها لبلوغ القرية. تشعر أنّك تقترب من القرية فيما أنت تبتعد عنها. هذه الروحات والغدوات تستنفد كلّ وقتك فتنسى الغاية التي تسعى من أجلها. تتقدّم على غير هدى، تختفي القرية خلف القمم. ومع ذلك تشعر بحسرة غامضة. تجهل أين تقودك الطريق التي تسلكها، حتى لو لم تضع نصب عينيك هدفًا محدّدًا.

تتّجه إلى الأمام على الطريق الملتوية أمامك. لم يكن في حياتك هدف محدّد تسعى إليه. والأهداف التي حدّدتها لنفسك تغيّرت مع الزمن ولا تني تتغيّر. وفي النهاية، لم يكن لديك أيّ هدف. ومن يمعن في التفكير يجد أنّ الهدف الأسمى للحياة البشريّة لا أهمِّيَّة له. إنّه أشبه بقفير النحل، تأخذك الحسرات إذا تخلّيت عنه، وتتسبّب بضرر بالغ على جماعة النحل إذا أخذته. الأفضل أن تتركه حيث هو وتراقبه دون لمسه.

إزاء هذه الخاطرة، تشعر أنّك أكثر خفّة. ليس مهمًّا كثيرًا أين تذهب، المهمّ أن يكون المنظر جميلاً.

تحاذي الدرب غابة من أشجار القطلب، في غير فترة نضوج الثمر. عند نضوج الثمار، يستحيل عليك أن تعرف أين ستكون. هل ينتظر القطلب الناس؟ أو بالأحرى هل ينتظر الناس القطلب؟ تلك هي مسألة ميتافيزيقيّة، ويمكن أن تجد لها حلولاً لا متناهية. لن تتغيّر ثمار القطلب، والإنسان سيبقى نفسه دومًا. ويمكن القول أيضًا إنّ ثمار القطلب هذه السنة ليست نفسها في السنة المقبلة. والإنسان اليوم ليس نفسه البارحة.

المسألة تكمن في معرفة أيّهما الحقيقيّ: إنسان البارحة أم إنسان اليوم. وكيف السبيل إلى تحديد معايير الحكم؟ دع الميتافيزيقيّين يتحدّثون عن الماوراء واهتمّ فقط بطريقك.

تواصل التسلّق، جسدك ينضح عرقًا. وفجأة تصل إلى القرية. عند لمحك ظلالها يجتاحك إحساس بالانتعاش.

لم يخطر ببالك قطّ أنّه عند أسفل هذه البيوت المعمّدة ستجد رجالاً يتّخذون مقاعدهم على البلاطات الحجريّة المستطيلة. لا يمكنك أن تشقّ لك طريقًا دون أن تلامس سيقانك سيقانهم. لا أحد ينظر إليك، رؤوسهم مخفضة ويتمتمون نصًّا مقدّسًا والأسى الشديد بادٍ على وجوههم. تنساب البلاطات الحجريّة ملتوية على طول الشوارع، وعلى الجانبين، تنحدر الأبنية الخشبيّة في كلّ الاتّجاهات، متساندة، وكأنّها تتدارك سقوطها المحتمل في حال حدوث زلزال أو انزلاق في التربة، كلّ شيء عندئذٍ سيتداعى.

ما أشبه هؤلاء العجائز الجالسين متّكئين أحدهم على الآخر بهذه المنازل! يكفي أن تدفع واحدًا منهم لكي يسقط الجميع مثل أحجار الدومينو. لا تجرؤ على الاصطدام بهم، خوفًا من حدوث كارثة.

تمرّر قدميك بين سيقانهم بأكبر قدر ممكن من الانتباه. جوارب من القطن تغلّف أقدامهم الهزيلة كمخالب الديك. نحيبهم مصحوب بأزيز يستحيل معرفة ما إذا كان صادرًا عن مباني الخشب المجاورة، أو عن همهمات يردّدونها في صدورهم. يرتجفون بسبب أعمارهم المتقدّمة ويتلون صلواتهم وهم يتمايلون ورؤوسهم لا تكفّ عن الاهتزاز.

على طول الشارع الملتوي بلا نهاية، رجال جالسون على البلاطات الحجريّة وملابسهم نفسها من القطن الرماديّ البالي والممزّق. على درابزونات المنازل قطع من النسيج منشورة لتجفّ، وأيضًا ناموسيّات مُخاطة من القنّب الخشن الملمس. من هؤلاء العجائز المستغرقين في الألم، ينبعث جلال مهيب.

في تراتيلهم يتردّد صوت يخترقك كمخالب هرّ، يمسك بك، يجذبك، يرغمك على الذهاب قُدُمًا. من المستحيل معرفة مصدره، لكن عندما ترى سبحات من قصاصات الورق معلّقة أمام باب أحد المنازل ودخان البخور المتصاعد، وخلف الستائر المخفضة، تدرك أنّهم يبكون ميتًا.

تشقّ عليك المتابعة، يتعالى نحيب الناس أكثر فأكثر، ويزداد التصاقهم بعضهم ببعض. لم تعد قادرًا حتى على إيجاد موطئ قدم. تخشى أن تحطّم عظام هؤلاء الرجال إذا دست فوق أحدهم. عليك أن

تبذل أقصى جهدك لتتقدّم خطوة إلى الأمام لتجد مكانًا شاغرًا بين تشابك السيقان والأقدام هذا، تحبس أنفاسك وتتقدّم خطوة خطوة.

ما من أحد يرفع وجهه صوبك. بعضهم يعتمرون عمامات والبعض الآخر مناديل من القطن. لا يمكنك تميّز ملامحهم في هذه اللحظة. ينشدون بصوت واحد أغنية. تصغي بانتباه فتفهم كلماتها:

جميعكم جئتم،

في يوم، ستّ مرّات ركضتم،

ومرّة واحدة، ستّة فراسخ اجتزتم

في الجحيم، انثروا الأرزّ

وبذلك تنجزون مهمّتكم.

الصوت الحادّ الذي يقود الأغنية صادر عن امرأة عجوز جالسة عند عتبة باب حجريّة بالقرب منك. إنّها متميّزة عن الآخرين. كتفاها مدثّرتان تمامًا بالأسود وكذلك رأسها. تضرب ركبتها بيد مرتعشة وتتمايل بجسدها من الأمام إلى الوراء على إيقاع اللحن، وإلى جانبها قصعة من الماء البارد وأنبوب من القصب مليء أرزًّا، وكذلك كومة من القصاصات المربّعة من الورق السميك تتخلّلها صفوف من الثقوب الصغيرة. غمست إصبعها في ماء القصعة ثم انتشلت قصاصة الورق الفضتيّ ورمتها في الهواء.

لا أعرف متى أتيتم،

لا أعرف متى ترحلون،

تذهبون إلى أقاصي الأرض هناك، في الشرق،

آه يا دودان[1]! أوه دودان!

لكي يقتل رجلاً، نصف حبّة أرزّ تكفيه،

لكي ينقذ رجلاً، قطعة صغيرة تكفيه،

هؤلاء الذين يتعذّبون، يجب إنقاذهم

تجمّعوا إذن!

تريد أن تلتفّ من حولها، لكنّك تخاف أن تصطدم بكتفيها. فتتسبّب دون شكّ بسقوطها. تفضّل أن تقفز من فوقها لكنّها بدأت تصرخ بصوت حادّ:

آه يا دودان ! آه يا دودان!

ساقاه مثل عودين

رأسه مثل سلّة من البطّ

إذا حضر فكلّ شيء يجري بسرعة،

إذا حضر فبالإمكان تقدير العواقب،

فليأتِ بسرعة

قولوا له بألاّ يتأخّر.

---

(١) دودان، اسم الشيطان لدى قوميّة مياو.

مواصلةً صراخها، نهضت أخيرًا ببطء ولوّحت بذراعيها باتّجاهك، أظافرها مثل مخالب دجاجة مصوبّة نحو عينيك. لا تعرف أيّة قوّة تدفعك إلى إبعاد يديها وانتزاع القماش الأسود الذي يغطّي رأسها. عندئذٍ، يظهر وجه صغير جافّ ومحجران لا نظرة فيهما، غائران عميقًا في الجمجمة، وشفتان منفرجتان لا تكشفان إلا عن سنٍّ واحدة وابتسامة ليست هي بابتسامة. وتابعت الصراخ وهي تقفز:

الأفاعي الحمراء المرقّشة تزحف في كلّ مكان،

النمور والفهود تخرج،

أبواب الجبال تنفتح وهي تزأر،

وجميعهم يعبرون الباب الحجرّي

وفي كلّ مكان يصرخون معًا،

أسرعوا لإنقاذ هذا الرجل من محنته!

تحاول أن تتخلّص منها، لكنّ العجائز ذوي الأجساد اليابسة كالخشب الميت ينتصبون ببطء، ويحيطون بك من كلّ جانب ويواصلون الصراخ بأصواتهم المتهدّجة:

آه يا دودان! أوه يا دودان!

بسرعة، افتحوا الباب وصلّوا في الجهات الأربع.

الساعة ين تنادي الساعة ماو،

توسّلوا إليه لكي يذهب إلى الأب الرعد والأمّ الصاعقة.

لنركب الأحصنة،

ونستخدم أموالهم!

يهرع الحشد صوبك، يصرخون، الكلمات تجمد في حلقك. تدفعهم فيسقطون الواحد تلو الآخر على الأرض، بخفّة كالورق، دونما ضجّة، ويرين على المكان صمت عميق. وفي هذه اللحظة تفهم أنّ الرجل الممدّد خلف الستارة هو أنت. لا تريد أن تموت هكذا، تريد أن تعود إلى عالم الأحياء.

الفصل الثالث والأربعون

أغادر القرية التي تسكنها إتنيّة مياو وأسلك طريقًا جبليّة مقفرة، من الفجر حتى بعد الظهر. أحاول إيقاف الشاحنات المقطورة المحمّلة بالحطب أو الخيزران، أشير لحافلات المسافات الطويلة، لكن أيًّا منها لا يتوقّف.

الشمس قبالتي والريح الباردة تهبّ من الوادي. على الطريق الرئيسيّة الملتوية، لا قرية، ولا عابر سبيل. تتملّكني التعاسة. هل سأصل إلى عاصمة المقاطعة قبل هبوط الليل؟ إذا تعذّر عليّ الانتقال بواسطة سيّارة فلن أجد مكانًا أبيت فيه ليلتي. أذكر فجأة أنّ لديّ آلة تصوير فوتوغرافيّة في حقيبتي، فلمَ لا أسعى للتظاهر بأنّني صحافيّ؟

أسمع صوت عربة تقترب. أتعمّد الوقوف في وسط الطريق لكي أقطع عليها المرور وأنا أشهر آلتي. تصل الشاحنة، مقطورتها مغطّاة وهي تتمايل. تنقضّ عليّ ولا تكبح فراملها إلاّ في اللحظة الأخيرة، محدثةً جلبة كبيرة.

هتف السائق ورأسه خارج السيّارة:

ـ من هو ابن العاهرة الذي يقطع الطريق هكذا؟ هل تجازف بحياتك على هذا النحو!؟ ماذا دهاك؟

إنّه من الهان، على الأقلّ ، أعرف ماذا يقول.

أهرع حتى باب الشاحنة:

ـ اعذرني، أنا صحافي، جئت أقوم بتحقيق في قرية مياو. أنا مستعجل جدًّا وعليّ إرسال برقيّة إلى عاصمة المقاطعة قبل هبوط الليل!

هذا النوع من الرجال ذوي الوجوه العريضة والخدود المربّعة والأفواه الغليظة يسهل إقناعهم عمومًا. يتفحّصني من رأسي حتى قدميّ مقطّبًا حاجبيه:

ـ شاحنتي تنقل الخنازير وليس الناس. أضف إلى ذلك أنّني لست ذاهبًا الى العاصمة.

هذا صحيح، أسمع نخير خنازير في الخلف.

أبتسم ابتسامة عريضة:

ـ ما دمت لا تأخذني إلى المسلخ، فلا بأس.

مكرهًا، يفتح الباب، أقفز إلى المقعد الأمامي وأنا أشكره بحرارة.

يرفض السيجارة التي أقدّمها له. يقود شاحنته دون أن ينبس بكلمة. الآن، وقد جلست مرتاحًا، فلا حاجة بي إلى أن أشرح أكثر من ذلك. من وقت لآخر يلقي نظرة على آلة التصوير التي تعمّدت حملها في عنقي. أعرف أنّ بكين في نظر سكّان هذه المنطقة تعني مركز السلطة، وأنّ

صحافيًّا آتيًا من المركز هو بالضرورة «شخصيّة هامّة»، لكن لا أحد من المسؤولين الكبار في المقاطعة يرافقني، ولم ترسل أيّة سيّارة جيب للبحث عنّي. كيف السبيل إلى توضيح هذه الأمور؟ من الصعب تبديد شكوكه.

لا شكّ أنّه ينظر إليّ على أنّني أحد المحتالين الذين ينتشرون بكثرة في هذه الناحية. يتنكّرون بحمل آلة فوتوغرافيّة فارغة، ويجوبون الجبل للقيام بأعمال مريبة ويلتقطون صورًا للفلاّحين، متذرّعين أنّ أسعارهم أقلّ ارتفاعًا من سواهم، ويمارسون هذه اللعبة لبعض الوقت ثم يعودون إلى المدينة لينفقوا المال الذي احتالوا على الناس لجمعه. يسعدني أن يظنّ أنّي من هؤلاء النصّابين. من وقت لآخر، عليَّ أن أتسلّى قليلاً وإلاّ فستكون هذه الرحلة الطويلة في منتهى الضنى. وفجأة، رمقني بنظرة باردة وقال لي:

ــ إلى أين تذهب في النهاية؟

ــ أعود إلى العاصمة!

ــ أيّة عاصمة؟

بما أنّني ركبت في سيّارة ملك مياو، لم أستطع حفظ اسم العواصم التي مررت بها. لا أقدر أن أجيبه.

قلت:

ــ في أيّ حال، أنا ذاهب إلى مركز الإسكان في المقاطعة الأقرب!

ــ حسنًا، انزل هنا!

أمامنا مفترق طرق مقفر هو أيضًا لا أثر فيه لأيّ كائن حيّ. لا أعرف إذا كان يحاول ترهيبي أم أنّه يريد أن يظهر حسّ دعابة. الشاحنة تبطئ سيرها ثم تتوقّف.

ثم أردف:

ـ سأنعطف.

ـ لكن إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى مؤسّسة تهتمّ بشراء الخنازير.

ينحني لكي يفتح لي الباب. إنّه تعبير عن دعوته إلى النزول من الشاحنة. من البديهي أنّها ليست دعابة. ليس بوسعي إلاّ القفز عن مقعدي. أساله:

ـ هل صرنا خارج منطقة **المياو**؟

فأجاب بأسلوبه الفاتر الذي استخدمه معي:

ـ منذ وقت طويل. أنت على مسافة عشرة كيلومترات من المدينة. ستصل إليها قبل الليل.

يصطفق الباب، تعلو غيمة من الغبار، تتوارى الشاحنة بعيدًا. أقول في نفسي: لو كنت امرأة لما عاملني السائق بهذه البرودة. لكنّي أعرف أيضًا أنّه على مثل هذه الطرقات المقفرة، أغوى سائقو شاحنات نساء كنّ بمفردهنّ. لكن لو كنت امراة، لما صعدت إلى شاحنة خليّ البال ولارتاب أحدنا بالآخر طيلة الطريق.

اختفت الشمس، وضباب المساء يتمطّى في السماء كحراشف السمك. أمامي شريط طويل رماديّ. ساقاي تضنيانني، ظهري مبلّل بالعرق. لم أعد أترقّب وصول سيّارة. لا أتوق إلاّ إلى الاستراحة على قمّة السفح ثم أعاود السير ليلاً.

لم يخطر ببالي قط أنّني سألتقي هنا رجلاً مثلي. بلغ القمّة في الوقت نفسه تقريبًا. شعره مشعّث، لحيته غير حليقة منذ بضعة أيّام، يحمل حقيبة أيضًا. أنا أعلّق حقيبتي في كتفي، أمّا هو فيحملها في يده. يرتدي بنطالاً للعمل رماديّ اللون ، شبيهًا بالذي يلبسه عمّال المناجم أو البنّاؤون. وأنا ببنطلون الجينز الذي لم أغسله منذ أشهر، مذ بدأت رحلتي.

منذ النظرة الأولى التي رمقته بها، أدرك أنّ هذا اللقاء لا يبشّر بالخير. راح يتفحّصني من أعلى رأسي حتى أخمص قدميّ، ثم أخذ يحدّق النظر في حقيبتي حتى شعرت أنّني في مواجهة ذئب. الفارق الوحيد هو أنّ الذئب يعتبر من يصادفه فريسة بحدّ ذاته، فيما الإنسان يسعى إلى الحصول على ما تحمله تلك الفريسة من مغانم. فلم أجد بدًّا من اعتماد أسلوبه في المواجهة والنظر إليه شزرًا والتحديق مليًّا بالحقيبة التي يحملها. هل لديه سلاح في داخلها؟ إذا أكملت طريقي، فهل سيهاجمني من الخلف؟ أتوقّف عن السير.

حقيبتي ليست خفيفة وتزيد من وزنها آلة التصوير. إذا شهرتها فستكون أثقل من أن تُستعمل كسلاح. أنزلها عن كتفي لأحرّر، يديّ ثم أجلس على التلعة، وأستفيد من جلوسي لكي ألتقط أنفاسي استعدادًا

لمواجهته. هو أيضًا يلتقط أنفاسه ويجلس فوق حجر على الجانب الآخر من الطريق. عشر خطوات تفصل بيننا. جليّ أنّه أقوى منّي. إذا تقارعنا فلن أكون قادرًا على مواجهته. لكنّي أعرف أنّ معي في حقيبتي مدية يستخدمها عمّال الكهرباء، هي رفيقتي في أسفاري. يمكن استخدامها إذا حصلت أيّة مواجهة بيننا. لا يبدو عليه أنّه يملك سلاحًا مماثلاً. وإذا استخدم سكّينًا أصغر فهو ليس أكيدًا من أنّ الغلبة ستكون له. أمامي حلّ آخر. أن ألوذ بالفرار، لكنّ هذا سيعزّز شكوكه بأنّي أحمل مالاً في حقيبتي وأنّي لا أقوى على مواجهته، ممّا يشجّعه على مهاجمتي. من نظراته، أخمّن أنّ الطريق مقفرة خلفي كما هي خلفه. وينبغي أن أظهر له أنّني مستعدّ لمواجهة كلّ طارئ، ولست خائفًا منه.

أشعل سيجارة، متظاهرًا بالارتياح فيُخرج هو أيضًا سيجارة من جيب بنطاله الخلفيّ. نتجنّب تبادل النظرات مواجهة، لكنّنا نتسارقها.

إذا لم يكن واثقًا من أنّي أملك شيئًا ثمينًا في حوزتي، فلن يكون هناك سبب للمواجهة، لا أملك في حقيبتي إلاّ مسجّلاً عتيقًا محمولاً، خشن الصوت. كان عليّ أنّ أتخلّص منه منذ وقت طويل، لو كان لديّ مال لشراء مسجّل جديد. لا أملك في الواقع إلاّ غرضًا واحدًا ذو قيمة وهو آلة التصوير هذه اليابانيّة ذات الوظائف المتعدّدة، لكنّها لا تستحقّ عناء المغامرة بالحياة لأجلها. في حوزتي أيضًا مئة يوان سيولة. وهذا أيضًا مبلغ بسيط لا يستحقّ أن نهدر دمنا لأجله. أنفث الدخان على حذائي الرماديّ. الآن وقد جلست، تلتصق سترتي الرطبة بجسدي فأشعر ببرودة تسري في مفاصلي وأسمع الريح تصفر في الأعالي.

ينظر إليّ نظرة احتقار، مكشّرًا عن أنيابه، ولعلّه يبادلني نظرة بنظرة. ربّما كانت أسناني ظاهرة وتعابير وجهي تذكّره بتعابير وجه قُطّاع الطرق. لو فتحت فمي لقذفت الشتائم البذيئة نفسها، بوسعي أن أكون عنيفًا، أستلّ السكّين وأغمده في جسمه وأولي هاربًا على الفور. هل يفكّر كما أفكّر، بالرّغم من الحذر الشديد الذي يبديه. ضاغطًا عقب سيجارته بيديه الاثنتين، على أهبة أن يبادر إلى حماية نفسه هو أيضًا؟

يستحيل عليه أن يكتشف الشيء الوحيد الغالي الثمن الذي أملكه وهو حذائي، اشتريته خصّيصًا لهذه الرحلة الطويلة، لكنّ المطر والوحل وماء السواقي شوّهته. إنّه متّسخ ويصعب التعرّف من خلاله على حال المسافر الذي ينتعله. أسحب مجّة طويلة من سيجارتي ثم أسحقها أرضًا. عندئذٍ يرمي بنقرة من إصبعه عقب سيجارته كأنّه يردّ عليّ، مُظهرًا تعاليه الذي يحمل في طيّاته نوعًا من أنواع الدفاع عن النفس.

نهضنا سويّة دون أن يسعى أحدنا إلى تفادي الآخر. تقدّمنا إلى وسط الطريق عابرين إلى الجهة الأخرى وكتفانا تتلامسان. في النهاية لسنا ذئبين، بل بالأحرى كلبان بريّان يتباعدان بعد أن يقوما بعمليّة شمّ متبادلة.

أمامي منحدر طويل أنزله بأقصى سرعة حتى أصل إلى منحدر الوادي، عندما ألتفت، يبدو لي الشريط الرمادي الصاعد نحو قمّة الجبل المقفرة أكثر عزلة عند حلول فترة الغسق.

الفصل الرابع والأربعون

تقول إنّها تقدّمت في السنّ، عندما ترتّب هندامها في الصباح أمام المرآة، ترى تجاعيدها، التجاعيد التي لا تنجح الكريمات والمساحيق في إخفائها. المرآة تكشف لها بوضوح أنّ رحلة شبابها باتت وراءها، كلّ صباح، عند النهوض ، تستفيق محبطةً تمامًا، لا حيلة لها ولا قوّة. لو لم تكن مضطرّة للذهاب إلى العمل لظلّت في فراشها تجنّبًا لمواجهة الناس. وعندما تكون في عملها فهي مضطرّة فعلاً للتواصل مع الآخرين. وعندئذٍ تعمد إلى ضحكتها المصطنعة، متجاوزة إحباطها ومتصالحة مع نفسها.

تقول إنّك تفهم قصدها.

لا، لا تستطيع أن تفهم، تقول إنّك لا تستطيع أن تفهم ما معنى أن تكون امرأة موهنة، امرأة تكتشف، بعد أن تقدّمت بها السنّ، أنّ أحدًا من الرجال لم يحبّها حبًّا حقيقيًّا. عند حلول المساء، تشعر فقط بشيء من الغضب. تريد أن تكون جميع سهراتها حافلة بالمفاجآت، وأن تجد على الدوام المبرّرات للخروج من المنزل ولقاء الآخرين. لا تستطيع احتمال

الوحدة. تريد أن تعيش بكلّ جوارحها ودونما تريّث ، فهل تفهم هذا الشعور الملحّ؟ لا، لا تفهمه.

تقول إنّها لا تشعر فعلاً أنّها تمارس حياتها إلاّ حين تخرج للرقص، وحين يلامس جسدها جسد شريكها، وتغمض عينيها. تعرف أنّه من الصعب أن تحظى بحبّ دائم، ويزعجها أن تظلّ معرّضة لأعين المتطفّلين. تخاف من التجاعيد عند زاوية عينيها، من لونها الذي يبهت يومًا بعد يوم. تعرف أنّكم أنتم الرجال، حين تشعرون بالحاجة إلى امرأة، تسمعونها كلامًا معسولاً، وحين تنالون منها مأربكم تتخلّون عنها وتبحثون عن ضحيّة أخرى. وحين تصادفون امرأة شابّة وجميلة، تباشرون فورًا بنصب حبائلكم. كم يدوم شباب امرأة؟ فترة قصيرة، وهذا هو القدر المحتوم الذي تواجهه. لا تُسمعُها كلامًا مواسيًا إلاّ ليلاً في السرير، عندما لا تستطيع أن ترى تجاعيدها، عندما تمنحك اللذّة، عندما تُصغي إلى ما ترويه لك! تقول إنّها تعرف أنّك ستتخلّى عنها حين تسنح لك الفرصة، وما أكثرها الذرائع.

اطمئنّ، تقول إنّها ليست من صنف النساء اللواتي يتشبّثن بالرجال ولا يتركنهم. لا تزال قادرة على التواصل مع رجل آخر. تعرف جيّدًا كيف تتدبّر أمرها وحدها لكي تواسي نفسها. تعرف ماذا ستقول، لا تحدّثها عن مشاغلك، فعندما يأتي اليوم الذي ستصبح فيه وحيدة دون رجال، ستعرف كيف تجد لنفسها البديل الملائم. لكنّها تغامر في التدخّل بشؤون الآخرين وتكون بمثابة مرشدة لهم أو بلسمًا لجراحهم. ولن تجازف أيضًا بأن تصبح راهبة، لا تتظاهر بالضحك، فالمعابد البوذيّة

تغصّ اليوم بالفتيات اللواتي يتظاهرن بأنّهنّ راهبات ليلفتن نظر الغرباء، وتينك الراهبات اللواتي نستخدمهنّ في أيّامنا هذه يمارسن حياة زوجيّة بعيدًا عن الأنظار. بوسعها أن تفكّر في حلّ، تتجب سفاحًا، أو ولدًا غير شرعيّ، اسمع ما تقوله لك!

أوَتكون قادرًا على منحها طفلاً؟ هل ستساعدها على إنجابه؟ تريد ابنًا من صلبك. هل ستستجيب لرغبتها؟ لا تجرؤ، أنت خائف، اطمئن، لن تقول إنّه ابنك، لن يكون لديه أب، سيكون ثمرة الحياة الماجنة التي عاشتها أمّه. لن يعرف أبدًا هويّة أبيه، أنت، تعرفك عن ظهر قلب، أنت بالضبط قادر على إغواء الفتيات الشابّات، لكن هل بوسعهنّ فعلاً فهم الحبّ؟ هل يسعهنّ فعلاً أن يحببنك؟ أن يهتممن بك كما تهتمّ زوجة حقيقيّة؟ ليس ما يشغل المرأة هو الجنس فقط، المرأة ليست أداة متعة تلجأ إليها كلّما أردت أن تشبع شهواتك الجسديّة.

لا شكّ أنّ المرأة المتعافية بحاجة إلى الجنس، لكن هذا ليس كافيًا، فهي بحاجة لأن تكون زوجة وتنشئ عائلة. كلّ هؤلاء اللواتي ستجدهنّ على طريقك، سيرغبن في الاعتماد عليك. جميع النساء بحاجة لرجل يعتمدن عليه، فما دورك إذًا في مواجهة هذا الواقع؟ ليس أكيدًا أنّ النساء بوسعهنّ أن يحببنك كما تفعل هي، كما تحبّ أمّ طفلها. على صدرها، لست إلاّ طفلاً مثيرًا للشفقة. أنت لا ترتوي، لكن عليك ألاّ تظنّ أنّك قوي. ستشيخ بسرعة، ستكون عمّا قريب قدر لا شيء. اذهب وتسلّ مع الفتيات، لكن سينتهي بك الأمر إلى الرجوع إليها. ستعود ما دامت الوحيدة القادرة على احتمالك واغتفار ذنوبك. فأنّى لك أن تجد امرأة مثلها؟

إنّها فارغة من الداخل، تقول إنّها لم تعد تستشعر شيئًا، إنّ متعتها استنفدت، ليس لديها إلاّ جسد أجوف، كما لو أنّها سقطت في هاوية عميقة. لا تتحسّر على شيء، باتت طيّبات الحياة وراءها. الأمور تسير هكذا، أحبّت هي أيضًا وكانت محبوبة، والباقي أشبه بكوب شاي غثّ المذاق يجب رميه. الوحدة تحاصرها من كلّ جانب. باتت خائرة العزم لكنّها لا تزال تحتفظ ببعض القوّة للقيام بواجباتها. ذبحتها كما تُذبح حيّة قطعًا يقطر منها الدم. ليس لديها ما تتحسّر عليه، فهل هذا ذنبها أنّها خُلقت أنثى؟ لم تعد تجازف بالركض في الشوارع في عزّ الليل كمجنونة، والبكاء ببلاهة تحت المصباح المركّز. لم تعد تجازف بالركض تحت المطر، صارخة كمن أصابتها هستيريا، مرغمة السيّارات على التوقّف في اللحظة الأخيرة وقد ابتلّ جسدها بالعرق البارد. لم يعد الموت يخيفها على قمّة جرف شاهق، فهي قد غرقت فيه بالرّغم منها وباتت مثل شبكة ممزّقة لم يعد ترميمها ممكنًا من جديد. الأيّام الباقية من عمرها لن يكون لها لون أو طعم، ستعوم في الريح حتى اللحظة التي ستهوي فيها في الأعماق وتستسلم لقدرها المحتوم. هي ليست مثلك، لا تخاف من الموت إلى هذا الحدّ، ليست ضعيفة مثلك، توفّي قلبها من زمان والآلام التي تقاسيها النساء أقوى من آلام الرجال، ومنذ اليوم الذي تذوّقت فيه طعم الحبّ ذبل جسدها وقلبها فماذا تريد أكثر؟

إذا كنت تريد أن تتخلّى عنها فافعل ذلك ولا تُسمعها كلمات معسولة! هذا لا يعزّيها، ليست هي من ترفض الحبّ، هي تسعى إلى أذيّتك، فالنساء أكثر لؤمًا من الرجال لأنّ جراحهنّ أكثر! وحده يبقى الصبر، لكن أنّى لها أن تنتقم؟ النساء إذا شئن أن... لكنّها لا تنوي

الانتقام منك، لا تريد إلاّ احتمالك، بإمكانها تحمّل كلّ شيء؛ النساء لسن مثلكم، أنتم الرجال تشتكون عندما تتعرَّضون لأقلّ أذى، وهنّ أشدّ رهافة وإحساسًا منكم. لا تندم إطلاقًا على كونها امرأة، للنساء عزّة نفسهنّ كنساء، وهذه العزّة لا تصل إلى حدّ الفخر، لا تندم على كونها امرأة، وإذا خُيّرت مجددًا بالعودة إلى الحياة فلن تختار إلاّ أن تكون امرأة، وترغب في أن تتعرّض أيضًا للمصاعب التي تواجه النساء، وتريد أيضًا أن تعاني من آلام الولادة الأولى، وأن تسعد بأن تكون أُمًّا لأول مرّة ، وتريد اندمال الجروح بعد التمزّق، والمتعة التي تستشعر بها العذراء لدى أول انفعال، والإثارة الراسخة في ذروتها، والنظرة الحائرة، والتقاء نظرة الأنثى بنظرة الرجل المنشغفة، وألم الوصال حتى جرى الدمع. تريد أن تعرف كلّ شيء مرّة جديدة. لو تسنّى لها الرجوع إلى العالم من جديد تذكّرها جيّدًا، تذكّر الحبّ الذي وهبتك إيّا.، إنّها تعرف أنّك لم تعد تحبّها، سترحل وهذا كلّ شيء.

تقول إنّها تريد الرحيل وحيدة في الصحراء، هناك حيث الغيوم السوداء والطريق تتلاقى، عند منتهى الأفق، هناك تريد الذهاب، إلى هذا الطرف الذي لا حدود له. الطريق تتمطّى بلا نهاية وترتفع حيث تتلاقى السماء والأرض. ستقودها خطواتها على هذه الطريق المقفرة في ظلّ الغيوم. وعندما ستصل إلى آخر الطريق اللامتناهية، فالطريق ستتواصل أيضًا وهي بدورها ستواصل التقدّم، وقلبها خاوٍ. خطرت على بالها فعلاً فكرة الموت، ووضع حدّ لحياتها، ولكن قرار الانتحار يحتاج إلى شيء من الحماس، وهذا الحماس نفسه لم تعد تملكه. عندما يضع الإنسان حدًّا لحياته فلا بدّ أن يكون في سبيل شخص أو مبدأ، أمّا هي، في وضعها

الآن، فقد وصلت إلى اللحظة التي لن تنتحر فيها في سبيل شخص أو مبدأ، ولم تعد لديها القوّة لكي تضع حدًّا لحياتها، فكلّ الإهانات أو العذابات ذاقت طعمها، وقلبها بات غير قادر على تحمّل المزيد منها بطبيعة الحال.

الفصل الخامس والأربعون

تسألك:

ــ هل سترحل؟

ــ أليس موعد الباص عند الساعة السابعة؟

ــ بلى، ابق قليلاً بعد.

أرتّب حقيبة الظهر: أطوي ثيابي المتّسخة وأدسّها داخلها. في البداية، كنت أفكّر أن أرتاح ليومين إضافيّين في قاعدة المحافظة، أغسل ثيابي وأستعيد أنفاسي قليلاً. أعرف أنّها واقفة خلفي. لا أرفع رأسي. أخشى ألاّ أحتمل نظرتها. وإذا لم أرحل، فستعيب عليّ تصرّفاتي وأتعرّض دون شكّ إلى المزيد من الملامة.

في الغرفة الفارغة سرير مفرد وطاولة صغيرة قرب النافذة. جميع أمتعتي مبسوطة على السرير. أتيت لتوّي من غرفتها حيث أمضيت الليلة ممدّدًا لصقها. أنظر إلى النافذة المبيّضة.

وصلت في الباص إلى مركز القضاء قبل يومين من الموعد، آتيًا من الجبل. كان الوقت مساءً، والتقيتها في شارع البلدة الوحيد، الذي تطلّ

عليه النافذة. المحالّ أُقفلت واجهاتها وكان الشارع شبه مقفر. كانت تمشي أمامي وأدركتها لأسألها عن مكان المركز الثقافي. سألتها عن الأماكن التي أستطيع أن أمضي فيها الليلة، أدارت رأسها. لم تكن على قسط وافر من الجمال، لكنّ لون سحنتها المشرق كان في منتهى الجاذبيّة وكانت شفتاها الحمراوان المكتنزتان شهيّتين.

قالت، ما عليّ إلاّ اللحاق بها، ثم سألتني عمّن أبحث في المركز الثقافيّ. قلت لها: إنّي لا أقصد شخصًا بعينه، لكن من الأفضل، ولا شكّ، أن أقابل المدير. لماذا؟ شرحت لها بأنّني أبحث عن وثائق. أيّة وثائق؟ ولأيّة غاية؟ ثم سألتني من أين أنا. قلت لها إنّ لديّ أوراقًا تثبت هويّتي.

ــ هل أستطيع رؤيتها؟ قطّبت حاجبيها وكأنّها تستعدّ للمباشرة في إجراء تحقيق.

أخرجتُ من جيب قميصي بطاقة عضويّتي في اتّحاد الكتّاب، مغلّفة بغطاء من البلاستيك الأزرق. كنت أعرف أنّ اسمي كان مدرجًا على وثائق داخليّة؛ وكان يُفترض بالمسؤولين في الحزب والدولة والمراكز الثقافيّة، بدءًا من أعضاء اللجنة المركزيّة وحتى مختلف الرتب الأساسيّة، أن يعرفوه. وكنت أعرف أيضًا أنّه في كلّ مكان يعيش أناس يتهافتون إلى كتابة تقارير لرؤسائهم، ممتثلين لروحيّة الوثائق الرسميّة. أعرف أصدقاء خاضوا هذه التجربة قبلي وحذّروني من هؤلاء الناس في الأقاليم البعيدة، قائلين إنّه يجدر بي تفاديهم لكي لا أقود نفسي إلى مزيد من المتاعب. لكنّ الطريقة التي استطعت من خلالها الدخول إلى قرية **المياو** أثبتت لي أنّ هذه البطاقة تمنح أحيانًا بعض التسهيلات. وهنا، في

هذا المكان، كانت محدّثتي صبيّة لا تعير البتّة اهتمامًا لشخصي. وفي الواقع، لم تتفحّصني إلاّ لتتثبّت من صحّة الصورة الملصقة على بطاقتي.

سألتني وهي تُفرج عن أساريرها:

ـ هل أنت كاتب؟

قلت ممازحًا:

ـ لا، بل باحث في أحوال الناس المتوحّشين.

ـ أعمل في المركز الثقافي.

كان هذا غير متوقّع.

سألتها:

ـ من فضلك، ما اسمك؟

قالت إنّ اسمها ليس مهمًّا، إنّها قرأت أعمالي وتحبّها كثيرًا. ليس للمركز الثقافيّ إلاّ غرفة واحدة للضيوف، مخصّصة لكوادر القرى المجاورة الذين يأتون إلى المدينة، إنّها أرخص سعرًا وأنظف من الفندق. في هذه الساعة المكاتب مقفلة، لكن بإمكانها أن تقودني مباشرة إلى منزل المدير.

أخذت تهتمّ فيَّ.

ـ المدير جاهل تمامًا.

ثم استدركت:

ـ لكنّه رجل ذو أخلاق عالية.

المدير، رجل متقدّم في السنّ، صغير القامة وسمين، أراد في البداية أن يرى بطاقتي. تفحّصها بأكبر قدر ممكن من الانتباه. الختم الموضوع على الصورة لا يمكنه، بالطبع، أن يكون مزوّرًا ثم فكّر طويلاً، وبعدئذٍ أشرق وجهه عن ابتسامة عريضة وأعاد لي بطاقتي.

ـ عادةً، حين يرسلون لنا أدباء أو صحافيّين، يستقبلهم مكتب لجنة المقاطعة وقسم البروباغندا التابع له. وإلاّ، في حال عدم توفّر ذلك، يتمّ تدخّل مدير مكتب الشوؤن الثقافيّة.

بالتأكيد، كنت أعرف أنّ منصب مدير المركز الثقافيّ في المقاطعة وظيفة تمنح لصاحبها من دون أن يكون له عمل محدّد. إنّ تعيين أحدهم في هذا المنصب يعني إحالته إلى مؤسّسة العاجزين عن القيام بأعمال متخصّصة. حتى لو قرأ الوثائق المتعلّقة بشأني فليس بإمكانه أن يتمتّع بذاكرة جيّدة تخوّله تذكّر ما قرأه. كم أنا محظوظ للقائي رجلاً عجوزًا بهذا اللطف والجهل في آن.

فأسرعت للقول:

ـ لست إلاّ كاتبًا متواضعًا. غير مجدٍ إزعاج الجميع...

أردف قائلاً:

ـ هنا، جلّ ما نفعله يقوم على تنظيم نشاطات شعبيّة لتعميم الثقافة. على سبيل المثال، نذهب إلى الأرياف لكي نجمع الأغاني الفولكلوريّة.

قلت وأنا أقاطعه:

ـ هذا أكثر ما يستهويني. هدفي تحديدًا أن أجمع موادّ في هذا المضمار.

ـــ أليست غرفة الضيوف في الطابق الأوّل شاغرة؟

كانت الفتاة ترمقني بنظرتها التي تتوقّد ذكاء، وتتحيّن الفرصة السانحة لتتدخّل.

أجابها قائلاً:

ـــ شروط الإقامة لدينا ليست جيّدة. ليس لدينا مطعم، وعليك أن تتناول وجباتك في الشارع.

ـــ هذا أفضل وأفضل لي، لأنّ طبيعة مهمّتي توجب عليّ التنقّل في القرى المجاورة.

ـــ إذًا، عليك الاكتفاء بالموجود.

كان مفعمًا بالاحترام حيالي.

وهكذا تمّ لي ما أردت. اقتادتني إلى الطابق الأوّل في المركز الثقافيّ، إلى غرفة الضيوف حيث آخر الدرج. وهناك وضعت حقيبتي، وأوضحت لي أنّ غرفتها في آخر الرواق. ودعتني للمجيء إلى غرفتها والإقامة عندها لبعض الوقت.

كانت تفوح من الغرفة الصغيرة رائحة المساحيق ومراهم التجميل. بالقرب من النافذة، فوق أحد الرفوف، مرآة صغيرة مستديرة وزجاجات وقوارير. حاليًّا، تستعمل الفتيات، حتى هؤلاء اللواتي يسكنّ في هذه الدساكر، مساحيق التجميل. كانت الجدران مغطّاة بملصقات لنجوم السينما الذين تهواهم، وكذلك كانت هناك صورة مقتطعة من مجلّة لراقصة هندوسيّة، حافية القدمين، مرتدية ثوبًا شفّافًا. تحت الناموسيّة،

فوق الأغطية المرتّبة بعناية، يتربّع بَندا من نسيج مخملي، أسود وأبيض. وهذا أيضًا شيء شائع اليوم. الشيء الوحيد المصنوع لدى الحرفيّين المحلّيّين هو دلو ماء مشغول برهافة، مبرنق بالزنجَفْر، موضوع في إحدى الزوايا. جبت لتوّي الجبال العالية لمدّة أشهر عدّة وتواصلت مع المسؤولين والفلاّحين في القرى، ونمت على حصائر القشّ وتكلّمت بفظاظة، واحتسيت من الكحول فوق طاقتي، لكنّ هذه الغرفة الصغيرة المضيئة التي يفوح منها عطر المساحيق والمراهم أغرقتني فورًا في نشوة كاملة.

قلت في معرض الاعتذار:

ـ لا شكّ أنّ البراغيث تملأ جسدي.

فضحكت وقالت بنبرة معاتبة:

ـ خذ حمّامًا، لا يزال هنالك ماء في القوارير الحافظة للحرارة، جهّزتها عند الظهيرة. ستجد كلّ ما تحتاج إليه هنا.

ـ أنا منزعج فعلاً، سأذهب إلى غرفتي، هل أستطيع أن أستعير منك طستك؟

ـ وما الحاجة إليه؟ هناك ماء بارد في الدلو.

وفيما هي تتكلّم، أخرجت من تحت السرير سطلاً من الخشب المطليّ بالأحمر وأحضرت صابونة ومنشفة.

ـ لا تقلق، سأذهب إلى المكتب لأقرأ قليلاً. في الغرفة المجاورة هنالك القاعة التي نحتفظ فيها بالأشياء الأثريّة، وعلى مسافة أبعد المكتب وفي العمق الغرفة المخصّصة لك.

ـ ماذا عندكم كتحفٍ هنا؟

يجدر بي أن أجد شيئًا أقوله.

ـ لا أعرف الكثير عن الموضوع، هل ترغب في رؤيتها؟ مفتاحها معي.

ـ بالطبع، هذا رائع!

قالت لي إنّه في الطابق السفلي توجد غرفة قراءة الكتب والصحف، وكذلك صالة مخصّصة للشؤون الثقافيّة حيث تؤدّى فيها عروض صغيرة، وسوف تصطحبني إليها لاحقًا.

عندما غسلت جسدي، شممت رائحة العطر نفسه الذي يفوح من جسد تلك المرأة التي عادت بعدئذٍ لتعدّ لي فنجانًا من الشاي. أحسستني في حال جيّدة في غرفتها. لم أعد راغبًا في الذهاب لرؤية الأشياء القديمة.

سألتها عن عملها. كانت مجازة في المعهد التربويّ المحلّي، حيث درست الموسيقى والرقص. لكنّ المرأة العجوز التي كانت تحرس المكتبة في المركز الثقافيّ مرضت، وكانت تحلّ محلّها لتشرف على قاعة القراءة. عمّا قريب، ستكون سنة قد مرّت على عملها هنا. قالت أيضًا إنّها ستبلغ قريبًا الواحدة والعشرين.

ـ هل بإمكانكِ أن تغنّي أغاني البلاد؟

ـ لن أجرؤ.

ـ ألا يزال هنالك مغنّون قدامى؟

ـ بالطبع. في إحدى البلدان الصغيرة، على مسافة أربعين لي، هنالك مغنٍّ يعرف الكثير منها.

ـ هل أستطيع رؤيته؟

ـ يسكن في «الحوانيت الستّة»، وهي إحدى قرانا الحافلة بالأغاني. وبإمكانك أن تذهب إليها وتعود منها في الباص خلال النهار.

لكنّها أضافت أنّها لن تستطيع مرافقتي لسوء الحظّ. والمدير لن يستسيغ الموضوع، إذ لا أحد ليحلّ مكانها. لو صادف اليوم يوم أحد لكان هذا ممكنًا. تلك القرية مسقط رأسها، لذا سوف تتّصل بمقرّ البلديّة حيث تعرف الجميع وتوصيهم بأن يسهّلوا لقائي بالمغنّي. بما أنّ الباص يعود في الساعة الرابعة، فقد دعتني لتناول الغداء في غرفتها عند رجوعي، وفي جميع الأحوال لا بدّ لها من إعداد الطعام في تلك الساعة.

ثم أخبرتني أنّ في تلك البلدة خيّاطة هي شقيقة إحدى صديقاتها في المدرسة، امرأة جميلة بشكل لافت، وذات جمال خارق، بشرتها شديدة البياض وكأنّها تمثال من اليشب.

ـ ستذهب لرؤيتها وسأضمن...

ـ تضمنين ماذا؟

قالت إنّها قالت ذلك على سبيل التسلية، كانت هذه المرأة الشابّة تعتاش من دكّان الخياطة الذي افتتحته في زقاق في «الحوانيت الستّة». بالإمكان رؤيته من الشارع، لكنّ الجميع كانوا يقولون إنّها مُصابة بالبرص.

ـ هذا مأساوي، لا أحد يجرؤ على الاقتران بها.

ـ إذا كانت فعلاً مُصابة بالبرص فبإمكانها أن تتعالج.

ـ الناس يقولون ذلك ليشوّهوا سمعتها، لكنّي لا أصدّقهم.

ـ بإمكانها الذهاب إلى المستشفى لتجري فحوصات وتستحصل على شهادة طبيّة.

ـ هؤلاء الذي يحيطون بها يذكون الشائعة. الناس خبثاء. فما نفع الشهادة التي تتحدّث عنها.

ثم أخبرتني أنّ إحدى أخواتها، وهي تتفاهم معها بشكل ممتاز، تزوّجت جابي ضرائب كان يضربها بشدّة لدرجة أنّ جسدها كان ملطّخًا بالكدمات.

سألتها عن السبب.

ـ لأنّه اكتشف، في ليلة الزواج، أنّها لم تكن عذراء! الناس هنا في منتهى الفظاظة والتوحّش. إنّهم مختلفون جدًّا عنكم أنتم أبناء المدينة.

ـ هل سبق لك أن أحببت أحدًا؟

سألتها ذلك دون مشقّة.

ـ أحببت زميلاً في الصفّ. كنت متفاهمة جدًّا معه، وبعد إجازتنا ظللنا على تواصل عن طريق المراسلة. ولكن مؤخّرًا، تزوّج ولم أفهم الظروف التي أحاطت بهذا الزواج بالطبع. لم تكن لديّ علاقة منتظمة به. كانت لدينا مشاعر متبادلة الواحد تجاه الآخر، ولكن لم نتكلّم عنها

صراحة. عندما استلمت الرسالة التي أعلن لي فيها عن زواجه، بكيت. لا تحبّ الاستماع إلى هذا النوع من القصص، أليس كذلك؟

ـ آه! لا، هذا تصعب كتابته في رواية.

ـ لم أطلب منك فعل ذلك، لكن لمَ، لا سيّما أنّك كاتب؟

ـ إذا كانت لديّ رغبة.

قالت متنهّدة:

ـ المسكينة!

لم أعرف ما إذا كانت تتنهّد تحسّرًا على الخيّاطة في البلدة الصغيرة أم على أختها.

ـ أجل، صحيح.

كنت مضطرًا فعلاً لإثبات تعاطف.

ـ كم يومًا تنوي البقاء هنا؟

ـ يومًا أو يومين. سأرتاح قليلاً ومن ثم أرحل.

ـ هل تريد أن تزور أيضًا العديد من الأمكنة؟

ـ نعم، هناك أمكنة كثيرة تجدر زيارتها ولم أذهب إليها.

ـ أمّا أنا فلن أستطيع الذهاب إليها أبدًا مدى الحياة.

ـ ألم تسنح لك الفرصة أبدًا للذهاب في مهمّة؟ بإمكانك أيضًا أن تحصلي على إجازة وتسافري وحدك.

ـــ أودّ أن أزور شانغهاي وبكين. إذا ذهبت لزيارتك فهل ستعرفني؟

ـــ ولم لا؟

ـــ تكون قد نسيتني منذ وقت طويل.

ـــ أنت قاسية جدًّا عليّ.

ـــ أقول الحقيقة، أنت معروف جدًّا، أليس كذلك؟

ـــ مهنتي تُتيح لي إقامة علاقات بأُناس كثر، لكنّ الناس الذين يحبّونك قلّة قليلة.

ـــ أنتم الأدباء تحسنون الكلام. ألا يمكنك البقاء بضعة أيّام إضافيّة؟ لا يتقنون فقط فنّ الأغاني الشعبيّة في بلدة «الستّة حوانيت».

بلى، بالطبع يمكنني البقاء. شعرتني عالقًا في شباك الحنان الذي كانت الفتاة الصغيرة تغمرني به. شعرت أنّ حالها ليست جيّدة.

ـــ هل أنت متعبة؟

ـــ قليلاً.

أيقنت أنّه يجب تركها لترتاح، وسألتها عن موعد انطلاق الباص في اليوم التالي إلى «الحوانيت الستّة».

أبدًا لم يكن ليخطر ببالي أنّني، منذ اليوم التالي، وبناء على توجّهاتها، سأتمكّن من تمضية نهار كامل من دون أن أنام حتى الضحى أو أغسل ملابسي المتّسخة. وزيادة على ذلك، لم يخطر ببالي أنّي سأمضي وقتي منتظرًا المساء كي أراها من جديد.

عندما عدت، كان الطعام جاهزًا والموقد العامل على الكحول مشتعلاً والحساء يُعدّ على نار خفيفة. عند الفراغ من إعداد الأطباق التي حضّرتها، اقترحت عليها الذهاب لشراء الكحول.

ــ لديّ منها.

ــ هل تشربين كحولاً؟

ــ قليلاً.

أفرغت اللحم المقدّد والإوزّ المشوي المغلّف في أوراق اللوتس، التي اشتريتها من حانوت صغير مقابل محطّة النقل البرّي. في مركز المقاطعة هذا، لا زالوا يتمسّكون بعادة تغليف اللحم بهذه الطريقة. تذكّرت، عندما كنت طفلاً، أنّهم كانوا يمارسون هذه العادة في المطعم وكان هذا يضفي على اللحم رائحة خاصّة. أرض القاعة التي تُحدث أزيزًا لدى كلّ خطوة، جوّ العزلة الذي أضفته الناموسيّة، الدلو الخشبي الصغير المبرنق بالزنجفز بشكل متقن... كلّ ذلك أعادني إلى طفولتي.

سألتني وهي تصبّ قدحًا من الكحول ذات النوعيّة الجيّدة:

ــ هل رأيت المغنّي العجوز؟

ــ نعم، رأيته.

ــ هل غنّى؟

ــ نعم، غنّى.

ــ هل غنّى أغنياته المميّزة؟

ـ أيّها؟

ـ ألم يسمعك إيّاها؟ آه تذكّرت، لا يجرؤ على تأديتها أمام الغرباء.

ـ هل تقصدين الكلام عن أغاني حبّ متحرّرة؟

ضحكت وقد بدا عليها الانزعاج.

ثم أضافت:

ـ لا يغنّيها في حضرة النساء.

ـ هذا متوقّف على الظروف. أعرف أنّه إذا كان يغنّي في حضرة أناس يعرفهم فهو يغنّيها بطيبة خاطر، لا سيّما إذا كانت هناك نساء. لكن ليس أمام فتيات صغيرات.

ثم أرادت تغيير الحديث فقالت:

ـ هل جمعت موادّ مفيدة؟ بعد رحيلك اتّصلت مباشرة بمقرّ البلديّة في البلدة لأطلب منهم أن يُعلموا المغنّي العجوز بأنّ كاتبًا من بكين سيأتي خصّيصًا لزيارته. كيف؟ ألم يعلموه؟

ـ ذهب للقيام ببعض الأعمال، رأيت زوجته.

هتفت:

ـ إذًا ذهبت عبثًا.

ـ لا، لم أذهب عبثًا. ذهبت للجلوس فترة طويلة في أحد المنازل المتخصّصة في إعداد الشاي حيث تعلّمت أشياء كثيرة. لم أكن لأصدّق

أنّه يوجد مثل هذه المراكز. في الطابق الأرضي، كما في الطابق الأول، كان المكان يغصّ بالفلاّحين الآتين إلى السوق.

ــ نادرًا ما أذهب إلى مثل هذه الأمكنة.

ــ هذا في غاية الأهمّيّة. يتكلّمون عن العمّال، يثرثرون، المكان يضجّ بالحركة والحيويّة. تحدّثت معهم في كافّة المواضيع. فهذه الأمور تدخل أيضًا في صلب حياتنا اليوميّة.

ــ الأدباء كائنات غريبة.

ــ التقيت برجال من مختلف الأنماط. أحدهم سألني عمّا إذا كنت أملك المال لشراء سيّارة لأجله. سألته من أيّ نوع؟ تريد «جيفانغ »أم شاحنة حمولتها طنّان ونصف؟

ضحكت معي.

ــ وبعضهم كان ميسورًا حقًّا. أحدهم لم يتحدّث إلاّ عن صفقات تتجاوز قيمتها العشرة آلاف يوان. كذلك التقيت بمربّي حشرات. كانت لديه العشرات من الجرار الملآنة بالحشرات. وسيبيع أكثر من عشرة آلاف أمّ أربع وأربعين بخمس فِنات[١] القطعة.

ــ لا تحدّثني عن الأمّ أربع وأربعين، أرتعب منها!

قلت لها إنّني أمضيت النهار بطوله في منزل للشاي. وفي الواقع كان بإمكاني أن أستقلّ الباص عند الظهر في وقت أبكر قليلاً، وأغسل

---

(١) فِن: وحدة نقد صينيّة تعادل ١/١٠٠ من الين.

ثيابي المتّسخة، لكنّي خفت أن تفاجئها عودتي الباكرة. وفضّلت أن أعود في المساء، في الموعد الذي حدّدتْه. فذهبت للقيام بجولة في القرى المجاورة. لكنّي لم أحدّثها عن الموضوع.

قلت دون تفكير:

ـ سعيت للقيام ببعض الأعمال.

ـ وهل وُفّقت؟

ـ لا، كلّ ما فعلته الثرثرة، لا أعرف أحدًا لأقوم بالأعمال، وليست لديّ القدرة.

دعتني للشرب:

ـ اشرب فهذا يعيد إليك معنوياتك.

ـ في الأيّام العاديّة، هل تشربين أيضًا الكحول البيضاء؟

ـ لا، هذه الكحول، اشتريتها لأنّ زميل دراسة قديمًا مرّ لرؤيتي منذ بضعة أشهر، والعادة هنا تقضي بأن تقدّم الشراب لكلّ زائر يزورك.

ـ في صحّتكِ إذًا!

ومن دون تردّد، دقّت كأسها بكأسي وأفرغتها دفعة واحدة.

في الخارج، سُمع صوت فرقعة.

ـ هل تمطر؟

ذهبت إلى النافذة كي تتحقّق من الأمر:

ـ لحسن الحظ أنّك عدت قبل سقوط المطر وإلاّ لكنت تبلّلت.

ـ الجوّ مؤاتٍ. هذه الغرفة الصغيرة وهذا المطر المتساقط في الخارج.

ضحكَتْ بعذوبة واحمرّ وجهها. كان المطر يحدث فرقعة. على سطح منزلها أو على قراميد المنزل المجاور.

ـ لماذا لا تقول شيئًا؟

ـ أصغي إلى المطر.

ثم أضافت:

ـ وماذا لو أقفلت النافذة؟

ـ نعم، بالطبع، يكون هذا أفضل.

بعد أن أقفلت النافذة، شعرت فجأة أنّ هذا المطر العجيب يقرّبني منها أكثر فأكثر. عندما عادت للجلوس أمام الطاولة، لامست ذراعي، فأخذتها من خصرها وجذبتها نحوي، كان جسدها مطواعًا ودافئًا وليّنًا.

همست:

ـ هل تحبّني حقًّا؟

ـ فكّرت بك طيلة النهار.

هذا كلّ ما استطعت قوله وكانت هذه الحقيقة.

عندئذٍ أدارت وجهها ولامسْتُ شفتيها اللتين أفرجت عنهما للحظة، ثمَّ قلبتها على السرير. فتملّصت بحيويّة سمكة سقطت على ضفّة النهر.

لم أعد أستطيع احتواء رغبتي لكنّها توسّلت إليّ أن أُطفئ المصباح وأن أُنزل الناموسيّة.

ــ لا تنظر إليّ، لا تنظر..

وتوسّلت إليّ هامسة في الظلام. فقلت وأنا أتلمّس جسدها الذي لم يكفّ عن الحراك:

ــ لم أعد أرى شيئًا.

وفجأة نهضت وأمسكت بمعصمي ومرّرت يدي بنعومة تحت القميص الذي فتحته ثم وضعتها على حمّالة صدرها المشدودة. فتصلّبت ولم تنبس بكلمة. ارتقبت مثلي حرارة الرّغبة هذه والمداعبات المفاجئة. الكحول، المطر، الظلمة، الناموسيّة، كلّ ذلك منحها شعورًا بالأمان. لم تعد خجلة، أفلتت يدي وتركتني أعرّيها من ثيابها تمامًا. قبّلت عنقها وحلمتي نهديها وأطرافها الرطبة فابتعدت برفق:

ثم حاولت أن أجتذبها نحوي...

ــ لا، لا يجدر بك أن تفعل. وأطلقت تنهيدة.

وللحال، تمدّدت فوقها.

ــ سآخذك!

لا أعرف لماذا حاولت إخطارها، هل سعيًا منّي لإثارة الرّغبة لديها، أم لإشراكها في تحمّل المسؤوليّة.

ــ لا زالت عذراء..

سمعتها تبكي.

تردّدت قليلاً:

ـ هل ستندمين إذا فقدت عذريّتك؟

ـ لن تستطيع الزواج بي. كانت واعية تمامًا وبعيدة النظر، وهذا ما جعلها تبكي.

المصيبة هي أنّني لا أستطيع خداعها. كنت أعرف أنّني بحاجة فقط إلى امرأة. في عزّ الكرب الذي ساورني، أردت فقط أن أتمتّع بها، ولا أستطيع أن أتحمّل مسؤوليّة أكبر حيالها. تمدّدت قربها، خائبًا محبطًا، وسألتها دون أن أكفّ عن تقبيلها:

ـ هل تحرصين على عذريّتك.

ـ أجابت لا من رأسها بصمت.

ـ ألا تخافين أن يضربك زوجك العتيد إذا تنبّه للأمر يوم زواجكما؟

ارتعش جسدها.

ـ هل تقبلين أن تدفعي هذا الثمن الغالي لأجلي؟

داعبتُ شفتيها اللتين كانت تعضّهما. هزّت رأسها تعبيرًا عن رضاها مرّات عديدة حتى أثارت شفقتي. أخذت رأسها بين يديّ وقبّلت وجهها وعنقها ووجنتيها المبلّلتين بالدموع. كانت تبكي بصمت.

لا أستطيع أن أكون بهذه الوحشيّة معها، وأن أرغمها على دفع مثل هذا الثمن لإشباع رغبتي العابرة. ومع ذلك، لم أستطع تمالك نفسي عن

حبّها، أعرف أنّ الأمر لا يتعلّق بالحبّ الكبير، لكن ما هو الحبّ الكبير؟ كان جسدها نضرًا وحسّاسًا، وكنت مفعمًا بالرّغبة حيالها، وفعلت، ما يتوجّب فعله لكنّي لم أستطع تجاوز الحدّ الأخير. وهي، هي كانت تنتظر ثاقبة البصيرة، ماهرة، تاركة لي أن أفعل كلّ شيء. ليس هناك ما هو أكثر إثارة. سأتذكّر أقلّ ارتعاشة لكلّ قسم من جسدها، وسأظلّ أذكر أنّ جسدها وروحها لن ينسياني أبدًا. تابعت ارتجافها وبكاءها، مبلّلة جسدها بالدموع. أيقنت أنّه لا يمكن أن أعاملها بقسوة بعد اليوم. لم تهدأ إلاّ عندما تسلّلت شعاعات الصباح الأولى من الناموسيّة شبه المسدلة.

مستندًا إلى حافّة السرير، تأمّلت جسدها الأبيض، الممدّد بسكون، العاري تمامًا.

ــ ألا تحبّني؟

لم أجب. لا يمكنني أن أجيب.

ثم نهضت واتّكأت إلى النافذة. كانت قامتها ووجهها المنحنيين يفطران قلبي.

ــ لماذا لم تأخذني حتى نهاية المطاف؟

كان القلق يعتمر صوتها مواصلة إصرارها على تعذيب نفسها. ماذا بإمكاني القول بعد؟

ــ لا شكّ أنّك خضت تجارب عاطفيّة كثيرة.

ــ لا!

نهضتُ، مدفوعًا بنزوة غير مجدية.

ـ لا تقترب!

أوقفتني بغضب مسعور ثم ارتدت ثيابها.

من الشارع تناهى وطء أقدام العابرين وأصواتهم. إنّهم لا شكّ المزارعون الذاهبون إلى السوق.

قالت وهي تسرّح شعرها قبالة المرآة.

ـ لا أجازف بإبقائك.

رغبت في أن أقول لها إنّني خفت من أن أتسبّب لها بالأذى والتعاسة في حياتها اللاحقة، خفت أن تعلق منّي ويصبح حديثها على ألسنة الناس في بيئة محافظة، كأن يقال إنّها امرأة حبلت من غير زواج، وأجهضت جنينها. هممت أن أقول لها:

ـ أنا...

ـ لا تقل شيئًا، أصغ إليّ. أعرف ماذا يشغل تفكيرك، سوف أجد سريعًا جدًّا رجلاً أتزوّج به. لن أحقد عليك.

ثم أطلقت تنهيدة عميقة.

ـ أعتقد أنّ...

ـ لا! لا تتحرّك، فات الأوان.

ـ عليَّ الرحيل اليوم، قلت.

ـ أعرف أنّني لن أرحل معك لكنّك شخص طيّب.

ـ كان من الضروري أن نصل إلى هذه المرحلة.

ـ ليس جسد النساء هو أكثر ما يشغل بالك.

رغبت في أن أقول لها إنّ ما تقوله ليس صحيحًا.

ـ لا، لا تقل شيئًا.

في هذه اللحظة بالذات كان يجدر بي الكلام، لكنّي لم أقل شيئًا.

سرّحت شعرها بعناية. بعدئذٍ سكبت لي الماء لكي أغتسل ثم جلست على كرسيّ منتظرة أن أنتهي. كان النهار قد طلع تمامًا.

عدت إلى غرفتي كي أعدّ حقائبي. بعد وقت قصير دخلت. كنت أعرف أنّها خلفي لكنّي لم ألتفت إلاّ بعد أن انتهيت من إقفال حقيبتي.

قبل الخروج، احتضنتها بين ذراعي فأبعدت وجهها وأغمضت عينيها. أردت تقبيلها مرّة أخرى لكنّها تملّصت.

للذهاب إلى المحطّة، كانت الطريق طويلة، كان الصباح يشهد، من دون انقطاع، حركة ازدحام المارّة الذين يتجوّلون بفوضى عارمة. كانت على مسافة منّي وتمشي بسرعة كبيرة وكأنّ أيًّا منّا لا يعرف الآخر.

رافقتني حتى محطّة النقل البري. وهناك، التقت بأناس تعرفهم كانت تحيّيهم وتتكلّم مع كلّ واحد منهم. كانت تبدو طبيعيّة بشكل تامّ ومسترخية، وتتجنّب فقط النظر إليّ. لم أجرؤ على التحديق في عينيها. استمعت إليها تعرّف عنّي قائلة إنّني أديب، وإنّني أتيت لأستجمع أغاني شعبيّة. وبالضبط، حين انطلق الباص، رأيت نظراتها من جديد. لم أستطع تحمّل الشعاع المنبعث من مرآها، لم أستطع تحمّل طهارة رغبتها.

الفصل السادس والأربعون

تقول إنّها تكرهك!

لماذا؟ تحدّق بالسكّين الذي تحمله في يدها.

تقول إنّك دمّرت حياتها.

تقول إنّها ليست متقدّمة في السنّ كثيرًا.

لكنّك عكّرت عليها صفو أجمل سني عمرها، تقول إنّك أنت من فعل ذلك، أنت!

تقول لها إنّ بإمكانها أن تبدأ حياتها من جديد.

أنت نعم يمكنك ذلك، أمّا بالنسبة لها فقد فات الأوان.

لا تفهم ، لماذا فات الأوان.

لأنّني امرأة.

الأمر سواء للرجال والنساء.

هذا مجرّد كلام، تضحك ببرودة.

تراها شاهرة سكّينها فتنهض أنت.

لا يمكنها أن تدعك تخرج هكذا من حياتها دون حساب، تقول إنّها تريد أن تقتلك!

لكنّ القتل يترتّب عليه ثمن باهظ ندفعه من حياتنا، تقول لها وأنت تتنقّل في أرجاء المكان محدّقًا إليها بنظرات قلقة.

تقول لك، هذه الحياة لم تعد تستحقّ عناء أن تُعاش.

تسألها عمّا إذا كانت تعيش لأجلك من قبل. تريد أن تخفّف قليلاً من وطأة الجوّ.

لا أحد يستحقّ أن نحيا لأجله! وتصوّب السكّين تجاهك.

ضعي هذا السكين جانبًا! تحذّرها.

هل تخاف من الموت؟ لا تكفّ عن إطلاق ضحكتها الباردة.

الجميع يخاف من الموت، أنت على وشك الاعتراف بأنّك تخاف من الموت، لكي تجعلها تتخلّى عن السكّين جانبًا.

هي، لا تخاف، تقول إنّها إذ وصلت إلى اللحظة الحاسمة، لم تعد تخشى شيئًا!

لا تجرؤ على التمادي في إغاظتها، لكن عليك الاحتفاظ برباطة جأشك والاعتماد على براعتك في التحدّث لكي لا تنكشف مخاوفك.

الموت بهذه الطريقة لا يستحقّ العناء، تقول إنّ هناك ميتة أفضل: أن يموت المرء حتف أنفه.

لن تحظى بهذه الميتة، تقول لك وهي تلوّح بنصل السكّين الملتمع. تبتعد قليلاً وتنظر إليها بطرف عينيك.

وفجأة تنفجر ضاحكة.

تسألها هل أصابها مسّ من الجنون.

أنت من دفعني إلى الجنون.

دفعتك إلى ماذا؟ تقول إنّكما لم تعودا قادرين على الحياة معًا، وإنّ ليس أمامكما من حلّ إلاّ الافتراق. كنتما معًا على وفاق تامّ وسوف تفترقان بالطريقة نفسها. تحاول جاهدًا الحفاظ على هدوئك قدر الإمكان.

هذا يسهل قوله.

إذًا، ليس هنالك من حلّ سوى اللجوء إلى القضاء.

لا.

نفترق إذًا.

تقول إنّك لا تستطيع التخلّي عنها بهذه السهولة. تشهر سكّينها وتقترب منك.

تجلس قبالتها.

تنهض هي أيضًا، عارية الجذع، متدلّية الثديين، تتطاير شرارات الغضب من عينيها وهي في ذروة هياجها.

لا تستطيع احتمال نوبات الهستيريا التي تصيبها، لا تستطيع تحمّل نزواتها. صممْت على تركها، ولكن تلافيًا لإثارة مشاعرها أكثر فأكثر، الأفضل هو أن تحاول الكلام عن شيء آخر.

هل تريد الهروب؟

الهروب ممّ؟

الهروب من الموت! تهزأ منك، تقلّب سكّينها وهي تترنّح كما يترنّح الجزّار، لكنّها تفتقر إلى الخبرة، ووحدهما حلمتاها ترتعشان.

تقول إنّك تكرهني. انطلقت هذه العبارة من فمك وأنت تصرّ على أسنانك.

لا شكّ أنّك تكرهني منذ زمن طويل، لكن لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟ أخذت تصرخ، لقد أصابها ذلك في الصميم. يرتجف جسدها بكلّيّته.

لم يكن الكره قد وصل إلى هذا الحدّ، تقول إنّك لم تكن تعتقد أنّها ستصبح مملّة إلى هذا الحدّ، تقول إنّك تكرهها من صميم قلبك، توجّه إليها ألأم الكلمات.

كان يجب أن تقول ذلك من قبل، كان يجب أن تقوله قبل الآن، تخفض سكّينها وهي تبكي.

تقول إنّ تصرّفها هو الذي جعلك تنفر منها ويشعرك بالغثيان! أنت مصمّم أن تجرح شعورها إلى أبعد حدّ.

ترمي بالسكّين وهي تطلق صرخة. كان عليك أن تقول ذلك قبل ذلك، الآن فات الأوان، الآن فات الأوان، لماذا لم تقله من قبل؟ لماذا لم

تقله من قبل؟ تزعق بطريقة هستيريّة وتضرب الأرض بقبضتها ضربات قويّة متتالية.

إنّك ترغب في مؤاساتها لكنّ جهودك ومساعيك ستذهب أدراج الرّياح، وكلّ شيء سيعود إلى نقطة البداية وسيشقّ عليك أكثر الخروج من هذا المأزق.

تنتحب بصوت عالٍ وتتدحرج عارية على الأرض، دون أن تحفل بالسكّين المطروح إلى جانبها.

تنحني وتمدّ يدك لتمسك بالسكّين لكنّها تستولي على النصل. تحاول أن تنزع السكّين من يدها لكنّها تشدّ عليه بكلّ ما تملك من قوّة.

ستجرحين نفسك! تصرخ في أذنيها، وأنت تلوي لها ذراعها لكي تفتح أصابعها. يسيل الدم القرمزيّ من راحتها. تضغط على معصمها وأنت تشدّ بكلّ قوّتك على نبضها وباليد الأخرى تمسك السكّين من جديد. تفلت يدها لكي توجّه لها صفعة فتترك السكّين يسقط وهي منهكة خائرة العزم.

تنظر إليك نظرة بلهاء وتتحوّل فجأة إلى طفلة، عيناها مفعمتان بالخيبة وهي تبكي صامتة.

لا تستطيع أن تتخلّى عن شعورك بالشفقة حيالها، تحاول التملّص منها، لكنّها تجذبك بقوّة وتحضنك بين ذراعيها وأخيرًا تضمّك إلى صدرها.

ماذا تفعلين؟ ينتابك غضب عارم.

تريدك أن تمارس الحبّ معها، تريد ذلك! تقول إنّها ترغب فقط في ممارسة الحبّ معك!

تتملّص منها بعناء كبير! وأنت تلهث وتقول لها إنّك لست حيوانًا!

بلى أنت حيوان! تصرخ بوحشيّة وفي أحداقها تتأجّج نار غريبة.

محاولاً تهدئة روعها، تتوسّل إليها بأن تتوقّف وتهدأ.

تهمهم وتقول وهي تشهق إنّها تحبّك، وإنّ نزواتها نابعة من هذا الحبّ، وإنّها خائفة أن تتخلّى عنها.

تقول إنّك لا تستطيع الخضوع لنزوات امرأة، ولا تستطيع العيش في هذا الجوّ، وإنّك تشعر بالاختناق، ولا تستطيع أن ترتهن لمشيئة أحد، كائنًا من كان، ولن تخضع لأيّ ضغط مهما بلغت شدّته، وأيًّا تكن وسائله، لن تخضع ولن تستسلم لأحد، ولن تكون عبدًا لأيّة امرأة.

تقول إنّها ستمنحك الحرّيّة شرط أن تحبّها، وألاّ تتخلّى عنها، وأن تبقى معها وتستمرّ في إرضائها وترغب فيها، تتلوّى حول جسدك، تقبّلك بجنون، تغمر جسدك ووجهك بالرضاب، فتتحوّلان معًا إلى جسد واحد، لقد ربحَتْ، لم تعد تستطيع المقاومة، تسقط من جديد في حُمّى رغبة الجسد، لا تستطيع أن تتملّص منها.

الفصل السابع والأربعون

أتقدّم على درب جبليّة قاتمة ومقفرة. عند منتصف الطريق، يبدأ المطر بالتساقط، على شكل رذاذ في البداية، حيث كان منعشاً تحلو ملامسته فوق وجهي، ثم تحوّل إلى مطر مرغمًا إيّاي على الركض وقد ابتلّ شعري وملابسي. ألجأ بسرعة إلى مغارة أحتمي بها فوق الطريق. الحطب مكدّس فيها بعناية. السقف العالي منحنٍ في إحدى زواياه. شعاع نور يخترق المغارة. أصعد إليه عبر درجات حجريّة منحوتة بغير إتقان. موقد مصنوع من الحجارة المكدّسة تعلوه قدر. شعاع النور ينساب عبر شقّ في الصخر فوق الموقد.

أستدير إلى الوراء، فإذا برجل جالس وهو يقرأ فوق قاعدة خشبيّة جعل منها سريرًا. أندهش لكنّي لا أجرؤ على إزعاجه. أكتفي بالنظر إلى المطر الرمادي عبر شقوق الصخور. المطر ينهمر بغزارة. لا أستطيع فعلاً مواصلة رحلتي.

ـ لا تقلق. بإمكانك أن ترتاح هنا.

هو من بادرني بالكلام وهو يضع كتابه جانبًا.

كان شعره الطويل ينسدل فوق كتفيه، ويرتدي سترة وبنطالاً رماديًّا فضفاضًا. يبدو كأنّه في الثلاثين من عمره.

ـ هل أنت ناسك؟

أجابني:

ليس بعد، أقطع الأحطاب للمعبد الطاوي.

على سريره، فُتح عدد من مجلّة «رواية الشهر».

ـ هل تهتمّ أيضًا بالرواية؟

أجاب متملّصًا:

ـ أحاول تمضية الوقت. أنت مبلّل. جفّف نفسك قليلاً.

اغترف مكيالاً من ماء القدر الساخن وناولني منشفة.

شكرته ونزعت قميصي المبلّل، وشعرت بارتياح أكبر بعد أن اغتسلت.

قلت وأنا أجلس على جذع من الحطب قبالته:

ـ ما أطيب الإقامة في هذا المكان! هل تسكن في هذه المغارة؟

شرح لي أنّ أصله من قرية عند سفح الجبال، لكنّه يكره الجميع بدءًا من أخيه، مرورًا بامرأة أخيه وجيرانه وسائر أبناء القرية.

قال:

ـ لا يفكّرون إلاّ بالمال. الناس لا يشغلون بالهم إلاّ بالأرباح والخسائر. لذا قطعت كلّ علاقة بهم.

ـ هل تكسب رزقك بتقطيع الحطب للدير؟

ـ رحلت عن منزلي منذ عام تقريبًا، لكنّهم لم يستقبلوني حتى الآن.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّ الأب العجوز يريد أن يتأكّد من نزاهتي ومواظبتي على العمل.

ـ ومن بعدها يستقبلك؟

ـ نعم.

كان متيقّنًا إذًا من استقامته.

ـ ألا تزعجك الإقامة في هذه المغارة بمفردك طيلة هذا الوقت؟ سألته وأنا أوجّه نظري مجدّدًا إلى المجلّة الأدبيّة.

ـ أنا هنا في سكينة، وأعيش على هواي أكثر ممّا كنت عليه في القرية. أجابني بهدوء دون أن يبدو عليه أنّني أزعجه بسؤالي. ثم أضاف: وكلّ يوم أواظب على مواصلة دروسي.

ـ أيّة دروس من فضلك؟

من تحت غطائه، أخرج نسخة مطبوعة على الحجر لكتاب «الدروس الطاويّة اليوميّة».

ثم قال لي وقد رآني أمعن النظر في المجلّة المفتوحة فوق سريره:

ـ بما أنّني في هذين اليومين الأخيرين لم أستطع تقطيع الأحطاب، استرسلت في قراءة الروايات.

ـ وهل هذه الروايات تعيقك في مواصلة دروسك؟

أردت إرضاء فضولي حتى النهاية.

قال وهو يضحك:

ـ إيه، لا يروون فيها إلاّ عن قصص مبتذلة بين الرجال والنساء. ثم أردف أنّه أنهى تعليمه الثانوي ودرس الأدب. في أوقاته الضائعة، يقرأ قليلاً.

ـ في الواقع، إنّها صورة صادقة عن الحياة.

لا أجرؤ أن أسأله عمّا إذا كان متزوّجًا، ولا أن أستعلم عن أسراره كراهب. المطر يواصل هطوله في الخارج محدثًا أنغامًا رتيبة لكن عذبة.

لا يفترض بي أن أزعجه أكثر. بقيت جالسًا قربه دون حراك. وبقينا وقتًا طويلاً هكذا، ساهمين على وقع الموسيقى التي يحدثها المطر.

لا أعرف متى توقّف المطر. عندما تنبّهت للأمر، نهضت لأرحل واستفضت في ترديد عبارات الشكر.

ـ لا جدوى من توجيه الشكر إليّ لأنّ القدر هو الذي يسّر هذا اللقاء.

كان ذلك في جبال تسنغشينغ.

لاحقًا، أمام باغود حجري، فوق جزيرة صغيرة وسط نهر «أو»، التقيت أيضًا راهبًا بوذيًّا، حليق الرأس يرتدي ثوبًا طويلاً قرمزيًا. ضمّ

يديه أمام أسطبة[١] لبوذا، ثم ركع وبعدئذٍ سجد وجبينه ملاصق للأرض. تحلّق العابرون حوله. ومن دون عجلة، بعد أن أنهى صلاته، خلع ثوب العبادة خاصتّه ودسَّه في حقيبة سوداء من جلد اصطناعي، وأمسك بمظلّته ذات المقبض المعقوف الذي يستخدمه بمثابة عصا، وتوارى مبتعدًا. تبعته لبعض الوقت، وعندما تجاوزنا حشد البلهاء، سألته:

ـ يا معلّم، لو سمحت، هل أستطيع أن أقدّم لك فنجانًا من الشاي؟ أودّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة عن الدارما.

وافق لكن ليس من دون أن يطلق تنهيدة عميقة.

وجهه ناحل ولكنّه مفعم بالحيويّة، لا يبدو عليه أنّه تعدّى الخمسين من عمره. كانت ساقا بنطاله مشمّرتين، وتقدّم بخطوات رشيقة. كان عليّ الإسراع لإدراكه:

ـ يا معلّم، من يَرَكَ يعتقد أنّك ذاهب في رحلة بعيدة.

ـ أذهب بداية إلى جيانكشي لكي أعود بعض الرهبان البوذيّين العجائز، ثم أتوجّه من بعدها إلى العديد من الأمكنة الأخرى.

ـ أنا أيضًا، أودّ أن أنعزل عن العالم، لكنّي لست مثابرًا وصادقًا مثلك،لأنّك تسعى في قرارة نفسك إلى بلوغ هدف مقدّس. أسعى جاهدًا للعثور على الكلمات الصائبة التي يمكنها أن تمسّه.

في الواقع، المسافر الحقيقي يجب ألاّ يكون لديه أيّ هدف. في هذه الحالة، يكون المسافر الأمثل.

---

(١) أسطبة: نصب بوذي هرمي الشكل.

ـ هل أنت من أبناء هذه المنطقة يا معلّم؟ وهل ستغادر نهائيًّا مسقط رأسك للقيام بهذا السفر؟

ـ إنّ من يلتزم بشؤون الدين يجد أنّ أسرته تشمل البشريّة جمعاء.

أسكتني ردّه، فدعوته لشرب الشاي في إحدى الحدائق. انتقيت مكانًا هادئًا على حدة ودعوته للجلوس. سألته عن اسمه الديني، ثم تبادلنا اسمينا، الشهرة واسم العائلة ثم التزمْتُ الصمت.

كان هو من بادرني الكلام أوّلاً:

ـ اسألني عن كلّ ما تريد، من يترهّب بوسعه أن يقول كلّ شيء.

دخلت مباشرة في صلب الموضوع:

ـ أريد أن أعرف لماذا ترهبّت. هذا إذا لم يكن لديك من مانع في الإجابة.

ابتسم ابتسامة عذبة، واحتسى جرعة شاي بعد أن نفخ بخفّة كي يبعد الأوراق الطافية على صفحة الطاسة، ثم حدّق بي قائلاً:

ـ أنت لست مسافرًا عاديًّا، ألديك مهمّة تودّ إنجازها؟

ـ لا، بالطبع، ليس لديّ أيّ تحقيق أنجزه، وعندما أراك بهذه الحيويّة، أتأمّلك بإعجاب. ليس لديّ هدف محدّد لكنّي لا أستطيع أن أتخلّى...

سألني مبتسمًا الابتسامة نفسها:

ـ التخلّي عن ماذا؟

ــ عن عالم البشر.

وانفجرنا كلانا ضاحكين.

قال بصراحة:

يكفي أن تقرّر ذلك.

قلت وأنا أهزّ برأسي:

هذا صحيح في الواقع، لكنّي أودّ أن أعرف كيف جعلت من التجوال هدفًا لحياتك. ومن دون مواربة، حكى لي قصّته كلّها.

قال لي كيف أنّه في عمر السادسة عشرة حين كان لا يزال تلميذًا في المدرسة، شارك لسنة كاملة في الثورة بصفته مقاتلاً في الجبال. وفي عمر السابعة عشرة عاد إلى المدينة ملتحقًا بالجيش النظامي. وهناك استلم إدارة أحد المصارف، وكان باستطاعته أن يكون قائدًا. ومع ذلك لم يتوقّف عن المطالبة بإكمال دراسة الطبّ. بعد أن نال إجازته، عُيّن مسؤولاً في مكتب الصحّة البلدي، لكنّه أصرَّ على تحقيق رغبته في أن يصبح طبيبًا. لاحقًا، اصطدم مع سكرتير الحزب في المستشفى حيث يعمل، ثمَّ طُرد من الحزب وجرى وصفه بــ «اليميني»، وأُرسل إلى الريف ليحرث الأرض ويزرعها. آل به الأمر لأن يصبح طبيبًا لبضع سنوات، عندما أنشئ مستشفى في المقاطعة الشعبيّة التي يسكنها. في تلك الأثناء، اقترن بفتاة من الريف وأنجب منها ثلاثة أولاد. من كان ليقول إنّ الإيمان بالله سيجد طريقه إلى قلبه. لدى سماعه الخبر بأنّ كردينالاً من الفاتيكان سيزور الكانتون، أعدّ العدّة للسفر إلى المكان حتى يطّلع

منه على حقيقة العقيدة الكاثوليكيّة. والنتيجة أنّ لقاءه بالكردينال لم يحصل، وعلى الرّغم من ذلك اتُّهم بأنّه يسعى إلى التعامل مع الأجانب، وهذه الشبهة أصبحت تهمة موجّهة ضده. طُرد من منصبه في مستشفى المقاطعة وواصل بمفرده دراسة الطبّ الصينيّ، وكسب عيشه من خلال اختلاطه بالمتشرّدين والمشعوذين. ذات يوم، أيقن فجأة أنّ الكاثوليكيّة الغربيّة بعيدة المنال، وأنّه من الأفضل والحالة هذه العودة إلى التقاليد السلفيّة والتخلّي صراحة عن عائلته. وانطلاقًا من هذا اليوم، دخل في سلك الرهبنة البوذيّة. واختتم قصّته بضحكة صاخبة.

ـ أما زلت تفكّر في عائلتك؟

ـ بإمكانهم سدّ احتياجاتهم.

ـ ألا تهتمّ إطلاقًا لأمرهم؟

ـ تلاميذ بوذا لا يظهرون لا قلقًا ولا حقدًا.

ـ هل يكرهونك؟

يقول إنّه لا يريد معرفة الجواب. كان قد دخل إلى المعبد منذ سنوات عدّة عندما جاء ابنه البكر، لرؤيته وإبلاغه أنّ السلطات أصدرت عفوًا نهائيًّا عنه، وأنّه في حال عودته فسيتمتّع بالمعاملة التي يتمتّع بها مسؤول ثوريّ قديم، وبإمكانه أن يعاود عمله وسيحصل على تعويض مالي يوازي الأجور المستوجبة التي لم تُستوفَ له منذ سنين عديدة. قال له إنّه لا يريد فلسًا واحدًا، وإنّ بوسعهم تقاسم هذا المال. وبما أنّ الأمور قد بلغت حدّها المعقول، فلا يفترض بهم إذًا أن يكونوا ضحايا الظلم

نفسه الذي مورس عليه. ومن ثم لم يعد ابنه لزيارته وانقطعت كلّ صلة به وبعائلته.

ـ حاليًّا، تعيش فقط من التصدّق على طول الطرقات؟

قال لي إنّ الناس أصبحوا سيّئين، وإنّ مردود الصدقات أقلّ من مردود التسوّل. أمّا هو فإنّه يكسب قوته من ممارسة الطبّ، وحين يمارسه، يرتدي ثيابه المدنيّة لكي لا يسيء إلى صورته الدينيّة.

ـ هل يتسامحون مع هذا النوع من التدابير بين تلاميذ بوذا؟

ـ بوذا يعيش في القلوب.

أنا مقتنع أنّه توصّل للتخلّص من عذاباته الداخليّة وبلغ حالة من السلام الكلّي. يريد الرحيل بعيدًا وهو مستمتع بذلك.

سألته كيف سيجد مأوى له أثناء تجواله. قال إنّه يكفي أن يظهر لهم في المعابد الشهادة التي تؤكّد أنّه راهب بوذي لكي يجري استقباله. لكن حاليًّا، الشروط سيّئة في كلّ مكان تقريبًا. الرهبان ليسوا كثرًا، والجميع يعملون لإعالة أنفسهم ولا يسمحون له بالبقاء طويلاً، إذ لا أحد يقدّم هبات إلى المعبد. وحدها المعابد الكبيرة تتلقّى بعض الإعانات من الحكومة وهي إعانات شحيحة بطبيعة الحال، يحرص على عدم إلقاء الأعباء على كاهل الآخرين. يقول إنّه مولع بالأسفار ولعًا شديدًا، وإنّه ذهب من قبل إلى جبال عديدة شهيرة. يشعر أنّ صحّته ممتازة ولا يزال قادرًا على اجتياز عشرة آلاف «لي».

ـ هل بإمكاني الاطّلاع على هذه الشهادة؟

يراودني الشعور بأنّها ستكون بالنسبة لي أكثر فائدة من بطاقتي كأديب.

هذه الشهادة ليست سرّيّة. إنّ تلاميذ بوذا لا يكتمون الأسرار بل هم منفتحون على الجميع.

أخرج من صدره ورقة كبيرة مطويّة طُبع عليها رسم بوذا تاثاغاتا، جالسًا مستغرقًا في التأمّل على عرش من أزهار اللوتس، رأسه مرفوع والورقة ممهورة بختم هائل قرمزيّ اللون. يرد أيضًا الاسم الديني للمعلّم الذي حلق له رأسه والذي سامه كاهنًا. ومدوّنة أيضًا علومه الدينيّة ورتبته؛ إنّه معلّم الشريعة، وبصفته هذه يستطيع إذًا أن يشرح آيات السوترا ويترأّس الاحتفالات.

قلت بأسلوب لا يخلو من المزاح:

ـ ذات يوم سأرحل معك.

قال بكثير من الصدق:

ـ إنّه القدر. ثم نهض وضمّ يديه وحيّاني.

مشى بسرعة فائقة. تبعته لبرهة، لكنّه ضاع سريعًا وسط حشد المارّة. أدرك أنّني لم أقطع بعد علاقتي بالحياة الدنيويّة الأرضيّة.

لاحقًا، أمام معبد غوتسنغ في أسفل جبال تيانتاي، أمام باغود الذخائر التي ترقى إلى سلالة سوي، وفيما كنت أتفحّص مدوّنة مختصرة، استمعت سهوًا إلى حوار.

قال صوت ذكوري من الجانب الآخر لحائط الآجرّ:

ــ عليك العودة معي.

فأجابه صوت رجل آخر، ولكن أوضح:

ــ لا! اغرب من هنا.

ــ إن لم تفعل ذلك من أجلي، فافعله من أجل والدتك.

ــ قل لها فقط إنّ صحتّي جيّدة جدًّا.

ــ هي التي أرادت أن آتي إليك، إنّها مريضة.

ــ ما هو مرضها؟

ــ تشتكي دومًا من آلام في معدتها.

لم يعد الابن يقول شيئًا.

ــ طلبت منّي أمّك أن آتيك بحذاء.

ــ لديَّ أصلاً حذاء.

ــ إنّه الحذاء الرياضي الذي لطالما حلمت به لكي تلعب بكرة السلّة.

ــ إنّه غالي الثمن جدًّا! لماذا اشترته؟

ــ جرّبه.

ــ لم أعد ألعب بكرة السلّة، لا يمكنني انتعاله، أرجعه. لا أحد ينتعل هذا النوع من الأحذية هنا.

طلع الصباح، العصافير تغنّي في الغابة. وسط زقزقة عصافير الدوري، طائر السمّانى يؤدّي لحنًا مداهنًا، لكنّه مختبئ خلف أوراق الجنكات الكثيفة، لا يمكن أن يُشاهد الغصن الذي حطّ فوقه. ثم التحق بطيور الهزار وهي تثرثر. خلف الباغود المبنيّ من حجارة الآجرّ، يرين الصمت. حين أيقنت أنّ الناس رحلوا، قمت بجولتي. رأيت حينئذٍ رجلاً شابًّا، مرفوع الرأس، منصرفًا إلى الاستماع إلى العصافير وهي تغنّي. رأسه حليق ولكنّه لم يتلقّ بعد إكليل الرأس. يرتدي قميص الرهبان القصير. كان ظريفًا، وجهه زهري وليس لديه السحنة الشاحبة التي تميّز الرهبان الذين مارسوا الزهد لفترة طويلة. لوالده هيئة فلاّح، هو أيضًا مليء بالحيويّة ولا يزال يحمل في يديه حذاء كرة السلّة الجديد، بنعله الأبيض المزيّح بالخطوط الحمراء والبيضاء، وقد أخرجه من علبته للتوّ. أظنّ أنّه والده ويريد أن يرغمه على الزواج. فهل سيصير هذا الفتى الشابّ راهبًا ذات يوم؟

الفصل الثامن والأربعون

ترغب في أن تروي لها نادرة ترقى إلى عهد سلالة جين. قصّة راهبة أتت لتتصدّق عند باب أحد الجنرالات الكبار، وكان معروفًا بتعجرفه. وحسب العادة، أُعلن عن مجيئها إلى المعتمد العسكري فأنعم عليها بحزام من ألف سبيك[1]. رفضت الراهبة استلام الهديّة وأرادت التعرّف إلى الرجل الذي أحسن إليها. فلم يستطع المعتمد إلاّ أن ينقل رغبتها إلى رئيس المعتمدين الذي، كي يتخلّص منها، أمر خادمه بأن يحمل لها سبيكة من فضّة. من كان ليقول إنّ الراهبة سترفض ذلك أيضًا وستطالب برؤية الجنرال شخصيًّا، مؤكّدة أنّ هذا الأخير سيتعرّض لخطر طارئ وأنّها تعمّدت المجيء لكي تصلّي لأجله. لم يستطع رئيس المعتمدين إلاّ الاحتكام إلى الجنرال فأمر بأن يقابلها.

عندما رأى وجهها المرهف الهادئ ، بالرّغم من الغبار الذي يغطّيه، فكّر الجنرال أنّه لا يبدو عليها إطلاقًا أنّها نصّابة أو أنّها امرأة تمارس الشعوذة، وأراد أن يعرف حقيقة أمرها. تقدّمت الراهبة ثم حيّت وهي تضمّ يديها ثم تراجعت قائلة إنّها سمعت الناس يقولون منذ زمن طويل

---

(١) سبيك: عملة صينيّة قديمة.

إنّ الجنرال رجل كثير السخاء وواسع الرحمة، وقد أتت خصيّصًا إلى هذا المكان لتمارس الصوم لسبعة أيّام متتالية عن روح أمّه المتوفّاة، وفي الوقت نفسه، تضرّعت إلى بوديساتفا[1] لكي يُغدق على الجنرال نعمة السعادة ويحميه من الكوارث. وأخيرًا أمر الجنرال المعتمد بأن يُنزلها في غرفة في الباحة الداخليّة ويحضّر لها طاولة للبخور في الصالة الكبيرة.

وبدءًا من هذا اليوم، دوّت الضربات على الأسماك الخشبيّة في الدارة من الصباح حتى المساء. مرّ الوقت، والجنرال يشعر أنّه هادئ المزاج باطّراد ولم ينِ احترامه للراهبة يزداد. ومع ذلك كانت الراهبة، طيلة فترة ما بعد الظهيرة، تمضي ساعة في الاستحمام. كان الجنرال يتعجّب: كانت حليقة الرأس ولم تكن مضطّرة إذًا إلى تسريح شعرها ولا إلى التزيّن كامرأة عاديّة. لماذا هذا الحمّام، وهو طقس بسيط لتطهير القلب قبل تغيير البخور، يدوم كلّ هذا الوقت؟ ثم إنّ سقسقة الماء كانت تُسمع أثناء حمّامها دون توقّف. فهل كانت تسكبه باستمرار؟ بدأ الفضول يعتمل في نفسه.

ذات يوم، تغلغل في الباحة الداخليّة. كانت الأسماك الخشبيّة صامتة. بعد برهة، سمع دمدمة الماء. كان يعرف أنّ الراهبة ستحرق البخور، وذهب إلى الصالة الكبيرة لانتظارها. تزايدت ضجّة صوت الماء ودوّت بطريقة متواصلة. بدأت الشكوك تساوره ونزل الأدراج: كان باب غرفة الراهبة نصف مفتوح. تقدّم صراحة للنظر في الداخل ورآها: وجهها

---

(١) بوديساتفا: إنسان بلغ غاية الكمال حسب البوذيّة ولا يحتاج إلى التقمّص.

مستدير إلى المدخل وسحنتها ورديّة وأسنانها بيضاء ووجنتاها مطليّتان بالبودرة ورقبتها وكأنّها اليشب وكتفاها ملساوان وردفاها مستديران. كانت أشبه بتمثال من اليشب.

ابتعد بسرعة وعاد إلى الصالة الكبيرة ليستعيد روعه. كان خرير الماء لا يزال يُسمع في الغرفة ويجذبه رغمًا عنه. ولج الرواق على رؤوس أصابعه وعاد أمام الغرفة. حابسًا أنفاسه، ألصق عينه إلى شقّ الباب فلمح عشرة أصابع رهيفة جدًّا تنفتح لتدلّك نهدين ممتلئين أبيضين كالثلج، يزيّنهما برعمان زهريان على وشك التفتّح. كان الجسد الرطب ينهض بخفّة فيرتسم خطّ رفيع من السرّة حتى العانة. خرّ الجنرال على ركبتيه من الدهشة وعجز عن النهوض.

ثم رأى يدين بيضاوين تخرجان مقصًّا من الطست، تغلقان النصلين ثم تغرزانهما بقوّة في البطن. فانبجس الدم الساخن، الأحمر الداكن تحت السرّة. مرتعبًا، لم يجرؤ الجنرال على الحراك وأغمض عينيه.

بعد قليل، عاودت دمدمة المياه. فتح عينيه من جديد، وبُهر إذ رأى الراهبة ذات الرأس الحليق غارقة في الدم، لكنّ يديها لم تتوقّفا عن الحراك لإخراج أحشائها ووضعها في الطست!

متحدّرًا من عائلة جنرالات قديمة، كان هذا الرجل قد شهد معارك لا تحصى. لم يفقد وعيه. استنشق نفحة هواء منعش وقطّب حاجبيه متّخذاً القرار بالوقوف على حقيقة الأمر. في هذه اللحظة، لم يظهر أيّ أثر للدم على وجه الراهبة. أغمضت عينيها، أطبقت رموشها، شفتاها

زرقاوان، أخذت ترتجف ارتجافًا خفيفًا. بدت وكأنّها تنتحب، لكن لم يصدر عنها أيّ صوت. لم يكن يُسمع إلاّ دويّ الماء المتواصل.

بيديها الاثنتين الداميتين، أمسكت بأحشائها ودلّكتها بطرف أصابعها وغسّلتها بعناية، ثم استغرقت وقتًا طويلاً في وضعها على ساعديها. وعندما أنهت غسيل أحشائها، رتّبتها ثم رفعتها وأعادتها من جديد إلى بطنها. وبواسطة مغرفة مليئة بالماء، غسلت ذراعيها تباعًا وصدرها وثنيات فخذيها وقدميها وأصابع قدميها وكأنّ شيئًا لم يكن. نهض الجنرال بسرعة وصعد من جديد إلى القاعة الكبيرة وانتظرها واقفًا.

بعد قليل، انفتح الباب وظهرت الراهبة حاملة مسبحتها. كانت مرتدية ثيابها كلّها. تقدّمت إلى المذبح حيث انطفأ البخور للتوّ في المبخرة. فوق العود، خيط من الدخان يحتضر. فذهبت لتغيّر العود بكلّ هدوء.

وكأنّه استفاق متململاً من حلم، شعر الجنرال أنّه غير قادر على إغفال الأمر. سأل الراهبة. فأجابت دون أن تغيّر نبرة صوتها: يا سيّد، إذا كنت تريد الوصول إلى العرش فمصيرك سيكون مثل المشهد الذي رأيته. كان الجنرال في الواقع، يدبّر مؤامرة للاستيلاء على العرش. لكنّه منذ ذلك الحين، شعر أنّه في قنوط عظيم، فلم يجرؤ على الابتعاد عن الطريق القويم، واحتفظ بسمعته كوزير جنرال نزيه. في البداية كان لهذه الحكاية مغزى سياسي.

تقول إنّك إذا سعيت إلى بلوغ غاية مغايرة يمكن أن تجعل منها عظة أخلاقيّة تُعلّم البشر الابتعاد عن الطمع والفجور.

بإمكان هذه القصّة أيضًا أن تُعتمد كتعليم دينيّ يحثّ الناس على الارتداد إلى البوذيّة.

وكذلك يمكن اعتبارها فلسفة وجود تدعو الإنسان، إنسان الخير، لكي يقوم كلّ يوم بفحص ضميره ثلاث مرّات، أو ترمي إلى التدليل بأنّ حياة البشر ليست إلاّ عذابًا، أو أنّ عذابات الحياة هي خيار نصطفيه بملء إرادتنا، ولنا أن نستنتج منها عبرًا شتّى بالغة العمق والدلالة. كلّ شيء يتوقّف على التفسير الأخير الذي يضطلع به راويها.

أضف إلى ذلك أنّ لبطل هذه القصّة، الجنرال الكبير، اسمًا وشهرة يمكن التثبّت منهما في كتب التاريخ والوثائق القديمة. لستَ مؤرّخًا ولا تدّعي طموحًا سياسيًّا. ولا تنوي أن تكون معلّمًا طاويًّا أو واعظًا، أو تجعل من نفسك مثالاً يُحتذى. إنّ الشيء الذي يشدّك إلى القصّة، هي القصّة بحدّ ذاتها، في صفائها التامّ. وفي الواقع ليس لأيّ شرح من تأثير مباشر فيها. تكتفي بروايتها مرّة أخرى كما هي، معتمدًا على لغوها وحده.

الفصل التاسع والأربعون

في شارع قديم من البلدة، أمام بازار صغير، وضع الخطّاط بسطته فوق لوحتين وعلّق عليهما الحِكَم المتوازية الباعثة على التفاؤل، التي اختطّها على ورق أحمر مشمّع. «التنانين وطيور العنقاء تجلب السعادة، زواج يدقّ على الأبواب»، «ابحث عن السعادة في الخارج، اسع لكسب المال من الأرض»، «التجارة المزدهرة منفتحة على البحار الأربعة»، «الأنهار الثلاثة مصدر الثراء والازدهار». تلك حكم قديمة استُبدلت باستشهادات وشعارات ثوريّة. وتقول حكمتان أخريان: «عندما تصادف إنسانًا فإنّ ابتسامةً تساوي ثلاثة أرباع السعادة»، «التعاسة غير المقصودة تختفي من تلقاء ذاتها». لا أعرف إذا كان هو قد ألّفها أم ورثها عن أجداده. يكتب بأسلوب مزدان بالمحسّنات اللفظيّة: إنّ بنية خطوطه متقنة لكنّها أشبه بطلاسم طاويّة.

كان متقدّمًا في السنّ. يجلس خلف بسطته، مرتديًا سترة قديمة الزيّ ويعتمر على رأسه كاسكيتًا عسكريّةً ذات ألوان قديمة العهد تضفي عليه مظهرًا مضحكًا. ورأيت على بسطته أيضًا بوصلة من ثماني كلمات ثلاثيّة الخطوط، يستخدمها بمثابة مسّاكة للورق. اقتربت منه وبادرته الكلام:

ـ كيف أحوال التجارة؟ هل هي على ما يرام؟

ـ لا بأس.

ـ كم تبلغ كلفة مخطوطة من حكمتين؟

ـ هذا يتراوح بين يوانين أو ثلاثة لأنّ الكلفة مرتبطة بعدد الحروف.

ـ وكم هي كلفة كلمة «سعادة»؟

ـ يوان.

ـ لكلمة واحدة؟

ـ نعم، لكنّي أخطّها على مرأى منك.

ـ وكم يبلغ ثمن طلسم لإبعاد الكوارث والمصائب؟

قال وهو يرفع رأسه نحوي:

ـ هذا ليست كتابته سهلة.

ـ لماذا؟

ـ أنت موظّف إداريّ وتعرف جيّدًا السبب.

ـ لست كذلك.

فأكّد لي بطريقة حاسمة:

ـ لكنّك تعرف جيّدًا من معين الدولة.

قلت مقتربًا منه:

ـ أيّها العجوز الطيّب، تُرى ألستَ راهبًا طاويًّا؟

ـ مرّ على ذلك زمن طويل، ولم أعد أمارس عملي.

ـ أشكّ بالأمر، لكنّي أريد أن أعلم ما إذا كنت لا تزال تعرف الطقوس الطاويّة.

ـ بالطبع أعرفها، لكنَّ الحكومة تحظّر الشعوذات.

ـ لا أحد يطلب منك أن تمارس الشعوذات. أجمّع الألحان التي تواكب الصلوات. هل بإمكانك أن تغنّي لي بعضًا منها؟ الجمعيّة الطاويّة في جبال تسنغشينغ استأنفت رسميًّا نشاطاتها حاليًّا، فممَّ تخاف؟

ـ هذا معبد كبير. لكن في ما يخصّنا نحن أبناء القرى المنتمين إلى الطاويّة، فلا يسمحون لنا بممارستها.

أبديت اهتمامًا أكبر بالموضوع:

ـ لكنّي أبحث بالضبط عن أحد يمارس الطقوس مثلك. هل تستطيع أن تغنّي لي مقطعًا أو مقطعين من تلك الصلوات التي تُتلى في الجنازات، أو التي تبعد المصائب وتطرد الأشباح؟

غنّى بيتين من الشعر ثم سرعان ما توقّف:

ـ ليس مستحسنًا أن نستفزّ الشياطين والآلهة على هذا النحو. يجب في البداية أن تتضرّع إليها وتحرق البخور.

وفيما هو يغنّي، اقترب عدّة أشخاص منه وناداه أحدهم مثيرًا الضحك بين الحاضرين:

ـ هاي أنت أيّها العجوز، أسمعنا أغنية أكثر مرحًا وخفّة.

قال العجوز عندئذٍ وكأنّه يشجّع نفسه:

ـ سأغنّي لكم أغنية جبليّة.

فهتف الحشد:

ـ هيّا أسمعنا، هيّا!

وفجأة أنشد العجوز بصوت عالٍ:

ـ أيّتها الأخت الصغيرة التي تقطفين الشاي في الجبل

خطيبك في السهل يقطع نبات الأسل

بطّ الماندارين يتطاير من الجهتين

وعمّا قريب سيكونان زوجين

الأخت الصغيرة وخطيبها.

صفّقت له الحشود، ثم شجّعه بعضهم بقوّة:

ـ غنّ لنا أغنية عابثة!

ـ هيّا أيّها العجوز.

لوّح العجوز بيديه باتّجاه الحشد:

ـ مستحيل، مستحيل، لو غنّيتها فستكون خطأ فادحًا.

ـ ليس خطأ فادحًا أن تغنّي أغنية!

ــ لا تهتمّ أيّها العجوز، غنِّ!

صاح الحشد، اكتظّ الشارع الصغير بالناس، والدرّاجات التي استحال عليها المرور أطلقت رنين أجراسها.

قال العجوز وهو ينهض مدفوعًا بالحماس الذي أمدّه به الحشد:

ــ حسنًا أنتم أردتم ذلك!

ــ غنِّ لنا أغنية القرد الذي ارتدى قبّعة من قشرة البطيخ ودخل إلى غرفة النساء!

رحّب الجميع للاختيار المقترح. مسح العجوز فمه قليلاً وتهيّأ للغناء عندما قال فجأة بصوت منخفض:

ــ الشرطة!

التفت الجميع. على مسافة غير بعيدة، شرطي يقوم بدوريّته، معتمرًا كاسكيتًا عريضة مزدانة بشريط أحمر.

ــ وأيّة أهمِّيّة لذلك؟

ــ يمكن لنا أن ننصرف إلى المزاح قليلاً، أليس كذلك؟

وقال العجوز وهو يجلس من جديد:

ــ قولوا ما تشاؤون ولكن ارحلوا من هنا، هل تظنّون أنَّ تجارتي ستلاقي رواجًا على هذا النحو؟

ــ الشرطة لا تهتمّ بمثل هذه الأمور!

بعد أن مرَّ الشرطي، تفرّق الحشد مكرهًا. سألته:

ـ أيّها العجوز الطيّب، هل بإمكاني دعوتك للمجيء إلى غرفتي والغناء فيها؟ عندما ترتّب بسطتك، سأصطحبك بداية إلى المطعم فنتناول الطعام والشراب معًا، موافق؟

سُرّ العجوز لاقتراحي:

ـ حسنًا، سأقفل. سأطوي بسطتي. انتظرني حتى أجمع الألواح.

قلت في معرض الاعتذار:

ـ لعلّي أضيّع عليك وقتك.

ـ لا بأس، فنحن صديقان. لا أعتمد على هذا العمل لكسب قوتي. آتي الى المدينة لأبيع بعض المخطوطات، سعيًا وراء كسب القليل من المال. لو اقتصر مورد رزقي على ذلك لمتّ جوعًا من زمان.

انطلقت قبله لأوصي على أطباق الطعام والشراب في مطعم صغير عند تقاطع الشارع. بعد وقت قصير، يصل حاملاً سلّتين في الحمّالة المزدوجة.

ثرثرنا أثناء تناول الطعام. شرح لي أنّه في عمر العاشرة، أرسله والده إلى دير طاويّ للعمل في المطبخ، امتثالاً لرغبة جدّه المريض. وهو لا يزال قادرًا على تلاوة الكتاب الذي أعطاه إيّاه الطاوي العجوز، بالمقلوب ودون تلعثم. لدى وفاة معلّمه، أشرف على الدير وبات ملمًّا بجميع الاحتفالات الطقوسيّة. وفي ما بعد، وإبّان الإصلاح الزراعي، لم يستطيع أن يبقى كاهنًا وأمرت الحكومة بأن يعود إلى قريته ويعمل في

الأرض. عندما سألته عن الضرب بالرمل، ودلالة الرعود الخمسة، والبطء في حركة الدبّ الأكبر، وجسّ عظام الوجه، عرف كلّ شيء. غمرني شعور بالسرور. لكنّ المطعم مليء بالفلاّحين الذين يعقدون الصفقات ويكسبون مالاً. يلعبون قمار الأصابع[١] وهم يزعقون، الضجّة لا تُحتمل. قلت له إنّ لديَّ مسجّلاً في حقيبتي وإنّ كل ما يشرحه لي سيكون بمثابة وثائق ثمينة. أريد أن يأتي إلى غرفتي في الفندق بعد العشاء. وهكذا يمكنه أن يتلو ويغنّي على هواه. مسح فمه:

ـ خذ الكحول. سنشربها في بيتي. في البيت لديَّ الثوب والأكسسوارات اللازمة.

ـ هل لديك أيضًا سكّين الكاهن الذي يطرد الأشباح؟

ـ بالطبع.

ـ وهل لديك اللويحات التي تسمح بتبديل الأرواح والإطاحة بالقادة؟

ـ لديّ أيضًا الصنوج والطبول، وكلّ ما يلزم للاحتفالات. سأريك كلّ شيء.

قلت وأنا أرطم الطاولة بيدي:

ـ حسنًا.

ثم تبعته.

---

(١) لعبة إيطاليّة النشأة تقوم برفع عدد من أصابع اليد الواحدة بسرعة أمام لاعب آخر يربح الرهان إذا أعطى رقمًا هو عدد الأصابع المرفوعة.

ـــ هل منزلك في مركز المقاطعة؟

ـــ ليس بعيدًا. ليس بعيدًا. سأستودع حمّالتي لدى أحدهم، انطلق أنت أوّلاً وانتظرني في محطّة النقل البريّ.

بعد خمس دقائق، وصل مسرعًا واستعجلني لركوب أحد الباصات المتأهّبة للانطلاق! صعدت من دون تفكير. سار الباص دون توقّف ورأيت عبر النافذة الأشعّة الأخيرة للشمس الغاربة تختفي خلف الجبال. عندما وصل الباص إلى محطّته الأخيرة في دسكرة صغيرة، كنّا قد اجتزنا عشرين كيلومترًا. انطلق الباص من جديد على الفور. إنّه الأخير لهذا اليوم.

البلدة الصغيرة مكوّنة في الواقع من شارع وحيد يبلغ طوله خمسين مترًا كحدّ أقصى. أجهل إذا كان هنالك نزل. طلب إليّ أن أنتظر قليلاً، ودخل إلى أحد المنازل. أفكّر بأنّه، إذا كنت هنا برفقة هذا الرجل الودود، فهذا لأنّه لقاء مقدّر سلفًا. خرج من المنزل حاملاً في يديه الاثنتين طستًا مليئًا حتى نصفه بجبنة الصويا ودعاني للّحاق به.

عند الخروج من البلدة، على الطريق الترابيّة، بدأ المساء بالهبوط.

ـــ هل تسكن في قرية قريبة من البلدة؟

فاكتفى بالقول:

ـــ ليس بعيدًا، ليس بعيدًا.

بعد سيرنا مسافة قليلة، لم يعد أيّ مسكن مرئيًّا وتكثّف سواد الليل. في كلّ مكان، في حقول القمح، يُسمع نقيق الضفادع. شعرت بشيء من

القلق، لكنّي لم أجرؤ قطّ على طرح أسئلة. خلفي يُسمع صوت محرّك زراعي. على الفور، لوّح له مرافقي بإشارات واضحة وركض للّحاق به. أدركته أيضًا وقفزت إلى الحافلة المقطورة. واجتزنا أيضًا عشرة «لي» على هذه الطريق الترابيّة، وأجسادنا تهتزّ كحبوب البازيلاء في هذه القاطرة الفارغة. في الليل المدلهمّ، ومثل عين الرجل الأعور، أضاء المصباح الأصفر للجرّار الزراعي على مسافة عشرين قدمًا الطريق المحدّب. ما من عابر طريق. لم يتوقّف الرجل العجوز عن التحدّث بصوت عالٍ في اللهجة المحليّة مع السائق وكأنّهما يتشاجران، لكنّي لم أتوصّل إلى فهم كلمة واحدة ممّا يقولانه، وهذا بسبب ضجيج المحرّك. لكن حتى لو كانا اتّخذا قرارًا بكيفيّة اغتيالي فما من شيء يمكن عمله إلاّ تسليم أمري إلى السماء.

وصلنا أخيرًا إلى نهاية الطريق، وهناك ينتصب منزل دون ضوء. وصل مالك الجرّار إلى منزله. عندما فتح الباب، تقاسم الرجلان بضع قطع من جبن الصويا الموجودة في الطست. وسائرًا خلف مرشدي، سلكت متلمّسًا طريقي على درب تنساب متلوّية بين حواجز الحقول.

ـ ألا يزال البيت بعيدًا؟

فكرّر الإجابة:

ـ ليس بعيدًا، ليس بعيدًا.

لحسن الحظّ أنّه يسير أمامي. ثم قلت في نفسي: لو أنّه ألقى طسته جانبًا ودعاني إلى ممارسة الكونغ فو ـ لأنّني أعرف أنّ جميع العجائز الطاويّين مولعون به ـ فليس أمامي إلاّ الارتماء في حقل أرزّ والتدحرج

في الوحل. الآن، تنعكس الجبال فوق حقول الأرزّ المجلّلة، ويندر نقيق الضفادع. أبحث عن طريقة لمعاودة الحديث. أسأله أوّلاً عن موسم الحصاد، ثم عن المصاعب التي يواجهها. يقول إنّه ليس بإمكاننا الإثراء إذا اعتمدنا كلّيًّا على الأرض. هذه السنة، أنفق ثلاثة آلاف يوان لكي يحوّل آرات[1] إلى مستنقع من حقل الأرزّ. سألته إذا كان يربّي سلاحف لأنّ أكلها شائع في المدينة حاليًّا. يقال إنّ تناولها مضادّ للسرطان ويقوّي الصحّة زيادة على ذلك. وثمنها مرتفع جدًّا. قال إنّه وضع بلاعيط أسماك والسلاحف تأتي عليها لأكلها الآن، يملك مالاً لكنّ الحطب صعب شراؤه. ولديه ستّة صبيان. وحده البكر متزوّج والآخرون ينتظرون أن يبنوا بيوتًا لهم لكي يغادروا العائلة. أشعر باطمئنان أكبر وأتأمّل النجوم مستمتعًا بمشهد الليل.

في ظلّ الجبل، أمامنا، يلتمع بصيص ضوء. لقد وصلنا.

ـ قلت لكَ إنّه ليس بعيدًا.

وبالطبع، سكّان القرى لديهم مفاهيم واضحة عن المسافات.

عند الساعة العاشرة وأكثر، ها إنّي أصل إلى ضيعة جبليّة صغيرة. عند مدخل البيت يُحرق البخور تكريمًا للتماثيل الخشبيّة أو الحجريّة العديدة المحطّمة تقريبًا. لا بدّ أنّها استجمعت من المعبد عندما دُمّر خلال النضال ضدّ «التقاليد الأربعة البالية»، منذ أكثر من عشر سنوات. حاليًّا، يستطيع عرضها علانيّة، والطلاسم ملصقة على دعائم السقف. خرج

---

(١) آر: مقياس مساحة يساوي مائة متر مربّع.

الأبناء، أكبرهم في الثامنة عشرة، وأصغرهم في الحادية عشرة. وحده البكر غائب. زوجته امرأة قصيرة القامة ووالدته العجوز في الثمانين من عمرها ولا تزال مفعمة بالمرح. زوجته وأولاده سارعوا للتحلّق من حولي، فأنا ضيف مميّز في نظرهم. لم يذهبوا فقط ليأتوا لي بالماء كي أغسل وجهي بل أرادوا أن يغسلوا لي قدميّ ويلبسوني حذاء القماش الذي يخصّ سيّد المنزل. وأخيرًا، أعدّوا نقيع الشاي على شرفي.

بعد برهة، أتى الأولاد بالنواقيس والطبول والصنوج. هناك صنج صغير وصنج كبير معلّقان إلى إطار من خشب. وما لبثت الموسيقى أن صدحت ونزل الرجل العجوز من الطابق الأول بخطى متثاقلة مهيبة. غيّر مظهره تمامًا: ارتدى ثوبًا بنفسجيًّا قديمًا، ثوب راهب طاويّ، مرقّط ومزيّن بأسماك الين واليانغ وبرسوم التريغرامات الثمانية. أشعل بنفسه عود البخور وانحنى باحترام شديد أمام مشكاة الآلهة. ثم هرع القرويّون بكافّة أعمارهم إلى الخارج، وقد أيقظهم الصنج والطبل، وتحلّقوا أمام عتبة الباب. وتحوّل المشهد إلى احتفال طقسيّ مفعم بالحركة. لم يكذب عليّ.

بدايةً رفع بيديه طاسة من الماء النقيّ وهو يهمهم، ثم رشّ الماء بنقرة من أصابعه في زوايا الغرفة الأربع. عندما بلّل الماء أقدام الناس المتدافعين عند عتبة الباب، تصاعدت ضجّة قويّة مصحوبة بهرج ومرج. هو وحده لم يغيّر تعبيره، عيناه نصف مغمضتين وزوايا فمه مرتخية، متّخذًا المظهر المهيب لذلك الذي يتّصل بالأرواح. ومع ذلك علت ضحكات المتجمهرين بقوّة متزايدة. وفجأة شمّر أكمام ثوبه وطرق طرقات عنيفة على الطاولة، واضعًا حدًّا للضحكات.

التفت إليّ وسألني:

ـ أستطيع أداء أغنية سنة السفر الكبير، وأغنية الطالع الحسن الطالع والسيّئ للنجوم التسع، وأغنية الأحفاد، وأغنية التحوّل، ومقطع التنبّؤ بالكوارث الأربع، والنداء على الأسماء السحريّة للأجداد، والصلوات لإله الأرض، والنداء الموجّه لروح الدبّ الأكبر. أيّها تريد الاستماع إليها؟

ـ حسنًا، لنستمع أوّلاً إلى «النداء الموجّه لروح الدبّ الأكبر».

ـ هذه الأغنية هدفها حماية الأطفال اليافعين من الأمراض والمصائب. أيّ طفل تريد أن تحميه؟ أعطني اسمه وتاريخ ولادته والساعة التي ولد فيها.

اقترح أحدهم:

ـ لنأتِ بـ «الكلب الصغير».

ـ لا، ليس أنا.

نهض صبيّ صغير جالس عند عتبة الباب وذهب ليختبئ وسط المتجمهرين، فانطلقوا بالضحك من جديد.

قالت امرأة:

ـ ممّ أنت خائف؟ إذا غنّى لك العجوز هذه الأغنية فلن يصيبك مكروه.

الصبي الذي اختبأ وراء الحشد رفض الخروج مهما كلّف الأمر.

ملوّحًا بأكمامه، قال العجوز لي:

ـ حسنًا. عادة، يجب تحضير قصعة من الأرزّ وبيضة دجاجة مقليّة ووضعها فوق قصعة الأرزّ في الوقت الذي يجري فيه حرق البخور. وعلى الطفل أن يسجد أمام المذبح فنتضرّع إلى ملوك الجهات الأربع، سيّد نجمة طول العمر في الجنوب، والأسياد التسعة للنجمة القطبيّة، والآلهة القدّيسين حماة البلاد، والآباء والأمّهات المتوفّين في العائلة، وأحفاد إله الموقد، لكي يباركوا جميعًا الطفل.

وأثناء كلامه، رفع سكّينه الخاصّ بالاحتفال وقفز في الهواء، وراح يغنّي بصوت عالٍ:

ـ أيّتها الروح، أيّتها الروح، عودي سريعًا! في الشرق، الطفل باللباس الأزرق، عند الجنوب، الطفل باللباس الأحمر، عند الغرب، الطفل باللباس الأبيض الذي يحميك، والطفل باللباس الأسود الذي في الشمال يرافقك. أيّتها الروح الضائعة، أيّتها الروح المسافرة، كفّي عن السفر، الطريق طويلة والعودة إلى المنزل دونها مشقّة. آخذ مقياس يشب لأقيس الطريق في حال وصلت في الظلمة. إذا سقطت في الشباك السماويّة فسأقطعها بمقصّي. إذا كنتِ جائعة وعطشى، إذا كنت تعبة، فلديّ أرزّ من أجلك. لا تنصتي إلى أغاني العصافير في الغابات، لا تنظري إلى الأسماك في المستنقعات العميقة، وإذا نودي عليك ألف مرّة فلا تجيبي، أيّتها الروح، أيّتها الروح عودي سريعًا إلى المنزل! الأرواح تحميك، لا تتوقّفي عن تجميع الفضائل! فمن الآن وصاعدًا ستبقى الروح

«هون» نزيهة، والروح «بو» ستحمي نفسها[1]، والبرد والريح لن يقويا على اختراقها، والماء والأرض لن يتعرّضا للمهانة، واليافعون أقوياء، والعجائز صامدون، ونعيش مئة سنة في عافية تامّة!

يلوّح بسكّينه الاحتفاليّ، ويرسم دائرة كبيرة في الفضاء. ثم راح ينفخ بملء رئتيه في بوقه. ثم التفت إليّ:

ـ سأرسم طلسمًا آخر ومن يحمله لن يصادف إلاّ الحظّ السعيد.

لم أكن على يقين بأنّه يؤمن هو نفسه بوسائله السحريّة، ولكن في جميع الأحوال، يلوّح بيديه وقدميه تعبيرًا عن اقتناعه، وتشي سيماؤه بالرضى الكبير الذي يشعر به. لا شكّ أنّ تنظيم هذا الاحتفال في مسكنه بالذات، بمشاركة أبنائه، وبرضى أهل القرية، وفي حضرة رجل غريب، يقوده إلى حالة من الإثارة القصوى.

ثم يُطلق تعابير اللعنة تلو اللعنة، يخاطب ويدعو السماء والأرض، ويصبح معنى كلماته أكثر غموضًا فيما تزداد حركاته جنونًا. أخذ يدور حول المذبح ويعرض مواهبه في الملاكمة والإمساك بالسيف. يرافق أبناؤه تحوّلاته وخطواته وأغانيه على إيقاع الصّنوج والطّبول عازفين عليها بقوّة متزايدة. الأصغر سنًّا خصوصًا بين الستّة، ذلك الذي يقرع الطبل، شمّر صراحة عن ساعديه، كاشفًا عن جلده الأسود، ومبرزًا عضلات كتفيه. خلف الباب يزدحم المشاهدون أكثر فأكثرعددًا. هؤلاء الذين هم في المقدّمة يتمّ تدافعهم لدرجة أنّهم اضطرّوا إلى تجاوز عتبة

---

(١) عادةً يميّز الصينيّون لدى الإنسان الروح الروحانيّة: «هون»، والروح الأرضيّة والحسيَّة: «بو».

القاعة وإرغام هؤلاء الذين في الداخل على الاحتشاد في زاوية. بعضهم جلسوا أرضًا. عند نهاية كلّ أغنية، كان الجميع يهتفون ويصفّقون حاذين حذوي. ازداد سرور العجوز باطّراد. أظهر كلّ حركات الفنون القتاليّة التي يعرفها دون أدنى خوف. ونادى الأرواح المحتبسة في داخله روحًا روحًا في حالة من النشوة الممزوجة بالجنون. لم يتوقّف ليستعيد أنفاسه إلاّ حين قلبت شريط التسجيل في مسجّلتي. في الغرفة وفي الخارج، كان الحشد في ذروة الإثارة. يضحكون ويتنادون ويثرثرون. حتى أكبر تجمّعات الفلاّحين ليست بهذه الحيويّة.

وفيما كان يجفّف عرقه بمنشفة، توجّه إلى الفتيات الصغيرات أمامه:

ــ أنشدن أنتنّ أيضًا إكرامًا للأستاذ.

أخذت الفتيات يتضاحكن فيما بينهنّ، وزغردن لبرهة وهنّ يتدافعن، إلى أن ظهرت في جماعتهنّ فتاة صبيّة تُدعى ماوماي. فتاة ظريفة في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، لكن لا يبدو عليها الخجل إطلاقًا. سألت وهي تطرف بعينين واسعتين مستديرتين:

ــ أغنّي ماذا؟

ــ أغنية جبليّة.

ــ سأغنّي «زواج الأخوات».

ــ بل غنّي بالأحرى «زهرات الفصول الأربعة».

بالقرب من الباب، توصيني امرأة متوسّطة العمر:

ـ من الأفضل أن تغنّي «زواج الأخوات»، إنّها أغنية جميلة.

تنظر إليّ الصبيّة، تنحني ثم تشيح بنظرها. صوتها البلّوري يخترق هرج الحشد ومرجه ويتصاعد عاليًا في الأجواء. وسرعان ما ينقلني إلى الجبال. الريح والينابيع الشفّافة والقاتمة، والآلام التي تسيل على صفحة الماء هي في الوقت نفسه بعيدة وصافية. أتخيّل مشاعل المسافرين في ظلّ الجبل الأسود، أمام عينيّ تطفو صورة عجوز، يحمل في يده مشعلاً متوهّجًا ويقتاد فتاة صغيرة في عمر المغنّية الصبيّة نفسه، ناحلة جدًّا وترتدي ثيابًا ملوّنة. يمرّان أمام باب معلّم المدرسة في قرية صغيرة. توقّفت في هذه الغرفة لأرتاح. لا أعرف من أين أتيا ولا إلى أين يذهبان. أمامهما جبل هائل بغاباته الداكنة الكثيفة. رمقاني بنظرة دون أن يتوقّفا، ثم عندما استدرت لأقتفي أثر المشعل، رأيت لهبًا صغيرًا متراقصًا في الظلمة، إلى ما وراء الصخور. كان يطفو في الليل المدلهمّ وكانت الشرارات المتساقطة منه ترسم سرًّا الطريق التي سلكاها. ثم امّحى كلّ شيء، اللهب الصغير المتراقص، الشرارات، كأغنية، أغنية حزينة صافية ومضيئة تطفو في ظلّ الغرفة، وترتعش مع فتيلة المصباح الأشبه بقرن الفوم. في تلك السنين، كنت مثلهم، حافي القدمين في حقول الأرزّ أحرث الأرض، وعند هبوط الليل، كان منزل المعلّم الملجأ الوحيد حيث أستطيع الثرثرة واحتساء الشاي والجلوس والتلهّي عن وحدتي.

جوّ من الحزن خيّم على الجميع، لا أحد ينبس بكلمة. توقّفت الفتاة عن الغناء منذ بعض الوقت، عندما أطلقت فتاة أخرى أكبر سنًّا، مستندة إلى الباب، تنهيدة عميقة. لا شكّ أنّها فتاة شابّة تستعدّ للزواج:

ــ يا للأغنية الحزينة!

ثم طالب الجمهور من جديد:

ــ أنشد أغنية مرحة!

ــ أيّها العمّ، أنشد أغنية «السهرات الخمس»!

ــ غنِّ لنا «المداعبات الثماني عشرة»!

كان الشبّان خصوصًا هم الذين يطالبونه بالغناء.

استعاد العجوز أنفاسه، انتزع ثوبه ونهض عن المقعد لكي يبعد المغنّية الصغيرة والأطفال الصغار الجالسين عند عتبة الباب.

ــ اذهبوا أيّها الصغار، اذهبوا للنوم! كفى غناءً، اذهبوا للنوم!

لا أحد يودّ الذهاب. المرأة المتوسّطة العمر واقفة أمام الباب تناديهم بأسمائهم واحدًا واحدًا. الرجل العجوز يقرع الأرض بقدميه كما لو أنّه غاضب ثم يبدأ بالصراخ:

ــ اخرجوا جميعًا! أقفلنا، أقفلنا، اذهبوا للنوم!

تتقدّم المرأة في الغرفة، وتدفع الفتيات خارجًا وهي تصيح بالفتيان:

ــ اخرجوا أنتم أيضًا!

يمدّ الشبّان ألسنتهم ويطلقون صرخة غريبة:

ياه...

وأخيرًا، تغادر فتاتان أكبر سنًّا المنزل بهدوء. يطرد الحشد عندئذٍ الأطفال الآخرين. ستقفل المرأة الباب ويغتنم الناضجون الذين بقوا في

الخارج الفرصة لكي يتغلغلوا داخل الغرفة. بعد أن وُضع المرتاج، انتشر الدفء في أرجاء القاعة، وتصاعدت رائحة الأنفاس القويّة. صفا صوت العجوز قليلاً، بصق أرضًا وطرف بعينه ناحية الحشد. تغيّرت ملامحه. وبحركة ماكرة، راح يمشي مشية الهرّ طارفًا بعينيه إلى الحاضرين، ثم انطلق يغنّي وهو يضبط إيقاع صوته:

الإنسان يحضّر، ماذا يحضّر؟

يحضّر عصاه،

المرأة تحضّر، ماذا تحضّر؟

تحضّر ساقيتها.

يصفّق الحشد له. يمسح العجوز فمه بيده:

العصا سقطت في الساقية،

ترقص مثل سمكة نهريّة!

تتصاعد الضحكات، بعضهم ضحك حتى أُغمي عليه، وبعضهم يضربون الأرض بأقدامهم.

ارتفع أحد الأصوات:

ــ غنِّ لنا أيضًا: «الأبله الصغير يتزوّج»!

فأطلق الشبّان صيحة: «تشا!».

أبعد العجوز الطاولة وأخلى مكانًا وسط الغرفة. تربّع على الأرض عندما سُمع فجأة طرق على الباب. سأل بلهجة مستاءة:

ـ من الطارق؟

ـ أنا، أجاب صوت رجل من الخارج.

يُفتح الباب ويدخل شابّ ألقى سترته على كتفيه وشعره مفروق. تبدأ الهمهمة:

ـ شيخ الضيعة، شيخ الضيعة، شيخ الضيعة...

ينهض العجوز. افترّ ثغرالوافد الجديد عن ابتسامة صغيرة ما لبس أن كبحها على الفور عندما وقع نظره على المسجّل الموضوع على الطاولة ، ثم اتّجه نحوي.

ـ إنّه ضيفي.

التفت الرجل العجوز لكي يعرّفني على الشابّ:

ـ إنّه ابني البكر.

مددت يدي فأنزل السترة عن كتفيه وسألني دون أن يصافحني:

ـ من أين أنت آتٍ؟

فشرح له العجوز على عجلة:

ـ إنّه أستاذ من بكين.

قطّب ابنه حاجبيه:

ـ هل تحمل رسالة رسميّة؟

فقلت وأنا أُخرج بطاقة عضويّتي في اتّحاد الكتّاب:

ـ لديّ شهادة.

تفحّصها في جميع الاتّجاهات، ثم أعادها لي.

ـ إذا لم تكن لديك رسالة رسميّة، لن تسير الأمور على ما يرام.

ـ وأيّة رسالة رسميّة تريد؟

ـ رسالة من بلديّة الكانتون أو ختم من بلديّة المقاطعة.

ـ لكنّ بطاقتي مختومة!

بقي حائرًا، أخذ بطاقتي من جديد وراح يتفحّصها بكلّ تمعّن تحت المصباح. ثم أعادها لي مرّة أخرى:

ـ ليس ذلك واضحًا.

ـ جئت خصّيصًا من بكين أجمع الأغاني الشعبيّة!

لم أستجب لطلبه ولا أقيم اعتبارًا كبيرًا للّياقات. بما أنّني بقيت حازمًا في موقفي، التفت إلى والده وأنّبه بقساوة:

ـ أبي، تعرف جيّدًا أنّ هذا مخالف للمبادئ!

ـ إنّه صديق تعرّفت إليه للتوّ.

أراد الأب أن يواصل شرحه، لكن في حضرة ابنه، شيخ الضيعة، فقد كلّ شجاعته.

ـ عودوا جميعكم للنوم! هذا مخالف للمبادئ.

كرّر الابن هذه الجملة من جديد أمام الحضور. البعض سبق لهم أن انسحبوا، وجمع إخوته آلات الموسيقى والأدوات. لم أكن الوحيد الذي

شعر بالإخفاق، كان العجوز مستاء فعلاً وكأنّه تلقّى طستًا من الماء البارد فوق رأسه. فقد كلّ عزم لديه واختلّ مزاجه، عيناه فارغتان، تقوقع على نفسه بطريقة مثيرة للشفقة. فاضطررت إلى شرح موقفي.

ـ والدك فنّان شعبي قماشته نادرة. جئت خصّيصًا لأتعلّم منه. مبادئكم جيّدة من حيث الشكل، لكن هناك مبادئ أعظم تفوق مبادئكم...

ومع ذلك، شعرتني غير قادر على أن أشرح له في هذه اللحظة ماهيّة هذه المبادئ العظيمة.

ـ ستذهب غدًا إلى بلديّة الكانتون، وسترى إذا كانوا يوافقون على مواصلة المهمّة التي جئت من أجلها ، وفي حال الموافقة تعود مع الختم على الرسالة.

لانت لهجته قليلاً فاجتذب والده إلى إحدى الزوايا، وهمس له ببعض الكلمات. وأخيرًا ارتدى سترته ورحل.

بعد أن رحل الجميع، أُقفل الباب من جديد واتّجه العجوز إلى المطبخ. بعد وقت قصير، جلبت زوجته النحيفة قطعة كبيرة من جبنة الصويا المطهوّة مع اللحم المقدّد وكلّ أنواع البقول المملّحة. امتنعت عن الأكل، لكنّ العجوز أصرّ. أمام الطاولة، لم ننبس بكلمة. وبعدئذٍ، رافقني للنوم إلى جانبه في غرفة متّصلة بزريبة الخنازير إلى جانب المطبخ. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا.

ما إن انطفأ النور حتى اجتاحت البراغيث المكان. هاجمتني دون توقّف على وجهي ورأسي وأذنيّ ويديّ. الجوّ موبق وتنبعث من الغرفة

رائحة عفنة. كلب المنزل في قمّة الهياج بسبب حضوري. يواصل الدخول والخروج، مستفزًّا الخنازير فيُسمع صوت نخيرها المتواصل وتململها الذي لا يُطاق. تحت السرير، بضع دجاجات تخلّفت عن المبيت في الخمّ أظهرت هي أيضًا انزعاجها من الكلب. فصفّقت أحيانًا بأجنحتها. كنت منهكًا إلى حدّ بعيد، ولم يغمض لي جفن. بعد وقت قصير صاح أحد الديكة تحت السرير «كوكو ريكو» لكنّ العجوز واصل شخيره. لا أعرف ما إذا كانت البراغيث تلسعه أم أنّها تلسع الغرباء فقط. إلاّ إذا كان الرجل يفقد كلّ إدراك حين يغرق في النوم. غير قادر على الاحتمال أكثر، أنهض صراحة وأفتح باب الغرفة الرئيسي وأبقى جالسًا عند العتبة. تتصاعد ريح منعشة، لم أعد أتعرّق. عبر الأطياف المبهمة لأشجار الغابة، لا ألمح أيّة نجمة في سواد الليل الرماديّ. لا يزال الناس نيامًا في البيوت المبعثرة بسقوفها ذات القرميد الأسود.

أبدًا لم أتخيّل أنّني أستطيع أن أمضي سهرة سعيدة كهذه في هذه القرية الصغيرة الجبليّة التي لا يتجاوز عدد مساكنها العشرة. تلاشت الخيبة التي حلّت بي بسبب إلغاء الحفلة، حين شعرت بطراوة الجوّ. وما ندعوه عادةً الحياة بقي في إطار ما لا يقال.

الفصل الخمسون

تقول هذا يكفي. كفّ عن السرد!

تسير معها بمحاذاة ضفّة النهر الوعرة التي تتدفّق مياهها بقوّة. أمامكما يمتدّ جون عميق. عندما تدخل إليه المياه، ترسم قوسًا دائريًّا، ثم تصبح صفحتها الملساء تمامًا خضراء داكنة، لا تموّج فيها. يضيق الطريق أكثر فأكثر. لم تعد راغبة في مواصلة السير معك.

تقول إنّها تريد العودة، تخاف أن تدفعها في النهر.

يتنامى الغضب فيك، تسألها عمّا إذا كانت قد جُنّت.

تقول إنّها جُنّت لأنّها برفقة شيطان مثلك، تشعر بخواء في داخلها، وبجفاف القلب أيضًا، مستحيل ألاّ تصبح مجنونة. تعرف تمامًا أنّه إذا كنت لا تزال تسير معها على طول هذا النهر فلأنّك تفتّش عن أوّل فرصة لترميها في الماء. تريد أن تغرقها لكي يختفي كلّ أثر لها.

ـ اذهبي إلى الجحيم! لا تستطيع تمالك نفسك عن شتمها.

تقول، أرأيت، أرأيت، هذا هو فعلاً ما ترمي إليه، قلبك غادِر، لا تحبّها، إذا كنت لا تحبّها، بئس الأمر، لكن لماذا أردت إغواءها؟ لماذا اقتدتها إلى ضفّة هذه المياه العميقة؟

تتبيّن في نظرتها رعبًا حقيقيًّا، تريد الاقتراب لطمأنتها.

لا! لا! تمنعك من القيام بخطوة إضافيّة! تتوسّل إليك بأن تبتعد وأن تترك لها حرِّيَّة الحركة. تقول إنّها لدى رؤية هذه الهاوية التي لا قرار لها، يرتعد قلبها خوفًا. تريد العودة بسرعة، استعادة حياتها السابقة، اتّهمته ظلمًا، وسمحت لوحشٍ مثلك أن يقتادها إلى هذه الأقاصي المقفرة. تريد العودة إلى جواره، استعادة غرفتها الصغيرة، وهذه المرّة، تستطيع أن تغفر له كلّ شيء، حتى لو كان عنيفًا معها أثناء الجماع. تقول إنّها الآن فهمت السبب، السبب هو أنّه يحبّها فيصبح جامحًا، ورغبته الجامحة تشي بحميّته واندفاعه، لكنّها لم تعد تحتمل برودتك، فهو مئة مرّة أكثر صدقًا منك، أنت مئة مرّة أشدّ خبثًا منه، وفي الواقع، أنت، منذ زمن طويل مللتها، لكنّك لا تقول ذلك، العذابات النفسيّة التي تكابدها بسببك أشدّ وطأة من عذاب الجسد الذي قاسته بسببه.

تقول إنّها تفكّر به، ففي النهاية كانت حرّة عندما كانت معه. تقول إنّها بحاجة إلى منزل تستطيع الركون إليه، تريد أن تصبح فقط ربّة منزل، قال إنّه كان يريد الاقتران بها، تثق به، فيما أنت، حتى إنّك لم تتلفّظ بهذه الكلمات. عندما كان يمارس الجنس معها، كان يحدّثها عن امرأة أخرى، لكنّ هذا فقط لأنّه أراد إثارة رغبتها، فيما أنت، كلماتك لا تثير فيها إلاّ البرودة، وقد أيقنت للتوّ بأنّها لا تزال تحبّه فعلاً. ذاك هو

السبب في أنّها عصبيّة المزاج إلى هذا الحدّ، وذاك هو السبب في أنّها ليست في حالتها الطبيعيّة. إذا كانت قد رحلت فهذا لكي تجعله يتعذّب بدوره، لكنّ هذا يكفي الآن. انتقمت منه ما فيه الكفاية لا بل وربّما أكثر ممّا ينبغي. سيُجنّ جنونه لو عرف بالأمر، هذا أكيد، لكنّه سيرغب فيها مع ذلك وسيعرف كيف يظهر تسامحًا.

تقول إنّها تفكّر بعائلتها أيضًا، وحتى لو كانت حماتها لئيمة، فهي جزء من عائلتها. لا بدّ أنّ أباها منشغل البال إلى حدّ فظيع، وأنّه يبحث عنها في كلّ مكان، هذا خطير في مثل سنّه.

تفكّر أيضًا بزميلاتها في العمل. حتى لو كنّ سخيفات وبخيلات وغيورات الواحدة من الأخرى، إلاّ أنّه حين تشتري إحداهنّ ثوبًا على الموضة، لا تتورّع إطلاقًا عن السماح لصديقاتها بتجريبه.

تفكّر أيضًا في هذه السهرات الراقصة المملّة دومًا التي لأجلها نرتدي دومًا حذاء جديدًا ونتعطّر، حيث تصدح الموسيقى تحت الأضواء التي تثير النشوة في النفوس.

وحتى صالة العمليّات نفسها برائحة الأدوية المنبعثة منها ونظافتها الخارقة ونظامها الكامل: فكلّ قارورة فيها تحتلّ مكانًا محدّدًا، وهي دومًا في متناول اليد... كلّ ذلك أصبح بالنسبة لها أليفًا قريبًا كلّ الألفة والقرب. عليها أن تغادر هذا المكان اللعين، جبل الروح هذا، فهذه كلّها تفاهات لا قيمة لها.

تقول إنّك أنت من صرّح بأن الحبّ ليس إلاّ وهمًا، نركن إليه لكي نخدع أنفسنا. طيلة حياتك لم تؤمن أنّ الحبّ الحقيقيّ موجود، فإمّا أن

يمتلك الرجل المرأة، وإمّا العكس. ثم يعقب ذلك اختلاق كلّ أنواع القصص الجميلة التي تليق بالأطفال، وبذلك تستطيع الأرواح الضعيفة أن تجد ملاذًا تأوي إليه. هذه كلماتك أنت ، قلتها ثم نسيتها. تستطيع نفي كلّ ما قلت، لكنّك تركت في قلبها عتمة يستحيل تبديدها. تصرخ قائلة إنّها لم تعد تستطيع اللحاق بك! وأمام هذا الجون الهادئ، هذه المياه العميقة والقاتمة، لا تستطيع السير معك خطوة واحدة باتّجاه هذه الهاوية. إذا قمت بحركة واحدة باتّجاهها، فستتشبّث بك ولن تتحرّر منها قبل أن تجتذبك معها إلى قرار الماء وموافاة ملك الجحيم!

تقول أيضًا إنّها لن تتشبّث بك، لكن يجدر بك أن تترك لها منفذًا، لن تورّطك أبدًا، ولن يكون لديك حمل ترزح تحته وبذلك ستكون أكثر خفّة لبلوغ جبل الروح، أو الجحيم. لست محتاجًا إلى دفعها في اللجّة، سترحل من تلقاء ذاتها، ترحل بعيدًا عنك، لن تعود لرؤيتك، ولا للتفكير بك، ولن يكون عليك أن تقلق بشأنها، سترحل من تلقاء نفسها، ولن ترتكب أيّ خطأ ولن تشعر بحسرة، ولا بأيّة مسؤوليّة، وحين تغادر المكان، لن تشعر بأيّ ذنب. أرأيت، لا تتفوّه بكلمة لأنّها وضعت الإصبع على الجرح وكشفت النقاب عن أفكارك، لا تجرؤ على الاعتراف بذلك لنفسك فبادرت هي لقول كلّ شيء.

تقول إنّها ستعود، ستعود، ستعود إليه، ستعود إلى غرفتها الصغيرة، إلى غرفة العمليّات، إلى عائلتها، وستستعيد علاقتها بحماتها. عاشت دومًا عيشة تافهة وستستعيد التفاهة، وستكون كالناس التافهين، وستقترن برجل تافه مثله، ولا ترغب إلاّ في عشّ زوجي تافه، وفي جميع

الأحوال، لن تقوم بخطوة إضافيّة واحدة برفقتك، لا تستطيع أن تنزل إلى الجحيم مع شيطان مثلك!

تقول إنّها تخاف منك، تعذّبها، ولا شكّ أنّها عذّبَتْك بدورها، والآن، لم تعد تريد قول شيء، لم تعد تريد معرفة شيء؛ فقد عرفت كلّ شيء الآن، وتعرف منذ البداية الكثير من الأشياء، أو بالأحرى قد يكون من الأفضل ألاّ تعرف شيئًا، تريد النسيان، وما لا تقدر على نسيانه عليها أن تنساه. بين ليلة وضحاها، ستنسى، والكلمة الأخيرة التي ستقولها لك كلمة شكر، تشكرك على اصطحابها هذا القسم من الطريق، تشكرك لأنّك أنقذتها من الوحدة. ومع ذلك، فهي تشعر بوحدة أكبر، والاستمرار على هذا النحو يفوق قدرتها على الاحتمال.

وفي آخر المطاف، استدارت ورحلت، تعمّدت عدم النظر إليها. تعرف أنّها تنتظر أن تدير رأسك، يكفي أن ترمقها بنظرة لكي تمتنع عن الرّحيل، وعندئذٍ ستعاود النظر إليك حتى تبنجس الدموع من عينيها، فتخور قواك وتتوسّل إليها كي تبقى، وعندئذٍ تنطلق كلمات التعزية والقبلات فتنهار بين ذراعيك، وعيناها مغرورقتان بالدموع، وتتفوّه بكلمات مشوّشة عن الحبّ والحماسة والحزن، وبذراعيها الواهيتين كأفنان الصفصاف ستطوّق خصرك وتدفعك إلى مواصلة السير معًا حتى منتهى الدرب.

صمّمت على عدم النظر إليها ومتابعة مسيرك على طول السدّ الوعر للنهر. لدى بلوغكَ منعطفًا، تتراجع عن موقفك وتلتفت، لكنّها

توارت. تشعر بفراغ كبير يشدّ على قلبك، بإحساس بالنقصان ولكن أيضًا بالنجاة.

تجلس على صخرة وكأنّك تنتظر عودتها، لكنّك تعرف تمامًا أنّها رحلت إلى الأبد.

ليست هي المتوحّشة بل أنت، تريد قطعًا أن تستحضر لعناتها ولؤمها لكي تطردها نهائيًّا من قلبك، لكي لا تخلّف لديك أيّة حسرة.

التقيتها صدفة في بلدة وويي. كنت وحدك وكانت تعيسة.

لم تفهم قطّ إذا كانت تقول الحقيقة أم تختلق الأكاذيب، أم هي في منتصف الطريق؟ تداخلت أقاويلها وأقاويلك بطريقة لا تنفصم عراها.

لم تكن تعرف شيئًا عنك. لأنّها كانت امرأة، لأنّك كنت رجلاً، وبسبب ذلك الضوء المنبعث من المصباح الوحيد، وبسبب هذه الغرفة تحت الجملون، وبسبب رائحة التبن، ولأنّ ذلك المساء في مكان مجهول، كان أشبه بحلم، لأنّه البرد السابق لأوانه في ليلة من ليالي الخريف، أيقظت فيك ذكرياتك وأوهامك، أوهامها وشهوتك.

وأنت تصرّفت حيالها كما تصرّفت هي حيالك.

هذا صحيح، لقد أغويتها، لكنّها هي أيضًا أغوتك. بين مكائد النساء وشهوة الرجال، ما جدوى البحث عن المسؤول الأوّل؟

وما جدوى البحث الآن عن جبل الروح هذا؟ ربّما ليس إلاّ صخرة تافهة تذهب إليها النساء الساعيات إلى إنجاب الأطفال. هل كانت امرأة زهرة الكاميليا؟ أم كانت تلك الفتاة الشابّة التي استجابت لرغبة الفتيان في

اجتذابها إلى بركة السباحة؟ على أيّة حال، لم تكن يافعة إلى هذا الحدّ، وأنت كنت قد تجاوزت مرحلة المراهقة، تذكر فقط العلائق التي جمعتك بها، لكنّك تكتشف في هذه اللحظة أنّك لن تستطيع أن تصف وجهها، ولن تستطيع التعرّف إلى صوتها، كما لو أنّها تجربة عيشت من قبل، أو ربّما كانت وهمًا خطر على البال، وعلى أيّة حال، أين الحدّ الفاصل بين الذكرى والوهم؟ كيف السبيل إلى إيجاد حدّ بينهما؟ أيّهما أكثر وثوقًا وما هي الوسيلة لإصدار الحكم المبرم؟

ألم تستيقظ في داخلك أحلام خفيّة شتّى حين التقيت هذه المرأة صدفة في بلدة صغيرة، في محطّة نقل بريّة، على جسر الوصول، في الشارع، على حافّة الطريق؟ وكيف الاهتداء إلى أثرها الآن؟

الفصل الواحد والخمسون

على ضفّة النّهر الوعرة، ترسل شمس المغيب أشعّتها الجانبيّة أمام معبد الإمبراطور الأبيض. في أسفل الجرف، المياه الصاخبة تدوّم، وصخبها يُسمع من بعيد. أمامي ينتصب جرف «باب كوي» مستويًا وكأنّ سكّينًا قصّه. إذا نظرنا نحو الأسفل متّكئين على الحاجز الحديدي، نلمح خطًّا يقسم بين الماء الصافية والملتمعة في النهر والماء المندفعة والموحلة في يانغتسي.

على الضفّة الأخرى، تعبر امرأة تحمل مظلّة بنفسجيّة، على منحدر الجبل، بين الأعشاب والأشجار، على طريق غير مرئيّة تصعد حتى قمّة الصخرة الناتئة. تتقدّم ثم تختفي. لا شكّ أنّ أناسًا يسكنون عند القمّة.

تحتجب أشعّة الشمس الذهبيّة خلف الجبل، ولا تلبث ضفّتا المضيق أن تقتما. الفوانيس الحمر المستخدمة بمثابة معالم للمراكب المعلّقة بمحاذاة الماء، أضاءت الواحد تلو الآخر. يصل المركب المؤلّف من ثلاثة جسور إلى الجهة العليا من النهر محمّلاً بالمسافرين الواقفين الذين يتأمّلون المنظر. زئير الصفّارة القويّ يدوّي طويلاً في الشعاب.

يُقال إنّ الموقع المحصّن، على هيئة ثماني تريغرامات، الذي شيّده تشوج ليانغ[1] وسط النهر، كان يقع عند تقاطع النهر والجدول خلف باب كوي. احتزت مرّات عدّة هذا الباب على متن المركب، وكان الجميع على ظهر السفينة، يدلّون على شيء ما بأصابعهم، متظاهرين برؤيته. لكنّي لم أستطع قطّ تميّزه، حتى اليوم، بدءًا من المدينة القديمة للإمبراطور الأبيض الواقعة على ضفّة النهر. كان ليو بَي[2] قد عهد إليه هنا بابنه الوحيد، وهو الإمبراطور العتيد، لكن من يستطيع أن يجزم ما إذا كانت القصص المرويّة في الروايات التاريخيّة حقيقيّة؟

في معبد الإمبراطور الأبيض، فوق القواعد الحجريّة، استُبدلت بتماثيل القدّيسين تماثيل جديدة من الصلصال الملوّن، مستوحاة من الأحداث التاريخيّة المفجعة، لكنّ أسلوب نحتها يترك انطباعًا بأنّها مأخوذة من مشهد مسرحيّ. لم يعد هذا المعبد يشبَّه بشيء.

ألتفّ حول المعبد وأمرّ خلف فندق بُني حديثًا. من حوله الجبال الجرداء فقط تتخلّلها بعض الجنبات. في وسط المنحدر، يُلمح مع ذلك آثار غامضة لجدار حصن شبه دائري يرقى إلى حاضرة قديمة في عهد سلالة هان. لا بدّ أنّ طول الجدار كان يبلغ عدّة كيلومترات. دلّني عليه مدير الشؤون الثقافيّة المحلّيّة، وهو عالم آثار يُظهر حماسة صادقة

---

(١) تشوج ليانغ: جنرال ورجل دولة عاش بين ١٨١ و٢٣٤ ب.م. حكمته وموهبته جعلتاه محبوبًا من الشعب.

(٢) ليو بيْ: في عام ٢٢١ ب.م. أسّس ليو بي سلالة شو هان في إقليم سيتشوان واتّخذ تشوج ليانغ مستشارًا له.

لعمله. قال لي إنّه طلب من المراكز الحكوميّة المختصّة مساعدة ماليّة للحفاظ على هذه الآثار. لكن في اعتقادي أنّ من الأفضل أن تُترك على ما هي عليه من الخراب. فإذا خُصّصت أموال لإعادة بنائها، فمن المحتمل أن يُعمد إلى بناء مقصورات وأبنية مبرقشة مزدانة بمطعم في أعلاها، وهذا من شأنه أن يشوّه المنظر.

أراني سكّينًا حجريًّا يعود تاريخه إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، مصقولاً ولامعًا وكأنّه من اليشب، مقبضه مثقوب ليسهل تعليقه إلى الحزام.

على ضفّتي يانغتسي، اكتُشفت أدوات حجريّة عدّة مصقولة برهافة، وخزفيّات حمراء تعود إلى العصر الحجريّ المتأخّر. في إحدى المغاور، على ضفّة النهر، عُثر أيضًا على أسلحة برونزيّة. قال لي إنّه بعد اجتياز باب كوي، هنالك مغارة في قلب الجرف، حيث يُقال إنّ تشونغ ليانغ خبّأ كتابه عن فنّ الحرب. وقد دخل إلى هذه المغارة رجلان أحدهما أخرس، والآخر أحدب وأنزلا الناووس الحجري المعلّق فسقط وتناثر كالرّماد. جمّعا العظام الموجودة فيه محاولين بيعها، على أنّها عظام تنّين، إلى محالٍّ لتركيب العقاقير الصينيّة التي، بعد أن فحصتها أخطرت الأمن العامّ. عثرت الشرطة على الأخرس ولم تستطع أن تحصل منه على أيّة معلومة، لكنّه بعدما تلقّى بضع صفعات اقتادهم إلى المكان، سائرًا بمحاذاة الجرف في مركب صغير. ثم أظهر لهم مواهبه في التسلّق. في المغارة، كان لا يزال هنالك بعض الألواح المحطّمة لضريح يعود بالطبع إلى عهد الدويلات المتحاربة. كان الناووس يحوي بوجه الاحتمال بعض الأدوات البرونزيّة لكن تستحيل معرفة ماذا حلّ بها.

في صالة العرض التابعة للمركز الثقافي، بالإمكان مشاهدة عدّة مغازل مزيّنة بزخارف دائريّة سوداء وحمراء. هذه الرسوم تشبه أسماك الين واليانغ، لا بدّ أنّها تنتمي للحقبة نفسها للرسوم التي رأيتها في جبل كوجيا على سافلة النهر في إقليم هوبي. يرقى عهدها إلى أربعة آلاف سنة، عندما كانت المغازل تردن مظهرة الفراغ والامتلاء بالتناوب، ظهرت صورة القبّة الأسمى الطاويّة[1]. أذهب إلى حدّ تخيّل أنّ الأمر يتعلّق ها هنا بالتجلّي الأخير لهذا الرمز، نقطة انطلاق المبادئ الفلسفيّة للكائن منذ «كتاب التغيّرات» حتى الطاويّة: تكامل الين واليانغ وتداخل السعادة والتعاسة، إنّ المفاهيم البشريّة الأولى وُلدت من الصور ثم امتزجت بالأصوات لتظهر أخيرًا اللغة والمعنى.

في البداية، لاحظت المرأة التي تُدير المغزل أنّها فيما كانت تطهو أنّ عنصرًا سقط سهوًا على مغزل من الصلصال. تنبّهت إلى الشكل

---

(١) في أساس العالم القبّة الأسمى الطاويّة ويرمز إليها برسمة الين واليانغ، أحدهما أبيض والآخر أسود، وفي داخل كلّ منهما دائرة من اللون المعاكس. وقد ورد في قصائد لاوتسو مؤسّس الطاويّة ما يلي:

التاو الفارغ الذي نستعمله /لا يمتلئ أبدًا /يتعذّر سبره كهاوية /ويبدو أنّه مصدرالكائنات./إنّه يثلّم شفارها / ويحلّ كبب خيوطها /ويصهر أضواءها /ويوحّد ترابها.

وفي قصيدة أخرى:

ثلاثون شعاعًا تتلاقى في قبّ دولاب/ لكنّ الفراغ المتوسّط هو الذي يخوّل العربة أن تقوم بعملها./ نضع الخزف لنصنع منه أواني /لكنّ استعمالها رهن فراغها الداخليّ. (ترجمة هنري فريد صعب، ملحق النهار ١٧ ــ ٥ ــ ٢٠٠٩).

الذي خلقته الحركة، والرجل الذي جسّد هذا الشكل أسمته فوشي. لكنّ هذه المرأة هي التي منحت بالطبع حياة وذكاء لهذا الرجل، وتُدعى نووا. المرأة الأولى نووا والرجل الأوّل فوشي يرمزان إلى اتّحاد الذكوريّ بالأنثويّ.

فوشي بجسم أفعى ورأس إنسان، كما صُوّر على ألواح الآجرّ التي تعود إلى عهد سلالة هان، وكما يظهر في الخرافات، يجسّد من خلال علاقته بنووا، النوازع الجنسيّة للبشر الأوائل. استطاعوا الارتقاء من الوحوش إلى مرتبة الأجداد الأصليّين، مجسّدين الشهوة الجنسيّة والدعوة للحياة.

آنذاك، لم يكن الفرد قد وُجد بعد، ولم يكن هناك تمييز بين «الأنا» و«الأنت». ظهر «الأنا» في البداية بسبب الخوف من الموت، الشيء الغريب الذي ليس «أنا» تحوّل إلى ما يُدعى «الأنت». عندئذٍ كان الإنسان عاجزًا عن الخوف من نفسه. معرفته لذاته تأتي فقط من الآخر. ووحده فعل الاستيلاء أو التنازل، الخضوع أو الإخضاع كان يؤكّد وجوده، والطرف الثالث الذي لا تربطه علاقة مباشرة بـــ «الأنا» و«الأنت» أي «هو»، لم يظهر إلاّ تدريجيًّا. ولاحقًا اكتشفْتُ أنّ الأمر مماثل بالنسبة لـــ «هو»، إنّ وجود الكائنات المختلفة هو الذي أخّر وعي «الأنا»، و«الأنت». نسي الإنسان تدريجيًّا «أناه» في صراعه مع الآخر لأجل الحياة، وبوجوده القسري في هذا العالم اللامتناهي، صار مجرّد حبّة رمل.

ماذا يسعني أن أفعل بما تبقّى من حياتي؟ هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي وأنا أصغي في سكون الليل إلى الدمدمة المسهبة لمياه

النهر. هل أذهب لأجمع عن الضفّة ثقّالات الشباك التي كان يستعملها صيّادو واشي؟ لديَّ في حوزتي حصاة مثقوبة في وسطها بواسطة فأس حجريّة، أعطاني إيّاها صديق منذ يومين، حين كنت في عالية النهر، في وانشيان. قال لي إنّه في موسم انخفاض منسوب المياه، يمكنك أن تجمع منها على الضفّة. الطين يتكدّس ومجرى النهر يرتفع من سنة لسنة. وزدْ على ذلك أنّه يُخطّط لبناء سدّ عند آخر الشعاب. وعندما سيُشيّد هذا السدّ الكبير العجيب، فستغمر المياه السور الذي كان يحيط بحاضرة هان القديمة. وعندئذٍ ما معنى أن تُجمع ذخائر الماضي؟

أبحث دومًا عن المعنى، لكن في النهاية ما هو المعنى؟ هل بإمكاني أن أمنع الناس عن بناء هذا السدّ المهيب والحؤول دون القضاء على ذاكرتهم؟ ليس بوسعي سوى القيام بأبحاث عن أناي وهي حبّة رمل لا شأن لها. أستطيع فقط تأليف كتاب عن هذه «الأنا» دون الاهتمام بما إذا كان سيصدر أم لا. وما معنى تأليف كتاب بالزائد أو بالناقص؟ والثقافة التي سيُقضى عليها هل ستخلق فراغًا فعليًّا؟ وهل الإنسان بحاجة فعلاً إلى الثقافة؟ ثم ما هي الثقافة؟

أنهض منذ الفجر لأستقلّ مركبًا بخاريًّا صغيرًا. هذه القوارب المسطّحة المغمورة بالماء حتى حافّتها تنحدر مسرعة مع التيّار. عند الظهيرة وصلنا إلى جبل ووشان، جبل الساحرات، هناك حيث الملك هواي من سلالة تشو حلم أنّه يضاجع إلهة. النساء اللواتي أصادفهنّ في شوارع عاصمة المقاطعة لا يمتلكن شيئًا من السحر. بالمقابل، على المركب فريق من سبعة شبّان وشابّات أو ثمانية، لهجتهم تدلّ على أنّهم

من قلب بكين، يرتدون سراويل واسعة الأرجل. يحملون غيتارات كهربائيّة وآلات جوقة. يثرثرون ويضحكون ويتغازلون وعلى سيمائهم المرح والانطلاق. يكسبون المال من خلال عزفهم بعض الألحان الرائجة والديسكو (لم تكن موسيقى الروك آنذاك مسموحة)، وكما أسرّوا لي بأنفسهم، ينتشرون بكثرة على ضفّتي يانغتسي.

في شذرات من الحوليّات المحفوظة ضمن مغلّفات ، ذُكر:

«في عهد سلالة تانغ تاو، اتّخذ جبل وو اسمه من وو شيان، كان وو شيان طبيبًا واسع الخبرة لدى الإمبراطور ياو، وُلد في عائلة وزير رفيع الشأن وتوفّي بصفته حكيمًا كبيرًا، كان الجبل منطقة نفوذه وقد منحه اسمه» (راجع غيو بو: **مراثي جبال ووشيان**).

«في فترة حكم يو شَن، يشير **مصنّف الإمبراطور شن** أنّ جبل وو ينتمي إلى منطقتي جينغ وليانغ».

«في ظلّ حكم سلالة شيا، قسّم الإمبراطور يو الإمبراطوريّة إلى تسع مناطق، وكان جبل وو لا يزال موجودًا في منطقة جينغ وليانغ».

«في ظلّ حكم سلالة شانغ، وفي **كتاب مديح سلالة شانغ، تسع حيازات، تسعة حصارات**، ذكر: المناطق التي ينتمي إليها جبل وو لا تختلف عنها في عهد سلالة شيا».

«في عهد سلالة تشو، كان جبل وو مُلك كويتسي في حقبتي الربيع والخريف لبلاد يونغ، في السنة السادسة والثلاثين من عهد شيغونغ، أباد رجال تشو قطاع كوي وألحقوه بتشو، وكان جبل وو جزءًا منه».

«في عهد الدويلات المتحاربة، كانت بلاد تشو تضمّ ولاية آمر وو. وفي **حوليّات الدويلات المتحاربة**، ورد ما يلي: حذّر سو تشين الملك وي من سلالة تشو قائلاً: في الجنوب توجد ولاية آمر وو. وفي كتاب «كيوديتشي»، قيل: ولاية الآمر هي على مسافة مئة «لي» شرق كوي وسُمّيت في ما بعد بلاد ولاية آمر الجنوب».

«في عهد سلالة تشين، في **المذكّرات التاريخيّة**، جاء في فصل «حوليات تشين»: في السنة الثلاثين من عهده، استولى الملك تشاو شيانغ على ولاية آمر وو في تشو وحولّها إلى مقاطعة تنتمي إلى ولاية آمر الجنوب».

«في عهد سلالة هان، وبسبب الماضي ، سُمّيت مقاطعة وو وتنتمي إلى ولاية آمر الجنوب».

«لاحقًا في ظلّ حكم هان وخلال عهد جيان آن، انتمى الجبل أوّلاً إلى ولاية آمر ييدو، ثم في العام ٢٥ ضمّها سَنْ تسوان إلى ولاية آمر غولينغ، وسَنْ شيو من وو إلى ولاية جيابينغ».

«في عهد سلالة جين، شكّلت مقاطعة وو في البداية الحدّ بين بلاد وو وتشو، ثم أُخضعت لإدارة دوي في جيانبينغ، ثم ضُمّت إلى مقاطعة بيجينغ. وخلال السنة الرابعة لعهد شيانبينغ، أُحيلت دوي إلى ولاية آمر جيانبينغ، وأُنشئت مقاطعة نانلينغ».

«في عهد سلالات سونغ، وتشي، وليانغ، ما من تغيير».

«في عهد آل تشو اللاحقين، وخلال السنوات الأولى لحكم يوانهي، انتمت مقاطعة وو إلى ولاية آمر جيانبينغ، ثم أُنشئت مقاطعة جيانغلينغ».

«في عهد آل سوي، في بداية حكم كايهوانغ، انتقلت مقاطعة جبل وو إلى ولاية آمر بادونغ».

«في عهد تانغ والسلالات الحاكمة الخمس، ضُمّت المقاطعة إلى كانتون كوي».

«في عهد يوان ما من تغيير».

«في عهد مينغ ، انتمت إلى مقاطعة كوي».

«في عهد تسينغ، في العام التاسع من حكم كانغشي، أُلغيت داشانغ وأُلحقت بمقاطعة ووشان..».

«مدينة مدمّرة توجد على مسافة خمسين لي جنوبًا».

* * *

«كان الراهب فوتسي الملقّب بـــ «حزمة القمح» متحدّرًا من جيان في جيانغشي، اسمه الحقيقي ونكونغ، وتسميته يوان يوان، أقام كوخه على المنحدر الشمالي لجبال تشيدونغ، وكان يجلس وسط الجبال منصرفًا للتأمّل.

وبعد أربعين عامًا بلغ مرحلة اليقظة، ولم يكن يأكل إلاّ من حزمة القمح، من هنا لقبه. بعد ذلك بوقت طويل، وفيما لم يعد يُلمح له أثر، رأى ساكنو الجبل المقابل ضوءًا يلتمع في كوخه لمدّة ثلاث سنوات».

* * *

«يقول التقليد إنّ ابنة الإمبراطور الأحمر ياو جي التي توفّيت وهي تمشي على الماء دُفنت في سفح الجبل المشمس، وقد كُرّس لها معبد، وهناك يُنزل السحرة والساحرات الأرواح وهم يرقصون.

* * *

تقع بلدة أنبينغ على مسافة تسعين لي جنوبي شرقي المقاطعة... (وهنا تنقص كلمات في النّص)، البلدات المذكورة أعلاه لا زالت خربة، منذ أن أحرقها جنود سلالة مينغ، منازل القرية خراب، وقد جاءت شعوب أخرى من أقاليم أخرى فتغيّرت الأسماء...».

حاليًّا، أما زالت هذه البلدات موجودة؟

الفصل الثاني والخمسون

تعرف أنّني لا أفعل شيئًا سوى التحدّث إلى نفسي لكي أتسلّى في وحدتي. تعرف أنّ وحدتي لا شفاء منها، لا أحد يستطيع مؤاساتي، ولا يسعني إلاّ أن أستلّ من ذاتي ذاتًا أخرى أخاطبها.

في هذه المناجاة الطويلة، «أنت» هو موضوع سردي، وفي الواقع، إنّه إحدى تجلّياتي الذاتيّة التي تصغي إليّ بانتباه «أنت» لست سوى ظلّي.

وفيما كنت أصغي بانتباه إلى «أنت» خاصتّي، جعلتك تخلق «هي» لأنّك مثلي، لا تستطيع احتمال الوحدة، وعليك أن تجد أيضًا أحدًا تتحدّث إليه.

لجأتَ إذًا إلى «هي» تمامًا كما لجأتُ إلى «أنت».

«هي» مشتقّة من «أنت»، وبالمقابل تؤكّد أناي.

«أنت» شريك حواراتي، حوّلْتَ تجربتي وخيالي إلى صلات بين «أنت» و«هي»، دون أن يكون في المستطاع التمييز بين ما ينبو عن الخيال وما ينبو عن التجربة.

إذا كنت أنا نفسي لا أستطيع التمييز بين حيّز المعاش وحيّز الحلم الذي تجسّده ذكرياتي وانطباعاتي، فكيف باستطاعتك، أنت، أن تدرك الفرق بين تجربتي وخيالي؟ وهذا التمييز هل هو ضروريّ فعلاً؟ علاوة على ذلك إنّه لا يتّصف بأيّ معنًى واقعيّ.

«هي» تحوّلت، بعد أن خلقتها بتجربتك وخيالك، إلى كلّ أنواع الاستيهامات، تتبختر لتجذبك، فقط لأنّك، أنت، أردت أن تغويها ولا يسعك الاقتناع بوحدتك.

خلال سفري، كانت الطريق تختصر مسرّات الحياة ونوائبها. كنتُ غارقًا في تخيّلاتي، وصدى سفرك الداخلي يتردّد في ذاتي. أيّ من السفرين هو الأهمّ؟ أيّهما الحقيقي أكثر؟ بوسع هذا السؤال القديم المغيظ أن يغدو موضوعًا حقيقيًّا للنقاش أو للجدال حتى. لكن، في جميع الأحوال، ليس له أيّة صلة بالسفر الروحيّ الذي يستغرق فيه «أنا» أو «أنت».

أنت تنطلق في سفرك الروحي بالذات، تتسكّع في أرجاء العالم كلّه معي، مقتفيًا أفكارك، وكلّما ابتعدت، كلّما اقتربت، لدرجة يصبح معها فصلنا، كالأمر المحتوم، مستحيلاً. عليك إذًا بالتراجع خطوة، وهذه المسافة تخلق «هو»، و«هو» «طيف» عندما تتركني وتنأى.

سواء كان أنا أو انعكاسًا لي، ليس في الإمكان تمييز وجه «هو»، إنّه طيف، هذا فقط ما تتسنّى معرفته.

«أنت» الذي خلقتُه، خلق «هي»، ووجهها يظلّ، بالطبع، غرّارًا، فماذا تجدي محاولة إظهاره بأيّ ثمن؟ «هي» ليست سوى صورة بانت

بطريقة ملتبسة عبر تداعي الخواطر، متأرجحة في الذاكرة بغموض، فماذا يجدي تصويب صورة تتغيّر باستمرار؟

ما يشار إليه بـــ «هنّ» ليس، بالنسبة لي ولك، سوى اتّحاد الأشكال المختلفة لـــ «هي»، ليس إلاّ.

أمّا الضمير «هم» فيشير إلى الوجوه المتعدّدة التي يتّخذها «هو». والكون الهائل حيث يمكن لكلّ شيء أن يحدث موجود خارج «أنت» و«أنا». وبكلام آخر، «هو» مجرّد إسقاط لِطَيْفي، ويستحيل عليّ التخلّص منه، وبما أنّ الأمر كذلك فما جدوى التخلّص منه؟ بئس الأمر.

لا أعرف إن كنت لاحظت ذلك، عندما أتحدّث عن «أنا»، عن «أنت»، عن «هي»، عن «هو»، لا بل عن «هم»، لا أتحدّث إلاّ عنّي عنك وعنها وعنه، لا بل وعنهنّ وعنهم؛ لا أتحدّث أبدًا عن «نحن» أظنّ أنّ «نحن» ضمير غريب وخبيث ولا طائل تحته.

«أنت»، «هي»، «هو» وكذلك «هم» ، «هنّ»، مجرّد صور واهمة، صحيح، لكنّها بالنسبة لي تتضمّن محتوى أهمّ من «نحن» المزعومة. عندما أقول «نحن» تساورني الشكوك في الحال، لأنّ هذا «النحن» إلى أيّ حدّ يشتمل على الكثير من «الأنا»؟ أو بالأحرى كم يحتوي من الانعكاسات المخالفة لـــ «أنا»، من أطياف «أنت» و«أنا» و«هي» التي يخلقها «هو» و«أنت» و«أنا» تحت شكل استيهامات، وكذلك من أطياف «هم» و«هنّ» اللذين يتضمّنان جميع الوجوه المتحرّكة لـــ «هو»؟

لا شيء أكثر خداعًا من هذا «النحن».

ومع ذلك، بإمكاني أن أقول «أنتم». عندما أكون في مواجهة أشخاص كثيرين، سواء أكنت في معرض امتداحهم أو لومهم، أو سواء كنت في موقف غضب حيالهم أو حبّ أو كره، أجدني عندئذٍ في موقع قوّة، لا بل أقوى من أيّ وقت كان. أمّا «نحن»، فبأيّ معنى تتّصف؟ ما خلا هذا النوع من التكلّف الذي لا علاج له. لذا أتحاشى دومًا هذه «النحن» المتكلّفة والخبيثة التي تحاول أن تتجاوز ذاتها على الدوام. وإذا استخدمتها يومًا ما، فسيكون استخدامي مؤشّرًا لجبنٍ وعقمٍ لا حدّ لهما.

لقد أقمت نظامي الخاصّ بي، أو بالأحرى اعتمدت منطقًا يستند إلى نوع من علاقة العلّة بالمعلول. وفي هذا العالم المشوّش، أنشأ الناس هناك دائمًا أنظمة وأنواع منطق وعلاقات بين العلّة والمعلول، لتأكيد وجودهم. فلمَ لا أختلق أنا نظامي الخاصّ بي؟ أستطيع والحالة هذه أن أركن إليه، وأستقرّ فيه، في مصالحة مع الذات.

لكنّ شقائي يكمن في أنّني أيقظت الـ «أنت»، نذير سوء الحظّ. وفي الواقع، «أنت» ليس شقيًّا، شقاؤك، أنا من تسبّبت فيه بالكامل، وهو متأتٍّ فقط من الحبّ الذي أكنّه لنفسي. هذه «الأنا» الشيطانيّة لا تحبّ إلاّ نفسها، حتى آخر رمق من حياتها.

لا أعرف إذا كان الإله أو الشيطان موجودين في الأصل، أنت من استدعيتهما، أنت تجسيد لسعادتي وتعاستي في آن، وعندما تختفي ينعدم وجود الله والشيطان في آن معًا.

لا أستطيع التخلّص من نفسي إلاّ عندما أتحرّر من «أنت». لكن، إذا استدعيتك ذات يوم من جديد فلن يعود بإمكاني أبدًا أن أنأى. أتساءل

عندئذٍ ماذا ستكون النتيجة فيما لو استبدلت بمكاني مكانك. وبكلام آخر، لن أكون إلاّ ظلّك، وأنت ستصبح جسدي الحقيقي، إنّها لعبة مسلّية. لو كنت مكاني وكنت تصغي إليّ بانتباهٍ، فسأصبح تجسيدًا لرغبتك، وهذه لعبة مسليّة أيضًا. عندئذٍ فلسفة كاملة ستنتج عن ذلك، ويجب استعادة هذا السرد حتى بدايته.

وفي آخر المطاف، الفلسفة هي أيضًا لعبة فكريّة، وتتموضع عند حدود لا تستطيع الرياضيّات ولا العلوم الدقيقة بلوغها، وتنتج بنًى وأطرًا مرهفة شتّى. وعندما تكتمل البنى، تتوقّف اللعبة.

الفارق بين الرواية والفلسفة هو أنّ الرؤية ثمرة الإحساس وهي تُدرج مجموعة الإشارات المبنيّة عرضًا في كشكول الرّغبات. وفي الوقت الذي ينحلّ فيه هذا النظام ويتحوّل إلى خلايا، تظهر الحياة. نرى عندئذٍ تكوّنها وانبثاقها، وهذا يفوق الألعاب الذهنيّة أهميّة، لكنّ الرواية كالحياة، لا تستجيب لأيّة غاية.

الفصل الثالث والخمسون

إنّها الظهيرة. الحرارة تتعدّى الأربعين درجة. أذهب إلى حاضرة جيانغلينغ القديمة على متن درّاجة استأجرتها. الزفت المرقّع حديثًا على الطريق يذوب تحت أشعّة شمس الصيف المحرقة. يتغلغل هواء حارق في باب مدينة جينغتشو القديمة المشيّدة في عهد الدويلات المتحاربة. امرأة عجوز ممدّدة فوق كنبة الخيزران وراء بسطة للشاي. ومن دون أيّ حرج، تفتح قميصها الكتّان الذي بلي من فرط ما غسلته، كاشفة عن ثديين متقلّصين مثل صرّتي جلد فارغتين. تظلّ مرتاحة، مغمضة العينين، وتدعني أشرب زجاجة من المياه الغازيّة التي تغلي هي أيضًا، دون أن تتأكّد من أنّ المال الذي نقدتها إيّاه كافٍ. ثمّة كلب يلهث مضطجعًا في ظلّ الباب، واللعاب يسيل من فمه ولسانه متدلٍّ.

خارج المدينة، تنبسط قطع أراضٍ صغيرة مزروعة بالأرزّ الذي لم يُحصد بعد، سنابله ناضجة ذات اصفرار باهر. وفي حقول الأرزّ المحصودة، يلتمع الأخضر البرّاق لنبتات الأرزّ المتأخّر التي أُعيد غرسها. لا أحد على الطريق، لا أحد في حقول الأرزّ. الناس يحتمون ببيوتهم من الحرّ، ولا تمرّ أيّة سيّارة تقريبًا.

أسير وسط الطريق، لأنّ النفحات الحارّة تتصاعد من الجانبين وكأنّها ألسنة نار. العرق يغمر ظهري فأنزع قميصي جهرةً وأغطّي به رأسي لأحتمي من الشمس. عندما تزداد سرعة الدرّاجة، تخفق في الريح ويعصف هواء رطب في أذني.

في الحقول تفتّحت أزهار القطن الهائلة بألوانها الحمراء والصفراء. السمسم معلّق على حبال طويلة من الأزهار البيضاء. هدوء غريب يرين تحت هذه الشمس المبهرة. والغريب أيضًا أنّه لا يُسمع صرير جنادب ولا نقيق ضفادع.

لفرط التدويس، تبلّل سروالي القصير والتصق بساقيّ. أفضّل أن أنزعه لأقود بارتياح أكبر. لا أستطيع أن أتمالك نفسي عن التفكير في الفلاّحين الذين صادفتهم في شبابي يحرّكون، وهم عراة، مدوس النواعير بأكبر قدر ممكن من الطبيعيّة، وأيديهم التي سمّرتها الشمس مستندة إلى مقبض الآلة. وعندما كانت امرأة تمرّ على جوانب حقل الأرزّ، كانوا ينشدون أغاني جريئة، لكن من دون نيّة سيّئة، فتضحك المرأة وهي تزمّ شفتيها، ويغفل المغنّون عن تعبهم قليلاً. لا شكّ أنّ هذا النوع من الأغاني نشأ على هذا النحو. هذه المنطقة هي الموطن الأصلي للأغاني الموزونة التي ندعوها: «صنوج وطبول لانتزاع العشب»، لكن حاليًّا، لم تعد النواعير مستعملة، والأراضي ترويها مضخّات كهربائيّة. فولّى هذا المشهد إلى غير رجعة.

أعرف أنّه لم تبقَ أيّة آثار في موقع عاصمة بلاد تشو، وأعرف أنّي ذاهب إليها عبثًا. إلاّ أنّ عشرين كيلومترًا فقط تفصلني عنها ذهابًا وإيابًا،

وربّما سأندم لاحقًا إذا لم أذهب إلى هناك لأتأمّلها قبل مغادرتي جيانغلينغ. أشوّش على القيلولة التي يستغرق فيها زوجان شابّان يحرسان الموقع الأثري. نالا إجازتهما منذ عام تقريبًا وعُيّنا هنا بصفتهما مشرفين على حماية الآثار الهاجعة عميقًا تحت الأرض، والتي لا يُعرف متى سيتمّ الكشف عنها. وبما أنّهما متزوّجان حديثًا فإنّهما يؤثران الوحدة. استقبلاني بحفاوة بالغة. صبّت لي الزوجة طاستين متتاليتين من الشاي البارد المرّ ممزوجًا بأعشاب طبّيّة تساعد الإنسان على مواجهة شدّة الحرّ.

اقتادني الزوج الجديد، وهو شابّ في مقتبل العمر، إلى حقل تنتصب فيه تلعات من التراب. دلّني على حقول أرزّ بدأ فيها موسم الحصاد، وعلى مكان أعلى إلى جانب إحدى التلال، زُرع القطن والسمسم.

قال لي الشابّ:

ـ بعد أن قضت بلاد تشين على بلاد تشو، هجر السكّان حاضرة جينان. هنا لم يُعثر على أيّة آثار لاحقة لعهد الدويلات المتحاربة. وبالمقابل عُثر على ضريح داخل المدينة، يبدو أنّ المدينة ترقى إلى الحقبة المتوسّطة لعهد الدويلات المتحاربة. في الوثائق التاريخيّة ذُكر أنّ العاصمة كانت نُقلت أصلاً إلى ينغ، أي إلى جينان، قبل حكم الملك هواي تشو. وإذا احتسبنا التاريخ ابتداءً من عهده ، فإنّ المدينة اتُّخذت عاصمة منذ أكثر من أربعمائة سنة. بالطبع، لدى بعض المؤرّخين وجهة نظر مختلفة. يعتقدون أن ينغ لم توجد هنا. لكن استنادًا إلى المعطيات الأثريّة، نستنتج أنّ الفلاّحين اكتشفوا، أثناء أعمال الحراثة، أجزاءً من

الخزفيّات والبرونزيّات تعود إلى عهد الدويلات المتحاربة. وإذا جرت أعمال تنقيب فستظهر دون شك اكتشافات مهمّة.

ثم أضاف وهو يشير إلى نقطة في البعيد:

ـ الجنرال بو تشي انقضّ على ينغ، ومياه النهر حُوّل مجراها وأُغرقت المدينة. كانت مشرّعة في الأصل من ثلاث جهات على المياه: كان النهر تشو يسيل من الباب الجنوبي إلى الباب الشمالي مرورًا بالشرقي، وفي هذه الجهة بالذات، كانت توجد الحثوة حيث نقف وبحيرة متّصلة بنهر يانغتسي. آنذاك، كان النهر يمرّ بالقرب من جينغتشو، لكنّه يجري على مسافة كيلومترين في الأسفل. في جبل جي المقابل، هناك مقابر أرستقراطيّي سلالة تشو، وفي الغرب، في جبال بالينغ، هناك مقابر الملوك التي نُهبت كلّها.

في البعيد، ترتفع بضع تلال متوسّطة الارتفاع. حتى لو كانت توصف في الوثائق بالجبال، فهذا لا يمنع من أنّ الوصول إليها سهل.

قال وهو يشير بإصبعه إلى أحد حقول الأرزّ:

ـ وهنا كان ينتصب البرج الذي يشرف على باب المدينة. بعد طوفانات النهر، تكدّس الوحل على سماكة عشرة أمتار.

وهذا صحيح، ما خلا بعض المرتفعات الترابيّة هنا وهناك بين حقول الأرزّ، وحده هذا الارتفاع يبدو ظاهرًا للعيان.

ـ في الجنوب الشرقي كان يقوم القصر، ومنطقة المحترفات كانت في الشمال، وفي الجنوب الغربي، عُثر أيضًا على آثار مَسْبكة. في

الجنوب منبسط المياه الجوفية عميق جدًّا ولا جدوى من السعي إلى المحافظة على الآثار.

أهزّ برأسي وأنا أتابع شروحاته، وأتخيّل تقريبًا حدود المدينة.

لو لم نكن في عزّ شمس الظهيرة، ولو خرجت الأشباح تحت جنح الظلام، لكانت المنطقة شهدت حركة ناشطة.

عندما بلغنا أسفل التلّة، أبلغني أنّنا خرجنا للتوّ من العاصمة. البحيرة التي كانت في الماضي أمست الآن مستنقعًا صغيرًا مغمورًا بأوراق اللوتس وقد تفتّحت وسطها أزهار ورديّة غضّة. عندما طُرد من البلاط، لا بدَّ أنّ الموظّف الكبير تشو يوان مرَّ عند أسفل هذه التلّة، ولا شكّ أنّه قطف من هذه الأزهار ليضعها في حزامه. قبل أن تتحوّل البحيرة إلى المستنقع الصغير، كانت كلّ الأعشاب العطرة تنبت على ضفافها. ولا بدَّ أن تشو يوان ضفّر إكليلاً منها. وفي كلّ مكان، على ضفّة البحيرات والمستنقعات، كانت تتصاعد الأغاني التي لا زالت تُغنّى حتى اليوم. لو أنّه لم يُطرد من القصر لما استطاع تشو يوان، ربّما، أن يصبح شاعرًا كبيرًا.

ولاحقًا، لو أنّ تانغ شوان تزونغ لم يُطرد لي باي من البلاط لما كان تسنّى له قطّ أن يصبح شاعرًا عبقريًّا، ولما وُجدت الخرافة التي شاءت أن يموت سكران وهو يحاول أن يحتجز القمر من قاربه العائم فوق الماء. يُقال إنّ المكان الذي غرق فيه موجود في كايشيجي، على المجرى السفليّ لنهر يانغتسي. اليوم، انحسرت مياه النهر بعيدًا عن هذا المكان فأصبح رصيفًا رمليًّا ملوّثًا جدًّا. وحتى مدينة جينغتشو القديمة

موجودة حاليًّا تحت مجرى النهر. يحميها سدّ من عشرة أمتار، لولاه لكانت منذ وقت طويل قصرًا تحت البحار تسكنه التنانين.

لاحقًا، عدت إلى خُنان واجتزت نهر ميليو حيث رمى تشو يوان بنفسه لكي يضع حدًّا لحياته، لكنّي لم أذهب للبحث عن آثاره على ضفّة بحيرة دونغتينغ، لأنّ علماء بيئة كثرًا أعلموني أنّه لم يتبقّ اليوم من هذا القطاع المائي إلاّ ثلث الثمانمئة «لي» المشار إليها في الخرائط. وتنبّأوا، لسوء الحظّ، بأنّ سرعة جفاف الأراضي والترسُّب ستؤدّي في غضون عشرين سنة إلى اختفاء أكبر بحيرة ماء عذبة في الصين.

في لينغلينغ، هذه القرية حيث اصطحبتني أمّي طفلاً، هربًا من الطائرات اليابانيّة، لا أعرف ما إذا كانت الكلاب الصغيرة لا تزال تغرق في النهر. لا أزال أرى، حتى اليوم، هذا الكلب الميت المبلّل الوبر مرميًّا على رمل الضفّة. وأمّي الميتة غرقًا أيضًا. آنذاك، أُرغمَتْ على التطوّع في حملة إعادة التأهيل الإيديولوجي في الريف. ذات صباح، وبعد أن انتهى دورها في الحراسة، ذهبت إلى ضفّة النهر لتغتسل، وهناك غرقت. لم تكن قد بلغت سنّ الأربعين بعد. اطّلعتُ على مفكّرة مذكّراتها التي كتبتها في سنّ السابعة عشرة. هي ورفاقها، الذين كانوا يشاركون في حركة الخلاص الوطني، وقد دوّنوا فيها قصائد مفعمة بنشاط الشباب. وبالطبع، هذه القصائد لم تكن بجمال قصائد تشو يوان.

أخوها الأوسط غرق هو أيضًا. لا أعرف ما إذا كان الأمر متعلّقًا ببطولة صبيانيّة أم بحماسة وطنيّة، لكن، يومَ قبوله في كلّيّة الطيران وفي ذورة حماسه، دعا فريقًا من أصدقائه للسباحة في نهر غان، غطس في

التيّار العنيف حين رمى بنفسه من فوق جسر عائم. كان يغوص بعيدًا في النهر، فيما كان رفاقه منهمكين بتقاسم قطع النقود التي وجدوها في جيوب بنطاله. وعندما أدركوا أنّ سوءًا قد حصل، تفرّقوا على الفور. سعى إلى حتفه وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره. وبكت عليه جدّتي حتى جفّت دموع عينيها.

أخوه الأكبر، خالي، لم يكن بهذه الوطنيّة بل كان بالأحرى متأنّقًا، لكنّه لم يكن يتردّد إلى معارك الديكة أو سباقات الكلاب. كان يفضّل ما هو «مودرن» ـ آنذاك، كلّ ما كان يأتي من الخارج كان «مودرن». كان يرتدي بذلات على الطريقة الغربيّة مع ربطة عنق، وكلّها «مودرن» جدًّا، حتى لو لم تكن السراويل الواسعة الأرجل قد درجت بعد. كانت هوايته التقاط الصور الفوتوغرافيّة، وكانت هذه أيضًا طريقة جدّ «مودرن» للتسلية وتمضية الوقت. لم يكن مراسلاً، ومع ذلك لم يكن يتوقّف عن التقاط الصور التي يظهّرها بنفسه وتحديدًا صور الجنادب. إحدى صوره عن معركة الجنادب لا زالت محفوظة حتى الآن وبطريقة عجيبة؛ يبدو أنّهم نسوا إحراقها. هو أيضًا توفّي في مقتبل العمر بسبب التيفوئيد. وحسب ما أخبرتني أمّي، كان على وشك أن يُشفى عندما التهم بشراهة قصعة من الأرزّ المقلي بالبيض فقضت عليه. كان يريد أن يكون «مودرن» لكنّه لم يفهم شيئًا من الطبّ العصريّ.

ماتت جدّتي لأمّي بعد والدتي. جميع أبنائها تُوفّوا باكرًا، لكنّها كانت محظوظة لأنّها عاشت من بعدهم، وأنهت أيّامها في مأوى للعجزة. مع أنّني لا أتحدّر من سلالة تشو، إلاّ أنّني ذهبت، رغم الحرّ الشديد،

للاستجمام في حاضرتهم القديمة. وكانت لديّ أسبابي أيضًا للذهاب والبحث عن الأمكنة التي عاشت فيها جدّتي. جدّتي التي أخذت بيدي واصطحبتني إلى السوق الشعبيّة للمعبد لأشتري بلبلاً. عرفت بخبر وفاتها من عمّة لي ماتت باكرًا. لماذا تقريبًا كلّ أقربائي تُوفّوا؟ أتساءل هل أنا الذي أشيخ أم أنّ العالم أيضًا قد بلغ مرحلة الشيخوخة؟

الآن، أذكر أنّ جدّتي كانت تبدو وكأنّها تنتمي إلى عالم آخر. كانت تؤمن بقوى الغيب وعلاوة على ذلك، تخشى الجحيم. كانت لديها أمنية واحدة: أن تواظب على أعمال الخير طمعًا بالثواب بعد الموت. ترمّلت وهي في مقتبل العمر وقد ورثت أملاكًا عن جدّي، لكنّها كانت محاطة دومًا بعصابة لصوص يتظاهرون بأنّهم آلهة أو شياطين. كانوا يحومون حولها كالذباب وتواطؤوا جميعًا لكي يدفعوها إلى إهدار ثروتها. أقنعوها بأن ترمي مالها ليلاً في البئر خوفًا عليه من السرقة وكانوا قد جعلوا في البئر شبكة قضبان حديديّة والتقطوا القطع النقديّة التي رمتها، وأقرّوا بفعلتهم هذه بعد أن شربوا كثيرًا من الخمر. وأخيرًا ، باعت كلّ أملاكها ولم يبقَ معها إلاّ سندات الملكيّة العقاريّة للأراضي التي رهنتها منذ زمن طويل، رحلت لتعيش مع ابنها. وفي ما بعد، عندما سمعتهم أمّي يتحدّثون عن الإصلاح الزراعيّ، استعجلت لكي تجعلها تفرغ جميع صناديقها وهناك عثرت على ورقة صفراء مدعوكة فسارعت إلى إحراقها في الموقد.

كانت جدّتي ذات مزاج سيّئ جدًّا. عندما تتحدّث، يبدو عليها دومًا أنّها تتشاجر مع الناس ولم تكن على تفاهم تامّ مع أمّي. كانت تقول غالبًا

إنّها عندما ستقرّر الرجوع إلى مسقط رأسها فستنتظر أن أكون، أنا حفيدها، قد كبرت وجاء ترتيبي الأوّل في الامتحان، وعندئذٍ آتي لأصطحبها وأنا جالس خلف مقود سيّارة صغيرة وأهتمّ بها. لكن هل كان بإمكانها أن تتوقّع أنّ حفيدها لم يكن من صنف مَن يصير متنفّذًا وموظّفًا كبيرًا، وأنّه لن يتسنّى له حتى الجلوس في أحد مكاتب العاصمة، وأنه، لاحقًا، سيُرسل إلى الريف لكي يحرث الأرض ويخضع لإعادة تأهيل؟ في ذلك الوقت بالذات، تُوفّيت في مأوى للعجزة. وإبّان السنوات المضطربة، لم تكن تصلنا أيّ من أخبارها، لذا ذهب أخي الأوسط للبحث عنها، بحجّة «تعميم الثورة»، لكي يفيد من مجّانيّة المواصلات. استعلم عنها لدى العديد من المآوي ولم يستطع العثور عليها. وفي النهاية سألوه: هل تبحث عن مأوى العجزة أم عن منزل الراحة؟ فأجابهم: «وما الفرق؟». فأجابوه بجدّيّة كبيرة: «العجزة الذين يُلحقون بمنازل الراحة هم أناس ليست لديهم نشاطات سياسيّة وماضيهم شفّاف تمامًا. أمّا الذين نضعهم في مآوي العجزة فهُم العجائز الذين لديهم مشاكل أو الذين يُشتبه بماضيهم». وعندئذٍ اتّصل هاتفيًّا بأحد مآوي العجزة فسألوه: «ما هي صلة القرابة التي تجمعك بها؟ ولماذا تستعلم عنها»؟ في ذلك الوقت، كان خارجًا من المدرسة ولا يجد عملاً، خشي أن يصادروا بطاقة هويّته فسارع إلى قطع الاتّصال. وخلال السنوات التي تلت استُخدمت المدارس للتدريب العسكري، وتمّ الإشراف على الإدارات والمعامل من قبل الجيش: تعلّم الناس أن يتّخذوا جانب الحيطة والحذر. بعد أن خضعت لدورة التأهيل، عادت عمّتي إلى المدينة، وكتبت لي عندئذٍ لتخبرني أنّ جدتي، وفقًا لما سمعته، تُوفّيت منذ سنتين.

وأخيرًا، استعلمت لأعرف عن حقيقة وجود هذا النوع من المآوي. على بعد عشرة كيلومترات في الضواحي، وفي مكان يُدعى «قرية أزهار شجر الدراق»، حيث وصلت بعد أكثر من ساعة، سيرًا على الدرّاجة تحت الشمس الحارقة، عثرت أخيرًا على مبنى تشير لافتته إلى أنّه مأوى للعجزة، بالقرب من معمل للأخشاب حيث لم يكن هناك أيّة شجرة درّاق. وفي داخله ارتفعت بعض المباني البسيطة من طابق واحد، لكنّي لم أرَ أيّ عجوز. ترى هل لاذوا إلى غرفهم بسبب الحرّ؟

مررت أمام مكتب بابه مفتوح على مصراعيه، حيث استند موظّف مسؤول، يرتدي قميصًا قطنيًّا، إلى كرسي من أغصان نخيل الهند. واضعًا قدميه على الطاولة، كان منكبًّا على قراءة آخر المستجدّات. سألته هل كان هذا المبنى مأوى عجزة بالفعل؟ وضع صحيفته جانبًا وقال:

ـ التغيير طال هذا المبنى أيضًا. لم يعد هناك مآوي عجزة، ندعوها حاليًّا مؤسّسات العناية بالعجزة.

لم أساله عمّا إذا كان لا يزال هناك «منازل راحة». رجوته فقط أن يلقي نظرة على الملفّات ليرى ما إذا كان اسم جدّتي المتوفّاة مدرجًا فيها، ومن دون أن يتكلّف في تصرّفه أو يسألني عن هويّتي، أخرج من أحد الأدراج سجلّ الوفيّات وتصفّحه سنة بسنة.

وأخيرًا توقّف فجأة عند إحدى الصفحات وهو يسألني عن اسم المتوفّاة.

ـ هل قلت إنّها امرأة.

ـ نعم.

جذب السجلّ ناحيتي، لكي أستطيع أن أتعرّف بنفسي إلى الاسم. أجل، كان هذا اسم جدّتي، وعمرها مطابق للسنّ التي تُوفّيت فيها إلى حدّ بعيد.

تنهّد قائلاً:

ـ توفّيت منذ أكثر من عشر سنوات.

ـ نعم. ثم أضفت: هل تعمل هنا منذ وقت طويل؟

أشار برأسه إيجابًا، سألته عندئذٍ هل كان يتذكّر المتوفّاة.

ـ دعني أفكّر. أسند رأسه إلى مسند الكرسي.

ـ هل هي سيّدة مسنّة قصيرة القامة ونحيلة؟

قلت نعم، ومع ذلك فكّرت من جديد بصور قديمة للعائلة تظهر بالأحرى سيّدة ممتلئة الجسم. لا شكّ أنّها كانت صورًا قديمة لأنّني في هذه السنّ كنت لا زلت غلامًا ألعب بالبلبل. وفي ما بعد لم تؤخذ لها أيّة صورة. كان يمكن أن تتغيّر هيئتها الخارجية، بعد عدّة عقود من ذلك التاريخ، وحده الهيكل لا يمكنه أن يتبدّل. لم تكن أمّي طويلة القامة وبالتالي لا يفترض أن تكون هي أيضًا طويلة القامة.

ـ كانت تتأفّف طيلة الوقت، أليس كذلك؟

نادرات هنّ النساء المسنّات اللواتي لا يتأفّفن ، لكنّ الأهمّ في الأمر أنّ الاسم كان صحيحًا.

ـ هل قالت لك إنّ لديها حفيدين؟

ـ وهل أنت أحدهما؟

ـ نعم.

ـ يبدو لي أنّها حدّثتني عن ذلك، قال لي وهو يهزّ رأسه.

ـ هل كانت تتوقّع أن يأتي أحد لاصطحابها يومًا؟

ـ نعم ، هذا صحيح.

ـ لكنّي في ذلك الوقت، كنت في القرية أنا أيضًا...

ـ خلال الثورة الثقافيّة... أخذ يشرح بالنيابة عنّي، ثم أضاف:

ـ أوه، ماتت ميتة طبيعيّة.

لم أسأله ماذا يقصد بميتة غير طبيعيّة. سألته فقط عن المكان الذي ترقد فيه.

ـ أُحرق جسدها. لم تكن أجساد العجائز فقط تُحرق وإنّما أجسادنا أيضًا.

ـ أعداد الموتى تتزايد كثيرًا في المدينة، لا نجد مكانًا لدفنهم.

أكملت الجملة بدلاً منه ، ثم أردفت:

ـ هل احتفظتم برمادها؟

ـ كلاّ! لأنّ رماد العجزة الذين يموتون ولا عائلة لهم نتخلّص منه.

ـ هل هناك مقبرة جماعيّة؟

ــ همم... بدا متردّدًا حائرًا في إيجاد جواب مناسب.

لكنّ الجدير بالملاءمة هو أنا حفيدها الذي لم يظهر أيّ برّ بنويّ، أمّا هو فلا لوم عليه، ولا يسعني إلاّ شكره.

خرجت من المأوى وركبت درّاجتي وأنا أفكّر أنّ المقبرة الجماعيّة ليس لها أيّة قيمة أثريّة. لكنّي أستطيع دومًا الاعتبار أنّني كرّمت ذكرى جدّتي المتوفّاة، تلك التي اشترت لي بلبلاً.

الفصل الرابع والخمسون

تسعى دومًا إلى استحضار طفولتك، تشعر دائمًا بالرّغبة في استعادة البيت والباحة والشارع، كلّ الأمكنة التي عشت فيها وأودعت فيها ذكرياتك.

تذكر أنّك سكنت في الطابق الأوّل من مبنى صغير معزول، وأمامه أرض مفروشة بالأنقاض. تجهل إذا كانت بقايا حريق أم قصف. بين الجدران المتهدّمة نبتت ذُرة بيضاء، وأحيانًا تحت قطع القرميد والآجرّ المحطّمة كانت تتغلغل الجداجد. أحدها كان ماكرًا بشكل خاصّ واسمه «الأسود» وكان يرسل أصواتًا حادّة عندما يخفق بأجنحته السوداء اللامعة. جدجد آخر، يدعى «الأصفر»، كان كبير الحجم، مشاجرًا، وكانت أجنحته متفرّقة تمامًا. أمضيْتَ ساعات رائعة في هذا الميدان المليء بالركام.

تذكر أنّك سكنت أيضًا في آخر باحة طويلة، عند مدخلها باب كبير سميك أسود. كان عليك أن تقف على رؤوس أصابعك لكي تصل إلى الحلقة الحديديّة المستعملة كمطرقة باب. عندما يُفتح الباب الثقيل، كان

عليك أن تلتفّ حول جدار فاصل مؤطّر بزوج من القوارن[١] المنحوتة من الحجر، وقرناهما ملتمعان لفرط ما يداعبهما الأطفال لدى مرورهم. خلف الجدار الفاصل، كانت هناك باحة داخليّة رطبة في إحدى زواياها نبت الخزّ. هناك كانوا يتخلّصون من المياه المبتذلة، وكان المكان زلقًا. آنذاك، ربّيت أرنبين أمهقين. أحدهما عضّه ابن عرس في قفصه الحديدي. والثاني اختفى بعد فترة وجيزة. وعثرت عليه بعد بضعة أيّام وأنت تلعب في الباحة الخلفيّة، غارقًا في سطل البول ووبره متّسخ، تفحّصته طويلاً، وبدءًا من ذاك اليوم، تذكر أنّك لم تعد إلى اللعب ثانية في هذه الباحة.

تذكر أيضًا أنّك سكنت باحة، بابها على شكل قمر تنبت فيها أزهار الأقحوان الصفراء الذهبيّة، وأزهار عرف الديك القرمزيّة، ربّما، بفضل هذه الأزهار، كانت أشعّة الشمس بهذا السطوع في الباحة. وفي آخرها باب صغير يطلّ على درج حجري في أسفله تمتدّ بحيرة مترامية. وحين تحلّ ليلة منتصف شهر الخريف، كان الكبار يفتحون هذا الباب ويضعون على طاولة حلويات قمريّة الشكل، وبطّيخًا، وفواكه. كانوا يتأمّلون القمر المنعكس على صفحة البحيرة وهم يقضمون بذور البطيخ ويشربون الشاي. وفي البعيد، كانت المياه القاتمة تتّصل بالسماء التي تلتمع فيها الكواكب الكاملة الاستدارة. وكان قمر آخر مستطيل يلتمع في الماء مترامي الأطراف. ذات مساء جئت هنا وحدك وسحبت مرتاج الباب، وعلى الفور ذُهلت بمياه البحيرة القاتمة الساكنة. كان هذا الجمال مرعبًا،

---

(١) م. قارن: القارن أو اللِيكَرنة حيوان أسطوري له جسم حصان بقرن واحد.

ثقيل الوطأة بالنسبة لطفل صغير، فلذت بالفرار. وبعدئذٍ، عندما كنت تمرّ بالقرب من هذا الباب، كنت تحاذر كلّ الحذر لئلاّ تلمس مرتاج الباب.

تذكر أيضًا أنّك سكنت منزلاً آخر مُحاطًا بحديقة أزهار، لكنّك تذكر فقط أنّك كنت تستطيع اللعب بالكريّات في الغرفة الموجودة في الطابق الأرضي، المفروشة بالبلاطات المربّعة المزيّنة. حظّرت عليك أمّك اللعب في الحديقة. كنت مريضًا في ذلك الوقت وكنت تمضي معظم وقتك ممدّدًا في الفراش. كنت تكتفي فقط بأن تدحرج الكريّات الملوّنة من كلّ الألوان في غرفتك. وعندما تتغيّب أمّك عن المنزل، تقف على سريرك لتنظر، وأنت تتشبّث بالنافذة، إلى بيارق السفن في الخارج الملوّنة الخفّاقة في الريح على رصيف المرفأ.

عدت إلى هذه الأمكنة القديمة، لكنّك لم تجد شيئًا. الساحة المفروشة بالأنقاض، المبنى الصغير، الباب الأسود الكبير الثقيل بحلقته الحديديّة، الشارع الصغير الهادئ الذي يمرّ أمامه، كلّ شيء اختفى بما فيه الباحة وجدارها الفاصل، وفي مكانها ربّما فتحت طريق معبّدة تسير عليها شاحنات، وهي تطلق أبواقًا حادّة، محمّلة بالبضائع، مطيّرة من حولها الغبار وأغلفة قرون البوظة، وحافلات للمسافات الطويلة، نوافذها مخلّعة وسقوفها مغطّاة بحقائب ورزم مليئة بكلّ أنواع المنتوجات المحلِّيَّة والألبسة الجاهزة والسلع الرائجة التي تصلح لكلّ أنواع التجارة. الأرض مكسوّة ببزر البطّيخ وقشور قصب السكّر المرميّة من النوافذ. لم يعد هنالك خزّ ولا باب على شكل قمر، ولا أقحوان أصفر ذهبي، ولا أزهار عرف ديك قرمزيّة، ولا انعكاسات متموّجة على مياه البحيرة، لم يعد

هناك وحشة وأعماق مخيفة، هناك فقط صفّ من المباني البدائيّة من الآجرّ الأحمر على طول الممرّ الضيّق، وأمام كلّ باب موقد على الفحم. عند ضفّة النهر، توقّف خفق البيارق فوق المراكب. ليس هنالك إلاّ عنابر، وعنابر، وعنابر، ومستودع، وعنابر، وأكياس إسمنت سميكة الأوراق، وأكياس سماد من البلاستيك السميك، وصيحات أو أغانٍ صاخبة تردّدها مكبّرات الصوت المتّصلة بأجهزة الراديو.

وهكذا تسكّعْتَ من مدينة إلى أخرى، من مركز مقاطعة إلى مركز كانتون، من عاصمة إقليم إلى أخرى، ومن مركز كانتون آخر إلى مركز مقاطعة آخر، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية، وذات يوم، صدفةً، اكتشفت فجأة منزلاً قديمًا بابه مشرّع على مصراعيه في شارع صغير تناساه صراحة التخطيط المدني، إمّا لأنّ التخطيط المدني لم يشمله أو لأنّ التصميم لا ينوي اتّخاذه على عاتقه، أو لأنّ إدراجه مستحيل في التصميم. توقّفت عند عتبته وتأمّلت الباحة الداخليّة حيث كان يُجفّف الغسيل على عيدان الخيزران. شعرت بأنّه يكفي أن تدخل إليه حتى تستعيد طفولتك وتعيد إحياء ذكرياتك الضبابيّة.

بتّ على يقين لا يتزعزع أنّ الأمكنة التي مررت بها تسمح لك أيضًا بأن تقتفي آثار طفولتك: المستنقع المغطّى بطحالب الماء، النزُل في الضواحي الصغيرة، نوافذ المبنى المطلّة على الشارع، الجسر ذو الأقواس الحجريّة والمراكب المسطحّة العابرة من تحته، الأدراج التي تقود من أبواب المنازل الخلفيّة إلى ضفّة البحيرة، البئر المهجورة التي نضبت مياهها.. كلّ شيء يوقظ ذكريات طفولتك ويخلق لديك حنينًا لا

يُقهر، حتى لو كان الأمر يتعلّق بمجرّد مكان سكنت فيه. هذه المنازل القديمة، بقراميدها الخضراء عند شاطئ البحر، مثلاً، وهذه الطاولات الصغيرة المربّعة الموضوعة أمام المنازل لشرب الشاي وتنشّق النسيم العليل، تذكي فيك الحنين إلى مسقط الرأس. وأيضًا، على سبيل المثال، قبر شاعر سلالة تانغ هذا، لو غويمنغ، ربّما تلّة صغيرة تحوي أغراضه الشخصيّة، موجودة في إحدى الباحات خلف مدرسة قديمة يكسوها اللبلاب والقنّب البرّي، لم تكن قد سمعت من قبل. في الجوار، تنبسط حقول القمح وتنتصب شجرة قديمة، كانت الشمس الجانبيّة بعد الظهر تزيد من كآبتك. ويأتي في المرتبة الثانية من الأهمِّيّة الحديث عن هذه الباحات المزدانة بالأبراج في مناطق يي المغلقة والمقفرة والمنعزلة، التي لم ترها ولا حتى في أحلامك، عن هذه المساكن الخشبيّة الموتّدة في قرى **المياو** التي تُلمح من بعيد عند سفح الجبل، وتذكّرك أيضًا بشيء ما. لا يسعك إلاّ أن تتساءل عمّا إذا كنت قد عشت حياة سابقة لا زلت تحتفظ منها ببعض بقايا ذكريات، هذا إذا لم تكن عقبى لحياة عتيدة، هذه الذكريات هي ربّما كالكحول، تُستقطر أيضًا وتسكرك برائحتها.

فما هي إذًا ذكريات الطفولة؟ كيف يمكن إثبات وجودها؟ إذا كان من الأفضل الاحتفاظ بها لأنفسنا فما جدوى إعادة التأكّد من بقائها حاضرة في الذهن. تتحقّق فجأة أنّ ذكريات الصبا التي تسعى لاسترجاعها لم تدر أحداثها بالضرورة في مكان محدّد. أليس الأمر مماثلاً لما ندعوه مسقط الرأس؟ سحائب الدخان الزرقاء التي تطفو فوق سطوح القرميد في الضيع الصغيرة، فرقعة النار التي تغنّي في أفران الحطب، الحشرات الصغيرة التي تكاد تكون بلّوريّة، أو الصفراء، ذات

القوائم الطويلة الرقيقة، المواقد في بيوت القرويّين والخلايا الخشبيّة المتدلّية بين سقوف الأبنية، المطيّنة بالتراب، تُثير فيك الحنين إلى الوطن، هذا هو مسقط الرأس الذي تراه في حلمك.

مع أنّك تعيش في المدينة، ومع أنّك كبرت في المدينة وأمضيت تقريبًا كلّ حياتك فيها، لم يبلغ بك اليقين إلى اعتبار المدن موطنك الأصلي. ربّما لأنّها كبيرة جدًّا. ربَّما باستطاعة زاوية أو غرفة أن تُثيرا فيك للحظة ذكرى ما. فقط عبر هذه الذكريات تستطيع أن تحمي نفسك من الآلام والحسرات. وفي النهاية، في هذا العالم الهائل، لست إلاّ قطرة ماء لا شأن لها في خضمّ هذا الوجود.

عليك أن تعرف أنّ ما تبحث عنه على هذه البسيطة بعيد المنال، وأنّ غليلك منها لن يرتوي. كلّ ما تستطيع الحصول عليه في الواقع هو ذكريات مبهمة، غير محدودة، كأحلامك، ذكريات تعصي على الكلام، وعندما تريد أن تستعيدها لا يتبقّى منها إلاّ جمل منسّقة، أشبه بشذرات مرّت بغربال بنى الكلام.

الفصل الخامس والخمسون

أصل الى مدينة صاخبة، مغمورة بالنور. وها هي من جديد الشوارع المكتظّة بالناس، السير المتواصل للسيّارات، وميض الأنوار الثلاثيّة الألوان، أعداد الدرّاجات الكثيفة المنسابة مثل شلاّل حُطّمت سدوده، وها هي أيضًا «التي ــ شيرتات» واللافتات المضاءة بالنيون والإعلانات التي تروّج للأزياء النسائيّة الجميلة.

كنت أريد البحث عن فندق لائق قرب المحطّة، للاستحمام بالمياه الدافئة وتناول وجبة طعام لذيذة وأخذ قسط وافر من النوم، لأرتاح من عناء أكثر من عشرة أيّام من التجوال. لكن بعد اجتياز عدّة شوارع، توجّب عليّ أن أرضخ للأمر الواقع: جميع الغرف الفرديّة كانت مشغولة، لكأنّ الناس جميعًا أثروا بعدما عقدوا صفقات تجاريّة رابحة. وبما أنّني قرّرت أن أنفق بعض المال هذا المساء كي لا أعود للنوم من جديد، في مضجع مشبع برائحة العرق أو في سرير إضافي في رواق أُطرد منه حين يطلع النهار، أفضّل متابعة السهر في قاعة الفندق والانتظار حتى يُخلي المسافرون في القطار الليلي غرفهم. وبينما كنت مسترسلاً في ضجري، فكّرت فجأة أنّني أملك في حوزتي الرقم

الشخصي لصديق أحد أصدقائي القدامى في بكين، قال لي بألاّ أفوّت فرصة لقائه في حال مررت في هذه المدينة. أطلب الرقم أيًّا كانت النتيجة. أحدهم يرفع السمّاعة. وبنبرة بعيدة كلّ البعد عن اللياقة يطلب منّي الانتظار لبعض الوقت. عبر السمّاعة تصلني ضوضاء غريبة فأتريّث وقتًا طويلاً. لا بدّ أنّهم أقفلوا السمّاعة. أخاف دومًا من الاتّصال، بداية، ليس لديّ هاتف شخصيّ، ومن ثم أعرف أنّ أصحاب الشأن الرفيع، وإن كانوا على مقربة من الهاتف، لا يتورّعون عن إبلاغ المتّصلين بهم عبر شخص آخر أنّهم ليسوا هنا وإقفال السمّاعة صراحة، عندما لا يريدون التحدّث إلى مجهولين. إنّ أكثريّة أصدقائي لا يملكون هاتفًا شخصيًّا، لكنّ صديق هذا الصديق هو ربّما من الموظّفين الكبار. ليست لديّ أيّة أحكام مسبقة حيال الكوادر، لست كارهًا للبشر إلى هذا الحدّ. لكنّي أجد أنّ الهاتف أداة لا تسمح بإيصال المشاعر، وأنّه لا يجدر بنا استعماله إلاّ في حال الضرورة القصوى. وسمّاعة الهاتف تُصدر خشيشًا باستمرار. لكن، إذا أقفلت السمّاعة فيجب عليَّ الانتظار في قاعة هذا الفندق. لذا من الأفضل مواصلة الاستماع إلى الخشيش فهذا يسلّيني على الأقلّ.

وأخيرًا، يجيبني صوت فيه من الودّ القليل.. طلب منّي تكرار اسمي وسألني على الفور بصوت مرتفع عن مكان وجودي. سيأتي في الحال لاصطحابي! إنّه فعلاً صديق صديقي، لم يسبق له أن رآني، لكنّه يتصرّف كما لو أنّنا متعارفان منذ وقت طويل. أتخلّى عن فكرة الانتقال إلى الفندق، آخذ حقيبتي وأرحل، بعد أن استعلمت منه عن الباص الذي يقودني إلى مكانه.

في اللحظة التي قرعت فيها على الباب، ترددّت قليلاً. يفتح لي سيّد المنزل ويتولّى عنّي نقل أمتعتي. لا يصافحني وفق أصول التهذيب لكنّه يمسكني من كتفي ليدخلني إلى البيت.

البيت مريح وفيه غرفتان تطلاّن على قاعة الدخول، وهو مفروش بذوق: كنبات من فروع النخيل الهندي، طاولة للشاي وضعت عليها صينيّة من زجاج، تحف قديمة وخزانة من طراز غربي. على الجدار عُلّقت صحون مزيّنة من الخزف. الأرض مدهونة بلون بنّي مائل إلى الأحمر لامع إلى درجة لا نجرؤ معها على وضع أقدامنا فوقه. أتأمّل بداية حذائي المتّسخ ثم أراني في المرآة، شعري مشعّث وآثار الغبار ظاهرة على وجهي. لم أزر الحلاّق منذ عدّة أشهر، يشقّ عليّ أن أتعرّف إلى نفسي. الشعور بالمهانة يسيطر عليّ:

ـ أصل لتوّي من الجبال. لديّ كلّ ما يدلّ على أنّني إنسان الغاب.

يفاجئني سيّد المنزل بجوابه:

ـ لولا ذلك لما حظينا أبدًا بفرصة رؤيتك.

صافحتني زوجته، ثم هرعت إلى تحضير الشاي. ابنتهما الصغيرة التي لم تكد تبلغ العاشرة، تحيّيني وهي مستندة إلى الباب، وتضحك وهي تتفحّصني.

أخبرني سيّد المنزل أنّ صديقه في بكين أرسل له رسالة أبلغه فيها أنّني أقوم برحلة طويلة، وأنّه ينتظرني منذ وقت طويل. ثم أطلعني على

آخر الأخبار في عالم الفنون والآداب والسياسة. فلان لمع نجمه من جديد، فلان تراجع، فلان تفوّه بخطبة، وذاك شدّد على المبادئ الرئيسيّة الكبيرة. حتى إنّ مقالاً نوّه باسمي. وجاء في المقال: رغم أنّ بعضًا من أعمالي سيّئ، إلاّ أنّه لا يجدر أن ننهال على صاحبها باللوم والتقريع. أقول له إنّني لا أولي هذه المقالات أيّ اهتمام، وإنّ ما أحتاج إليه هو الحياة، فعلى سبيل المثال أحتاج الآن إلى حمّام وفير دافئ. انفجرت زوجته ضاحكة وهرعت لتسخين المياه.

بعد الحمّام اقتادني صاحب المنزل إلى غرفة ابنته، التي يستخدمها أيضًا كمكتبة. واقترح عليَّ أن أرتاح قليلاً ، وسيناديني حالما يجهز الطعام. أسمع زوجته منكبّة على العمل في المطبخ.

ممدّدًا على سرير ابنته النظيف، مسندًا رأسي إلى وسادة مطرّزة رسمت عليها تصاوير هررة، أهنّئ نفسي لكوني حاولت الاتّصال، وأخيرًا، لم تأتِ عليّ هذه المخابرة بالسوء. سألته إذا كان من الكوادر ما دام بوسعه الوصول إلى الهاتف، لكنّه شرح لي قائلاً إنّ هناك هاتفًا عامًّا في الطابق الأرضي. وقد جاء الوكيل لإخطاره. بعض من أصدقائه الشباب يودّون رؤيتي بالطبع. في الصيف، يخلد الناس إلى النوم في وقت متأخّر جدًّا. بعض أصدقائه يسكنون في المباني المجاورة، أمّا البعض الآخر فيمكنه مكالمتهم إذا أعربت عن رغبتي في لقائهم. فوافقت على الفور. أسمع بابًا يُفتح وضجيج خطوات على الدرج وأصوات في غرفة الجلوس. يتحدّثون عنك، عن أعمالك، عن المشقّات التي تواجهك، وكأنّك نصير الضعفاء، عن وقوفك في وجه المظالم

الاجتماعيّة، تقول إنّك لا تستطيع الوقوف في وجهها، تعتقد أنّ الفرق بين ما هو عبثيّ وما هو غير عبثيّ ليس أمرًا نتوجّه به فقط إلى النخبة من الناس. كلّما أمعنّا النظر في هذا العالم والبشريّة نفسها، كلّما وجدناهما غريبين، لم يكن ليخطر ببالك أنّه من المعقول وجود أصدقاء على هذه الشاكلة، يهتمّون بك ويشعرونك أنّ هذه الحياة تستحقّ مع ذلك أن تُعاش. يتناقشون عندئذٍ لمعرفة كيف بإمكانهم أن يصطحبوا فتيات للرقص في الغد. لم لا؟ هذا أنت قلته ، فتيات مبتهجات في مقتبل العمر، ممثّلات ناشئات، طالبات متخرّجات حديثًا من الجامعة قرّرن الذهاب لقطف الفطر في غابة صنوبر، إنّها بالطبع فكرة ممتازة، أتخشى من التسمّم؟ ألا تستطيع تذوّقها أنت في البداية؟ وحالما تتذوّقها فإنّ الجميع سيأكل منها، من قال إنّك بطل؟ حريّ بالأبطال أن يضحّوا بأنفسهم من أجل الفتيات! تقول إنّ الموت لأجل فتاة، هذا هو المثال الذي تطمح إليه، فيجبنك بأنّهنّ لسن بهذه القسوة ولسن، في أيّ حال، لا مثل وو دزتيان الحديثة: جيانغ تشينغ، ولا مثل الإمبراطورة تسي شي[1]. لا يأبهن أن تكون هؤلاء الساحرات المسنّات متوفّيات أو حيّات يرزقن، يردن أن يحتفظن بك لكي تشعل النار وتطهو الفطر، وفيما هنّ يتكلّمن، يذهبن للإتيان بطست، يجمعن الأحطاب وأنت تنبطح أرضًا لكي تنفخ على الأوراق وعلى إبر الصنوبر اليابسة، عيناك تحمرّان من شدّة الدخان، وألسنة اللهب تشرئبّ، والجميع يصرخ، يرقص حول النار، أحدهم

---

(١) الإمبراطورة وو دزتيان عاشت من ٦٢٤ إلى ٧٠٥ استولت على الحكم في ٦٦٨. وتسي شي تولّت زمام السلطة من ١٨٦١ الى ١٩٠٨ أمّا جيانغ تشينغ فهي آخر زوجات ماو تسي تونغ.

يعزف على الغيتار، تتدحرج على العشب والجميع يصفّق ويهتف لك، أحد الفتيان اليافعين يتصلّب في وجه فتاة ولا يني يناكدها فارضًا عليها أن تستدير على نفسها، تقول إنّها تستطيع الرقص، مهما تكن الرقصة، لكنّ الجميع قادرون على الرقص، ما نودّ رؤيته هو الحركة الرياضيّة التي تبرع في أدائها، تقول إنّها ترتدي تنّورة، وإن يكن؟ ليست التنّورة هي ما يُراد النظر إليها بل الحركات الجسديّة التي تعبّر عن الرشاقة واللياقة البدنيّة. الفتيان اليافعون لا يتركونها وشأنها، وأحدهم يقول إنّها كانت بطلة في الرياضة! الفتيات يداعبنها ويدحرجنها على العشب حتى يصعب عليها التقاط أنفاسها، تقول إنّك في الجبال، تعلّمت فنون السحر، وإنّك تعرف أن تُميت الأحياء وتُحيي الموتى، يقولون إنّك تدّعي وتتبجّح ليس أكثر، إذا كنتم لا تصدقّونني جرّبوا، من يريد أن يجرّب؟ يشيرون إليها، إلى الصبيّة الممدّدة على الأرض الصلبة التي تغمض عينيها وتتظاهر بأنّها ميتة، تقطع غصن صفصاف وتلوح به وتقلب عينيك فلا يبين منهما إلاّ البياض، تهمهم بين أسنانك بكلام غير مفهوم، وتدور حولها لكي تطرد الشياطين في الاتّجاهات الأربعة، الشبّان يركعون حولها يصلّون وأيديهم مضمومة، الفتيات يحسدنها، ويصرخن بها بأن تنهض من جديد وتفتح عينيها وتنظر إلى كلّ هؤلاء الرجال الذين يتغزّلون بها! تطلق صرخة عالية وتتخبّط عاري الصدر، تمدّ لسانك، تصرخ زاعقًا، والجميع يقيمون حلقة مجنونة حولها ويرفعونها أضحية للآلهة! أضحية للآلهة! فلنضعها في النهر ونقدّمها لإله المياه! لم تعد تستطيع مواصلة تمثيليّتها فتنادي بصوت حادّ: «النجدة»! «النجدة!» تقول إنّها سترقص، سترقص وتؤدّي كلّ ما يطلبون منها، ولكن ترفّقوا

بها، ولا ترموها في النهر، عندئذٍ يقدّم لها الفتيان ضمانة بالقيام بإبعاد ساقيها على مداهما، ورفع يديها، وتثبيتها هكذا، وتعذيبها حتى يجنّ جنونها! حتى الجنون! تعترض الفتيات، ويمنعن الفتيان من التمادي، الجميع يتدحرجون في العشب ويضحكون، حتى استلقوا على أقفيتهم، ماشي الحال، ماشي الحال، أخبرنا، أخبركم ماذا؟ أخبرنا ماذا رأيت خلال سفرك، تقول إنّك ذهبت بحثًا عن الإنسان المتوحّش، طيّب، فهل رأيته فعلاً؟ تقول إنّك رأيت باندا، لكن ما الغريب في ذلك؟ نرى منها في حدائق الحيوانات أيضًا، تقول إنّ الباندا الذي رأيته دخل إلى الخيمة يفتّش عن طعام يأكله، وإنّه دسّ رأسه في أغطيتك، غير صحيح، غير صحيح! تقول إنّك كنت تريد فعلاً الذهاب إلى شنونغجيا لأنّ الجميع يقولون إنّ الإنسان المتوحّش يعيش فيها، كنت تريد حتى أن تمسك واحدًا منهم وتعلّمه لغة البشر من دون التصرّف معه على أساس أنّه طفل، تقول إنّك أنت نفسك لا تعتبر نفسك طفلاً، بل تريد فقط العودة إلى طفولتك، تقول إنّك تقتفي آثارها في كلّ مكان، وهنّ أيضًا يقلن إنّ الطفولة هي أفضل شيء، نحتفظ منها بذكريات جميلة، أمّا أنا فلا، هكذا يقول صوت ارتفع بين الحاضرين، طفولتي لم يكن فيها ما يُثير الاهتمام، أفضّل العيش في الحاضر، والنظر إلى النجوم فوق رأسي، أو التحدّث عن أعمالك. وعلا صوت آخر، أنثويّ هذه المرّة: جميع ما كتبته نُشر، وما لم تستطيع أن تنشره، لم تكتبه بعد، فعلاً، أنت لست جدّيًّا تقول إنّك في منتهى الجديّة، لذا لم تعد تريد أن تكون كذلك، لست سعيدًا إطلاقًا. يتنهّد صوت آخر ويدندن! لا لا لا لا لا، استمعوا جيّدًا، أريد أن أغنّي! أنت الوحيدة الجميلة، والوحيدة العدائيّة، تتصارعن والتي تربح

تكون الأجمل، لكنّهنّ لا يردن أن تكون الحكَم، تقول إنّ الجميع يريد الحكم عليك، من جعلك شهيرًا؟ تعترف أنّك فكّرت بالموضوع قليلاً لكن لم يتبادر إلى ذهنك قطّ أنّ ذلك سيجلب عليك مثل هذه المتاعب. الجميع يضحكون وأحدهم يقول: ماذا لو عبرنا النهر؟ ويدًا بيد فلندخل إلى المغارة! الذي في المقدّمة أطلق صيحة غريبة، اصطدم بشيء ما، مثيرًا الضحك في عموم الحاضرين، في المغارة، الظلام مدلهمّ ويجب الانحناء كي لا ترتطم الرؤوس، لكنْ كلّ يرتطم بمؤخّرة الذي يتقدّمه، الجوّ في هذه المغارة يشجّع على تبادل القبلات! لا أحد يرى أحدًا، لا نعرف من يقبّل من، ليس هذا مسلّيًا، لنذهب بالأحرى ونسبح قافزين في الماء، فليكفّ كلّ واحد عن انتقاد الآخر بقسوة. من يوجّه الانتقاد؟ من يفعل ذلك فليوجّه الانتقاد لنفسه أوّلاً! وماذا لو غنّينا سويّة؟ لنغنِّ أغنية النخيل، لا، ليس دومًا هذه الأغنية، لنلفّ بالأحرى معبر التنّين، من يعبر من؟ أنت الوحيد الذي تحبّ بلادك، الوحيد الذي يُضجر الآخرين، الوحيد الذي يزعجني، لا تتخاصموا، اتّفقنا؟ أيّها الأصدقاء المجلّون... سأغرق؟ من هو المُضجر إلى هذا الحدّ؟ سأذهب لأجني الفطر من مياه النهر القاتمة.. ماذا؟ ماذا؟.. ليس هناك شيء ولا نتوصّل إلى جني أيّ شيء، نقطف فقط الحزن، لنلعب بالورق، اتّفقنا؟ لا، هل يجب التفكير طويلاً، حسنًا، فلنسحب السلحفاة السوداء، من ظفر بها؟.. سحبْتُ الملك! أنا فعلاً محظوظ، من لا يبحث عن الحظّ يجده دومًا، هكذا هو القدر، هه! هل تؤمن بالقدر؟ القدر يهزأ بالناس، ليذهب إلى الشيطان! لا تتحدّث عن الشيطان، أخاف حين نتحدّث عن الشيطان ليلاً، مشيت في نهر عميق، ألم تذهب إلى فنغدو، مدينة الشياطين؟ أخبرنا هل هذه المدينة ظريفة؟

الآن، وُضعت فيها حكمتان متوازيتان من شأنهما وضع حدّ للخرافات: «ما تؤمن به موجود وما لا تؤمن به غير موجود». أيّة حكمة هذه؟ هل وحدها العبارات الحكميّة المتوازية تستحقّ أن تكون حكمًا فعليّة؟ ألا يمكن أن يكون هناك حِكم متفلّتة من كلّ الشكليّات؟ وإذا كنت تسعى إلى تحطيم كلّ شيء، فهل تستطيع تحطيم الحقيقة؟ لا تتعاظم لكي يتهيّب الناس في حضرتك، ألست رجلاً ملحدًا، لا يخاف شيئًا؟ تقول إنّك خفت، ممَّ؟ خفت من الوحدة، أنت فتى طيّب وبطل فوق ذلك! سواء كنت بطلاً أم لا، أنت تخاف النساء الجميلات، فما الذي يخيفك فيهنّ إلى هذا الحدّ؟ تخاف من أن تُسحر، أيّ خبر هذا! هاي، أيّها المواطنون الأعزّاء! ماذا تفعل؟ هل يجب إنقاذ الوطن؟ أنت لا تنقذ إلاّ نفسك أيّها الفرديّ الذي لا يمكن إعادته إلى صوابه! جسدك يتصبّب بالعرق لفرط ما تخاف، تريد، تودّ، تودّ أن تعود لتأتلف مع الآخرين لكنّك لا تجد أحدًا..

الفصل السادس والخمسون

تريدك أن تقرأ لها طالعها من خطوط يدها. يدها الصغيرة ناعمة، وجميلة جدًّا، في غاية الأنوثة. تفتح راحتها وتداعبها، تقول إنّ لديّها طبعًا دمثًا ودودًا، وإنّها صبيّة في منتهى الرقّة. تهزّ برأسها مستحسنة ما تقوله.

تقول إنّ يدها يد شخص لطيف جدًّا وعاطفيّ، فتنفجر بضحكتها العذبة.

ظاهريًّا، تبدو عذبة، ولكنّها تغلي من الداخل، إنّها شخص قلق. هكذا تقول: تقطّب حاجبيها. هي قلقة لأنّها تبحث عن الغرام والشغف، لكن يصعب عليها كثيرًا أن تجد رجلاً يمكنها أن تسلّم له أمرها جسدًا وروحًا. هي مرهفة للغاية ونادرًا ما تشعر بالاكتفاء، هاك ما تقوله هذه اليد. تضمّ شفتيها ممتعضة، فيبدو مظهرها غريبًا.

لم تقع في الحبّ إلاّ مرّة واحدة...

كم من المرّات؟ تريدك أن تحزر.

تقول إنّها عرفت الحبّ وهي يافعة جدًّا.

تسألك في أيّ عمر؟

تقول إنّها خُلقت لأجل الحبّ، وفي عمر مبكّر تاقت نفسها إليه. فتضحك.

تحذّرها قائلاً: كوني على يقين أنّه في الحياة لا وجود لفارس الأحلام، وإلاّ فسوف تكون حياتك سلسلة من الخيبات المتتالية. تتحاشى نظراتك.

تقول إنّها ستُخدع في كلّ مرّة وستَخدع... تدعوك إلى مواصلة الكلام.

تقول إنّ خطوط يدها مشوّشة جدًّا وإنّها تحاول أن توقع في هواها عدّة أشخاص في الوقت نفسه.

تعترض قائلة: آه، لا...

تمنعها من الاعتراض ، تقول لها إنّها عندما تحبّ رجلاً تفكّر أيضًا في الآخر وتتّخذ عشيقًا جديدًا قبل أن تقطع علاقتها بالسابق.

تقول، أنت تبالغ.

تقول إنها أحيانًا واعية للأمر وأحيانًا لا، لا تقصد أن تُدينها، تقول فقط ما تظهره لك خطوط يدها. هل هنالك أشياء تفضّل ألاّ تُقال؟ تنظر إلى عينيها.

بعد قليل من التردّد، تقول بثقة إنّه بإمكاني أن أقول كلّ شيء، بالطبع.

تقول إنّها لا تستطيع التركيز على حبيب واحد. تشدّ عظام يدها قائلاً إنّك لا تقرأ فقط الخطوط بل تراقب أيضًا خارطة يديها. تقول إنّه بإمكاني أن أقول كلّ شيء، بالطبع.

تقول إنّها لا تستطيع التركيز على حبيب واحد. تشدّ على عظام يدها قائلاً إنّك لا تقرأ فقط الخطوط بل تراقب أيضًا بنية اليد. تقول إنّه يكفي أن يضغط أيّ رجل كان على يد بهذه الرقّة حتى يجتذبها نحوه بسهولة.

جرّب! تريد أن تسحب يدها من يدك لكنّك لا تدعها ترحل.

إنّها منذورة للعذاب ، تتكلّم عن يدها.

لماذا؟

حريّ بها أن تسأل نفسها هذا السؤال.

تقول إنّها تريد فقط أن تكرّس نفسها لحبّ رجل واحد.

توافق على ما تقوله، لكنّ المشكلة هي أنّها لا تتوصّل إلى تحقيق رغبتها.

لماذا؟

تقول إنّه يُفترض بها أن تسأل يدها بالذات، يدها تنتمي إليها، لا تستطيع أنت أن تجيب بدلاً منها.

أنت فعلاً محتال.

تقول إنّك لست أنت المحتال، بل يدها، الناعمة، المنمنمة، التي لا نطمئنّ إلى ما يمكن أن تفعله.

تتنهّد وتتوسّل إليك بأن تتابع.

تقول إنّك إذا تابعت فستغضب منك.

لكن لا،

تقول إنّها غاضبة منذ الآن.

تؤكد أنّها ليست غاضبة.

تقول عندئذٍ إنّها لا تعرف حتى ماذا تريد.

لا تفهم، تقول إنّها لا تفهم عمَّ تتكلّم.

تطلب منها أن تفكّر قليلاً.

تقول إنّها تفكّر لكنّها لم تفهم بعد.

حسنًا، هذا يعني أنّها هي نفسها لا تعرف مرادها في الحبّ.

تريد أن تحبّ رجلاً، رجلاً مميّزًا جدًّا!

ماذا تعني برجل «مميّز جدًّا»؟

رجل يميل قلبها إليه من النظرة الأولى، رجل تستطيع أن تمنحه ذاتها على الفور، رجل تستطيع الذهاب معه أينما كان، حتى نهاية العالم.

تقول إنّ شغفها سيكون رومنطيقيًّا عابرًا..

لكنّه بالضبط الشغف الذي تنشده!

وستتخلّى عن هذا الشغف ما إن تستعيد روعها.

تقول إنّها ستذهب به إلى النهاية.

ولكن، ومع ذلك، عندما تخمد نار شغفك فسترين الأشياء بطريقة مختلفة.

تقول إنّها إذا وقعت في شرك الحبّ فلا يمكن لنار شغفها أن تخمد بسهولة.

في هذه الحالة، هذا يعني أنّها لم تكن قد وقعت في الحبّ بعد. تحدّق إليها في عينيها، لا تستطيع أن تشيح بنظرها وتقول إنّها لا تعرف.

لا تعرف ما إذا كانت في النهاية تحبّ أم لا، لأنّها تحبّ نفسها كثيرًا.

تحذّرك: يجب ألاّ تظنّ بها سوءًا إلى هذا الحدّ.

تقول إنّ كل ذلك سببه أنّها جميلة جدًّا، وأنّها تعي الأثر الذي تتركه في عيون الناظرين إليها.

تابع التحدّث!

إنّها مغتاظة قليلاً، تقول لها إنّها لا تعرف أنّ ذلك ناجم في الواقع عن استعداد طبيعيّ لديها.

ماذا تقول؟ تقطّب حاجبيها.

تريد أن تقول ببساطة إنّ استعداداتها الطبيعيّة بديهيّة، وإنّ مأساتها بالذات سببها هذه الجاذبيّة التي تجعل الجميع يغرمون بها.

تقول لا برأسها، تقول إنّها تجهل أسلوب التعامل معك.

تقول إنّها هي من أرادت أن تقرأ لها خطوط يدها، وإنّها أرادت أن تقول لها الحقيقة.

تعترض بهدوء: لكن ما تقوله مبالغ فيه قليلاً.

لا يمكن للحقيقة أن تبعث على الرضى أو أن تكون لذيذة على السمع، فهي بالضرورة قاسية بعض الشيء، وإلاّ فكيف يمكن استشراف مستقبل حياتنا بهذه الجدّيّة؟ تسألها هل تريد أن تتابع قراءة طالعها.

أنهِها بسرعة.

تقول، يجب أن تبعد أصابعها، تفرّق لها أصابعها شارحًا لها أنّك تقوم بذلك لترى ما إذا كانت تتحكّم بقدرها، أو أنّ القدر هو الذي يتحكّم بها. من يتحكّم بمن؟ قل لي.

تقول لها بأن تشدّ على يدها من جديد، فتمسكها أنت بقوّة وترفعها صارخًا بالجميع أن ينظروا!

وجميعهم ينفجرون ضاحكين ، تسحب يدها.

تقول إنّك، لسوء الحظّ، تتحدّث عن نفسك، وليس عنها، فتضحك عاليًا بدورها.

تسأل هل يرغب أحد منكم في قراءة طالعه؟

تحتفظ الفتيات بالصمت. وفي هذه اللحظة، تمتدّ ناحيتك راحة ذات أصابع طويلة جدًّا ويسألك صوت خجول: انظر إليّ.

تقول إنّك لا تنظر إلاّ إلى خطوط اليد وليس إلى الوجوه.

فتعقّب على قولك: انظر إلى طالعي!

إنّها يد مليئة بالعزم، تتلمّسها.

قل لي ببساطة إن كنت سأقوم بصفقات تجاريّة.

تقول، تقول إنّ هذه اليد فيها الكثير من الحزم.

قل لي ببساطة إذا كنت سأنجح في الأعمال.

لا يسعك إلاّ القول إنّها يد مبادرة للغاية، لكن هذا لا يعني أنّ مشاريعها ستؤول إلى النجاح.

لكن أيّة قيمة لمشروع إذا لم يكن النجاح غايته، تجيبك.

القول إنّك ستزاولين التجارة يمكنه أن يكون هو أيضًا طريقة على تشجيعك.

ما قصدك؟

أقصد أن أقول إنّك لست طموحة.

تطلق تنهيدة ، أصابعها المتصلّبة تسترخي. تعترف أنّها ليست طموحة.

تقول إنّها فتاة عنيدة لكنّ الطموح ينقصها، وإنّها لا تريد أن تسيطر على الآخرين.

أجل، هذه هي المسألة، وتعضّ على شفتيها.

العمل والطموح توأمان لا ينفصلان. عندما يقال إنّ ذلك الرجل طموح يعني أنّه يملك روح المبادرة. الطموح أساس المبادرة والطموح هو ما يميّزك عن الآخرين.

تقول هذا صحيح، فهي لا تريد أن تتميّز عن الآخرين.

تقول لها إنّها تسعى دائمًا إلى إثبات وجودها. ليست جميلة لكنّ قلبها طيّب.

إنّ النجاح في المشاريع لا يخلو من المنافسة وبما أنّها لطيفة جدًّا، فليس بإمكانها التغلّب على خصومها ولا أن تحرز، بطبيعة الحال، نجاحًا باهرًا.

تقول بصوت منخفض إنّها تعرف ذلك.

وتجيبها، إنّ القيام بمشروع حتى لو لم ينجح بالضرورة هذا أيضًا شكل من أشكال السعادة.

لكنّها تقول إنّها لا تعتبر ذلك سعادة.

إنّ فشل مشروع نقوم به لا يلغي إمكانيّة بلوغ السعادة. تؤكّد لها ذلك من جديد.

عن أيّ نوع من السعادة تتكلّم والحالة هذه؟

تقصد الكلام عن السعادة العاطفيّة.

تطلق تنهيدة صغيرة.

تقول إنّ رجلاً يحبّها سرًّا وإنّ عليها أن تواجه هذا الأمر بعناية. تحملق بعينيها ويبدو عليها أنّها في غاية اليقظة إلى درجة أنّ الحاضرين ينفجرون بالضحك. تنزعج، لكنّها تضحك هي أيضًا ساترة وجهها بيديها.

إنّها فعلاً سهرة ممتعة. الصبايا يحطن بك ويتنافسن على مدّ أيديهنّ لك لكي تقرأ طالعهنّ.

تقول إنّك لست قارئ بخت، لست إلاّ ساحرًا.

ساحر، هذا مخيف! مخيف! صرخت الفتيات.

لا، أحبّ السحرة، أعبدهم! تضحك صبيّة وتضمّك بين ذراعيها وتمدّ لك يدها الغضّة: انظر قليلاً، هل سأصبح ثريّة أم لا؟

تبسط اليد الأخرى: لا أحفل لا بالحبّ ولا بالعمل. كلّ ما أريده زوجٌ ثريٌّ للغاية.

تسخر منها فتاة أخرى. ليس أمامك إلاّ أن تبحثي عن عجوز.

فتجيبها الصبيّة صاحبة اليدين الغضّتين: ولماذا عليه أن يكون عجوزًا؟

عندما يموت، سترثين كلّ ماله وعندها بوسعك البحث عن عاشق. هذه الفتاة تملك حسّ دعابة لاذع فعلاً.

وإذا لم يمت، فسيكون الأمر فظيعًا، لا؟ تجيبها الفتاة ذات اليدين الغضّتين. لا تكوني سيّئة إلى هذا الحدّ!!

تقول: هذه اليد الغضّة جذّابة كثيرًا.

يصفّق لك الجميع ويصفّرون ويصرخون: أحسنت.

تأمرك، اقرأ خطوط يدي ولا أريد أن يقاطعنا أحد!

حين قلت إنّ يديها جذّابتان، كنت تعني ذلك، كنت تريد القول إنّ هاتين اليدين تجذبان الرجال وإنّه كان يصعب عليها اختيار أحدهم.

ما أسعد الفتاة التي يقع الرجال في حبّها، لكن ماذا عن المال؟ قالت وهي تضمّ شفتيها امتعاضًا.

تنطلق من جديد ضحكات المستمعين.

ذلك الذي يبحث عن الحبّ بمعزل عن المال لا يجد الحبّ، والذي يسعى وراء المال لا يحظى به بل يحظى بالحبّ. هذا هو القدر. تنبّهها إلى الأمر بأكبر قدر ممكن من الجدّيّة.

تهتف إحدى الصبايا إنّ قدر هذه الفتاة حسن جدًّا!

الصبيّة ذات اليدين الغضّتين ترفع رأسها قائلة: من دون مال، كيف يمكن للمرأة أن تُعنى بجمالها. وإذا لم تعتنِ المرأة بنفسها فكيف لها أن توقع الرجال في حبّها.

فأجابت الصبايا الأخريات بصوت واحد: هذا صحيح!

وأنت أيها الجشع ، لا تفكّر إلاّ بأن تحظى بفتيات يحمن من حولك. تقول إحداهنّ خلف ظهرك: وأنت ، هل أحببت من قبل؟

لكن أنت، الملتفت إلى هذا الحضور البهيج ، تقول إنّك تحبّ كل الأيدي وإنك ترغب فيها كلّها.

لا، لا، لا تحبّ إلاّ نفسك! تلوّح الأيدي كلّها في الهواءِ استنكارًا...

عاصفة من الصراخ والاستنكار تنطلق...

الفصل السابع والخمسون

أغادر مقاطعة فانغ وأسلك الطريق الشمالي الذي يؤدّي إلى مقاطعة شنونغجيا، إنّها حاليًّا المنطقة التي يتردّد الحديث بأنّها لا زالت تُؤوي الإنسان المتوحّش أكثر من أيّة منطقة أخرى. وبحسب **حوليّات ولاية يان يانغ**[1]، فإنّ هذه الغابات التي تمتدّ على مسافة ثمانية «لي» من الشمال حتى الجنوب لا زالت المنطقة الوحيدة التي يُسمع فيها فقط «زئير النمور في وضح النهار وصرخات السعادين التي لا تهدأ»، وهذه دلالة على عزلة المكان. لم أقصدها إطلاقًا لكي أجري دراسة عن الإنسان المتوحّش، ولكن بالأحرى لكي أرى إذا كانت الغابة الطبيعيّة لا تزال موجودة. ولم أقصدها مدفوعًا هذه المرّة بشعور من أوكلت إليه مهمّة، وإن كان هذا الشعور لا يزال يخالجني، ويضغط عليّ، ويمنعني من العيش بصورة طبيعيّة. وفي الواقع، بما أنّني نازل من النجود العالية لمجرى نهر يانغتسي الأعلى، لا يسعني أن أغفل هذه المنطقة. أن يتجاهل الإنسان وضع هدف نصب عينيه، فهذا أيضًا هدف، وفعل البحث

---

(١) كانت ولاية يان يانغ موجودة في ظلّ حكم سلالة مينغ شمالي غربي هوبي حاليًّا.

هو أيضًا غاية أيًّا يكن موضوع هذا البحث، والحياة نفسها لا تقدّم للبشر هدفًا واضحًا للسعي وراءه. يكفي أن تتقدّم في المسير، هذا كلّ شيء.

طيلة الليل، المطر ينهمر غزيرًا، وعند الصباح الباكر، يتحوّل المطر إلى رذاذ. على جانبي الطريق الرئيسيّة، ما من غابة جديرة بهذا الاسم، هناك فقط أشواك وأشجار كيوي. في الأنهار والجداول تسيل مياه صفراء. أصل عند الساعة الحادية عشرة إلى عاصمة المقاطعة وأتوجّه إلى مركز الاستقبال في المكتب الواقع على مدخل الغابة، للاستعلام عن كيفيّة الدخول إليها. وأصادف تجمّعًا من الموظّفين الإداريّين من ثلاثة مستويات هرميّة مختلفة. لا أتوصّل إلى معرفة رتبهم الهرميّة، لكنّهم يعملون جميعًا في تجارة الأخشاب.

عند موعد تناول الطعام يدعوني رئيس القسم المسؤول عن الاستقبال للانضمام إليهم، وقد علم أنّني كاتب من بكين، ويجلسني بالقرب من السائق الذي يفترض به أن يصطحبني بعد الظهر بالذات. يدعوني إلى تناول كأس من الشراب.

هتف بلطف وحبور:

ـ لا نستطيع الشرب إذا لم يكن هنالك كاتب على طاولتنا.

مُلئت الكؤوس بكحول الأرزّ الحارق الذي انصبّ في الحلوق فاحمرّت الوجوه. لا أستطيع تخييب أملهم. والامتناع عن مشاركتهم الشراب. عند نهاية الوليمة، أشعر بدوار في رأسي وسائقي لم يعد يستطيع القيادة.

المشاركون في الاجتماع، يكملون أعمالهم بعد الظهر، لكنّ السائق يفتح لي غرفة للضيوف، حيث يستلقي كلّ واحد منّا على السرير لينام حتى المساء.

عند العشاء، يقدّمون ما فضل من الأطباق مع بعض الكحول. أسكر من جديد فلا أستطيع إلاّ أن أمضي الليلة في مركز الاستقبال. يجيء السائق لتنبيهي أنّ المياه في الجبل غمرت الطرقات وأنّه لا يعلم إذا كان رحيلنا ممكنًا في الغد. كان مسرورًا لأنّه يفيد من الفرصة ليرتاح.

خلال السهرة، يجيء رئيس القسم لكي يثرثر معي. يريد أن يستعلم عن نوعيّة الطعام الذي نتناوله في العاصمة بكين. ما هي الأطباق المقدّمة أوّلاً؟ ما هي الأطباق التي تليها؟ يقول لي إنّه قابل أحدًا زار المقرّ الأمبراطوري في بكين وأخبره أنّهم كانوا يذبحون مئة بطّة لكي يحضّروا طبقًا واحدًا للإمبراطورة تسي شي. هل هذا صحيح؟ وماذا عن المكان الذي سكن فيه الرئيس ماو، هل يمكن زيارته؟ هل رأيت بيجامته المرتّقة التي أظهروها على التلفزيون؟ أستغلّ الفرصة لأسأله عن القصص الشائعة هنا.

أخبرني أنّه، قبل التحرير، كان المكان مأهولاً قليلاً: كانت هناك عائلة حطّابين في نانهي، وعائلة أخرى في دوهي. كان الخشب يُنقل عبر النهر. وحجم الخشب المُباع في الخارج لم يكن يتعدّى مئة وخمسين مترًا مكعّبًا في السنة. من هنا إلى شنونغجيا، كانت هنالك فقط ثلاثة بيوت. قبل ١٩٦٠، لم تكن أيّة أضرار قد لحقت بالغابة. وبعدئذٍ، شُقّت طريق رئيسيّة وتغيّرت الأمور. الآن، يجب تسليم خمسين ألف متر

مكعب من الخشب في السنة، والإنتاج نما ووفد الناس بأعداد كبيرة للعمل في هذا القطاع. قديمًا، عند أول رعدة في فصل الربيع، كانت الأسماك تظهر في فجوات الماء في الجبل وكان الأهالي يسدّون التيّار بأغصان الخيزران لكي يملأوا من السمك سلالاً. اليوم، لم يعد بالإمكان تناول الأسماك.

أسأله أيضًا عن تاريخ المقاطعة. يخلع حذاءه ويتربّع فوق السرير:

ـ إذا كنت تريد التحدّث في التاريخ، فيجب العودة إلى زمن بعيد! بالقرب من هنا، وجد الأثريّون أسنان القرد المنتصب.

وإذ لاحظ أنّني لا أهتمّ البتّة بالقرود القديمة، بدأ يحدّثني عن الإنسان المتوحّش.

ـ إذا التقيت به، يمكنه أن يمسكك من كتفيك ويهزّك إلى درجة تُصاب معها بالدوار، ثم تمضي مطلقًا ضحكة صاخبة.

أظنّ أنّه قرأ ذلك في كتب قديمة.

ـ هل رأيت الإنسان المتوحّش؟

ـ من الأفضل ألاّ تكون قد رأيته. إنّه أطول من الإنسان، يتعدّى طوله المترين، مكسوّ بالوبر الأحمر وشعره طويل. عندما نتحدّث عنه، لا نشعر بالخوف ولكن حين نراه مواجهة، يبدو مرعبًا، ومع ذلك فهو لا يعمد طوعًا إلى إلحاق الضرر بأحد. حتى لو لم نؤذه، فقد يعنّ له مع ذلك أن يطلق صرخات غير واضحة، وإذا رأى امرأة خصوصًا، تنفرج أساريره ويُظهر ابتسامة عريضة.

لقد استمعْتُ إلى هذا الكلام مرّات عديدة. حتى لو بقي هذا الرجل يتحدّث عن الموضوع لبضعة آلاف من السنين فهو لن يقول أبدًا شيئًا جديدًا. فضلّت مقاطعته:

ـ هل رآه أحد من الموظّفين والعمّال هنا؟

ـ بالطبع، رئيس اللجنة الثوريّة في دسكرة سونغباي. ذات يوم، فيما كان يتنقّل في سيّارة الجيب برفقة بعض الأشخاص، أوقفهم إنسان متوحّش وقطع عليهم الطريق. ظلّوا مندهشين ورأوه يبتعد وهو يتمايل بمشيته. كانوا جميعًا موظّفين إداريّين في منطقتنا ونعرفهم جميعًا.

ـ إذا كان الأمر يقتصر فقط على أعضاء اللجنة الثوريّة، فهذا يعني أنّ الأمر حدث منذ زمن طويل، هل رآه أحدهم مؤخّرًا؟

ـ يأتي الكثيرون ليجروا دراسات عن الإنسان المتوحّش، بضع مئات كلّ سنة ومن كلّ مكان، من أكاديميّة العلوم في بكين، من الأساتذة الجامعيّين في شانغهاي، والمفوّضين السياسيّين للجيش. والسنة الفائتة، أتى رجلان من هونغ كونغ، الأوّل تاجر والثاني إطفائيّ، لم يُسمح لهما بالدخول.

ـ هل رأى بعضهم الإنسان المتوحّش؟

ـ بالطبع، أريد أن أحدّثك عنه. إنّه المفوّض السياسيّ لفريق الأبحاث عن الإنسان المتوحّش، كان عسكريًّا، وفي السيّارة نفسها، كان يرافقه حارسان خاصّان. حدث ذلك أيضًا ذات ليلة أمطرت فيها طيلة

الليل. كانت الطريق مغمورة بالماء وارتفع ضباب كثيف. وفجأة التقوا، وجهًا لوجه، بالإنسان المتوحّش.

ــ ألم يمسكوا به؟

لم يكن ضوء الفوانيس يضيء، إلاّ على بعد مترين أو ثلاثة، ما كادوا يأخذون بنادقهم وينزلون من السيّارة حتى كان قد ولّى هاربًا.

هزّ برأسه وعلامات الخيبة على ملامحه.

ــ ومؤخّرًا أنشئت خصّيصًا جمعيّة للأبحاث عن الإنسان المتوحّش يديرها شخصيًّا الرئيس القديم لقسم البروباغندا في لجنة الحزب. كانوا يملكون صورًا عن آثار الخطى والشعر والوبر.

قلت:

ــ هذا رأيته في معرض نظّمته هذه الجمعيّة، رأيت أيضًا صورًا مكبّرة لآثار الخطى. ولقد نشروا من جهة أخرى مؤلّفًا عن الوثائق التي تُشير إلى المراجع الموجودة في الكتب القديمة عن الإنسان المتوحّش، وأيضًا إلى التحقيقات الأجنبيّة عن الــ«ييتي»،[1] وصور لآثار أقدام عملاقة. وكذلك يقدّم المؤلّف تقارير مأخوذة من شهود عيان.

أريد أن أظهر له أنّني أشاركه الرأي:

ــ رأيت أيضًا صورة قدم رجل متوحّش.

ــ كيف كانت؟ يسألني وهو ينحني صوبي.

---

(١) ييتي Yéti مذكّر الإنسان المتوحّش في هملايا، يدعى أيضًا رجل الثلوج المرعب.

ــ كقدم الباندا، كانت يابسة.

فقال وهو يهزّ برأسه:

ــ إذًا هذا غير صحيح. الباندا هو الباندا، وقدم رجل متوحّش هي أكبر من قدم الباندا وهي موازية تقريبًا لحجم قدم إنسان طبيعي. لماذا حدّثتك بداية عن أسنان القرد في ما مضى؟ بالنسبة لي الإنسان المتوحّش قرد منتصب لم يتطوّر ليصبح إنسانًا! فما رأيك؟

قلت وأنا أتثاءب والسبب هو دون شكّ كحول الأرزّ:

ــ ليس أكيدًا.

يسترخي ويتثاءب بدوره، تعبًا، لكونه أمضى النهار في الاجتماعات والولائم.

في اليوم التالي يتابعون اجتماعهم. أنا مضطرّ لأستريح يومًا إضافيًّا لأنّ الطريق بحسب السائق لم يتمّ إصلاحها بعد. أعود لرؤية رئيس القسم:

ــ لا أريد أن أقطع عليكم اجتماعكم. لكن ألا يوجد موظّف إداريّ قديم يعرف التاريخ المحلّي؟ أودّ التحدّث إليه.

فدلّني على شيخ قديم للمقاطعة من زمن كومنتانغ(١)، أُخلي سبيله من معسكرات العمل:

---

(١) كومنتانغ: «الحزب القومي »، حزب سياسي صيني أُنشئ عام ١٩١٢ على يد صن يات صن وأداره تشانغ كاي شيك، منذ ١٩٢٥. بعد انتصار الشيوعيّين (١٩٤٩) اقتصر نفوذه فقط على تايوان.

ـ هذا العجوز يعرف كلّ شيء. إنّه مثقّف حقًّا. والفريق الذي أنشئ حديثًا لتجميع حوليّات المقاطعة يذهب غالبًا لاستشارته، لكي يشرف على الموادّ الأساسيّة التي يعدّونها.

وبعدما استعلمت عنه من بيت لبيت، انتهى بي الأمر للعثور عليه في زقاق رطب وموحل.

إنّه عجوز نحيل، ذو نظرة ثاقبة. يدعوني للجلوس في غرفة بيته الرئيسيّة ويقدّم لي الشاي وبزر البطيخ وهو يسعل. جليّ أنّه قلق البال كثيرًا، لا يفهم الدافع من زيارتي.

أشرح له أنّي أنوي كتابة رواية تاريخيّة لا علاقة بها بالحقبة الحاليّة. جئت خصّيصًا لزيارته لكي أستشيره. ارتاح لقولي وتوقّف عن السعال والحراك وأشعل سيجارة. ثم جعل ظهره مستقيمًا كالعصا متّكئًا إلى مسند كرسيّ من خشب. ثم بدأ كلامه واثقًا:

ـ في ظلّ سلالة تشو الغربيّة، كان هذا المكان يشكّل جزءًا من بلاد بنغ في حقبتي الربيع والخريف التاريخيّتين، وكان ينتمي إلى بلاد شو. وفي ظلّ الممالك المتحاربة أصبح مكانًا استراتيجيًّا تتصارع عليه سلالتا تشين وشو. عندما اشتعلت الحرب، سقط الناس كالذباب. مع أنّ هذا حدث منذ زمن طويل إلاّ أنّ البلاد بقيت مقفرة بعد أن اجتاز السكّان الممرّات المائيّة. ومن جملة السكّان الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة، لم يبقَ إلاّ عشرة في المائة. وفي الواقع منذ ثورة العمامات الحمر، في عهد سلالة يوان، لم يكفّ اللصوص عن إعاثة الخراب في المنطقة.

لا أعرف ما إذا كان يعتبر العمامات الحمر لصوصًا.

ـ لم تضعف سلطة لي دزيتشنغ في نهاية عهد مينغ إلاّ في السنة الثانية من عهد كانغشي. في السنة الأولى من حكم جياتسينغ، كان كلّ هذا المكان مراقبًا من قبل شيعة اللوتس الأبيض، تشنغ شيانتشونغ وجيش ينان استولوا عليه أيضًا، ثم غزاه جيش تايبنغ. وإبّان الجمهوريّة، كان قطّاع الطرق الماندارين واللصوص والجنود الفارّون كثرًا.

ـ إذًا كان المكان هنا ملجأ اللصوص على الدوام؟

ضحك دون أن يجيبني.

ـ حين خيّم السلام على المنطقة، تزايد عدد السكّان نظرًا للوافدين الجدد. ذُكر في كتب التاريخ أنّ الملك بينغ من سلالة تشو، استجمع أغاني فولكلوريّة، ما يثبت أنّ هذه الأغاني كانت مزدهرة قبل سبعمائة سنة من عهدنا.

قلت:

ـ هذا موغل في القِدَم. هل بإمكانك أن تحدّثني عن وقائع عايشتها بنفسك؟ على سبيل المثال، ما هي أنواع الفوضى التي تسبّب بها هؤلاء اللصوص في عهد الجمهوريّة؟

فأجابني:

ـ بالنسبة للصوص الماندارين[١]، أستطيع أن أعطيك مثلاً. إنّ فصيلة من ألفي رجل تقريبًا رفعت لواء العصيان. اغتصب أفرادها بضع مئات من النساء، واقتادوا معهم مئتي رهينة من الكبار والأطفال

(١) ماندارين: حاكم مقاطعة أو ولاية في الصين قديمًا. من ألقاب الشرف فيها.

لكي يقايضوهم ببنادق وذخائر وقطن وأسرجة. حين كانوا يسلّمون إحدى الرهائن في الوقت المحدّد، كانوا يحصلون في كلّ مرّة على حوالى ألف يوان أو ألفين، تُدفع نقدًا. وكان يُعيّن شخص لإحضار المال إلى مكان متّفق عليه. وفي حال التأخّر، ولو لنصف نهار، كان الأطفال المأخوذون كرهائن يُعدمون، وأحيانًا، كان هؤلاء الذين يدفعون الفدية لا يتلقّون بالمقابل إلاّ أذنًا مقطوعة بغية الحصول مرّة أخرى على المال لافتداء صاحبها. أمّا اللصوص الذين لم يكونوا منظّمين في عصابات فكانوا يكتفون بنهب المال والأغراض، ويقتلون الذين يحاولون مقاومتهم.

ـ وهل عرفتم فترات سلام وازدهار؟

ـ سلام وازدهار؟.. هزّ رأسه، فكّر قليلاً. نعم حصل هذا. آنذاك كنت أذهب إلى عاصمة المقاطعة، لزيارة سوق المعبد في اليوم الثالث من الشهر الثالث: كانت هنالك تسع حلبات مسرح بدعائمها المدهونة والمنحوتة وعشر فرق تتعاقب ليلاً ونهارًا. بعد ثورة ١٩١١، خلال السنة الخامسة من الجمهوريّة، أصبحت مدارس العاصمة مختلطة ونُظّمت فيها لقاءات رياضيّة كبيرة، وكانت المتباريات من الإناث يركضن لابسات سراويل قصيرة. بعد سنة ٢٦ من تولّي الجمهوريّة الحكم، تغيّر السكّان أيضًا، وفي كلّ سنة ابتداءً من أوّل يوم في السنة حتى السادس عشر من الشهر، كانت تُقام عند تقاطع الطرق عشرات من طاولات القمار. خلال ليلة، خسر ملاّك عقاريّ كبير ثمانية معابد مكرّسة للآلهة المحلّيّين. تخيّل قليلاً كم يعادل هذا من حقول وغابات! المواخير، كان هناك أكثر من عشرين ماخورًا. من ثم نشأ النزاع بين

الأسياد الثلاثة المتصارعين، تشانغ كاي شيك، فنغ يوشيانغ، يان كيشان وأخيرًا، ومن بعده حرب المقاومة التي دمّر اليابانيّون خلالها كلّ شيء. وأخيرًا كانت سلطة الجمعيّات السرّيّة التي عرفت أوجها إلى أن أخذت الحكومة الشعبيّة بزمام الأمور. آنذاك، كانت العصابة السوداء تضمّ في عدادها أربعمائة منتسب من أصل ثمانمئة شخص في عاصمة المقاطعة. واستطاعت أن تتسلّل بنفوذها إلى الطبقات العليا، وكان أمناء حكومة المقاطعة من أعضائها، كذلك على المستوى الأدنى، كانت تراقب أيضًا الفقراء، وقد ارتكب أعضاؤها الكثير من الممارسات السيّئة، من خطف نساء وسرقة وبيع أرامل. وتوجّب على السارقين أيضًا السجود والطاعة لـ «العجوز الخامس»: إذا لم يحظوا ببعض المنن، لم يكن بالإمكان زحزحتهم من محلّهم ولا حتى بقوّة السلاح. كان أعضاء العصابة السوداء في العشرين من العمر فيما أعضاء العصابة الحمراء أكبر سنًّا بقليل، وكانوا هم عمومًا الذين يتحكّمون باللصوص.

ـ ما هي إشارات التعارف التي كان أعضاء الجمعيّات السرّيّة يستخدمونها للتواصل في ما بينهم؟

بدأت أظهر اهتمامي بالموضوع.

ـ بالنسبة لأعضاء العصابة السوداء كانوا يتّخذون اسم لي في ما بينهم وفي الخارج اسم بان. عندما كانوا يتلاقون يتنادون «يا إخوتي»، ويقولون وهم يلوّحون بأيديهم: «الفم قريب من بان أمّا الأصابع فهي ثلاثة».

جمع بين إبهامه وسبّابته على شكل حلقة مفرّقًا أصابعه الثلاثة الأخرى. ثم أردف:

ـ هذه هي إشارة التعارف. كانوا يدعون أنفسهم تباعًا، العجوز الخامس، العجوز التاسع وبالنسبة للنساء، الأخت الرابعة والأخت السابعة، وهؤلاء الذين لم يكونوا من الجيل نفسه يسمّون أنفسهم أب، ابن، معلّم، معلّمة. أمّا أعضاء العصابة الحمراء فكانوا يُدعون: «سيّد»، وأعضاء العصابة السوداء «الأخ الكبير». في الدور المخصّصة للشاي، كان يكفي أن يجلسوا ويضعوا على الطاولة قبّعاتهم ذات الحوافّ المقلوبة لكي يُقدّم لهم الشاي والسجائر على الفور.

قلت بحذر:

ـ أنت نفسك هل كنت عضوًا في إحدى العصابات؟

احتسى جرعة من الشاي وهو يضحك بعذوبة.

ـ آنذاك، لو لم أجْرِ معهم بعض الاتّصالات لكان مستحيلاً أن أصبح زعيم المقاطعة.

ثم أضاف وهو يهزّ رأسه:

ـ هذا كلّه من الماضي.

ـ هل تعتقد أنّه خلال الثورة الثقافيّة، كانت الجماعات الحزبيّة تشبه قليلاً العصابات التي حدّثتني عنها؟

أجابني بحزم:

ـ كانت الأمور تحصل بين رفاق الثورة، لا نستطيع المقارنة.

ساد الحديثَ شيءٌ من الفتور. ثم نهض الرجل من مكانه وعاد يبذل قصارى جهده ليقدّم لي شايًا وبزر بطّيخ.

ـ لم يعاملني النظام معاملة سيّئة. لو لم أدخل السجن، كان عليَّ أنا المجرم أن أمثل أمام حركات الجماهير ولما استطعت ربّما النجاة بجلدي.

ـ إنّ فترات السلم التامّ نادرة. ثم سألني بحذر:

ـ هذه هي الحال اليوم! نجتاز مرحلة حيث البلاد في سلام والشعب هادئ مطمئنّ، أليس كذلك؟

ـ لدينا ما نأكله وما نشربه.

ـ فماذا نطلب أكثر؟

ـ هذا صحيح.

ـ ما دمت أستطيع أن أقرأ فأنا سعيد. ثم أضاف وهو ينظر إلى الباحة: لا يستطيع المرء أن يتذوّق طعم السعادة الحقّة إلاّ حين تنشط علاقة الناس في ما بينهم.

ثمّ عاد المطر لينهمر رذاذًا.

الفصل الثامن والخمسون

عندما صنعت نووا الرجل، صنعت شقاءه. تحوّلت أحشاء نووا إلى رجل مخلوق في دم امرأة، وأبدًا لن يتطهّر.

يجب ألاّ تسبر أغوار النفوس، يجب عدم البحث عن الأسباب والنتائج، عدم البحث عن المعنى. كلّ شيء ليس إلاّ فوضى.

الإنسان لا يصرخ إلاّ عندما لا يفهم ومن يصرخ لم يفهم شيئًا. الإنسان كائن صعب يخلق عذاباته بالذات.

هذه «الأنا» التي تفصلك عن «أنت» ليست إلاّ انعكاسًا في المرآة، الصورة المقلوبة للأزهار في المياه، إذا لم تشاهد نفسك في المرآة فلن تتوصّل إلى اكتشاف أيّ شيء كان ولن تفعل شيئًا سوى الإشفاق على نفسك وخسارة كلّ شيء.

الأفضل لك أن تواصل عشق صورة جميع الكائنات المتحرّكة حتى الهيام، الغوص في محيط الرغبات. أمّا الحاجات الروحيّة المزعومة فليست سوى نوع من الاستمناء الذي يجعل مظهرك ممتقعًا.

الحكمة هي أيضًا نوع من الترف، نوع من هدر مترف.

لا رغبة لك إلاّ في استعراض الوقائع متوسّلاً لغة تتخطّى علاقات العلّة بالمعلول وتتجاوز قواعد المنطق. لقد رُويت حماقات كثيرة، لا شيء يمنعك من رواية حماقة إضافيّة.

تختلق أشياء وأشياء، تتلاعب باللغة كما يلهو ولد بالمكعّبات.

ولكن من خلال المكعّبات تُخلق فقط أشكال ثابتة، جميع البنى محتواة ولا شكّ في المكعّبات، من المستحيل فعل شيء ما جديد، أيًّا تكن طريقة تركيبك إيّاها.

اللغة مثل كرة عجين تنساب عبرها الجُمَل، وحين تتخلّى عن الجمل يصبح الأمر وكأنّك تغرق في حفرة موحلة لا تستطيع الخروج منها.

الإنسان وحيد في مواجهة الهموم والعقبات. حين تسقط فيها، عليك الخروج منها بنفسك، ما من منقذ يتولّى الاهتمام بهذه الأمور التافهة.

تزحف على اللغة وتجرّ خلفك أفكارك الثقيلة. تودّ أن تشدّ سلكًا جاذبًا يساعدك في الخروج من المأزق، لكن كلّما زحفت، كلّما أُنهكت وقيّدت نفسك بسلك اللغة الناقل، ومثل دودة قزّ تنسج شرنقتها، تصنع شبكة حولك تحبسك في شَرَك ظلمات كثيفة باطّراد. النور الخافت داخل قلبك يصبح واهيًا أكثر فأكثر، وفي طرف الشبكة ليس هناك إلاّ الفوضى.

عندما تضيع الصور يضيع المكان أيضًا، وعندما يضيع الصوت تضيع اللغة أيضًا. إنّها الهمهمة دون ضجّة. تجهل في نهاية المطاف ما

ترويه وفي قلب الوعي يبقى مع ذلك قليل من رغبة، وحين تتلاشى هذه الرغبة الضئيلة نفسها، تصل إلى النيرفانا.

كيف يمكننا العثور أخيرًا على لغة صافية وشفّافة، وموسيقيّة منسابة أرقى من اللحن نفسه، لغة تتعدّى القواعد التي حدّدها علم الصرف ونظم الكلام، دون تفرقة بين الموضوع والذات، تتجاوز الأشخاص وتتحلّل من المنطق، في تنامٍ مستمرّ، من غير الركون إلى الصور أو الاستعارات، ولا إلى تداعي الأفكار ولا الرموز؟ لغة قادرة كلّيًّا على التعبير عن عذابات الحياة والخوف من الموت والآلام والفرح والوحدة والعزاء والحيرة والانتظار والتردّد والحزم والضعف والشجاعة والغيرة والندم والهدوء ونفاد الصبر والثقة بالنفس والسخاء والانزعاج والطّيبة والحقد، والشفقة والإحباط، واللامبالاة والسلام والحقارة والخبث، والشهامة والقسوة، والضراوة والطيبة، والحماسة والبرودة، وعدم التأثّر والصدق والوقاحة والغرور والطمع والاحتقار والاحترام والتبجّح والشكّ، والتواضع والكبرياء، والعناد والاستنكار والتفجّع والعار، والشكّ والدهشة، والتعب والتداعي واليقظة الكبرى، وعدم الفهم المتواصل وعدم الفهم دومًا وأبدًا، والرحيل بسبب هذا كلّه؟

الفصل التاسع والخمسون

أنا ممدّد فوق سرير مزوّد بنوابض ومجهّز بغطاء نظيف. الحيطان مغلّفة بورق جدران من اللون الأصفر الشاحب تزيّنه أزهار نافرة، وعند النوافذ ستائر بيضاء مطرّزة بالصنّارة، وعلى الأرض بُسطت سجّادة حمراء داكنة، وقبالتي كنبتان تغطّيهما مناشف كبيرة. الغرفة مجهّزة بغرفة استحمام ومغطس. لو لم أكن أحمل في يدي ديوانًا منسوخًا عن أغاني الفلاّحين «طبول وصنوج لنزع الأعشاب الرديئة»، لشقّ عليَّ كثيرًا التحقّق من أنّي موجود في منطقة شنونغجيا الحرجيّة. هذا المنزل بطابق واحد حديث الصنع، وقد بناه فريق تنقيب أميركيّ. ولكن بما أنّ هذا الفريق لم يستطع القدوم لسبب أو لآخر، فقد حُوّل إلى مركز استقبال للقادة الذين يجيئون في جولة تفتيش. وبفضل اهتمام رئيس القسم، أتمتّع بمعاملة خاصّة في المنطقة الحرجيّة. احتُسبت عليّ النفقات المترتّبة عن الإقامة بأرخص الأسعار، وعند كلّ وجبة يقدّمون لي البيرة مع أنّي أفضّل في الواقع كحول الأرزّ. هذه الراحة وهذه النظافة تشعرانني بسلام عميق وأفضّل البقاء لبضعة أيّام إضافيّة. وإذا أمعنت التفكير، لا شيء يدعوني إلى استئناف سيري بهذه العجلة.

أسمع أزيزًا ما. للوهلة الأولى خطر لي أنّها حشرة، لكن بعدما تحرّيت الغرفة، لاحظت أنّها لا تستطيع اللجوء إلى أيّ مكان، لأنّ السقف ومصاريع النافذة بيضاء كالحليب. يستمرّ الأزيز، وكأنّه معلّق في الفراغ. أرهف السمع فأشعر أنّه صوت أنثويّ يحوم من حولي ويختفي حين ألقي الكتاب جانبًا. آخذ الكتاب من جديد فأسمع من جديد هذا الصوت في أذني. وحين توهّمت أنّ أذنيّ تطنّان، نهضت صراحة وفتحت النافذة.

أمام المبنى، تمتدّ مساحة من الحصباء تغمرها الشمس. إنّه وقت الظهيرة. ما من أثر لإنسان. ربّما كان هذا الصوت صادرًا عنّي. إنّه إيقاع يصعب متابعته، وفق كلمات غير مفهومة، لكن يبدو لي أليفًا مع ذلك، ويشبه إلى حدّ ما أغاني الحداد التي تنشدها القرويّات في المناطق الجبليّة.

أقرّر الخروج وإلقاء نظرة على المكان. في أسفل المبنى يسيل جدول باندفاع نزق، مياهه زرقاء تنيرها الشمس. في الجوار، قمم الجبال، حتى لو لم تكن مكسوّة بالغابات، تكتسي مع ذلك بغطاء نباتيّ وفير.

في أسفل المنحدر، طريق غير معبّدة تتّجه إلى ضيعة صغيرة واقعة على بعد «ليين» اثنين. إلى الشمال، عند سفح القمم المخضوضرة، توجد مدرسة. ما من تلميذ في ملعب الرياضة، ربّما كانوا جميعهم في الداخل يتابعون الدروس. في جميع الأحوال، إنّ معلّمي هذه القرية الجبليّة لا يمكنهم أن يعلّموا تلاميذهم الأغاني الجنائزيّة. ثم إنّ الصمت التامّ يرين

هنا. لا يُسمع سوى صفير الريح في الجبل وخرير الجدول. على ضفّته مكان استراحة للعمّال لكن لا أرى أحدًا في الخارج. توقّف الغناء بطريقة غير ملحوظة.

أعود إلى غرفتي وأجلس أمام المكتب قرب النافذة، لكي أُعيد كتابة توثيقي للأغاني الفولكلوريَّة؛ لكنّي، في هذه اللحظة، أسمع الصوت يعاود غناءه كما لو أنّه، بعد الألم، يعبّر الآن عن حزن هادئ، لكن لا يمكن إخفاؤه، متروك على سجيّته العذبة. بدأت أجد هذا الأمر غريبًا فعلاً وأودّ استجلاءه: هل هناك أحد يغنّي فعلاً أم أنّني أهذي؟ عندما أرفع رأسي، يأتي الصوت من خلف رقبتي، وعندما ألتفت يبقى وكأنّه معلّق في الهواء، واضح مثل خيط العذراء[1] ومع ذلك إنَّ لخيط نسيج العنكبوت الذي يخفق في الهواء شكلاً؛ أمّا هو فلا شكل له، ومتعذّر المنال.

أجلس على مسند الكنبة محاولاً متابعته. أكتشف أخيرًا أنّه آتٍ من كوّة النافذة فوق الباب. أتسلّق الكرسيّ لأفتح النافذة النظيفة كدرهم مجلوّ، التي تشرف على الرواق المسقوف. أخرج الكرسي من الغرفة لكنّي لست على ارتفاع يسمح لي برؤية المكان الذي يتصاعد منه الصوت. أمام الرواق، تمتدّ باحة صغيرة من الإسمنت معرّضة للشمس جعلتُ فوقها سلكًا حديديًّا لكي أنشر عليه ثيابي التي غسلتها هذا الصباح لتجفّ، وبالطبع ليست ثيابي التي تحدث هذا الغناء. على مسافة أبعد، ينتصب

---

(١) خيط العذراء: سلك أبيض دقيق يلمع في الهواء وتطرحه العناكب ويظهر في الخريف.

جدار مسوّر تحت الجبل وخلفه المنحدر المكوّن من أرض مفلوحة وأجمات من الشوك. ما من طريق. أخرج من الرواق متقدّمًا تحت أشعّة الشّمس. يزداد الصوت وضوحًا. لكأنّه آتٍ من الضوء المبهر فوق السطوح. أطرف بعيني نحو السماء، إنّه صوت معدنيّ، حادّ وواضح. نظري معتكر، لكن عندما تتحوّل الشمس التي تعميني إلى انعكاس أزرق مسودّ أظلّل عينيّ بيدي فألمح على أحد الجروف الجرداء، عند سفح الجبل، بعض القامات الصغيرة المتحرّكة. الصوت المعدني يأتي من هناك. وأتميّز أخيرًا أنّهم كسّارو حجارة. أحدهم يبدو وكأنّه يرتدي قميصًا أحمر دون أكمام في ما جذوع الآخرين العارية تكاد تلمح على الجرف البنيّ المائل إلى الأصفر الذي يجري تفجيره. الغناء ينتقل في أشعّة الشمس وفقًا لحركة الريح ويكون أحيانًا حادًّا جدًّا وأحيانًا أخفّ حدّة.

يخطر ببالي أنّه في مستطاعي استخدام الزوم في آلة التصوير التي في حوزتي لأراهم عن قرب. وفي الواقع، أرى رجلاً يرتدي قميصًا أحمر دون أكمام يحمل في يده مطرقة، والصوت الذي يشبه أغاني الحدو لدى القرويّات يستجيب للصوت الذي يحدثه المثقاب، ويبدو أنّ الرجل الذي يمسك بالمثقاب هو الذي يحدث ذلك الصوت.

ربّما لاحظوا انعكاس الشمس على عدسة الكاميرا لأنّ الغناء توقّف. انقطع كسّارو الحجارة عن عملهم، ونظروا في اتّجاهي، ما من صوت، صمت، مريب تقريبًا. ومع ذلك فأنا سعيد، إذ ثبت لي أخيرًا أنّي لا أشكو من أيّ خلل، وأنّ سمعي طبيعي.

عدت إلى غرفتي، أرغب في كتابة شيء ما، لكن ماذا؟ لم لا أدوّن أغاني كسّاري الحجارة؟ لكنّي لا أتوصّل إلى كتابة كلمة واحدة. أقول في نفسي إنّ لا شيء يمنعني من الذهاب لتناول كأس برفقتهم وتبادل الأحداث معهم في المساء. هذا سوف يسلّيني. أضع قلمي جانبًا وأنحدر نازلاً إلى الضيعة.

في حانوت صغير، أشتري زجاجة كحول وفولاً سودانيًّا. ألتقي صدفة على الطريق بالصديق الذي أعارني الوثائق، يقول لي إنّه جمّع في الجبل أيضًا كرّاسات لمخطوطات عن الأغاني الفولكلوريّة. لم أكن أحلم بالحصول على أكثر من ذلك ودعوته لمرافقتي حتى نتبادل الأحاديث معًا. وبما أنّه منشغل الآن، ضرب لي موعدًا بعد العشاء.

في المساء، أنتظره حتى بعد الساعة العاشرة. أنا الضيف الوحيد في مركز الاستقبال، والصمت يشدّ على صدري. أندم فعلاً لكوني لم أذهب للثرثرة مع كسّاري الحجارة. فجأة ينقر أحدهم على الزجاج. أتعرّف إلى صوت صديقي وأفتح النافذة. يقول لي إنّ وكلاء المبنى أقفلوا الباب الرئيسي بالقفل. آخذ منه مصباح اليد وكيس الورق الذي يحمله. يدخل من النافذة، ما يدخل السرور إلى قلبي. وأفتح على الفور زجاجة الكحول ويسكب كلٌّ لنفسه أكثر من نصف طاسة.

أعجز الآن عن تذكّر هيئته الخارجية. ربّما كان ضعيف البنية ونحيلاً، ضامر الخصر، مديد القامة. كان يبدو خجولاً بعض الشيء، ولكنّه يظهر في طريقة كلامه حماسة لم يؤثّر فيها مرور الزمن. سحنته

لا تلفت النظر، لكنّي سُررت لأنّه أطلعني على الكنز الذي يحمله حين فتح كيسه الورقي. ما خلا بعض المفكّرات، كان الباقي يتضمّن مخطوطات للأغاني الفولكلوريّة التي لا تزال تُغنّى في أيّامنا. أتصفّحها واحدة واحدة. عندما لاحظ علامات الرضى بادية على وجهي، قال لي باندفاع:

ــ ما عليك إلاّ أن تنسخ الأغاني التي تحبّها. في هذه الجبال، الأغاني الفوكلوريّة وافرة منذ زمن بعيد، وإذا عثرنا على أستاذ غناء، يمكنه أن يغنّي منها أيّامًا وليالي متواصلة.

أسأله عندئذٍ عن أغاني كسّاري الحجارة.

ــ أوه، إنّها ألحان عالية جدًّا. وهؤلاء الرجال جاؤوا من بادونغ. في جبالهم فرغوا من قطع الأشجار المتواجدة في قراهم الجبليّة فقدموا ليكسّروا الحجارة.

ــ هل لديهم ألحان وكلمات خاصّة؟

ــ يوجد إلى حدّ ما ألحان موسيقيّة، لكن في ما يخصّ الكلمات فهم يرتجلونها. يغنّون ما يخطر على بالهم وهذا الغناء ماجن جدًّا معظم الوقت.

ــ هل هناك شتائم كثيرة في أغانيهم؟

فأجابني ضاحكًا:

ــ هؤلاء العمّال يبقون لوقت طويل بعيدين عن بيوتهم وعن زوجاتهم وهم يكسّرون الحجارة.

ــ استمعت إلى ألحانهم كيف لها أن تبدو حزينة ومثيرة للشجون إلى هذا الحدّ؟

ــ إنّها هكذا، إذا لم نفهم الكلمات، نخالها ندبًا يلذّ سماعه، لكن في الواقع ليس للكلام أيّة أهمّيّة. ألقِ نظرة بالأحرى على هذه الأغاني.

أخرج من كيسه مفكّرة وفتحها ثم أعطاني إيّاها. بعد **حوليّة الظلمات** (وهي أغنية تمهيديّة)، يُقرأ ما يلي:

في يوم ميمون، انفصلت السماء عن الأرض

دعتنا العائلة المحترمة وجماعة الأصدقاء إلى الرقص والغناء.

عندما وصلنا، إلى بيدر الأغاني، أنشدنا المطلع:

واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة، ذهب خشب ماء معدن تراب.

يصعب أداء أغنيتي.

قبل أن نفتح فمنا نبدأ بالتعرّق.

الليل عميق، الناس ساكنون، القمر لامع والنجوم نادرة،

نتحضّر لغناء الأغنية.

إذا كانت الأغنية طويلة، عميقًا سيكون الليل.

وإذا كانت قصيرة، فستنتهي قبل طلوع النهار.

وإذا غنّينا أغنية لا قصيرة ولا طويلة

فإنّنا لن نؤخّر المغنّين الآخرين.

في الأغنية الأولى تتجمّع السماء والأرض والمياه.

في الأغنية الثانية الشمس والقمر والنجوم.

في الثالثة، تتفتّح الأراضي في الجهات الخمس.

في الرابعة الأمّ الرعد تطلق بروقها.

في الخامسة بان غو يفصل السماء عن الأرض.

في السادسة، يظهر الأسياد الثلاثة والأباطرة الخمسة والأجيال المتعاقبة للأباطرة والأمراء أصحاب الإقطاعات.

في السابعة تظهر الأسود والفيلة البيض والتنّين الأصفر والعنقاء.

في الثامنة الكلب الشرّير حارس الأبواب.

في التاسعة، آلهة الجبال والغابات والمياه.

في العاشرة النمر والفهد والذئب وابن آوى.

قفوا على الطرف، تنحّوا،

اسمحوا لنا، أيّها المغنّون، بالدخول إلى بيدر الأغنية!

ــ رائع أين وجدتها؟

ــ دوّنتها منذ سنتين لدى أستاذ أغاني عجوز، عندما كنت معلّمًا في الجبل.

ـ اللغة التي كُتبت فيها رائعة حقًّا، الكلمات تخرج مباشرة من القلب، من دون القيود العروضيّة التي تلزمها بخمسة مقاطع صوتيّة أو ستّة!

ـ أنت على حقّ، إنّها أغانٍ شعبيّة حقيقيّة.

تجاوز خجله تمامًا تحت تأثير الكحول.

ـ لم يحرّف الأدباء كلماتها، إنّها أغانٍ طالعة من الروح. هل تفهم ذلك؟ لقد أنقذْتَ هذه الثقافة من الضياع. ليس فقط ثقافة الأقليّات الإتنيّة، بل إتنيّة هان نفسها لا تزال تمتلك ثقافة حقيقيّة شعبيّة محتفظة بأصالتها، ولم تفسدها الأخلاقيّة الكونفوشيوسيّة.

أجدني في قمّة الإثارة.

ـ أنت على حقّ، لكن اهدأ، اقرأ البقيّة!

مفعمًا بالنشاط، تخلّى عن هذا التواضع السطحي الذي يغمر صغار الموظفّين، وأخذ من جديد مفكّرته وبدأ يلقي القصائد مقلّدًا أحد أساتذة الغناء في أوج مجده.

هنا، أحيّي ويداي مضمومتان،

من أيّ بلاد أنت أيّها المغنّي؟

أين مسكنك؟

لماذا أنت؟

هاك جوابي:

من يانغتشو، أنا مغنٍّ

ومن ليوتشو أصل،

أزور أصدقائي المغنّين

هاك سبب مجيئي

وأطلب منكم الصفح.

ماذا تحمل على كتفيك؟

ماذا تضع في سلّتك؟

ثقيلٌ حملك فتحدّب ظهرك والتوت قامتك.

أرنا، يا معلّم كيف يكون الغناء، لو سمحت.

على كتفيّ، أحمل ديوان أغانٍ

وفي يدي أمسك كتابًا غريبًا

هل قرأتها كلها؟

تعمّدت المجيء إليكم لأستعلم.

لديَّ الإحساس بأنّي أرى رجلاً، وأسمع صوتًا آخر وأسمع الصنوج والطبول. ومع ذلك، ففي الخارج لا يُسمع إلاّ زئير الريح وخرير الجدول.

من الأغاني أنقل ثلاثمئة وستّين عبئًا.

فأيّها تختارون؟

أيّة رزمة تريدون؟

أريد أن أقول لأستاذ الأغاني إنّني مدعوّ

المدرجة الأولى هي كتب الأصول.

المجلّد الأول، هو نصوص الأصول.

في الحال، فهمت.

أستاذ الأغاني بارع في مهنته.

بوسعه معرفة وقائع الأصول،

بوسعه معرفة الجغرافيا وعلم فلك الأجيال اللاحقة.

هنا جئت أسأله.

في أيّة سنة، أيّ شهر ظهرت الأغاني؟

في أيّ شهر، أيّ يوم وُلدت الأغاني؟

لديّ الانطباع بأنّي أستمع إلى صوت العجوز الشجيّ والصقيعيّ في الظلمة، على إيقاع قرعات الطبل التي تحدثها الريح.

فوشي، صنع القيثارة

نووا ابتكرت آلة الأرغن.

وبفضل ين خُلقت اللغة

وبفضل يانغ خُلق الصوت

ومن اندماج ين ويانغ، خُلق الإنسان

عندما خُلق الإنسان، ظهر الصوت،

وعندما وُلد الصوت، ظهرت الأغاني،

وعندما كثر عددها، جُمعت الدواوين

آنذاك الكتب التي نقّحها كونفوشيوس

ضاعت في صحراء،

المجلّد الأول طيّرته الريح حتى السماء

وعندئذٍ وُلد الحبّ بين البقّار والحائكة.

والمجلّد الثاني دفعته الريح إلى البحر

ولكي يروّح عن نفسه، التقطه الصيّاد العجوز وغنّاه.

والمجلّد الثالث دفعته الرّيح إلى المعابد، فغنّى الرهبان البوذيّون الطاويّون آيات السوترا،

والمجلّد الرابع سقط في شوارع القرية،

فغنّى الفتيان والفتيات حبّهم.

والمجلّد الخامس وقع في حقول الأرزّ فغنّى الفلاحون أغاني الجبال.

والمجلّد السادس، هو **حوليّة الظلمات** هذه تغنّى لروح الموت، استجمعها أستاذ الغناء.

ـ إنّها الأغنية التمهيديّة، فما قصّة **حوليّة الظلمات** هذه. طرحت عليه السؤال وقد توقّفت عن التجوّل في أرجاء الغرفة.

قال لي إنّ هذا الكتاب هو ديوان أغانٍ جنائزيّة تُنشد خلال المآتم في القرى منذ زمن بعيد. كانوا يغنّونها ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ متواصلة في الساحة أمام قاعة الجنازة، قبل أن يوضع النعش في التراب. لكن لم يكن بالإمكان إنشادها بخفّة في ظروف أخرى. حين تُغنّى، يصبح محرّمًا إنشاد أغانٍ أخرى. لم يدوّن إلاّ جزء صغير منها، لم يتخيّل أنّ أستاذ الأغاني سيُصاب بمرض قاتل ويلقى حتفه.

ـ لماذا لم تدوّنها كلّها آنذاك؟

قال لي بلهجة من ارتكب خطأً، مستعيدًا هذه السيماء من الدعة المتواضعة:

ـ كان العجوز مريضًا جدًّا، ممدّدًا فوق سرير صغير متدثّرًا بأغطيته.

ـ ألا يوجد شخص آخر قادر على إنشاد هذه الأغاني في الجبال؟

ـ ثمّة من لا يزال يذكر المطلع، لكن لم نعد نجد من يتذكّرها كاملة.

يعرف أستاذًا عجوزًا يملك صندوقًا معدنيًّا مليئًا بدواوين الأغاني ومن بينها **حوليّة الظلمات**. في الحقبة التي كانوا يحصون فيها الكتب القديمة، كانت هذه الحوليّة معتبرة كنموذج مثاليّ للشعوذات الرجعيّة.

فدفن العجوز الصندوق. وعندما أخرجه من تحت الأرض بعد بضعة أشهر كانت الكتب قد تعفّنت. تركها تجفّ في الباحة أمام بيته لكن أحدًا ما وشى به. فأرسلوا شرطيًّا أرغمه على تسليم كلّ شيء إلى أعضاء الحكومة. وبعد فترة قصيرة، تُوفّي.

ــ في أيّ مكان لا يزالون يكرّمون الأرواح؟ هل من مكان لا تزال تُغنّى فيه الأغاني حيث يُصغي المستمعون إليها بانتباه كلّيّ، وهم جالسون في الصمت وساجدون على الأرض؟ لم يعد هناك إجلال لما يستحقّ أن نُجلّه، لا يُجلّون إلاّ أمورًا غريبة! هل من أمّة دون روح! ما جدوى أمّة فقدت روحها!

استشطْتُ غيظًا واستنكارًا.

أدرك أنّني شربت كثيرًا إذ أرى السيماء التي يُبديها حيال مظهري المأسويّ.

عند الصباح، توقّفت سيّارة جيب أمام المبنى. جاؤوا لإبلاغي بأنّ مسؤولين وموظّفين حكوميّين من المنطقة الحرجيّة دعوا إلى اجتماع على شرفي لكي يطلعوني على أعمالهم، ما أشعرني بحرج كبير. لا بدّ أنّني أثناء وجودي في عاصمة المقاطعة، تلفّظت تحت تأثير الكحول ببعض العبارات التي جعلتهم يعتقدون أنّني أتيت من العاصمة متحرّيًا. يتخيّلون ولا شكّ أنّني أستطيع أن أنقل شكاويهم إلى مرؤوسيهم. السيّارة متوقّفة عند الباب، مستحيل عليّ أن أتملّص.

الموظّفون الحكوميّون جلسوا منذ وقت طويل في قاعة الاجتماع، وأمام كلٍّ منهم طاسة شاي. لم أكد أجلس حتى قدّموا لي شايًا ساخنًا.

تمامًا كما تصرّفوا معي عندما كنت أرافق وفدًا من الكتّاب. جمعيّة الكتّاب تنظّم من وقت لآخر زيارات إلى المعامل والثكنات والحقول والمناجم، ومراكز الأبحاث، عن الأعمال الحرفيّة الشعبيّة والمتاحف التذكاريّة للثورة، بحجّة مساعدة الكتّاب على التعرّف إلى الحياة. وبهذه المناسبات، كان هناك دومًا كتّاب يتزعّمون الأدباء الآخرين ويوجّهونم ويلقون الخطب في ساحة الشرف. أمّا الكتّاب الصغار أمثالي الذين كان تواجدهم هناك زيادة عدد فقط، فبإمكانهم دومًا أن يجدوا مكانًا بعيدًا عن الأنظار والقبوع في إحدى الزوايا واحتساء الشاي، لكن دون التفوّه بكلمة. لكنّهم اليوم دعوا لاجتماع من أجلي، وعليّ أن أفكّر قطعًا بالذي سأقوله.

أحد الموظّفين الإداريّين قام بداية بمجمل تاريخي للمنطقة الحرجيّة وإنشائها. شرح لي أنّه في سنة ١٩٠٧، جاء رجل إنكليزي يدعى ويلسون لجمع عيّنات. آنذاك، كانت المنطقة مقفلة، ولم يستطع الوصول إلاّ إلى أطراف الإقليم. هنا، قبل سنة ١٩٦٠ كان المكان عبارة عن غابة عذراء لا يستطيع نور الشمس اختراقها، ولم يكن يُسمع إلاّ خرير الجداول. خلال الثلاثينيّات سمحت حكومة كومنتانغ بقطع الأشجار فيها، لكن بغياب الطرقات، لم يستطع أحد ولوجها.

في سنة ١٩٦٠، وُضعت خريطة للمنطقة تحت إشراف مصلحة التصوير المسحيّ الضوئيّ لوزارة الغابات، بحيث بلغت مساحتها الإجماليّة ٣٢٥٠ كلم^2 من الغابات الجبليّة بدأ استغلالها في سنة ١٩٦٢ من الشمال والجنوب، وفي سنة ١٩٦٦ تمّ تدشين أوّل خطّ للمواصلات.

في سنة ١٩٧٠ أُعدّ التقسيم الإداري، وأُحصي وجود أكثر من خمسين ألف مزارع، وحوالى عشرة آلاف موظّف إداري وعامل في إعادة تحريج الغابات مع عائلاتهم. اليوم، أكثر من تسعة آلاف م^2 من الخشب يتمّ قطعها بإشراف الدولة.

في سنة ١٩٧٦ أطلق العلماء نداءً لحماية شنونغجيا.

في سنة ١٩٨٠، أطلقت فكرة إنشاء محميّة طبيعيّة.

في سنة ١٩٨٢، قرّرت الحكومة الإقليميّة أن تُنشئ محميّة مساحتها مليون ومئتي ألف mus[١].

في سنة ١٩٨٣ طرد فريق إنشاء المحميّة فريق التحريج من المنطقة المحميّة وحدّد أربعة أبواب للوصول إلى كلّ من جهاتها. ثم أقام دوريّات راقبت المركبات أكثر من الناس. السنة الفائتة، في شهر واحد، أُحصي ثلاثمئة إلى أربعمئة شخص نبشوا جذامير الـــCoptide[٢] واقتلعوا قشور الياسمين، معتقدين أنّها قشور Eucommia[٣] المستعملة في قوانين الصيدلة الصينيّة وقطعوا الأشجار واصطادوا الطيور سرًّا. إضافة إلى ذلك أقام البعض مخيّمًا للبحث عن الإنسان المتوحّش.

---

(١) mus: وحدة قياس، تساوي المكيرون.

(٢) Coptide: نبتة لها فضائل طبّيّة عديدة تُدعى أيضًا الجذر الأصفر أو سافوايان.

(٣) Eucommia: نبتة صينيّة طبّيّة تقي الكبد والكليتين وتقوّي العظام.

«في ميدان البحث العلميّ، أعاد فريق صغير غرس بضعة هكتارات من أشجار تونغ. وقد نجح توليد الـ Emmenopterys henryi[١]، وهو توليد غير جنسي. وزُرعت أيضًا أعشاب طبّيّة بريّة مثل Perle-sur tête; Bol-d'eau-des-rives; Tige-pinceau; Fleur-à-spet-feuilles; Herbe-sauve-la-vie[٢].

«يوجد أيضًا فريق يعمل على إحصاء الحيوانات البرّيّة ومن بينها الإنسان المتوحّش. وُضعت لائحة بالقرد ذي الأنف الخانس والفهود والدبّ الأبيض، وسنّور الزبّاد، والأيّل، والخروف الأسود، والأُرويّة، والطاووس الذهبي، والسمندر العملاق، وأيضًا حيوانات مجهولة كالدببة الخنازير، والذئاب رأس الحمار التي تأكل الخنازير الصغيرة، بحسب ما يقول الفلاّحون.

«وبدءًا من سنة ١٩٨٠، عادت الحيوانات إلى التكاثر داخل المحميّة، السنة الفائتة شوهد صراع بين ذئب رمادي وقرد ذي أنف خانس، وسُمع صراخ قرد آخر، وشوهد ملك القرود يقطع الطريق أمام الذئب الرماديّ. خلال شهر آذار تمّ اعتقال قرد صغير على أحد الأشجار لكنّه ما لبث أن مات نتيجة عدم تناوله الطعام. وعاد أيضًا السويمنغا وهو عصفور يأكل رحيق الأزاليّات. بدنه أحمر وذنبه مثل الأوركيديا ومنقاره حادّ.

---

(١) Emmenopteyrs henryi: شجرة مصدرها الصين نادرة جدًّا تتحمّل البرد وتزهر لسنين عديدة متواصلة.

(٢) يشير الكاتب إلى أنّها أسماء نباتات غير علميّة.

«المشكلة أنّ الناس لا يملكون مفهومًا واحدًا عن حماية الطبيعة. بعض العمّال غاضبون لأنّهم لا يستطيعون أن ينالوا علاوات. إذا انخفض إنتاج الخشب المقطوع تُلقي السلطات العليا اللوم علينا، هنالك أيضًا أربعة آلاف مزارع يطرحون مشكلة. عدد الموظّفين الإداريّين وعمّال المحميّة عشرون وهم يعيشون في ملاجئ موقّتة، وليست لديهم بيوت مجهّزة. المشكلة الرئيسيّة هي أنّه لم نحصل على قروض، ولقد أطلقنا نداءات عديدة...».

وأخذ الموظّفون يتكلّمون مداورة وكأنّهم يتوسّلون إليّ بالتدخّل للحصول لهم على المال. أفضّل التوقّف عن سماع الملاحظات.

لست رئيس اتّحاد الكتّاب، ولا كاتبًا يُرشد زملاءه، ويستطيع الكلام بثقة، وتوجيه تعليمات في الحال آخذًا بعين الاعتبار مجمل المشكلة، ثم القيام بسلسلة من الوعود الجوفاء، القول مثلاً إنّني سأتحدّث بخصوص هذه المسألة لدى هذا الوزير أو ذاك، أو توصيفها لهذا القطاع الإداري المختصّ أو ذاك، وإنّني سأطلق نداء صارخًا، وسأجعل الرأي العامّ يستنفر لتعبئة الشعب بأكمله من أجل حماية بيئة أمّتنا الطبيعيّة! لكنّي لست في موقع يسمح لي حتى بحماية نفسي، فماذا بوسعي أن أفعل؟ كلّ ما أستطيع قوله هو أنّ حماية البيئة الطبيعيّة أمر هامّ جدًّا، وأنّ هذه الحماية تؤثّر في مستقبل أطفالنا والأجيال الآتية، وأنّ اليانغتسي أصبح أصلاً مثل هوانغهي، وأنّ الرمل يتراكم فيه، ويُراد، فوق ذلك، بناء سدّ

كبير على«المضائق الثلاثة»! ولكن بالطبع لا أستطيع أن أقول هذا أيضًا، وأفضّل أن أطرح أسئلة عن الإنسان المتوحّش.

قلت:

ــ وهذا الإنسان المتوحّش تكلّموا عنه في كلّ البلاد...

وأكبّوا على التحدّث في الموضوع.

ــ بالتأكيد نظّمت أكاديميّة العلوم في بكين عدّة دراسات. الأولى سنة ١٩٦٧، ثم في سنة ١٩٧٧ و١٩٨٠. وفي كلّ مرّة تأتي بعثات لتقصّي الحقائق لكن بعثة سنة ١٩٧٧ كانت الأهمّ: مئة وعشرة رجال في فريق التنقيب، معظمهم من العسكريّين، من دون احتساب الموظّفين الإداريّين والعمّال الذين أرسلناهم نحن أنفسنا. كان هنالك أيضًا المفوّض السياسيّ للقسم..

وعاودوا أحاديثهم.

أيّة لغة يجب أن أستخدمها لكي أتحدّث إليهم بقلب مفتوح؟ وأسألهم كيف يمارسون حياتهم هنا. بالتأكيد، سيحدّثونني أيضًا عن توفير الحاجات المادّيّة، عن سعر السلع الشائعة الاستعمال، عن أجورهم، فيما وضعي المادّي في أسوأ حالاته. وفوق ذلك هل هذا فعلاً مكان للثرثرة؟ لا أستطيع أن أقول لهم أيضًا إنّ العالم الذي نعيش فيه يزداد فهمه صعوبة، وإنّ الأفعال الإنسانيّة تزداد غرابة، والناس لا يعرفون حتى ماذا يريدون، من دون أن تغيب عن بالي مسألة التحرّي عن الإنسان المتوحّش. لكن عمَّ أحدّثهم إن لم يكن عن الإنسان المتوحّش؟

يقولون إنّ أحد المدرّسين رآه في العام الفائت، كان ذلك في الفصل نفسه، في شهر حزيران أو تمّوز، ولم يجرؤ على الكلام عنه. لم يُسرّ بالموضوع إلاّ إلى صديقه المفضّل، موصيًا إيّاه بكتمان الأمر. هذا صحيح، منذ فترة قصيرة، نشر أحد الكتّاب «**القصّة الحزينة لإنسان شنّونج المتوحّش**» في إحدى المجلاّت في خُنان، مجلّة **دونغيتنغ**. وصلت المجلّة إلى هذه المنطقة وقرأوها جميعهم، ومن هنا انطلقت حركة البحث عن الإنسان المتوحّش التي امتدّت حتى خُنان، جيانغشي، تشينغهاي، فوجيان، سيتشوان، غيتشو، أنهوي... (لا ينقص إلاّ شانغهاي!) وجرى الحديث عن الموضوع في كلّ مكان! في غوانكشي، أُمسك فعلاً برجل صغير متوحّش ــ يسمّونهم هناك أبالسة الجبال ــ لكنّ الفلاّحين الذين ينظرون إليه نظرة شؤم أفلتوه (يا للخسارة). ثم هناك من أكلوا لحم الإنسان المتوحّش. حدّث ولا حرج، على أيّة حال أثبت أعضاء فريق التقصّي ذلك ولديهم وثائق مكتوبة. يؤكّدون أنّ عشرين شخصًا سنة ١٩٧١، ومن بينهم تشانغ رنغوان، ووانغ ليانغتسان، وجميعهم تقريبًا عمّال في محميّتنا، أكلوا في مطعم مزرعة يانغريوان ربلة ساقِ رجل متوحّش وقدمه! كانت راحة قدمه بطول حوالى أربعين سنتيمترًا وكان الإبهام الكبير بسماكة خمسة سنتيمترات وبطول عشرة سنتيمترات، وسماكة القدم نفسها عشرون سنتيمترًا ووزنها خمسة عشر كيلوغرامًا ــ وكلّ هذه الوثائق مثبتة شرعًا، وكلٌّ أكل قصعة كاملة. قتله فلاّح من بانشوي بالبندقيّة وباع ساقًا إلى مطعم يانغريوان. في سنة ١٩٧٥، على الطريق التي تربط بين المقاطعة الشعبية تشياو شانغ ولواء يوزاي، تلقى زنغ شيانغو صفعة من إنسان متوحّش أصهب الوبر، طوله

متران وأكثر. بقي طويلاً على الأرض مغميًا عليه ولم يعاود القدرة على الكلام إلاّ بعد ثلاثة أو أربعة أيّام من عودته إلى منزله. هذه هي التقارير التي وضعوها، انطلاقًا من شهادات شفويّة، مستعملين الطريقة الإحصائيّة التي تعتمد على التحليل والمقارنة. ألم يرَ تشاو كويديان رجلاً متوحّشًا منصرفًا إلى أكل ثمار التوت في وضح النهار. في أيّة سنة؟ في سنة ١٩٧٧ أو ١٩٧٨؟ قبل بضعة أيّام من وصول فريق الاستقصاء التابع لأكاديميّة العلوم. ممّا لا شكّ فيه أنّنا لسنا مجبرين على تصديق كلّ هذه الأخبار. على أيّة حال، ضمن فريق الاستقصاء التابع لهم، هناك رأيان متضاربان. لكن، إذا أصغينا إلى ما يقوله الفلاّحون فإنّ الإنسان المتوحّش فاسد إلى أقصى حدّ، يلاحق النساء ويلهو مع الفتيات الصغيرات ويقوم بالحماقات، ويستطيع الكلام، لكنّ صوته مختلف لا سيّما إذا كان مسرورًا أو غاضبًا.

سألت:

ـ أنتم، المشاركين في هذا الاجتماع، هل من أحد بينكم رأى بأمّ عينه الإنسان المتوحّش؟

ضحكوا جميعًا وهم ينظرون إليَّ. لا أعرف إذا كان هذا يعني أنّهم رأوه أو العكس.

ولاحقًا، رافقني أحد الكوادر إلى المنطقة الوسطى من المحميّة الطبيعيّة التي استُغلّت. قمّتها جرداء تمامًا. ولمدّة سنتين، بدءًا من ١٩٧٢، اقتُطعت الغابات على يد فيلق مؤلّل من الجيش. قيل إنّ الخشب كان يُستخدم لأغراض حربيّة متعلّقة بالدفاع القوميّ. لا يمكننا أن نشاهد

مروجًا على هذا المستوى من الجمال إلاّ على ارتفاع ألفي متر وتسعمائة. غابات من العشب الأخضر تتمايل مع الضباب وتحت المطر. في الوسط تنتصب أجمات من الخيزران ذي الأغصان المستقيمة المستديرة تمامًا. مكثت طويلاً واقفًا في البرد أتأمّل هذه القطعة من الطبيعة البكر. (تشوانغتسي قال ذلك منذ ألفي عام، الخشب المفيد يكاد ينقرض تحت ضربة من الفأس في الوقت الذي يشهد فيه الخشب غير المفيد رواجًا منقطع النظير. حاليًّا، الإنسان أكثر طمعًا من قبل. ونظريّة التطوّر التي وضعها هوكسلي يمكن الشكّ بها).

إلاّ أنّني رأيت في الجبل دبًّا صغيرًا في كوخ خشبيّ تملكه إحدى العائلات. رُبط حبل إلى رقبته وكان يشبه كلبًا صغيرًا أصفر اللون. لم يكن يكفّ عن تسلّق كومة الحطب وهو يضغب، وكان لا يزال عاجزًا عن الدفاع عن نفسه من خلال العضّ. قال لي ربّ المنزل إنّه التقطه في الجبل. لم أسأله عمّا إذا كان قتل أبويه. لكنّي وجدت هذا الدبّ رائعًا. عندما رأى الرجل أنّني سُحرت به، عرض عليّ أخذه بعشرين يوان. ليست لديّ نيّة بالطبع في تعلّم فنون السيرك، ثم كيف أستطيع متابعة رحلتي برفقته؟ أفضّل أن أظلّ طليقًا.

رأيت أيضًا جلد فهد يجفّف عند باب أحد المنازل لاستخدامه فراشًا، وقد تعرّض لقرض الديدان. أمّا النمور، فقد اختفت طبعًا منذ أكثر من عشر سنوات.

رأيت أيضًا عيّنة من القرد ذي الأنف الخانس، ذاك الذي التُقط على شجرة لكنّه مات لامتناعه عن تناول الطعام. هذا كلّ ما يستطيع أن يفعله

حيوان متوحّش يفقد حريّته ويرفض أن يُدجّن، لكن يلزمه الكثير من العناية ليظلّ على قيد الحياة، والناس لا يملكون الدأب الكافي للعناية به.

وكذلك أمام مدخل المكتب لهذه المحميّة الطبيعيّة رأيت شعارًا يلصقه أحد الرجال في مكان بارز عنوانه: «لِنحيِّ بحرارة إنشاء لجنة حركة المسنّين!». ظننت أنّهم بصدد إطلاق حركة سياسيّة جديدة، وسارعت لأسأل الموظّف الذي ألصق هذا الشعار. قال لي إنّه تلقّى الأمر من مرؤوسيه لكي يُلصقه، لكنّه لا يعنيهم. وحدهم الموظّفون الثوريّون القدامى الذين بلغوا الستّين يمكنهم أن يتقاضوا، كحدّ أدنى، مرتّبًا للنشاطات الرياضيّة قيمته مئة يوان، فيما الموظّف الإداريّ الأكبر سنًّا هنا لم يتعدّ الخامسة والخمسين، ومع ذلك فهو لا يتلقّى إلاّ بطاقة تذكاريّة بمثابة جائزة ترضية. قابلت لاحقًا صحافيًّا شابًّا أخبرني أنّ المسؤول عن لجنة المسنّين هذه ليس إلاّ الأمين العامّ السابق للجنة الحزب في المنطقة. ولكي يحتفل بإنشاء هذه اللجنة، فرض على الحكومة المحلّيّة مبلغًا بقيمة مليون يوان. كان هذا الصحافيّ الشاب ينوي كتابة تقرير وإرساله مباشرة إلى هيئة الرقابة عن انضباط الموظّفين في اللجنة المركزيّة للحزب. سألني إذا كنت أملك وسيلة لإيصاله. كنت أتفهّم سخطه، لكنّي نصحته بإرساله عبر البريد، فهذا أضمن من أن يعهد به إليّ.

وأخيرًا، رأيت صبيّة ساحرة الجمال. كان على أنفها بعض النمش، وكانت ترتدي قميصًا قطنيًّا قصير الأكمام ومقوّر القبّة، تي ـــ شيرت، مختلفة عن الملابس التي يرتديها الجبليّون. وفي الواقع قيل إنّها من

تسيغوي، مسقط رأس تشو يوان، الواقعة جنوبًا، على ضفّة يانغتسي. أنهت دراستها الثانويّة وجاءت إلى هنا عند أحد أقاربها على أمل أن تحظى بوظيفة في المحميّة الطبيعيّة. قالت إنّ البلديّة في مقاطعتها قد أنذرت الأهالي بأنّ أعمال بناء السدّ الكبير عند «المضائق الثلاثة» ستبدأ، وأنّ عاصمة المقاطعة ستغمرها مياه السدّ. وجميع الناس ملأوا استمارات تُعنى بتسجيل السكّان الذين سيتمّ إجلاؤهم عن المكان، بغية إيجاد أماكن سكن وموارد رزق جديدة لهم. وبعدها، وصلت إلى ييتشانغ متتبّعًا مجرى نهر شيانغ، نحو الجنوب حيث يقال إنّ أجمل النساء يتواجدن هناك. مررت بالقرب من مسكن جميلة العصور القديمة وانغ شاوجن، ذي السقوف المعقوفة من القرميد الأسود، الواقع عند سفح التلّة على ضفّة النهر. أبلغني أحد الكتّاب الهواة من ييتشانغ أنّ مدينته ستكون عاصمة الإقليم الجديد «المضائق الثلاثة»، وأنّ المرشّح لرئاسة الجمعيّة العتيدة لكتّاب «المضائق الثلاثة» اختير: إنّه كاتب مُنح جائزة، سبق لي أن سمعتهم يتحدّثون عنه حتى لو لم أكن أقدّره البتّة.

منذ زمن طويل فقدت العصب الشعريّ، ولم تعد كتابة القصائد تستهويني. أتساءل أمَا نزال في حقبة تُعنى بالشعر. كلّ ما يجب أن يُغنّى ويُهتف به سبق وكُتب، والباقي أُلّف وطُبع بأحرف ثقيلة من رصاص، ونسمّي ذلك في الألسنيّة: الدالّ. وفقًا للصور المأخوذة للناس المتوحّشين التي رأيتها، والمعدّة انطلاقًا من استنتاجات علميّة، استخلصت نتيجة الأوصاف الشفويّة الصادرة عن شهود عيان، والمنشورة من قبل جمعيّة الاستقصاء عن أحوال الإنسان المتوحّش، يمكن القول إنّ هذا الإنسان، بكتفيه المتهدّلتين وقامته المنحنية وساقيه المعوقتين وشعره الطويل

وابتسامته التي لا تفارقه، ذاك فعلاً ما يسمّى الدالّ. أمّا المشهد الغريب الذي رأيته في ليلتي الأخيرة» في شنونغجيا، في ميدان «الأسماك الخشبيّة»، في منطقة المحميّة الطبيعيّة للغابة العذراء، فهل بالإمكان اعتباره قصيدة؟

كان القمر يبسط أشعّته على الساحة الفارغة. في ظلّ الجبل الهائل، ينتصب قضيبا خيزران طويلان، عُلّق فيهما مصباحا زيت، يشيعان نورًا أبيض، وقد أُسدل ستار بينهما. كانت هناك فرقة سيرك تُقيم عرضًا في الساحة مصحوبة ببوق مبعّج يصدر بعض الفرقعة، وطبل ضخم ذي صوت حزين تآكلته الرطوبة. كان هنالك حوالى مئتي شخص: جميع الكبار والأطفال في هذه القرية الجبليّة، وكذلك الموظّفون الإداريّون والعمّال في المنطقة الطبيعيّة ترافقهم عائلاتهم. وكانت هنالك أيضًا الصبيّة الهيفاء التي تزيّن وجهها بعض النمشات، والتي أصلها من قرية تشو يوان، مرتدية قميصها «التي ــ شيرت» المقوّر. كانوا متجمّعين على شكل قوس دائري من ثلاثة صفوف. في الوسط، جلس المتفرّجون على مناضد جلبوها من بيوتهم، وخلفهم اصطفّ الواقفون، أمّا هؤلاء الذين على مسافة أبعد فراحوا يمدّون أعناقهم ليحاولوا الرؤية من بين الرؤوس.

كان البرنامج مؤلّفًا من عروض مختلفة. العرض الأوّل يُدعى تسيغونغ ويقوم على تحطيم لوحات الآجرّ. توضع لوحة، اثنتان، ثلاث وتُكسر إلى قمسين بضربة من راحة اليد. في العرض الثاني رجل يشدّ حزامه مبتلعًا كرات معدنيّة ثم يبصقها فتتوفر من فمه مضمّخة برذاذ

لعابه. ثم تتسلّق فتاة ضخمة صواري الخيزران المعلّقة إلى عقفات مذهّبة وتقذف من فمها نارًا. «هذا مزيّف! هذا مزيّف!»، همست النساء بين الحضور مصحوبات بأطفالهنّ. فهتف رئيس الفرقة:

ــ حسنًا هاكم عرضًا حقيقيًا!

يمسك رمحًا ويطلب من ذلك الذي ابتلع قطعًا معدنيّة أن يسند طرف الرّمح إلى صدره ثم إلى حلقه حتى ينثني الرّمح كقوس. على جبين هذا الرجل القويّ البنية ذي الرأس الحليق، تظهر بوضوح عروق زرقاء. فيضجّ المكان بتصفيق حادّ ويكسب الرجل إعجاب الجمهور.

في الساحة، تخفّ وطأة الجوّ قليلاً، يخفق صدى البوق في الجبل، يقرع الطبل قرعات أقلّ حزنًا، تدبّ الحماسة في الناس، يظهر القمر بين الغيوم، يصبح النور المنبعث من مصابيح الزيت أكثر توهّجًا. المرأة الضخمة العفيّة الجسم تحمل طاسة مليئة ماءً فوق رأسها، وساق خيزران في كلّ يد وتبدأ بتقليب الصحون. ومن ثم تدور حول نفسها بقامتها الممتلئة وتشكر الحضور قافزة على رؤوس أصابعها، كما يفعل الراقصون على شاشة التلفزيون. يواصل الناس التصفيق. رئيس الفرقة محدّث لبق، يُغدق عليهم مزحاته فيما تقلّ عروضه. يلتهب الجوّ حماسًا وتظهر علامات الرضى على وجوه الحاضرين.

العرض الأخير عرض ليونة. الصبيّة التي ترتدي الأحمر ويقوم دورها لغاية الآن على تمرير الأكسسوارات للاّعبين ها هي تقفز على طاولة مربّعة وضعت فوقها ثلاث مناضد على شكل هرم. مظلّلة بالجبال، تمنح لأعين الحاضرين جسدًا أحمر متوثّبًا يضيئه نور

المصابيح الأبيض. وفوق، في أنحاء السماء، أصبحت الأسطوانة المكتملة للقمر، القاتمة لبرهة خلت، برتقاليّة اللون.

بادئ الأمر تظهر على شكل طاووس ينتصب مزهوًّا، ثم تحتضن برفق ساقها بين ذراعيها رافعة رأسها الى أعلى. يصفّقون لها. ثم تباعد صراحة بين ساقيها أفقيًّا وتجلس فوق منضدة دون أن تتحرّك المنضدة أو تهتزّ قيد أنملة. يهتفون لها. وأخيرًا تباعد ساقيها أيضًا وتنقلب إلى الخلف مقوّسة جذعها مبرزة عانتها. يحبس المشاهدون أنفاسهم. يظهر رأسها من جديد ببطء من بين ساقيها. تحملق بعينيها المستديرتين السوداوين. بدتا مفعمتين بالحزن وكأنّهما تتأمّلان عالمًا مجهولاً. ثم أخذت بين يديها وجهها الطفوليّ المنمنم. لكأنّه عنكبوت أحمر غريب ذو شكل إنساني ينظر محملقًا إلى الحشد. همّ الناس بالتصفيق لكنّهم عادوا فتريّثوا. ارتكزت على يديها، رفعت ساقيها وأخذت تدور متّكئة على يد واحدة. برزت من خلال لباسها الأحمر حلمتا نهديها بوضوح. يُسمع تنفّس المشاهدين وتتصاعد رائحة عرق نفّاذة. همَّ ولد بالكلام لكنّ المرأة التي تحمله بين ذراعيها وجّهت له صفعة خفيفة. الفتاة اللابسة الأحمر كزّت على أسنانها، ارتفع بطنها وانخفض بنعومة والتمعت قطرات العرق على وجهها. تلوّت حتى فقدت وجهها الإنسانيّ تحت ضوء القمر هذا، في العتمة العميقة لهذه الجبال، شفتاها الناعمتان وعيناها السوداوان البرّاقتان وشت بعذابها. وهذا العذاب زاد في تأجيج شهوة الرجال المتوحّشة.

في تلك الليلة جنّ الناس من الإثارة، وكأنّ دماء الديكة تسيل في عروقهم. مع أنّ الوقت تأخّر كثيرًا، إلاّ أنّ المنازل بقيت جميعها مضاءة تقريبًا، وفي داخلها دوّت طويلاً جلبة أصوات وضجّة أمتعة تتصادم بعضها ببعضها الآخر. بالنسبة لي أيضًا يستحيل عليّ الاهتداء إلى النوم. تعود بي قدماي إلى الساحة الفارغة، الآن، خلا المكان من مصابيح الزيت، ووحده ترقرق ضياء القمر الصافي كالماء. لا أستطيع أن أصدّق أنّه في ظلال هذه الجبال المهيبة والقاتمة، جرى مثل هذا العرض الذي استطاع فيه الإنسان أن يبدّل صورته إلى أبعد الحدود. أتساءل هل كان ذلك مجرّد حلم أم ماذا؟

الفصل الستّون

ـــ لا تفكّرْ في شيء آخر عندما ترقص.

تعرّفتَ إليها للتوّ، هذه أوّل رقصة لك معها. وتقول لك ذلك!

تسألها:

ـــ ما الأمر؟

ـــ الرقص هو الرقص، لا تتعمّد اتّخاذ هذه الهيئة الصارمة.

تنفجر ضاحكًا.

ـــ قليلاً من الجديّة، ضُمّني.

ـــ حسنًا.

تنفجر ضاحكةً.

ـــ ما الذي يضحكك؟

ـــ ألا تستطيع أن تضمّني أكثر قليلاً.

ـــ بلى، بالطبع.

تضمّها. تشعر بصدرها الناعم وتتنشّق العطر العذب الذي يتصاعد من بشرتها من قبّتها المقوّرة.

في الغرفة، النور قاتم جدًّا، مظلّة سوداء وُضعت أمام المصباح القائم في الزاوية. وجوه الكوبلات المنصرفين للرقص تلتحم بالظلّ. المسجّل يبثّ موسيقى ناعمة.

قالت بصوت منخفض:

ــ هكذا، هذا جيّد جدًّا.

أنفاسك البليلة تجعلها ترفع شعرها الناعم فوق صدغيها حتى يلامس خدّيك.

ــ أنتِ جذّابة جدًّا.

ــ ماذا تقصد؟

ــ أحبّك كثيرًا حتى لو لم يكن ذلك الحبّ الكبير.

ــ هذا أفضل. الحبّ معقّد للغاية.

تقول إنّك توافقها الرأي.

ــ كلانا من الصنف نفسه، قالت وهي تضحك، منفعلة قليلاً.

ــ خُلقنا واحدنا للآخر.

ــ لن أجازف بالزواج بك.

ــ وهل أنت مضطرّة؟

ــ مع ذلك سأتزوّج.

ـــ متى؟

ـــ السنة القادمة ربّما.

ـــ لا زال الوقت مبكّرًا جدًّا.

ـــ حتى في السنة المقبلة لن أكون معك.

ـــ لا ضرورة لأن توضحي الأمر. أعرف. المسألة هي مع من؟

ـــ مع رجل في جميع الأحوال.

ـــ أيّ رجل كان؟

ـــ ليس بالضرورة، ولكن في جميع الأحوال إنّه قدر محتوم.

ـــ وبعدئذٍ، ستطلّقين؟

ـــ ربّما.

ـــ وعندئذٍ سأحظى من جديد بفرصة الرقص معك؟

ـــ لكنّي لن أتزوّج بك.

ـــ ولماذا تجعلين الأمر يبدو وكأنّه واجب محتّم؟

ـــ أنت تدرك حقيقة ما أقول.

تبدو صادقة.

تشكرها.

من النافذة، تُلمح الأضواء الساطعة من مصابيح المباني على شكل مكعّبات، وفوانيس السيّارات التي تجري كسيل لا يتوقّف. ثنائي راقص

يدور في الغرفة الصغيرة ويصطدم بظهرك. تتوقّف لكي تمسك بشريكتك في الرقص.

ـ لا تظنّ أنّني سأهنئك لأنّك ترقص جيّدًا.

تغتنم الفرصة لكي تعود إلى مهاجمتك.

ـ لا أرقص لكي أستعرض مهارتي.

ـ ولمَ ترقص إذًا؟ هل هي وسيلتك للتقرّب من النسوة؟

ـ ثمّة وسائل تتيح الاقتراب أكثر.

ـ لست متساهلاً أبدًا.

ـ لأنّك لا تهادنين أبدًا.

ـ حسنًا، لن أقول شيئًا بعد الآن.

تندسّ بك، تغمض عينيك. مراقصتها متعة حقيقيّة.

تراها ثانية، ذات ليلة عاصفة في عزّ الخريف، والريح شماليّة ـ غربيّة متجلّدة. تصارع الريح وأنت على درّاجتك. أوراق الأشجار اليابسة والأوراق الوسخة تتقاذفها الريح على الطرقات. وفجأة رغبت في الذهاب لرؤية أحد أصدقائك، وهو رسّام، وتستطيع الانتظار في بيته ريثما تهدأ العاصفة. تنعطف إلى زقاق تضيئه مصابيح صفراء وتلمح قامة وحيدة ورأسها غائر بين الكتفين. تشعر فجأة أنّك حزين قليلاً.

في الباحة السوداء بلون الحبر، هناك حيث يسكن الصديق، وحده بصيص ضوء يلمع عند النافذة. تدقّ على الباب. صوت خافت يجيبك.

يفتح لك ويقول بأن تأخذ حذرك لئلاّ تتعثّر بالدرجة في الظلمة. الغرفة تضيئها شمعة وُضعت في ثمرة جوز هند مقصوصة.

ـ لا بأس. يعجبك دفء المكان. ماذا تفعل؟

يجيب:

ـ لا شيء.

الجوّ دافئ في الغرفة. لا يرتدي إلاّ كنزة واسعة. شعره مشعّث. في الشتاء، الغرفة مجهّزة بمدفأة.

ـ هل أنت مريض؟

ـ لا.

تلاحظ حركة قرب الشمعة. نوابض الكنبة القديمة تصرّ وتكتشف عندئذٍ وجود امرأة.

تقول على سبيل الاعتذار:

ـ لديك ضيفة.

ـ ما همّ .اجلس، يشير إلى الكنبة.

وعندها، تتعرّف إليها أخيرًا. تمدّ يدها بتراخٍ، يد نحيلة وناعمة. شعرها الطويل منسدل على عينيها. فتنفخ على إحدى الخصلات لترفعها عن جبينها.

تقول مازحًا:

ـ إذا كنت أذكر جيّدًا، لم يكن شعرك طويلاً إلى هذا الحدّ في المرّة السابقة.

ـ أحيانًا، أرفعه وأحيانًا أتركه ينسدل. لم تلاحظه، هذا كلّ ما في الأمر.

وتضمّ شفتيها امتعاضًا.

سأل الصديق الرسّام:

ـ هل تعرفان بعضكما بعضًا؟

ـ رقصنا سويّة عند أحد الأصدقاء.

قالت بنبرة ساخرة قليلاً:

ـ هذا، بالمقابل تذكره.

ـ عندما نراقص إحداهنّ فهل في الإمكان نسيانها؟

يذهب صديقك ليشعل النار. ألسنة اللهب الحمراء الداكنة تنعكس على السقف.

ـ ماذا تشرب؟

تقول إنك تمرّ مرورًا عابرًا، إنك ستجلس قليلاً ومن بعدها ترحل.

قال:

ـ لست منشغلاً بشيء معيّن.

وقالت بصوت خفيض:

ـ لا بأس، اجلس...

ثم صمتنا.

ـ تابعا الثرثرة جئت فقط لأتدفّأ، كنت متجلّدًا من شدّة الصقيع... وحين تهدأ الريح قليلاً، سأذهب.

قالت:

ـ لا عليك، نزلت في الوقت المناسب. ثم صمتَتْ.

ـ لا بل من الأفضل القول إنّك نزلت كالشعرة في الحساء.

يحسن بك أن تنهض، لكنّ صديقك يضغط على كتفيك قبل أن تهمّ بالنهوض.

ـ بما أنّك هنا، نستطيع تغيير الحديث. أنهينا للتوّ ما كنّا بصدد التحدّث عنه.

ـ تابعا الثرثرة، تابعا، وأستمع إليكما.

وتقوقعت على الكنبة. لا ألمح إلاّ استدارة وجهها الأبيض. أنفها وفمها ناعمان جدًّا.

أبدًا لم يخطر ببالك أنّها بعد ذلك بوقت طويل ستحصل على عنوانك. فتحت الباب وسألتها:

ـ كيف عرفت أنّني أسكن هنا؟

ـ ألن تدعوني للدخول؟

ـ على العكس، ادخلي، ادخلي.

وتفسح لها لكي تدخل وأنت تسألها هل صديقك الرسّام هو الذي أعطاها عنوانك. رأيتها دومًا في الظلمة ولست أكيدًا تمامًا أنّك تتعرّف عليها.

ـ ربّما هو، وربّما أحد آخر. هل عنوانك سرّي؟

تقول إنّك لم تكن تظنّ أنّ الصدفة ستقودها لرؤيتك، وزيارتها شرف عظيم لك.

ـ هل نسيت أنّك أنت من دعوتني؟

ـ ممكن جدًّا.

ـ والعنوان، أنت نفسك من أعطاني إيّاه، هل نسيت كلّ شيء؟

ـ هذا بالضبط ما حصل. مجمل القول أنا مسرور أنّك هنا.

ـ عندما تأتي «موديل» إلى زيارتك فكيف لك ألاّ تسعد؟

ـ وهل أنت «موديل»؟

لا تخفي دهشتك.

ـ كنت كذلك وكنت أيضًا أتوضّع عارية.

تقول إنّك نادم على أنّك لست رسّامًا، لكنّك تمارس التصوير على سبيل الهواية.

تسألك:

ـــ هل الناس الذين يأتون لزيارتك يظلّون واقفين طيلة الوقت؟

تشير إلى الغرفة بعجلة وتقول:

ـــ هنا البيت بيتك. افعلي ما يحلو لك. انظري إلى هذه القاعة وستعلمين أنّ صاحب الدار متحرّر من كلّ قواعد السلوك المتّبع.

تجلس في زاوية مكتبك وتجيل أنظارها في جميع أنحاء الغرفة.

لا بدّ أنّ هذا المكان ينقصه وجود امرأة.

ـــ إذا شئت، شرط ألاّ تصبحي سيّدة سيّد هذا المكان، لأنّ ملكيّة هذه الغرفة لا تعود إليه.

في كلّ مرّة تصادفها، تتشاجر معها، لا تريد أبدًا أن تخسر المواجهة أمامها.

تقول وهي تأخذ الشاي الذي أحضرته لها:

ـــ شكرًا ، ثم تضيف مبتسمة: كن على درجة أعلى من الوقار.

تقف في وجهك. فتردّ عليها فقط:

ـــ حسنًا، موافق.

تملأ بدورك كأسك وتجلس على الكنبة، قبالة المكتب. وهناك لا تشعر أنّك مرتاح وتلتفت ناحيتها.

ـــ بإمكاننا التحادث قليلاً، هل أنتِ حقًّا «موديل»؟

أوجّه السؤال بطريقة عن غير قصد.

ـــ لم أعد موديلاً الآن. كنت أتزيّا هكذا أمام رسّام، في ما مضى.

ما تقوله صحيح، يفترض بك أن تتحاشى التطرّق إلى هذا الموضوع.

ـــ هل أنت حقًّا موديل؟ أقصد الكلام عن مهنتك، لديك مهنة، أليس كذلك؟

فسألت ضاحكة:

ـــ وهل هذا السؤال مهمّ جدًّا؟ إنّها ماكرة وتريد دومًا الوقوف في وجهك.

ـــ ليس بالضرورة، لكنّي أطرح عليك السؤال لأعرف في أيّ موضوع أتحدّث معك؟ أو بالأحرى لكي أستطيع التحدّث في أشياء مشتركة تهمّنا، أنت وأنا.

قالت وهي تهزّ رأسها:

ـــ أنا طبيبة.

وقبل أن يتسنّى لك الوقت لتتحقّق ممّا قالته، سألَت:

ـــ هل أستطيع التدخين؟

ـــ بالطبع ، أنا أدخّن أيضًا.

على الفور تدفع السجائر والمنفضة ناحيتها.

تشعل سيجارة وتمجّ منها مجّة طويلة.

تقول ساعيًا إلى فهم الدافع من زيارتها:

ـ لا يبدو هذا جليًّا للعيان.

ـ لهذا السبب قلت لك إنّ مهنتي لا تتّصف بأيّة أهمّيّة. أوتعتقد أنّني أقول الحقيقة حين قلت إنّني كنت «موديلاً»؟

تنفث الدخان بعذوبة رافعة رأسها.

وعندما تقولين إنّك طبيبة فهل هي الحقيقة؟ لكنّك لم تتفوّه بهذه الجملة.

سألَتْ:

ـ أوَتعتقد أنّ الموديلات هنّ جميعهنّ نساء مبتذلات؟

ـ ليس بالضرورة. مهنة الموديل مهنة في غاية الجدّيّة. تعرية الجسد، أتكلّم عن اللواتي يتوضّعن عاريات، ليس في هذا سوء. كلّ ما هو طبيعي جميل. أن يكون الإنسان تجسيدًا للجمال الطبيعي، هذا سخاء وليس خفّة. على كلّ، الجسد الإنساني أجمل من أيّة تحفة فنيّة. الفنّ مقارنة مع الطبيعة باهت وناقص. وحدهم المجانين يعتبرون الفنّ متفوّقًا على الطبيعة.

تتكلّم بأكبر قدر ممكن من القناعة.

سألتك:

ـ ولماذا تعمل في مجال الفنّ؟

تقول إنّك لم تبلغ بعد المستوى الذي تصبو إليه من الفنّ. جلّ ما تفعله هو أنّك تكتب، تكتب ما ترغب في قوله، هكذا تجيئك الخواطر.

ـــ لكنّ الكتابة هي أيضًا فنّ.

تفكّر بجدّيّة أنّ الكتابة ليست إلاّ تقنيّة.

ـــ يكفي أن تكتسبي إحدى التقنيّات؛ مثلاً، أنت تقنيّة الجراحة، حتى لو لم أكن أعرف إذا كنت طبيبة صحّة عامّة أم جراحة، لا يهمّ، التقنيّة تكفي، بإمكان الجميع الكتابة مثلما يستطيع الجميع تعلّم الجراحة.

تضحك مقهقهة.

من ثم تقول لها إنّك لا تظنّ أنّ الفنّ مقدّس. الفنّ ليس إلاّ طريقة للعيش. للناس طرق مختلفة في العيش، الفنّ لا يستطيع أن يحلّ مكان كلّ شيء.

قالت:

ـــ أنت حقًّا ذكيّ.

تقول:

ـــ وأنت أيضًا لست غبيّة.

ـــ ومع ذلك فالبعض أغبياء.

ـــ من؟

ـــ الرسّامون، لا يعرفون إلاّ النظر بعيونهم.

ـــ للرسّامين أسلوبهم الخاصّ في التعبير الذي يختلف عن أسلوب الأدباء، يجعلون الأولويّة للنظر.

ـ هل النظر يسمح وحده بفهم الحقيقة الداخليّة للفرد؟

ـ ظاهريًّا لا، لكنّ المسألة تكمن في معرفة ما نسمّيه «القيمة». هذا متوقّف على الناس. لكلٍّ طريقته الخاصّة في رؤية الأشياء. إنّ المقارنة بين القيم البشريّة لا تستقيم إلاّ بين أناس يشتركون معًا في نظام قيم واحد. لا أريد أن أُطريك، لا أعرف ما إذا كان جمالك داخليًّا، لكن ما يمكنني قوله هو أنّ التحدّث متعة حقيقيّة. ألا يبحث الإنسان على الدوام عن شيء ممتع في حياته؟ وحدهم البلهاء لا يبحثون عن مباهج الحياة.

ـ أنا أيضًا أسعد جدًّا برفقتك.

أثناء حديثها، تمسك لا شعوريًّا بمفتاح على الطاولة وتعبث به. لديك شعور أنّها ليست سعيدة البتّة. فتبدأ عندئذٍ تحدّثها عن هذا المفتاح.

تسألك:

ـ أيّ مفتاح؟

ـ هذا المفتاح الذي في يدك.

ـ حسنًا، ما به؟

تقول إنّك أضعته.

ـ إنّه هنا، أليس كذلك؟ وتدلّك على المفتاح الذي في يدها.

تقول إنّك ظننت أنّك فقدته لكنّه موجود في يدها في الواقع.

تُلقي المفتاح على الطاولة وتنهض فجأة قائلة إنّ عليها الرحيل.

ـ هل هناك أمر ملحّ؟

ـ نعم، لديّ عمل. ثم أضافت: أنا متزوّجة.

ـ تهانينا.

تحتار قليلاً.

ـ سأعود.

تقول هذا لتعزيتك.

ـ متى ستعودين؟

ـ عندما أكون سعيدة. لن آتي عندما أكون حزينة لئلاّ أنقل لك حزني، لكن يجب أيضًا ألاّ أكون سعيدة جدًّا..

ـ كما تشائين، أفهمك..

تقول أيضًا إنّك تريد أن تكون أكيدًا من أنّها ستأتي.

ـ سأعود لأتكلّم معك عن المفتاح الذي فقدته.

وبحركة من رأسها ترجع شعرها على كتفها. تضحك ضحكة ماكرة وتنزل الأدراج.

الفصل الواحد والستّون

زميلي القديم في الدراسة، الذي لم أر له وجهًا منذ أكثر من عشر سنوات يظهر لي الصورة التي أخرجها من أحد الأدراج. يُشاهد فيها برفقة شخص لا نستطيع تحديد عمره ولا جنسه. يقول إنّها امرأة. هما في بستان للبقول أمام معبد قديم متهدّم. يسألني إذا كنت أعرف رواية **امرأة النهر الفارسة**.

أذكرها بالطبع: رواية فروسيّة من عدّة مجلّدات؛ كان أحد الأصدقاء يخبّئها في بيته، وكان جلبها من المدرسة الابتدائيّة عندما كنت في المعهد. هذه الروايات كانت محظّرة قطعًا، وبعض الكتب القديمة مثل **الفرسان الثلاثة عشر والسيوف السبعة**؛ **حوليّة فرسان جبال إيمي**؛ **الأخوات الثلاث عشرة**، إذا كنّا أصدقاء لأصحابها، فبإمكاننا نقلها إلى بيوتنا، وإلاّ توجّب علينا أن نتصفّحها سريعًا خلال الصفّ، ونعيدها خفية إلى أدراج المكتب.

أذكر أيضًا أنّني، خلال شبابي، كنت أملك مجموعة من الشرائط المصوّرة المستمدّة من **امرأة النهر الفارسة** لسوء الحظّ أضعت بعضها فيما كنت ألعب بالكريّات، ولم أجد سبيلاً إلى العزاء بعد فقدانها. أذكر

أيضًا أنّ هذا الكتاب، أو **الأخوات الثلاث عشرة**، أو قصّة أخرى من قصص امرأة **النهر الفارسة**، أيقظت باكرًا ثقافتي الجنسيّة، وكنت أجهل كلّ شيء عن الأمر آنذاك. حسبما أذكر، كانت سلسلة من الشرائط المصوّرة نحصل عليها سرًّا من تاجر كتب عجوز. على إحدى الصفحات رُسمت زهرة درّاق تدفعها الرّيح العنيفة وفي أسفل الصورة، كُتب أنّه في ليلة عاصفةٍ حزينة، حصلت تلك الحادثة. المعنى المضمر هو أنّ «المرأة ــ الفارسة» اختطفها واحد من الأنذال كان يتقن، دون شكّ، الفنون القتاليّة. في الصفحة التالية، كانت «المرأة ــ الفارسة» ترفع عاليًا يديها لتحيّي معلّم وولين وتتدرّب على القيام بلعبة السيوف الطائرة السحريّة. بات هاجسها إشباع رغبتها بالانتقام إلى أن عثرت على غريمها ووضعت سيفها على عنقه. لكن، فجأة، شعرت بشفقة لا تُفهم حياله، فاكتفت بأن تقطع له ذراعه تاركة إيّاه على قيد الحياة.

ــ هل تعتقد أنّه لا يزال هنالك وجود للنساء ــ الفارسات؟ سألني زميل دراستي القديم.

ــ هل هذه واحدة منهنّ في الصورة؟

ربّما كان يريد المزاح، لا أعرف.

في الصورة، صديقي بقامته المهيبة ونظّارتيه وبذلة عمله كعالم جيولوجي، بمظهره البسيط والمهذّب، يذكّرني دومًا بشخصيّة بطرس المولع بالقراءة في **الحرب والسلم**، رواية تولستوي. عندما قرأت هذه الرواية، كان صديقي لا يزال نحيلاً جدًّا، لكنّه بوجهه المستدير تمامًا، المفعم بالطيبة، ونظّارتيه المعلّقتين دومًا بطرف أنفه، كان يشبه قليلاً

بورتريهات بطرس في إحدى المجموعات الكاملة لأعمال تولستوي، التي شفعها رسّام إيطالي بالصور. في الصورة، «المرأة ــ الفارسة» تصل حتى نصف منكبيه، ترتدي على طريقة الفلاّحات سترة واسعة ذات حاشيتين متوازيتين وحذاء عسكريًّا من الكاوتشوك بارزًا من أسفل بنطالها؛ سيماها لا تحدّد جنسها، بعينيها الصغيرتين وشعرها المقصوص حتى حدود أذنيها على طريقة الموظّفات الإداريّات من النساء في الريف، وهذه هي العلامة الوحيدة على جنسها. «المرأة ــ الفارسة» لا تشبه بشيء النساء اللواتي كنّ يتصارعن معي باشتباك يدوي في الروايات الفروسيّة، والبطاقات، والشرائط المصوّرة، بتلك الهيئة القتاليّة التي كان يمنحهنّ إيّاها خصرهنّ المشدود في حزام عريض.

ــ لا تقلّل من قدرتها، إنّها قويّة جدًّا في الفنون القتاليّة، لدرجة أنّها تقتل الرجل كما تقتلع عشبة من الأرض.

كان يتكلّم بجدِّيّة.

على الطريق الآتية من شرق تشوتشو، تأخّر القطار قليلاً، متوقّفًا في محطّة صغيرة ليفسح في المجال لمرور أحد القطارات السريعة. اسم المحطّة ذكّرني للتوّ بصديقي في الدراسة الذي كان يعمل هنا، ضمن فريق للتنقيب الجيولوجي، ولم أعرف شيئًا عن أخباره منذ أكثر من عشر سنوات. السنة الفائتة، سلّمني رئيس التحرير في إحدى المجلاّت نسخة عن كتاب بعث به إليّ، واسم المكان المذكور على المغلّف كان بالضبط الاسم الذي قرأته على رصيف المحطّة. لم يكن عنوانه معي لكنّي فكّرت: في مقاطعة صغيرة كهذه لا يفترض أن يوجد فرق عديدة

للتنقيب الجيولوجيّ. لن أواجه أيّة صعوبة في الاستعلام عن الأمر. وللحال نزلت من القطار. كان أحد أصدقاء الطفولة الأقرب إلى قلبي والذكريات العذبة نادرة في هذا العالم. هل من سعادة أكبر من أن نزور بغتة صديقًا طيّبًا؟

حين وصلت من تشانغشا، بدّلت قطاري في تشوتشو. في البدء، لم أكن أفكّر بالتوقّف هنا، إذ لا أهل لي ولا أصدقاء. وليس فيها الفولكلور ولا تحف أرغب في الاطّلاع عليها، وكنت قد تجولّت النهار بطوله في المدينة على ضفاف شيانغ. لاحقًا، تيقّنت فقط أنّني لم أفعل شيئًا سوى استعادة بعض الانطباعات التي لا فائدة منها في الواقع.

رحلت عن بكين ناقلاً أمتعة سريري مثل لاجئ، لكيما أبلغ المنطقة الجبليّة حيث هربت عندما كنت طفلاً، الأمكنة التي ذهبت إليها لكي يُعاد «تأهيلي» في مدرسة كوادر ٧ أيّار، قبل اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. آنذاك، كانت العلاقات بين زملاء المنظّمة الواحدة متوتّرة بشكل مرعب، وهذا بسبب ارتباطها الوثيق بالحركات السياسيّة. كان الجميع يرفع الشعارات متّخذًا جانب الحيطة من أعدائه المتربّصين به شرًّا، وخاشيًا باستمرار أن يصرعه أعداؤه. لم يكن يخطر على بال أحد أنّ «توجّهات عليا» ستصدر إلى أفراد الجيش بالمرابطة في مراكز الهيئات الثقافيّة، وبرحيل الجميع، أيًّا يكن انتماؤهم الحزبيّ، إلى الريف.

أنا لاجئ منذ ولادتي. كانت أمّي تقول لي إنّها أنجبتني في خضمّ القصف. كانت نوافذ غرفة التوليد في المستشفى محميّة بشرائط من ورق للوقاية من دخان القنابل. لحسن الحظّ، نجت أمّي من القذائف ووُلدت

سليمًا معافًى. ومع ذلك لم أكن أعرف البكاء. أطلقت صرختي الأولى فقط عندما ضربني الطبيب المولّد على ردفي. إنّه القدر الذي جعلني منذ تلك اللحظة مسافرًا دائمًا في هذه الحياة. اعتدت على ذلك، وتعلّمت أن أجد بعضًا من اللذّة في الفترات الفاصلة بين القلاقل. وفيما كان الجميع على رصيف المحطّة جالسين على أمتعة أسرّتهم ينتظرون، عهدت بأمتعتي لأحدهم. ومثل كلب ضائع، رحت أتجوّل في شوارع المدينة. لا بل انتهى بي الأمر إلى الالتقاء في مطعم حقير بأحد خصومي اللدودين في الشعبة التي كنت تابعًا لها. آنذاك، كان لحم الخنزير مقنّنًا، وكان كلّ واحد يتلقّى بطاقة بليبرة واحدة من اللحم شهريًّا. فكّرت أنّه هو أيضًا يريد أن يتناول الطعام ذاته. في هذا المطعم الحقير، كان يوجد فعليًّا في لائحة الطعام طبق بلحم الكلب بالفلفل، وكلٌّ طلب حاجته. متقاسميْن القدر نفسه، جالسيْن على الطاولة نفسها، من دون كلمة، تنافس كلّ واحد منّا على طلب الكحول. شربنا وأكلنا معًا لحم كلب، وكأنّ صراع الطبقات الذي لا يرحم لم يعد موجودًا. وكأنّ أحدًا لم يكن عدوّ أحد. ولكن بالطبع، لا أنا ولا هو، ولا أحد منّا تكلّم في السياسة، وفي الواقع، على هذه الطاولة، كانت توجد أشياء كثيرة نستطيع التحدّث فيها، سواء كان الشارع القديم أو ورق الأرزّ برائحة التبن الذي نستطيع شراءه هنا أو الأنسجة المحلّيّة المصنوعة يدويًّا التي نستطيع الحصول عليها من دون حيازة بطاقات القطن، أو الشاي المباع هنا دون بطاقات، وأخيرًا، الفول السوداني بخمس نكهات الذي لا يوجد منه إطلاقًا في بكين. هو وأنا اشترينا منه وأخرجنا بعض الحبّات من كيسينا لكي نقضمها مع الكحول. إنّ هذه الذكريات الصغيرة التافهة هي التي دفعتني إلى التوقّف

هنا طيلة يوم كامل، عندما غيّرت القطار من تشانغشا إلى تشوتشو. في هذه الحالة، لم يكن لديّ أيّ سبب كي لا أذهب لرؤية صديق الطفولة الطيّب.

فلمَ لا أمنحه هذه السعادة غير المتوقّعة؟

أحجز مرقدًا في أحد الفنادق في المحطّة الصغيرة، وأودع فيه حقيبتي المحمولة على الظهر. شاءت الصدفة ألاّ أعثر على صديقي، أستطيع عندئذٍ أن آخذ غفوة في الفندق في انتظار أن أستقلّ أوّل قطار عند الصباح.

في أوّل حانوت ليليّ، أتناول قصعة من حساء الأرزّ بالفاصوليا المونغو فيبدّد تعبي قليلاً. سأذهب لأستعلم من أحد الموظّفين الإداريّين، الذي كان يبترد ممدّدًا على كنبة أمام جباية الضرائب، عمّا إذا كان يوجد في المنطقة فريق تنقيب جيولوجي. نهض للتوّ وأكّد لي وجود فريق، على بعد «لبين» اثنين من هنا، ثم استدرك قائلاً: لا، على بعد ثلاثة «لي» أو خمسة في الأكثر. في آخر هذا الشارع، هناك حيث لا وجود لفوانيس، تنعطف في زقاق، تتجاوز حقل الأرزّ ثم جسرًا فوق نهر صغير. في الجهة الأخرى، وعلى مسافة ليست بعيدة جدًّا، هناك عدّة منازل من طابق واحد ذات نمط عصريّ، معزولة وتؤوي فريق التنقيب الجيولوجيّ.

عند الخروج من البلدة، كانت النجوم تضيء السماء في تلك الليلة الصيفيّة. وفي كلّ مكان يُسمع نقيق الضفادع. أسير في برك مياه لكن لا أعيرها انتباهًا، ولا أفكّر إلاّ في اللقاء بصديقي. حوالى منتصف الليل، ينتهي بي الأمر لقرع بابه في العتمة.

هتف وقد جنّ من الفرح:

ـ هذا أنت!

بنيته صلبة وقامته مهيبة. يرتدي شورتًا وهو عاري الجذع. لوّح بوجهي بمروحته القصب التي كان يمسكها بيده فشعرت قليلاً بالانتعاش. هناك أيضًا عادة بين الأصدقاء أن يربّتوا على أكتاف بعضهم البعض. حين كنّا زملاء في الصفّ كنت الأصغر بينهم، وكان أصدقائي يدعونني «الشيطان الصغير». اليوم، بالطبع صرت «شيطانًا عجوزًا».

ـ من أين خرجت؟

ـ من تحت الأرض!

أنا أيضًا كدتُ أجنّ من الفرح.

قال لزوجته:

ـ ائتنا بالكحول أو لا بالأحرى ائتنا بالبطّيخ لأنّ الطقس حارّ جدًّا.

زوجته ممتلئة القامة، وتبدو على وجهها علامات الاستقامة. لا بدّ أنّها من سكّان المنطقة. تكتفي بالضحك دون أن تقول شيئًا. جليّ أنّه لم يفقد شيئًا من لطفه القديم.

يسألني إذا استلمت المخطوطة التي بعثها لي. أخبرني أنّه قرأ الأعمال التي نشرتها في السنوات الأخيرة. وإذ فكّر أنّني أهتمّ لمثل هذه المسائل فقد وجّه المخطوطة إلى مكتب تحرير المجلّة التي نشرت أحد مقالاتي، طالبًا منهم أن يحوّلوها إليّ.

قال لي إنّه كتب هذه المخطوطة لأنه يتشوّق إلى الكلام ولم يعد بإمكانه السكوت. إنّ الأمر بمثابة بالون اختبار يطلقه.

ماذا بإمكاني أن أقول له؟ روايته تحكي قصّة طفل من الريف، كان جدّه ملاّكًا عقاريًّا قديمًا. في المدرسة، كان أصدقاؤه ينظرون إليه بعين الغيرة، وكلّ يوم كان يسمع الأستاذ يشرح لهم قائلاً إنّه يجب على المرء أن يتمايز بوضوح عن أعداء طبقته. وأخيرًا بات الفتى مقتنعًا أنّ كلّ مصائبه مصدرها هذا العجوز المريض الذي لا يعرف طريقه إلى القبر، فوضع في شايه زهرة بريّة سامّة، الزهرة التي يجب اقتلاعها عندما نجمع طعام الخنازير من العشب. وفي الصباح الباكر، في الوقت الذي كانت فيه مكبّرات الصوت تعلن عن طلوع الفجر، داعية الفلاّحين إلى العمل، وجد الصبيُّ الصغير جدّه ميتًا، ممدّدًا على الأرض والدم الأسود يخرج من فمه. وراح الكاتب يصف الحالة النفسيّة لهذا الطفل الذي يرنو إلى غموض هذا العالم بعيني ريفيّ صغير. سلّمت بدوري هذه المخطوطة إلى محرّر أعرفه، وردّها لي دون أن يستعمل العبارات التي تُستخدم عادة في الأوساط الأدبيّة عند ردّ مخطوطة ما. لم تكن نبرته رسميّة كمثل أنّ الحبكة ليست مشغولة جيّدًا، أو أنّ الرؤية العامّة للعمل ليست راقية بما فيه الكفاية، أو الكاركتيرات مرسومة بشكل يفتقر إلى الوضوح، أو العمل ليس نموذجيًّا... لا شيء من هذا ، قال لي ببساطة إنّ الرواية مكتوبة بأسلوب جيّد لكنّ الكاتب يتجاوز الحدّ الذي تسمح به الرقابة، ولن تسمح له السلطات بنشرها أبدًا. فأوضحت للمحرّر بأنّ الكاتب يعمل في الريف بصفته منقّبًا جيولوجيًّا، وأنّه كان معتادًا على سلوك دروب الجبل ولم يكن على بيّنة من الحدود التي لا يُسمح له بأن

يتعدّاها والملزمة في الأوساط الأدبيّة. وأخبرت صديقي صراحة بالحديث الذي جرى بيني وبين المحرّر.

فسألني والحيرة بادية على وجهه من خلف نظّارتيه.

ـ لكن ما هي هذه الحدود؟

لا يزال يشبه المولع بقراءة الكتب المدعوّ بطرس. ثم سألني من جديد:

ـ ألم تعاود الصحف مؤخّرًا التأكيد على حرّيّة الإبداع وضرورة أن يصف الأدب الواقع؟

قلت له:

ـ وبالضبط، بسبب هذا الواقع المرفوض عانيت من المشاكل وجئت إلى هنا.

انفجر ضاحكًا:

ـ وكذلك صرفت النظر عن نشر قصّة: «امرأة النهر الفارسة».

أخذ الصورة وأودعها الدرج.

ـ تعرّفت عليها عندما أقمت في هذا المعبد المتهدّم أثناء مواصلة عملي في التنقيب. طيلة النهار، حدّثتني عن اهتماماتها فدوّنت ما سمعته منها على مفكّرة بأكملها. هذه تجربتها.

وأخرج من درجه مفكّرة لوّح بها ناحيتي.

ـ فيها من المواضيع ما يجعلك تكتب كتابًا، وقد فكّرت من قبل بعنوانه «ملاحظات حول المعبد المتهدّم».

ـ لكن هذا العنوان لا يصلح لرواية فروسيّة.

ـ بالطبع لا، إذا كان الأمر يهمّك، خذ المفكّرة وألقِ نظرة عليها. يمكنها أن تشكّل مادّة رواية.

ثم وضع المفكّرة في الدرج وقال لزوجته:

ـ ائتِنا بالكحول، لقد حان وقتها، أخيرًا.

ـ لا تحدّثني عن كتابة رواية، قلت. الآن لم أعد قادرًا على نشر نصوصي السابقة. ما إن يروا اسمي حتى يعيدوا لي مخطوطاتي.

وعندئذٍ قاطعته زوجته وهي تحضر الكحول:

ـ أنت أيضًا، تحسن صنيعًا لو أنّك تنكبّ على علم الجيولوجيا بدل أن تكتب أيّ شيء كان.

ـ إذًا ماذا تفعل الآن؟ أخبرنا!

يُظهر اهتمامًا شديدًا بأمري.

ـ أتسكّع هنا وهنالك لكي أفلت من قبضة الرقابة. رحلت منذ عدّة أشهر، وعندما تهدأ العاصفة، سأحاول العودة، أمّا إذا تدهور الوضع، فسأبحث عن مكان آخر ألجأ إليه. في جميع الأحوال لن أجعلهم يقتادونني مجدّدًا كالخروف المطيع إلى معسكر إعادة التأهيل بواسطة العمل، كما كانوا يفعلون بالمحافظين القدامى في خمسينات من القرن الماضي.

وانفجرنا ضاحكين.

قال:

ــ سأخبرك قصّة مضحكة، موافق؟ كنت عضوًا في مفرزة استحصلت من السلطات المختصّة على رخصة تنقيب عن الذهب. من كان ليظنّ أنّنا في هذه الجبال المكشوفة سنعثر على إنسان متوحّش؟

ــ أنت تمزح. هل رأيته بأمّ عينك؟

ــ ليس فقط رأيته بل أمسكنا به؟ كنّا مجموعة من الرفاق نبحث عن أقصر طريق تعيدنا الى المعسكر قبل حلول الليل. عند سفح إحدى القمم، أُحرقت غابةٌ وزُرع حقلٌ من الذرة. في الحقل الأصفر، رأينا شيئًا ما يتحرّك، اعتقدناه حيوانًا متوحّشًا. كنّا، حين نذهب إلى هذه الأماكن نحمل في حوزتنا دومًا سلاحًا بغية الحفاظ على سلامتنا، ظننّا للوهلة الأولى أنّه دبّ أو خنزير برّي. لم نعثر على الذهب، لكنّ الحظّ ابتسم لنا مع ذلك لأنّ اصطياد ذلك الحيوان سيوفّر لنا الكثير من اللحم. بعضنا حاصر المكان حيث رأيناه يتحرّك، لكنّ هذا المخلوق شعر بوجود خطر يتهدّده ففرّ باتّجاه الغابة. كانت الساعة حوالى الثالثة من بعد الظهر. الشمس تميل نحو الغرب لكنّ شعاعها لا يزال يُنير الوادي. عندما بدأ الشيء يتحرّك ظهر رأسه بين سيقان الذرة. فأيقنّا أنّنا اكتشفنا إنسانًا متوحّشًا لأنّ شعره المنسدل على كتفيه لم يترك لدينا مجالاً من الشكّ! جميع الرفاق رأوه. وكانوا في قمّة الهياج وصرخوا بصوت عالٍ: «إنسان متوحّش! إنسان متوحّش!» ثم صاح آخر وهو يطلق الرصاص لا تدعوه يفرّ! كانوا يعملون طيلة السنة في الجبال ونادرًا ما وجدوا سببًا مبرّرًا

لإطلاق الرصاص. فأفرجوا عن كربتهم، وفي جوّ من الحماس والنشوة راحوا يركضون، ويصرخون، ويفرغون أسلحتهم. وأخيرًا، أجبروه على الخروج، عاريًا كدودة وعضوه متدلٍّ، استسلم ويداه مرفوعتان، لكنّه تعثّر وانبطح أرضًا. كان يحجب عينيه بنظّارتين ذات زجاجتين مستديرتين قديمتين خشنتين مربوطتين خلف رأسه بخيط.

قلت:

ـ هل هذه نكتة؟

قالت زوجته من الغرفة المجاورة وكانت لا تزال مستيقظة:

ـ كلّ ما يرويه صحيح!

ـ صحيح أنّني أخبر نكتًا بين الحين والآخر، لكن ليس في حضرتك. بتّ روائيًّا الآن.

قلت متوجّهًا إلى زوجته:

ـ الروائيّ الحقيقيّ هو زوجك. يملك سليقة فطريّة في رواية الأخبار. حين كنّا في المدرسة، لا أحد كان يبزّه في هذا الميدان. ما إن يبدأ بالكلام حتى نبقى مشدوهين ونحن نستمع إليه. مؤسف أن تكون روايته قد خُنقت في مهدها ولم يتسنّ لها أن تبصر النور.

لم أستطع تمالك نفسي من إظهار بعض الشفقة حياله.

فقالت زوجته من الغرفة المجاورة:

ـ إنّه هكذا. لا يتكلّم على هذا النحو إلاّ لأنّك هنا. في الأيّام العاديّة، لا يتلفّظ بجملة واحدة زيادة على ما يقتضيه الكلام.

وقال لزوجته:

ـ رويدك!

ـ تابع!

لقد أثار فضولي فعلاً.

احتسى جرعة كحول لكي يستعيد طاقته.

ـ اقترب أعضاء فريقنا الصغير منه، انتزعوا نظّارتيه ودحرجوه قليلاً بأعقاب بنادقهم وسألوه بلهجة صارمة: «إذا كنت إنسانًا فلماذا تلوذ بالفرار؟» أخذ يرتجف وينتحب. أحد الشبّان ضربه قليلاً على رأسه وهدّده قائلاً: «إذا كنت ستتابع لعبتك الشيطانيّة هذه فسنطلق عليك الرّصاص!». وفي هذه اللحظة شهق باكيًا وقال إنّه هرب من معسكر إعادة التأهيل وإنّه لا يجرؤ على العودة إليه. سألناه عن الجريمة التي اقترفها فقال إنّه يميني. فهتف مرافقي: «لكن منذ زمن طويل أُعيد الاعتبار لليمينيّين. لماذا لم ترجع إلى عائلتك؟». فردَّ بأنّ عائلته لم تتحمّل مسؤوليّة إيوائه، فلجأ إلى هذه الجبال. وسألوه أيضًا: «أين عائلتك؟». أجاب: «في شانغهاي». فهتف مرافقيّ: «كم هم أوغاد أفراد عائلتك! لماذا تخلّوا عنك؟». فقال إنّهم خافوا أن يتورّطوا. فتعجّبوا من كلامه: «ما هذه القصص عن التورّط؟ لقد حصل جميع «اليمينيّين» على تعويضات عن المضايقات التي تعرّضوا لها، والآن الجميع يتشوّقون لأن

يكون هنالك يمينيّ في عائلتهم!» وسألوه أيضًا «هل تعاني أيّ مرض نفسي؟» قال لا لكنّه يعاني من ضعف نظر كبير. فانفجر الجميع ضاحكين.

وانفجرت زوجته في الغرفة المجاورة بالضحك.

ـ لا يستطيع أحد غيرك أن يروي هذا النوع من القصص. لم أشعر بهذه السعادة منذ زمن طويل.

ـ جرى تصنيفه في عداد العناصر اليمينيّة أعداء الثورة في عام ١٩٥٧ وأُحيل في عام ١٩٥٨ إلى معسكر إعادة تأهيل العمّال. في ١٩٦٠ حلّت المجاعة، ولم يعد هنالك ما يؤكل. أُصيب جسده كلّه بالاستسقاء الموضعيّ حتى أشرف على الموت، ففرّ وعاد إلى شانغهاي. وبقي مختبئًا لشهرين عند أهله الذين حاولوا إقناعه بالعودة إلى المعسكر لأنّ حصص الحبوب آنذاك لم تكن كافية. كيف بإمكانهم أن يخفوه عندهم لفترة أطول؟ فغادرهم وهام على وجهه على غير هدى في هذه الجبال العالية حيث يعيش منذ أكثر من عشرين عامًا. وحين سُئل كيف استطاع البقاء على قيد الحياة، أجاب بأنّ عائلة من الجبليّين آوته في السنة الأولى. كان يساعدهم في قطع الحطب والقيام ببعض الأعمال الزراعيّة، ثم سمع أبناء المقاطعة يتهامسون في حديث مفاده أنّ أجهزة الاستقصاء جادّة في البحث عنه والقبض عليه، فالتجأ إلى مكان أبعد واستطاع النجاة بفضل هذه العائلة التي كانت تساعده سرًّا فتجلب له أعواد كبريت وقليلاً من الملح والزيت. سُئِل كيف أصبح «يمينيًّا»؟ فقال إنّه كان يقوم في الجامعة بأبحاثٍ عن الكتابات الغيبيّة على ترس السلاحف.

آنذاك كان مدفوعًا بحماس الشباب فتلفّظ، خلال إحدى المناقشات، ببعض العبارات الطائشة عن الوضع الراهن. «انهض، اتبعنا واذهب لمتابعة أبحاثك عن الكتابات الغيبيّة!». لكنّه رفض بإصرار، قائلاً إنّ عليه أن يحصد حقل الذرّة الذي يمثّل حصّته من الحبوب على مدى السنة، وإنّه يخشى أن تأتي الخنازير البرّيّة لتدوس كلّ شيء إذا لم يفعل. فصاحوا به جميعهم «دع الخنازير تتغوّط بهدوء!». أراد الذهاب لإحضار ملابسه. «لكن أين ثيابك؟» فأجاب: «في إحدى المغاور في أسفل الشير». عندما يكون الطقس دافئًا، لا يرتديها. أعاره أحدهم سترة لكي يعقدها حول خصره، ثم اقتادوه إلى المعسكر من جديد.

ــ هذا كلّ شيء؟

فأجاب:

ــ نعم، لكني تخيّلت نهاية أخرى، ربّما غير دقيقة.

ــ قلها لنا وسنرى.

ــ في اليوم التالي، أكل وشرب حتى روى غليله، استيقظ بعدما نام لوقت طويل وفجأة شهق بصوت عالٍ. يستحيل معرفة ماذا دهاه. سُئل عن سبب بكائه. كان يبكي بدموع غزيرة ولم يستطع أن يتلفّظ إلاّ جملة من شدّة بكائه: «لو كنت أعرف أنّه يوجد في العالم أُناس بهذه الطيبة لما عانيت كلّ هذه المظالم في هذه السنوات الأخيرة!».

شعرت برغبة في الضحك لكنّي تمالكت نفسي.

خلف نظّارتيه التمعت إشارة تنمّ عن مكر.

فقلت بعد قليل من التفكير:

ــ هذه النهاية سطحيّة.

ــ تعمّدت إضافتها. اعترف وهو يضع نظّارتيه على الطاولة.

أكتشف أنّ المكر الذي خلتني أراه في نظرته هو حزن بالأحرى. يتحوّل إلى رجل آخر عندما يضع نظّارتيه على عينيه، بسحنته البهجة والبسيطة. لم أره قط في هذه الهيئة من قبل.

سألني:

ــ ألا تريد التمدّد قليلاً؟

ــ لست مستعجلاً، لا أشعر بالنعاس الآن.

عبر النافذة لُمحت أولى شرارات الصباح. في الخارج تبدّد حرّ الصيف وهبّت ريح منعشة. قال:

ــ نستطيع إكمال الثرثرة ونحن ممدّدان.

جهّز لي سريرًا من الخيزران، ثم أطفأ الضوء وتمدّد على كنبة طويلة.

ــ عليك أن تعرف أنّه آنذاك، إبّان الحركة الإصلاحيّة، تحرّوا عن أمري، والفريق الذي أمسك بالإنسان المتوحّش، هو الذي اعتقلني بالضبط. أوشكوا على قتلي بالرصاص لكنّ الرصاصة لامست شعري ولم تدركني، لحسن حظّي. ما خلا هذا، فهُم رجال شجعان.

ـ هذا هو الأمر الجيّد في قصّتك عن الإنسان المتوحّش. إنّها مبهجة ممتعة فيما الناس جائرون. لا يجدر بك أن تقول كلّ شيء.

ـ بالنسبة لك هذه رواية، بالنسة لي هذه هي الحياة. وفي الواقع لم أتوصّل إطلاقًا إلى كتابة الرواية. عندما يجري الحديث عن القمل يسعى الجميع لالتقاطه، وإذا كنّا نخشى أن نتحوّل إلى قملة فما العمل؟

ـ إلاّ إذا كان الجميع غير مبالين.

ـ نخاف أن يمسكوا بنا، هذا كلّ ما في الأمر.

ـ لكنّك أنت تحديدًا لا تريد أن تتورّط، أليس كذلك؟

ـ وسينتهي الأمر إلى القبض عليّ.

ـ لأجل هذا تكثر من الأسفار وتنهب الطرق نهبًا؟

ـ هذا أفضل شيء أفعله الآن، أليس كذلك؟ وإلاّ هل كنت تجرّأت وأتيت لأشرب كأسًا معك؟ ولكنتُ رحلت منذ زمن طويل مثل الإنسان المتوحّش الذي حدّثتني عنه.

ـ ولما كنت أبقيتك عندي. أو ما رأيك إذا رحلنا معًا وعشنا حياة الرجل المتوحّش.

ثم استوى في جلسته على مقعده الطويل وهو يضحك.

وبعد قليل من التفكير قال:

ـ هذه النهاية، من الأفضل إغفالها.

الفصل الثاني والستّون

تقول أنت إنّه أضاع المفتاح.

وتجيبك بأنّها تفهم قصدك.

تقول إنّه رأى فعلاً هذا المفتاح الموضوع على الطاولة، لكنّه اختفى، وهو لم يكد أن يدير ظهره.

تقول لك نعم، هذا بالضبط ما حصل.

تقول إنّه كان مفتاحًا بسيطًا جدًّا، من دون علاّقة مفاتيح. في البداية، كان موصولاً إلى علاّقة مفاتيح كناية عن كلب صغير، أجعد الشعر، كلب بكين، من البلاستيك الأحمر، وقد أهدته إيّاه إحدى صديقاته ، إنّها صديقة فقط وليست «خليلة».

تقول لا حاجة بكَ للإيضاح.

تقول إنّ الكلب الصغير انكسر بعدئذٍ. الأمر مضحك، رقبته انكسرت ولم يتبقّ إلاّ رأسه الصغير الأحمر. وجد مظهره مثيرًا للشفقة ففصله عن المفتاح.

تقول، بالطبع!

تقول إنّه ظنّ أنّه وضع المفتاح على قاعدة المصباح الموضوع على المكتب، بالقرب من بعض المسامير الصغيرة لتثبيت الأوراق: المسامير لا زالت هنا لكنّه، المفتاح، اختفى. كان قد نقل الكتب على الطاولة؛ والرسائل المرتقبة جوابًا كانت هي أيضًا مكدّسة قرب المصباح. وقاطع التيّار هو أيضًا كان مغطّى بغلاف. لكنّ المفتاح بقي مفقودًا.

تقول لك هذا يحصل غالبًا.

كان يريد الخروج للذهاب إلى موعد، لكنّه لا يستطيع أن يترك الباب مفتوحًا. إذا أقفله فلن يستطيع الدخول من دون مفتاح. عليه إيجاده. يفترض بالمفتاح أن يُرى بسهولة وسط الكتب والأوراق والرسائل وقطع النقود التي تغطّي الطاولة.

هذا صحيح.

لكنّه لم يكن يجده. زحف على قدميه ويديه تحت الطاولة، وسحب بالمكنسة عددًا لا بأس منه من كوم الغبار لا بل وبطاقة أتوبيس. عندما يسقط مفتاح أرضًا، يُسمع رنينه. لكن، لم يكن هناك إلاّ بعض الكتب المتراكمة على الأرض، ليس هنالك مفتاح. لا يمكن الخلط بين مفتاح وكتاب.

بالطبع.

بكل بساطة تبخّر المفتاح.

وهل بحث في الأدراج؟

فتّش أيضًا في الأدراج. يذكر أنّه فتح الأدراج. كان معتادًا على وضع المفتاح في أحد الأدراج إلى جهة اليمين وتلك عادة قديمة. كان

الدرج مليئًا بكلّ أنواع الوثائق، رسائل ومخطوطات وصفائح تسجيل للدرّاجات، وشهادات عناية مجّانيّة وبطاقات تزوّد بالغاز. وأيضًا ميداليّات ومقلمة وسكّين مغولي وسيف صغير مطلي بالميناء المجتزع، وكثير من هذه الأغراض البخسة التي لا قيمة لها سوى أنّها تحمل في طيّاتها بعض الذكريات. الجميع يحتفظون بأشيائهم الخاصّة، وهي ذات قيمة فقط في نظر مالكيها. ليست الذكريات غالية كلّها بالضرورة.

هذا صحيح.

لا بل إنّ نسيانها أحيانًا انعتاق وحرِّيَّة. خذ مثلاً هذا الزرّ من الزجاج الأزرق الداكن الذي لن تستعمله أبدًا، اللباس الذي كان هذا الزرّ معلّقًا إليه بات يستعمل منذ زمن طويل ممسحة للغبار، لكنّ الزرّ لم يُرمَ.

حسنًا، ومن ثم؟

ومن ثم، نقّب في كلّ الأدراج وقلب محتواها.

لا يمكن أن يكون المفتاح فيها.

يعرف ذلك لكنّه قلبها كلّيًّا.

بالطبع. وجيوبه، هل فتّش فيها؟

فتّشها كلّها. الجيوب الأماميّة والجيوب الخلفيّة لبنطاله. لا بل تحسّسها خمس مرّات أو ستًّا على الأقلّ. وكذلك جيوب سترته الموضوعة على السرير. فتّش جيوب ملابسه كلّها الموضوعة خارج الحقائب، لكن ليس تلك الموجودة داخلها.

ومن ثم...

من ثم بسط أرضًا كل ما كان موجودًا على الطاولة، وأعاد قليلاً تنظيم المجلاّت الموضوعة على الرفّ قبالة السرير. لا بل فتح خزائن الكتب ونفض الأغطية والفراش وتطلّع تحت السرير، آه! نعم، في الأحذية أيضًا، إذ ذات يوم سقطت قطعة من خمس فنات في حذائه ولم ينتبه لها إلاّ حين خرج وأحسّ بشيء يعيقه في المشي.

لكن، ألم يكن ينتعل حذاءه؟

بلى، لكن بما أنّ الكتب المرتّبة على مكتبه باتت ملقاةً أرضًا، لم يعد هناك موطئ لقدمه ولا يستطيع أن يدوس فوق الكتب بحذائه. لذا خلعه وأخذ يبحث وهو متربّع أرضًا.

المسكين!

وهذا المفتاح البسيط جدًّا، دون علاّقة مفاتيح، اختفى في الغرفة. لم يعد باستطاعته الخروج وتأمّل عاجزًا هذه الغرفة التي باتت مقلوبةً رأسًا على عقب. قبل عشر دقائق، كانت حياته لا تزال منظّمة. لا يمكنه القول إنّ غرفته كانت نظيفة تمامًا ومرتّبة، لم تكن قطّ كذلك إذا توخّينا قول الحقيقة. كان مرآها في أحسنِ الأحوال ظريفًا. كانت لديه طريقته في العيش، يعرف أين وضع كلاًّ من أغراضه ويجد غرفته مريحة جدًّا. وباختصار، كانت لديه عاداته التي تمنحه شعورًا بالراحة.

هكذا هي الحال.

لكن لا، لم تكن هذه هي الحال. كلّ شيء فيها كان موضوعًا أينما كان، كيفما كان!

لا يجدر به أن يثير أعصابه، عليه أن يسترخي لكي يتسنّى له التفكير جيّدًا.

تقول إنّه شعر بقلق شديد، لم يعد لديه مكان ينام فيه، ولا مكان يجلس ولا مكان يقف، أصبحت حياته سلّة مهملات حقيقيّة. يستطيع فقط الركوع على أكوام كتبه. كيف لأعصابه ألاّ تثار؟ لا يمكنه أن يلوم أحدًا غير نفسه. لم تكن تلك غلطة الآخرين. هو الذي فَقَدَ مفتاح بابه، هو من تسبّب بهذه الفوضى. ما من وسيلة للتخلّص من هذه الفوضى، من هذه الورطة. لم يعد يستطيع مغادرة المنزل، بالرّغم من الواجبات المترتّبة عليه.

نعم.

لم يعد يتحمّل النظر إلى هذا المشهد ولا البقاء في هذه الغرفة.

ألم يكن على موعد مع أحد، لا؟

سواء كان على موعد أم لا، يتوجّب عليه الخروج، هذا صحيح، لكنّه تأخّر أصلاً ساعة عن موعده. لا يمكن أن يضيّع ساعة من عمره دون فعل شيء.

وفوق ذلك، لم يعد يتذكّر جيّدًا أين مكان هذا الموعد أو زمانه ولا الشخص الذي سيلتقيه.

تقول لك بصوت منخفض: مع صديقة ولا شكّ.

ربّما نعم، ربّما لا. يقول إنّه لم يعد يتذكّر حقًّا. لكن عليه الخروج، لم يعد يستطيع تحمّل سقوط المتاع هذا.

إذًا، سيترك الباب مفتوحًا؟

لن يستطيع الخروج إلاّ إذا لم يوصد الباب بالمفتاح. حين أصبح في أسفل الدرج ثم في الشارع، كان المارّة يروحون ويجيئون كالعادة، وسيل من السيّارات يتقاطر دون نهاية ودون أن يُعرف ما الذي يدفع بسائقيها

لهذه العجلة. نزل إلى الشارع وبدأ يمشي على الرصيف. لا أحد يعرف أنّه فقد مفتاحه، لا أحد يعرف أنّ بابه بقي مفتوحًا، لا أحد سيذهب إلى بيته ويسرق له أغراضه. وحدهم أصدقاؤه المقرّبون بإمكانهم الذهاب إلى بيته، لكنّهم عندما يرون أنّه لم يعد هناك مكان لموطئ قدم فسيجلسون على أكداس الكتب وسينتظرونه وهم يتفحّصونها. ومن ثم يتعبون فيرحلون. لا جدوى من التفكير بهم. ومع ذلك، قلق بشأن غرفته، حتى لو لم يكن هناك شيء فيها يستحقّ عناء أن يُسرق، ما عدا بعض الكتب والملابس والأحذية العاديّة جدًّا. إنّ افضل حذاء لديه كان ينتعله. وكانت هناك كومة من المخطوطات التي ملّ منها قبل إنهائها. وإذ أيقن هذا الأمر، غمره شعور بالفرح وكفّ عن التفكير في هذا المفتاح اللعين الضائع وفي باب غرفته. عندئذٍ تنقّل على غير هدى في الشوارع. عادةً هو دومًا مستعجل ومنشغل، ويتنقّل باستمرار من مكان إلى آخر ويكافح من أجل نفسه أو لأجل فلان أو لتلك المسألة. الآن، لم يعد يكترث بأحد، وشعر بالتالي بنفسه حرًّا خفيفًا أكثر من أيّ وقت مضى. أبطأ من مشيته، وهذا شيء يجهد لفعله في الأيّام العاديّة، تقدّم أوّلاً خطوة بقدمه اليسرى من دون أن يسارع إلى رفع اليمنى وهذا ليس سهلاً القيام به. لم يعد يعرف السير بهدوء، لم يعد يعرف معنى التنزّه. أثناء التنزّه، ندوس الأرض براحة قدمنا كلّها، باسترخاء تامّ.

أحسّ بشعور غريب وهو يمشي على هذا النحو، وبدا أنّ المارّين يلاحظونه. لا بدّ أنّهم انتبهوا إلى أمر غير طبيعي في هيئته. خلسة راقب الناس الآتين باتّجاهه، لكنّه لاحظ أنّ أعينهم الثاقبة لم تكن متّجهة في الواقع إلاّ إلى ذواتهم. أحيانًا، كانوا بالطبع يلقون نظرة على واجهات المخازن متسائلين إذا كانت الأسعار ملائمة. وفجأة، أيقن أنّه كان الوحيد في هذا الشارع الذي يراقب الآخرين، لكنّ أحدًا لا يلاحظه. وأخيرًا،

كان الوحيد الذي يسير على باطن قدميه فتلامس صفحة قدمه كلُّها الطريق. كان الآخرون يمشون على أكعابهم ملحقين الضرر بطريقة غير مباشرة، يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة بأعصاب دماغهم. يراكمون على نفوسهم الهموم والمحن، أليس كذلك؟

نعم.

كلّما سار في هذا الشارع المزدحم الذي يضجّ بالناس ازداد شعوره بالوحدة. كان يترنّح كأنّه مسرنم. السيّارات تطلق أبواقها، وتحت أنوار المصابيح المتعدّدة الألوان، كان يعرف أنّه لن يتوصّل إلى الإبطاء، والسير وفق ما يشتهي وسط الحشد الذي يحثّ الخطى فوق الرصيف، فيجد نفسه محاصرًا من الحشود المتدافعة. لو أنّك أطللت على المشهد، لو أنّك تأمّلته من نافذة مبنى مشرف على الرصيف، لجعلك تفكّر بفلّينة تتقاذفها مياه المطر المتدافعة، وسط الأوراق الميتة وأعقاب السجائر وأغلفة المثلّجات والصحون البلاستيكيّة المستعملة في مخزن للطعام الجاهز وكلّ أنواع أوراق السكاكر.

رأيتها.

ماذا رأيت؟

هذه الفلّينة العائمة وسط السيل البشري.

حسنًا، كانت هو.

كانت إذًا أنت.

لم تكن أنا بالذات، وإنّما كانت حالة مررت بها.

أفهم. تابع الكلام.

الكلام عن ماذا؟

عن هذه الفلّينة.

الفلّينة الضائعة؟

من أضاعها؟

ضاعت من تلقاء ذاتها. وكانت ذكرياته تفلت منه. حاول بكلّ قواه استجماع أفكاره. حاول أن يتذكّر العلاقات التي أقامها مع الآخرين، لماذا كان في هذا الشارع؟ كان يعرف هذا الشارع بكلّ تأكيد ويذكر جيّدًا هذا المخزن الكبير الرماديّ المخيف، الذي لا يزال يخضع لأعمال التوسيع وكأنّ أصحابه يأنفون من ضيق مساحته. وحده حانوت الشاي الصغير ذو الطراز القديم، قبالته، لا زال على حاله. على مسافة أبعد، مخزن الأحذية، وقبالته، مصنع ورق وصندوق توفير، سبق له أن دخل إليهما. بدا له أنّه استعمل صندوق التوفير هذا، لا بدّ أنّه وضع فيه مالاً أو سحب منه، لكن هذا منذ زمن بعيد. تذكّر أيضًا أنّه كان على علاقة بامرأة وانفصل عنها لاحقًا، لكنّه لم يعد يفكّر بها، لم يعد يريد التفكير بها.

وأحبّها مع ذلك.

بدا له أنّه أحبّها، كان هذا أيضًا مبهمًا في خاطره. في جميع الأحوال، بدا له أنّه أقام علاقة بامرأة.

وليس بامرأة واحدة.

نعم ، ربّما كان هذا صحيحًا. في حياته لا بدّ حصلت بعض الأحداث الرائعة، لكن ذلك بعيد جدًّا، وحدها انطباعات غامضة رسخت

لديه مثل صورة سلبيّة حاول المصوّر أن يظهّرها فبقيت بيضاء، ولم تظهر إلاّ حواشيها في الحمّام الكاشف.

ومع ذلك، هنالك فتاة لا بدّ أنّها هزّت كيانه، وتركت في ذاكرته بعضًا من تفاصيل.

وحدهما شفتاها الرقيقتان، المرسومتان بعناية، بلونهما الأحمر القاني عندما تقولان لا، رجعتا إلى ذاكرته، وعندما تقول لا، كان جسدها ينصاع له.

وماذا بعد؟

أرادت أن يطفئ النور، قالت إنّها تخشى الضوء...

لم، تقل هذا.

بل قالته.

حسنًا، لنكفّ عن الاهتمام بمعرفة ما إذا كانت قالت ذلك أم لا. المهمّ هل آل به الأمر أخيرًا إلى العثور على هذا المفتاح؟

تذكّر فجأة أنّه لم يكن مضطرًّا للذهاب إلى هذا الموعد. هناك، سيتحدّث الجميع عن أشياء وأشياء، عن أناس يعرفهم، عن فلان الذي طلّق زوجته وعن فلان الذي تربطه بفلانة علاقة طيّبة، وعن ذاك الكتاب الذي صدر، وتلك المسرحيّة التي تُعرض أو ذلك الفيلم. وفي ما بعد، ستبدو له دومًا هذه الكتب والأفلام والمسرحيّات الجديدة سخيفة كسواها. أو سيتحدّثون عن هذه الشخصيّة المهمّة أو تلك التي تفوّهت بهذا الخطاب التجديدي أو ذاك ، لكنّه سيكتشف لاحقًا أنّه خطاب مكرّر أُلقي على مسامع الناس مرّات عديدة لا تُحصى. دائمًا الكلام المكرور نفسه! لو كان ذهب إلى الموعد فهذا فقط لأنّه لم يعد يتحمّل الوحدة، لكن

في جميع الأحوال سيتوجّب عليه العودة إلى غرفته التي تبعثرت محتوياتها.

هل كان باب غرفته مفتوحًا؟

نعم، دفع الباب وتوقّف أمام الكتب والمجلاّت التي تغطّي الأرض. رأى عندئذٍ مفتاحه دون علاّقة المفاتيح، موضوعًا على حافّة الرفّ، قرب النافذة. كان محجوبًا بغلاف رسالة تنتظر جوابًا عليها، موضوعة على قاعدة مصباح المكتب. وحين قفز فوق أكوام الكتب، التحم بفضاء الغرفة.

الفصل الثالث والستّون

كنت أنوي الذهاب إلى جبال لونغهو لأزور هذه الجنّة الطاويّة، لكنْ، عندما اجتاز القطار غويشي، تردّدت في النزول، كان رواق القاطرة الخانق مزدحمًا، ولكي أبلغ المخرج، توجّب عليّ التسلّل بين المسافرين.

وتوجّب عليّ التعرّق عدّة دقائق للوصول إليه. كنت محظوظًا لعثوري على مكان قرب النافذة، في وسط القاطرة، وفوق الطاولة الصغيرة قبالتي كان هناك فنجان من الشاي القوي الرائحة ينشر عطره. كنت لا أزال متردّدًا عندما تحرّكت عجلات القطار وغادر المحطّة ببطء.

عاودت الاهتزازات إيقاعها المنتظم، وفوق الطاولة الصغيرة، بدأت أغطية الفناجين تصطكّ وتُحدث رنينًا. ريح منعشة بعض الشيء هبّت في وجهي. شعرت بالنعاس لكنّي لم أتوصّل إلى النوم. القطارات التي تجوب هذه البلاد مزدحمة نهارًا كما ليلاً. وأيًّا تكن المحطّة، نلاحظ حركة سريعة لصعود المسافرين من وإلى حافلات القطار ونزولهم منها. ولا نعرف ما الذي يدعوهم للعجلة. لا أستطيع أن أتمالك نفسي من

إجراء تعديل على بيت الشعر الذي كتبه لي باي[1]: «السفر أصعب من الصعود إلى السموات». وحدهم الأجانب المزوّدون بالعملات، والقادة المزعومون الذين يسافرون على نفقة الدولة في قطارات النوم من الدرجة الأولى، بإمكانهم أن يتذوّقوا قليلاً لذّة السفر أمّا أنا، فعليّ أن أحسب الفترة من الوقت التي تمكّنني من مواصلة هذه الرحلة بالقليل من المال الذي بقي لديّ. منذ زمن طويل تبخّرت مدّخراتي وأصبحت أعيش من المال الذي أستدينه من المحرّر الشهم لدار النشر الذي قدّم لي سلفة قيمتها بضع مئات من اليوانات لقاء حقوق الكاتب عن كتاب لا أعرف ما إذا كان سُينشر يومًا ما، ولا أعرف ما إذا كنت سأكتبه، لكنّي أنفقت نصف الدفعة. إنّه بمثابة هديّة في الواقع، إذ لا أحد يستطيع معرفة ماذا يخبّئ له الغد. وباختصار، أتحاشى قدر الإمكان النزول في الفنادق وأفتّش عن أماكن أستطيع تمضية الوقت فيها مجّانًا، أو بأقلّ كلفة ممكنة. وبالرّغم من هذا فقد فوّتُ عليّ فرصة الذهاب إلى غويشي، فيما اقترحت عليَّ صبيّة الإقامة في منزل عائلتها. التقيتها فيما كنت أنتظر المركب على جسر الوصول. كانت تبدو بجديلتيها الصغيرتين ووجنتيها الورديّتين وحماستها وعينيها المتوقّدتين ذكاء، وكأنّها تحتفظ بفضول عذريّ حيال هذا العالم الغارق في الفوضى. لدى سؤالي عن وجهتها،

---

(١) لي باي، (٧٠١ ــ ٧٦٢) كتب قصيدة شهيرة «شاقّة الطريق إلى شو». في البيت الثاني منها جاء: «شاقّة طريق شو، أكثر مشقّة من الصعود إلى السماء الأثيريّة» وهذا يظهر مدى صعوبة السفر في إقليم سيتشوان (بلاد شو قديمًا) بسبب خصوصيّته الجغرافيّة (القصيدة وردت في **أنطولوجيا الشعر الصينيّ الكلاسيكيّ**، ترجمة تشانغ فو ــ جوي، غاليمار، ١٩٦٢).

أجابت بأنّها ذاهبة إلى هوانغ شي. هل ثمّة ما يستحقّ رؤيته في هذه المدينة المكسوّة بغبار رماديّ، بجوّها المشبع تمامًا بالدخان الأسود المنبعث من معامل الفولاذ؟ لديها عمّتها هناك. وأنا، إلى أين كنت أذهب؟ قلَبَتْ سؤالي. قلت لها إنّني لا هدف محدّدًا لي، وإنّني كنت أتنقّل من مكان إلى آخر على غير هدى. حملقت بعينيها بي وسألتني عن المهنة التي أمارسها. قلت لها: «أعمل في البورصة» فكتمت ضحكتها. لم تصدّقني. وسألتها مجدّدًا:

ــ هل يبدو عليّ أنّني نصّاب؟

أجابت برأسها.

ــ لا إطلاقًا.

ــ ماذا يبدو عليّ برأيك؟

ــ لا أعرف، لكن لا يبدو عليك أنّك نصّاب في أيّ حال من الأحوال.

ــ حسنًا، في هذه الحالة أنا متشرّد.

ــ ليس المتشرّدون سيّئين بالضرورة.

كانت لديها نبرة حازمة في صوتها. فاستفضت في التأكيد على قولها:

ــ المتشرّدون أناس جيّدون جدًّا في العموم. غالبًا ما يكون الناس الجدّيّون نصّابين.

لم تستطع تمالك نفسها عن الضحك، وكأنّ أحدًا ما يدغدغها، كانت فتاة سعيدة حقًّا.

قالت لي إنّها هي أيضًا تودّ لو تسافر، لكنّ والديها لا يسمحان لها بذلك. سمحا لها فقط بالذهاب إلى عمّتها. وأخطراها بأنّها ما إن تنال إجازتها عليها أن تعمل في الحال وأنّ هذه آخر عطلة صيفيّة لها، وعليها الاستفادة منها. تعاطفت معها. فأطلقت تنهيدة.

ــ في الواقع، أودّ كثيرًا الذهاب إلى بكين. لسوء الحظّ، لا أعرف أحدًا هناك، وأهلي لا يريدون أن أذهب وحدي. هل أنت من بكين؟

ــ إذا كنت أتكلّم لهجة أهل بكين فهذا لا يعني أنّني منها، مع أنّي أعيش فيها، إلاّ أنّني أجد الحياة فيها مزعجة.

ــ عجبًا، لماذا تقول هذا؟ كانت جفلة مرتابة.

ــ زحمة ناس وأجساد متلاصقة، والمرء معرّض لأن يدوس الآخرون على رجليه.

ضمّت شفتيها امتعاضًا.

طرحت عليها أسئلة أخرى:

ــ أين تسكنين؟

ــ في غويشي.

ــ هل جبال لونغهو موجودة هناك؟

ــ في الواقع ليست إلاّ جبلاً مقفرًا. المعبد دُمّر منذ زمن طويل.

قلت لها إنّي كنت أنوي بالضبط زيارة هذا الجبل، وإنّه كلّما كانت الأمكنة مقفرة، ازدادت رغبتي في الذهاب إليها. سألت بمكر:

ـ لكي تستطيع النصب على الناس؟

لم يسعني إلاّ أن أجيب ضاحكًا:

ـ أريد أن أصبح ناسكًا طاويًّا.

ـ لن يكون هناك أحد لاستقبالك. رهبان الماضي إمّا رحلوا وإمّا توفّوا. لن تجد فيها مكانًا تأوي إليه. ومع ذلك فإنّ المنظر رائع هناك. إنّه على مسافة عشرين «لي» من عاصمة المقاطعة، وبإمكاننا الذهاب إليه مشيًا على القدمين، وقد ذهبت للتنزّه هناك مع أصدقائي. إذا كنت تريد التوجّه إلى هناك، فيمكنك السكن عندي، أهلي مضيافون جدًّا.

كانت تبدو ودّيّة.

ـ لكن عليك الذهاب إلى هوانغ شي وأهلك لا يعرفونني.

ـ سأعود خلال عشرة أيّام، ألن تواصل تسكّعك؟

فيما كنّا نتحدّث، اقتربت المعدّيّة من الرصيف. عبر نافذة القطار، رأيت الجبال الرماديّة تظهر تدريجيًّا على فترات متلاحقة عند الأفق. يفترض أن تكون قمم لونغهو خلفها. هذه الجبال هي دون شكّ «صخور الخالدات». أراني أحد مديري المتاحف الذي التقيته خلال رحلتي، صورًا لها. في مغارة محفورة في سفح الجرف، فوق النهر، اكتُشفت نواويس معلّقة. إنّها مدافن بلاد يو القديمة، ترقى إلى عهد الدويلات المتحاربة. اكتشف المنقّبون طبلاً مسطّحًا مبرنقًا بالأسود وقيثارة خشبيّة

من ثلاثة عشر وترًا، كما تشهد على ذلك الثقوب على مسكتها، طولها متران. لكن حتى لو ذهبت إلى جبال لونغهو لما استطعت سماع قرعات طبول الصيّادين ولا نغمات القيثارة الصافية الرحبة.

«صخور الخالدات» ابتعدت شيئًا فشيئًا حتى توارت تمامًا. عند النزول من المركب، عندما افترقنا، تبادلنا اسمينا وعناويننا.

أحتسي فنجانًا من الشاي وأشعر بندم مرير. ربّما ستأتي لرؤيتي ذات يوم، لكنّ هذا ليس أكيدًا. هذا اللقاء المجّاني أمدّني بشيء من الفرح. أنا عاجز عن التغزّل بفتاة على هذا القدر من البراءة، وفي الواقع أنا عاجز ولا شكّ عن الوقوع في حبّ امرأة حقيقيّ. الحبّ مرهق جدًّا وأريد العيش بخفّة وسعادة، ودون أن تترتّب عليّ مسؤوليّات أو التزامات. الزواج وجميع المشادّات والأحقاد التي تعقبه مضنية جدًّا. أصبح نائيًا أكثر فأكثر. ولا أحد يستطيع أن يستفزّ حماستي. صرت عجوزًا ولم يعد لي من شهوة إلاّ لإشباع فضولي، ودون أن أسعى مع ذلك إلى الحصول على نتيجة يمكن توقّعها مسبقًا، وبالتالي قد تكون باهظة الثمن. أفضّل التسكّع هنا وهنالك، دون أن أحدث أثرًا. في هذا العالم الواسع، هناك الكثير من الناس، الكثير من الوجهات، وليس لديَّ مكان أتجذّر فيه وأبني فيه عشًّا صغيرًا للعيش بسكينة، وتبادل اللقاء بالجيران أنفسهم والتحدّث إليهم بالعبارات نفسها: صباح الخير، مساء الخير، ومن ثم الغوص من جديد في الهموم الصغيرة للحياة اليوميّة. وقبل البدء، أشعر أنّ الاشمئزاز بلغ منّي مبلغًا. أعرف، أنّني لم أعد أستطيع توفير السعادة لأحد.

التقيت أيضًا براهبة شابّة طاويّة، من وجهها الجميل، الصارم ذي الشحوب المرهف، من جسدها المستقيم الملتحف بفستان فضفاض، تنبعث نضارة موسومة بنقاء كبير. أسكنتني في غرفة الضيوف في أحد أجنحة المعبد. كانت الأرضيّة القديمة تظهر لونها الأصلي الذي يذكّر بعروق الخشب. كانت الغرفة في غاية النظافة. والأغطية الموضوعة على السرير تنبعث منها رائحة غسيل منعشة. وهكذا أقمت في معبد شانغتسينغ.

كلّ صباح كانت تحضر لي طست ماء ساخن لأغتسل، وتهيّئ لي فنجانًا من الشاي الأخضر وهي تثرثر معي. صوتها كان عذبًا كالشاي المنعش. وكانت تتكلّم وتضحك بظرف وطبيعيّة. بعد إجازتها الثانويّة، اختارت بملء إرادتها أن تلتحق بالدير، لكنّي لم أجرؤ على سؤالها لماذا تركت عائلتها.

في هذا الدير الطاويّ، عشرة من المنتسبن إلى الرهبنة، شبّان وشابّات، اختيروا جميعًا من الطلاّب الذين بلغوا مستوى السنة الثانويّة الثانية على الأقلّ. رئيس الدير، رجل طويل القامة، واثق الخطوة، عمره يفوق الثمانين عامًا. ناضل دون هوادة طيلة سنوات لكي يتفاوض مع الحكومة المحلّيّة والهيئات من مستويات عدّة، وجمع عدّة نسّاك عجائز طاويّين تائهين في الجبال للحصول على إعانة لترميم دير جبال تشينغ تشنغ. جميعهم، شبّانًا وعجائز، كانوا يتكلّمون معي بكلّ حريّة، وكما تقول الراهبة: «الجميع يحبّونك هنا»، لكنّها تقول «الجميع» وتتحاشى الإشارة إلى نفسها بقولها «أنا».

قالت لي إنّني أستطيع البقاء قدر ما أريد. وقالت لي أيضًا إنّ تشانغ داكيان[1] عاش هنا طويلاً. رأيت منحوتة له تمثّل لاوتسو في المعبد مهداة إلى الإمبراطور الأصفر، وإلى فوشي وشنونغ المشيّد بالقرب من معبد شانغتسينغ: لاحقًا، علمت أنّ فان تشانغشنغ من سلالة جين ودوتينغوانغ من سلالة تانغ عاشا هنا كناسكين وكتبا أعمالهما[2]. لست ناسكًا ولا أزال أرغب في الجلوس إلى طاولة البشر. لا أستطيع القول إنّي بقيت فقط لأنّي أحب سليقة هذه المرأة ورصانتها، بل لأنّني أحبّ سلام هذا الدير.

عندما كنت أخرج من غرفتي، أدخل في الصالة الكبيرة ذات الأسلوب القديم المفروشة بطاولات من خشب «نانمو»[3]، وكنبات ذات مساند وطاولات للشاي. على الجدران تتدلّى لوحات من الخطوط المنمّقة، وفي أعلى الأعمدة الكتابات الأفقيّة التي كانت في الواقع نقوشًا قديمة تمَّ الحفاظ عليها. أوضحت لي أنّه يمكنني القراءة والكتابة هنا، وعندما أتعب، أستطيع الذهاب للتنزّه في الباحة الصغيرة المربّعة خلف المعبد.

هناك توجد أشجار سرو قديمة بين الأعشاب الخضراء الداكنة، وعلى حصباء المستنقع، ينتشر خزّ أخضر شاحب. صباحًا ومساء، كنت أسمع، من خلال شبكات النوافذ المنحوتة، ضحكات الراهبات

---

(١) تشانغ داكيان، رسّام معاصر.

(٢) فان تشانغشنغ ودو تينغوانغ هما شاعران طاويّان شهيران من العصور القديمة.

(٣) نانمو: شجرة يُستعمل خشبها في النجارة والصقالة.

وثرثراتهنّ. لم يكن هنا الجوّ خانقًا جرّاء التدابير الصارمة والمحظورات كما في الأديرة البوذيّة، بل كان يسوده جوّ من الصفاء ورائحة البخور.

أحببت أيضًا هدوء الباحة الداخليّة للمعبد وجلالها ساعة الغسق، عندما يتفرّق آخر المتنزّهين كنت أذهب للجلوس وحيدًا على العتبة الحجريّة، وسط باب المعبد الكبير لأتأمّل فسيفساء ديك كبير من البورسلين مرسوم تحت ناظري. وفي غرفة الاحتفالات كانت الحِكَم المكتوبة على خطوط متوازية تزيّن الأعمدة الرئيسيّة الأربعة. والحِكَم المدوّنة في الخارج تقول:

«شاءت الطريق أن يولد الواحد، ومن الواحد الاثنان، ومن الاثنين الثلاثة، والثلاثة أنجبوا عشرة آلاف»، «الإنسان يسلك طرق الأرض، والأرض تسلك طرق السماء، والسماء تسلك طرق الطريق، والطريق تسلك دربها بالذات»(١).

كانت هذه هي بالضبط الجملة التي تلفّظ بها العالم النباتي العجوز عندما كنت في الغابة العذراء.

أمّا الحِكَم في الداخل فتقول:

«أن تنظر دون أن ترى، وتصغي دون أن تسمع، فستبلغ الملأ الأعلى حيث الفراغ والطمأنينة. ها هنا السموات الثلاث: سماء اليشم، السماء الأسمى، والسماء الأقصى».

---

(١) من كتاب لاوتسو، مؤسّس الطاويّة «الطريق والفضيلة»، ترجمه عن الصينيّة فرانسوا هوانغ وبيار ليريس، منشوراتSeuil، ١٩٧٩.

«أن تمسك بالبداية، أن تجد المفتاح، عندئذ تتجلي لك كلّ الأشياء وتكتشف شرائع ثلاثًا: الشريعة السماويّة، الشريعة الأرضيّة، الشريعة البشريّة».

شرح لي رئيس الدير معنى هذه الجمل:

ـ «الداو»[1] هو أصل العشرة آلاف كائن، إنّه أيضًا الشريعة التي تحكم العشرة آلاف كائن. الذاتي والموضوعي يتبادلان الاحترام وينصهران في واحد. الأصل هو الكائن في اللاكائن، واللاكائن في الكائن، وإذا اتّحد الاثنان، إنّه القبل، أي أنّ السماء والإنسان يتّحدان وتبلغ وجهة نظر الإنسان ووجهة نظر الكون بداية الوحدة. مبدأ الطاويّين الأساسي هو الصفاء، اللافعل كمادّة والطبيعة كاستعمال وطول العمر كحقيقة، لكنّ طول العمر يفترض غياب الأنا. هذه هي مبادئ الطاويّة في عناوينها العريضة.

وفيما كان يتحدّث إليّ، تحلّق الفتيان والفتيات حولنا. لا بل إنّ راهبة شابّة ألقت ذراعها على كتف فتى، وكانت مفعمة بالبراءة، صافية الذهن. أجهل إذا كنت قادرًا على بلوغ هذه الحالة من امّحاء الأنا والسلام وانعدام الشهوة.

ذات مساء، بعد العشاء، اجتمع الشباب والعجائز والفتيان والفتيات في باحة المعبد، وأخذوا يتسابقون على النفخ داخل ضفدعة من الخزف أضخم من كلب، لجعلها تحدث رنينًا. بعضهم نجحوا في ذلك والبعض

---

(١) «الداو» أو الطاو، فلسفة نظام الكون ووحدته عند لاوتسو.

الآخر لا. كان الجوّ يضجّ بالحياة لوقت طويل، ثم تفرّقوا كلٌّ لواجباته المسائيّة. بقيت وحيدًا، جالسًا على عتبة الباب، محدّقًا إلى سقف المعبد الخالي من أيّة زينة ثقيلة ومخيفة تمثّل تنانين أو أفاعي أو سلاحف أو أسماكًا.

السقوف المعقودة ذات الخطوط الواضحة تبرز تحت السماء في الخلف، الأشجار باسقة في الغابات، تتمايل بصمت في ريح المساء. بعد لحظة خيّم الصوت المطبق على المكان، ومع ذلك يشعر المرء أنّه لا يزال يسمع صفيرًا واضحًا آتيًا من مصدر مجهول. كان يمتدّ طويلاً ثم يختفي بعذوبة. بدت وشوشة الجدول الذي يمرّ من تحت الجسر الحجريّ عند باب المدخل، ووشوشة ريح المساء، للحظة ، وكأنّها تنبعث من قلبي بالذات.

الفصل الرابع والستّون

عندما عادت وشعرها مقصوص، لاحظت ذلك هذه المرّة.

ـ لماذا قصصت شعرك؟

ـ أقطع بالماضي كلّ صلة.

ـ هل نجحت؟

ـ في جميع الأحوال، هذا واجب. أتصرّف كما لو أنّني قطعتها.

تضحك.

ـ ما الذي يضحكك؟ ثم أضافت بصوت عذب: أنا نادمة قليلاً، أتذكر شعري الجميل؟

ـ هكذا أفضل. أنت حرّة أكثر. ليس عليك أن تبعدي غرّتك من أمام عينيك لتبصري جيّدًا. كان هذا مزعجًا.

كانت هي التي ضحكت هذه المرّة.

ـ كفّ عن الكلام عن شعري، لنتكلّم عن شيء آخر، موافق؟

ـ عمَّ؟

ـ عن مفاتيحك. ألم تضيّعها؟

ـ وجدتها. كان بإمكاني القول أيضًا إنّي فقدتها، وإنّه من غير المجدي التفتيش عنها.

ـ عندما نقطع لا مجال للتراجع.

ـ تتكلّمين عن شعرك؟ أنا، عن مفاتيحي.

ـ أتكلّم عن ذكرياتي، أنت وأنا من الصنف ذاته.

تضمّ شفتيها.

ـ لكن تعوزنا دومًا شبهة ذريعة لنلتقي.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا أجرؤ على القول إنّ المبادرة تصدر عنك، لكنّي أستطيع التأكيد بأنّنا نلتقي حتمًا.

ـ لكنّي أنا أتيت هذه المرّة، لا؟

ـ ربّما سترحلين عمّا قريب.

ـ وربّما سأبقى.

ـ إذًا سيكون الأمر بديعًا، بالطبع.

ـ ومع ذلك تشعر أنّك مرتبك.

ـ أنت تتقن الحديث عنه دون أن تمارسه.

ـــ أمارس ماذا؟

ـــ الحبّ، طبعًا! أعرف الشيء الذي تسعى إليه.

ـــ الحبّ؟

ـــ المرأة، أنت بحاجة إلى امرأة، قالت بصراحة.

ـــ حسنًا، وأنت؟ تشخص إلى عينيها.

ـــ الأمر مماثل، أنا بحاجة إلى رجل.

شرارة تحدٍّ تنبعث من نظراتها.

ـــ رجل واحد، أخاف ألاّ يكفيك.

تتردّد قليلاً.

ـــ حسنًا، لنقل إنّني محتاجة لرجال.

لا زالت أشدّ صراحة منك.

ـــ هذا أكثر عدلاً.

تشعر بالارتياح.

ـــ عندما يكون رجل وامرأة معًا...

ـــ لا يعود العالم موجودًا.

ـــ .. تكون الرغبة ثالثهما.

تكمل جملتك.

ـ أنا، موافق معك. هذا كلام نابع من القلب. حسنًا، الآن ثمّة رجل وامرأة معًا...

ـ إذًا، تعال، قالت. أسدلِ الستار.

ـ هل تفضّلين العتمة؟

ـ يمكننا أن ننسى أنفسنا.

ـ ألم تنسي كلّ شيء أصلاً؟ أمَا زلت تخافين من نفسك؟

ـ أنت تجعلني أشعر بالاشمئزاز. تفكّر بالأمر لكنّك لا تجرؤ على فعله. دعني أساعدك.

تقف أمامك وتداعب شعرك، فتدسّ رأسك في صدرها وتتمتم:

ـ سأخفض الستار.

ـ الأمر لا يستحقّ العناء.

تنتفض، تخفض رأسها، تفتح سحّاب جينزها. ترى زوبعة وسط اللحم الأبيض الناعم المشدود بحافّة السليب، تلصق وجهك وتقبّل عانتها الليّنة. تضغط على يدك:

ـ لا تكن لجوجًا هكذا.

ـ نعم، لكن أليس هذا أكثر إثارة؟

تخلع بلوزتها من رأسها وتهزّه بحركة لا إراديّة تعوّدت عليها قبل أن تقصّ شعرها. تقف أمامك وسط ملابسها المبعثرة، عارية، شعر عانتها أسود كشعر رأسها ويلمع ببريق حادّ. لا يتبقّى لها إلاّ حمّالة

صدرها التي تضغط على نهديها. تمدّ يدها من خلف ظهرها وتتوجّه إليك بنبرة معاتبة وهي تقطّب حاجبيها:

ـــ لكن هذا، ألا تعرف القيام به؟

اضطربْتَ ولم تدرك ما قالته في الحال.

ـــ كن مبادرًا قليلاً!

تنهض على الفور وتقف خلفها وتفكّ حمّالة نهديها.

ـــ هذا جيّد. الآن جاء دورك.

تطلق تنهيدة ارتياح وتأتي للجلوس في الكنبة قبالتك، دون أن تكفّ عن التحديق إليك، وابتسامة غامضة ترتسم على شفتيها.

ـــ شيطانة.

بغضب، تبعد الملابس التي خلعتها.

ـــ لا، بل إلهة. مصوّبة كلامك.

عارية تمامًا، تبدو مهيبة، جامدة، منتظرة أن تقترب منها وأخيرًا تغمض عينيها كأنّها تدعوك لتقبّلها في جميع أنحاء جسدها. تريد أن تهمس ببعض كلام.

ـــ لا، لا تقل شيئًا.

تضمّك إليها بقوّة، بقوّة، وبكلّ هدوء، تلتحم بها.

بعد نصف ساعة، أو ساعة تقريبًا تنهض من السرير وتسألك:

ـ ألديك قهوة؟

ـ على الرفّ.

تملأ فنجانًا كبيرًا وتحرّك فيه الملعقة، تجلس على حافّة السرير وتشرب جرعة وهي تراقبك.

تسأل:

ـ أليست لذيذة؟

ليس لديك ما تقوله، تحتسي القهوة بلذّة ، وكأنّ شيئًا لم يكن.

ـ أيّة امرأة غريبة أنت! تتأمّل هالة نهديها المكتنزين.

ـ ليس بي من الغرابة شيء، كلّ ذلك طبيعي للغاية. أنت بحاجة لحبّ امرأة.

ـ لا تحدّثيني عن المرأة والحبّ. هل أنت كذلك مع الجميع؟

ـ يكفي أن أحبّ أحدًا وأن أرغب فيه.

لهجتها المحايدة، أغضبتك. ترغب في إيذائها لكنّك تقول ببساطة:

ـ أيّة عاهرة!

ـ لكن أليس هذا ما تريده؟ هذا أصعب على الرجل منه على المرأة. إذا كانت راغبة في الأمر فلم تتردّد في التمتّع بالوضع؟ ماذا لديك أيضًا لتقوله؟

تضع فنجان القهوة جانبًا وتستدير نحوك بحلمتيها الضخمتين السمراوين ثم تقول بلهجة متعاطفة:

ـــ يا طفلي الكبير المسكين، ألا ترغب في المعاودة؟

ـــ ولمَ لا؟

تتقدّم نحوها.

ـــ عليك أن تكون مستجيبًا في جميع الأحوال، تقول لك.

تريد أن تشير إيجابًا برأسك بدل الجواب مباشرة، لكنّك تشعر برغبة لذيذة في النوم.

ـــ ماذا ستقول لي؟ تتوسّل إليك هامسة في أذنك.

ـــ أقول ماذا؟

ـــ أيّ شيء.

ـــ أتحدّث عن المفاتيح...

ـــ أسمعك.

ـــ ضاعت، هذا كلّ شيء.

ـــ هذا سبق أن قلته.

ـــ وأخيرًا، خرج إلى الشارع...

ـــ إلى الشارع ، كيف كان الأمر؟

ـــ كان الشارع مليئًا بالناس المعجّلين.

ـــ تابع!

ـــ دهش قليلاً.

ـ ممَّ؟

ـ لا يفهم لماذا كان الناس منشغلين هكذا.

ـ يحبّون الظهور على هذا النحو؟

ـ هل هذا واجب؟

ـ إذا لم ينشغلوا فلن يستطيعوا الامتناع عن هذا الشعور بالاضطراب.

ـ هذا صحيح، لديهم جميعًا على وجوههم هذا التعبير الغريب وكأنّ لديهم همومًا.

ـ والكثير من الصرامة أيضًا.

ـ يدخلون متجهّمي الوجوه إلى المخازن ويخرجون هكذا، وهكذا يختارون زوج أخفاف ويظلّون على تجهّمهم وهم يدفعون القليل من النقود، ثم يشترون قرن بوظة وهم على تلك الحال.

ـ ويلحسونه وهم متجهّمون.

ـ لا تحدّثيني عن البوظة.

ـ أنت من بدأ.

ـ لا تقاطعيني، أين كنت في الحديث؟

ـ يخرجون النقود أمام بسطة صغيرة ويساومون في تحديد الأسعار بتجهّم. ماذا يفعلون أيضًا بتجهّم؟ هل هنالك من أمرٍ مهمّ أيضًا يفعلونه؟

ـ يبولون قبالة المبولة.

ـ وبعدئذٍ؟

ـ المخازن أقفلت جميعها.

ـ فيعود الناس بسرعة إلى منازلهم.

ـ لكن هو، ليس مستعجلاً للذهاب إلى أيّ مكان، يبدو أنّ لديه مكانًا يعود إليه، ما ندعوه عادةً بيتًا. لكي يحصل على المسكن، كان لا بدّ له أن يتصارع مع المسؤولين عن المساكن.

ـ على أيّة حال، لديه هذه الغرفة.

ـ لكنّه لم يعثر بعد على مفاتيحه.

ـ ألم يُبق الباب مفتوحًا؟

ـ المسألة هي معرفة ما إذا كان يتوجّب عليه قطعًا العودة.

ـ ألا يستطيع تمضية الليلة حيث يشاء؟

ـ مثل متسكّع؟ مثل تيّار هواء يطفو على هواه في ليل هذه المدينة؟

ـ سيقفز في أحد القطارات صدفة ويذهب إلى حيث يذهب القطار.

ـ لم يفكّر إطلاقًا أنّه سيذهب إلى حيث تقوده رغبته، إلى أبعد دومًا.

ـ ابحث عن امرأة، أيًّا تكن وأحبّها بجموح!

ـ بيأس ، حتى الإنهاك.

ـ حتى الموت، فالأمر يستحقّ العناء.

ـ إذًا، ريح المساء تصل من جميع الجهات، وهو واقف في ساحة فارغة، يسمع صوتًا، حزينًا تائهًا، ولا يستطيع تميّزه، هل هو صوت الريح أم خفقان قلبه، فجأة يشعر أنّه فقد كلّ إحساس بالمسؤوليّة، وانعتق من كلّ قيد، إنّه حرّ أخيرًا، هذه الحرّيّة لا تنبع إلاّ من نفسه، وبإمكانه معاودة كلّ شيء منذ البداية، مثل ولدٍ عارٍ سقط في مغطس الحمّام. يتّكئ إلى ساقيه ويبكي بطبيعة الحال لكي يسمع الجميع صوته، يريد أن يبكي كلّ دموعه، لكنّه ينتبه أن لا جسد لديه، وأنّه لم يعد يستطيع الصراخ، فيتأمّل جسده بالذات الذي لا يعرف أين الذهاب. وحيدًا وسط ساحة فارغة، يجب أن يقوم بإشارة، أن يضربه على كتفه، أن يمازحه، لكنّه يعرف أنّه في هذه اللحظة يكفي أن تلمسه لكي يموت رعبًا.

ـ مثل مسرنم، فارقته روحه.

ـ يفهم أخيرًا أنّ عذابه نابع من جسده.

ـ هل لديك رغبة في إيقاظه؟

ـ تخشى ألاّ يتحمّل الأمر. عندما كنت صغيرًا، سمعتهم يقولون إنّه إذا سكبنا مياهًا باردة على رأس مسرنم، فمن المحتمل أن يلقى حتفه، تتردّد في مدّ يدك، تحتفظ بيدك مرفوعة، لا تزال تتردّد، لكنّك لا تجرؤ على ملامسة كتفه.

ـ لماذا لا توقظه بنعومة؟

ـ أنت خلفه، تراقب حركات جسده، لكأنّه يريد الذهاب إلى مكان ما.

ـ هل سيعود إلى بيته؟ إلى غرفته؟

ـ لست متأكّدًا، تكتفي باللحاق به، تجتاز جادّة، تدخل في زقاق ثم تخرج منه، ثم تنفذ إلى جادّة أخرى لتدخل في زقاق آخر ثم تخرج منه.

ـ عاد إلى الجادّة نفسها.

ـ عمّا قريب سيطلع النهار.

ـ حسنًا، مرّة أخرى...

الفصل الخامس والستّون

منذ زمن طويل سئمت من هذه الصراعات الخرقاء التي تمزّق هذا العالم. عند كلّ نقاش، وكلّ جدال، وكلّ سجال، أجدني في خطّ التسديد مباشرة، أنا متّهم ومُؤنّب ومُدان. وفي انتظار الحكم، آمل عبثًا أن يتدخّل روح خيّر ويقلب مجرى الأشياء باندفاعة وشهامة منه لكي يخرجني من هذه الورطة. لكن حين يظهر هذا الروح أخيرًا، يغيّر رأيه أو يشيح بنظره عنّي صراحة.

كلّ يصبو إلى أن يجعل نفسه معلّمي وقائدي وقاضيّ وطبيبي ومستشاري وحكمي وأخي الأكبر ومعرّفي وناقدي الرسمي ومرشدي الروحي ورئيسي. جميع الناس لا يحفلون بأن يعرفوا هل أنا محتاج حقًّا لهم، يريدون كلّهم أن يصبحوا مخلّصيّ وعملائي (الذين يوجّهون إليّ الضربات، لا هؤلاء الذين يصارعون لأجلي)، ووالديّ الجديدين لأنّ والديّ الحقيقيّين توفّيا، أو أنّهم يريدون صراحة أن يكونوا لي وطنًا في الوقت الذي لا أعرف حتى ما هو وطني ولا إذا كان لديّ وطن. وبالمقابل، أصدقائي، والمدافعون عنّي، كلّ هؤلاء الذين ينحازون لي يعانون من الوضع الذي أعاني منه. هذا هو قدري.

على أيّة حال لم أعد أستطيع أن ألعب دور البطل المأساوي الذي سقط صريعًا في مواجهة القدر، مع أنّي أكنّ احترامًا بالغًا لهؤلاء الذين لم يخشوا الفشل أبدًا، أمثال شينغتيان، البطل الأسطوريّ، الذي أمسك برأسه المقطوع وواصل القتال. ومع ذلك، لا أستطيع إلاّ أن أنظر إليهم عن بعد وأوجّه لهم تعازيّ الصامتة.

وكذلك أنا عاجز عن العيش كناسك. لا أعرف لماذا تركت بسرعة معبد شانغتسينغ. هل لأنّني لم أعد أحتمل هذا «اللافعل» والهدوء؟ أم لأنّني لا أملك الصبر لقراءة اللوحات المنقوشة بآلاف المجلّدات المأخوذة من «القانون الطاوي» في طبعة مينغ التي، ولحسن الحظّ، لم تُحرق بفضل تدخّل بضعة رهبان عجائز؟ هل لأنّني كسول فلا أملك الحيل لأستعلم عن حياة هؤلاء العجائز الذين واجهوا صعوبات لا حدّ لها؟ أم لأنّني كنت خائفًا أيضًا من سبر الأسرار الدفينة لتينك الراهبات الشابّات؟ أم لكي أحول دون القضاء كلّيًّا على إمكانيّاتي الذهنيّة؟ وفي النهاية، لستُ إلاّ مجرّد ساعٍ وراء الجمال.

على طريق التيبت، على ارتفاع يتعدّى الأربعة آلاف متر، تدفّأت على نار فريق من العاملين في ترميم الطرق. كانوا يعيشون في منزل حجريّ، وقد سوّده الدخان كلّيًّا من الداخل. حولهم، ليس هنالك إلاّ الجبال العالية البيضاء المكسوّة بالثلج والجليد. على الطريق وصل أحد الباصات فنزل منه فريق يضجّ بالحيويّة، بعضهم يحمل حقيبة ظهر، والبعض الآخر مطارق حديديّة، وآخرون إضبارت مليئة عيّنات: طلاّب يتدرّبون

على القيام بأعمال الاستقصاء. أدخلوا رؤوسهم من نافذة الغرفة السوداء المكسوّة بالدخان، لكنّ فتاة واحدة دخلت حاملة مظلّة حمراء. في الخارج، كانت ندف الثلج تتساقط.

وإذ ظنّت أنّني أحد هؤلاء العمّال، طلبت منّي جرعة ماء. فغرفت لها من الطنجرة السوداء من السخام المعلّقة فوق الموقد ملء مغرفة. أطلقت صرخة. أحرقت فمها أثناء الشرب. اعتذرت منها.

مقتربة من ألسنة اللهب، سألتني:

ــ أنت، ألست من هنا؟

وجهها المعصوب بمنديلها احمرّ من البرد. ومذ كنت في هذه الجبال لم أرَ فتاة بهذا الجمال المشعّ. أردت أن أتحرّش بها فقلت:

ــ هل تعتقدين أنّ أهل الجبال عاجزون عن الاعتذار؟

فازداد وجهها احمرارًا.

سألتني:

ــ هل أنت أيضًا في فترة تدرّب؟

كنت منزعجًا من أن أقول لها إنّه كان بإمكاني أن أكون أستاذها.

ــ جئت لآخذ صورًا.

ــ هل أنت مصوّر؟

ــ إذا شئت.

ــ أمّا نحن فجئنا نجمع عيّنات. ثم هتفت: المنظر بديع فعلاً!

ـ هذا صحيح.

في النهاية، أنا بالفعل محبّ للجمال. من المستحيل ألاّ أنفعل لدى رؤية فتاة شابّة بهذا الجمال.

ـ هل يسعني أن آخذ لك صورة؟

ـ بمظلّتي المفتوحة؟ هكذا أجابت وهي تحرّك مظلّتها الحمراء الصغيرة.

ـ لكنّ فيلمي هو بالأسود والأبيض.

لم أشرح لها أنّه لديّ في الواقع الفيلم الذي يستعمله المحترفون.

ـ لا بأس، المصوّرون الفنّانون الحقيقيّون يستخدمون دومًا الفيلم الأسود والأبيض.

تبدو كأنّها صاحبة خبرة.

خرجت معي. كانت ندف الثلج الصغيرة تتطاير في الهواء. وكانت تحتمي من الريح بمظلّتها الحمراء الفاقعة.

مع أنّنا كنّا في شهر أيّار، لم يكن الثلج على هذا المنحدر قد ذاب تمامًا. بين طبقات الثلج المعاندة، نبتت في كلّ مكان أزهار البوقيّات الصغيرة القرمزيّة. وأحيانًا باقات الحيّون الحمراء وتحت الصخرات الجرداء، مدّت غرسات الشيح سيقانها الخضراء المخمليّة حيث تفتّحت زهرات عفيّة صفراء.

أمرتها:

ـ قفي هناك.

في الخلف، الجبال مغطّاة بندف الثلج الناعم التي التمعت في الصباح. بدت وكأنّها أشباح رماديّة اللون.

ـ هل هكذا جيّد؟

حنت رأسها واتّخذت أوضاعًا متعدّدة وتزايد عصف الرياح فلم تستطع الإبقاء على مظلّتها مستقيمة في يدها.

كانت تبدو أجمل في محاولتها مقاومة الريح.

أمامنا يجري جدول صغير تجمّدت المياه على جانبيه. على الضفّة، نبتت براعم ذهبيّة بوفرة عجيبة.

صرخت وأنا أشير إلى الجدول:

ـ لنذهب إلى هناك.

كانت تركض وهي تصارع الريح بمظلّتها. صوّبت عدسة آلة التصوير باتّجاهها ومن جرّاء أنفاسها المتصاعدة من فمها، تحوّلت حبّات الثلج إلى ندى، على منديلها وشعرها التمعت قطرات ماء. نبّهتها إلى ذلك.

صرخت في الريح:

ـ هل انتهيت؟

كانت نقاط المياه الناعمة كاللؤلؤ تلمع على حاجبيها. وهكذا، كانت رائعة. لكن لسوء الحظّ نفدت الصور الباقية في الفيلم.

سألت وهي مفعمة أملاً:

ـ هل بإمكانك أن تبعث لي بهذه الصور؟

ـ نعم، إذا تركت عنوانك.

تغلغلت في الباص ومدّت من النافذة صفحة مزّقتها من مفكّرتها دوّنت عليها اسمها، ورقم شارع منزلها في شنغدو. وصرخت لي بأنّني موضع ترحيب بي وودّعتني بإشارة من يدها.

في ما بعد، حين مررت بشنغدو تعمّدت عبور ذلك الشارع.

تذكّرت الرقم لكنّي لم أتوقّف. ولم أرسل لها قطّ صورًا. عندما ظهّرت جميع أفلامي، لم أسحب منها إلاّ صورًا قليلة. فقط تلك التي يمكن أن تعود عليّ بفائدة ما. لا أعرف ما إذا كنت سأكبّرها يومًا ما وأجهل ما إذا كانت هذه الفتاة تهزّ المشاعر في الصورة كما في الواقع.

حين كنت في الهوانغ غانغ، القمّة الرئيسيّة لجبال وويي، صوّرت عند حدود المراعي، أرزيّة منزوية في غابة صنوبريّات. عند منتصف ارتفاعها، كان الجذع منقسمًا إلى غصنين أفقيّين تقريبًا، أشبه بنسر عملاق يبسط جناحيه ليحلّق عاليًا. وسط جناحيه غصن يشبه رأس عصفور مُنخفض، وعيناه تحدّقان في الأسفل.

الطبيعة غريبة، يمكنها أن تخلق الجمال والقبح على السواء وفي جنوب المنطقة المحميّة في جبال وويي نفسها، رأيت جذع شجرة توريّا الصينيّة الهائل والمحطّم والأجوف تمامًا حيث يمكن للثعابين الكبيرة أن تعشّش فيه. من الجذع ذي السواد المعدني تنبسط جانبيًّا بضعة أغصان ترتجف فوقها وريقات صغيرات خضراء داكنة. عند مغيب الشمس،

عندما يتدثّر الوادي في ظلّ المساء، كان الجذع ينتصب في وسط أمواج الخيزران الأخضر الطري التي لا تزال مضاءة بنور الغروب. كانت أفنان الشجرة المحطّمة السوداء والمتعفّنة تنبسط في كلّ الاتّجاهات مثل شياطين مشؤومة. هذه الصورة، ظهّرتها، وفي كلّ مرّة أراها تجعلني أغرق في حزن كبير، وأعجزعن إطالة النظر إليها. أوقن أنّها تحرّك النواحي الأكثر قتامة في نفسي، وفي جميع الأحوال، سواء كان أمام الجمال أم أمام القبح، لا أستطيع إلاّ التهيّب.

في جبال وودانغ رأيت، ولا شكّ، آخر معلّم عجوز طاوي من شيعة «الواحد الحقيقي» وهو تجسيد حيّ للبشاعة. استعلمت، بشأنه في المكان المسمّى «المخيّم القديم»: خلف جدار تستظلّ به مسلاّت مهداة إلى أحد الأباطرة المينغ، دُمّرت خلال الحروب. كانت تعيش في أحد الأطلال المهدّمة راهبة عجوز طاويّة. سألتها عن الفترة العظيمة يوم كان المعبد في أوج عزّه. ووصل بنا الأمر للحديث عن العقيدة الطاويّة. أعلمتني أنّه لم يتبقَّ إلاّ معلّم وحيد عجوز لشيعة «الواحد الحقيقي»، وعمره يتعدّى الثمانين ولم يكن ينزل قطّ من الجبال. طيلة السنة، كان يسكن في معبد السقف الذهبي ولم يكن أحد يستطيع زحزحته من مكانه.

منذ الصباح الباكر، انطلقت عبر القطار الأوّل إلى نانيا، وصعدت عبر طريق عند سفح الجبل نحو «سقف الذهب»، حيث وصلت بعد انقضاء الظهيرة. عند القمّة، كان الطقس ضبابيًّا وباردًا ولم يكن هناك متنزّهون. تجوّلت في متاهة من الأروقة المقفرة. كانت النافذة مغلقة، ووحده باب ثقيل مسمّر كان نصف مفتوح. اضطررت لاستعمال كلّ

قواي لأدفعه، بالقرب من مرجل، فنهض عجوز ذو شعر ولحية مشعّثين. كان فارع القامة، قويّ البنيان، وكان وجهه قاتمًا ومظهره مرعبًا. سألني بلهجة فظّة:

ـ ماذا تفعل هنا؟

فسألته بلهجة مفعمة بالتهذيب:

ـ اعذرني، هل أنت سيّد الأمكنة؟

ـ هنا، لا وجود لسيّد.

ـ أعرف أنّ هذا الدير لم يستعد أعماله بعد، لكنْ، أأنت الراهب الرئيس السابق لهذه الأمكنة؟

ـ هنا، لا وجود لراهب رئيس.

ـ في هذه الحالة، اعذرني أيضًا، هل أنت راهب طاوي؟

ـ وإن يكن؟

قطّب حاجبيه الرماديّين الكثيفين.

ـ اعذرني، هل أنت من شيعة «الواحد الحقيقي»، أليس كذلك؟ سمعتهم يقولون إنّه لم يبق منهم إلاّ واحد هنا في هذا المعبد.

ـ لا أحفل بالشيع!

ومن دون أن ينتظر حتى أُنهي كلامي، وضعني في الخارج وهو يدفع الباب.

فسارعت للقول:

ـ أنا صحافي، وتقول الحكومة حاليًا إنّه يجب تطبيق سياسة جديدة حيال الشؤون الدينيّة. هل أستطيع مساعدتك في التعريف عن وضعك؟

ـ لا أبالي بالصحافيّين.

وصفق الباب.

انتبهت أخيرًا أنّه بالقرب من الموقد كانت تجلس امرأة عجوز وفتاة صبيّة. ربّما كانت هذه عائلته. كنت أعرف أنّ بإمكان الرهبان الطاويّين في شيعة «الواحد الحقيقي» أن يمارسوا الجنس ويتزوّجوا ويربّوا أطفالاً. لم أستطع تمالك نفسي عن الظنّ به سوءًا. بعينيه المحملقتين تحت حاجبيه الكثيفين المشعّثين، بصوته القاسي والرنّان لا بدّ أنّه مولع بفنون القتال. لا عجب إذا لم يكن أحد يجرؤ على الاحتكاك به منذ وقت طويل. لن أحظى بالطبع بشيء إضافي إذا قرعت بابه مرّة جديدة. عبر درب ضيّقة تحميها سلسلة الجبال، محاذية للجرف، صعدت إلى مكان أعلى من معبد السقف الذهبي المبني كلّيًّا من النحاس الأصفر.

كانت الريح تزأر ممزوجة بالمطر الناعم. عندما نزلت من جديد، كانت امرأة، في عمر متقدّم، ذات يدين عريضتين وقدمين كبيرتين، تسجد ضامّة يديها، قبالة المعبد المغلق، لباسها أشبه بلباس فلاّحة، لكنّ هيئتها تكشف عن طبيعتها كامرأة معتادة على التسكّع. تنحّيت وتظاهرت بأنّي أتأمّل المنظر، مستندًا إلى درابزين الحديد المثبت بين الأعمدة. كانت الريح المولولة تلوي الصنوبرات الصغيرات المعلّقات بين شقوق الصخر. وكان الضباب يلامس الأرض كاشفًا في بعض الأماكن عن بحر من الغابات الغضّة الممتدّة في الوادي.

استدرت نحوها لكي ألقي نظرة عليها. كانت واقفة خلفي مُفرجةً ساقيها، مغمضة عينيها، دون أيّ تعبير. لهؤلاء الناس عالمهم الخاصّ، عالم عصيّ على الفهم، ولا أستطيع أبدًا سبر أغواره. لهم أسلوبهم الخاصّ في العيش، والدفاع عن أنفسهم، بعيدًا عن المجتمع. أنا لا أستطيع إلاّ العودة إلى ممارسة الحياة وفقًا لما يعتبره الناس حياة طبيعيّة، لم يكن لديّ منفذ آخر، وهنا بالضبط تكمن مأساتي.

نزلت من جديد عبر المسلك حتى وصلت إلى سطيحة على منحدر وادٍ حيث كان هناك مطعم لا يزال مفتوحًا. لم يكن هناك أيّ زبون في الداخل. فقط بعض الخدم الذين يرتدون ألبسةً بيضاء، كانوا يتناولون طعامهم، لم أدخل.

عند منحدر الجبل، جرس ضخم بطول قامة إنسان كان مقلوبًا على الأرض، حاولت قرعه بيدي لكن لم يصدر عنه أيّ صوت. لا بدّ أنّ معبدًا كان هنا، لكن الآن، على امتداد النظر، لم يكن هناك إلاّ أعشاب بريّة تلويها الريح. نزلت المنحدر حتى لمحت دربًا محصبّة في غاية الوعورة تقود إلى سفح الجبل.

من المستحيل إبطاء الخطى. مجذوبًا باندفاعتي، وصلت في عشر دقائق إلى وادٍ عميق وهادئ. الأشجار المنتصبة على جانبي الأدراج الحجريّة تحجب السماء. تلاشت ضجّة الريح وأحسست بالكاد على وجهي الرذاذ الآتي ولا شكّ من الغيوم الملاصقة لقمّة الجبال. كانت الغابة تزداد كثافة. لا أعرف إذا كانت هي التي رأيتها في الضباب من معبد السقف الذهبي، لم أعد أذكر أيضًا أنّني سلكت هذه الدرب حين

كنت أتوجّه صعدًا. عندما رأيت، وأنا ألتفت، الأدراج الحجريّة التي لا تُحصى، لم أجد الشجاعة لكي أتسلّق من جديد هذه الأدراج وأهتدي إلى السبيل الصحيح.

في البداية، كنت مستغرقًا في تردّدي، كنت أتلفّت أحيانًا، لكن في ما بعد، منبهرًا بمنظر الجهنّمات، كففت عن التفكير. على جانبي الدرب تبدو رؤوس الأعمدة الحجريّة المستديرة وكأنّها حليقة الرأس. بدت أعماق الوادي أكثر رطوبة، والأعمدة تنحني في كلّ الاتّجاهات. وبدت الصخور المتآكلة بفعل عوامل الطبيعة أشبه بهياكل جماجم موضوعة على جانبي الأعمدة. خفت أن يكون الراهب الطاويّ العجوز، بدافع من حقد دفين في نفسه، قد عمد إلى تضليلي عن طريق السحر. ازدادت مخاوفي وتعرّضت لحالة من الذعر أفقدتني حواسّي.

كثافة الضباب أسرتني بين طلائعها والغابة ادلهمّت. الآن، ها هي الأدراج والأعمدة الحجريّة الرطبة تشبه الجثث. تقدّمت وسط العظام المبيضّة. لم تعد قدماي تطاوعان عقلي وقادتاني بطريقة لا تقاوم إلى مهاوي الموت. كان العرق يتصبّب من كلّ أنحاء جسدي.

كان لا بدّ لي أن أتماسك وأغادر هذا الجبل على وجه السرعة. ومن دون أن أحفل بالجنبات التي تغطّي نبت الحراج، اغتنمت انعطافة إحدى الدروب لكي أنزل مهرولاً إلى أن تشبّثت بجذع شجرة لأكبح لجام سرعتي. شعرت بحرارة تحرق وجهي ويديّ، وبدا لي أنّ الدم يسيل على وجنتيّ. وإذ رفعت رأسي، رأيت على أحد الجذوع عينًا مستديرة

كلّيًّا تحدّق إليّ. نظرت من حولي، كانت أعين الأغصان في كلّ مكان تحملق بي وتتفحّصني ببرودة.

كان لا بدّ لي أن أهدأ. فهذه في نهاية المطاف، ليست إلاّ غابة من أشجار اللكّ. كان الجبليّون الذين زرعوا اللكّ قد تركوا فيه ثلمات على جذوع الأشجار. فنبتت على هذه الحالة، مولّدة هذا المنظر الجهنّمي. ربّما كان هذا مجرّد وهم صوّره لي خوفي الداخلي. كانت روحي القاتمة تترصّدني، مثل هذه العيون المتّقدة، كنت أنا في النهاية من يحدّق إلى نفسي. كان لديّ دومًا الانطباع بأنّني مراقَب باستمرار، ما أعاق حركتي باستمرار. في الواقع، لم أكن خائفًا إلاّ من نفسي.

عدت إلى الدرب. عاود الرذاذ هطوله. كانت الأدراج الحجريّة مبلّلة. أغفلت النظر من حولي وواصلت المسير، وانحدرت في طريقي نزولاً لا ألوي على شيء.

الفصل السادس والستّون

حين يزول خوفك الأوّل من الموت، ويتبدّد قلقك، ويهدأ اضطرابك، تبقى في ما يشبه الذهول، ضائعًا في الغابة العذراء، تتجوّل في ظلّ أشجار ميتة، جرداء، على أهبة السقوط. تدور طويلاً حول هذه المذراة المثلّثة الغريبة التي تبدو وكأنّها تشير لك إلى السماء القاتمة، دون أن تكون لك الجرأة لتبتعد عن هذا المعلم الوحيد، والإشارة الوحيدة التي لا تزال تتذكّرها.

لكنّك لا تريد أن تبقى جانحًا على هذه المذراة كسمكة خارج الماء. الأفضل لك أن تتخلّى عن القيود الأخيرة التي تربطك بالعالم بدل أن تستميت في تجميع ذكرياتك. بإمكانك الضياع أكثر، لكنّك تريد أن تحتفظ بفرصة أخيرة للنجاة. هذا مفهوم تمامًا.

عند طرف الغابة، تصل إلى حافّة وهد، وتجد نفسك أمام معضلة جديدة: إمّا العودة أدراجك إلى الغابة الكثيفة وإمّا الانحدار نحو الوادي. على سفح الجبل الظليل يمتدّ مرعى تتناثر فيه بقع قاتمة، يرسمها ظلّ الأشجار. هنا وهنالك تنتصب صخور جرداء قاتمة ووعرة. لا تعرف لماذا تشعر أنّك مُجتذَب إلى مجرى الماء المنبجس من عمق الوهد، لكنّك لم تعد تفكّر وتنزل المنحدر بخطوات واسعة ومن ثم ركضًا.

تقرّر مغادرة هذا العالم المليء بالهموم. حتى لو احتفظ بقليل من الدفء، فإنّ ذكرياتك النائية تعيقك دومًا. تطلق عويلاً غرائزيًّا، وترتمي نحو نهر النسيان الجهنّمي. تعول، تجري، صرخات فرح بهيمي تنطلق من رئتيك. عندما جئت إلى العالم، أطلقت صيحة عالية متحرّرة من كلّ قيد، لكنّك في ما بعد، وجدت نفسك مكبّلاً بكلّ أنواع القواعد والطقوس ومبادئ التربية. لحسن الحظّ لا زلت قادرًا على الصراخ بحرّيّة. الغريب هو أنّك لا تسمع صوتك. مبعدًا ذراعيك، زائرًا، لاهثًا، زافرًا، تجري ولا تسمع أيّ صوت.

لا تزال تراقب جريان النبع الجارف دون أن تعرف من أين يأتي ولا إلى أين يذهب. لديك الانطباع بأنّك تحلّق في الهواء، تلتحم بالضباب، بوزن الريشة، منفصلاً عن كلّ شيء انفصالاً لم تعرفه من قبل. ومع ذلك، في عمق نفسك، تشعر بخوف عميم، دون سبب ظاهر، ربّما من الحزن.

لديك الانطباع بأنّك تحلّق وتنقسم إلى قسمين، فاقدًا كلّ شكل إنساني لكي تذوب في المنظر، هادئًا تمامًا، هائمًا وسط الوهد العميق تُبعد باستمرار الأغصان عن طريقك، لكنّها لا تلبث أن تنغلق وراءك. لقد أنهكك انحدار الجبل مهرولاً. أنت بحاجة لأن تهدأ.

متعبًا، تتوقّف لكي تستعيد نفسك. تسمع وشوشة النهر. أنت قريب منه لأنّك تسمع خرير المياه الصافية الجارية. قطرات الماء تتطاير لامعة كالزئبق. النهر مستكين. لا تسمع إلاّ أزيز الحصى الصغيرة التي لا تُحصى عندما تزحزحها مياه النهر. للمرّة الأولى في حياتك تسمع،

بهذا الوضوح، صوت مجرى الماء. كلّما استمعت إليه حدست انعكاساته الملتمعة في الظلّ.

لديك الانطباع أنّك تتقدّم باتّجاه النهر لأنّك تدوس على الأعشاب المائيّة. تغوص وسط نهر النسيان؛ مثل هموم الحياة اليوميّة، الأعشاب تعانقك. يهجرك يأسك عندئذٍ تمامًا وتتقدّم متلمّسًا طريقك على ضفّة المياه. تدوس الحصى التي تشدّ عليها بأصابع قدمك. لكأنّك تمشي في الحلم وسط نهر الجحيم القاتم. نور أزرق داكن يلتمع هناك حيث يتطاير رشاش الماء. أنت مندهش، لكنّ اندهاشك يخفي فرحة عميقة.

ومن ثم يتناهى إلى أذنيك تنفّس صاخب. تخال أنّ هذه الضجّة تأتي من النهر لكنّك، شيئًا فشيئًا، تلمح نساء يغرقن، يبكين، ينتحبن، يعبرن الواحدة تلو الأخرى قربك، شعورهنّ مبعثرة، ووجوههنّ شمعيّة وممتقعة. في الفجوات، بين جذوع الأشجار الغارقة في المياه، يُسمع صوت هدير الأمواج المشؤوم. ترى جسد صبيّة منتحرة يجرّه التيّار وقد تبعثر شعرها. النهر يسيل بمياهه السوداء كالحبر وسط الغابة التي تؤلّف حاجزًا لا يمكن اختراقه بين السماء والشمس، أجساد النساء اللواتي يخضن في الماء تلامسك، وهن يتنهّدن. لا تفكّر مطلقًا في مساعدتهنّ، لا تريد حتى أن تنقذ نفسك.

تسافر إلى مملكة الموت، حياتك لم تعد ملك يديك. تتابع التنفّس فقط بسبب لحظة خوف. حياتك معلّقة بين ما قبل هذا الخوف وما بعده. إذا انزلقت، إذا تدحرجت الحصى التي تدوس عليها بأصابع قدميك، إذا لم تبلغ قدماك عمق المياه، فستغرق في النهر الجحيميّ، مثل هذه الجثث التي يجرّها التيّار. لم يعد هناك معنى لأيّ شيء آخر. لا تُعِرْ ذلك

انتباهًا، تقدّمْ وهذا كلّ شيء. وحدها تبقى انسيابة النهر الهادئة بمياهه السوداء كالموت، وأوراق الأغصان التي تلامس صفحة الماء، التيّار الذي يسيل كأغطية فضفاضة طويلة مثل جلود ذئاب ميتة، وسط نهر النسيان.

لست مختلفًا البتّة عن الذئب، سببّت ما يكفي من الكوارث، ستقتل على يد الذئاب الأخرى، دون سبب. في نهر النسيان، الجميع متساوون، يموت الناس والذئاب، إنّه الموت، لا فرق.

هذا الاكتشاف يثير فيك سرورًا، إنّه سرور يجعلك ترغب في الصراخ، لكنّ حلقك لا يصدر أيّ صوت. الضجّة الوحيدة التي تسمعها هي ارتطام الماء الأصمّ بجذوع الأشجار.

من أين تأتي هذه الفجوات؟ المياه دون حدود، ليست عميقة، لكنّها تمتدّ إلى ما لا نهاية. إنّ بحر العذابات لا حدّ له، وأنت تعوم في بحر لامتناهٍ.

تميّز ظلّ الكائنات البشريّة التي تشدو أغاني الأجداد. أغانٍ ليست بهذا الحزن، بل تبدو وكأنّها مصطبغة بشيء من الدعابة. الحياة بهجة، والموت أيضًا. لا شيء في الواقع سوى ذكرياتك. وفي الصور التي تسترجعها من أعماق الذاكرة هل هناك واحدة لجماعة ترتّل الصلوات؟ لو أصغيت عن كثب لبدت هذه الأغاني صاعدة من تحت الخزّ، هذا الخزّ الكثيف الليّن الذي يغوص في الماء تحت قدميك. ترفعه لكي تنظر ما تحته. ديدان عاجّة تهرب في كلّ اتّجاه. غثيان غريب يتصاعد في أحشائك. تدرك أنّ هذه الديدان تلتهم الجثث المتحلّلة. أنت أيضًا سيُلتهم جسدك عاجلاً أم آجلاً. وهذا ما لا يبهجك أبدًا.

الفصل السابع والستّون

تنزّهتُ مع صديقين لثلاثة أيّام في بلاد المياه هذه. ومشيتُ وفق مزاجي عشرات الأميال، أوقفت السيّارات، ركبت المراكب، وصولي إلى هذه المدينة ليس إلاّ ثمرة الصدفة.

صديقي الجديد محامٍ يعرف تمامًا الأوساط الرسميّة، وشروط الحياة في هذه المنطقة وعاداتها. كان برفقة صديقته، امرأة شابّة ناعمة، تتحدّث بلهجة أهالي سوتشو. ليس في استطاعتي إيجاد مرشدين أفضل. بنظرهما، إنّ متسكّعًا مثلي يُعدّ مثقّفًا شهيرًا، ويعتبران أنّ صحبتي ممتعة للغاية. كان لديهما، كلّ من جهته، واجبات عائليّة، لكنّ صديقي كان يروق له أن يردّد: «في الأصل، الإنسان حرٌّ كالعصفور، فلم لا يسعى وراء القليل من المتعة؟».

لم يصبح محاميًا إلاّ منذ سنتين. عندما أُعيد الاعتبار لهذه المهنة التي كانت مهجورة تمامًا، نجح في امتحان المحاماة، واستقال من عمله، مدفوعًا برغبة واحدة: أن يفتح مكتبه الخاصّ به. كان يحلو له القول إنّ هذه المهنة تشبه مهنة الكتّاب، مهنة حرّة تسمح لنا بالدفاع عمّن نريد مع التحفّظ. لكنّه كان يقول إنّه ذات يوم، عندما يتطوّر النظام التشريعيّ،

عليَّ أن آتي قطعًا لرؤيته إذا واجهت مشكلة مع القضاء. قلت له إنّ لا مشكلة عندي مع القضاء لأنّني أوّلاً ليست عندي مشكلة مع المال إطلاقًا ، وثانيًا لم أمسّ أيّ مخلوق كان بسوء، وثالثًا لم أشهّر بأيّ كان، ورابعًا لم أسرق ولم أنصب، وخامسًا لم أتاجر بالمخدّرات، وسادساً وأخيرًا لم أغتصب أيّة امرأة. من جهتي لا دعوى لديّ لأُقيمها، لكن لو فُرضت عليّ واحدة فأنا متأكّد من خسارتها. لوّح بيده: يعرف ذلك بالطبع لكنّه قال العبارة هكذا، استكمالاً للحديث.

قالت صديقته:

ـــ يجب ألاّ تطلق الوعود الجوفاء.

نظر إليها وهو يغضّ طرفه، ثم التفت ناحيتي قائلاً:

ـــ ألا تجد أنّها جميلة حقًّا؟

فقالت لي:

ـــ لا تصغ إليه، يقول هذا عن كلّ صديقاته...

ـــ وهل أنا على خطأ، إذا قلت إنّك جميلة؟

تظاهرت برفع يدها عليه لكي تضربه.

دعواني للعشاء في أحد المطاعم التي تشرف على الشارع. عند نهاية العشاء، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة. دخل أربعة شبّان، أحدهم طلب زجاجة كبيرة من الكحول البيضاء وأطباقًا ملأت الطاولة كلّها. بدوا أنّهم يريدون الشرب حتى منتصف الليل.

في الشارع، التمعت أضواء المطاعم الصغيرة والحوانيت التي لا زالت مفتوحة. استعادت البلدة حيويّتها السابقة. وفي نهاية هذا اليوم بدا الأمر الأكثر إلحاحًا بالنسبة لنا هو إيجاد فندق نظيف لنغتسل ونتناول الشاي، ونحصل على قسط من الراحة، ثم نسترخي ونتبادل الحديث ونحن جالسون على كنبة مريحة أو ممدّدون في الأسرّة.

في اليوم الأوّل تنزّهنا في قرية قديمة كانت لا تزال تحتفظ بمساكن سلالة مينغ الحاكمة. تأمّلنا حلبة مسرح قديم، كشفنا عن معبد عتيق صوّرنا قبّته، وفككنا رموز المسلاّت القديمة، وزرنا عجائز محترمين. كذلك دخلنا إلى معابد مبنيّة حديثًا أو جدّدتها قرى اشتركت في النفقة، حيث قرأ بعض العرّافين طالعنا بواسطة أوراق اللعب. وفي المساء خلدنا للنوم في منزل جديد على حافّة إحدى القرى حيث دعانا صاحب الدار، وهو جنديّ قديم سُرّح من الخدمة. بعد العشاء، جالَسَنا وهو يقصّ علينا أعماله البطوليّة خلال قمع الجيش لعصابة من اللصوص، وأيضًا عن قطّاع الطرق الذين كانوا يقيمون في هذه المنطقة. وأخيرًا، وإذ لاحظ تعبنا، أعدّ لنا أرضيّة خشنة مفروشة بتبن الأرزّ المقطوع حديثًا، وأعطانا بعض الأغطية وهو يوصينا بأن نحترس من النار إذا أضأنا مصباح الزيت. لن يتسنّى لنا إضاءته لأنّه أنزله إلى الطابق الأرضي. رفيقاي ظلاّ يثرثران في الظلام لكنّي سرعان ما غرقت في النوم.

في الليلة التالية، ونحن نراقب نجوم السماء، وصلنا إلى إحدى البلدات وقرعنا باب أحد النُّزل. كان هناك حارسٌ عجوز ولم يكن هناك أيّ زبون، وكانت أبواب الغرف مفتوحة. اخترنا واحدة منها. صديقي

المحامي جاء مباشرة إلى غرفتي للثرثرة، ثم لحقت به صديقته معلنة بدورها أنّها تخاف وحدها. انزلقت في أغطية السرير الفارغ واستمعت إلينا نتكلّم.

كان يعرف سلسلة من القصص العجيبة المختلفة عن تلك التي رواها الجنديّ المتقاعد. عمله كمحام سمح له بقراءة كلّ أنواع الأرشيفات والشكاوى والبيانات. لا بل إنّه اتّصل مباشرة بالمجرمين ووصفهم بطريقة حيّة جدًّا، خاصّة أولئك الذين تورّطوا في جرائم جنسيّة. كانت صديقته ، المندسّة كقطّة تحت الأغطية، تسأله باستمرار: هل ما تقوله صحيح؟

ــ بالطبع صحيح! أنا نفسي استجوبت الكثير من المذنبين. منذ سنتين عندما شُنّت حملة ضدّ المتشرّدين الذين اشتُبه بارتكابهم جرائم، أُوقِف منهم ثماني مئة في المقاطعة نفسها. كانوا في معظمهم من العشّاق الذين أُغرموا من طرف واحد، ولا تستوجب فعلتهم عقابًا خطيرًا. أمّا المذنبون المستحقّون لعقوبة الإعدام فكانوا أقلّ عددًا. ومع ذلك فقد أُعدم العشرات منهم بالرّصاص بناءً على أوامر صادرة من السلطات العليا، ما سبّب ارتباكًا شديدًا لبعض الموظفّين الإداريّين المسؤولين في الأمن العامّ، الذين يتحلّون بالوعي أكثر من غيرهم.

سألته:

ــ هل دافعت عنهم؟

ــ وما الفائدة التي ستُجنى من ذلك؟ هذا النضال ضدّ الإجرام كان الرهان الذي طرحته حركة سياسيّة ومن المستحيل عرقلته.

جلس على السرير والسيجارة بين شفتيه.

ثم توجّهت إليه صديقته قائلة:

ـ أخبره قصّة الناس الذين كانوا يرقصون عراةً.

ـ كان في إحدى الضواحي مخزن غلال غُيِّرت وجهة استعماله بعدما أُعيدت الحقول إلى المزارعين، وأصبح الناس يخزّنون في بيوتهم محاصيلهم من الحبوب. كلّ سبت، عند هبوط الليل، تذهب عصابة من فتيان الضاحية إلى هنالك للرقص مزوّدين بمسجّل وبرفقة فتاة على صهوة درّاجة عاديّة أو ناريّة. كان الباب محروسًا والدخول محظّرًا على مزارعي الزاوية. النوافذ المرتفعة جدًّا لم تكن تسمح برؤية الداخل. مدفوعاً بفضوله، آل الأمر بأحد القرويّين إلى تسلّق سلّم، لكنّ المكان كان مظلمًا جدًّا، ولم يستطع رؤية شيء. لم يكن يُسمع إلاّ صوت الموسيقى، ومع ذلك فقد أخطر الشرطة التي داهمتهم وأوقفت أكثر من مئة شابّ ومعظمهم لم يتجاوز العشرين من عمره، وهم أبناء موظّفين إداريّين محلّيّين وعمّال وتجّار وباعة وعاطلين عن العمل، وجميعهم يافعون. أُدين عدد لا يستهان به منهم، بعضهم فُرضت عليهم عقوبة التدرّب على العمل في مراكز التأهيل وبعضهم أُعدم بالرصاص.

ـ هل كانوا يرقصون عراة فعلاً؟

ـ بعضهم كانوا يرقصون عراة، لكنّ معظمهم استرسلوا في ملامسات بسيطة. وبالطبع كان بعضهم يمارسون الجنس. فتاة لم تكد تبلغ العشرين من عمرها صرّحت بأنّ أكثر من مئتي رجل ضاجعوها، ما جعلها تُجنّ.

سألته صديقته:

ـ وكيف كانت واثقة من العدد؟

قالت إنّها كانت مذهولة تمامًا، ولم تفعل شيئًا سوى العدّ. قابلتها وتحدّثت إليها...

وسألته بدوري:

ـ ألم تسألها لماذا وصل بها الأمر إلى هذا الحدّ؟

ـ قالت إنّها كانت مدفوعة بداية بالفضول. قبل الذهاب إلى هذه الحفلة، لم تكن لديها أيّة تجربة جنسيّة، لكن ما إن يُفتح السِكر حتى لا يعود بالإمكان إقفاله. تلك كانت كلماتها بالذات.

قالت الصديقة وهي مندسّة في الأغطية:

ـ وهذه هي الحقيقة بكلّ تأكيد.

سألته:

ـ كيف كانت؟

ـ لو رأيتها لما صدّقت: عاديّة جدًّا، لا شيء ملفت للنظر في هيئتها الخارجيّة، ووجهها لا يشي بأيّ تعبير. لا شيء فيها يوحي بأنّها مثيرة. كان رأسها حليقًا، ومن المستحيل رؤية تفاصيل قامتها بزيّ السجينة الذي كانت ترتديه، لكنّها كانت قصيرة القامة ووجهها مستدير تمامًا. كانت تتكلّم دون كلفة، وتجيب على جميع الأسئلة دون تحفّظ.

ـ بالطبع .. قالت بصوت منخفض.

ــ ومن ثم أُعدمت.

لزمنا الصمت لفترة طويلة ثم سألت:

ــ وما التهمة الموجّهة إليها؟

ــ التهمة؟ بدا كأنّه يطرح السؤال على نفسه، لا بدَّ أنّها كانت «التحريض على الفجور»، لأنّها لم تذهب وحدها بل اصطحبت معها فتيات أخريات. بالطبع لاقت الأخريات المصير نفسه الذي لاقته.

قلت:

ــ المسألة هي معرفة ما إذا كانت حاولت الإغواء، ودفعت الآخرين إلى اغتصابها؟

ــ لم يكن هناك اغتصاب بالمعنى الحقيقيّ للكلمة. قرأت الاعترافات. التحريض على الاغتصاب صعبٌ إثباته.

وعقّبت قائلة:

ــ في هذه الظروف، يصعب أن يُحسب حساب شيء.

ــ وما الحافز إذًا؟ ماذا كانت نيّتها تجاه الفتيات اللواتي اصطحبتهنّ. ربّما كان الشبّان هم الذين أرادوا أن تفعل هذا، أو ربّما كان بعضهم أعطاها المال لهذه الغاية.

ــ سألتها عن هذا الأمر فقالت إنّها لم تفعل ذلك إلاّ مع شبّان تعرفهم، وإنّها أكلت وشربت وتسلّت معهم، وإنّ أحدًا لم يعطها مالاً؛ فهي نفسها حصّلت تعليمها وتعمل في صيدليّة أو مستوصف حيث تهتمّ بالأدوية.

هتفت:

ـ هذا لا شأن له بالتربية، فهي لم تكن عاهرة، كانت فقط مريضة عقليًا.

سألتها:

ـ أيّ نوع من الأمراض؟

ـ أيّ سؤال بالنسبة لكاتب! شعرت أنّها منحطّة وأرادت أن تفسد الفتيات معها.

ـ لا أفهم.

فأجابت:

ـ بل فهمت جيّدًا جدًّا. الجميع يعرف الرغبة الجنسيّة، لكن بما أنّها كانت تعيسة ولا شكّ لأنها أحبّت رجلاً لا يبادلها هذا الحبّ، فقد أرادت الانتقام. وانتقمت بداية من جسدها بالذات...

فسأل المحامي ملتفتًا إلى صديقته:

ـ وما رأيك؟

ـ إذا كان ينبغي عليَّ أن أنحدر إلى هذا المستوى من الانحطاط فسأقتلك أوّلاً!

فأجابها:

ـ هل أنت متوحّشة إلى هذا الحدّ؟

قلت:

ـــ الجميع يملكون شيئًا من القسوة في أعماقهم.

وأضاف المحامي:

ـــ المسألة هي معرفة من يستحقّ عقوبة الإعدام أوّلاً. من حيث المبدأ، أعتقد أنّ تجّار المخدّرات ومفتعلي الحرائق دون غيرهم، أحقّ بعقوبة الإعدام لأنّهم يسيئون إلى حياة الآخرين.

فانتفضت قائلة:

ـــ والاغتصاب، أليس جريمة؟

ـــ لم أقل هذا، لكنّي أظنّ أنّ التحريض على الفجور لم يُثبت، لأنّ هذا النوع من الجنحات يتعلّق دومًا بشخصين.

ـــ واغتصاب الفتيات اليافعات، أليس جريمة؟

ـــ أوّلاً يجب معرفة ماذا تقصدين بفتاة يافعة: اليافعة هي من كانت ما دون سنّ الثامنة عشرة.

ـــ لأنّه قبل بلوغ الثامنة عشرة لا تكون لدينا رغبات جنسيّة؟

ـــ يجب على القانون أن يضع دومًا حدودًا.

ـــ لا أحفل بالقانون.

ـــ لكنّ القانون يحفل بك.

ـــ وبِمَ يعنيني القانون؟ لا أرتكب جرائم. أنتم الرجال من يرتكب الجرائم دومًا.

انفجرنا ضاحكين.

توجّهت إليه:

ـ لماذا تضحك؟

فقال لها ملتفتًا صوبها:

ـ أنت أسوأ من القانون، تراقبين حتى الضحك؟

كانت ترتدي فقط ملابسها الداخليّة لكنّها لم تكن تحفل بالأمر، فقالت له وهي تتمطّى محدّقة إليه:

ـ حسنًا، قل لي بصراحة، هل ذهبت من قبل لرؤية العاهرات؟ قل لي!

ـ لا.

ـ أخبره قصّة الحساء بمعكرونة «النوي»! ولْنَرَ ماذا يقول.

ـ ولماذا؟ ما الأمر؟ إنّه مجرّد حساء بـ «النوي».

فهتفت:

ـ ومن يدري؟

وبطبيعة الحال رغبت في معرفة أكثر عن الموضوع:

ـ عمّ تتحدّث هذه القصّة؟

ـ ليس المال هو وحده الذي يهمّ العاهرات. لديهنّ أيضًا مشاعر.

فقاطعته:

ـ قلت إنّك دعوتها لتناول قصعة من حساء «النوي»، نعم أم لا؟

ـ نعم، لكنّنا لم نمارس الجنس معًا.

زمّت شفتيها امتعاضًا.

وراح يخبر: ذات ليلة، كان الرذاذ يتساقط في أحد الشوارع المقفرة. فرأى امرأة واقفة تحت أحد الفوانيس فحاول أن يلفت انتباهها. لم يكن يعرف أنّها سترافقه مسافة من الطريق. وصلا بالقرب من مكان تُعرض فيه أنواع عديدة من الحساء، مظلّل بسقف من المعدن المطلي بالزفت فأعلنت عن رغبتها في شراء بعض منها، فاشترى قصعة واحدة إذ لم يكن لديه ما يكفي من المال. لم يكن قد ضاجعها بعد لكنّه كان يعرف أنّها سترافقه إلى حيث يشاء لو رغب في ذلك. جلسا فقط على شبكات الأقنية الإسمنتيّة الممتدّة على جانبي الطريق، وأخذا يثرثران، هناك، متعانقين.

رمقتني بنظرة ثم قالت:

ـ هل كانت جميلة وفتيّة؟

ـ في عمر العشرين، وأنفها أقنى.

ـ وهل أنت عاقل إلى هذا الحدّ؟

ـ خفت ألاّ تكون نظيفة وأن تنقل إليَّ أمراضًا.

فهتفت وهي تتمطّى:

ـ هكذا أنتم الرجال.

قال إنّه أحسن صنيعًا حين أشفق عليها. كانت لا ترتدي إلاّ القليل من الثياب وثيابها مبلّلة والطقس بارد وهي تسير تحت المطر.

قلت:

ـ أصدّق ما تقوله، فكلّ الناس لديهم مشاعر خيّرة وسيّئة في آن معًا. وإلاّ لما كانوا كائنات بشريّة.

قال:

ـ هذا يتعدّى القوانين. لكن لو كان القانون يعتبر الرغبة الجنسيّة جريمة لوقعت الجريمة على جميع الناس!

تنهّدت بعذوبة.

عند خروجنا من المطعم، مشينا حتى وصلنا إلى جسر حجريّ ولم نجد فندقًا. على آخر الجسر، عند حافّة النهر، شاهدنا مصباحًا صغيرًا يلمع. وما إن اعتادت أعيننا على الظلمة حتى رأينا قاربًا وفوقه قمريّة من القماش الأسود وقد أخذ مكانه على حافّة الرصيف.

كانت هناك امرأتان تجتازان الجسر ومرّتا بالقرب منّا.

فهمست لي صديقة المحامي، وهي تضغط على ذراعي:

ـ انظر، إنّهما تمارسان هذه المهنة!

استدرت، لأنّي لم أعرهما اهتمامي لكنّي لم أشاهد إلاّ رقبة يلتمع فيها شريط من البلاستيك الملوّن وبروفيلاً. كانتا كلتاهما قصيرتي القامة وسمينتين.

نظر إليهما صديقي تبتعدان ببطء وكتفاهما متلاصقتان.

ـ تحاولان اجتذاب البحّارة.

ـ هل أنت واثق؟ كنت متفاجئًا من قدرتهما على ممارسة عملهما صراحةً. كنت أعتقد أنّ العاهرات موجودات فقط بالقرب من محطّات المدن الكبيرة ومرافئها.

قالت صديقته:

ـ تعرفهنّ من أوّل نظرة.

النساء ثاقبات النظر بالفطرة.

قال لي:

ـ لديهنّ لغة مرمّزة تسمح لهنّ بإتمام صفقات في قرى الجوار، وفي الليل، يكسبن القليل من المال.

ـ لاحظتا أنّني كنت معكما، لكن لو كنتما وحدكما لوجّهتا إليكما الكلام دون أيّ شك.

ـ هل هنالك مكان خفي يسترهما؟ لا تذهبان فقط إلى القرى أليس كذلك؟

ـ لا بدّ أنّ لديهما قاربًا في الجوار لكنّهما تستطيعان أيضًا الذهاب إلى الفندق مع زبائنهما.

ـ هل هذا النوع من البغاء يمارس علانيّة في الفنادق؟

ـ قد تكونان متعاملتين مع بعض أصحاب الفنادق. ألم ترَ منهنّ على طريقك؟

فكّرت عندئذٍ مجدّدًا بهذه المرأة التي كانت تريد الذهاب إلى بكين لكي ترفع شكوى، والتي ادّعت أنّها لا تملك مالاً لكي تشتري بطاقتها. أعطيتها يوانًا واحدًا، لكنّها ربّما كانت عاهرة.

ـــ ألا تقوم بدراسات سوسيولوجيّة؟ هذه الأيّام حافلة بكلّ أنواع الغرائب.

ـــ لا يسعني إلاّ أن أشعر بالذنب وأقول إنّني عاجز عن القيام بأدنى دراسة. لست إلاّ كلبًا تائهًا يتسكّع شمالاً ويمينًا. ضحكا عن طيبة خاطر.

ـــ اتّبعاني، سأجعلكما تقضيان وقتًا ممتعًا! كانت لديه فكرة جيّدة ثم أطلق صوته عاليًا باتّجاه النهر:

ـــ هاي، هل من أحد هناك؟

وقفز عن حافّة الرصيف إلى القارب ذي القمريّة من القماش الأسود.

فسأله صوت مخنوق على متن المركب:

ـــ ماذا تريد؟

ـــ هل يمكنكم التجوّل ليلاً في هذا القارب؟

ـــ وإلى أين نذهب؟

فذكر اسم أحد الأمكنة.

سأل رجل خرج من القمريّة وذراعاه عاريتان:

ـــ كم تدفع؟

ـ كم تريد؟

وبدأت المساومة.

ـ عشرين يوانًا.

ـ لا، عشرة.

ـ ثمانية عشر.

ـ خمسة عشر.

ـ لا، عشرة.

ـ لن أذهب لقاء عشرة يوانات.

وعاد الرجل إلى القمريّة. وسُمعت وشوشة صوت امرأة.

كلّ واحد منّا، نحن الثلاثة، يراقب الآخر ويشير برأسه. مستحيل أن نتمالك أنفسنا عن الضحك.

ـ هل تذهبون فقط إلى رصيف شياو دانغيانغ؟ سأل صوت آخر على مسافة عدّة مراكب في البعيد.

أشار لنا صديقي بأن نلزم الصمت وأجاب بصوت قوي:

ـ لن أذهب إلاّ بعشرة يوانات! بدا مغتبطًا.

ـ اصعدوا على المركب الواقف أمامكم سأصل بمركبي.

يعرف صديقي الأسعار تمامًا. لاحت قامة رجل يحمل محجنًا بيده ويضع سترة فوق كتفيه.

ـ ما رأيك؟ هذا يوفّر علينا الإقامة في الفندق! هذا ما يسمّى فعلاً «الإبحار على متن مركب تحت ضياء القمر»! ليس هناك ضياء قمر للأسف. على أيّة حال، لا يمكن الاستغناء عن الكحول.

توسّلنا إلى البحّار لكي ينتظرنا لحظة، وانطلقنا لنشتري من الزقاق زجاجة «داكو» وكيسًا صغيراً من الفول المسلوق وشمعتين. ثم قفزنا مبتهجين إلى المركب.

كان البحّار عجوزًا نحيلاً. أزاح ستارة القمريّة وذهبنا متلمّسين المكان لنتربّع على الجسر. أراد صديقي إشعال الشموع بقدّاحته.

غمغم العجوز:

ـ لا تشعل نارًا على المركب.

ـ ولماذا؟

ظننت أنّ في الأمر محرّمًا ما.

ـ هنالك مجازفة بإشعال النار في الستارة.

سأله المحامي:

ـ ولماذا تعتقد أنّنا سنضرم النار في الستارة.

طيّرت الريح عدّة مرّات لهب قدّاحته. أبعد القماشة قليلاً.

ـ سنعوّض عليك إذا أُضرمت النار في الستارة.

اندسّت صديقته بيني وبينه. شعرنا أنّنا أفضل حالاً. لوهلة أحسسنا أنّنا نعيش من جديد.

ترك العجوز محجنه ودخل تحت الستارة:

ــ أطفئ هذا!

قلت:

ــ وما الفائدة من إشعالها؟ من الأفضل أن يخيّم علينا الليل بسواده.

عندئذٍ فتح المحامي الزجاجة، مبعداً ساقيه ووضع فوق الحصيرة الممتدّة على جسر المركب علبة الفول المسلوق. وجوهنا متقابلة، أقدامنا متواجهة. نمرّر زجاجة الكحول. مستندة إليه، تمدّ يدها أحيانًا لتمسك الزجاجة وتحتسي جرعة منها. عند منعطف النهر، لا يُسمع إلاّ اصطفاق الأمواج، والمحجن الذي يلامس صفحة الماء.

ــ الشابّ قبلك لم ينتهز الفرصة.

ــ لو أنّك أعطيته خمسة يوانات زيادة لكان قَبِل. ليس الأمر بالخطير.

ــ بالضبط، ثمنًا لقصعة حساء النوي الساخن!

غدا تصرّفنا مزعجًا.

ــ منذ القدم وهذه القرية الواقعة على ضفّة النهر هي مرتع اللذّات. فمن يستطيع تحظير ذلك؟ هنا الفتيان والفتيات كلّهم طائشون جدًّا. ولكن لا نستطيع أن نردعهم عن عاداتهم! إنّهم هكذا. قال العجوز في وسط الظلام.

بدت بعض الفجوات في السماء القاتمة لبرهة وتسرّب ضياء النجوم، ثمّ ادلهمّت من جديد. في مؤخّرة المراكب، تمتزج البقبقات التي

يحدثها المجذاف في الماء بحفيف الأمواج العذب حين ترتطم بالقارب. هبّت ريح باردة رطّبت الجوّ وتسلّلت عبر الستارة المزاحة. فأسدلنا الستارة المصنوعة من أكياس البلاستيك تردّ عنّا الرياح القويّة.

شعرنا بالتعب يهدّنا، تجمّعنا ثلاثتنا في وسط القمريّة الضيّقة. أنا والمحامي تقوقعنا من الجانبين واندست المرأة بيننا. النساء هنّ هكذا، بحاجة إلى الدفء.

على الرّغم من العتمة، أستطيع رصد حقول الأرزّ الممتدّة خلف السدود. وراءها، المستنقعات المليئة بالقصب. بعد عدّة دورات وانعطافات، وصلنا إلى قناة تجتاز أجمات القصب المتلاصقة. قد نُقتل ونغرق دون أن يُترك أثرٌ وراءنا. وفي الواقع نحن ثلاثة في مواجهة واحد، وحتى ولو كانت هناك امرأة بيننا، فليس لدينا في مواجهتنا إلاّ رجل عجوز، ويمكننا النوم مطمئنّين. استدارت المرأة فلمست ظهرها برجليّ وأسندت ردفيها إلى ساقيّ لكن لا أحد يتنبّه للأمر.

شهر تشرين الأوّل، في هذه البلاد الوفيرة بالماء، هو فصل الجنى والحصاد، ترى في كلّ مكان نهودًا ترتعش ونظرات رطيبة تلتمع.

جسدها جذّاب، يشهّي الاقتراب منها ومداعبتها. مندسّة إلى صدر صديقي لا بدّ أنّها تشعر بحرارة جسدي. تمدّ يدها لكي تضعها على ساقي. وكأنّها تريد تعزيتي قليلاً إمّا على سبيل الخفّة وإمّا اللطف. يُسمع عندئذٍ أنين، لا بل شكوى عميقة آتية من مؤخّرة المركب. تراودنا الرغبة في الاعتراض، لكن لا يسعنا أن نتمالك أنفسنا عن الاستماع. نحيب يُدمي القلب يتردّد صداه في ذلك الليل فيمتزج مع صوت الريح

فوق صفحة الماء. العجوز يغنّي، يغنّي بسكينة، مستغرقًا تمامًا في غنائه، معالجًا صوته الذي يُخرج من أعماق صدره شكوى دفينة احتبست طويلاً وتحرّرت فجأة. في البداية، بقيت الكلمات غير واضحة، ثم شيئًا فشيئًا، استطعنا فهم بعضها دون معرفة المعنى بشكل كامل، وهذا بسبب لهجة العجوز المصطبغة بنبرة فلاّحيّة قويّة. شيء مثل: «أنت، أيّتها الأخت في الثامنة عشرة من العمر.. لحقت بقدر صهرك.. في كلّ مكان.. في كلّ مكان.. ليس الأمر مماثلاً.. الخادمة الصغيرة... مع البريق»، ما إن نفقد الخيط، لا نعود نفهم شيئًا.

سألتهما وأنا أمسك بأيديهما:

ـ هل تسمعان؟ ماذا يغنّي؟

تحرّك جسداهما، لم يستغرقا في النوم بعد.

طوى المحامي ساقيه وجلس ثم صاح بالبحّار:

ـ هاي، أيّها العجوز، ماذا تغنّي؟

مصطفقًا بجناحيه، حلّق عصفور مرتعب فوق القمريّة وهو يولول. أزحت الستارة قليلاً، المركب يقترب من الضفّة. في فجوات السدّ، تنبت باقات سوداء ، ربّما هي فاصوليا الصويا. لم يعد العجوز يغنّي، هبّت ريح منعشة طردت عنّي النوم. أتوجّه إليه بتهذيب:

ـ أيّها العجوز، هل ما تغنّيه أقرب إلى موشّح، أليس كذلك؟

لم يعد يقول شيئاً، منشغلاً بمعالجة المحجن. يتقدّم المركب سريعًا.

ـ استرح واشرب معنا. ومن بعدها غنِّ لنا شيئًا.

اقترب المحامي منه.

الرجل العجوز يلوذ بالصمت ويتابع معالجة محجنه.

ــ لا شيء يستوجب السرعة، تعال احتس جرعة من الشراب. سأعطيك ورقتي نقود إضافيّتين لكي تغنّي لنا شيئًا ما، موافق؟

مثل حجر سقط في الماء، لم تلق كلمات المحامي أيّ صدى. سواء كان البحّار منزعجًا أو غاضبًا، تابع المركب انسيابه على الماء. وحدها تهدهدنا ضجّة الدوّامات التي يحدثها المحجن والأمواج الصغيرة المرتطمة بالمركب بعذوبة.

همست صديقة المحامي:

ــ لننم.

تمدّدنا خائبين قليلاً. بدت القمريّة أضيق مسافة نسبة لأجسادنا الثلاثة المتمدّدة، الملتصق أحدها بالآخر. أحسّ بحرارة جسدها. بدافع الرغبة أم الحنان، أخذت يدي وبقيت الأشياء عند هذا الحدّ. لا أحد يريد اختيار الاضطراب الغامض لهذه الليلة. بين المحامي وبينها، ما من ضجّة. ما إن أحسست بعذوبة جسدها وحرارته، حاولت أن أكبت الانفعال الذي غلبني، لكنّ رغبتي الملجومة تضاعفت واستعاد الليل اضطرابه الغامض.

بعد ذلك بوقت طويل، تردّدت الشكوى من جديد في أرجاء العتمة، شكوى نفس متألّمة تتسكّع في الليل، متعبة، غير مرتوية. التمع رماد مشتعل لبرهة في السواد. وحدها بقيت حرارة جسدها وطراوة اللمسات،

اشتبكت أصابعي بأصابعها لكنّ أحدًا لم يصدر صوتًا. لا أحد يجرؤ على تعكير الصمت، وكلّ يحبس أنفاسه ويستمع إلى ولولة العاصفة التي تموج في عروقه. دوّى صوت العجوز المنهك على نحو متقطّع. صوته يغنّي نهدي امرأة عطرين، وساقي امرأة أخرى مغويتين، لكنّ أبيات أغنيته غير واضحة، لا نفهم منها إلاّ القليل، يغنّي بطريقة مشوّشة. وحدهما النفس واللمس محسوسان، الأبيات تتوالى وأيّ منها لا يتكرّر من المطلع إلى النهاية، لكنّها كلّها متشابهة، الأزهار والبراعم، الوجوه المتورّدة، لا تفعله، جذور، جذور اللوتس، تنانير الشاش الشفّافة الخافقة في الريح، الخصر النحيل، طعم الكاكي المرّ، ليس المرّ بل المزّ، في الأمواج ألف زوج عيون، اليعاسيب في السماء، لا، لا يمكننا الوثوق بها.

جليّ أنّه يسبر أعماق ذاكرته لكي يجد المشاعر التي تمنح لغته قوّتها المعبّرة، ليس للغته معنى واضح، لا ينقل إلاّ أحاسيس حدسيّة، تؤجّج الرغبة وتسيل في غنائه، أشبه بشكوى، بتنهيدة. وبعد وقت طويل، يتوقّف الغناء، ويدها التي كانت تمسك بيدي ارتخت أخيرًا. لم يعد أحد يتحرّك.

العجوز يسعل، القارب يتأرجح قليلاً. أجلس لكي أنظر عبر الستارة. صفحة الماء ابيضّت، القارب يجتاز إحدى البلدات. تتلاصق البيوت على الضفّة، تحت ضوء الفوانيس، الأبواب مغلقة بعناية، النوافذ مطفأة في الخلف، العجوز لا يتوقّف عن السعال، القارب يتمايل باطّراد وبقوّة متزايدة، يُسمع صوت تبوّله في الماء.

الفصل الثامن والستّون

أنت، تتابع تسلّق الجبال، وفي كلّ مرّة تقترب من القمّة، منهكًا، تخال أنّها المرّة الأخيرة. عندما تصل إلى الهدف ويهدأ هياجك، تبقى غير راضٍ. كلّما زال تعبك زاد شعورك بمزيد الحاجة إلى الاكتشاف، تتأمّل سلسلة الجبال المتموّجة على مدّ النظر، وتعاودك الرغبة في تسلّقها. الجبال التي تسلّقتها من قبل فقدت سحرها، لكنّك تبقى مقتنعًا أنّها تحجب وراءها غرائب أخرى تجهل وجودها. لكن حين تصل إلى القمّة، لا تكتشف شيئًا من هذه الغرائب، لا تجد إلاّ الريح الموحشة.

على مرّ الأيّام، تتكيّف مع وحدتك، فتسلّق الجبال أصبح نوعًا من مرض مزمن. تعرف تمامًا أنّك لن تجد شيئًا، لا يدفعك إلاّ إلحاحك ولا تكفّ عن ارتقائها. ضمن هذا المسار تحتاج بالطبع لبعض التعزية فتهدهد نفسك بالأحلام وتخلق أساطيرك بالذات.

تذكر أنّك تحت أحد المزالق، لمحت مغارة تسدّ مدخلها تقريبًا الصخور المتكدّسة. ظننت أنّها منزل العجوز شي، وهو قدّيس تتحدّث عنه الخرافات الجبليّة في إتنيّة **تسيانغ**.

تذكر أنّه كان جالسًا على لوح سرير نخره الدود، تداعى ما إن لمسته، الحطام كان رطبًا بسبب عدم تعرّض المغارة للهواء الطلق. أمام المدخل يسيل جدول، وحيثما وضعت قدمك، كان الخزّ قد كسا كلّ شيء.

كان جسده مستندًا إلى الجدار، وكان وجهه، بمحجريه الغائرين، يابسًا كعود حطب، التفت صوبي. كانت بندقيّته المسحورة تتدلّى من غصن شجرة مغروس في شقّ من الجدار، فوق رأسه. ليس عليه إلاّ أن يمدّ يده لكي يستلّ سلاحه الذي لا أثر عليه للصدأ. كانت آثار شحم الدبّ لا تزال عالقة عليها.

سألك العجوز:

ـ ماذا جئت تفعل هنا؟

ـ جئت أراك.

جَهِدت لتبدو مهذّبًا وإن كان الرعب يخنقك. على الرّغم من كبر سنّه لم يكن يبدو عليه أنّه نزق. كنت تعرف تمامًا أنّه يمكن أن يقتلك بطلقة من بندقيّته إذا أغظته. أنت من عليك أن تحاول إخافته. لكنّك لم تكن تجرؤ حتى أن تحدّق بعينيه الغارقتين في محجريه لئلاّ يظنّ أنّك ترنو إلى بندقيّته.

ـ ولماذا جئت تراني؟

لا تستطيع أن تفصح له عن سبب زيارتك.

فهمهم بصوت بدا وكأنّه طالع من مغارة:

ـ منذ زمن بعيد لم يأتِ أحد لرؤيتي. المعبر الذي يؤدّي إلى هنا أصابه التلف وتعفّن، أليس كذلك؟

شرحْتَ له أنّك صعدت، من عمق الوهد، هناك حيث يسيل نهر مينغ.

ـ ألم يعد أحد منكم يذكرني؟

فسارعت للقول:

ـ لا، الجبليّون يعرفونك، أنت العجوز شي، ويتحدّثون عنك في سهراتهم، لكنّهم لا يجرؤون على المجيء لرؤيتك.

كنت تريد أن تقول له إنّك سمعتهم يتحدّثون عنه، فأردت المجيء إلى هنا بدافع الفضول أكثر ممّا هو بدافعِ الشجاعة، لكن ليس سهلاً أن تشرح له هذا. بما أنّك وجدت هنا برهانًا على مصداقيّة ما يُروى عنه من أساطير، الآن وقد رأيته عليك أن تغتنم الفرصة.

ـ هل نحن هنا بعيدون عن جبال كونلن؟

لماذا سألته عن جبال كونلن؟ إنّها جبال الأجداد حيث تعيش ملكة الغرب الأمّ. وهي ماثلة على لوحات الآجرّ المنقوشة الموجودة في قبور سلالة هان على هيئة شخص له رأس نمر وجسد إنسان وذنب فهد. ولوحات الآجرّ الثقيلة لسلالة هان حقيقيّة فعلاً.

ـ ها، إذا ذهبت قدمًا، تصل إلى جبال كونلن.

قال هذا وكأنّه يشير إلى المراحيض في قاعة سينما. تسلّحت بالشجاعة لكي تسأله أيضًا:

ـ لكن هل المسافة التي عليك اجتيازها قدمًا لتصل إلى الجبال، بعيدة؟

ـ قدمًا...

منتظرًا أن يكمل عبارته، ترنو إلى محجريه الغائرين. انفتح فمه الأدرد لمرّتين ثم انغلق. من المستحيل معرفة ما إذا كان قال شيئًا أو ما إذا كان فقط يهمّ بقوله.

أردت أن تولي الفرار، لكنّك خشيت إن مررت بالقرب منه أن يحنق، ففضّلت أن تحدّق إليه متّخذًا مظهر الدعة التامّة، وكأنّك راغب في الاستماع إلى تعاليمه، لكنّه لم يعلّمك شيئًا. لا شكّ أنّه عاجز عن النصح. أحسست أنّ عضلات وجهك تصلّبت إثر هذا الجمود فأرخيت زوايا فمك، وحاولت الظهور بمظهر أكثر انشراحًا. لكنّك لم تلحظ أيّة ردّة فعل من قبله. عندئذٍ، حرّكت قدمًا لكي تصرف نظره عن التحديق بوجهك وتقدّمت بطريقة غير محسوسة. اقتربت من محجريه الغائرين، بقيت حدقتاه ثابتتين وكأنّهما كانتا مزيّفتين، ربّما لم يكن إلاّ مومياء.

لا شك أنّ الجثث المحفوظة بشكل تامّ في مقابر شو في جيانغ لينغ أو في ماوانغدوي كانت في الوضعيّة نفسها التي يتّخذها.

اقتربت منه دون أن تجرؤ على لمسه، خائفًا من أن يتداعى لدى أقلّ حركة. مددت يدك لكي تستولي على بندقيّة الصيد التي تغطّيها آثار شحم الدبّ، المتدلّية خلفه. لكن عندما لمست أستون البندقيّة تلاشى هباءً. فرجعت أدراجك بأقصى سرعة دون أن تحفل بكيفيّة الذهاب إلى عند ملكة الغرب الأمّ.

فوق رأسك، دوّى الرعد، كانت السماء تعبّر عن غضبها! الجنود والجنرالات السماويّون يقرعون، بمطارق من عظم الحيوانات، الطبل الكبير المصنوع من جلد الجاموس الآتي من بحر الشرق.

تسعة آلاف وتسعماية وتسعة وتسعون خفّاشًا أبيض تحوّم في المغارة وهي تطلق صرخات حادّة، موقظة أرواح الجبل. كتل هائلة من الحجارة تدحرجت من القمم مُحدثة خلفها انهيارًا هائلاً مثل جيش من الفرسان ينحدرون السفوح وسط غيمة من الغبار.

آه، آه، فجأة ظهرت في السماء تسع شموس! الرجال بأضلعهم الخمس والنساء بأعصابهنّ السبعة عشر أخذوا يضربون على آلات القرع وينقرون على الآلات الوتريّة دون أن يكفّوا عن الغناء والصراخ والنحيب والعويل.

عندئذٍ فارقتك روحك ولم تعد ترى إلاّ ضفادع لا تُحصى، ملتفتة نحو السماء مثل حشد من الرجال القصار الذين قُطعت رؤوسهم وهم يرفعون أيديهم نحو السماء صارخين بكلّ ما في حناجرهم من يأس: أعيدوا لي رأسي: أعيدوا لي رأسي! أعيدوا لنا رؤوسنا! أعيدوا لنا رؤوسنا! رؤوسنا أعيدوها لنا! رؤوسنا أعيدوها لنا! رؤوسنا أعيدوها لنا! رؤوسنا أعيدوها لنا! نحن أعيدوا لنا رؤوسًا! رؤوسًا أعيدوا لنا نحن! رؤوسًا أعيدوا لنا نحن! هيّا أعيدوا لنا رؤوسنا!... أُعيد رأس أنا...

الفصل التاسع والستّون

استيقظت من نومي على دقّ جرس وقرع طبل. لم أعد أذكر أين أنا. في الظلمة التامّة، أتعرّف أخيرًا إلى نافذة مزدانة، على ما يبدو لي، بمصلّبات متقنة الصنع. لكي أتحقّق من أنّني لا أزال أحلم، أحاول جاهدًا أن أرفع أجفاني الثقيلة. أبصر أخيرًا ضوء ساعتي اللاصف: إنّها الساعة الثالثة. أوقن أنّ صلاة الصباح بدأت، وأنّني قضيت الليلة في أحد المعابد. أنهض على الفور.

عندما أصل إلى الباحة، يسكت الطبل، ووحده الجرس يقرع قرعاته المتفرّقة. خلف الأشجار، السماء قاتمة، الرنين آتٍ من قاعة «الكنز الكبير» المحتجبة خلف جدران عالية. متلمّسًا طريقي، أبلغ باب الرواق الذي يقود إلى غرفة الطعام، لكنّه مغلق. أتوجّه نحو الطرف الآخر من الرواق لكنّ يديّ لا تميّزان إلاّ جدارًا من الآجرّ. أشعر أنّني أسير هذه الباحة المغلقة المسوّرة بجدران عالية. أنادي مرّات عدّة لكن عبثًا.

البارحة، أصررت على الإقامة في دير غوتسينغ. الرهبان الذين كانوا يحرقون البخور ويوزّعون الهبات نظروا إليّ وكأنّهم يشكّكون في تقواي. بقيت على إصراري وإلحاحي الشديدين حتى إقفال الأبواب.

وأخيرًا، بعد أن استشاروا الراهب الرئيسيّ، جهّزوا لي مكانًا في هذه الباحة الجانبيّة، في مؤخّرة المعبد.

لا أريد البقاء محتبسًا، أريد، دون أيّ انتهاك للطقوس البوذيّة، أن أعرف هل يداومون في هذا المعبد الناشط منذ أكثر من ألف سنة، على تأدية طقوس مدرسة تيانتاي[1]. حين عدت إلى الباحة، لمحت أخيرًا خيطًا من النور يمرّ عبر أحد الشقوق في الزاوية. متلمّسًا طريقي، اكتشفت باباً صغيرًا، ففتحته دون أن يُؤذَن لي بالدخول، إنّه معبد بوذيّ ولا مكان فيه محرّمًا.

وراء الجدار الحاجب، مصلًّى صغير تضيئه بضع شمعات وتطفو فيه نفثات البخور. أمام المذبح قطعة من الديباج البنفسجيّ المطرّزة بكتابة من أحرف عريضة: «وفجأة أُشعلت عيدان العطر في المبخرة» ، لكأنّ هذه الكتابة موحًى بها. أردت أن أثبت أنّ نواياي صافية وأنّني لم آتِ لكي أتجسّس على أسرار الرهبان، فأنرت طريقي بالشمعدان متباهيًا. على الجدران الأربعة دُوّنت كتابات قديمة: لم يُخيّل إليّ إطلاقًا أنّ معبدًا يمكنه أن يؤوي غرفة بهذه الرهافة. إنّها ربّما القاعة حيث مقام المعلّم الأكبر للدارما. خجلت بعض الشيء لتجرّؤي على الدخول إليها لكنّ بي رغبة جامحة لمعرفة ما إذا كانوا يحتفظون بالمخطوطات التي كتبها

---

(١) مدرسة تيانتاي التي تحمل اسم الجبل نفسه شُيّدت في القرن السادس للميلاد، على جبل تيانتاي وهي من أهمّ مدارس البوذيّة الصينيّة.

الراهبان البوذيّان الشهيران في سلالة تانغ: هان شان وشي ديه[1]. أضع الشمعدان جانبًا وأغادر الغرفة باتّجاه صوت الجرس.

ها أنذا في باحة أخرى، تحفّ بها صوامع الرهبان حيث تلتمع أنوار الشموع. وفجأة مرّ من خلفي راهب يرتدي ثوبًا طويلاً أسود. فوجئت في البداية، ثم أدركت أنّه يدلّني على الطريق. لحقت به مجتازًا أروقة عديدة، وفجأة اختفى. شعرت بإرباك ورحت أبحث عن مكان مُنار بشكل أفضل. أتهيّأ لاجتياز عتبة أحد الأبواب وعندما أرفع رأسي، يطالعني «حارس بوذا» البالغ ارتفاعه أربعة أمتار أو خمسة، شاهرًا في اتّجاهي مطرقته الماسيّة، وعيناه تحملقان غضبًا. تجمّدت أوصالي من الرعب.

وبسرعة، أبتعد وأواصل التقدّم متلمّسًا طريقي في أحد الأروقة. عبر باب مستدير يتسلّل منه نور ضئيل أصل صدفة إلى الباحة الهائلة الممتدّة أمام قاعة «الكنز الكبير». تنّين أزرق يحرس كلّ زاوية في سطح الواجهة التي رُفعت أطراف حواشيها نحو السماء. في الوسط تمامًا، تلتمع مرآة مستديرة. وفي هذا الليل الهائل السابق للفجر، وسط السروات العتيقات، يبدو هذا المنظر متّصفًا بشيء من السحر.

على المصطبة المرتفعة، خلف مبخرة العطر البرونزيّة الهائلة، تلتمع ألف شمعة، وصوت الجرس الرزين يرتجّ في الفضاء. راهب، بثوب طويل أسود، يدفع أسطوانة خشبيّة هائلة معلّقة لتقرع الجرس العملاق دون أن تجعله يهتزّ مليمترًا واحدًا: وكأنّ الجرس يتحرّك من

---

(١) هان شان: لقب أحد النسّاك البوذيّين، عاش منعزلاً على قمّة جبل تيانتاي في بداية القرن السابع، وشي ديه راهب بوذيّ، صديق هان شان الكبير.

عمق ذاته. يخرج الصوت من تحت الجرس ويصعد إلى الدعائم والروافد ثم يستدير حول نفسه ويطلق صداه أخيرًا خارج المعبد. أنا منسحر تمامًا.

يشعل رهبان صفّي الشموع الثماني عشرة الموضوعة أمام «اللوهان»[1]، ثم يملأون مباخرهم بعيدان معطّرة. تلتحم قاماتهم كتلة سوداء متماسكة تتنقّل كظلّ حتى الحصائر المزيّنة بالرسوم المختلفة، حيث يأخذ كلٌّ منهم مكانه.

يُقرع الطبل بعدئذٍ مرّتين، قرعتين تثقبان جوفه. موضوعاً إلى يسار المعبد، فوق قاعدة أكثر ارتفاعًا من قامة رجل، يتخطّى ارتفاع الجرس طول الراهب الذي يقرعه، وهو ينحني على أحد أدراج السطيحة. إنّه الراهب الوحيد الذي لا يرتدي ثوبًا أسود بل سترة فقط وسروالاً وصندالاً من القنّب. يرفع ذراعيه فوق رأسه.

تاتا.

بنغ! بنغ!

يعاود مجدّدًا.

تا تا.

في اللحظة التي يتلاشى فيها صدى صوت الجرس، يعاود قرع الطبل قرعات متواصلة، جاعلاً الأرض ترتجّ تحت الأقدام. في البداية نميّز كلّ ضربة. لكن في ما بعد يتسارع الإيقاع فتختلط الضربات

---

(١) اللوهان: تلاميذ بوذا.

ويتحوّل الصوت إلى زئير يرجّف القلب في الصدور والدم في العروق. تتضاعف حدّة الضربات فتقطع عليك أنفاسك، ثم ينضمّ إيقاع نغميّ واضح، أكثر حدّة، إلى القرعات السابقة!

إنّه راهب مسنّ، نحيل الجسم يقرع الطبل. لا يستعمل مقرعة. وحدها رقبته الملتمعة تتحرّك بين كتفيه العاريتين. يستخدم راحتيه وأصابعه وقبضته وكوعيه ومعصميه وركبتيه وقدميه أيضًا، فيقرع ويداعب ويلمس ويربّت ويطرطق على طبله. لكأنّه أبو بريص ملتصق بكلّ بدنه على جلد الآلة.

وسط هذه الضجّة التي تصمّ الآذان، يدوّي فجأة صوت جرس شديد الرهافة فيخيّل للمرء أنّه خُدع وهذا ليس بجرس، مثل خيط غير مرئي في الريح المتجلّدة أو مثل صرير جندب وليل الخريف في عزّه. يعبر بأقصى سرعة، مثيراً للشفقة، لكن بالإمكان تميّزه مع ذلك وسط الضجّة. إنّه جليّ لدرجة أنّه لا يمكن الشكّ بوجوده، ثم تبدأ الجلجلة المرحة للأسماك الخشبيّة ذات النغمات اللامتناهية، الكئيبة، الموحشة، الجليّة، الحادّة، الممتزجة في ما بعد بالصوت المتعافي للحجارة الرنّانة. وكلّ شيء يلتحم بعدها في سمفونيّة واحدة هائلة.

أريد أن أهتدي إلى مصدر قرعات الجرس هذه. أكتشف أخيرًا أنّه «الشيخ الجليل»، الطاعن في السنّ، الذي يقف مرتديًا ثوبًا أجرد مرقّعًا كلّه، حاملاً في يده اليسرى جرسًا صغيرًا، ومقرعة صغيرة معدنيّة في يده اليمنى. ما إن يلمس الجرس بعصاه حتى يرتفع الصوت ويبدو ممتزجًا بنفثات البخور. ومثل شبكة صيّاد مبسوطة، يغلّف كلّ شيء

بموسيقاه، ولا أحد يستطيع الإفلات منه. تلاشت الإثارة والخوف اللذان كادا يخنقانني.

على اللوحات المعلّقة في صالة المعبد الكبيرة، دُوّنت العبارات التالية: «بلاد الصفاء» و«كائنات بشريّة على راحتها». السجف تنسدل من السقف. جالسًا وسطها، تفقد كلّ إحساس بالغرور وتشعر في داخلك بشيء من اللطف المصطبغ بلامبالاة. تختفي مشاكل هذا العالم الهباء بطرفة عين، ويبدو الوقت وكأنّه تجمّد فجأة.

لا أعرف متى صمت الجرس. لا يزال «الرجل الجليل» يقرع على جرسه، فيما شفتاه المزمومتان تردّدان بعض الصلوات الغامضة، محرّكًا خدّيه الناحلين وحاجبيه الرماديّين. فيتلو الرهبان على اختلاف مراتبهم آيات السوترا على إيقاع قرعات الجرس الصغير: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة... تسعة وتسعون راهبًا بوذيًّا يتبعون، الواحد تلو الآخر، «الشيخ الجليل» ويدورون وهم يتلون صلواتهم حول تمثال بوذا المنتصب وسط المعبد. أنضمّ إليهم ضامًّا يديّ، أتضرّع الى اسم بوذا أميتابا. لا أزال أسمع صوتًا واضحًا جدًّا: إنّه صوت يرتفع فوق الكتلة الرنّانة في اللحظة التي تصل فيها كلّ جملة إلى نهايتها، ليبقى حماس لم يخبُ بعد، لتحلّق روح معذّبة على الدوام.

الفصل السبعون

ماذا يُقال في منظر الثلج هذا الذي رسمه غونغ شيان[1]! النُدف تتساقط في هدوء تامّ، سكون في اللاسكون.

أشبه بحلم.

جسر خشبي فوق النهر، كوخ منعزل قرب الماء، تلمح أثر الإنسان لكنّ ما يطغى على الصورة انطباع بالوحدة عميق.

إنّه حلم متجمّد، على حدود الحلم، ظلمة لا تُلمس، بالكاد تُلحظ. لوحة بالحبر. شيان الذي يستخدم دومًا ريشة متماسكة جدًّا، يذهب بعيدًا في إلهامه. ويتفنّن في استعمال الحبر والريشة. إنّ سحر رسوماته آتٍ والحالة هذه من بروز كلّ تفصيل فيها.

إنّه رسّام حقيقيّ وليس فقط رسّامًا مثقّفًا.

الأناقة البسيطة التي تميّز ما تعارف على تسميته «رسم المثقّفين» لا تتعلّق غالبًا إلاّ بالمعنى وليس بالشكل، ولا أحتمل هذه اللوحات بأسلوبها المتكلّف.

---

(١) غونغ شيان رسّام عاش نحو ١٦٦٠ ــ ١٧٠٠.

تتكلّم عن الرسّامين المفخّمين الذين يفقدون كلّ نفحة طبيعيّة وهم يتسلّون برسم لوحات بالريشة والحبر، يمكن تقليد هذه التقنيّة، لكنّ الروح تأتي من الحياة، الروح هي في الجبال والأنهار والعشب والأشجار. إنّ جمال مناظرغونغ شيان آتٍ من هذه السليقة التي تشعّ في رسوماته، التي لا يمكن تحديدها ولا تقليدها. باستطاعتنا تقليد تشانغ بانشياو[١] لكن ليس غونغ شيان.

ولا بادا[٢] أيضًا. يمكن محاكاة طيوره بعيونها المحملقة غضبًا، لكن ليس الانطباع بالوحدة الهائلة المنبعث من البطّ وأزهار اللوتس التي رسمها.

أفضل شيء لدى بادا هو المناظر. لوحاته التي تعبّر عن اشمئزازه من العالم والعادات، هي لوحات قليلة الأهمّيّة.

إذا أردنا أن نتميّز عبر كرهنا للعالم وعاداته، فإنّنا نخشى الوقوع في التقليديّ فنحارب التفاهة بالتفاهة، والأفضل والحالة هذه التفاهة المباشرة.

وهكذا فإنّ تشانغ بانتسياو قد شوّه معاصروه صورته. لوحاته التي تعبّر عن تجرّده أصبحت مجرّد رسوم تزيينيّة فاقدة سحرها. استُغلّت خطوط أشجار الخيزران التي برع في رسمها كثيرًا حتى وقعت أسيرة

---

(١) تشانغ بانشياو أو تشانغ شي رسّام عاش من ١٦٩٣ إلى ١٧٦٥.

(٢) بادا شانزن ١٦٢٥ ــ ١٧٠٥ معروف بغرابته واكتمال لوحاته ذات الأحجام الصغيرة عن الأزهار والحشرات والصخور أو الأسمك.

التقليد الكامل، ورأى فيها بعض المثقّفين وسيلة بسيطة لترتيب شؤونه الاجتماعيّة.

يشقّ عليّ احتمال «البلاهة النادرة» المزعومة. يمكن أن يصير المرء أبله فقط لأنّه يعتقد أنّه كذلك، فما الصعوبة في الأمر؟ إنّها في الواقع طريقة ليبدو المرء ذكيًّا وهو يتظاهر بالبلاهة.

هذه عبقريّة تعيسة، فيما الرسّام بادا كان مجنونًا.

في البداية تظاهر بالجنون لكنّه أصبح مجنونًا حقيقةً ونجاحه الفنّي آتٍ من أنّه لا يتظاهر بالجنون.

أو أنّه لاحظ جنون العالم فتفحّصه بنظرة غريبة. أو أنّ هذا العالم، إذ لم يستطع تحمّل الاتّزان الذهنيّ، أضاع فكره وغرق في الاتّزان الذهني للعالم.

في نهاية أيّامه أصبح شو واي(١) مجنونًا أيضًا وقتل زوجته.

أو أنّ زوجته قتلته.

هذا يبدو قاسيًا قوله، لكن عاجزًا عن احتمال عادات زمانه، لم يستطع إلاّ أن يغرق في الجنون.

من لم يصب بالجنون هو غونغ شيان، لقد تخطّى عادات زمانه دون أن يسعى إلى معارضتها وعرف كيف يحمي طبيعته بالذات.

---

(١) شو واي ١٥٢٩ ــ ١٥٩٣ رسّام جامح الريشة وشغوف.

لم يشأ، إطلاقًا، أن يحارب الغباء بالذكاء المزعوم فانسحب بعيدًا وغرق في حلم متنوّر.

كان ذلك أيضًا نوعًا من الحماية الذاتيّة. كان يعرف أنّه لن يستطيع مخالفة هذا العالم المجنون.

لا يتعلّق الأمر لديه بالاعتراض. لم يهتمّ بالأمر مطلقًا وعرف كيف يصون تماسك شخصيّته.

لم يكن ناسكًا، لم يرتدّ إلى الدين، لم يكن لا بوذيًّا ولا طاويًّا، كان يعيش فقط من بستانه والدروس التي يعطيها. لم يسعَ قطّ من خلال رسومه أن ينال إعجاب الناس والشهرة، ولا أن يحسد أيًّا كان، رسومه تندرج في إطار اللامباح.

رسومه لا تحتاج إلى توقيع، لأنّ جوهرها يعكس أصلاً مشاعره العميقة.

أنت أو أنا، هل يمكننا بلوغ ذلك؟

أمّا هو فاستطاع، عبر منظر الثلج هذا.

هل تستطيع أن تؤكّد أنّ هذه الرسمة هي فعلاً له.

لكن هل هذا مهمّ فعلاً؟ إذا كنت تعتقد أنّها له فهي له، وإلاّ؟

فهي ليست له.

وبعبارات أخرى، أنت، أنا ، يحلو لنا الاعتقاد أنّنا وقعنا على لوحة له.

إذاً فهذه الرسمة له فعلاً.

الفصل الواحد والسبعون

عندما غادرت جبال تيانتاي، ذهبت أيضًا إلى شاوشينغ المعروفة بكحولها العتيقة، والمشاهير الذين شهدت ولادتهم من سياسيّين وأدباء ورسّامين كبار، لا بل اشتُهرت أيضًا ببطلتها الثوريّة. اليوم، أصبحت مساكنهم متاحف تذكاريّة. لا بل رُمّم المعبد المصنوع من التراب المطروق الذي التجأ إليه ليلاً الشخصيّة الأكثر نذالة المولودة تحت ريشة لو شون وهي آه تسي[1]. المعبد طُلي بالألوان الفاقعة وزُيّن بلوحة تحمل إهداءً مكتوبًا بريشة خطّاط معاصر مشهور. آه تسي لم يستطع بالطبع أن يتصوّر أنّه سيحظى بهذه الأبّهة بعد موته، هو الذي قُطع رأسه كلصّ. أُوقن لأيّ حدّ يفترض بالناس العاديّين لهذه البلدة أن يعيشوا حياة هشّة، وخاصّة البطلة الثوريّة تسيوجين[2] التي نصرت عظمة أمّتها.

---

(١) آه تسي الشخصيّة الرئيسيّة في قصّة لوشون القصيرة **القصّة الحقيقيّة لآه تسي**، المكتوبة عام ١٩٢١. وهذه الشخصيّة ترمز إلى روحيّة الخضوع التي يندّد بها لو شون عند معاصريه.

(١) تسيوجين المولودة عام ١٨٧٥ أُعدمت عام ١٩٠٧ بسبب نشاطاتها الثوريّة.

عُلّقت صورة لها في مسكنها القديم: امرأة موهوبة متحدّرة من عائلة كبيرة، لطيفة، وجميلة، الحاجبان ظريفان، النظرة متوثّبة، السيماء مميّزة، ومع ذلك قُطع رأسها في وضح النهار بعدما جُرّت جثّتها في المدينة موثوقة القدمين والمعصمين.

أمضى الكاتب الكبير لو شون حياته مختبئًا هاربًا. ولحسن الحظّ، التجأ أخيرًا إلى ملاذ آمن في ديار أجنبيّة، وإلاّ لما كان تُوفّي حتف أنفه، بل اغتيل بكلّ تأكيد. لا مكان نركن إليه في هذه البلاد. كتب لو شون «أهرق دمي لأجل شوان يوان» هذه الجملة حفظتها عن ظهر قلب عندما كنت تلميذًا، لكنْ الآن لا يسعني تمالك نفسي عن الشكّ بصدقيّتها. شوان يوان هو اسم الإمبراطور الأصفر الذي كان، وفق الأسطورة، الإمبراطور الأوّل في هذه البلاد، هذا الوطن، هذه الأمّة. فلماذا يتوجّب على لو شون قطعًا أن يهرق دمه تخليدًا لمجد أجداده؟ وهل إهراق الدم هو حقًّا فعل عظيم؟ لدينا رأس واحد فلمَ قطعه لأجل شوان يوان هذا.

إنّ الحكمة التي قالها شو واي: «في هذا العالم كلّ جسد مزيّف، وقد أوكلت إلى الإنسان مهمّة قولبته، الوجه الحقيقي أنا من أخلقه» هي أشدّ نفاذًا وعمقًا. لكنّ هذا الجسد، مع أنّه مزيّف، لماذا يفترض أن تترتّب على الإنسان مهمّة قولبته؟ سواء كان مزيّفًا أم لا، أليس في الإمكان تجنيب الإنسان الاضطلاع بمسؤوليّة قولبته؟ وزد على ذلك أنّ المشكلة إزاء هذا الوجه الحقيقيّ، سواء كان حقيقيًّا أم لا، هي في خلقه أم عدمه.

في آخر الزقاق الصغير، كلّ شيء بقي في مكانه كما في السابق: «مكتبته المكسوّة باللبلاب المعرّش»، الباحة الصغيرة حيث تنبت بعض

غرسات اللبلاب القديمة، المكتب بنوافذه المضاءة وطاولة الشاي التي لا تزال على حالها. كان حريًّا بمكان بهذا الهدوء أن يحمي لو شون من الجنون. جليّ أنّ العالم لم يُخلق للبشر، لكنّ البشر محكومون بالعيش فيه. إذا أردنا أن نحيا ونحافظ على «الوجه الحقيقي» الذي كان من نصيبنا عند الولادة؛ إذا لم نكن نريد أن نُقتل أو نصبح مجانين فلا يسعنا إذًا إلاّ الهرب. لن أبقى وقتًا أطول هنا، سأرحل على وجه السرعة.

خارج المدينة، في جبال غويجي، يوجد قبر يو الكبير، مؤسّس سلالة شيا، وهو أوّل حاكم لسلالة تنتمي إلى شجرة عائلة يمكن الوثوق بها منذ القرن الواحد والعشرين قبل عهدنا. في هذا المكان بالذات وحّد الإمبراطوريّة وجمع الأمراء الإقطاعيّين وكافأ كلّ واحد حسب ما يستحقّ.

أجتاز الجسر الحجريّ الصغير فوق نهر ووبي عند سفح تلّة مكسوّة بأشجار التنّوب. على الساحة، أمام آثار مقبرة يو العظيم، تجفّف سنابل القمح. الحصاد المتأخّر سبق له أن حُصد. شمس الخريف تشدّد عزمي وتغرقني في نشوة لذيذة.

بعدما عبرت الباب، في هذه الباحة الكبيرة الصامتة، يخنقني الشعور بالوحدة. أتخيّل كيف أنّ ذريّة إنسان همودو[١] منذ سبعة آلاف سنة كانوا يزرعون الأرزّ ويربّون الخنازير ويصنعون شخوصًا من الصلصال، وكيف أنّ ذريّة إنسان ليانغتشو كانوا ينقشون على خزفيّاتهم رسومًا

(١) همودو وليانغتشو، هما موقعان يعودان إلى العصر الحجري في تشيجيانغ.

مقعّرة وأشكالاً هندسيّة. وأتخيّل أسلاف شعب بايو (١) بأجسادهم الموشومة وشعورهم المقصوصة، وطواطمهم التي اتّخذت شكل العصافير؛ وجميعهم مرّوا تحت أنظار يو العظيم. المعلّم فنغ فنغ، وهو عملاق فظّ، يرتدي ثوبًا من القنّب يخفق من حوله ويتمنطق بسير من جلد، وصل متأخّرًا إلى الاحتفال. فأمر يو الكبير حرّاسه فورًا بقطع رأسه.

منذ ألفي سنة، جاء سيما تسيين(٢) شخصيًّا للاستقصاء هنا وكتابة «مذكّرات تاريخيّة»، مؤلّفه الهائل. هو أيضًا عاقبه الإمبراطور، وإذا كان استطاع الإبقاء على رأسه، فقد خسر مع ذلك أعضاءه التناسليّة.

على سقف المبنى الرئيسيّ، بين تنّينين بلون اللازورد، هناك مرآة مستديرة تعكس ضوء الشمس المبهر. في غرفة المعبد القاتمة، ينتصب تمثال حديث العهد للإمبراطور يو الكبير، وقد تعمّد نحّاته أن يسبغ على ملامح الوجه بعض اللطف. بالمقابل، الفرّاعات التسع الموضوعة خلفه، وهي رموز عمله لإحلال السلام في تسع مناطق، أصدق تعبيرًا.

---

(٢) بايو: شعب من العصور القديمة أقام في الصين.

(١) مؤرّخ صينيّ كبير (نحو ١٤٥ ــ ٨٦ ق.م.)، عاقبه الإمبراطور وودي من سلالة هان بخصيه لدفاعه عن أحد الضبّاط الذين وُجّهت إليهم تهمة الخيانة، وكانت عقوبة الخصي تُعدّ عارًا مطلقًا في ذلك الزمان، ومعظم الذين أُنزلت بهم لا يحتملون العيش من بعدها، إلاّ أنّ سيما تسيين واصل حياته حتى أنهى مؤلّفه التاريخي، وفاءً لذكرى والده الذي كان بدأه.

قيل في **حوليّات شو**: «كان يو متحدّرًا من مقاطعة غوانغرو في جبال وين، وقد وُلد في شينيو». أنا آتٍ بالضبط من هذه المنطقة، وهي حاليًّا منطقة إسكان لسلالة شيانغ من ونتشوان. إنّها أيضًا معقل دببة الباندا. إلاّ أنّ يو وُلد من بطن دبّ كما يشهد على ذلك «مصنّف الجبال والبحار».

يُقال دومًا إنّه هيمن على المياه لأنّه جرف مجاري النهر الأصفر. أشكّ أيضًا بصحّة هذه الواقعة. أعتقد أنّه انطلق من المجرى الأعلى لنهر مين (الذي كان في الأصل يشكّل المجرى الرئيسي لنهر يانغتسي، كما هو مؤكّد في شويجنغتشو[1]) ، ثم سار بمحاذاة اليانغتسي وعبر المضائق الثلاثة، وفي الشمال انقضّ على جبال جيشي وفي الجنوب على بلاد غونغ غونغ، وفي الشرق على جبال يونيو، محاربًا كلّ المناطق في طريقه حتى وصل إلى شواطئ البحر الشرقي. وفي بلاد تسينغ تسيو التي كان يُرمز إليها آنذاك بثعلب ذي تسعة أذناب، عند سفح الجبال الأثيريّة التي أصبحت في ما بعد جبال غويجي، التقى فتاة ذات جمال أخّاذ. وعندما بدأ القتال، اتّخذ هيئة دبّ. ارتعبت الشابّة العذراء وأرادت الهرب، لكنّ الرجل، القدّيس العظيم، نفد صبره وجُنّ جنونه فاغتصبها وهو يصرخ «افتحي ساقيك» وها هنا بدأ نسل ذرّيّة الإمبراطور. في نظر زوجته كان يو دبًّا؛ وعلى لسان العامّة، أصبح قدّيسًا، وتحت ريشة المؤرّخين إمبراطورًا، أمّا للروائي فهو ليس إلاّ الرجل الأوّل الذي قتل كائنات بشريّة أخرى إرضاء لرغباته. وبالنسبة لأسطورة الطوفان الذي

---

(١) شويجنغتشو، بحث في الجغرافيا يرقى إلى سلالة وي الشماليّة ٣٨٦ ـ ٥٣٤.

أوقفه، لا شيء يمنع، كما اقترح أحد الأجانب أنّ الأمر مرتبط بذكرى مبهمة للسائل النخطيّ الذي يسبح فيه الجنين.

في قبر يو العظيم، اختفى كلّ أثر حقيقي. وحدها بقيت مسلّة كبيرة قبالة المعبد الرئيسي، مزدانة ببعض التدوينات على شكل دعاميص لم يستطع أيّ متخصّص فكّ رموزها. أراقبها بانتباه، أتمعّن فيها وأعمل عقلي وفجأة يجيئني الوحي، أكتشف أنّه يمكن فهمها بالطريقة التالية:

التاريخ لغز.

أو: التاريخ ليس سوى كذبة.

أو: التاريخ مجرّد ترّهات.

أو أيضًا التاريخ نبوءة.

أو أيضًا التاريخ ثمرة حامزة.

وبالإمكان أيضًا قراءتها كما يلي: التاريخ صلب كالحديد.

أو: التاريخ ليس إلاّ كرة عجين.

أو حتى: التاريخ ليس إلاّ كفنًا.

وإذا أوغلنا بعيدًا في القدم: ربّما كان التاريخ دواءً معرّقًا.

أو أبعد: التاريخ أشبه بروح يدقّ الجدار.

وبالطريقة نفسها: تحف قديمة، هاك التاريخ.

أو: التاريخ تحقّق العقل.

أو أيضًا: التاريخ خلاصة التجربة.

أو: التاريخ صادر عن التجربة.

أو حتى: التاريخ مجموعة لآلئ مبعثرة.

أو: التاريخ متّصل بسلسلة من الأسباب.

أو: التاريخ استعارة.

أو: التاريخ هو في الواقع حالة ذهنيّة.

وأخيرًا: التاريخ، هو التاريخ.

أو: التاريخ ليس شيئًا من هذا.

وأيضًا: التاريخ مجرّد تنهيدة صغيرة.

آه، التاريخ، التاريخ، آه التاريخ، التاريخ.

وفي نهاية المطاف بالإمكان حلّ لغز التاريخ كما نشاء، وذاك اكتشاف كبير!

الفصل الثاني والسبعون

ـ هذه ليست رواية!

ـ ما هي إذًا؟ يسأل.

ـ الرواية يجب أن تتضمّن قصّة كاملة.

يقول إنّه يروي قصصًا، لكنّ بعض هذه القصص يرويها حتى النهاية، وبعضها الآخر لا.

ـ إذا لم يكن هناك أيّ نظام متّبع، فإنّ الكاتب لا يعود يعرف كيف يتحكّم بالحبكة.

ـ حسنًا، أوضح لي الفكرة، من فضلك.

ـ يفترض أوّلاً أن يكون هناك مقدّمة ثم صلب الموضوع وأخيرًا ذروة وخاتمة. هذه هي المرتكزات الأساسيّة لكتابة رواية.

يسأل أليست هناك طريقة للكتابة خارج المعايير الأساسيّة. ففي القصص عادة نروي الوقائع من بدايتها، وفي بعض منها نبدأ من النهاية، ولبعضها بداية وليس لها نهاية ولبعضها الآخر نهاية فقط أو

جزء مستحيل روايته حتى النهاية، بعضها قد يُروى لكنّه ليس دائمًا ضروريًّا إذ لا شيء مهمًّا يُروى فيه، ومع ذلك جميعها تعدّ قصصًا.

ـ أيًّا تكن الطريقة التي تروي من خلالها قصصك، يجب أن تحتوي القصّة على شخصيّة رئيسيّة، أليس كذلك؟ يفترض بكلّ رواية أن تتضمّن في جميع الأحوال عدّة شخصيّات رئيسيّة، أمّا عندك...

يسأل:

ـ «أنا»، «أنت»، «هي» ، «هو» في كتابي أليست شخصيّات؟

ـ لكنّها ليست إلاّ ضمائر. فاستعمال مقاربات عدّة للوصف لا يعفي من رسم بورتريه للشخصيّات أنفسهم. حتى لو كنت تعتبر أنّ هذه الضمائر شخصيّات، فإنّ كتابك لا يحتوي أيّة شخصيّة واضحة، ولا يمكننا حتى الكلام عن أوصاف.

يقول إنّه لا يرسم بورتريهات.

ـ هذا صحيح، الرواية ليست الرسم، إنّها فنّ الكلام. لكن أوَتعتقد أنّ الثرثرة التي تستغرق فيها شخصيّاتك في ما بينها بإمكانها أن تقوم مقام الأدوار التي رُسمت لها بعناية؟

يقول إنّه ليست لديه النيّة في إبراز كاراكتير أيّ كان. وهو لا يعرف ما إذا كان هو نفسه يتّسم بكاراكتير معيّن.

ـ أيّ رواية تكتب فيما أنت لا تفهم معنى الرواية نفسه؟

عندئذٍ يتوسّل إليه باحترام أن يتفضّل ويزوّده بتعريف للرواية.

وأخيرًا يظهر الناقد تعبيرًا ممتعضًا ويقول بين أسنانه:

ـ كاتب مجدّد آخر، يحاول عبثًا تقليد الغرب.

يقول إنّ روايته شرقيّة الطابع بالأحرى.

ـ في الشرق، لا وجود لطرقك الغربيّة، تجميع قصص رحلات، والتقاط شذرات قصص وملاحظات عابرة تدوّنها بقلمك، ومزج النظريّة بالبحث، لا تُختلق هكذا القصص الخرافيّة التي لا تشبه بشيء القصص الخرافيّة. لا فائدة من كتابة بعض الأغنيات أو القصائد الشعبيّة بالإضافة إلى بعض حكايات الأشباح المختلقة من هنا وهناك التي لا علاقة لها بالأساطير فتصبّ كلّ هذه الروافد في ما تدعوه أخيرًا رواية!

يقول إنّ الدراسات المحلّيّة عن الدويلات المتحاربة واستذكارات الناس والوقائع المميّزة في سلالتي هان، وسلالتي وي وجين، وسلالات الشمال والجنوب، وقصص تانغ الخرافيّة، وقصص شونغ ويوان الشعبية، والروايات المتسلسلة والأبحاث التي قامت بها سلالتا مينغ وتسينغ، تنتمي كلّها إلى النوع الروائي، لأنّها تنقل، منذ القدم، وعلى مسافة جغرافيّة هائلة، لغة الشارع وأخبار الأزقّة الشائعة، وتدوّن كلّ ما هو لافت دون أيّ نظام ودون أن يحدّد أحد لها نمطًا جاهزًا سلفًا.

ـ وتدّعي الانتماء زيادة على ذلك إلى مدرسة البحث عن الجذور؟

يسارع للقول إنّك أنت من ألصق به هذه اللافتات. إذا كان يكتب روايات، فهذا لكي يواجه عزلته ويشعر بلذّة التعبير عن الذات. لم يكن يفكّر أنّه سينخرط في الحلقات الأدبيّة، لكنّه الآن يريد الانعتاق منها. لم

يكن يأمل أن يكسب رزقه عبر تأليف هذا النوع من الكتب. بالنسبة له، كانت كتابة الرواية ترفًا لا علاقة له بأيّ مسعي لتكون وسيلة للعيش.

ـ عدمي!

يقول إنّه لا يؤمن في الواقع بأيّة عقيدة، وإنّه إذا كان يدع نفسه يسقط في العدم فهذا ليس على سبيل العدميّة، وعلى أيّ حال، العدم ليس مماثلاً للفراغ، إنّه بالضبط مشابه لـ «أنت» في كتابه الذي هو انعكاس لصورة «أنا» وهذا «الهو» الذي يشكّل خلفيّة اللوحة التي ينمو إزاءها هذا «الأنت»، ظلاً لظلّ، وإن لم يكن له هيئة، ولو كان مجرّد ضمير.

ينتفض الناقد متنصّلاً من أيّة مسؤوليّة تترتّب عليه ويمضي في سبيله.

يبقى حائرًا، لا يفهم ما هو الأهمّ في الرواية، هل يتمثّل في سرد قصّة أم هو طريقة سردها؟ أم يكون موقف الكاتب إزاء السرد؟ وإن لم يكن الموقف فهل هو تعيين الموقف؟ وإذا لم يكن الأهمّ تعيين موقف الكاتب فهل هو نقطة الانطلاق لتعيينه، وهل الأنا هي نقطة الانطلاق؟ وإذا لم تكن الأنا هل هو إدراك الأنا؟ وإذا لم يكن إدراك الأنا فهل هو مسار هذا الإدراك؟ وماذا لو لم يكن هذا المسار وإنّما فعل الإدراك نفسه؟ وإن لم يكن الفعل نفسه فهل هو إمكان هذا الفعل؟ وإذا لم يكن متمثّلاً في إمكان هذا الفعل فهل هو اختيار الإمكان؟ وإذا لم يكن هذا الاختيار فهل هو ضرورة الاختيار أم لا؟ أم إنّ هذه الضرورة ليست الأهمّ بل اللغة؟ وهل اللغة نفسها أم نكهة اللغة؟ ومع ذلك فإنّ الركون إلى اللغة يجعله دومًا في حالة من النشوة، لكي يروي المرأة، والرجل،

والحبّ والشغف، والجنس، والحياة والموت، والنفس والفرح وعذاب جسد الإنسان جرّاء شهوته، والإنسان في إطار العلاقات السياسيّة وهرب الإنسان من وجه السياسة، وحقيقة أنّه ليس بالإمكان الفرار والخيال خارج الواقع وأيّهما هو الأصحّ ونفي نفي الهدف المجدي الذي ليس معادلاً للضرورة ولامنطقيّة المنطق وأخذ المسافة بالنسبة للتفكير العقلاني الذي يتجاوز السجال بالنسبة للمحتوى والشكل، والشكل الذي يتّصف بمعنى والمحتوى الذي لا يتّصف بمعنى، وما هو المعنى وتعريف المعنى والله الذي يريد الجميع أن يكون موجوداً وعبادة الأوثان الكافرة والرغبة في أن تُعتبر فيلسوفًا، وحبّ الذات والبرودة والجنون الذي يقود إلى عقدة الاضطهاد والقدرات الفائقة الطبيعة والتأمّل الزنّ[١] والتفكير الذي لا يبلغ الزنّ بل بالأحرى التفكير بالمبدأ الحيويّ للجسد وغذاؤه الشريعة التي تُقال أو تلك التي لا تُقال لا يجب أن تُقال لكنّها تُقال مع ذلك في الوجود والدُرجة والتمرّد على الدُرجة المبتذلة المتمثّلة في ضرب الطفل الذي لا يمكن تعليمه بضربه بالعصا وتلقينه مبادئ التربية أوّلاً بملء البطن بالحبر وذاك الذي هو بالقرب من الحبر أسود، وأيّ سوء في الأسود؟ والناس الأخيار والناس الأشرار والناس الذين ليسوا بأخيار ولا بأشرار، أو بالأحرى البشر الأسوأ من الذئاب، والآخرون الأسوأ من الجحيم الموجود في قلوبهم، وهذا الأنا اللعين الساعي في إثر القلق دون توقّف، والنيرفانا أو بالأحرى كلّ شيء انتهى وكلّ شيء منته على يد من وما هو الكائن أو عدمه، هل هو نتاج المعنى الذي يتوالد من كلّ ما لم يُقل والذي لا يشبه عدم قول شيء والهذر غير

---

(١) الزنّ: فرقة بوذيّة تميّزت بالتأمّل للوصول إلى الجمال.

المفيد عن الوظائف، والحرب بين الرجال والنساء حيث لا أحد يربح، واللعب بالشطرنج بتقديم قطعة أو إرجاعها وهذه مجرّد لعبة للتحكّم بمشاعرالكائنات البشريّة التي يفترض بها أن تأكل وتموت جوعًا هذا أمر بسيط، لكن من المستحيل الحكم على الحقيقة التي لا نستطيع معرفتها ووحدها العصا أصلب من التجارب لكي نستند إليها، وهؤلاء الذين يفترض بهم أن يتعثّروا سوف يتعثّرون ولتسقط الرواية الثوريّة للأدب المشعوذ والثورة الروائيّة وثورة الرواية.

هذا الفصل، بالإمكان قراءته، بالإمكان عدم قراءته، لكن بما أنّه كُتب فمن الأفضل قراءته.

الفصل الثالث والسبعون

في المدينة الصغيرة التي وصلت إليها، على شاطئ بحر الصين، أصرّت عليّ امرأة عزباء تقدّمت بها السنّ، أن أذهب لتناول الطعام في بيتها. حضرتْ إلى المنزل الذي استُضفت فيه تدعوني لزيارتها فيه، قائلة إنّها في الصباح، قبل ذهابها إلى عملها، أحضرت بعض ثمار البحر الدسمة من سلاطعين ومحار وإنقليس.

ـ أنت آتٍ من مكان بعيد جدًّا. لا بدّ لك من أن تتذوّق المنتوجات الطازجة التي يندر وجودها حتى في المدن الكبيرة.

إنّها تُبدي اهتمامًا بالغًا بشخصي.

لا أستطيع التنصّل من تلك الدعوة إلاّ بصعوبة، وأقترح على مضيفي أن يرافقني، فهو يعرف جيّدًا هذه المرأة لكنّه يرفض:

ـ لقد دعتك أنت، ولو شاءت لوجّهت الدعوة إلينا معًا. لا شك، لديها ما تقوله لك على انفراد.

جليّ أنّهما اتّفقا على الأمر. لا أستطيع إلاّ اللحاق بها. تقول لي وهي تدفع درّاجتها:

ـ يجب اجتياز مسافة لا يُستهان بها. اصعد على حاملة الأمتعة. سآخذك إلى المنزل.

في هذا الشارع المليء بالناس، أخاف من أن أُعتبر معاقًا.

ـ أو إذا شئتِ أنا سأقود وأنت تدلّينني على الطريق.

فجلست على حاملة المتعة. لا يكفّ المقود عن الاهتزاز، وأطلق دون توقّف بوق الدرّاجة ليسهل عليّ المرور بين الحشد.

يفترض بي أن أبتهج. جميل أن تدعوني امرأة وأكون برفقتها بمفردنا، لكنّها تخطّت عمر الشباب. وجهها حزين وسحنته شمعيّة وخدّاها بارزان. لا تملك شيئًا من الظرف الأنثوي عندما تصعد على درّاجتها أو تدفعها. أمّا أنا فأدير الدوّاسة، محبطًا تمامًا، باحثًا عن كلام أحدّثها به.

تقول لي إنّها تعمل محاسبة في مصنع. هي من النساء اللواتي يُدرن شؤون المال وهذا لا يفاجئني. لم أحظ بالكثير من العلاقات مع هذا النوع من النساء، لكنّي أعرف أنّهنّ ماهرات جدًّا، ومن المستحيل انتزاع فلس واحد إضافي منهنّ. بالطبع هذه عادة مكتسبة جرّاء المهنة التي تزاولها وليست هبة أنثويّة طبيعيّة.

تُقيم في باحة قديمة بجوار عائلات أخرى عديدة. أسندت درّاجتها العتيقة إلى الجدار تحت نافذتها.

ثمّة قفل كبير يوصد الباب. في الداخل غرفة صغيرة وسرير كبير يحتلّ نصف مساحة المكان، وفي إحدى الزوايا طاولة وُضع عليها مسبقًا كحول وأطباق. على الأرض أُسند إلى قطع آجرّ مكدّسة صندوقان خشبيّان، على أحدهما مستحضرات زينة للنساء موضوعة على لوح زجاجي. وعند رأس السرير بعض أكوام المجلاّت القديمة. حين رأتني أتحرّى الأمكنة، سارعت في الاعتذار:

ـ اعذرني، الغرفة في فوضى عجيبة.

ـ هناك أشياء عديدة في هذه الحياة أهمّ من ذلك.

ـ أفعل ما أقدر عليه، ولا أولي هذه الأشياء أهمّيّة تُذكر.

تشعل المصباح وتجلس أمام الطاولة تبدأ بتسخين قدر على النار. وأخيرًا تجلس قبالتي وبعد أن تسكب لي شرابًا، تسند كوعها إلى الطاولة وتعلن صراحة:

ـ لا أحبّ الرجال.

أهزّ رأسي متعجّبًا.

ـ لا أقصد الكلام عنك، بل عن الرجال بشكل عامّ، لكن أنت، أنت كاتب.

لا أعرف هل عليَّ استحسان ما تقوله.

ـ طلّقت زوجي منذ زمن طويل وأعيش وحيدة.

ـ ليس هذا سهلاً.

في الواقع أتكلّم عن الحياة، والكلام ينطبق على الجميع.

ـ قديمًا ، كانت لديّ صديقة، وكنّا نتفاهم بشكل ممتاز منذ أيّام المدرسة الابتدائيّة.

قلت في نفسي إنّها لا بدّ سحاقيّة.

ـ توفّيت الآن.

أبقى صامتًا.

ـ دعوتك لكي أروي لك قصّتها. كانت جميلة جدًّا. لو رأيت صورتها لأحببتها بكلّ تأكيد. كان الجميع يقع في غرامها. لم تكن ذات جمال عاديّ. كان وجهها مستديرًا تمامًا، فمها صغير كحبّة الكرز، وحاجباها كورقتي صفصاف، وعيناها اليقظتان كحبّتي لوز. وكان جسدها شبيهًا بأجساد النساء ذوات الجمال التقليدي الموصوف في الروايات القديمة. لماذا أروي لك ذلك؟ لأنّني لم أستطع الاحتفاظ بصورة واحدة من صورها. لم أتحرّز للأمر. وعند وفاتها، جاءت أمّها لتأخذها جميعًا. اشرب إذًا.

وتشرب هي أيضًا. منذ النظرة الأولى، يدرك المرء أنّها معتادة على ذلك. ما من صورة تزيّن جدران غرفتها، لا صورة فوتوغرافيّة

ولا رسمة، وليس فيها أزهار ولا تلك الحيوانات الصغيرة التي تولع بها النساء عادة. لا بدَّ أنّها تعاقب نفسها وتنفق مالها على الكحول.

ـ أودّ أن تكتب رواية عن حياتها. بإمكاني أن أقول لك كلّ شيء عنها، لديك الموهبة، ثم إنّ الرواية...

ـ مختلقة من هنا وهناك، قلت وأنا أضحك.

ـ لا أريدك أن تختلق، تستطيع استخدام اسمها الحقيقي. لا أملك ما يكفي من المال لكي أدفع لكاتب ثمن روايته وحقوقه ككاتب. لو كان لديّ المال لفعلت ذلك ربّما. ما أطلبه منك هو خدمة. أريدك أن تكتب عنها.

أسوّي جلستي قليلاً لكي أشكرها على استقبالها لي:

ـ لكن هذا..

ـ لا أريد أن أشتريك، إذا كنت تجد أنّ هذه الفتاة الشابّة كانت ضحيّة الظلم، إذا أشفقت عليها اكتب هذا الكتاب. من المؤسف أنّك لا تستطيع رؤية صورتها. وغاب نظرها في البعيد. هذه الصبيّة الميتة بقيت في داخلها عبئاً ثقيلاً.

ـ منذ طفولتي، كنت قبيحة. لذلك كنت أحسد الفتيات الجميلات، وأرغب كثيرًا في أن أصادق إحداهنّ. لم أكن في المدرسة نفسها معها، لكنّي كنت أصادفها كلّ يوم قبل الصفّ وبعده على طريق المدرسة. كانت مشيتها لا تهزّ فقط مشاعر الرجال بل النساء أيضًا. أردت الاتّصال بها. وبما أنّها كانت وحيدة دومًا، تحيّنت ذات يوم مرورها

وأدركتها وقلت لها إنّني أرغب كثيرًا في أن أكلّمها، وإنّني آمل ألاّ تجد هذا غريبًا. قالت إنّها موافقة ورافقتها. في ما بعد، رحت أنتظرها دومًا بالقرب من منزلها لكي أذهب برفقتها وتوطّدت معرفتي بها. لا تنزعج، اسكب لنفسك!

ثعبان البحر والحساء كانا شهيّين.

متلذّذًا بحسائي، سمعتها تروي لي كيف دخلت إلى عائلة صديقتها، وكيف عاملتها والدتها وكأنّها ابنتها بالذات. غالبًا لم تكن تعود إلى البيت بل تنام إلى جانب صديقتها في السرير.

لا تظنّ أنّ شيئًا حصل بيننا، لم أفهم ماذا يحصل بين الرجال والنساء إلاّ بعد أن حكموا عليها بعشر سنوات في السجن. تخاصمنا ولم تعد تريد أن أزورها. عندئذٍ تزوّجت. معها كنت أقيم علاقة هي من بين أطهر العلاقات الممكنة، كتلك العلاقات العاديّة بين فتاتين. أنت، أنت لا تفهم هذا بالضرورة. لأنّ الرجال يحسبون النساء كالبهائم. لا أقصدك أنت فأنت كاتب! كُلْ سلطعونًا!

تقشّر سلطعونًا طازجًا تفوح منه رائحة قويّة وتضعه في قصعتي، مع بعض المحار المسلوق. إنّها أيضًا قصّة حرب بين الرجال والنساء، حرب بين الشهوة والروح.

كان والدها ضابطًا في الكومينتانغ. عندما نزل جيش التحرير صوب الجنوب، كانت أمّها حبلى بها. تلقّت رسالة من زوجها يطلب منها بإلحاح أن تتوجّه نحو المرفأ. لكنّ مركب الحرب كان قد رحل.

هذه أيضًا قصّة قديمة، فقدت كلّ اهتمام بهذه الفتاة. وركّزَت فقط على السلطعون الذي أتناوله.

ـ ذات ليلة ضمّتني بين ذراعيها وهي تبكي، انتفضت وسألتها ما بها فقالت لي إنّها تفكّر في والدها.

ـ لم تره قطّ، اليس كذلك؟

ـ آنذاك، كانت أمّها قد أحرقت جميع الصور التي تظهره مرتديًا الزيّ العسكري، لكن بقيت لديهم صورة العرس حيث كان والدها يرتدي بذلة غربيّة، أنيقة جدًّا، وقد أرتني هذه الصورة. فقلت كلّ ما بوسعي لتعزيتها. كنت أعبدها، من ثم أخذتها بين ذراعيّ وبكينا سويّة.

ـ هذا واضح.

ـ لو أنّ الجميع يفكّرون مثلك لما كانت هناك مشكلة، لكنّ الناس لم يكونوا يفهمونها واعتبروها معادية للثورة. قالوا إنّها تريد أن تقلب النظام وتهرب إلى تايوان.

ـ آنذاك، لم تكن السياسة كما هي الآن حيث نحثّ التايوانيّين على المجيء إلى الصين وزيارة أهاليهم.

ماذا بإمكاني أن أقول غير ذلك؟

ـ كانت آنذاك تلميذة، كيف بإمكانها أن تفهم ذلك؟ وقد دوّنت في يوميّاتها الحميميّة أنّها تفكّر في والدها!

قلت:

ـ هنالك مجازفة بأن تحاكم لو أنّ أحدًا شهّر بها.

كنت أودّ أن أعرف إذا كان حبّها لأبيها تحوّل بعد إلى حبّ شاذّ.

وشرحت لي كيف أنّ هذه الصبيّة التي لم تستطع الدخول إلى الجامعة بسبب ماضيها العائليّ، انضمّت إلى فرقة أوبرا في بكين. ذات يوم، أصيبت مؤدّية أحد الأدوار في الفرقة بمرض، فطُلب إليها أن تحلّ مكانها عند رفع الستارة، ما أثار حسد الممثّلة. إلى أن اكتشفت خلال إحدى الجولات دفتر يوميّاتها فرفعت فيها تقريرًا إلى المسؤولين في الحزب. ما إن عادت إلى المدينة، ذهب أحد رجال الأمن لرؤية والدتها وسألها أن تحثّ ابنتها على الاعتراف بخطئها وتسليمه دفتر يوميّاتها.

وإذ خشيت الصبيّة من المداهمات والتنقيب في حاجيّاتها، مرّرت دفتر يوميّاتها إلى عمّها. عندما استجوبت الشرطة والدتها، اعترفت أنْ لا علاقات لابنتها إلاّ بها وبعمّها. وهي تحت تأثير الذعر الشديد أقرّت بكلّ شيء. للوهلة الأولى، عُزلت ضمن فرقتها، ومُنعت من العودة إلى بيتها ثم أوقفت بشكل رسميّ وحُكم عليها بالسجن بتهمة العداء للثورة والسعي إلى قلب النظام، والبرهان على ذلك كتابتها يوميّات حميميّة تكشف عن ذهنيّتها الرجعيّة.

ـ ما يعني أنّهم شهّروا بها جميعًا بمن فيهم عمّها وأمّها، أليس كذلك؟

أكلت ما يكفي من هذا السلطعون، أصابعي ملطّخة بالبطرخ، وليس هناك منديل لأمسحها.

ـ كتبنا جميعًا بلاغات تشهير ووقّعناها. حتى عمّها الطاعن في السنّ خاف كثيرًا ولم يعد يجرؤ على رؤيتي. كانت أمّها تصرّح غالبًا أنّني أنا من أفسدت ابنتها وأنّني أنا من نقلت إليها هذا الفكر الرجعيّ، ولم تعد تسمح لي بالدخول إلى بيتها.

ـ وكيف توفّيت؟

سارعت لمعرفة نهاية القصّة.

ـ اسمعني...

لكأنّها تريد أن تلتمس لنفسها أعذارًا. لكنّي لست حَكَمًا. ولو أنّني واجهت هذه القضيّة آنذاك لما كنت بالطبع أكثر تبصّرًا منها. أذكر أنّني رأيت في صغري أمّي تخرج من درج جدّتي مدرجًا فيه عناوين الملكيّات المرهونة منذ وقت طويل ورمته في أتّون النار. شعرت عندئذٍ بهذا النفور حيال إتلاف الدلائل. لحسن الحظّ، لم يأت أحد ليبتّ في مسألة هذا الدين القديم، إذ لو أخضعت آنذاك للاستجواب فلا شيء يجزم عدم تورّعي عن التشهير بجدّتي التي اشترت لي بلبلاً، ووالدتي التي ربّتني. كانت تلك الحقبة هكذا!

شعرت بالغثيان، ليس فقط من رائحة اليود المنبعثة من السلطعون. من المستحيل أن أواصل الأكل. أكتفي بالشرب.

وفجأة غصّت بريقها حتى كادت تختنق، وحجبت وجهها بيديها وشهقت بالبكاء. لا أستطيع تفريقها بيديّ الملوّثتين بآثار السلطعون. فاكتفيت بسؤالها:

ـ هل أستطيع أن أجفّف يديّ بمنشفة الحمّام؟

فأشارت إلى الطست المليء بمياه منعشة خلف الباب على الرفّ. بعدما غسلت يديّ مرّرت لها المنشفة المعصورة. توقّفت عن البكاء أخيرًا. أكره هذا النوع من النساء المسنّات المرعبات، لا أشعر بأيّ شفقة تجاههنّ.

تزعم أنّها كانت غبيّة تمامًا آنذاك. لم تدرك ما فعلته إلاّ بعد سنة على ذلك. ذهبت لتستعلم عن مصير الصبيّة ومرّرت لها بعض الحلوى في السجن. حُكم على صديقتها بالسجن عشر سنوات لكنّها رفضت رؤيتها. أبلغتها أنّها لم تتزوّج وأنّها قرّرت أن تنتظرها حتى تنهي مدّة حكمها وتخرج من السجن، وعندها تعيشان سويًّا. كانت تعمل وتستطيع توفير معيشتهما. فقبلت الفتاة الشابّة عندئذ هداياها.

قالت لي إنّ الأيّام التي قضتها معها قبل سجنها كانت أسعد أيّام حياتها، وأخبرتني أنّهما تبادلتا يوميّاتهما الحميميّة، وتبادلتا الكلمات الحنونة كأيّ أختين، وتعاهدتا بألاّ تتزوّجا أبدًا وأن تبقيا معًا إلى الأبد. من منهما كان الزوج ومن الزوجة؟ الزوج كان بالطبع هي. كانتا تسترسلان في الضحك عندما تستلقيان جنبًا إلى جنب في السرير. كان يكفي أن تسمع ضحكاتها لكي تكون سعيدة.

أمّا أنا فأفكّر فيها بأكبر قدر ممكن من الضغينة وسوء النيّة.

ـــ كيف حدث أنّك تزوّجت في ما بعد؟

قالت:

ـــ هي التي غيّرت رأيها أوّلاً. ذات يوم ذهبت لرؤيتها في السجن، كان وجهها متورّمًا قليلا وكانت باردة معي. فاجأني تصرّفها فانهلت عليها بالأسئلة. في نهاية الزيارة التي لم تدم إلاّ عشرين دقيقة، طلبت إليّ بأن أتزوّج وألاّ أعود إلى زيارتها. وعندما ألححت عليها بالأسئلة، اعترفت لي أخيرًا أنّ هناك رجلاً في حياتها. من؟ سألتها. أحد المساجين المتّهمين باقتراف جرم، أجابتني. وبعد ذلك لم أرها مرّة ثانية. كتبت إليها رسائل عديدة ولم أحصل منها على أيّ جواب. وانتهى بي الأمر أخيرًا إلى الزواج.

رغبتُ في أن أقول لها إنّها هي المذنبة. وإنّ حقد أمّ الفتاة عليها مبرّر. فلولاها لاستطاعت هذه الصبيّة أن تنشئ علاقة عاطفيّة طبيعيّة، وتتزوّج وتنجب الأولاد وتعتني بتربيتهم، ولا تجد نفسها في هذه الورطة.

سألتها:

ـــ هل لديك أطفال؟

ـــ لا أرغب في إنجاب الأولاد لو عاد الأمر لي.

إنّها امرأة سيّئة حقًّا.

ـــ بعد سنة من الزواج، افترقنا. وبعد سنة من الشجار انفصلنا، ومنذ ذلك الوقت أعيش وحيدة وأكره الرجال.

ـــ كيف ماتت؟

أحاول تغيير الحديث.

سمعتهم يقولون إنّها حاولت الفرار من السجن. فصرعها أحد الحرّاس.

لم أعد أريد سماع شيء.

أستحثّها لكي تنهي قصّتها. نظرت إليّ نظرات تشوبها القلق وسألتني:

ـــ ماذا لو سخّنت قليلاً هذا الحساء؟

ـــ الأمر لا يستحقّ العناء.

لم تسعَ في إثري إلاّ لكي تبوح بمكنونات نفسها. طعامها أثار غثياني. قالت لي أيضًا إنّها بعد أن بذلت محاولات شاقّة عديدة استطاعت العثور على زميلة قديمة لها في السجن أعلمتها أنّ الفتاة تبادلت رسائل مع أحد المساجين وفقدت بالتالي حقّها في تلقّي الزيارة وفي النزهة. حاولت أيضًا الفرار من السجن. قيل لها إنّها، في تلك الفترة، أخذت تفقد عقلها وتمضي الوقت في الضحك أو في البكاء وحيدة. لاحقًا، عثرَتْ على هذا المتّهم. عندما وصلت إلى بيته كان في داخله امرأة. رفض الإجابة على أسئلتها. هل كان السبب اللامبالاة التي

أبداها نحوها أم خشيته من إثارة غيرة تلك المرأة التي كانت برفقته؟ فما كان منها إلاّ أن غادرت المكان غاضبة.

سألتني وهي تخفض رأسها:

ـ هل بإمكانك أن تكتب هذا؟

ـ سأرى.

أرادت أن توصلني من جديد على دراجتها لكنّي رفضت. على الطريق هبّت ريح منعشة آتية من البحر تنذر بسقوط المطر. حين عدت إلى غرفتي في المنزل الذي استُضفت فيه أمضيت طيلة الليل أفرغ كلّ ما في جوفي من فمي وما في أمعائي من مؤخّرتي. ثمار البحر هذه لم تكن طازجة على ما يبدو.

الفصل الرابع والسبعون

قيل لي إنّهم كانوا يسمعون، خلال الليل، أصواتًا غريبة، قرع أجراس ودقّ طبول آتية من الجبل، على امتداد ساحل البحر. كانوا رهباناً وراهبات طاويّين يقيمون احتفالات سرّيّة. هو وهي قالا لي إنّهما التقيا بهم صدفة ورأياهم بأمّ العين. كانا قد سمعا عن هؤلاء من قبل. لكن إذا صعدت في عزّ النهار إلى الجبل فمن المستحيل العثور على هذا المعبد الطاويّ.

حسب ما يُذكر، يفترض بهذا الدير أن يكون معلّقًا إلى الجرف الواقع عند شاطئ البحر. لا، حسب قولها، كان الدير عند سفح الجبل ويقود إليه طريق منحوت في الجدار الوعر.

وكلاهما أجمعا على أنّه معبد جميل مبنيّ في تجاويف الصخر، يمكن الوصول إليه فقط عبر مسلك صغير. وبقي محجوبًا تمامًا عن أعين الصيّادين في البحر أو قاطفي الأعشاب الطبّيّة الذين يجوبون الجبال. ذهبا إليه ليلاً يهتديان بإيقاع الموسيقى، متلمّسين طريقهما في العتمة. وفجأة اخترق ضوءٌ كشّافُ الظلمة، انفتح باب المعبد والتهمتهما نفثات البخور.

قال لي إنّه رأى مئة رجل وامرأة، وجوههم مطليّة، مرتدين أثوابًا وفي يد كلّ منهم مشعل وسيف. عيونهم نصف مغمضة، كانوا يغنّون ويرقصون، ويطلقون صرخات ويبكون. رجالاً ونساءً كانوا يتمازجون دون تكلّف، في حالة من الجنون الهستيري، يخبطون الأرض بأقدامهم ووجوههم مرفوعة نحو السماء.

تقول إنّها لم يسبق لها أن رأت هذا الحشد من الناس. في الواقع لم يكن هناك رجال. كانت جميع النساء، الشابّات والمسنّات، في غاية التبرّج. خدودهنّ مطليّة بالأحمر الفاقع وشفاههنّ بلون الدم وحواجبهن مرسومة بالفحم. وشعورهنّ مرفوعة على رؤوسهن في شكل كعكة يلتفّ حولها شريط أحمر وتتدلّى منها سبحة من أزهار الياسمين. كنّ يضعن أقراطًا في آذانهنّ. هل كانت لديهنّ أقراط في أنوفهنّ؟ لم تعد تتذكّر. كنّ هنّ أيضًا يغنّين، ويرقصن وهنّ يلوّحن بأكمامهنّ مطلقات صرخات عالية وسط جوّ محموم.

تسألها هل كانت تحلم. تقول إنّها كانت برفقة صديقة. كانتا انطلقتا للتنزّه في الجبل، لكن عند تقاطع الطرق هبط الليل فحال دون نزولهما مجدّدًا. سمعتا أصواتًا فذهبتا في اتّجاهها ووقعتا بالصدفة على هذا المعبد. وبما أنّ لا شيء محرّمًا هناك فقد انفتح الباب لهما.

بالنسبة له، كان الأمر مماثلاً، لكنّه كان وحيدًا. كان معتادًا على المشي ليلاً في الجبل دون أن يساوره شعور بالخوف. لا يخشى إلاّ إساءة البشر. كان هؤلاء الكهنة الطاويّون مسترسلين في احتفالاتهم ولا يتسبّبون في الأذى لأحد.

كلاهما يقولان إنّهما رأياهم رأي العين، وإنّهما ما كانا ليصدّقان ذلك لو أنّهما سمعا عنه فقط. لقد حصّلا دروسًا عالية؛ كانا سليمي العقل، ولا يؤمنان بالأشباح. فكيف السبيل لمعرفة ما إذا كان الأمر مجرّد هلوسة؟

ولم يكونا متعارفين. حدّثاك كلٌّ من جهته على حدة عن الجدار الصخريّ نفسه الذي يحفّ بالبحر. كنت تراهما للمرّة الأولى، لكن بدا لك كأنّك على معرفة قديمة بهما. وثقا بك على الفور، لم يقع بينك وبينهما أيّ شجار؛ لم تبدر عنهما أيّة ريبة ولا نيّات مبيّتة ولا رغبة في خداعك من أيّ نوع كانت، ولا في تضليلك، لكن بعد الذي حصل لهما، حاولا عبثًا أن يجدا تفسيرًا. لقد شهدا هذا الحدث، ويشعران بالحاجة للتحدّث عنه أمام أحدٍ ثقة.

قالا بما أنّك هنا، بما أنّك كنت تبحث طيلة الطريق عن أشياء خارقة، فعليك الذهاب إذًا إلى هناك والقيام بجولة. كان بودّهما مرافقتك لكنّهما يخشيان ألاّ يجدا شيئًا إن قصدا هذا الهدف بالذات، لأنّ هذه الأمور تحتجب عنّا إذا سعينا إثرها. يمكنك تصديق ذلك أم لا، لكنّهما رأيا بأمّ العين أنوار الشموع الحمراء، وأحسّا بتعبهما يتبدّد، وبإمكانهما كليهما القسم على ذلك، في حال كان للقسم أقلّ تأثير عليك لجهة تصديقهما، في هذه الحالة، يستطيعان أن يقسما لك فورًا، لكن حتى لو فعلا، فلن يقدرا على الإحساس بالأمور مكانك. ليس بوسعك الشكّ في صدقهما.

وذهبت أخيرًا. صعدت إلى قمّة الجبل قبل مغيب الشمس. جلست لتأمّل الكرة الحمراء القرمزيّة الهائلة التي راح وهجها يخبو شيئًا فشيئًا،

ثم تهادت فوق صفحة الأمواج اللامتناهية لتغطس في البحر الرماديّ الأزرق. كان شعاعها المنبعث من الماء يشبه ثعبان البحر. لم يبق فوق السطح إلاّ قبعة من نصف دائرة حمراء عامت على المياه القاتمة ثم ارتعشت قليلاً قبل أن تغرق تمامًا. وحدها ضبابة المساء لاحت في السماء.

ثم بدأت الانحدار من جديد وسرعان ما أحاطت بك الظلمة من كلّ جانب. أمسكت غصنًا لتستعمله كعصا، وتقدّمت خطوة خطوة، مستندًا إلى درج الدرب الحجري ومن ثم دلفت إلى وهد قائم حيث لم تعد ترى لا البحر ولا الطريق.

كنت مجبرًا على السير بمحاذاة الجدار الصخريّ على هذه الظريق التي تحفّ بها النباتات. خشيت أن تتعثّر وتسقط في الوهد. ساقاك أصابهما الوهن، لم تعد تثق إلاّ بعصاك لكي تهتدي إلى الطريق. كنت تجهل إذا كانت الخطوة التالية التي ستقوم بها آمنة، وتساءلت أخيرًا هل الظلمة البالغة الكثافة نابعة من قلبك بالذات؟ أخذت تفقد ثقتك بعصاك. وتذكّرت أخيرًا أنّ لديك ولاّعة في جيبك، ومن دون أن تتساءل عن قدرتها على إنارة دربك حتى الوصول إلى طريق سالكة، فكّرت أنّها قادرة على الأقلّ على مساعدتك قليلاً. في العتمة الكثيفة لم تحدث ولاّعتك إلاّ شرارة صغيرة مرتعشة تبعث على القلق المخيف. كان عليك أن تحميها من الريح بيدك. في البعيد ينتصب جدار أسود. كنت تتساءل لدى كلّ خطوة إذا كنت ستسقط في الفراغ. ثم أطفأت الريح اللهبة ورحت تتقدّم خطوة خطوة، مثل أعمى، قارعًا بخطاك الأرض أمامك. ما أهول مخاطر هذه الدرب!

وصلت أخيرًا أمام مغارة يتسلّل منها ضوء خفيف من شقّ الباب. ومن دون تردّد دفعته لكنّه كان مغلقًا. ألصقت عينيك بالشقّ ورأيت على ضوء مصباح أنّه محراب مكرّس لـــ «الثلاثة الأطهار» السامين وفيه تماثيلهم: الجليل السماويّ للبداية الأصليّة، الجليل السماويّ لفضيلة طاو، الجليل السماويّ لكنز الروح.

ـــ ماذا تفعل هنا؟

ناداك فجأة صوت قاسٍ، فانتفضت لكنّك شعرت بنفسك مطمئنًا لسماع صوتٍ بشريّ.

قلت له إنّك كنت تتنزّه فتهت في الظلمة ولم تعد تعرف أين تمضي الليلة.

ومن دون أن يتفوّه بكلمة، أصعدك درجًا خشبيًّا لكي تدخل إلى غرفة مضاءة بسراج زيت. رأيت عندئذٍ أنّه يرتدي ثوب الطاويّين، وأسفل بنطاله معقود عند العرقوب. في محجريه الغائرين تلتمع نظرة ثاقبة. لا بدّ أنّه حكيم عجوز. لم تكن تجرؤ على القول له إنّك جئت لتطّلع على أسرار معبده. ولم تكفّ عن الاعتذار من إزعاجه، ثم توسّلت إليه كي يؤويك الليلة واعدًا إيّاه بالعودة من حيث أتيت فور طلوع الصبح.

أخذ، وهو يهمهم، مفتاحًا معلّقًا بلوحة في الجدار وأمسك بالسراج. وأنت تبعته بكلّ هدوء. صعدتما عبر الدرج. فتح باب إحدى الغرف ثم رحل دون أن ينبس بكلمة.

أشعلت ولاّعتك فاكتشفت سريرًا من الخشب ولا شيء آخر. نمت مرتديًا ثيابك وتكوّمت دون أن تجرؤ على التفكير بشيء، لاحقًا سمعت في الطابق الأعلى رنين جرس خافت جدًّا مصحوبًا بترتيلة غير مفهومة، يتلوها صوت أنثوي. مندهشًا، أخذت تكتشف هذا الاحتفال الغامض الذي حدّثاك عنه: لا بدّ أنّ الاحتفال يدور في الطابق الأوّل. رغبت في الذهاب ورؤية ما يحدث لكنّك لم تتحرّك. كان الصوت يهدهدك والتعب في الظلمة يهدّك. بدا لك أنّك تلمح طيف امرأة شابّة متربّعة، شعرها معقود وتقرع جرسًا حديديًّا يدوّي على دفعات متتالية. ظهر شيء أشبه بتموّج ضوئي، لا تستطع تمالك نفسك عن الإيمان بالمقدّر مسبقًا، بالقدر وبراحة النفس عبر الصلاة...

في اليوم التالي، عندما نهضت، كان النهار طالعًا منذ وقت طويل. تسلّقت الدرج حتى الطابق الأخير. كان الباب مشرّعًا على غرفة فارغة واسعة، لا مذبح فيها ولا سجف ولا ألواح الأجداد ولا كتابات. وحدها في وسط الجدار مرآة هائلة قبالة فتحة المغارة، يحميها حاجز بسيط من الخشب. ذهبت أمام هذه المرآة لكنّك لم تر إلاّ السماء الزرقاء. وبقيت جامدًا أمامها دون أن تنبس بكلمة.

خلال النزول، سمعت بكاء، فاتّجهت صوبه. كان هناك طفل عارٍ تمامًا جالسًا في وسط الطريق ينتحب بصوت خافت ومبحوح. جليّ أنه كان يبكي منذ وقت طويل. انحنيت صوبه.

ــ هل أنت وحدك؟

عندما رآك، أخذ يشهق مواصلاً البكاء بصوت أقوى، فحملته وأنت تجذبه من ذراعيه النحيلتين ونفضت الغبار عن ردفيه.

ـ أين تسكن؟

كلّما طرحت عليه الأسئلة، ازداد بكاؤه. لا ترى أيّة قرية في المدى المنظور أمامك.

ـ أين أهلك؟

كان يشير برأسه وهو ينظر إليك، والدموع تنهمر غزيرة فتبلّل وجهه.

ـ أين تسكن؟

ظلّ يواصل البكاء. حاولت تهديده:

ـ إذا تابعت البكاء فلن أهتمّ بك!

أدّى تهديدك غايته فتوقّف الولد عن البكاء فورًا.

ـ من أين أنت؟

لا يجيب.

ـ هل أنت وحدك؟

فتابع النظر إليك ببلاهة، فغضبت قليلاً:

ـ هل تعرف الكلام أم لا؟

فعاود البكاء. أوقفته:

ـ لا تبكِ!

فتح فمه كأنّه يهمّ أن يبكي: لكنّه لم يعد يجرؤ.

ـ إذا عاودت البكاء فسأضربك على مؤخّرتك.

فتمالك نفسه، وأخذته بين ذراعيك.

ـ أين تريد الذهاب يا صغيري؟ قلْ لي.

فطوّق عنقك بذراعيه دون أيّ انزعاج.

ـ ألا تعرف الكلام؟

مسح وجهه بيديه الملطّختين بالتراب ونظر إليك نظرة بلهاء. لم تعد تعرف ماذا عليك أن تفعل. ربّما كان ابن أحد المزارعين الذين يعيشون في الجوار، ربّما كان أهله لا يحفلون بأمره كثيرًا. هذا فعلاً أمر جنونيّ.

حملته مسافة من الطريق لكنّك لم ترَ أيّ منزل في الجوار. بدأت تتعب وبما أنّك لا تستطيع حمل هذا الطفل الأخرس حتى أسفل الجبل، عدت تكلّمه:

ـ انزل وامشِ، موافق؟

أشار برأسه بطريقة مثيرة للشفقة.

فمشيت لمسافة قصيرة على هذا النحو، لكنّك لم تكن ترى أحدًا ولا أيّ دخان يصعد من الوادي. تساءلت هل تُرك هذا الطفل عمدًا على هذه الدرب. عليك إعادته حيث وجدته. فسيأتي أهله للبحث عنه في النهاية.

ـ انزل وامشِ يا صغيري، ذراعاي تؤلمانني.

أخذت تربّت على مؤخّرته فنام. لا بدَّ أنه تُرك على هذه الحال منذ زمن طويل، ضحيّة لؤم الكبار. شتمت والديه في قرارة نفسك. لماذا أنجباه إذا لم يكونا قادرين على تربيته!

تفحّصت وجهه الصغير المبلّل بالدموع. استسلم لنوم عميق، وكان يُظهر ثقة كبيرة بك. يبدو أنّه ليس محاطًا عادة بالعطف كما ينبغي. الشمس التي ظهرت بين الغيوم أضاءت وجهه. طرف برموشه، انقلب ثم دفن وجهه في صدرك.

دفق من الحنان انبجس من أعمق أعماق قلبك. لم تشعر بهذا العطف منذ زمن طويل. اكتشفت أنّك تحبّ الأطفال وأنّه كان يجب أن يكون لك ولد. كلّما نظرت إليه، وجدت أنّه يشبهك. أوَتَكُون أنت سبب إنجاب هذا الطفل في إحدى لحظات المتعة التي سعيت إليها ثم تخلّيت عنه ولم تعد تحفل لأمره؟ لكن، ألم تكن في الحقيقة تلعن نفسك حين شتمت والديه منذ قليل!

خفت قليلاً، خفت أن يستيقظ، خفت أن يتكلّم، خفت أن يفهم. لحسن الحظّ، كان أخرس، لحسن الحظّ، كان نائمًا، غافلاً عن تعاسته. عليك أن تتركه نائمًا على الدرب، مغتنمًا فرصة أنّ حقيقة أمره لم تنكشف على أحد لكي تهرب بعيدًا أبعد ما يمكن.

وضعته على الدرب. تحرّك قليلاً، تكوّم على نفسه وحجب وجهه بيديه. لا شكّ أنّه شعر ببرودة الأرض وسيستفيق بعد قليل. ولّيت هاربًا مثل مجرم. بدا لك أنّك سمعت بكاء خلفك فلم تجرؤ على الالتفات من جديد.

الفصل الخامس والسبعون

عندما مررت بشانغهاي في قاعة المحطّة حيث تنتظم صفوف هائلة أمام شبابيك التذاكر، ابتعت لدى أحد الأشخاص بطاقة إلى بكين في القطار السريع. بعد ساعة، كنت جالسًا في المقصورة، مطمئنّ النفس مرتاح البال. هذه المدينة الهائلة التي يتكدّس فيها أكثر من عشرة ملايين نسمة لم يعد لها أيّة أهميّة في نظري. كنت أريد أن أرى أين عاش أحد أعمامي المبعدين الذي توفي قبل أبي بوقت طويل. لكنّ أيًّا منهما لم يصل إلى عمر التقاعد المجيد.

لقد ماتت السلاحف والأسماك في نهر ووسنغ، الذي يجتاز المدينة وهو يبعث روائحه النتنة. لا أفهم كيف يستطيع سكّان شانغهاي متابعة الحياة هكذا. حتى المياه الجارية، المراقبة بعناية، صفراء اللون وتفوح منها رائحة الكلور. لا شكّ أنّ البشر أشدّ صلابة من الأسماك والقريدس.

في ما مضى ذهبت إلى مصبّ نهر يانغتسي. ما خلا سفن الشحن التي تتعرّض للصدأ العائمة فوق أمواج عالية صفراء، لا تُرى إلاّ الضفاف الموحلة حيث تنبت بكثافة غابات القصب التي تلطمها الأمواج دون توقّف. على تلك الضفاف تتجمّع الأوحال بكثافة كأنّها القدر

المحتوم، إلى اليوم الذي لن يكون فيه بحر الصين إلاّ صحراء هائلة من الرمل.

أذكر حين كنت صغيرًا، كانت مياه نهر يانغتسي صافية في جميع الأوقات. على الضفاف، كان الباعة يعرضون من الصباح حتى المساء أسماكًا هائلة يبيعونها مقسّمة إلى قطع، لكن خلال هذه المرحلة مررت بمرافئ على طول النهر ولم أرَ في أيّ مكان منها أسماكًا بهذه الضخامة. حتى بسطات بائعي الأسماك أصبحت نادرة. لم أرَ منها إلاّ في ونشيان، عند الخروج من «المضائق الثلاثة»، وهذه المدينة يحميها سدّ يبلغ ارتفاعه ما بين ثلاثين مترًا وأربعين. في سلال البامبو، لم أرَ إلاّ أسماكًا صغيرة طولها بضعة سنتيمترات تصلح طعامًا للهررة. في ما مضى، كنت أحبّ المكوث على الرصيف عند ضفّة النهر لأنظر إلى الرجال ينزلون صنانيرهم من الجسور العائمة. في اللحظة التي تخرج فيها الأسماك من الماء، كنت أراقب باهتمام بالغ الصراع المستميت الذي يدور بين الإنسان والحيوان. الآن، أكثر من عشرة آلاف شخص يقومون بأعمال التخطيط في مجال صيد الأسماك في المكتب الوحيد للتنظيم في يانغتسي، وقد استقبلني أحد رؤساء القسم الذي يعمل بتوجيهات إحدى المقاطعات أو المديريّات التي لا أعرف اسمها. عندما رحل رؤساؤه، أسرّ لي بشكل خاصّ أنّ أكثر من مئة صنف من أسماك المياه العذبة اختفى تمامًا.

وفي ونشيان أيضًا، رسا المركب طيلة فترة الليل. جاء المساعد في السفينة البخاريّة ليثرثر معي فيما كنت منصرفًا إلى تأمّل أنوار المدينة.

أخبرني كيف أنّه اختبأ في مقصورة إرشاد السفن وشهد مجزرة إبّان الثورة الثقافيّة. وبالطبع كان الرجال يُقتلون وليس الأسماك. كانوا يوثقون ثلاثة ثلاثة من معاصمهم بواسطة سلك حديدي ثم يُدفعون في النهر بطلقات الرشاشات. ما إن يُصاب أحدهم حتى يجرّ معه رفاقه في الماء، وقد رآهم يتخبّطون مثل أسماك عالقة في الصنّارة ومن ثم يجنحون مع التيّار ككلاب ميتة. الغريب في الأمر أنّه كلّما أمعنّا في قتل البشر ازدادوا عددًا، أمّا الأسماك فكلّما اصطدنا منها تزداد ندرة. ربّما كان من الأفضل لو يحصل العكس.

إلاّ أنّ هناك شيئًا مشتركًا بين الناس والأسماك وهو أنّ الناس الكبار والأسماك الكبيرة اختفوا جميعًا. من الملاحظ جيّدًا أنّ حظّهم في البقاء أقلّ من حظّ الصغار.

أخشى فعلاً أن يكون عمّي المبعد آخر هؤلاء الرجال الكبار. لا أتحدّث عن هؤلاء الأشخاص المشاهير الذين يسارعون للذهاب إلى الاحتفالات والمآدب الرسميّة. أتحدّث عن الرجال الكبار الذين أُجلّهم. وعمّي هذا توفّي نتيجة خطأ طبّي. دخل إلى المستشفى ليتعالج من نزلة صدريّة بسيطة فاقتيد إلى المشرحة بعد أقلّ من ساعتين على حقنه بإبرة. سمعت عن حوادث مماثلة، لكنّي لم أكن أتخيّل قطّ أن عمّي سيموت بهذه الطريقة. في آخر مرّة رأيته فيها، كان ذلك إبّان الثورة الثقافيّة، كانت أيضًا تلك المرّة الأولى التي يتحدّث فيها مع فتى صغير مثلي عن السياسة والأدب. قبل ذلك، كان يكتفي باللعب معي. بصوته الغليظ

واللاهث، كان يعرف كيف يغنّي نشيد الأمميّة بلغة الإسبرنتو[1]. كان يعاني من الربو منذ زمن طويل، ويذكر أنّه أُصيب بهذا المرض عندما كان يدخّن تلك المنتوجات الكثيرة التي حلّت مكان التبغ خلال فترة الحرب. في ساحات الوغى، عندما لا يتوفّر التبغ وتشتدّ الرغبة في التدخين، كانوا قادرين على تدخين أيّ شيء أوراق الملفوف على سبيل المثال أو أوراق القطن اليابسة. اضطرّوا آنذاك لمواجهة جميع الاحتمالات والتأقلم مع الأوضاع.

كان عمّي يملك دومًا وسيلة لتسلية الأطفال. ذات يوم، تشاجرت مع أمّي، ورفضت أن آكل قصعتي المليئة بحساء النوي والدجاج، وتركتها تبرد. وتواجهت إرادتان، إرادتي وإرادة والدتي. حتى حين كنت صغيرًا، كانت لديَّ صرامة الكبار، ومثل وتر مشدود إلى القوس، بقيت لا ألين. في اللحظة التي كانت أمّي ستغضب وتفقدني احترامي واعتباري، أمسكني عمّي من يدي واصطحبني إلى الشارع ليشتري لي بوظة.

كان المطر يهطل بغزارة والمياه تتدفّق سيولاً. خلع حذاءه العسكري وشمّر بنطاله واقتادني وهو يخوض في المياه والأوحال إلى حانوت التهمت فيه قرني بوظة هائلين. من وقتها، لم آكل هذا القدر من البوظة دفعة واحدة. عندما أعادني إلى المنزل، ضحكت أمّي عندما رأته بهذا المنظر الذي يثير الشفقة، وحذاؤه الجلد في يده. وتوقّفت الحرب الباردة

---

(١) لغة الإسبرنتو أو اللغة الأمميّة هي لغة دوليّة ابتكرها الدكتور زمنهوف الروسي من سكّان ديالستوك عام ١٨٨٧ تتألّف من كلمات مشتركة بين اللغات الأوروبيّة.

بيني وبين أمّي عند هذه الحدود. كان هذا العمّ يتصرّف فعلاً على غرار الرجال الكبار.

والده توفي وهو يدخّن الأفيون ويلاحق النساء ابتغاءً للذّة. كان رأسماليًّا «كومبرادور»(١). آنذاك اقترح على عمّي إعطاءه آلاف اليوانات ليذهب إلى الولايات المتّحدة ويكمل دراسته محظّرًا عليه الانخراط في النشاطات السرّيّة للحزب الشيوعي. لكنّه رفض قطعًا طلب والده، وهرب إلى جيانغشي لكي يشارك في معركة المقاومة ضدّ اليابان في صفوف «الجيش الرابع الجديد».

أخبرني مرارًا كيف أنّه، حين كان «الجيش الرابع الجديد» موجودًا في جنوب أنهوي، اشترى من أحد المزارعين فهدًا صغيرًا وربّاه في قفص وضعه تحت السرير. عند هبوط الليل، كانت غريزة الحيوان تعاوده ولا يتوقّف عن الزئير. عندما غادر الجيش لم يستطع أن يأخذ القرار بقتله فعهد به إلى أحدهم.

آنذاك كان والدي محاوره الرئيسيّ. في كلّ مرّة يأتي لزيارته، كان يحضر معه زجاجة من الكحول الجيّدة غير الموجودة في الأسواق، ثم يأمر حارسه وسائقه بالانصراف. وكان يحضر لي علبة كبيرة من أقراص الحلوى المشكّلة من شانغهاي. كلّما كانا يلتقيان ينصرفان إلى الثرثرة حتى طلوع الصبح، مستذكرين طفولتهما وشبابهما مثلما أفعل أنا حاليًّا عندما أقابل صدفة أصدقائي القدامى.

---

(١) «كومبرادور»: مستشار استعماري تتمّ بواسطته عمليّات التجارة الاستعماريّة.

كانا يتحدّثان عن البرد الذي كانا يعانيان منه في منزلهما القديم المغطّى باللبلاب، ويتكلّمان عن أشجانهما الصغيرة، عندما رجع من المدرسة مثلاً وهو ينزف من أنفه ملطّخًا قبّة سترته، مرتعبًا، كان يمشي مجهشًا بالبكاء، وكان الناس في الشارع ينظرون إليه يمرّ دون أن ينبسوا بكلمة. وحدها المرأة بائعة باتيه الصويا أوقفته ودفعته إلى القاعة حيث كانت تطحن بذور الصويا، ولفّت ورقة من ورق الأرزّ ودسّتها في أنفه.

كانا يتحدّثان أيضًا عن المنزل القديم الذي أضرم أبو جدّي المجنون النار فيه، وأنقذه أفراد أسرتنا. بالقرب من المنزل، كانت تعيش فتاة شابّة انتحرت لأسباب عاطفيّة. قبل يومين من وفاتها، شوهدت تخرج من دكّان للأقمشة، حاملة تحت ذراعها قماشًا مزدانًا بالأزهار. خالوا أنّها تحضّر لزواجها لكن بعد يومين انتحرت بابتلاعها إبر الخياطة مرتدية الثوب الذي خاطته من القماشة المزدانة بالأزهار.

متدثّرًا في أغطيتي، كنت أستمع إليهما منبهرًا غير راغب في النوم، كنت أراه يدخّن السيجارة تلو السيجارة بالرّغم من الربو المصاب به. وحين يبلغ به الانفعال أثناء الحديث كان يذرع الغرفة بخطى واسعة وهو يردّد القول إنّه لا يرغب إلاّ في أمر واحد: أن يستقيل من الجيش وينصرف للكتابة.

في المرّة الأخيرة التي ذهبت فيها لرؤيته في شانغهاي، كان يحمل في يده نوعًا من الأنابيب الرشّاشة التي يستعملها عندما يشتدّ السعال عليه. سألته عمّا إذا كان كتب كتابه، لا، لحسن الحظّ، وإلاّ لما ظلّ على قيد الحياة. كانت هذه المرّة الوحيدة التي لم يعاملني فيها كطفل،

وحذّرني: الحقبة ليست مؤاتية للكتابة الأدبيّة والسياسيّة. حسب رأيه، حين نتعاطى السياسة لا يبقى لنا موطئ قدم نستند إليه، وهنالك مجازفة بأن نفقد عقلنا دون أن نلاحظ ذلك. قلت له إنّني لا أستطيع حتى متابعة دروسي في الجامعة. حسنًا، ما عليك إلاّ أن تصبح مراقبًا. قال لي إنّه كان هو نفسه مراقبًا للوضع حاليًّا. قبل الثورة الثقافيّة، في المرحلة التي كانت فيها المعركة ضدّ انتهازيّي اليمين تحتدم في الصحف، فيما الناس يقضون جوعًا، أُخضع عمّي للتحقيق. عندئذٍ بدأ يراقب على حدة ما يجري، ومنذ ذلك الوقت، بقي تحت المراقبة. لا عجب إذا كان والدي في تلك المرحلة قد قطع كلّ علاقة به. كان عمّي قد أعلمه فقط أنّه انطلق في مهمّة في إحدى بقاع هينان مزوّدًا بكلّ أمتعته العسكريّة. من المستحيل معرفة ما إذا كانت كلماته تتضمّن رسالة سرّيّة.

منذ ذلك الحين بدأت أراقب المشهد أمامي، في طريق العودة، على خطّ سكّة الحديد الذي يصل بكين بشنغهاي: كان هناك مقاتلون، أُوكلت إليهم على حدّ زعمهم مهمّة «الهجوم بالكلمة والدفاع بالسلاح»، الحراب في أيديهم ويعتمرون قبّعات من أغصان الصفصاف المجدول على رؤوسهم، ويضعون أشرطة حمراء على أذرعتهم. كانوا يصطفّون بشكل منتظم تمامًا على طول الرصيف؛ وفور توقّف القطار يسارعون للوقوف عند أبواب المقطورات. عندما كان أحد المسافرين يتهيّأ للنزول، ثم يسارع مجدّدًا، لدى رؤيتهم، إلى داخل المقطورة، كانوا يتعقّبونه حتى يقبضوا عليه. كان الرجل يزعق مستنجدًا، لكن أحدًا لم يجرؤ على الحراك. رأيت كيف جرّوه إلى الخارج وتحلّقوا حوله على الرصيف وأوسعوه ضربًا. وأخيرًا تحرّك القطار ولم أعرف قطّ ماذا حلّ بالرجل.

آنذاك سرت حالة من الرعب في جميع المدن التي كنّا نجتازها. المباني، الجدران، المعامل أعمدة خطوط التوتّر العالي، قصور المياه،... كلّها كانت مكسوّة بالشعارات التي تتعهّد بمواصلة الصمود حتى الموت، والإطاحة بكلّ شيء، والتكسير والقتال حتى إهراق الدم. كانت مكبّرات الصوت في المقصورات، وعلى طول السكّة الحديديّة، تبثّ أغاني قتاليّة وسط ضجيج صفّارات القطارات. في محطّة مينغ غوانغ «النور الساطع» ـ الله أعلم كيف أمكن الاحتفاظ بهذا الاسم ـ على جانبي السكّة الحديديّة كانت صفوف اللاجئين تتدافع. لم يعد القطار يفتح أبوابه والناس دخلوا عبر النوافذ المفتوحة محاولين الاندساس في المقطورات المزدحمة حيث تتلاصق أجساد الناس كما تتلاصق أفراخ السردين داخل العلبة. سارع الركّاب المتواجدون داخل المقطورات إلى الإبقاء على النوافذ مقفلة بكلّ قواهم. بدا اللاجئون أشبه بأعداء تفصل بينهم ألواح زجاجيّة. كان هذا الزجاج غريبًا، بدا وكأنّه يشوّه الوجوه ويحيي فيها مشاعر الحقد والغضب.

انطلق القطار وسط فرقعة كبيرة، تحت وابل من الحصى وكَيْلٍ من الشتائم والضربات وأصوات الزجاج المكسّر، إنّه مشهد حريّ بجهنّم، لا سيّما أنّ الناس كانوا مقتنعين أنّهم يتعذّبون في سبيل الحصول على حقوقهم المشروعة.

وفي تلك الحقبة أيضًا، على تلك السكّة الحديديّة بالذات، رأيت الجسد العاري لامرأة شابّة، مقطّعاً إربًا تحت عجلات القطار، مثل سمكة مقطّعة بسكّين حادّ. ارتجّ القطار بشدّة وصفّر، أحدث المعدن والزجاج

صريراً وتصاعد صوت تمزّق حادّ. بدا كلّ شيء غريبًا آنذاك. لكأنّ السماء والناس يتواصلون والأرض المجنونة لا تكفّ عن الاهتزاز.

لم يتوقّف القطار إلاّ بعدما اجتاز مئة متر أو مئتين. نزل الموظّفون ورجال الأمن والمسافرون من الحافلات. كان العشب النابت بين الحجارة المرصوفة على السكك الحديديّة ملطّخًا بأجزاء من اللحم البشري، وكانت رائحة الدم النتنة تفوح من سماء المكان. للدم البشريّ رائحة زنخة أقوى من دم الأسماك. على رصيف السكّة الحديديّة اضطجع جسد امرأة جميل التكوين مقطوع الرأس والساقين والذراعين. كان دمها قد نزف كلّه فبان جسدها أبيض اللون أملس ككتلة رخام. جسد المرأة الشابّة البديع كانت آثار الحياة لا تزال بادية عليه وكان لا يزال يثير شهوة الرجال. توجّه رجل عجوز من بين المسافرين ليأتي بخرقة قماش عالقة بأحد الأغصان ويغطّي بها أسفل الجسد، سائق القطار راح يجفّف العرق بكاسكيته ويشرح يائسًا أنّه شغّل صفّارته عندما رأى المرأة الشابّة تسير وسط السكّة. لم تبتعد عنها. أبطأ سيره لكنّه لا يستطيع كبح الفرامل بقوّة أكبر حفاظًا منه على سلامة المسافرين في القطار إلى أن أحسّ بجسدها يتمزّق تحت العجلات. في اللحظة الأخيرة، حاولت الابتعاد لكن... كانت تريد الانتحار، أكيد أنّها كانت تسعى إثر الموت. هل كانت طالبة مقيمة في الريف؟ هل كانت فلاّحة؟ لم تنجب أطفالاً، هذا واضح، بدأ المسافرون يتناقشون في ما بينهم. لم تكن تريد الموت بالطبع وإلاّ لماذا ابتعدت في آخر لحظة؟ هل الموت سهل هكذا؟ لا شكّ أنّ المرء الذي يرغب في الموت إنسان سيّئ، ربّما كانت مستغرقة في أفكارها. لكنّ الأمر لا يمكن اختصاره بالقول إنّ امرأة حاولت اجتياز

الطريق في وضح النهار، وإنّ قطارًا صدمها عن طريق الصدفة. إلاّ إذا كانت صمّاء، إلاّ إذا أرادت الموت. الموت أفضل من الحياة، ذاك الذي قال هذه الجملة ابتعد بسرعة.

لا أناضل لأستمرّ في هذه الحياة، لا، لا أناضل لأجل أيّ شيء كان، أحمي نفسي فقط. لا أملك شجاعة تلك المرأة. لم أصل إلى هذا النوع من اليأس، لا أزال أحبّ هذا العالم بجنون ولم أنل من هذه الحياة مأربي حتى الآن.

الفصل السادس والسبعون

بعد أن هام وحيدًا على وجهه لفترة طويلة صادف عجوزًا في طريقه مستندًا إلى عصاه مرتديًا ثوبًا طويلاً فتقدّم منه طالبًا نصيحته.

ـ من فضلك أيّها العجوز، أين يوجد جبل الروح؟

فيردّ عليه العجوز:

ـ من أين أنت آتٍ؟

يجيب أنّه آتٍ من ووبي.

ـ ووبي... يفكّر العجوز برهة. آه، نعم قرب النهر.

يقول إنّه يأتي تحديدًا من ضفّة النهر فهل ضلّ الطريق؟

يقطّب العجوز حاجبيه:

ـ الطريق جيّدة. أمّا من سلكها فقد ضلّ طريقه.

ـ أنت محقّ تمامًا أيّها العجوز.

لكنّه يريد أن يسأله هل يقع جبل الروح على ضفّة النهر.

ـ إذا قلنا إنّه على ضفّة النهر فهو على ضفّة النهر.

أجاب العجوز بلهجة من نفد صبره.

يقول إنّه أتى تحديدًا من تلك الضفّة إلى هذه الضفّة.

ـ بقدر ما تواصل السير بقدر ما تبتعد عن الهدف. قال العجوز واثقًا من نفسه.

ـ حسنًا هل عليَّ أن أعود على أعقابي؟ يسأل من جديد.

في دخيلائه، يقول إنّه لا يفهم شيئًا من ذلك.

فيجيب العجوز ببرودة:

ـ ما قلته واضح جدًّا.

ـ أجل، هذا صحيح أيّها العجوز. ما قلته واضح جدًّا...

المشكلة هي أنّه هو نفسه لا يرى الأمور بوضوح بعد.

ـ ما الذي ليس واضحًا؟ يسأل العجوز وهو يتفحّصه تحت حاجبيه الكثّين.

يقول إنّه لم يفهم حتى الآن الطريق المؤدّية إلى جبل الروح.

أغمض العجوز عينيه واستغرق في تركيزه.

ـ ألم تقل إنّه هناك على ضفّة النهر؟

يطرح هو السؤال من جديد.

ـ لكن سبق لي وذهبت إلى هناك..

ــ نعم إنّه هناك. يقاطعه العجوز بنفاد صبر.

ــ وبالنسبة لبلدة وويي؟

ــ حسنًا، هي لا تزال هناك على ضفّة النهر.

ــ لكن في وويي تحديدًا قصدت الجهة الأخرى من النهر. عندما قلت هناك، على ضفّة النهر، كنت تقصد في الواقع القول على هذا الجانب بالذات من النهر!

ــ ألا تريد الذهاب إلى جبل الروح؟

ــ بلى.

ــ حسنًا، إنّه هناك على ضفّة النهر.

ــ أيّها الرجل العجوز، كلامك من الماورائيّات ، أليس كذلك؟

فيستعيد كلامه بنبرة جادّة:

ــ ألم تسألني عن الطريق؟

يقول بلى.

ــ حسنًا، لقد دللتك.

مستنداً إلى عصاه، يبتعد العجوز شيئًا فشيئًا دون أن يعيره انتباهًا.

يبقى وحيدًا على هذا الجانب من النهر، على الجانب الآخر بالنسبة لوويي. المسألة في الواقع تكمن في معرفة الجهة التي عليها وويي. لم

يعد يعرف حقًا. وحدها وردت على ذاكرته أغنية أطفال قديمة ترقى لعدّة آلاف من السنين:

ـ سيعود، لن يعود، لكن لا تبقَ هنا. على ضفّة النهر، الريح باردة.

الفصل السابع والسبعون

ليس معنى هذا الانعكاس واضحًا، صفحة ماء صغيرة، جميع أوارق الأشجار عند ضفّتها سقطت، الأغصان رماديّة سوداء، والشجرة الأقرب تشبه صفصافة، على مسافة أبعد قليلاً، الشجرتان القريبتان من الماء هما ولا شكّ دردارتان، قبالتهما سيقان نحيلة من الصفصاف مشعّثة وأغصانها الجرداء مختومة بأغصان رفيعة متفرّقة. ربّما كانت صفحة الماء متجلّدة، في هذا الطقس البارد، ربّما كانت طبقة رقيقة من الجليد تغمرها، السماء غائمة وكأنّها ستمطر لكنّها لا تمطر، لا شيء يعكّر صفو الهدوء، ما من ارتعاشة عند منتهى الأغصان، لا ريح، كلّ شيء جامد، وكأنّ كلّ شيء ميت، وحدها موسيقى تطفو في الهواء، بعيدة، لا يمكن تحديدها، الأشجار ملتوية قليلاً، الدرداراتان تنحنيان برقّة، إحداهما نحو الشمال والثانية نحو اليمين، أمّا جذع الصفصافة الكبيرة فمنحنٍ نحو اليمين. ثلاثة أغصان متساوية في الضخامة تنطلق من الجذع صوب الشمال، محدثة نوعًا من التوازن للشجرة، وبعدئذٍ لا شيء يتحرّك، كصفحة الماء، الميتة. لوحة منجزة لا تخضع لأيّ تغيير، إرادة التغيير نفسها اختفت، لا اضطراب ولا اندفاعة ولا رغبة. الأرض، الماء، الأشجار، الأغصان، فوق صفحة الماء بقع بنّيّة ضاربة إلى السواد،

ليست جزرًا صغيرة، قد تكون كثبان رمل، جزرًا رمليّة، بقعًا تطفو على السطح وتكسر رتابتها المصطنعة تقريبًا، على الضفّة تنبت بضع شجيرات لا تكاد تُرى، تمامًا إلى اليمين، أغصانها متفرّقة مثل أصابع يابسة، ولا نيّة لديها في طيّها فيما الأصابع تنثني، لا سحر فيها، على مسافة قريبة، تحت الصفصافة حجر، هل وُضع هنا ليجلس عليه الناس ويتبرّدوا؟ أم لكي يسهل على العابرين وضع أقدامهم فوقه، فيتجنّبوا أن يبتلّوا عندما تكون المياه وفيرة. ربّما لم يكن هذا هو السبب، أو ربّما ليس حجرًا حتى بل فقط تلعتان من تراب، أو طريق تمرّ من هنا، أو شيء ما يقترب من المسافة المغمورة بالمياه هذه ويخترقها. ربّما كلّ شيء يُغمر بالمياه عندما يعلو منسوبها، عند مستوى الغصن الأوّل من الصفصافة، لكأنّه سدّ، لا شكّ أنّها الضفّة عندما تكون المياه عالية، لكنّ هذا السدّ تخترقه الثقوب، وبإمكان المياه أن تفيض، على السدّ لسنا بالضرورة في أمان، عصفور يطير في البعيد على أغصان الصفصافة الهزيلة، من الصعب معاينته إذا لم نقتفِ آثار طيرانه، لن نراه إلاّ إذا طار. إنّه مفعم بالحيويّة، وإذ نمعن النظر، نرى عدّة عصافير، تقفز على الأرض تحت الشجرة. تحطّ ثم تطير، إنّها أصغر من ذلك الذي حطّ على الشجرة، وأقلّ سوادًا أيضًا، ربّما كانت عصافير دوري، وذاك الذي اختبأ في الشجرة لعلّه شحرور، لم يطر بعد. كلّ شيء متوقّف على قدرتنا على رؤيته. ليست المسألة في معرفة إذا كان هناك عصفور أم لا، إذا كان موجودًا أم لا، بل في ما إذا كنّا نميّزه أم لا، وإلاّ فالأمر مماثل، على الضفّة المقابلة، شيء ما يتحرّك، من هذه الجهة بالذات، على باقات الأعشاب الصفراء عربة يدفعها رجل ويجذبها آخر وهو منحنٍ، إنّها عربة يد بعجلات مطّاطيّة، وبإمكانها أن تحمل نصف طنّ

من الحمولة. تنتقل ببطء، غير شبيهة إطلاقًا بعصافير الدوري. لا نلاحظ أنّها تتحرّك إلاّ بعد التعرّف إليها كعربة، كلّ شيء متوقّف على الفكرة التي مثلت في أذهاننا. إذا فكّرنا أنّ هناك طريقًا فهي طريق، طريق حقيقيّة حتى لو كان الماء يغمرها بعد انهمار الأمطار، لم تغمر بالماء، وبالإمكان أيضًا أن نصعد بنظرنا على طول خطّ متّصل فوق جنبات الأعشاب الصفراء ونستعيد العربة، لكنّها باتت بعيدة، احتجبت وراء أغصان الصفصاف. يُخيّل للناظر بادئ ذي بدء أنّ الأمر يتعلّق بعشّ عصفور، ثم ما إن يخترق النظر الأغصان، يلمح عربة تتنقل ببطء، إنّ حمولتها ثقيلة: ألواح الآجرّ أو التراب، الأشجار وسط المنظر، العصافير، العربة، هل هي واعية أيضًا لمعنى أشكالها؟ ما هي العلاقة بين السماء الرماديّة، والماء وانعكاسه، والأشجار، والعصافير؟ السماء... الرماديّة... فسحة ماء... الأشجار العارية... ما من خضرة... تلعات تراب... كلّ شيء أسود... العربة... العصافير... الدفع بقوّة... عدم الحراك... تدفّق الأمواج... عصافير الدوري التي تنقر... الأغصان... الشفّافة... جوع الجلد وعطشه... بالإمكان فعل كلّ شيء... المطر... ذيل دجاجة... أرياش خفيفة... لون الورود... الليل دون نهاية... ليس هذا سيّئًا... ريح خفيفة... هذا جيّد... أنا ممتنّ لك... في البياض الهيولي... بضعة شرائط... ملتفّة... برد... حرّ... ينحني ويتلاشى... لولب... سمفونيّة الآن.. هائلة.. حشرة.. دون هيكل عظمي... في هاوية... برعم... جناح أسود... يفتح الليل... في كلّ مكان... نافد الصبر... نار ملتمعة... رسوم منمنمة... حرائر سوداء... دودة... نواة الخليّة... التي تدور في السيتوبلازما.. العينان المولودتان أوّلاً... يقول إنّ الأسلوب.. لديه القدرة على العيش بذاته... فلقة أُذن..

آثار مجهولة... لا تعرف متى يسقط الثلج ومتى يتوقّف. طبقة بيضاء رقيقة لم يتسنَّ لها الوقت لكي تتراكم على الأغصان. الأغصان الثلاثة التي نبتت عكس الاتّجاه الذي انحنت صوبه الصفصافة أصبحت سوداء. الدردارتان اللتان بسطتا أغصانهما الأولى إلى اليسار والثانية إلى اليمين، عند آخر الأغصان، بياض الانعكاس في الماء، كالثلج الذي يهبط على فسحة مسطّحة موحلة، لا بدَّ أنّ صفحة الماء تجلّدت. بقع التراب التي تشبّه بالجزر بصعوبة، الجزر الرمليّة أو الكثبان لم تعد إلاّ ظلاًّ أسود، من المستحيل معرفة كيف تشكّل هذا الظلّ الأسود إذا كنّا لا نعرف أنّها كانت في الأصل مسافات ترابيّة، وحتى لو عرفنا، لا نفهم لماذا لم يتراكم الثلج فوقها. على مسافة أبعد، باقات العشب هي نفسها، مصفرّة دومًا، على مسافة أعلى، البقعة التي بدت طريقًا، تبقى غير واضحة، فوق الشجرة الصغيرة التي تبسط أغصانها يُعايَن خطّ منحنٍ أبيض صاعد إلى فوق، العربة تبدو وكأنّها تسلّقت المنحدر من هنا. في هذه اللحظة، اختفت العربة على الطريق، لم يعد هناك عابرون فوق الثلج وإلاّ لكانوا ظهروا تمامًا. الصخرتان أو تلعتا التراب اللتان تشبهان صخرتين أمام الصفصافة اختفتا، طمس الثلج التفاصيل، الطريق التي سُلكت بعد الثلج يمكن تميّزها بوضوح أكثر مثل عروق تحت الجلد. وهكذا فإنّ منظرًا عاديًّا لا نعيره أيّ اهتمام يترك فينا انطباعًا عميقًا وقد خلّف فيَّ فجأة نوعًا من رغبة، أرغب في الدخول إليه، إلى منظر الثلج هذا، أن أكون مجرّد طيف، طيف لا معنى له بالطبع، إلاّ إذا لم أكن منصرفًا إلى تأمّله عبر النافذة. السماء القاتمة، الأرض المغمورة بالثلج الأكثر التماعًا لتنافره مع هذه السماء القاتمة، لا شحارير، لا عصافير دوري، الثلج التهم كلّ فكرة وكلّ معنى.

الفصل الثامن والسبعون

قرية ساكنة سكون الموت، مغمورة بالثلج. في المؤخّرة، جبال شامخة صامتة، مكسوّة بالثلج هي أيضًا. البقع السوداء، أغصان الأشجار المنحنية؛ والباقات السوداء إبر الصنوبرات، والظلال ليست إلاّ الصخور البارزة وسط الثلج، ما من لون، هل هذا هو الليل أم النهار، الظلمة ترسل بعضًا من نور، والثلج يتابع سقوطه، ماحيًا آثار الأقدام.

قرية أهلها مصابون بالبرص.

ربّما.

وما من نباح كلاب.

مات جميع سكّانها.

أطلقِ الصوت عاليًا.

غير مجدٍ، أناس عاشوا هنا، ثمّة جدار متهدّم غطّاه الثلج، ثلج ثقيل يغشى نومهم.

هل ماتوا أثناء نومهم؟

لكان هذا أفضل، لكن أخشى فعلاً أن تكون مجزرة قد حصلت، إبادة جماعيّة، والجميع قضوا نحبهم، بداية سمّموا الكلاب بقطع خبز صغيرة محشوّة بالزرنيخ.

أثناء الاحتضار هل تنتحب الكلاب؟

ضربوها بالحمّالات المزدرجة، بالضبط على خطمها، وهذه وسيلة فتّاكة.

لماذا؟

إنّها الوسيلة الوحيدة لقتلها في الحال.

ألم يقاوم أحدها؟

قتلوها داخل المنازل، لم يستطع أحد الفرار.

والأطفال؟

استخدموا الفؤوس لقتلهم.

والنساء ألم يفلتن من قبضتهم؟

بعدما اغتصبوهنّ قتلوهنّ، كان هذا أشدّ فظاعة..

اصمت.

هل أنت خائفة؟

هل كانت هناك أكثر من عائلة في هذه القرية؟

عائلة من ثلاثة إخوة.

وهل توفّوا أيضًا؟

يُقال إنّهم كانوا إمّا ضحيّة الثأر العائلي، وإمّا ضحيّة وباء، أو إنّهم كانوا يقومون بالتجارة غير المشروعة باحثين عن الذهب في مجرى النهر.

هل قُتلوا على يد مجهولين؟

كانوا يحظّرون على أيّ غريب أن يأتي ويبحث عن الذهب في أرضهم.

أين يوجد مجرى هذا النهر؟

تحت أقدامنا.

لمَ لا نستطيع رؤيته؟

لا يُرى إلاّ البخار المتصاعد من الجحيم، ليس هذا سوى انطباع، إنّه في الواقع نهر ما عاد موجودًا.

وهل نحن فوقه؟

نعم. دعيني أقودك.

أين؟

على الضفّة الأخرى من النهر، على امتداد مساحة الثلج الناصعة البياض، على حافّة الحقل، هناك ثلاث أشجار، وعندما نتجاوزها، نصل قبالة الجبل إلى سفح المنازل التي تداعت تحت الطبقات الكثيفة للثلج. وحده هذا الجدار المتهدّم لا يزال منتصبًا. خلفه بالإمكان تُجمع قراميد

محطّمة وقطع من قصعات مصنوعة من الخزف الأسود. لا يمكنك تمالك نفسك عن دفعها بقدمك، طائر ليلي يجعلك تنتفض خوفًا وهو يحلّق بطيرانه الثقيل، لم تعد ترى السماء، ترى فقط الثلج الذي يواصل سقوطه ويتراكم فوق السياج. خلف السياج هذا، هناك بستان بقول. تعرف أنّه هنا، تحت الثلج، زرع الخردل الذي يقاوم البرد والقرع بجلده المتغضّن كالنساء العجوزات، تعرف جيّدًا حديقة البقول هذه، وتعرف أين الممرّ الذي يقود إلى عتبة الباب في العمق؛ جالسًا هناك، أكلت حبّات كستناء صغيرة مشويّة، لم تعد تعرف هل هذا حلم شباب أم أنّه الشباب الذي تحلم به. فهمت أنّ ذلك يتطلّب الكثير من الطاقة، نَفَسك يضعف الآن، عليك أن تعير انتباهك، ألاّ تدوس على ذيل القطّ الذي تلتمع عيناه في الليل، تعرف أنّه ينظر إليك، تتظاهر بعدم رؤيته، عليك أن تتجاوز الباحة الداخليّة بصمت، هناك عُلّقت عصا استند إليها بشكل متوازن غربال مصنوع من القدد المجدولة، هي وأنت، كنتما تختبئان خلف الباب، وفي أيديكما خيط، تراقبان عصافير الدوري. الكبار يلعبون بالورق في البيت، كانوا يضعون على عيونهم نظّارات مستديرة بإطارات من نحاس، أعينهم متورّمة وجاحظة كأعين الأسماك الحمراء لكنّها لا ترى شيئًا، كانوا يمرّرون الأوراق ورقة ورقة أمام نظّاراتهم، عندئذٍ انزلقت تحت الطاولة؛ حولكما سيقان، وحافر حصان، وأيضًا ذيل ضخم كثيف مبسوط، تعرف أنّه ذيل ثعلب، لا يتوقّف عن الحراك وينتهي به الأمر للتحوّل إلى أنثى نمر مرقّطة الجلد. إنّها مستوية في الكنبة الكبيرة وبإمكانها الوثوب عليك في أيّة لحظة، لا يمكنك الابتعاد، تعرف أنّ الصراع سيكون ضاريًا، وترتمي فوقك!

ماذا هنالك؟

لا شيء، لا بدّ أنّني حلمت، وفي حلمي، كان الثلج ينهمر فوق إحدى القرى، كانت السماء في الليل مضاءة بالثلج، هذه الليلة كانت غير حقيقيّة. وكان الهواء باردًا، ورأسي فارغًا، أحلم دومًا بالثلج، بفصل الشتاء وبآثار الأقدام على الثلج في الشتاء، أحلم بك.

لا تحدّثني عن هذا، لا أريد أن أكبر، أفكّر بأبي، هو الوحيد الذي كان يحبّني، أنت لا تفكّر إلاّ بمضاجعتي. لا أستطيع أن أمارس الحبّ دون حبّ.

أحبّك.

هذا ليس صحيحًا، إنّها مجرّد رغبة عابرة.

ماذ دهاك؟ أحبّك!

نعم، التدحرج في الثلج، مثل الكلاب، اذهب في طريقك، لا أريد إلاّ نفسي.

الذئب سوف يأخذك بين أشداقه، سوف يلتهمك كلّيًّا، والذئب الأسود سيحملك إلى مغارته لكي يجعلك زوجته!

إذا كنت تفكّر كذلك فهذا يعني أنّك مهتمّ لأمري، ومهتمّ لمشاعري.

أيّة مشاعر؟

احزر، يا لك من أبله، أفكّر في أن أسرق...

ماذا؟

رأيت زهرة في الليل،

أيّة زهرة؟

زهرة كاميليا.

سأذهب لأقطفها لكِ.

لا تفسدها، لست مضطرًّا للموت لأجلي،

ولمَ الموت؟

اطمئنّ، لا أجازف بأن أجعلك تموت لأجلي، أنا وحيدة جدًّا، ما من صدى يستجيب لصرخاتي، كلّ شيء يبقى هادئًا في الجوار، ما من وشوشة نبع، الهواء مثقل ومشحون. أين هو النهر حيث كانوا يبحثون عن الذهب؟

تحت الثلج، تحت قدميك،

غير صحيح،

إنّه نهر تحت الأرض، كانوا يُصفّون مياه النهر، وهم منحنون **إلى** الأمام،

هل هناك غابة؟

ماذا؟

لا شيء،

أنت شرّير،

من قال لك أن تطرحي أسئلة؟ هه! هه! لكأنّ هناك صدى في الأمام، خذني،

إذا شئت،

رأيتكما، أنت وهي، على الثلج، في الليل الأسود، يصعب تمييزكما، أنت على الثلج، حافي القدمين.

ألا تشعر بالبرد؟

لا أعرف ما هو البرد.

وكنت تمشي معها هكذا على الثلج، محاطين بالغابات والأشجار الخضراء الداكنة.

أما من نجوم؟

لا ولا قمر أيضًا.

أما من بيوت؟

لا.

أما من مصابيح؟

لا، لا شيء، أنت هي، وحدكما، تسيران معًا، تسيران على الثلج، كانت ترتدي وشاحًا، كنت حافي القدمين، كنت تشعر بقليل من البرد، ليس كثيرًا. لم تكن ترى نفسك، كنت تشعر فقط أنّك حافي القدمين، في الثلج، كانت إلى جانبك، تمسك بيدك أمسكت بيدها، كنت تقودها.

هل يجب السير طويلاً؟

نعم، المكان بعيد جدًّا، ألست خائفة.

هذه الليلة غريبة، زرقاء مائلة إلى السواد، ملتمعة، لست خائفة معك.

هل تشعرين بالأمان؟

نعم.

ألست بين ذراعيّ؟

بلى، أستند إليك، تضمّني برفق.

هل قبّلتكِ؟

لا.

هل كنت ترغبين في ذلك؟

نعم، لكنّي لم أقله بوضوح، كان الأمر كذلك فعلاً، وكنّا ننزل ورأيت كلبًا.

أين؟

أمامي، كان مضطجعًا هناك، عرفت أنّه كلب، ورأيتك تعطس وتقذف سيلاً من الرذاذ.

هل أحسست بحرارة أنفاسي؟

لا، لكنّي كنت أعرف أنّ أنفاسك حارّة، لقد عطست فقط، لم تتكلّم.

هل كانت عيناك مفتوحتين؟

لا، لقد أغمضتهما. لكنّي رأيت كلّ شيء، لم أكن أستطيع فتح عينيّ، كنت أعرف أنّك ستختفي إذا فتحتهما، وتابعت هكذا، وأنت عانقتني، لكن ليس بقوّة، لم أعد أستطيع التنفّس، أردت رؤيتك مرّة أخرى، الإمساك بك، آه، ثم افترقا وها هما يواصلان السير.

لا يزالان يسيران على الثلج؟

نعم، الثلج يعيق حركة المشي لكنّه مريح جدًّا، أشعر بقليل من البرد في قدميّ، لكنّي أحتاج فقط لمواصلة المشي على هذا النحو.

هل ترين كيف كنت؟

لا أحتاج للرؤية، أريد فقط أن أشعر بالبرد قليلاً، أن أشعر بصعوبة المشي فوق الثلج، أريد أن أشعر بالثلج، أن أشعر أنّك بالقرب منّي، عندئذٍ سأشعر بالأمان وسأتقدّم، يا عزيزي، هل سمعت أنّني كنت أناديك؟

نعم.

قبّلني، قبّل راحة يدي، أين أنت، لا ترحل!

أنا قربك.

لا، أتضرّع إلى روحك، أناديك، تعال لا تتركني.

أيّتها الطفلة الغبيّة، لا أجازف بتركك.

أنا خائفة، خائفة أن تتركني، لا تتركني، لا أتحمّل الوحدة.

ألست بين ذراعيّ الآن؟

نعم، أعرف وأنا ممتنّة لك، يا عزيزي.

نامي، نامي مطمئنّة.

لست نعسانة، أنا صافية الذهن تمامًا، أرى الليل الشفّاف، الغابة الزرقاء، الثلج المتراكم، لا نجوم، لا قمر، كلّ ذلك أراه بوضوح، يا لها من ليلة غريبة! كنت أودّ أن أبقى دومًا معك في هذه الليلة المثلجة، لا تتركني، لا تتخلَّ عني، لا تبق بعيدًا هكذا، لا تقبّل امرأة غيري!

الفصل التاسع والسبعون

جاء أحد الأصدقاء ــ كان أيضًا الشتاء، وقد أثلجت السماء ــ ليخبرني عن فترة خضوعه لعقوبة إعادة التأهيل عبر العمل. يتأمّل عبر النافذة منظر الثلج وكأنّه يغرق في ذكرياته، ثم يطرف بعينيه لأنّ انعكاس الثلج كان مبهرًا.

في مزرعة إعادة التأهيل حيث قضى فترة العقوبة، كانت هناك، وفقًا لروايته، إشارة خاصّة بطبيعة الأرض وقياسها وارتفاعها، يتراوح طولها ــ رفع رأسه عبر النافذة وقدّر علوّ أحد المباني القريبة ــ على الأقلّ بين خمسين أو ستين مترًا، ولم تكن في جميع الأحوال أقلّ ارتفاعًا من هذا المبنى. كان هناك سرب من الغربان يحوم فوق الإشارة، يبتعد، يقترب ويدور دون توقّف وهو ينعق. كان رئيس المزرعة الموكلة إليه مراقبة الخاضعين لإعادة التأهيل جنديًّا قديمًا شارك في حرب كوريا وتجلّت مآثره في ميدان القتال. أُصيب بإحدى ساقيه فتسبّبت له بإعاقة بحيث أصبحت إحدى ساقيه أقصر من الأخرى وكان يمشي مشية الأعرج. لا أعرف ما هي المشاكل التي اعترضته، لكنّه لم يستطع الارتقاء إلى رتبة أعلى من رتبة الكابتن، ولم يتوقّف عن الشتم لأنّه أُرسل إلى هنا ليحرس هؤلاء المجرمين.

ـ كذا وكذا في فرج أمّه ذلك الذي يحرمني من النوم، راح يشتم بلهجته، لهجة أهالي شمالي جيانغسو. كان يُلقي على كتفيه معطفًا عسكريًّا فضفاضًا ويدور حول الإشارة الجيوديزيّة.

أمرني: اصعد وتحقّق ماذا هنالك. فانتزعت سترتي المبطّنة وتسلّقت. عند منتصف الطريق، كانت الريح تعصف بقوّة وركبتاي ترتجفان. ملقيًا نظرة نحو الأسفل، شعرت أنّ ساقيّ الواهيتين ستخونانني. كانت تلك سنة المجاعة. في القرى المجاورة، كان الناس يموتون جوعًا. في المزرعة، كان الوضع أفضل قليلاً. فما زرعناه من البطاطا الحلوة والفستق تكدّس في الأهراء. اقتطع الكابتن قسمًا من الغلال لم يسلّمه إلى رؤسائه. كانت الحصّة المحدّدة لكلّ واحد منّا مضمونة. وبالرّغم من أنّ بعضنا أُصيب بالاستقساء، إلاّ أنّنا ظللنا قادرين على العمل. لكنّي كنت أضعف من أن أتسلّق هذا العمود.

ناديت: كابتن!

هتف: قل لي ماذا هنالك في القمّة؟

رفعت رأسي.

قلت: لكأنّ كيسًا معلّقًا!

تراءت النجوم أمام عينيّ.

صرخت: لم أعد أستطيع الصعود.

إذًا فليحلّ أحد مكانك! وبدأ يكيل الشتائم واحدة تلو أخرى.

وإن لم يكن سيّئًا في عمق كيانه.

نزلت.

قال: اذهبْ وأحضر «الحرامي».

«الحرامي» كان هو أيضًا خاضعًا لإعادة التأهيل، وهو عفريت صغير في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر؛ كان قد سرق محفظة نقود أحد الركّاب في الباص. لذا لُقّب بالحرامي.

وجدته. نظر إلى الأعلى وتردّد. غضب الكابتن.

هل أرسلك إلى الموت؟

قال «الحرامي» إنّه خائف من السقوط.

أمر الكابتن بأن يُعطى حبلاً ثم أضاف أنّه سيُحرم من حصّته الغذائيّة لثلاثة أيّام إذا لم يتسلّق!

علّق «الحرامي» الحبل إلى خصره وتسلّق. في الأسفل، كنّا نتصبّب عرقًا خوفًا عليه. حين وصل إلى ثلثي المسافة، علّق حبله إلى القضبان الحديديّة. وصل إلى القمّة. واصل سرب الغربان التدويم فوقه فطردها بيده، ثم طار كيس من القنّب إلى أسفل الإشارة. ورأينا جميعًا، الكيس المنخور بثقوب أحدثها الغربان كان لا يزال مليئًا حتى نصفه بالفستق!

كذا، وكذا بأمّك! عاود الكابتن شتمه. دُعي الجميع إلى التجمّع!

دوّى صوت صفّارة. حسنًا، تجمّع عام. وبدأ الكابتن تأنيبه. ثم سأل: من فعل هذا؟ لم يجرؤ أحد على التفوّه بكلمة.

لا يستطيع الكيس أن يطير وحده إلى فوق، أليس كذلك؟ ظننت أنّها جثّة ميت!

لجمنا أنفسنا جميعًا عن الضحك.

إذا لم يعترف أحد بفعلته فسنقطع المؤونة عنكم جميعًا.

كان الجميع يخشى هذا. رحنا نتبادل النظرات. وأخيرًا، أيقن كلّ واحد منّا أنّ «الحرامي» وحده يستطيع تسلّق الإشارة. اتّجهت الأنظار صوبه. يخفض رأسه، ثمّ لم يعد بوسعه تمالك نفسه فخرّ ساجدًا على ركبتيه وأقرّ بأنّه سرق الكيس وخبّأه عاليًا بحجّة أنّه خاف أن يموت جوعًا.

هل استعملت الحبل؟ سأل الكابتن.

لا.

إذًا، ما هذه الأخاديع التي تختلقها؟ فليُحْرَم هذا الوغد المنحطّ من الطعام لمدّة يوم كامل! قال الكابتن.

وافقه الجميع.

وشهق «الحرامي» بالبكاء.

وابتعد الكابتن يقفز على رجل واحدة.

جاء صديق آخر ليقول لي إنّ لديه قضيّة مهمّة جدًّا يريد التحدّث معي بشأنها.

حسنًا، هيّا.

يقول إنّ الرواية ستطول.

أطلب منه أن يختصر.

يقول إنّه حتى لو اختصر، فعليه الانطلاق من البداية.

حسنًا، هيّا!

يسألني هل أعرف ذاك الحرس الإمبراطوري لذاك الإمبراطور المنشوري وذكر لي اسمه الإمبراطوري واسم عهده، وكذلك، اسم رئيسه ولقبه. يقول إنّه المتحدّر مباشرة من الجيل السابع لهذا النبيل. أصدّق كلامه ولم يفاجئني إطلاقًا أن يكون سلفه مجرمًا، أم وزيرًا موقّرًا في البلاط، فهذا لا عقبى له البتّة في زمننا.

بلى، قال لي، هذا يتّصف بأهميّة كبيرة. مكاتب التحف، المتاحف، مكاتب الأرشيفات، المفوضيّة السياسيّة الاستشاريّة للشعب، بائعو التحف،.. كلّهم جاؤوا لرؤيته ولم يكفّوا عن إزعاجه بالأسئلة.

سألته إن كان لا يزال في حوزته بعض الذخائر النفيسة.

أنت بعيد عن الحقيقة.

هل تملك كنزًا لا يقدّر بثمن؟

سواء كان يقدّر بثمن أم لا، لا يعرف لأنّه يستحيل في جميع الأحوال تقديره. ربّما قُدّر بالملايين أو بعشرات الملايين أو ببضع مئات الملايين. قال لي إنّ الأمر لا يتعلّق بتحفة أو تحفتين بل بأدوات برونزيّة طقوسيّة لسلالة شانغ، وتحف من اليشم وسيوف ترقى لعهد الدويلات

المتحاربة، وهذا بالإضافة إلى أوانٍ نادرة وثمينة تعود إلى العهود القديمة ومخطوطات ولوحات وكتابات قادرة على ملء متحف بأكمله. وهناك مصنّف بهذه الموجودات نُشر منذ زمن بعيد ويتضمّن أربعة أجزاء مجلّدة على الطريقة التقليديّة. ويمكن الاطّلاع عليها في مكتبة الكتب القديمة. هذه الكنوز التي تكدّست لمدّة سبعة أجيال منذ مئتي سنة، منذ عهد تونغتشي لا تزال محفوظة حتى أيّامنا!

أقول له إنّني لا أستغرب أن تُحفظ لكنّي بدأت أخشى على سلامته الشخصيّة.

يقول إنّه ليس لديه ما يخشاه من هذه الناحية، لكنّه لم يعد قادرًا على العيش بسلام لأنّ عائلته وهي عائلة كبيرة وذرّيّة أجداده وذرّيّة أبيه وأعمامه وجميع أقربائه لا يكفّون عن المجيء لرؤيته. والمشاجرات لا تنتهي لقد سئم كلّ هذا.

هل يريدون القسمة؟

يجيب بأنّهم ليس لديهم ما يتقاسمونه. فهذه العشرات الآلاف من المحفوظات الثمينة من الذهب والفضّة، وهذه الخزفيّات وجميع محتويات الثروة العائليّة أُحرقت أو نُهبت مرّات عديدة، إمّا على يد التايبينغ وإمّا من قبل اليابانيين أو أسياد الحروب على اختلافهم. وفي ما بعد استجمعها أجداده ومنحوها إمّا للدولة وإمّا باعوها على حسابهم. وفي مرّات أخرى صودرت منهم. الآن، لم يتبقَّ شيء واحد منها.

ما سبب هذه المشاجرات إذًا؟ لم أفهم جيّدًا ما يرمي إليه.

لكنّ هذا ما دفعني لأقول لك إنّه يجب سرد القصّة من بدايتها، أجابني وقد عبّرت ملامحه عن عذابه الداخلي. هل سمعتَ بالمقصورة التي تحوي صندوق الذهب وبارافان اليشم؟ بدا عليه أنّه يضرب هذا المثل على سبيل الصدفة، لكنّه بالطبع يُشير إلى الاسم الحقيقي لهذه المقصورة الحافلة بالكنوز. واسمها مدوّن في كتب التاريخ والحوليّات المحلّيّة، وفي سجلاّت أجداده، وفي كلّ مكان، وهو معروف اليوم من كلّ العاملين في قطاع التحف العائدة إلى مسقط رأسه في الجنوب. قال إنّه حين دخل جيش التايبينغ إلى المدينة وأحرقها، كانت المقصورة قد أُفرغت، ونُقلت معظم محتوياتها إلى أملاك عائلته في اللحظة الأخيرة، واحتُفظ بها سرًّا، كما أُشيع دومًا. أسرَّ له والده السنة الفائتة، أي قبل وفاته بقليل، بأنّ هذا الكنز مدفون فعلاً في بيت عائليّ قديم، لكنّه لا يعرف تحديد مكانه. كشف له فقط أنّ أجداده أورثوه ديوان قصائد مكتوبة بخطّ اليد، وفي هذا الديوان رُسمت بالحبر الأسود الخريطة الشاملة لبيتهم القديم المزدان بالسطيحات والمقصورات والحدائق والتلال الاصطناعيّة. في إحدى زوايا الديوان، دُوّنت قصيدة من أربعة أبيات تشير سرًّا إلى المكان الذي دُفنت فيه الكنوز. لكنّ ديوان القصائد استولى عليه الحرس الأحمر عندما داهموا بيته ولم يجد له أثرًا بعدما أُعيد إليه الاعتبار من قبل السلطات. كان أبوه العجوز قادرًا على تلاوة هذه الأبيات، ورسم له من ذاكرته خريطة البيت القديم. فحفظها عن ظهر قلب وأكبّ منذ مطلع هذه السنة يبحث عن الموقع، لكن حاليًّا بُنيت فوق أنقاض المنزل القديم مبانٍ إداريّة أو سكنيّة.

ماذا بإمكاني أن أقول له ما دام كلّ شيء مدفونًا تحت هذه المباني!

لا، لو كانت الكنوز موجودة تحت هذه المباني لكانوا اكتشفوها وهم يحفرون الأساسات، لا سيّما أنّ الإنشاءات الحديثة تتطلّب وضع قنوات وتستوجب أعمال حفر عميقة في الأرض. حينئذٍ ذهب للاستعلام لدى الوكالات التي التزمت أعمال البناء. قالوا له إنّهم لم يعثروا على أيّة آثار قديمة خلال أعمالهم. لقد درس مطوّلاً هذه الأبيات الأربعة ودرس بتعمّق خارطة المكان. ويستطيع التأكيد أنّ هناك ثمانية أو تسعة حظوظ من أصل عشرة في أن يكون المكان الذي يوجد فيه الكنز في المساحة الخضراء المزروعة بين المبنيين.

وكيف تنوي أن تتصرّف؟

يقول إنّه جاء ليتباحث معي في هذا الأمر بالذات.

أسأله هل هو بحاجة إلى المال تحديدًا.

لا ينظر إليّ بل يتأمّل عبر النافذة أشجارًا صغيرة عارية.

ماذا يسعني أن أقول لك؟ بمعاشي ومعاش زوجتي، لدينا فقط ما يكفي لتربية ابننا وتوفير الطعام. لا يمكنني القيام بنفقات إضافيّة لكنّي لا أستطيع أن أبيع جدودي هكذا. سأحصل على مكافأة بالتأكيد لكنّ هذا لن يكون شيئًا على الإطلاق.

أقول له إنّ هذا سيشكّل خبرًا في الصحف: ذاك المتحدّر من الجيل السابع لهذا المتنفّذ أو ذاك وهب كنوزه إلى الدولة ونال هذه المكافأة أو تلك تقديرًا لهبته.

يضحك بمرارة ويقول إنّ القاصي والداني من أقاربه سيتهافتون ليقتسموا معه هذه المكافأة. الأمر لا يستحقّ العناء. يعتقد أنّ الدولة هي التي ستغتني بعد أن تستأثر بهذا الكنز.

فعقّبْتُ على كلامه: مع كلّ هذه الذخائر التي كُشف عنها هل أصبحت الدولة أغنى؟

يهزّ رأسه ويقول إنّه يفكّر أيضًا ماذا لو أُصيب بمرض خطير أو توفّي جرّاء حادث سيّارة فإنّ أحدًا لن يكون على علم بمكان الكنز.

حسنًا، أورثْ هذه الأبيات الأربعة لابنك.

فكّرت بالأمر أيضًا، لكن ماذا لو أساء التصرّف وباع كنوزه؟

ألا يمكنك السهر عليه؟

ابني لا يزال صغيرًا ، يجب أن ندعه يكمل دروسه في جوّ من الهدوء. يجب علينا ألاّ نشغل بال ولدنا القاصر بهذه القصّة العبثيّة كما حصل معي. يرفض هذه الفكرة رفضًا باتًّا.

حسنًا، دع الأمر في عهدة المنقّبين عن الآثار اللاحقين. ماذا بإمكاني أن أقول له؟

بعدما أمعن في التفكير، ضرب فخذه براحة يده ثم صرّح: حسنًا، لنفعل وفق ما تقول. لتبقَ الكنوز مدفونة! ثم نهض ومضى.

جاء صديق آخر لرؤيتي، بمعطفه الجديد المصنوع من الصوف ذي النوعيّة الجيّدة، وحذائه الجلديّ الأسود اللامع المخرّم بشكل مرهف، بدا شبيهًا بموظّف إداري يقوم بزيارة بلد أجنبي.

عندما خلع معطفه، قال لي بصوت قوي إنّه أثرى بعدما تعاطى أعمال التجارة! إنسان اليوم لم يعد كإنسان الأمس! تحت معطفه، كان يرتدي بذلة متقنة الخياطة ذات قصّة مستقيمة، وقد عقد حول القبّة المتخشّنة لقميصه ربطة عنق مزدانة بأزهار حمراء. وهكذا بدا أشبه بمندوب لشركة أُنشئت في بلد أجنبي.

سألته ألا يخشى من البرد في الخارج بهذا اللباس.

قال لي إنّه لم يعد يستقلّ الباصات المزدحمة بل جاء في التاكسي، وإنّه هذه المرّة مقيم في «فندق بكين». ألا تصدّقني؟ هذه الفنادق الكبيرة لا يرتادها إلاّ الأجانب من أصحاب المقامات الرفيعة. ولوّح بمحفظة مفاتيح مزدانة بكرة نحاسيّة نقشت عليها كتابة بالإنكليزيّة.

أقول له إنّه عندما نغادر فندقًا، يفترض أن نسلّم مفتاحه لمكتب الاستقبال.

فقال لي بلهجة ساخرة: عندما يعتاد المرء على الفقر، يحتفظ دومًا بمفاتيحه معه. ثم راح يتأمّل غرفتي.

كيف بإمكانك العيش في هذه الغرفة الوحيدة؟ احزر كم غرفة يحتوي منزلي.

أقول له إنّي لا أستطيع أن أحزر.

ثلاث غرف، بالإضافة إلى غرفة الجلوس، في بكين، أي ما يعادل مسكن رئيس قسم أو رئيس مكتب. أنظر إلى وجنتيه الحمراوين،

الحليقتين جيّدًا، لم يعد يشبه الرجل النحيل والمهمل الذي عرفته في الرّيف.

قال: لا تملك تلفزيونًا بالألوان! هل هذا معقول؟

أعلمه أنّني لا أشاهد التلفزيون.

حتى لو لم تكن تشاهده، فهذا ضروري للديكور، في منزلي لديّ جهازان، الأوّل في الصالون والثاني في غرفة ابنتي. زوجتي وابنتي تشاهد كلٌّ منهما برنامجًا مختلفًا. ألا تريد أن تشتري جهازًا ملوّنًا. سأرافقك في الحال إلى «المخزن الكبير» وأشتري لك واحدًا! أتكلّم معك صادقًا. ينظر إليّ محملقًا بعينيه.

تخشى أن يحرق لك المال أصابعك.

لكي تثرى عليك أن ترشو الموظّفين الإداريّين. لا يأكلون إلاّ من هذا الخبز. لا تريدهم أن يحدّدوا لك خطّة تلتزم بها أو معايير ترتكز إليها، أليس كذلك؟ الجميع يقدّم الهدايا... لكن أنت، أنت صديقي! هل تحتاج إلى المال؟ أستطيع أن أؤمّن لك حتى حدود العشرة آلاف يوان. اتّكل عليّ. ما من مشكلة.

أحذّره: لا تنتهك القانون.

أنتهك القانون! أكتفي بتقديم بعض الهدايا إلى رؤسائي. لست أنا من ينتهك القانون، إنّهم هم الذين يجب اعتقالهم!

الرؤساء، لا يمكن اعتقالهم.

هذا أمر تعرفه أكثر منّي، أنت تسكن في العاصمة، تعرف كلّ شيء!

لكنّي أحذّرك، اعتقالي ليس سهلاً، ضرائبي، أدفعها، وأتناول الطعام إلى طاولة رئيس المقاطعة ومدير مكتب التجارة الإقليميّة. انتهى الزمن الذي كنت فيه معلّم مدرسة في بلدة بالضاحية. أردت أن يتمّ نقلي من الريف حيث كنت أتعفّن. توجّب عليَّ، على الأقلّ، أن أنفق ما يوازي أربعة مرتّبات لإقامة الولائم للمسؤولين عن المكتب التربويّ.

مغضّنًا عينيه، يتراجع خطوة ويحني قامته ليتفحّص بتمعّن لوحة مرسومة بالحبر تمثّل منظراً ثلجيًّا. يحبس أنفاسه لبرهة، ثم يلتفت إليّ قائلاً: ألم تكن تعجبك لوحات الخطوط المنمّقة التي كنت أنجزها؟ كنت تقدّرها حقّ قدرها؛ لكنّي لم أستطع أن أحظى بالموافقة على إقامة معرض بشأنها في مركز المقاطعة الثقافي، فيما لو أنجز أحد المعروفين أو الذين يتبوأون مراكز عالية لوحة خطوط منمّقة، أيًّا يكن مستواها، فهذا يُتيح له إقامة معرض، لا بل من الممكن أن يرتقي إلى رتبة نائب الرئيس أو رئيس شرف لمعهد الخطّ الفنّيّ!

أسأله إذا كان يتابع عمله كفنّان خطّاط.

هذا لا يُطْعِم خبزًا. هذا يشبه عملك في الكتابة. إلاّ اذا أصبحت ذات يوم مشهوراً ويأتي الجميع إليك ويتوسّلون بكافّة الوسائل لكي يطلبوا منك إنجاز لوحة خطوط جميلة. المجتمع يريد هكذا. الآن فهمت.

هذا لا يحتاج إلى شرح.

لكنّ هذا يغيظني!

إذاً لم تفهم بعد. أقاطعه لأسأله إذا كان قد تناول طعامه.

لا تهتمّ بهذا. بلحظة أتّصل بتاكسي فيصطحبك إلى المطعم، المطعم الذي تشاء. أعرف أنّ وقتك ثمين. لكن بداية أريد أن أقول لك ما جئت أساسًا لقوله: أريدك أن تساعدني.

أساعدك في ماذا؟ قل!

تساعدني في إدخال ابنتي إلى جامعة شهيرة.

لست عميد الجامعة، أقول له.

بالطبع، لكن لديك معارفك، أليس كذلك؟ صحيح أنّني صرت ثريًّا الآن لكن بنظر الناس لست إلاّ مضاربًا يعمل في التجارة. لا أريد لابنتي أن تعيش الحياة نفسها التي عشتها. أريد إدخالها إلى جامعة معروفة، لكي تلتحق في ما بعد بالطبقات العليا من المجتمع.

وأن تعثر على ابن أحد الموظّفين الإداريّين الكبار؟

هذا، لا أهتمّ به، فهي تعرف كيف ستتدبّر أمرها.

وإذا لم تعثر على هذا الزوج؟

لا تقاطعني، هل تريد مساعدتي أم لا؟

ينبغي الاطّلاع على نتائجها المدرسيّة، قبل الشروع بأيّ إجراء.

نعم، لقد أحرزت نتائج جيّدة.

حسنًا، ما عليها إلاّ أن تخضع للامتحان.

يا لك من متخلّف! أوَتعتقد أنّ أبناء الكوادر العليا يخضعون لهذه الاختبارات؟

لم أتقصّ عن الموضوع.

أنت كاتب.

وإن يكن؟

أنت ضمير المجتمع، عليك أن تكون الناطق باسم الشعب!

كفّ عن المزاح. هل أنت ممثّل الشعب؟ أم أنا؟ أم «نحن» كما يزعمون؟ لا أكتب إلاّ لنفسي.

ما أحبّه فيك هو أنّك دومًا تقول الحقيقة.

هذا أكيد، يا صديقي القديم، ارتدِ معطفك ولنخرج لتناول الطعام، أنا جائع.

أحدهم يقرع على الباب. أفتح، لا أعرف الرجل الواقف أمامي. يحمل كيسًا من البلاستيك الأسود. قلت له إنّي لا أشتري بيضًا وإنّي خارج لتناول الطعام.

لا يبيع بيضًا. يفتح كيسه ليظهر لي ما في داخله. ليس هناك سلاح داخله. حسنًا، إنّه ليس لصًّا فارًّا من وجه العدالة. مرتبكًا، يخرج

مخطوطة ضخمة ويقول لي إنّه جاء لرؤيتي من أجل استشارة أدبيّة. كتب رواية ويريدني أن ألقي نظرة عليها. أدعوه للدخول.

يرفض عرضي، يريد أن يترك مخطوطته ثم يعود ليستمع إلى رأيي في يوم آخر.

أقول له إنّ الأمر لا يستحقّ العناء. من الأفضل أن نقول توًّا ما يتوجّب علينا قوله.

يفتّش بيديه الاثنتين في كيسه وينتشل علبة سجائر. أمرّر له علبة الكبريت راجيًا في سرّي أن ينهي سيجارته بسرعة ويذكر بسرعة ما يريد قوله.

يقول لي، وهو متلعثم، إنّه كتب قصّة حقيقيّة...

أقاطعه موضحًا له أنّني لست صحافيًّا ولا أهتمّ بالحقيقة.

ممعنًا في التلعثم، يقول لي إنّه يعرف أنّ الأدب ليس شبيهًا بالتحقيقات الصحافيّة. ما كتبه رواية فعليّة تستند إلى وقائع وشخصيّات حقيقيّة مع ما يتطلّبه الأمر من خيال. يتمنّى أن أقول له إذا كانت هذه الرواية جديرة بأن تُنشر.

أقول له إنّي لست ناشرًا.

يقول إنّه يعرف جيّدًا هذا، وإنّه أراد فقط أن أوصي به لدى أحد الناشرين، وأن أصحّح له أيضًا مخطوطته. إذا وافقت، يستطيع عندئذٍ أن يضيف اسمي إلى كتابه، سيكون هذا أشبه بتعاون أدبيّ. وبالطبع سيكون اسمه مذكورًا بعد اسمي على الغلاف.

أقول له إنّ اسمي قد يقلّل من حظوظ نشر روايته.

لماذا؟

لأنّني أجد صعوبة كبرى في نشر أعمالي بالذات.

امتثل لما أقوله معبّرًا عن فهمه مغزى كلامي.

ورغبة منّي في إبلاغه أنّه قد أخطأ الفهم، أشرح له أنّه من الأفضل أن يجد هو نفسه ناشرًا.

صمت محتارًا.

وأسأله بودّ: هل بإمكانك استعادة مخطوطتك؟

فيردّ عليّ قائلاً وهو يحملق بعينيه: هل بإمكانك عرضها على أحد الناشرين؟

من الأفضل أن ترسلها مباشرة إلى دار نشر، فهذا يجنّبك المشاكل، وارتسمت على شفتيّ ابتسامة عريضة.

يضحك هو أيضًا. يعيد وضع مخطوطته في كيسه ويغمغم ببعض كلمات شكر.

لا، أنا من يتوجّب عليّ أن أشكره.

أحدهم يقرع على بابي من جديد، لكن لا نيّة لديّ بأن أفتح.

الفصل الثمانون

لاهثًا، مواجهًا ألف مشقّة، تتقدّم خطوة خطوةً نحو صفحة الجليد. النهر المتجمّد الأخضر الزمرّدي قاتم وشفّاف. تحت الجليد ترتسم عروق ضخمة من الجاد، سوداء وخضراء منسابة كأفعى.

تتزحلق على المسافة اللامعة، يجمّد البرد خدّيك، مكعّبات الثلج التي تكتشفها أمام عينيك تتموّج بألف وهج. البخار المتصاعد من فمك يتجمّد تلقائيًّا فوق حاجبيك. تشعر بالوحدة الموحشة وسط هذه البقعة من الجليد التي تحيط بك.

مجرى النهر محدّد المعالم تمامًا. صفحة الجليد اتّسعت شيئًا فشيئًا بسرعة يستحيل قياسها، بضعة أمتار أو بضع عشرات من الأمتار سنويًّا.

تتّجه صعدًا في بقعة الجليد، كأنّك حشرة ستتجمّد عمّا قريب من شدّة الصقيع.

أمامك، في الظلّ الذي لا تستطيع الشمس بلوغه، ينتصب حائط من الجليد تكنّسه الريح، وعندما تعصف بسرعة تتعدّى المئة متر في الثانية فإنّها تصقل هذا السور الأملس تمامًا.

بين جدران مكعّبات الجليد هذه، تبقى جامدًا، عاجزًا عن التنفّس. يخترق البرد جسدك حتى يبلغ رئتيك، دماغك شبه متجلّد، لم يعد بإمكانه التفكير، فهذا البياض التامّ، أليس الحالة التي كنت تسعى إلى بلوغها؟ حالة مماثلة لهذا العالم الجليديّ المكوّن من صور غامضة، متشكّلة من ظلال يستحيل تحديدها خافية الدلالة والمعنى: إنّها الوحدة المطلقة.

عند كلّ خطوة توشك على السقوط، لا بأس، تتابع زاحفًا، منذ زمن طويل انعدم إحساسك بقدميك ويديك.

فوق الجليد، تزداد طبقة الثلج رقّة، ولا تعلق إلاّ في الزوايا في منأى عن الريح، الثلج صلب، لدونته على السطح محتواة داخل صدفة الجليد القاسية.

عند قدميك، في الوهد، يحلّق نسر، إنّها حياة أخرى عدا حياتك، لا تعرف إذا كان الأمر سرابًا فقط، المهمّ هو أنّك لا زلت تتمتّع برؤية الأشياء المحيطة بك.

تتّجه صعدًا وأنت تجوب المكان فتدور ثم تنعطف، لكن بين هذه الدورات والانعطافات، بين الحياة والموت، لا زلت تتخبّط، لا زلت موجودًا لأنّ الدم يجري في عروقك، لا زلت على قيد الحياة.

في هذا الصمت الهائل، يبدو لك وكأنّك تسمع صوتًا بلُّوريًّا، صوت جُريس خافت وكأنّ أحدهم يضرب على الجليد.

غيوم بنفسجيّة تتشكّل على صفحة الجليد منذرة بالعاصفة التي توشك على الهبوب، وأطراف الغيوم الممزّقة تنذر بعتوّها.

صوت الجريس الذي يزداد جلاء يوقظ المشاعر في قلبك المنقبض. ها هي امرأة تمتطي ظهر حصان. رأس الحيوان وطيف المرأة يبرزان من وراء الأفق المثلج. خلفهما تمتدّ هاوية قاتمة. يبدو لك أنّك تسمع غناء مصحوبًا بجلاجل الحصان.

من شنغدو، جاءت المرأة.

على رأسها جديلة ناعمة مثل خيط حرير.

في أذنيها أقراط فيروزيّة.

في يديها أساور فضّة تبرق بألف وهج.

تشدّ خصرها بحزام ملوّن..

تذكر أنّك رأيت، في ما مضى، عندما كنت مسافرًا في «جبل الثلج العظيم»، امرأة من التيبت راكبة على الحصان. كانت تمرّ أمام الإشارة الجيوديزيّة الواقعة إلى جانب الطريق الرئيسيّة المشيرة إلى ارتفاع المكان: خمسة آلاف وستماية متر. ضحكت وهي تُدير رأسها صوبك. حاثّة إيّاك على اختراق الهاوية القاتمة، وفي تلك اللحظة لم تستطع الامتناع عن التقدّم نحوها..

لكنّها الذكريات، صوت الجلجل في داخلك، وكأنّه يطنّ فوق جبينك، الألم الذي يمزّق رئتيك لا يُحتمل، قلبك يخفق كالمجنون، رأسك سينفجر. وعندما يتجمّد الدم في عروقك فسينفجر رأسك بصمت. الحياة هشّة لكنّها تصارع الموت بقوّة، ذاك عناد غريزيّ.

تفتح عينيك، النور يبهرك، لا ترى شيئًا، توقن فقط أنّك تواصل الزحف، صوت الجلجل المزعج لم يعد إلاّ ذكرى بعيدة، فكرة مبهمة، مثل بريق لامع في الجليد، نور شاحب يعوم في الفضاء، تاركًا أثره في شبكيّة عينيك، تحاول جاهدًا التعرّف على ألوان قوس قزح، تتعثّر، تدوّم، تعود على أعقابك، فقدت القوّة على ضبط حركاتك، كلّ شيء مجرّد جهد ضائع، رغبة غامضة، رفض الاختفاء، ثقب أسود، محاجر جمجمة، نفق عميق، لا شيء، لحن ناشز، تشقّق، انفجار.

... صفاء غريب، كلّ شيء نقيّ للغاية، خفّة عصيّة على التحقّق، موسيقى صامتة تغدو شفيفة، منسّقة، مغربلة، نقيّة، لكنّك تعوم أثناء سقوطك، خفيفًا، ما من ريح، لا حاجز، مشاعرك عميقة، جسدك يستشعر نضارة. تستغرق بكلّ كيانك في الإصغاء لهذه الموسيقى التي لا شكل لها لكنّها مالئة الهواء. شفّ نسيج عنكبوت ذكرياتك لكنّه لا يزال ماثلاً تمامًا أمام عينيك، ناعمًا كشعيرة، أشبه بشقّ امّحى طرفاه في الظلمة، فاقدًا شكله مشتّتًا، ثم يغدو خيطًا رهيفًا من الضوء ليتحوّل أخيرًا إلى نثار غبار لا متناهٍ غامر، والضوء يتجمّع في أطراف الغيوم الممزّقة المبينة. النور يخترقها، ثم يتنقّل، متحوّلاً إلى سديم أشبه بضباب ليتغيّر أيضًا ويتجمّد فيصبح شمسًا مستديرة قاتمة ترسل شعاعًا أزرق، شمسًا داخل الشمس ثم تميل الشمس إلى البنفسجي، ثم تنفتح. يتجمّد قلبها، تصبح حمراء داكنة، مرسلة نورًا عميمًا قرمزيًّا. تغمض عينيك لكي تمنع أشعّتها من بلوغك لكنّك لا تستطيع، الارتعاشات والرغبات تصّاعد من قلبك، على حافّة الظلمات، تسمع الموسيقى، هذا الصوت المتّخذ شكلاً يتّسع، يتمطّى، يخترقك، يستحيل عليك معرفة مكانك. هذا الصوت

البلّوري الحادّ يجتاح جسدك من كلّ مكان، وتمتزج به ذبذبة أكثر إيجازًا لكنّك لا تستطيع الإمساك بإيقاعها، تدرك ارتفاعه متّصلاً بصوت آخر يمتزج به. وتنتشر الأصوات، تصبح نهرًا يختفي ويظهر، يظهر ويختفي. الشمس الزرقاء القاتمة تدور في قمر أشدّ قتامة منها بعد. تحبس أنفاسك وتكفّ عن التفكير، فقدت تنفّسك، تصل إلى منتهى حياتك، لكنّ الأمواج الرنّانة تزداد قوّة وتغمرك وتدفعك إلى الذروة. نشوة ذهنيّة كاملة، على مرأى منك وفي قلبك وفي جسدك الذي لا تعرف في أيّة زاوية منه تسكن، انعكاس الشمس في القمر القاتم. ضوضاؤها تتدفّق بازدياد، تكبر وتكبر وتكبر، وتتّسع وتتّسع وتتّسع وتنفجر. ومن جديد الصمت المطلق، تغرق في ظلمة أشدّ صفاقة، تشعر دومًا بخفقان قلبك، بالألم الجسدي، بالخوف الصُلب أمام موت هذا الجسد الحيّ، هذا الجسد الذي لا تفلح في هجره التأم داخل وعيه.

في الظلمة، في زاوية من القاعة، مقياس قوّة الصوت في المسجّل يومض دون وقف.

الفصل الواحد والثمانون

عبر النافذة، أرى فوق الأرض المكسوّة بالثلج ضفدعة صغيرة. تطرف بعين وتحملق بأخرى. تراقبني دون أن تتحرّك. أعرف أنّ الأمر يتعلّق بالله.

يتجلّى لي تحت هذا الشكل وينظر متحرّيًا إذا كنت فهمت.

يطرف بعينيه لكي يكلّمني. عندما يتكلّم الله إلى البشر، لا يريد أن يسمعوا صوته.

هذا لا يفاجئني، وكأنّ الأمر كذلك، وكأنّ الله كان دومًا ضفدعة بعين مستديرة تمامًا، محملقة. يا لرحمته، يا للرحمة التي يترأّف بها على رجل تعس جدير بالشفقة مثلي!

اللغة المبهمة التي يتحدّث بها من عينه الأخرى وهو يطرف بجفنه في التفاتة منه للبشر، عليَّ أن أفهمها، لكن هذا، ليس من شأنه.

أستطيع أيضًا أن أعتبر أنّ هذا الطرف بالجفن لا معنى له، لكنّ معناه يكمن ربّما بالضبط في غياب معناه.

لا مكان للمعجزات.

ليست هناك معجزة، هذا ما يقوله الله لي، أنا المتعطّش إلى معرفة الحقيقة الأزليّة. أطرح عليه السؤال:

في هذه الحالة، أثمّة شيء ما بعد يستوجب البحث؟

كلّ شيء هادئ في الجوار. الثلج يهبط بسلام. يفاجئني هذا الصمت. صمت فردوسيّ.

لا وجود للفرح، الفرح موجود نسبة إلى الحزن.

وحده الثلج يهبط بسلام.

في هذه اللحظة لا أعرف أين جسدي، لا أعرف من أين تأتي قطعة الأرض هذه إلى الجنّة... أتفحّص الجوار.

لا أعرف أنّني لا أفهم شيئًا، لا زلت أعتقد أنّني أفهم كلّ شيء.

الأشياء تجري خلفي، هناك دومًا عين غريبة تترصّدني. الأفضل هو التظاهر بالفهم.

التظاهر بالفهم، ولكن في الواقع عدم فهم شيء.

وفي الواقع، لا أفهم شيئًا، ولا أيّ شيء إطلاقًا.

هكذا تجري الأمور.

١٩٨٢ – ١٩٨٩

بكين – باريس

نبذة عن المترجمين:

لـمحة عن المترجم بسام حجّار

(١٩٥٥ - ٢٠٠٩)

شاعر ومترجم وصحافيّ وباحث.

من مؤلّفاته: كتاب الرمل، وتفسير الرخام، وبضعة أشياء.

تَرجم أعمالاً فلسفيّة واقتصاديّة وروائيّة. ومنها لكاواباتا وإيتالو كالڤينو ويوكو أوغاوا وجان أشينوز والطاهر بن جلّون.

يعتبر بسام حجّار من ألمع المترجمين العرب، إذ تتمتّع ترجماتُه بذائقة جماليّة مميّزة.

لـمحة عن ماري طوق

مواليد لبنان عام ١٩٦٣. نالت درجةً في الدراسات العليا في الأدب الفرنسيّ والترجمة، وتعمل أستاذةً في الأدب الفرنسيّ.

تَرجمتْ روايات عالميّة عديدة، منها: الجميلات النائمات لياسورناري كواباتا، والمرأة العسراء لبيتر هاندكه، والجبل الخامس لباولو كويلو.

رواية جبل الروح:

جبل الروح هي بمثابة أوديسة في ريف الصين، حيث يفتّش الكاتبُ عن جبل على حدود الخيال والحقيقة. وخلال ترحاله الدائم يروي الخفايا الإيطورية الشمانية التي لا تزال حيّة في الأذهان، والحكَم الطاويّة، وقصصًا فرديّةً حيث كلُّ شخصيّة مرآةٌ لأخرى. جبل الروح روايةُ حجّ وجوديّ وروحانيّ، ووثيقةٌ أدبيّة لا تشبه إلاّ نفسَها. إنّها سفران: سفرٌ في الصين الأبديّة، وسفرٌ داخليّ يرتقي فيه الكاتبُ بجبل روحه من خلال تعدّد الأصوات والأنواع الأدبيّة والتأمّل في الذات. وهذه الرواية تُذكّر الكتّابَ بمسعى الرومنطيقيّة الألمانيّة الهادف إلى خلق قصيدة كونيّة.

تتخذ هذه الترجمة لرواية جبل الروح قيمة استثنائية تضاف إلى أهميتها بين الأعمال الأدبية المعاصرة، كونها من آخر الأعمال التي عمل على ترجمتها الراحل الكبير بسام حجار الذي ـ إضافة إلى نتاجه الأدبي الخاص ـ أغنى المكتبة العربية ببعض أفضل الترجمات خلال العقود الماضية وأجملها، وأدخل حساسية جديدة إلى فن الترجمة، شكّلت مدرسة حقيقية يصعب تجاهلها في العالم العربي.

مكتوبةً بلغة موسيقيّة، تطالب هذه الروايةُ، المشبَّعةُ بروح الشرق الأقصى، بحصّتها من الحداثة الأدبيّة. إنّها روايةٌ أشبهُ بميلوديا مكتملة، متفلّتة من كلّ القواعد، متحرّرة من كلّ لغة خشبيّة، ولكنّها وفيّة أيضًا للتراث الروائيّ الصينيّ الجامع بين القصص الخرافيّة ومذكّرات الرهبان البوذيّين والأغاني والموشّحات الشعبيّة...

جان ـ لوك دوان ـ **Télérama**

هذا الكتاب الساحر صنيعُ رسّام وشاعر وفيلسوف. وجوهُه المتعدّدة تلتمع مثلَ مشكال باهرٍ، تَظْهر عبرَه الصينُ الأبديَّة المتوحّشة والبديعة، مع ما يتنازعها من أطوارِ دمارٍ وانبعاث.

ديان دومارجدي ـ **Le Figaro**

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب والرياضة
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة KALIMA
دار الآداب
تصميم الغلاف: نجاح طاهر